خاصة سليمان خزام

مسامرات الشعب

اكبر مجلة روائية تصويرية اجتماعية تصدر ثلاث مرات فى الشهر

﴿ لاشهر الكتاب العصريين ﴾

سنتها عشرون عددا

لصاحبها

خليل صادق

السنة الخامسة — العدد ١٠٣

السائلة الحسناء « الجزء الاول »

﴿ قيمة الاشتراك ﴾

٥٠ غرشاً صاغاً فى القطر المصرى والسودان

وثمانية عشر شلناً فى الخارج

وكل طلب اشتراك غير مصحوب بقيمته فهو غير مقبول

« ثمن العدد الواحد ٣ قروش صاغاً »

مطبعة الشعب بدرب الجماميز بمصر

خاصة سليمان خزام

مسامرات الشعب

اكبر مجلة روائية تصويرية اجتماعية تصدر ثلاث مرات فى الشهر

﴿ لاشهر الكتاب العصريين ﴾

سنتها عشرون عدداً

لصاحبها

خليل صادق

السنة الخامسة — العدد ١٠٣

السائلة الحسناء « الجزء الاول »

﴿ قيمة الاشتراك ﴾

٥٠ غرشاً صاغاً فى القطر المصرى والسودان

وثمانية عشر شلناً فى الخارج

وكل طلب اشتراك غير مصحوب بقيمته فهو غير مقبول

« ثمن العدد الواحد ٣ قروش صاغاً »

مطبعة الشعب بدرب الجماميز بمصر

السائلة الحسناء

لواضعها

الكاتب القصصي الفرنساوي الشهير

م. روبيير

ومعربها

الكاتب الناثر البليغ

نقولا رزق الله

مدير ادارة جريدتي الاهرام والبيراميد

ما كل من تلقاه يبسط كفه
مستجديا هو في الحقيقة معدمُ
كم خامل كسل يمد يداً وكم
من بائس يقضي ولا يتظلم

المعرب

الفصل الاول

الوداع الأخير

ويسول مدينة فرنساوية صغيرة لا يتجاوز عدد سكانها ثمانية آلاف نفس وتبعد عن باريس ٣٨١ كيلو متراً . وفيها موضع الحادثة الاولى من حوادث هذه السيرة العجيبة

وتبتدىء في الساعة الثامنة مساء من احدى ليالي شهر ايار (مايو) سنة ١٨٢٧ . وفي مثل هذا الوقت توصد مخازن البلدة أبوابها . ويأوى الناس الى المضاجع في نحو الساعة العاشرة مساء . شأن معظم سكان المدن الصغيرة لا كما هي الحال في باريس وقواعد البلاد . فان قهاويها وانديتها وملاعبها لا تقفل الا في نحو الساعة الثالثة بعد نصف الليل

وفي ويسول معبد يقال له معبد العذراء مريم . تقام

الصلاة فيه ليلا فى شهر ايار على عادة الكنائس اللاتينية فى ذلك الشهر حتى دعوه شهر مريم

فكان الناس يومئذ يدخلون الى المعبد ويخرجون منه افواجاً

وبين أولئك الخارجين منه فتاة طلعت طلوع السهم الى مماشى الحديقة المجاورة للكنيسة وهى رشيقة القوام ميزها الظرف وامارات للعلاء بادية على زيها وهيئتها ولولا انها محجبة وجهها بنقاب لرأى الراءون لها وجهاً فتاناً ملامحه جذابة خلابة وشعراً اشقر لامعاً كالذهب وعينين ساحرتين ساجيتين صافيتين حتى يكاد يبدو فيها فكرها الا ان الدمع يترقرق فيهما فتغشيهما منه سحابة شفافة.

وفيما كانت تبتعد موغلة فى الحديقة استعجلت فى مشيها وهى تتجنب مصادفة الناس لئلا يعرفها احد وخيفة ان تفاجأ مفاجأة شأن من يحاول اخفاء زلة اتاها. وما زالت تسير حتى تجاوزت الاشجار الاولى الى الحديقة المعروفة بالحديقة الانكليزية لضيق مماشيها و كثافة

اغصانها التى تصلح لخلوات العاشقين وملتقاهم على موعد فهناك عزلة وسكون وحفيف اوراق وهبوب نسمات وتغريد أطيار تودع ضياء النهار

فاتجهت الفتاة الى اخفى مكان حتى وصلت الى مقعد لقيت عنده رجلا ينتظر قدومها فلما رآها نهض لاستقبالها بلهفة وشوق وناداها باسمها جيلبرت فقالت لبيك ياامورى !

فتعانقا ... فتقبلا . . ثم لم يتكلما ...

وجلسا على المقعد الخشبى وكل منهما ينظر الى صاحبه على نور الكواكب الضئيل

وكانت جيلبرت بارعة الشكل يترقرق في وجهها ماء الجمال والحياء وقل أن تجد جمالا يبدو فيه الحياء والوقار معاً الا اذا نظرت فى رسوم رافائيل وموريلو من كبار المصورين.

أما أمورى فكان شابا لم يتجاوز الثلاثة والعشرين بهي الطلعة يلوح الجد والاهتمام على ملامح وجهه

وأصابهما كليهما اضطراب لذلك اللقاء فاخذا يصعدان الزفرات الى ان قال يالله ما أشد انفعالك ياجيلبرت !..

ولم يستطع اتمام كلامه فانها ارتمت على صدره تشهق بالبكاء وما لبثت ان تجلدت وتغلبت على التياعها بقوة وبسالة فقالت صبراً ياأمورى . يجب علينا الاعتصام بالصبر الجميل

فكفكف عبراته وقال سوف أجد سبيلا الى الصبر ولكن هل يردنى والداك وهل تصرمت الآمال ؟ أما من رجاء ؟

قالت لا رجاء !

قال ولكن هيهات ان اصبر على ذلك

أجابت بل ذلك أمر واجب ياأمورى

قال مالى طاقة على الصبر عنك لان فى ذلك هلاكى

أجابت قلت لك ان ذلك واجب

قال لماذا ...

ثم لم يدع لها وقتاً للكلام فقال أواه لقد كنت فى ريب مما تقولين فلم أفلح فى تسكين روعى والتغلب على قلقى وارتياعى .. انك لا تحبيننى ياجيلبرت !

تلفظ بهذه الكلمات بحدة وخشونة بدرت منه على

رغمه فامسكت يديه فجعلتهما على عينيها النديتين بدمعها فقال أنت تبكين ياجيلبرت الا عفواً وصفحاً

وترامى جاثيا وضمها الى صدره قائلا هل قضى علينا والداك بالشقاء الدائم

فكفكفت عبراتها وقالت لا تتهمهما ياأمورى فانهما يحترمانك ويحبانك وانا أقسم لك يميناً على ذلك . لكن الضرورة الجائرة حكمت على عواطفهما وعاكستهما فى ما يرغبان

قال ما معنى كلامك

أجابت لا تمضى أيام حتى يشتهر افلاس والدى

قال أصحيح ذلك ؟

أجابت نعم فان محله مشرف على الافلاس .. الا اذا.

قال فهمت فهمت فان المركيز دى سمروز ينجيه من الافلاس بثروته الواسعة

أجابت نعم فهو يساعد ابى مساعدة لولاها لهبط محله الى هاوية الخراب والعار لان الافلاس عار لا يطيقه والدى بل يموت منه بلا شك

قال اذن فخطبة المركيز لك تحسب اجرة له أو ثمناً لمساعدته اباك بالمال ؟

فلم تحر جوابا وانما طأطأت رأسها ثم قالت لقد عقدت خطبتنا بالامس ولم يكن لى سبيل الى لقائك أو الكتابة اليك

فذعر أمورى وقال نعم ومن أين لى المال ! من أين لامورى درتيل الاستاذ المسكين ان ينقذ محل المسيو برتلمى من الخسارة والهوان فخير لى ان اختفى من الوجود وانزوى فى عالم الغيب والامر من ايسر الامور !

قالت انت قاسى الفؤاد ياأمورى

اجاب لا ولكننى متألم معذب

قالت وانا متألمة معذبة لاننى اهواك

فصاح عفواً فقد ادميت فؤادى وهيهات ان اعيش مع علمى بانك صرت زوجة رجل آخر. أولست عازمة على الاقتران بالمركيز ؟

اجابت نعم واأسفاه !

ثم قالت واحسرتاه عليك ياأبى ! ... آه لقد بذل

المسكين جهده حتى يكتم عنى وعن والدتى ما ألم به من الضنك والعسر ولكننى اكتشفت سره من زمن طويل

قال امورى اتهبين نفسك لرجل لا تحبينه لكى تنقذى اباك ياجيلبرت ؟

أجابت نعم وليس ذلك فقط ولكننى لن أحب ذلك الرجل أبداً.

قال مستفهما :

أبداً ؟

اجابت لا ياأمورى وقسما بحياتى وشرفى

وقد لذّ له سماع ذلك القسم منها فضمها الى صدره كأنه يحميها ويدافع عنها ويحرص عليها ان تمد اليها يد غيره.

وفهمت معنى ذلك كله فعظم اضطرابها ويأسها

فقال لها ليتنا نفر معاً أو نموت معاً !

أجابت بل نموت معاً وندرج فى كفن واحد نتخذه من حبنا . ان فى ذلك لسعادة لنا واحسبها السعادة الحقيقية التى لانهاية لها ابداً

وهنا اطرقت تتبصر فما لبثت ان نبذت ذلك الخاطر

الشائق وقالت كلا بل ذلك جنون فلا تخاطبني عنه ياأموري . نعم سوف اتزوج المركيز دي سمروز مذعنة للواجب باذلة نفسي ضحية لاارجع فيها ابداً والآن لايحق لي ياأموري ان اصغي اليك

ووقفت وقد اشتد اصفرارها الا انها كانت ثابتة العزيمة

فصاح بها جيلبرت اني على ماجلبته الىّ من يأس لمعجب بك ايما اعجاب. ولم ارقط اكرم من هذا الخلق النبيل . والاخلاص البنوي الجميل . ولكن ويحي انا الشقي المعذب لماذا قضت عليّ التقادير بأن اخسرك ياجيلبرت آه ان التقادير ظالمة جائرة ولعنة الله عليها !

وكأنما راعه التجديف بلوم التقادير فترامى على قدميها متوسلا باكياً بعبرات حرى

فامسكت يديه وقالت لاتتهم ولا تشك ولا تلعن ولا تشتم فقد كتب لنا الشقاء فوجب علينا الاذعان والتسليم والصبر

قال اتطلبين مني صبراً على انتزاعك روحي وسحقك حياتي !

أجابت انما أسحق حياتي أيضاً ومن يدري فقد تدركنا من الله رحمة..

واذ ذاك سمعا ساعة المعبد تشير الى انقضاء ثلاثة أرباع بعد الثماني فارتعدت جيلبرت فرقاً من دنو ساعة الفراق وتمزيق الفؤاد

فقالت أما الآن فلنفترق والوداع الى الابد ...

وهمت بأن تخلص يديها من يديه فحاول امساكها قائلا مهلا ياجيلبرت واسمحي لي بدقيقة واحدة وهي الاخيرة فلا تبخلي بها عليّ !

وأخذ يسكب الدموع على كفيها وقد عجز عن الكلام وجبن وذل عند الفراق الذي لالقاء بعده فتشبث بتلك المدة القصيرة من الوقت يطيلها مااستطاع الى اطالتها سبيلا

وكان يبكي كطفل صغير. فضعضع جيلبرت ذلك الحزن الشديد وأثرت عليها عبرات رجل ابكاه الوجد فاحست بدوار كاد يصرعها ويلقيها بين ذراعيه . وكادت تمسح مدامعه وتنسى كل شيء في هذا الوجود حتى شرف

أيها غير مصغية الا الى صوت واحد هو صوت الغرام الذى ارجف منها الضلوع

لكنها تماسكت ولم تشاء وهى الفتاة الباسلة ان تضعف وتفقد عزيمتها فكان لها من الشجاعة نصيب اثنين .

فقالت خفض عليك ايها الحبيب وحذار ان يوهن الحزن قواك فالواجب المفروض علينا نحن الاثنين جلى صريح . انى باذلة هنائى فى سبيل هناء والدى لاغدو مستحقة منك هذا الهوى الشديد ولئن تقبلت هذه الضحية أيضاً كنت مستحقاً منى مثله !

فلم يجب . فاطبقت عينيها وقالت لنعتصم بالصبر ولنرض بما قسمت لنا الاقدار . فاسل عنى ياأمورى واسلك طريق المجد ودع عنك كل هوى الا حب العلاء والفخر

فرنا اليها بصبابة ووله وقال اليس من عجب الزمان ان تطلبى منى سلواً عنك وانت حبيبتى !

ان هذا كله من معاكسة الاقدار لهذا الشقى بحبك !

قالت يكفيك ان تذكر عهد ولائى كما اذكر عهد

ولائك . وفكر فى اننى احببتك ياامورى واحببتك وحدك وانى مقيمة على حبك الى الابد !

قال اناشدك الله اعيدى هذا الكلام على سمعى ففيه جبر لقلبى الكسير اعيديه على سمعى للمرة الاخيرة ! قولى انك مقيمة على عهد غرامى . برغم الماضى والاتى

اجابت نعم ياامورى ان فؤادى لايهوى اثنين ولا يهوى احداً سواك

وعطفت عليه تلثمه وتقول استودعك الله ايها الحبيب واطلب اليك ان تبقى على رمقى وقوتى لاجتاز العقبة الهائلة القائمة فى طريقى . سوف اغدو للمركيز دى سمروز زوجة امينة الا ان قلبى لك فلايمتلكه أحد سواك . فالوداع الوداع

وانفلتت هاربة وخطت خطوات وهى تائهة الرشد تقدم رجلا وتؤخر أخرى . ولم تمالك ان عادت اليه خاضعة لسلطان هواها فعانقته والزفرات تكاد تخنقها .

وبعد نحو دقيقة نهضت وانطلقت وقد امتد عليها ستر الظلام

فسقط أمورى فى مكانه وفؤاده يعالج سكرات الموت وشفتاه ترتعدان من أثر القبلة الاخيرة !

الفصل الثانى

« جناية »

عادت جيلبرت الى المعبد مسرعة وفى اذنيها صدى زفرات امورى وكلماته الناطقة بيأسه ولوعته. وقد تفطر فؤادها شفقة عليه ووجداً

غير انها اوجبت على نفسها كتمان مابها من تلك اللواعج . فجثت تصلى وتقول اللهم هب لى قوة واحتمالاً لاجرع الكاس الى آخر قطرة !

وكان لا بد لها من ملاقاة والدتها عند الخروج من المعبد ولم تدر والدتها ان ابنتها لم تكن فيه لانها شاهدتها عند مفتتح الصلاة مرنمة مع الفتيات ورأتها لاحقة بها عند ختامها فسارتا معاً الى البيت

والبيت غير بعيد عن المعبد فوصلتا بعد هنيهة الى

مخزن على بابه هذا العنوان

« برتلمى ـ جوهرى »

وبرتلمى والد جيلبرت . وكانت شرفة المخزن متألقة متلألئة بما فيها من جواهر وذهب وفضة. فقالت مدام برتلمى وهى مدهوشة واعجباً من أبيك يا جيلبرت كيف لم يقفل الشرفة حتى الساعة ؟

فاجابتها نعم فالامر عجيب وهذا باب المخزن مفتوح فلا شك ان والدى ينتظر ايابنا من المعبد

فدخلتا الى المخزن وللحال نكصتا مرعوبتين صائحتين صيحة واحدة ملؤها الذعر والجزع

فقد شاهدتا المسيو برتلمى صريعاً منبطحاً على وجهه وحوله بركة من دمه . وقد فارقته الحياة

وكان مشقوق العنق يتفجر منه الدم وعيناه محملقتان لا يزال يبدو الارتياع الشديد فى تحديقهما وقد صبغ الارض الدم حوله

فصاحت زوجته مستنجدة بالناس اما ابنته فارتمت على جثته تبكى وتلطم

فاسرع الناس وتزاحموا على الرصيف وفى اقل من لحظة غص بهم داخل المخزن واخذوا يتكلمون عن تلك الحادثة الغريبة ويعجبون من أن يقتل رجل فى بلد حافلة بالناس وفى وقت ازدحامهم . ويتساءلون عن القاتل ويعجبون كذلك من انه لم يوجد فى المخزن اثر لاكراه أو سرقة . ولم يوجد السلاح الذى قتل به الجوهرى المسكين لانه انتزع من عنقه وأخذه القاتل . على خلاف عادة القتلة الذى يتركون السلاح فى الجرح على الغالب أو الى جانب ضحاياهم

هذا وجيلبرت وأمها جاثيتان وكلما حاولت الفتاة اعادة الروح الى تلك الجثة بالمناداة والقبلات المتوالية فكانت تنادى يا ابتى أجب ندائى . ان ابنتك جيلبرت تناديك وتدعوك

الا ان فم ذلك الوالد قد انطبق الى الابد

واذا بالحضور قد افسحوا الممر لمعاون البوليس وجاء وراءه طبيب هو الدكتور موريل دعى فبادر سريعاً فكتب المعاون « المحضر » فذكر فيه مارآه واوضح

فيه ان الحانوت كان على حالته العادية

أما الطبيب فانحنى على الجثة يفحص الجرح والدم يسيل منه فقالت له زوجة الجوهرى بحقك أيها الطبيب عالجه لعله يشفى على يديك

الا ان الطبيب نهض بعد هنيهة يشير اشارة تدل على انه لا حيلة له فى شفاء قتيل

ورأت جيلبرت اشارته فقالت وامصيبتاه لقد مات أبى ! قضى الامر فلا فائدة من العلاج

فتوسلت الام الى الطبيب تقول له هل قتل حقاً ايها الطبيب ؟ فذلك محال !

فهز رأسه واجاب ان الودج (عرق فى العنق) مقطوع تماما فلا حيلة فى الشفاء

وسمع الحضور هذه الكلمات فسكتوا ولبثت الزوجة وابنتها مرتميتين على الجثة الى ان جاءت جارات فسرن معهما بلطف واكثرن لهما كلمات التعزية التى لا تفيد اذ أى كلام ينجع فى مثل هذه الفاجعة الاليمة ؟

واذ ذاك اقبل وكيل الجمهورية ونائبه والكاتب

الشرعى وقائمقام الضبطية ومحام من ردهة المحامين فى محكمة ويسول . وشرعوا فى التحقيق ودرس الحادثة وطلب الشهود ثم وصل ضابط من فرقة الخيالة فبادر اليه المسيو برترو وكيل الجمهورية يصافحه مصافحة الولاء

وهمس بعض الحضور يقولون هـذا المسيو دى سمروز خاطب الانسة جيلبرت

وكان البارون دى سمروز شابا طويل القامة قد تجاوز الاربعين لكنه لم يزل رشيق القوام فالقى نظرة على الجثة وكأنه لايبالى وما برح يفتل شاربيه ويسمع كلام وكيل الجمهورية عن الجناية ثم سأل عن مدام برتلمى وابنتها من غير ان يظهر عليه أقل انفعال أو اضطراب .

فدلوه عليهما فمضى الى الحجرة المجاورة فوجد الام وابنتها باكيتين وحولهما صديقات يحاولن تسكين حزنهما الشديد

فدنا وحيا بتكلف شديد وتناول يد الآنسة جيلبرت وقد نظرت اليه بعينين مغرورقتين بالدموع فقال بصوت

لا يكاد يبدو فيه دليل على الاسف والشفقة

نعم ان المصاب جسيم فانا ارثى لك ولوالدتك واشارككما فيه الا ان هذه الجناية لا بد من معاقبة جانيها

قالت جيلبرت وا اسفاه وهل ترد العقوبة الينا ابى.. واحسرتاه عليه فكم كانت محبته لنا شديدة ! . . .

واسترسلت الام والفتاة فى احر بكاء فقال لهما خفضا عليكما وتجلدا فاننى حاضر ولسوف اكون لكما بدلا من الفقيد العزيز فكونا واثقتين بى

ثم تركهما فى اسوإ حال من الحزن وقد اوهن قواهما كلامه ولم تجدا فيه من الولاء قدر ما وجدتا من الكبر والعظمة . وعاد الى الحانوت

وقدام المسيو برترو وكيل الجمهورية باخلاء الحانوت واقفال الباب الخارجى والشرفة حتى يتمكن رجال الحكومة القيام بالتحرى والتحقيق من غير ان يطلع احد من الخارج على مايعملون. وكان ازدحام الناس حول ذلك المشهد يضيق الصدور فتفرقوا شيئاً فشيئاً غير راضين لان فضولهم كان متغلباً عليهم

فقال قائم مقام الضبطية مخاطباً المركيز دى سمروز ماذا عسى يكون الباعث على الجناية ؟ . . والمحل غير مسروق

اجاب لعله انتقام منتقم . . .

قال الكاتب لم يكن للمسيو برتلمى اعداء

فخاطب رئيس النيابة معاون البوليس قال له ألم يلفت بصرك شيء عند وصولك الى هنا

فأجابه كلا ايها الرئيس وانما علمت ان السيدتين مدام برتلمى وابنتها وجدتا باب الحانوت مفتوحاً عند وصولهما . . . والجثة لا تزال حارة وقد تحققت ذلك بنفسى

قال وكيل الجمهورية لا شك ان الجناية وقعت قبيل ذلك

أجاب المعاون نعم قبيل اياب السيدتين اللتين ذهبتا الى المعبد فشهدتا الاحتفال بشهر مريم

قال الم تفكر فى النظر الى ما وراء المكتب لترى اذا كان أحد مختبئاً ؟

اجاب عفواً ياسيدى النائب فقد استدعيت الطبيب وحققت تحقيقاً قانونياً فى الحانوت فلم ابق فيه موضعاً لم افحصه هنا وفى الحجرة المؤدية الى الحانوت فلم اكتشف شيئاً

قال والجيران ؟ . . . ألم يلاحظوا شيئاً ؟

اجاب اننى عهدت الى السكرتير بالاستقراء . . . وها هو مقبل

وهنا دخل شاب الى الحانوت فقال له ناظر الشرطة ماذا علمت ؟

اجاب لقد كان المسيو برتلمى فى نحو الساعة الثامنة يدخن لفافة تبغ جالساً على باب حانوته وتحدث مع بعض الناس فهم يشهدون

قال ثم ماذا ؟

اجاب ثم انه بعد هنيهة وكان قد مضى ربع ساعة بعد الثامنة وآن اوان اقفال المحل دخل الى حانوته عازما على اقفاله والذهاب لينتظر زوجته وابنته فى البيت

قال هل كان يوجد فى تلك الدقيقة أحد في الشارع

او امام البيت ؟

اجاب لا

قال هل كان الرصيف خالياً من الناس ؟

اجاب نعم ايها الوكيل لكن الناس رأوا قبيل ذلك رجلا يروح ويجيء مراراً متمشيا على الرصيف المقابل ناظراً الى المخزن في اثناء سيره

قال من يكون ياترى ؟

فتردد سكرتير المعاون فى الجواب

فقال الوكيل تكلم

فدنا واسر اليه اسماً فأحس عند سماعه ذلك برعدة وبانت عليه امارات الاندهال وقال عجباً لقد كان ذلك قرب وقت اجترام الجناية !

قال السكرتير لدىَّ أيضاً خبر صغير ذلك ان البدال صاحب الحانوت المقابل ظن انه سمع صرخة لكنه لم يحفل كثيراً

وكتب الكاتب ذلك ثم قال المعاون هل يجب وضع الاختام ؟

اجاب وكيل الجمهورية لا فائدة من ذلك فلا يوجد أثر لتحطيم أو كسر

قال ألا يجدر بنا ان نسمع شهادة زوجة الرجل وابنته

اجاب دعهما الآن فان حزنهما شديد على انهما لا تستطيعان ان تنبآنا بشيء يفيد

قال المركيز دى - مروز نعم وحالتهما لا تمكنهما من سماع الاسئلة والجواب عليها

قال الوكيل فلنحترم ماهما فيه من الكآبة من الاشجان وغداً نعود الى التحقيق

وهنا سكتوا فوصل اليهم صوت البكاء والزفرات من الحجرة المجاورة

فقال المعاون لايمكن ابقاء الجثة هنا وانما يجب نقلها الى المنزل وليس من مانع مادمنا قد تحرينا مايجب

فحمل رجال البوليس الجثة وبعد خمس دقائق كانت ممدودة على فراش واوقدت حولها الشموع

وفارق رجال الحكومة والمركيز دى سمروز معهم

مكان الجناية فاتجهوا الى دار الحكومة

هذا وهاجت البلد لخبر الجناية بالنظر الى السر المحيق بها واحترام السكان للرجل المقتول

واخذوا يتداولون فى مايأول اليه التحقيق

الفصل الثالث

« القبض على المتهم »

لم يصدق المركيز دى سمروز انه انتهى من تعزية مدام برتلمى وابنتها حين فارقهما فى الساعة العاشرة مساء، لانه لم يتعود النطق بهذا اللسان لسان المؤاساة ولم يألف مشاركة المنكوبين في نكباتهم فسره انه تخلص من ذلك الواجب تخلصا سريعا

وكان هذا المركيز جافى الطباع يكره التكلم عن عواطف القلوب والأمور التى تتعلق بالشعور والوجدان ثم انه محب لذاته حبا لم يدع لسواه موضعا وهيهات ان يحزن لمتاعب الناس

نعم انه يهوى الفتاة الفتانة المحاسن جيلبرت ولكنه قلما يهمه امر قومها ولولاها لما اكترث لواحد منهم في مدة عمره

وقد أسف لمصرع الرجل الذى سيغدو حموه ولكنه أسف لم يتعد الظواهر ولا بلغ موضع السرائر وكل ما فى أمره انه احب تلك العذراء البارعة الشكل وخفق لها فؤاده القاسى خفوقا اسرع من عادته . . .

وود لو يتخذها صاحبة فلا يتقيد معها بزواج لكنه ادرك استحالة ذلك عليه حين رأى عفاف الفتاة وعرف مافطرت عليه من الاستقامة والصلاح والطهر فلم يجد بداً من خطبتها الى ابيها

واكتفى بانه فتن بجمالها فلم يحفل بدرس خفاياها والاطلاع على سر فؤادها ولا اهتم بالوقوف على علة شجنها وكان باديا غير خاف على من يراها

وهو يجهل صفاتها الادبية تمام الجهل وانما اكتفى بالظواهر وكان كسائر الذين تخدعهم تلك الظواهر فانه احب فيها جمالا جاذبا وابتسامة رقيقة وبهاء يروق النظر اليه

ولم تحسن جيلبرت فى عينيه فى ذلك المساء ولا وقعت في قلبه لانه رآها باكية العين فسره الابتعاد عنها ورأى ان وجود شخصه بين قوم حزانى إضاع لرونقه ووصمة لحسن روائه ..

ساءه بل غاظه واسخطه موت الجوهرى لانه ربما كان سبباً لتأخير يوم العرس وتأجيل الاحتفال به الى موعد بعيد

وكان المسيو برتلمى نفسه قبيل مقتله بيوم واحد قد اظهر له رغبة فى الاسراع بعقد القران اما الآن فقد ابرمه التمهل فى امتلاك تلك الفتاة الحسناء واحتمال ما عرض من واجبات مضجرة واحوال معنتة مؤلمة !

تلك معا كسات الاقدار التى جارت عليه !

ويوجد أمر آخر ساءه كذلك هو ان خطيبته كانت تذرف العبرات لاجل سواه ...

وهو معتقد انه يشرف قوم الفتاة ويعظم قدرهم لوقوع اختياره عليها دون سواها وودلو أدركت وادركوا هذه الحقيقة فوفوه حقه من المدح والاجلال الذى

يستحقه برتبته وثروته وشخصه واسمه ..

ثم أنه قد أبرمه انها لم تحفل به يوم عقد الخطبة ورأى منها جموداً حين زار والديها فجعل يظهر سخاء مدهشا ويكثر من التودد ويتخذ معها ومع قومها اساليب الكبراء والعظماء الا انه لم يفلح فى استمالة جيلبرت ولم يتغلب على كرهها اياه

فكان يقول فى نفسه سوف تتغير متى صارت مركيزة وشعرت بوصولها الى مكان رفيع وقدر جليل وذلك اذ تغدو سيدة عظيمة

أما الآن فقد اضطرم جمر حنقه حين فكر فى قيام حائل دونها وهم مزعج يمنعه من التمتع بها . فلاحت الخشونة على وجهه وبان الاستياء على ملامحه الجافية

وهو فضلا عن ذلك لا تميل اليه القلوب لما طبع عليه من الشراسة والكبر ولما فى صوته من القساوة والصرامة

فلما خرج الى الشارع اشعل لفافة تبغ وسار مستمهلا كانه يفكر ... وكانه متأفف ملول ...

وقد ضرب السكون رواقه على البلدة وخلا

ميدانها فوصل الى دار الحكومة ولم يكن فيها الا نافذة واحدة مفتوحة ينبعث منها نور هى نافذة غرفة وكيل الجمهورية . وكان يشتغل ساعتئذ فى تنظيم التحريات المتعلقة بمقتل الجوهرى

فدخل الضابط دى سمروز الى السراى وكان ذا صلات ودية مع وكيل الجمهورية تسوغ له الدخول عليه فى مثل تلك الساعة. هذا فضلا عن ان القضية تهمه لانه يكاد يكون من اسرة القتيل فليس فى زيارته ما يحسب فضولا

فلقيه الحاجب فاستأذن له فدخل على وكيل الجمهورية فنهض لاستقباله قائلا لقد سرنى الاجتماع بك الآن وكنت انوى ان ادعوك غداً لاستعلم منك عن بعض ما تهمنى معرفته فانا استعلم الآن وذلك من حسن حظى لان الاسراع فى مثل هذه القضية واجب بل هو شرط من شروط النجاح

أجاب لقد جئت بنفسى متقدما لخدمتك فأى ايضاح تطلبه منى ؟

قال اجلس أولا فاخبرك

ثم قال المركيز قبل كل شئ ارجوان تأذن لى بسؤال

اجاب حباً وكرامة

قال هل وقفت على أثر للقاتل أو للقتلة كما تبين لى من سماع محاورتك مع سكرتير المعاون ؟

أجاب لا يسهل علىّ ان أقول اننى وقفت على الاثر ولكننا اهتدينا الى بعض الدلائل

قال هل هى خطيرة ؟

أجاب اظنها كذلك

قال وهل يمكن اطلاعى عليها؟

أجاب أما الآن . فلا يوجد افتراضات قريبة الى الحقيقة ولا يحق لى اذا كشف النقاب عنها ما دامت غير واضحة تماماً الا اننى لاأظن ايضاحها يتأخر على ما اعتقد

قال دى سمروز اذن تكلم واسألنى عما بدا لك

قال وكيل الجمهورية دعنى ارتب اسئلتى كما احب . الست خاطباً للآنسة جيلبرت ؟

اجاب نعم

قال منذ كم من الزمن ؟

اجاب منذ امس

قال الم يكن لك مزاحم فى خطبتها

فدهش دى سمروز من هذا السؤال لكنه اجاب نعم ... على انى لا اكتم الامر واكثر الناس يعرفونه على ما ارى

قال صدقت ولكننى احببت ان اسمع منك مايعلمه سواك فمن يكون مناظرك

فتبسم المركيز دى سمروز منكراً تسمية وكيل الجمهورية لمزاحمه مناظراً ثم قال هو المسيو امورى درتيل استاذ فى المدرسة الكلية

قال وكيل الجمهورية مارأيك الخصوصى في المسيو درتيل؟

أجاب لارأى لى فيه .. ولا علاقة لى معه ولا شأن ولا يهمنى أمره على الاطلاق

ولاحظ وكيل الجمهورية حدة المركيز فقال وهل الآنسة جيلبرت مثلك في قلة الاكتراث له

اجاب بخشونة هذا سؤال ينبغى ان تعفينى من

الجواب عليه

قال وكيل الجمهورية متلطفا مااستطاع

اعلم ياعزيزى الضابط اننى لم الق عليك هذا السؤال الا لاعتقادى انه مفيد فى التحرى عن الحقيقة فارجو ان لاترى فيه غير هذه النية

قال وماذا عسى أجيبك فلست أعرف الا امراواحدا هو ان الآنسة جيلبرت رضيت بى خاطبا كل الرضى وبملء الاختيار والحرية ولئن فضلتنى على المسيو أمورى فليس لذلك سبب ...

قال ثق أيها المركيز ان ليس لدى مايحملنى على الارتياب بصدق خطيبتك الكريمة الخلق الحسنة السيرة ولكن يوجد امور اخرى يجب علىّ تحقيقها فى هذه القضية وآمل ان تساعدنى فى عملى

فاشار المركيز كأنه يقول اعتمد علىّ

فقال لقد علمت ان المسيو برتلمى كان واقعا فى ارتباك مالى شديد . اليس الامر كذلك ؟

اجاب نعم

قال لاشك انه كاشفك بسره

اجاب نعم كاشفنى بسره يوم خطبت اليه ابنته

قال أمنذ زمن طويل ؟

اجاب منذ اسبوع وقد اتفق لى قبل ذلك ان لقيت الآنسة جيلبرت فمال اليها قلبى وعزمت على الاقتران بها على الرغم من ان الناس كانوا يلهجون بتقرب بينها وبين المسيو درتيل

قال أحسب الناس اشاعوا ذلك عنها

أجاب لقد كنت عميلا للمسيو برتلمى من زمن طويل فلما فاتحته برغبتى ظهر لى منه انذهال يمازجه سرور شديد أقول هذا بلا كبر ولا فخر لكنه اقترح علىّ لساعته امراً

قال ماهو

أجاب لقد اطلعنى على ارتباكه المالى وكلمنى بنزاهة ضمير فلم يخف علىّ شيئاً

قال كيف كانت حالته المالية تماماً ؟

اجاب أسوأ حالة فانه كان موشكاً على الافلاس

قال وما علة هذه المصيبة التجارية التى المت به ؟

أجاب لم يكتمها عنى المسيو برتلمى فاخبرنى ان احد المحال التجارية المهمة فى باريس افلس وكانت له فيه مصالح وعلاقات وعنده سندات عليه

قال وكيل الجمهورية نعم ذلك علمته تماماً من استقصائى الخصوصى وخلاصة القول ان المسيو برتلمى كان رجلا مستقيما حسن السيرة معروفاً من كبار التجار

اجاب نعم ولولا افلاس ذلك المحل لما اصيب بالعسر

قال بل لما افلس ! . .

اجاب صدقت فانه أصيب بالافلاس وان لم يشتهر افلاسه

قال وانت ايها المركيز كنت الحائل دون اشتهاره

اجاب نعم ولما خطبت اليه ابنته اجابنى انه يتمنى الحصول على شرف التقرب منى بالمصاهرة ولكنه يرى الواجب يدعوه الى مشاورة ابنته بالنظر الى عهد سابق عقدته مع المسيو امورى درتيل

قال المسئلة فيها نظر

قال المركيز ثم اخبرنى انه غير قادر على ان يعطى

ابنته بائنة (دوطه) فلم احفل ولم ارجع عن عزمى فصرحت له في الحال بذلك

قال وكيل الجمهورية وهل درت الآنسة جيلبرت بهذا الاتفاق

أجاب نعم فى اليوم بعينه

قال اتأذن لى بابداء ماعنّ لى

أجاب بلا ريب

قال ان امورى درتيل خال من كل ثروة أما أنت فثروتك جسيمة ايها المركيز وأحسب الفتاة لما رضيت بك خاطباً كانت كذلك مفلحة في ازالة ارتباك أبيها من الوجهة المالية

أجاب أصبت فقد بلغ دينه خمسة وسبعين الف فرنك وتعهدت بقضائه ولا ازال اتعهد به ثم اننى أهب لزوجتى بعد القران مائة الف فرنك

قال هذا ماوددت معرفته والآن بقى لدىّ موضوع آخر اودّ استجلاءه

اجاب تكلم ايها الصديق

قال كيف تلقى المسيو درتيل نبأ فشله وردّه هل تدرى؟

اجاب كلا ورأيت من سلامة الذوق ان لا اتعرض لهذه المسألة ... فقد كنت اجهل الرجل قبلا ووددت ان اجهله دائماً والحكمة لا تخفى عليك ...

وهنا كان صوت المركيز يخالف ماأراد اظهاره من قلة الاكتراث لدرتيل ولمعت عيناه بشرر من البغضاء وارتعدت شفتاه

الا ان ذلك مر بسرعة البرق فلم يكد يتمكن المسيو برترو وكيل الجمهورية من ملاحظته

فقال اذن لست تدرى شيئاً من هذا القبيل ؟

اجاب كلا

قال ألم يبلغك أن المسيو درتيل استاء من تحول خطيبته عنه أو تلفظ ببعض كلمات متوعداً ؟

أجاب يتوعد من ؟

قال يتوعد المسيو برتلمى

أجاب لا ولم اسمع قط كلاماً عنه يدل على انه يرى انتقاماً من احد ولو وجب ان ينتقم لكان له ان ينتقم منى دون

غيري ... هذا ما اراه ثم انى لست أرى من جهة اخرى انه يحق له انتقام فانني لم اتصرف الا تصرف النبلاء وكل ما فعلته اعلنته من غير خبث ولا دهاء

وكأن الخاطر الذى خطر لوكيل الجمهورية جرى شوطاً فى ذهن المركيز فقال على ان هذه المسئلة لا تعنيني وعليك استجلاؤها لأنها من الممكنات

فاطرق برترو يفكر وأجاب نعم من الممكنات

قال المركيز اذن انت تتهم المسيو درتيل ؟

أجاب كلا ولكنني لا أتهم أحداً حتى الساعة فلا تلزمني قولا لم اقله أيها العزيز ! .. ان الطريق التى أسير فيها وعرة جداً واقل كلمة تكون نتيجتها خطيرة

قال كن مطمئن القلب ... فهل انتهيت من الاسئلة التي لديك ؟

أجاب نعم ولا ينبغي التلفظ بكلمة مما دار بيننا

قال سمعاً وطاعة فاستأذن الآن بالانصراف

قال وهل أنت ذاهب الى بيت خطيبتك للقيام بواجب التعزية

أجاب كلا فعندها وعند أمها صديقات يتولين ذلك

قال وارحمتاه للمسكينتين

أجاب لا يوجد من يرثى لهما أكثر منى ....

ونهض فاستوقفه المسيو برترو وقال لا تذهب وحدك فانا أصحبك حتى منزلك

قال ان لى فى ذلك الحظ الاوفر

وخرج الضابط والوالى معاً من دار الحكومة وسارا فى أحد الشوارع الضيقة فانذهل المركيز وقال الى أين تذهب بى فما هذه الطريق بطريقى

أجاب لا بأس انها دورة قصيرة ثم نصل الى الشارع الكبير ومنه نسير الى منازلنا وهذه الليلة رائقة صافية فالمشي فيها مستحسن

فوصلا الى بيت مرتفع كائن على عطفة ذلك الزقاق فقال المركيز هنا بيت اموري درتيل على ما أظن ...

فلم يجب وكيل الجمهورية فلاحظه المركيز فرآه يحدق البصر فى نافذة مفتوحة الى أن قال نعم هذا منزل اموري درتيل

فلم يتكلم المركيز لانه رأى من الحكمة ان يتنحى ويظل بعيداً عن كل مايتعلق بمناظره وانما أملى عليه ذلك التصرف كبرياؤه فأسف على ماتلفظ به

أما وكيل الجمهورية فاستمر يمشى حتي وصلا الى الموضع الذى يقصدان فافترقا

* * *

فى صباح اليوم التالى اقبل المركيز على منزل التاجر الجوهرى وطلب مقابلة الفتاة وأمها وقد صرفت المسكينتان ليلتهما فى البكاء والنحيب فاثر عليهما الحزن والسهر فاعتذر لهما عن انه لم يستطع ملازمتهما فى وقت اكتئابهما لاشتغاله بمقابلته لوكيل الجمهورية لكنه لم يتكلم عما دار بينهما كما وعد الوكيل المشار اليه

ثم قال والشىء بالشىء يذكر فهل تعلمان انهم قبضوا على المتهم ؟

فصاحت مدام برتلمى يالله ما اسرع ماتمكنوا من معرفته !

قال المركيز لقدساقوه الى النيابة منذ ربع ساعة فقط

فارتعدت جيلبرت وقالت من يكون ياترى ؟

فاجاب بلا اكتراث قائلا هو المسيو اموري درتيل

فصرخت الفتاة صرخة اليأس او صرخة المخنوق واصفرّ لونها ووقعت فى مكانها مغمى عليها

الفصل الرابع

المتهم !

اجل فقد قبضوا على اموري درتيل بتهمة هائلة رموه بها

نسبوا اليه ارتكاب الجناية وقد وافوه فى الساعة السابعة صباحاً يقرعون باب منزله وهو فى فراشه لم ينهض بعد

رجع بعد مفارقته لجيلبرت فحاول ان يشتغل لعله يلهو بالشغل عن التفكر فيها ولكنما استحال عليه ان يستجمع فكره التائه وانما كان يرى وجه الفتاة نصب عينيه يرى صورتها على الورق كلما همّ بالكتابة ويرى رسمها بين سطور الكتاب كلما اراد المطالعة

فهى امامه وهى فى كل مكان قد لزمت به فلا تفارقه دقيقة واحدة

على انها ستدعى المركيزة دى سمروز . . ولا يجوز له حينئذ ان يفكر فيها

قضى الامر وانطوى ذلك الحلم وامحى هناؤه وراحت افراحه وانطفأ ضياء الامل الذى كان مشرقا على فؤاده فبكى حتى شرق بدمعه وعظم يأسه فزفر زفرات حرى ولم يجد سبيلا الى التعزية والسلوان فكأن روحه لبست الحداد ثوبا واحاق بها الاسى فلا خلاص لها منه ولا مناص

ولم يكن حزنه على نفسه فقط وانما حزن على جيلبرت لانها عزمت على ان تتقيد سحابة العمر بزواج لا هوى فيه ولا رجاء . . .

الا ان الزواج عقوبة شديدة اذا جمع بين اثنين لا يوحدهما الحب

بل العقوبة تكون ادهى وانكى اذا كان فى فؤاد أحد الزوجين هوى آخر

ذلك ماضعضع أمورى واشقاه وذلك مامنعه من الشغل وحال دون تلهيه بالعمل عند رجوعه الى بيته وغلبه الهم حتى صرعه فى آخر الليل فاغفى قليلا عند طلوع الفجر وفيما هو راقد قرع بابه

فنهض ولبس ماتيسر وبادر الى الباب يفتحه فوجد عنده رجالا اربعة عرفهم جميعاً وهم المسيو برترو وكيل الجمهورية ونائبه ومعاون البوليس وكاتب النيابة

فتقدم وكيل الجمهورية وقال اهنا المسيو امورى درتيل استاذ المدرسة الكلية ؟

اجاب نعم ياسيدى

قال نرجو منك عذرا عن ازعاجنا اياك فى مثل هذا الوقت فان مصلحة الحكومة قضت علينا بذلك

فدهش الاستاذ وقال لست افهم معنى قولك ان مصلحة الحكومة قضت بذلك وأى شأن للحكومة معى

قال سوف تفهم

قال تفضلوا بالجلوس أيها السادة واوضحوا لى الغرض من سلوككم معى

فجلسوا فقال وكيل الجمهورية انما نحن آتون للتحرى عن مقتل المسيو برتلمى

فصاح اموری متعجبا مرعوبا ماذا تقول فهل قتل المسيو برتلمى ؟ . . . وهل سمعت جيدا

وامتقع وجهه لهذا النبأ المشؤوم لانه كان يجهله فوقع عنده وقع الصاعقة

فقال وكيل الجمهورية بلهجة لاتخلو من ارتياب وهل كنت تجهل انه قتل؟

اجاب لاازال غير مصدق حتى الساعة . . . ايقتل مثل هذا الرجل الكريم . . . آه ماهذه المصيبة . . . انى ارثى لزوجته المسكينة . . . ولابنته !

فحار وكيل الجمهورية لانه رأى فى لهجته اسفاً لا كذب فيه ولا رياء لكنه نظر الى نائبه نظرة سريعة وقال يلوح لى ان الحقيقة المحزنة ادهشتك

أجاب كلا بل ضعضعتنى ! . . .

قال ولكنى متعجب من جهلك بالجناية حتى هذا الصباح وقد شاع خبرها فى البلدة منذ مساء امس

أجاب اقسم لك أيها الوكيل على أننى كنت على جهل بها ولم اسمع بها الا فى هذه الدقيقة منك . . والآن فماذا تريدون منى ؟

قال أمر يسير جداً

قال انى مصغ اليكم ؟ . . .

اجاب انا فى حاجة الى العلم بكيفية انفاقك الوقت فى مساء امس

قال لماذا ؟

اجاب بذلك تساعدنا فى التحقيق

قال درتيل الامر من أيسر الامور فقد تعشيت في المطعم الذى اتعشى فيه كل يوم ثم . . .

وهنا تردد فلم يفت وكيل الجمهورية ملاحظة تردده فقال ثم ماذا ؟

أجاب عدت الى منزلى

قال أعدت اليه من فورك

اجاب نعم من فورى

قال فى أية ساعة ؟

اجاب فى نحو الساعة الثامنة ونصف

قال وكيل الجمهورية حذار من ان تخطىء

فتردد أمورى مرة ثانية ثم نظر ملياً الى وجه وكيل الجمهوريه . واجاب كلا ياسيدى لم اخطىء . . . فقد رجعت الى البيت قبل العشاء من فورى

قال نعم انت تعشيت فى الموعد المعتاد لك وقدرآك الذين تعشوا هناك

اجاب عجباً وهل تحريتم ذلك

قال نعم فقد تحققنا كيفيه انفاقك الوقت

فابتدره أمورى قائلا ولم ذلك وأى شأن لكم في مراقبتى وهنا خيل لامورى انه لا يزال يسمع قوله » ان مصلحة الحكومة قضت بذلك ... »

وقال وكيل الجمهورية أيضاً :

لئن كنا على وفاق بشأن الوقت الذى مضى بين الساعة السابعة والساعة الثامنة فلسنا على وفاق بشأن ما بعد ذلك

قال وكيف ذلك ؟ . وما مؤدى هذا الكلام ؟

أجاب مؤداه انك لم ترجع من فورك الى هنا كما زعمت

فانت على خطاء

قال بل أنا أوكد لكم !..

فأشار وكيل الجمهورية اشارة صارمة وقال ان تأكيدك لا يفيد شيئاً فقد دلنا التحقيق الذى قمنا به اليوم على انك لم ترجع الا فى الساعة التاسعة كما شهد جيرانك وصاحب البيت نفسه فاين كنت فيما بين الساعة الثامنة والتاسعة من مساء أمس ؟

فلم يجب امورى وعلا وجهه الاصفرار لانه بدأ يفهم المراد من ذلك الاستجواب

وأخذ يقول فى نفسه اتراهم يرتابون بى ! ... اتراهم يتهموننى بالجناية الفظيعة ؟ .. والا فما معنى استعلامهم عن كيفية استخدامى لوقتي كما هو شأنهم مع القتلة ؟

فاحس بمس جنون أصابه وخيل له انه يرى هاوية أمامه

ولقد صدق المسيو برترو فى تحريه وتحقيقه فان امورى لم يعد الى بيته الا بعد العشاء بساعة كاملة ولكن هل يستطيع ان يقول انه قضى تلك الساعة مختلياً بجيلبرت خطيبة المركيز دى سمروز ؟

تلك فضيحة وقباحة لا يأتيها من كان شهماً عزوفاً عن المنكر مثله بل ذلك جبن مستهجن ويهون عليه ان يرمى بالتهم على اختلاف انواعها وان تنزل به العقوبات التى نص عليها القانون من ان يقلد الفتاة التى مابرح يهواها قلادة خزى وعار وفضيحة وكيف يمكن ان يقدم على هذا العمل المنكر وهو يعدها المبرأة من العيوب بل يعدها فوق كل النساء طهارة وحسناً وفضيلة وعفافاً

فذكر فى تلك الدقيقة بل الثانية جيلبرت والتقاءه بها في الحديقة وضمه اياها الى صدره وتغلبها على هواها الثائر لتنقذ اباها ولثمه اياها لآخر مرة ...

ولكن وجه المسيو برترو نبهه من تلك الرؤيا وقد شعر باضطرابه وسجله عليه في ذهنه فخاطبه بلهجة جافية قائلا تكلم اين كنت فى الساعة الثامنة والتاسعة مساء انى صابر عليك حتى تتكلم ولا يذهب عنك ان جوابك ذو شأن خطير عندنا فان المسيو برتلمى قتل فى مابين الساعة الثامنة والساعة التاسعة

فصاح اموري احقاً انكم آخذون فى اتهامى! فى يعرض

اتهامى أنا ؟...

واحتبس صوته فى حلقه فقال وكيل الجمهورية ليس الامر كما ظننت وانما نود ان تلقى عنك الظنون التى وقعت عليك فزن الفرق وطبق اجوبتك على الحقيقة

فنهض درتيل غضوباً وقال بحدة وحماسة :

قد علمت الآن لما ذا تراقبون أعمالى دقيقة فدقيقة . وترصدون حركاتى وسكناتى وتسألوننى أين كنت فى وقت كذا

قال وكيل الجمهورية اذا لم يكن لديك ما تخفيه فلما تخاف

فمد يده الى جبينه وقد ظن ان رأسه ينفجر وشق عليه ان يحسب من اهل الجنايات وان يتهم بقتل وان يعرض لاحتقار الناس والعار ؟

على ان كلمة — كلمة واحدة — تنجيه من ذلك كله الا ان سقوط جيلبرت فى هذه الكلمة وفيها خسارة شرفها الى الابد

فيا لها من كلمة تنجيه وتقضى على حبيبته

فعقد النية على كتمانها وأبى عليه شرف نفسه ان

من يهواها للشهرة السيئة فقال فى نفسه ليفعلوا ابى ماشاؤا فلست لا بوح بسرها وسرى ولا أقول قولا يحملها على الخجل ولعلنى أجد وسيلة لتبرير نفسى والخروج من التهمة نقى الصحيفة أما الآن فلا يوجد امامى الا التسليم لما كتب لى

واذا بوكيل الجمهورية يقول له عجل بالجواب الا تستطيع ان تخبرنا أين أنفقت وقتك فى ما بين الساعة الثامنة والتاسعة ؟.. اما أنا فانى على يقين من انك لم تكن موجوداً ههنا ...

أجاب لقد تذكرت الآن ... فقد كنت أتنزه . . .

قال ارى انك لا ترجع عن اقرار كله خطأ؟.. فاين كان تنزهك ؛

أجاب فى البلد على الشارع الكبير بجوار المحطة

قال لم يرك أحد هناك ولكن يوجد اناس رأوك فى ناحية اخرى رأوك في الساعة الثامنة وربع تطوف حول البيت الذى حدثت عنده الجناية...

وكان ذلك مطابقاً للواقع فان اموري قبل ان يذهب الى الموعد الذى ضربته له جيلبرت فى رسالتها اخذ يطوف

قرب منزلها وامام حانوت مجتذباً الى هناك بعاطفة فؤاده على حد قول الشاعر العربى القائل

أمرّ على الابواب من غير حاجة
لعلى أراكم أو ارى من رآكم

فحاول ان يرى حبيبته ولو من خلال النوافذ أو يتيقن خروجها . فكان يحدق فى جهة الحانوت. وذلك أمر ليس بذى شأن ولا يستحق ان يذكر ولكنه انقلب ضده برهاناً هائلا لا يستطيع انكاره

وارتأى ان لافائده من الانكار فأجاب نعم ايها الوكيل فقد مررت بتلك النواحى ولا نكران الا اننى لم أتجول ولم أطف بها كما تقول فليس ذلك من عاداتى

قال وكيل الجمهورية هب ذلك وقع كما تقول أنت ومررت مراراً بتلك الناحية فاخبرنى أين كنت ساعة وقوع الجناية ..فكر واجبنى صريحاً وما اخالك دبرت من يشهد لك بالابتعاد عن موضع الجناية . . . ؟ فاين كنت ؟

اجاب لقد أخبرتك

قال وكيل الجمهورية لندع هذا الآن وأخبرني ألم تعلل النفس يوماً بالاقتران بالآنسة جيلبرت ثم الجئت الى الرجوع في آمالك ؟

اجاب هذا صحيح ...

قال متى كان اضطرارك الى العدول عن الاقتران بها؟

اجاب في المدة الاخيرة

قال اذكر الوقت تماماً . . . في أي يوم اخبرك المسيو برتلمى بقطع صلة كانت لك مع ابنته ؟

اجاب اول أمس

قال اصبت . . . ألم تغضب لهذا الرد ؟

اجاب كلا وانما اورثني حزناً شديداً

قال هل كان الحزن وحده ما أورثك اياه خيبة أملك من حبيبتك

اجاب نعم

قال ليس بمستنكر ان تستاء ويخطر في بالك فكر الانتقام . . . هيا وتكلم بحرية فكر وقل الحق

اجاب اموري بخشونة :

ما خالك ايها الوكيل آتيا الى هنا لتعذيب روحي وتهييج آلامي واشجاني ولك حقوق لكنني انكر عليك هذا الحق .

قال وكيل الجمهورية بادب ولطف .

لا تظن انني مدفوع الى هذه الاسئلة بدافع الفضول

فصاح الاستاذ بكآبة وتهكم :

بل هي مصلحة الحكومة ! . . . أليس الامر كذلك

اجاب نعم وهي أولى بالنظر والتقدم من كل امر سواها ولا يجب ان يقف امامها شيء من الاعتبارات

قال قد علمت ان عذاب رجل مثلي لا يؤثر عليها . .

قال لنلخص البحث فقد اظهر التحقيق منذ مساء امس ان السرقة لم تكن الباعث على الجناية وان المسيو برتلمى ذهب شهيد انتقام على انه لم يكن له اعداء معروفون فمن ذا الذي يهمه الانتقام منه غير الرجل الذي اورثه فشلا وخيبة ؟

فقال درتيل برعب شديد اذن فماذا كان الراى ؟

اجاب عليك ان تستنتج

فثار ثائر أمورى وصاح اتهموننى بالقتل ؟ ... امثلى يكون قاتلا ؟ ... الا ان هذا مزاح مخيف ايها الوكيل ... ويستحيل ان ارمى بمثل هذه التهمة الشنيعة الفظيعة ؟

فلم يجب وكيل الجمهورية وكتب فى مفكرة عنده ثم قال يوجد أدلة عقلية تؤكد ارتكابك الجناية فان اجوبتك غير صريحة ولا تنجيك من التهمة

فلم يتكلم أمورى وجعل وكيل الجمهورية ينظر اليه وقد بدا فى عينيه مايشعر بأسف ولعله استاء فى نفسه لاعتقاده ان ذلك الشاب الخفيف الظل قد لا يكون مجرما وقد تبين له انه سيء الحظ كما انه من اهل الصلاح والفضل ... أنه ليس فى ظاهره ما يريب

ولكن من يدرى

فان واجبات المنصب قد تكون ثقيلة العبء على صاحبه ولا تقضى تلك الواجبات كما تريد العواطف والاميال

فقال يشق علىّ ان ارانى ملزماً باتخاذ الطريقة الثانوية

حتى استأمن على شخصك

وكأن درتيل استفاق بعد حلم فصاح اذن مرادك القبض علىّ ! ...

واكفهر وجهه وارتعدت فرائصه

فاجابه وكيل الجمهورية نعم . فان تناقض اقوالك وتكتمك تباين وكلماتك وتملصك من الحقيقة يعظم الشكوك الملقاة على عاتقك

قال ومن يتهمنى ؟

أجاب هو الرأى العام فانه يرجح ارتكابك الجناية ويشترك الآن فى هذا الترجيح النيابة نفسها ريثما تبدد ظلمات الريب بايضاح كيفية انفاقك الوقت فى ساعة وقوع الجناية

فتمالك امورى وقد مرّت به ساعة الضنك فاظهر الجلد واخفى الكمد وقال بحماسة وتأكيد .

اعلم أيها الوكيل اننى برىء وأقسم لكم على ذلك !

أجاب انى أتمنى أن يكون قسمك حقاً حتى اصدقه ولا اكتم عنك شدة رغبتى فى تنصلك من الذنب

اواظهار براءتك وخروجك سالم الشرف من هذه الحادثة الهائلة

وهنا أشار رئيس الشرطة الى الكاتب ففتح الباب وكان فى الخارج شرطيان ينتظران . فصعد احمرار الخجل الى وجه اموري حين رآهما وقد علم انهما قابضان عليه وسائقاه الى السجن

فعز عليه ان يسير بين شرطيين كمجرم!

فترامى على كرسي وقد اثر عليه الانفعال فرثى له المسيو برترو وكيل الجمهورية وقال له ليطمئن قلبك ولا فائدة من الامتناع والمقاومة كما ترى فعليك أن تتجنب الخجل الذى يلم بك من اجتياز المدينة مقبوضاً عليك...

فقال انى اتبعكم ولكن دعونى اعلن لكم ايضاً براءتى من هذه التهمة الفظيعة وانكم مرتكبون خطاء هائلا ... ولسوف تعرفون خطاءكم في وقت قريب يوم تعيدون الى شرفى وحريتى الشخصية

وكانت المركبات واقفة فى الشارع وبعد ربع ساعة كان الشاب اموري، درتيل سجيناً

الفصل الخامس

فى الليل

يوجد على الطريق الكبرى التى بين باريس وويسول على بعد نحو كيلو مترين فقط من ويسول بيت منفرد لعله فندق او دسكرة

وكان يتردد عليها فى فصل الصيف بعض رجال الجندية ومربيات الاولاد . يتنزهون فى تلك النواحى ويشربون الجعة (البيرا) ويسمعون نغم جوق من الاجواق المتجولة . أما فى فصل الشتاء فتخلو الدسكرة من القاصدين والواردين الا من مر بها وعرج عليها لشرب كأس يستدفىء بحرارتها او للقعود لدى موقدها والاصطلاء بناره

وتقفل ابوابها ليلاً منذ الساعة التاسعة أومنذما يبسط الليل ذيوله وتلك عادة جرى عليها صاحبها من أمد

بعيد حتى عرفها الناس فلم يكن يعرج على الدسكرة أحد بعد الهزيع الاول من الليل

على انه فى مساء اليوم الذى قتل فيه المسيو برتلمى اقبل الى تلك النواحى رجلان كانا يسيران فى تلك الطريق عندالساعة التاسعة ونصف أى بعد اكتشاف جثة الجوهرى المقتول فى مخزنه

وكانا يسرعان فى المشى او يركضان احياناً ويختاران ضفاف الاقنية حتى يتمكنا من الاختفاء فيها كلما ظهر لهم عابر سبيل . وفيما هما يسيران بصرا بمركبة قادمة فوثبا الى قناة وتربصا فيها حتى مرّت وتجاوزتهما فلما ابتعدت نهضا من مكمنهما وصعدا الى الطريق فقال أحدهما لقد خفت من الشرط لاقرب مزارهم منا

وكان المتكلم فتى حديث السن فاجابه رفيقه وأنا أيضاً

واستمرا يمشيان من غير أن يتلفظا بكلمة وقد أظلمت الطريق حتي وصلا الى الدسكرة التى أشرنا اليها فى مفتتح هذا الفصل فدخلاها بعدأن القيانظرة المراقب على داخلها وعلى نافذتها وكانا مضطربين فارتميا

على كرسيين ولبثا بضع ثوان صامتين . فلما سكن روعهما نادى أحدهما الاكبر سناً صاحب الدسكرة

وكان هذا الرجل فى نحو الثلاثين من العمر لابساً ملابس اهل الظرف متأنقاً فيه ماشاء، متختماً بخواتم كثيرة الالوان وفى لهجته ماينم على رطانة انكليزية

أما الفتى رفيقه فكان فى نحو التاسعة عشرة من العمر رشيق القد خفيف الحركة حسن الصورة والمرجح انه كان خاضعاً لصاحبه

فوافى صاحب الدسكرة وحياهما وقال ماذا تطلبان؟

قال الرجل للفتى أى شراب تطلب يامانيلون

أجاب ماتشربه يامسيو نورتون فغمغم يقول بصوت منخفض

لاتنادنى باسمى أبداً !

ثم انثنى الى صاحب الدسكرة فقال هات قهوة وشراباً آخر

أجاب الرجل سمعاً وكرامة

وعاد الى مطبخه ليعد القهوة أو ليسخنها على النار

فلما انفرد قال الرجل صاحب الخواتم الملونة :

اما الآن فلنستنشق نسيم الراحة والطمأنينة وقد كنت منزعجاً منذ هنيهة

أجاب وانى لكذلك

قال أراك منقلب السحنة ياعزيزى مانيلون

أجاب لا تظن انى تعبت من المشى فان مسافة لا تتجاوز اثنين من الكيلومترات لا تتعب مثلى يا مسيو جاك ومن كان مثلى صناعته بيع الجرائد فى الاسواق لا يتعب من السير لكننى أحس في هذا المساء كأن ساقىَّ من قصب مرضوض !

ومد يده الى جبينه ليمسح العرق البارد المنسكب منه

أما الرجل الانكليزى فلم يجب

وكان كذلك أصفر اللون شديد الانزعاج كثير الارتجاف كلما سمع حركة . الا انه لم يجد ما يريب بل كل ما فى ذلك الليل الهادىء كان ساكتاً . فلما اطمأن عطف على رفيقه وقال ما أظن ان وراءنا من يتبعنا فما رأيك؟

أجاب كلا لم يتبعنا أحد وقد التفتُّ نحو عشرين

مرة فلم أر أحداً ... ولم ار شرطياً فى طريقنا

قال لا شك اننا نجول على ما نحب !...

فهز الفتى رأسه وقال نعم ومن حسن حظنا اننا قدرنا على الفرار حينما وصل الشرطة الى حانوت الجوهرى المسكين ..

قال جاك نورتون لقد اضطررت الى معاملته بالقسوة وضربه الضربة القاضية لانه كاد يصرخ ويستغيث ويوقعنا في أيدى رجال الحكومة ...

قال هل تظن انه مات ؟

فقال بحدة :

ويك لا ترفع صوتك فقد يكون للجدران آذان ولا تحسب نفسك الآن تبيع الجرائد فى الشارع الكبير !

وبعد ان القى على مانيلون نظرة تشعر بالغضب سرح بصره فى الدسكرة

فقال مانيلون لقد راعنى النظر الى الرجل ساقطاً كأنه لوح من خشب والى خنجرك مخترقاً عنقه .. اننى أفكر في ذلك المشهد فاشعر كأن الثلج على ظهرى ...

ومد يديه كأنه يطرد تلك الذكرى الهائلة من امام عينيه

قال جاك نورتون كفى ودعنا من هذه الانفعالات فقد قضى الامر وما فعلناه فعلناه وانقضى وقته . . . ويا ليتنا قدرنا على اجتناء ثمرة التعب !

فتجلد مانيلون وقال صدقت فما قدرنا على حمل كل ما اردنا

أجاب لقد كنت أوثر كم فم الرجل والتمكن من تفريغ الحانوت على مهل . . .

قال آه ليت الامر تم على هذا الصورة ! . .

قال انت تعلم اننا لم يكن فى نيتنا قتل الرجل انما كنا عازمين على الدخول بحجة الشراء ثم اضايق الرجل واضغط عليه واشاغله حتى تتمكن من فتح الدروج والخزانات وجمع ما فيها الى جيبك من غير مشقة ولا عناء

أجاب صدقت ولو علمت قبلا ان الحال تنتهى الى سفك الدم لما صحبتك يامسيو نورتون فاننى لم أخلق لمثل ذلك

قال يالك من حيوان بهيم وهل نسيت الاوراق المالية التى يقتسمونها كل شهر فى (جمعية اللصوص العامة) واظنها توازى المتاعب والمخاوف

أجاب لا اعتراض ... ولكن لا أتحول عن رأيي فى استقباح العمل الذى اقدمنا عليه ان استخدام السلاح سيء العاقبة

قال أفّ لك من أرنب لكن تعزّ بما سنبيعه من الجواهر فان ثمنه غال يعوض علينا الوقت والتعب وقد اضطررنا الى اختيار ذلك المخزن لان جوهرى ويسول لا يوجد فى مخازنهم مثل ما يوجد فيه

أجاب نعم واضطررت الى قتل الجوهرى المسكين لانه تنبه الى مرادنا منذ مارآنا وهمّ بالصياح

قال نورتون لم يكن بد من قتله ولولا ذلك لوقعنا فى أيدى رجال الشرطة !

قال مانيلون أما رأيي الآن فهو ان نرحل عن هذه البلاد فنختار غيرها للاقامة

أجاب وهذا رأيي ويجب الاسراع ثم قال اننا قافلان

الى باريس وهناك ندبر أمر الحلى والجواهر وغيرها ..
وسوف ترى أى قدر جسيم يحصل منها والجمعية ستغدو
راضية عنا

قال ذلك القول وزحزح رداءه الخارجى وضرب
بكفه خرجا صغيراً معلقاً فى منطقته ثم فتحه بطريقة
سرية فظهرت الاساور والاقراط والسلاسل والخواتم
والاهلة وكثير من الحلى الذهبية المختلفة

فادخل يده الى الخرج يعبث بتلك الاشياء النفيسة
فلمعت عينا مانيلون من شدة الشره والجشع

ثم اقفل رفيقه الخرج وعاد صاحب الفندق بالقهوة
فاخذا يشربانها على مهل وعادا الى المحاورة بصوت
منخفض أما صاحب الفندق فانزوى جانباً يطالع جريدة

فقال الفتى مانيلون لقد كان رأيك سديداً حين
دعوتنى الى سلوك هذه الطريق المقفرة الخالية من
البيوت .. فلا يرانا ولا يعرفنا أحد فيها ونعم الطريق
هى ! فلا خطر ولا حذر !

قال أرأيت كيف كنت على ضلال فقد اقترحت على

ان نقصد الى المحطة من فورنا ولو طاوعتك لكنا الآن
فى السجن

قال مانيلون وكيف ذلك

أجاب نورتون ذلك لانه يوجد معاونون للبوليس
وشرطة للمحطات وأولئك قوم تخترق أبصارهم حجب
الغيب فلو رأونا لقبضوا علينا لامحالة

قال ذلك لم يخطر فى بالى ومن ذا الذى يفكر فى كل
أمر ... على اننى بعد ماتولانى الخوف لم يكن يشغل
فكرى الا الفرار سريعاً

أجاب أتفر الى أنياب الذئب !

ثم رفع صوته يخاطب صاحب الفندق قال له أية محطة
أقرب الى هنا

أجاب محطة فافر ياسيدى

قال وما مقدار بعدها من هنا

أجاب نصف ساعة مشياً على الاقدام

قال هل يؤدى اليها الطريق الاعظم

أجاب كلا وانما اذا خرجت من هنا يجب عليك ان

تسير فى طريق ضيق يظهر لك عند أول عطفة وهو بين المروج والحقول فتصل الى جسر فوق النهر تقطعه فتبلغ درباً يفضى منها الى فافر وتتجاوز الخط

قال شكراً لك

ومد يده الى جيبه ليدفع ثمن القهوة لصاحب الفندق فانكشف ردنه أو كم قميصه وكان مضرجا بالدم فقال مانيلون بصوت منخفض :

حذار ياهذا ان يظهر الدم على ردنك !

قال ياللداهية !

واخفى يده بالرداء ثم دفع ثمن القهوة والشراب واخرج من جيبه كراساً هو دليل السكة الحديدية فنظر فيه نظرة رجل تعود الاسفار

وسمعه مانيلون يقول يوجد قطار مسافر الى باريس ماراً بفافر فى الساعة العاشرة والدقيقة الخامسة والاربعين فاياه نركب

ونظر الى ساعته فقال هانحن فى العاشرة الا ربع فالوقت فسيح أمامنا

وبعد هنيهة خرجا من الدسكرة فتأملها صاحبها غير آسف ثم اقفل بابها وقال قبح الله وجهيهما ولا جمعنى بهما بعد اليوم

وأخذا يمشيان تحت ظلام الليل بسرعة وكان الدجى كثيفاً والسحاب متلبداً حاجباً للكواكب والقمر والطريق خال ولا حركة ولا صوت الا ماصدر عن وقع اقدام الرجلين

وكانا صامتين ولعل ذكرى الجريمة التى اقترفها نورتون عقلت منهما اللسان

يمشيان تمشى الهارب المستعجل فوصلا الى عطفة الطريق التى اشار اليها صاحب الفندق فى كلامه وتجاوزا الجسر حتى بلغا الخط فقال مانيلون هذا هو الخط الذى اخبرنا عنه صاحب الفندق

اجابه جاك نورتون نعم وهذا طريق المحطة

وكان المطر قد تساقط قبل ذلك بساعات والارض طريئة موحلة فكانا يعانيان مشقة كبيرة فقال نورتون لئن دام الحال على هذا المنوال فان القطار

يفوتنا لامحالة .

فقال مانيلون هيا بنا نمشي على الخط .

اجاب نورتون اصبت

ومشيا على الخط وسكون الليل محيق بهما من كل ناحية ومدينة ويسول بادية لهما من بعيد وقداظلتهاسماء لاتخلو من الضياء كما يكون حال جو المدن في الليالي الحالكة الظلام وكأنما لجب السكان قد وصل اليهما شبيها بدوي مختلط

فخطر في بالهما في وقت معاً ان الجناية قد ظهرت وان رجال الحكومة هناك فى شغل بها شاغل وانهم يبحثون عن المجرمين .

الا انه خاطر لم يبده احد منهما للآخر بل كان كل منهما يتجنب النظر الى الآخر .

فاستمرا يسيران فلما وصلا الى بيت هناك يتفرع بجانبه الخط فاصاخ مانيلون فاذا هو يسمع دوياً كهزيم الرعد الا انه بعيد

فانحنى الى الارض واسند رأسه الى أحد الخطوط

ومعلوم ان الصوت ينتقل بواسطة الاجسام الصلبة أقوى وأسرع من انتقاله بالهواء . ومانيلون يعلم ذلك بالاختيار وان فاته ادراك نظامه الطبيعي . فانصت .

فادرك ان هناك عجلة سكة حديدية مقبلة .

فنهض بغتة يقول هذا قطار قادم ولا اخاله بعيداً فهو آت من ورائنا

فاوقد نورتون عوداً من الكبريت ونظر الى ساعته وقال ليس هذا بالقطار الذى يحملنا الى باريس ولعله قطار البريد

ونظرا الى ماوراءهما مهتمين بدوي يشتد ويتعاظم .

وبعد هنيهة ظهر لهما الدخان الابيض على بعد نحو كيلو متر واحد . ثم بصرا بالقاطرة وتقدما بسرعة عظمى فتنحيا عن الخط .

فمر بهما القطار وقد ارتفع له صوت كجلجلة الرعود وانطلق بسرعة البرق . وصدق نورتون اذ قال انه قطار البريد فهو الذى ينقل من بلفور الى باريس بريد المساء وبعد بضع ثوان نأى عنهما وزال دويه واختفى شيئاً فشيئاً

فعادا الى سيرهما ورأيا امرأة امام باب البيت الذى اشرنا اليه فانذهلت من وجودهما هناك وقالت لهما ما شأنكما والى أين

وكانت تلك المرأة خفيرة على حدود الخط

فاجابها نورتون من غير أن يقف :

نحن من موظفى مصلحة الخط

فدخلت الى بيتها راضية عن هذا الجواب واذا بهما يسمعان صفير البخار فقال نورتون ان القطار وقف فى محطة فافر قليلا ثم استأنف السير الآن . فالمحطة قريبة

وبعد هنيهة ابصرا علامات المحطة أمامهما وبعد خمس دقائق وصلا اليها وافترقا فاخذ كل منهما على حدة تذكرة الى باريس

ولم تطل مدة انتظارهما فان القطار وافى للحال

الفصل السادس

— قطار الساعة العاشرة والدقيقة الخامسة والاربعين —

صعد مانيلون وجاك نورتون فى الساعة العاشرة والدقيقة الخامسة والاربعين الى مركبة واحدة وجلس كل منهما في ناحية كأن لا معرفة بينهما

فلم يتنبه اليهما أحد فى المحطة

فشعرا بالدعة والامن وذهب ما اعتراهما قبيل ذلك من اضطراب وانزعاج الا انهما كانا ينتظران صفير القطار بذاهب الصبر

فلما تحرك تنهدا تنهد الرضى والراحة وكانا فى مركبة من مركبات الدرجة الثانية

فاسرج نورتون لفافة تبغ ونظر مرة ثانية فى دليل السكة الحديدية وقال نصل الى باريس غداً فى الساعة التاسعة والدقيقة العشرين . وسوف يكون لى الوقت الكافى

للذهاب الى مركز الشركة

واستضحك حين تلفظه بهذه الكلمات

فقال مانيلون اما انا فعند خروجى من المجتمع اذهب فاتغدى مع صاحبتى المحبوبة

قال نورتون ويحك وهل لك صاحبة انت ؟

أجاب نعم يامسيو جاك !

قال اين تقيم ياترى ؟

أجاب فى شارع القرم نمرة ٢٢١ واسمها الآنسة سيجاريت

قال وهل هى حسناء ؟

أجاب مانيلون كيف لا وهى فتنة لمن يراها ثم انها تهوانى ... وتدعونى حبيبها (مانى)

قال نورتون وما عمرها ؟

أجاب ثمانى عشرة سنة فهى أصغر منى بسنة واحدة

قال انك لسعيد الحظ !...واظنك تأخذ اليها ماتجمعه من النقود

أجاب بل ماهو افضل من ذلك . حلية ليس ابهى

منها واغنى بها هذه

واخرج من جيبه علبة فاراها جاك نورتون ثم فتحها فاذا فيها عقد من اللؤلؤ له قفل من الماس

وكان مانيلون يضحك أما نورتون فظل مبهوتاً

ذلك لان اللآلىء التى رآها تبهر البصر وهى لا تصلح الا لجيد غادة حسناء

ففحص نورتون ذلك العقد بعين الحاسد ثم أخذ يزن بكفه اللآلىء ويتأملها وكانما اصابه سحر ساحر

ثم قال بغتة لشريكه فى الجناية :

ويحك من أين لك هذا ؟

أجاب انه الذكرى الوحيدة التى حفظتها لنفسى من حانوت الجوهرى ...

قال يالك من لص !.. لماذا كتمت عنى ؟

أجاب كيف تزعم اننى كتمت عنك وها أنا أنبئك يامسيو جاك

قال نعم ولكنك تنوى ان تحفظ هذا الكنز لك وحدك من غير أن تنتفع به الجمعية ومن غير أن يكون

للرفاق سهم فيه

أجاب بل أحسب ان لى حقاً بهبة خاصة اذخرها لمن اهوى . وانما هى مكافأة صغيرة لى لاينكرها علىّ أحد .

قال الا تدرى ان ثمن هذا العقد لا يقل عن عشرين الف فرنك ؟

أجاب هل تظنه غالياً بهذا المقدار

قال نعم فانى خبير ... فاعطنيه لا بيعه

أجاب شكراً لك ... فلست اريد بيعه وقد اخبرتك انه لسيجاريت . . . وسوف يليق بها كما يليق بسيدة عظيمة ... ان سيجاريت بديعة الحسن باسلة وتستحق مثل هذه الهدية بالنظر الى لطفها ... ولا شك انها هدية تزيدها رغبة فى شخصى وتحملها على الرضى بى زوجاً

على ان مانيلون لم يكن مطمئن القلب من هذا القبيل فان صاحبته سيجاريت فتاة صالحة السير فلا تتلقى تلك الحليه النفيسه بالقبول من غير ان تعرف مصدرها . وماذا عسى يكون جوابه اذا سألته عنه ؟

فأحس بتبكيت الضمير

غير انه اسرع فاخذ العقد من نورتون ولم يتركه له الا وهو آسف

وهاجه شيطان الطمع فجعل يراقب حركة رفيقه حين وضع العلبة فى جيبه ثم ذهب فقعد فى زاوية يدخن ساكتا

فلما انتهى من التدخين قال مارأيك فى الرقاد؟

اجاب أما أنا فمتى انتهيت من التدخين

قال افعل مايروق لك

وأنزل قبعته فوق جبينه وعينيه واطبقهما الا قليلا وتظاهر بالنوم تظاهراً لكن بصره فى الحقيقة لم يفارق رفيقه

أما هذا فاتم تدخين لفافته وهو صامت ثم انحرف الى زاوية ولكنه لم ينم وانما كان يفكر فى ماقاله نورتون عن ثمن العقد ويكرر لنفسه قوله عشرين الف فرنك! يالله ماهذا القدر الجسيم! . . .

وظل مطرقا الا ان ذكرى الجوهرى مابرحت

فى ذهنه ونصب عينيه يراه صريعاً مضرجاً بدمائه طريحاً
فى وسط حانوته فتولاه خوف شديد.

فكان مستيقظاً راقداً مصاباً بكابوس مضعضعاً للجناية
مروعاً بمصرع المجنى عليه!.

ثم تمكن من طرد تلك الذكرى من مخيلته وذلك بان
عمد الى عقد اللؤلؤ ينظر اليه ملياً ويعجب به الا انه
قبل ان يخرجه من جيبه حول نظره الى جاك نورتون
كانه يخاف خوفاً مبهماً واراًبه منه مريب فالفاه نائماً فلما
اطمأن من هذه الجهة أخذ يتفرس فى لآلئ العقد

أما المستر جاك فانه لم يكن نائماً كما سبق القول فرأى
مافعله مانيلون ولاحظه ادق ملاحظة فاذاهو ينظر فى
اللآلئ واحدة فواحدة ويعدها . . .

ثم رآه يزن العقد بكفيه مراراً مستشعراً لذة تحصل
لمن يمتلك كنزاً ويحصيه وهو منفرد

ثم رآه يتبسم المبتهج الطروب معرضاً ذلك العقد لنور
مصباح المركبة يستجليه طروباً.

فلم يتمالك نورتون ان نهض . وكان مانيلون مولياً

اياه قفاه فى تلك الدقيقة فاحس بيد وقعت على كتفيه .

فذعر وانثنى وقال لقد حسبتك راقداً يامسيو جاك ؟

أجاب لقد ايقظتنى .

قال أنا ؟ وكيف ذلك ؟

اجاب نعم فانك أخذت تلعب بهذه اللآلئ لعب
الصبية الصغار . . . فارنى اياها ايضاً

فارتاع الفتى وأتى بحركة دلت على ذلك الارتياع
فقال له نورتون هل انت خائف ؟ . . . لست عازماً
على أكله . .

اجاب لا ولكنك ربما عزمت على أخذه منى !

قال نورتون بغلاظة وخشونة .

لاتكثر الجدال فانت تدرى ان ثمرة اعمالنا يجب ان
تكون لمصلحة الشركة . . . فيجب ان تسلمنى هذا العقد
لاوصله الى الجمعية العامة .

قال اتقول حقاً ؟

أجاب نعم وهذه ارادتى !

فثار مانيلون غضوباً وقال ارادتك ؟ وهل نسيت

انك كنت فى بعض الاوقات تستبقى لنفسك بعض الاشياء ... واذكر تلك الساعة المرصعة بالجواهر وهى التى ادخرتها لنفسك فى الاسبوع الماضى .. فهل يراها أعضاء الجمعية ؟

قال صه يالص فهل تنوى أن تؤلف عصابة منفردة ؟

أجاب انى احذو حذوك تماماً !

قال بلهجة الآمر باسطا يده :

هات العقد !

أجاب هيهات ! ... فان العقد لى ولا أسلمه لاحد ! ولئن اصررت وقاومتنى فلافضحنك عند اعضاء الجمعية ولاشهرنَّ سرقاتك الخاصة بك وليس فيها من يفوقك حذقاً فانت لص اللصوص وسارق السراق ! ... ولا تحوجنى الى التصريح بما فعلته فى ويسول

فاصفر وجه نورتون وقد أيقن ان رفيقه قد يسوقه الى الهلاك فصرف باسنانه حنقا

أما مانيلون فاعاد العقد الى العلبة مستعجلا فى ذلك الا ان نورتون كان اليه أسرع من البرق فاختطفه

من يده وفى اقل من لحظة الحقه بما فى خرجه

فهدر الفتى مانيلون وقال بلهجة غضب واستعطاف معاً .

ارجعه الىّ !

فلم يجبه نورتون كانه لم يسمع

فاعاد الطلب متقدماً فشبك نرتون يديه على صدره ونظر الى رفيقه نظرة الساخر وقال لا أرجعه وانما أبقيه معى لنفسى !

فامتقع لون مانيلون وايقن بخسارته لذلك الكنز فصاح حانقاً متوعداً !

ارجعه الىّ والا انتزعته منك برغم انفك ؟

قال جاك نورتون تعال فافعل ؟ تعال فافعل .

ولم يصبر حتى يهاجمه لكنه وثب عليه وثبة الذئب ولطمه على صدره بقبضة الكف لطمة ارجعته الى الوراء فكاد يخر على الارض

وكان الفتى قوى البنية الا ان تلك اللطمة اصابته على حين غرة فترامى على مقعد المركبة

وأ كب نورتون قابضاً عليه جامعاً اياه تحته مقاوماً حركاته

فشتمه مانيلون وقال له يالك من لص شرير.

وهنا بدأ العراك بينهما . واذا بنورتون قد دفعه الى باب المركبة من غير ان يستطيع تخلصاً لانه كان قابضاً على ساعديه ثم رفعهما الى ناحية الباب المفتوح

فدافع ما نيلون مدافعة اليأس وهدر وزمجر

الاان قواه ذهبت ضياعاً ولم يسمع صياحه لان دوى القطار فى اثناء سيره السريع حال دون ذلك

واذ ذاك صفرت القاطرة صفيراً طويلا وقد دخلت المركبات نفقاً هو نفق (بومراى) المعروف فى تلك البلاد وهو مجاور محطة شومون فعظم دوى القطار هناك

هذا والرجلان يتصارعان ويتناضلان وقد هال مانيلون عجزه عن المقاومة وراءه فعض اسفل خد نورتون عضة شديدة

فصاح هذا صيحة الوحش اذا جرح وضاعف قواه

واجتهاده

فدافع مانيلون عن نفسه مدافعة اعظم من مقدرته وقد ادرك عظم الخطر الذى يتهدده فان الموت غدا على قيد اصبع منه ...

وطالع فى عينى غريمه حكماً عليه بالاعدام لا يقبل نقضاً ولا ابراماً فعلم انه قضى عليه وان ذلك مدبر فى ذهن اللص رفيقه . . وانه اذا كان اضعف منه فهو ملق به من باب المركبة لا محالة

ولكن خارت قواه وضعف عن المقاومة

وأحس القاتل المجرم من خصمه بالعجز فقال لننته منه؟ وضغط على عنقه

فعظم تألم مانيلون وصرخ صرخة خشنة فى ذلك الليل الدامس واحس بضياع رشده وقرب اغمائه

فانتهز نورتون تلك الفرصة ..

فدفعه بمنتهى قوته حتى تدلى من باب المركبة فجعل يصيح النجدة النجدة !

فلطمه نورتون على رأسه لطمة اطاشته فصاح النجاة ..

ولم يستطع اتمامها لانه سقط الى الخارج

وفى ذلك الوقت خرج القطار من النفق

فانحنى جاك نورتون بسرعة من الباب وسرح بصره فى ماوراء القطار فلم يميز شيئاً فى الظلام وانما رأى النفق شبيها بهوة واسعة سوداء . . . والقطار يبتعد عنها سريعا

وكان معدل سيره اذ ذاك ستين كيلو متراً فى الساعة

فقال فى نفسه لاشك ان مانيلون قد داسته العجلات أو قتله سقوطه

فاقفل باب المركبة وعاد فجلس فاخرج منديلا من جيبه فمسح به جبينه المبلل بالعرق

ولبث كذلك بضع ثوان حتى استراح ثم عاودته السكتة فنظر فى مرآة المركبة خده المعضوض يظهر فيه اسنان مانيلون الا انه غير دام

فقال فى نفسه هذا أثر سيبقى فى وجهى يومين أو ثلاثة أيام

ثم فتح خرجه واخرج منه العقد الذى سرقه من رفيقه فالفاه على ما يحب من سناء وبهاء واستمر ينظر

اليه متأملاً الى ان تبسم وقال لاشك فى ان ثمنه يزيد على عشرين الف فرنك ولا يدهشنى ان يساوى ضعفى هذا القدر ولعمرى انها هدية أتمتع بها وحدي ولا شريك لى فيها اننى أبغض الشركة !..

ثم اعاده الى الخرج وهو يقول لم يكن نهارى مذموماً فالامور حسنة !

وكان يكثر قوله « الامور حسنة » فهى كلمته اللازمة عند مايكون على تمام الرضى عن نفسه

ثم أشعل لفافة واطلع من جيبه محفظة فتحها وكان فيها رسائل عديدة عليها طوابع بريد أجنبى ومعنونة بهذا العنوان

حضرة جاك نورتون

يبقى فى البريد

بالمكتب نمرة ١١٨ بشارع امستردام

في باريس

وجميعها مكتوب على غلف اصلية ومضمونة

فنظر فى اختام البرد التى على الغلف حتى اهتدى

الى واحد منها فاخرج منه ورقة نشرها

وكانت بيضاء لا يظهر فيها حرف ولا كلمة

فامرّ الورقة على دخان التبغ وللحال ظهرت عليها حروف سمراء كأنَّ تلك الورقة مسحورة

ثم توالى ظهور الحروف وتالفت منهـا الكلمات فالسطور الى ان اجتمعت رسالة كاملة مكتوبة بحبر كيماوى يقال له الحبر العادم اللون ولا يظهر سواده الا بالحرارة أو بمادة معـدّة لاظهاره اما من الغاز أو من السوائل الحامضة

فاذا وقعت الرسالة فى يد رجـل يجهل سرها ظنها ورقة عادية لانه لا يرى كتابة عليها

وهو احتياط لطيف يتخـذ فى الرسائل السرية أو رسائل العشاق . . أو رسائل اللصوص

فاتضح لنورتون ما كان خافياً فى الرسالة فقال فى نفسه أما الآن فلنر ماهى الايضاحات المتعلقة بحسابات الشركة لان موعد النظر فيها غداً

فقرأ فيها ماصورته

« لوندره فى ٢٠ نيسان (ابريل)

« المرجو ان تحضروا الى المحل الذى فى حى مونمارتر الواقع تحت الرقم ٣٧ فى باريس وليكن ذلك عند الظهر تماما فى يوم ٩ ايار (مايو)

« والاجتماع شهرى يراد منه النظر فى الحسابات

« ويجب احضار الاشياء التي برسم الشركة لتصريفها واستبدالها بواسطة المساهمين

« وعلى كل مساهم ان يجىء بالرسائل التى تدل عليه ولا بد من الحضور فى هذه الجلسة

« وتوزع الارباح على المساهمين فى هذا الاجتماع

« ولا يقبل عذر لمن يتخلف عن الحضور اما الغائبون فيخسرون حقوقهم فى الارباح وتوزع حصصهم على الحضور

« سام »

فضحك جاك نورتون وقال ماظن انه يوجد من يتخلف عن الحضور في الموعد فلا خوف من ذلك

ولما ابعد الورقة عن الحرارة المنبعثة من التبغ المحروق

عادت بيضاء

فمزق الغلف شذر مذر ورماها فى الفضاء ثم وضع الرسائل فى المحفظة والمحفظة فى جيبه

وبعد ان فكر شيئاً فى ماجرى وفى الجنايتين اللتين ارتكبهما الواحدة بعد الاخرى نام نوم الصالحين الذين لاتبكتهم الضمائر

ولم يدر ماهى المدة التى رقد فيها سوى انه استيقظ بغتة عند دخول القطار الى محطة كبيرة

فوقف القطار

وسمع نورتون مناديا ينادى باسم المحطة هى (ترويس) وسمع عقيب ذلك لجباً فانصت . وما لبث ان مد رأسه من المركبة ودهش من الحركة القائمة فى المحطة

رأى الموظفين يركضون مرتاعين ويتفقدون ابواب المركبات وبينهم ناظر المحطة والناظر الثانى للمصلحة ورجل اخر عرف جاك نورتون انه معاون بوليس

فاستعلم فعلم السبب اذ قيل له ان رسالة برقية وردت من محطة شومون وفيها ان احد المسافرين سقط من

القطار فى نفق بومراى . . .

فاستشعر نورتون خوفاً شديداً وودّ ان يعرف ماتحويه الرسالة تماما وما فيها من الايضاحات .

فهل عثروا على تذكرة السفر التى فى جيوب مانيلون فلو عثروا عليها لامكنهم ان يعرفوا رفيقه فى الطريق وأخذ الموظفون يستفهمون من المسافرين .

فتبين لجاك نورتون ان الموقف لايخلو من خطر فيجب استدراك الامر سلفاً والتقدم بجرأة حتى يتلافى كل خطر .

فقال فى نفسه .

نعم لابد من تقديم ايضاح ينقذنى من غائلة التحقيق فعقد النية على ذلك فى الحال .

فرفع طوق ردائه مخفياً به أثر العضة ونزل من المركبة مبادرا الى معاون البوليس فقال له :

أنى آت ياسيدى لانبئك بحادث وقع فى السكة الحديدية .

فاجابه أنى مصغ اليك

قال انى مسافر الى باريس وكان معي رفيق في سفرى احسبه سقط من باب المركبة .

قال المعاون أين كان ذلك ؟

أجاب لست ادرى أيها المعاون . وانما رأيت هذا المسافر دخل الى المركبة التى كنت فيها فى محطة فافر ولم نكد نتكلم بعض كلمات ثم رقدت .

قال وبعد ذلك ؟

اجاب نبهنى من رقادى صوت شديد . . ففتحت عينى فابصرت باب المركبة مفتوحا . . أما رفيقى فلم أجد له أثراً . . . فخطر فى بالى انه قد حدث له حادث

قال المعاون نعم فقد وجدوا رجلا فاقدا كل حراك عند اول نفق لابو مراى

قال اذن فهو ذاك . فهل تعرف علامة تدل عليه ؟

اجاب ليس فى الرسالة التى تلقيناها شىء من ذلك فهل تعرف المسافر ؟

قال لا

قال أليس لك علم بكيفية وقوع هذه الحادثة .

أجاب كلا لاننى لم أر شيئاً . . لكننى أحسب المسافر اراد ان يطل من الباب فاتكأ عليه وهو غير مقفل جيداً فانفتح فهوى المسكين الى الخارج .

قال المعاون وهل كان له امتعة ؟

اجاب لا ياسيدى . . . فهل استطيع الرجوع الى المركبة الآن ؟ أنى أخاف ان يسير القطار

وللحال سمع صوت موظف للسكة ينادى المسافرين ويحضهم على ركوب القطار

فاجاب المعاون نعم . . أود أن تترك لى اسمك وعنوانك للتحقيق . ولعلنا نحتاج الى شهادتك

قال حباً وكرامة

وسلم المعاون بطاقة عليها اسم وهمىّ

وشأن جاك نورتون فى حمله مثل تلك البطاقة شأن مهرة اللصوص الذين يحسبون حساباً للطوارىء . فقد كان معه بطاقات باسماء مختلفة يوزع منها عند الحاجة

فكان يحمل من البطاقات مايشير الى تعاطيه صناعته أو مزاولته فناً أو توكله عن معمل أو محل تجارى الى

غير ذلك مما يستنبطه

وهو احتياط افاده مراراً لأنه يخفى وراءه حقيقة امره

فوضع المعاون تلك البطاقة فى محفظته وقال شكراً لك وها أنا ذاهب لاباشر التحقيق

فحياه بورتون وعاد الى المركبة

فلما تحرك القطار وسار بسرعته المعهودة أخذ نورتون يفرك كفيه ويقول الامور حسنة

وبعد خمس دقائق تسلط عليه النوم فاغمض عينيه واسترسل فى الرقاد

﴿ الفصل السابع ﴾
وكيل الجمهورية

وفى اليوم التالى بعد مقتل الجوهرى برتلمى كان وكيل الجمهورية عند الساعة الرابعة بعد الظهر يشتغل منفرداً فى مكتبه

ووكيل الجمهورية واسمه المسيو برترو بلغ الخامسة والثلاثين من عمره وهو سن عنفوان الشباب ولا سيما

لمن كان رئيساً وفى مثل هذا المنصب .

وهو من أهل الفضل والاستقامة والحذق وقد أحرز مقاماً علياً واحتراماً من الجميع . ثم انه كان من علماء القانون

أما ظواهره فتدل على سلامة طوية وجد" الا انه كان يومئذ مقطب الحاجبين يفكر في تلك الجناية وفى ما فعل من القاء القبض على أمورى درتيل . وقد شاع خبره فى البلد واهتم بأمره جميع السكان

فأخذ يفكر فى مايكون من نتائج هذا العمل الذى أقام واقعد البلد

وقد انقسموا الى قسمين .

أحدهما وهو السواد الاعظم قد انحى بالسخط والاحتقار على الاستاذ المسكين

والآخر وهو الاقل قد بات مرتاباً يميل الى الاعتقاد ببراءته

وظهر الرأيان المتناقضان فى جرائد البلد فمنها المنتصرة له ومنها من رمته بالتهمة وذمته أقبح مذمة

أخذ الناس يتداولون فى قضية أمورى درتيل حتى كأنما اقيمت فى الملاء وعين لها منهم القضاة والمحامون قبل ن تقام فى محكمة الجنايات

أما الذين الصقوا به التهمة فقد كان برهانهم مافى القضية من وجوه الاتهام وقالوا ان الحكومة لاتأتى عملا جليل الشأن فى قضية خطيرة كهذه القضية مالم تكن قد انصرفت الى التروى واستندت على الاسباب والبراهين ورجحت كفة الاتهام فى ميزانها العادل على كفة التبرئة

وأما الذين انتصروا لامورى وحسبوه بريئاً فقد حسن ظنهم فيه من قبل وقالوا ان مثل أمورى لايقدم على الجريمة بسبب كالذى عزى اليه فانه أشرف نفساً من ذلك وسيرته الماضية تشهد له خير شهادة فهو فاضل أديب ليس فى سلوكه مايعاب

ويؤيدون قولهم بما عرفوه من ذكاء فهم الاستاذ واتضاعه واجتهاده وكرم اخلاقه ومن اتصف بمثل صفاته لايقدم على جناية

وكادت القضية تشتهر لما دار فيها من البحث والجدال . وكل ذلك أزعج المسيو برترو قليلا وايقظ ضميره نخاف ان يكون على ضلال

الا انه كان متيقنا انه على حق ولم يعقد نيته على القبض على المتهم الا بعد طول التدبر والتبصر وقد رأى كل مايؤيد مذهبه في اتهامه منذ بداءة القضية

وهو مع ذلك مابرح خائفاً من الخطاء ويخامره الارتياب في بعض الاحيان فلا يقر له قرار ويبيت يسأل نفسه قائلا هل اخطأت ؟ .. وهل ازعجت رجلا بريئاً من التهمة ؟

ثم يعود الى القول بأن ذلك محال فان الدلائل كلها ضد أمورى درتيل فلا سبيل الى الظن ببراءته وهيهات ان يخرج نقى الصحيفة بعد ماتألبت عليه البراهين تشهد بارتكابه للجناية

ولكن هل تكون تلك البراهين ظواهر خادعة ؟

وعلى هذا الوجه كان وكيل الجمهورية مضطرب السريرة يذكر البينات التي بنى عليها التهمة ثم يعود

الى سيرة الاستاذ فيرتبك

وفيما هو كذلك دخل عليه حاجب يخبره ان بالباب سيدة تريد مقابلته

فقال له من تكون هذه السيدة ؟

أجاب الحاجب لم تشأ التصريح باسمها ياسيدى الوكيل

قال الست تعرفها ؟

أجاب يصعب تمييز ملامح وجهها لانها مبرقعة بنقاب سميك

قال ماغرضها من هذه الزيارة ؟

أجاب تزعم ان لديها نبأ خطيراً تريد مكاشفتك به.

قال دعها تدخل

وبعد دقيقة دخلت امرأة لابسة ملابس سوداء فلما جلست زحزحت النقاب عن وجهها فعرف وكيل الجمهورية انها الآنسة جيلبرت برتلمى

فاندهل واظهر اندهاله بحركة اتاها فقالت له بلهجة الكآبة

لقد ادهشك قدومى الى هنا الا انى اندفعت بحكم

الضرورة بعد تردد طويل فقد تولانى قلق شديد لكننى نظرت الى مايجب علىّ فاتيت

فتأمل الحاكم وجهها الاصفر الجميل ثم قال تقولين أن الواجب دعاك الى هنا فاننى اقدّر اكثر من جميع الناس معرفة الواجب وها انا مصغ اليك

فشجعها كلامه وقالت شكراً لك ياسيدى ولعلك تعلم شيئاً عن السبب الذى دعانى الى هذه الزيارة . . .

فاومأ برأسه

فقالت انما جئت لاكلمك عن المسيو أمورى درتيل فاعلم انه متهم ظلما . . .

فتبسم وقال اراك ايتها السيدة قد سبقت المحققين فى قضية الرجل .

فعلا الاحمرار وجنتيها وقالت بل اراهم اسرعوا كثيرا فى القاء القبض على رجل برىء . وكان يجب عليهم ان يستوثقوا بالدلائل والبينات الثابتة قبل ان يتهموا رجلا بذنب فظيع ويعرضوا اسمه للمثالب ويغادروه غرضاً للطاعنين ويودعوه غيابة السجن !

أجاب ان لدينا بينة عقلية ثابتة أيتها الآنسة ... فان المسيو درتيل نفسه يعترف بانه يستحيل عليه ان يبين لنا كيفية انفاقه الوقت وقت مقتل المسيو برتلمى

فارتعدت جيلبرت لسماع هذه الكلمات ثم قال الوكيل ان هذا الدليل ذو شأن عظيم فاذا اضفنا اليه ما علمناه من كراهته لابيك كان لنا برهان لا يدفع .

قالت أتقول انه يكره أبى ؟ وهل تقضى الحكومة قبل البحث بوجود انفعالات نفسانيه واسرار شديدة الخفاء في افئدة من ترميهم بالتهم ؟ ام تعتمد فى المحاكمة على الاميال ؟

أجاب ان المسيو درتيل كان يهواك .. ولكن أباك حل عقد خطبته لك ليزوجك برجل آخر .. وهذا أمر لا يخفى على أحد . فليس بمستنكر ان يكون المسيو درتيل راغباً فى الانتقام من أبيك . هذا مبدأ لجأت اليه الحكومة فى التحقيق وانما تبحث عن الذى ينتفع بالجريمه سواء كان انتفاعه بمال أو بانتقام ...

فقطعت عليه الكلام وقالت ان ما تقوله لفظيع . نعم

ان أمورى درتيل قاسى لوعة اليمه الا انه لا يكره احداً وهو لا يشكو الا دهره الذى فرق بينى وبينه

قال هل أنت على يقين ؟

أجابت نعم

قال اذن لماذا لا يعترف بما فعل فى ذلك الوقت الى مساء يوم الاثنين الماضى

وهنا قالت جيلبرت بصوت يرتجف :

ألم يقل لك ماذا فعل ؟...

أجاب لا ... وكتمانه علة وقوعه

قالت لا بد أن يكون لديه سبب خطير ... سبب مهم جداً ... بل لعل هذا السبب يتعلق بالشرف فهو يكتمه

قال ما من سبب يحمل على الكتمان رجلا متهما بجناية قتل تهمة يؤيدها الدليل وأى شيء اهم لديه من انقاذ نفسه والدفاع عنها والنطق بالكلمه التى تبرئ ساحته اذا كان بريئاً .. عليه ان يتنصل من الارتكاب ويغسل عنه ادران التهمة الهائلة . ولكن المسيو درتيل لا ينطق

بتلك الكلمة والحكومة لا تزال تنتظر . لكنه مصمم على السكوت

فلمعت عينا جيلبرت وقالت ان المسيو درتيل لا ينطق بهذه الكلمة لا لانه مجرم ولكن لانه من كرام الرجال ونبلائهم

قال اراك تدافعين عنه ايتها الانسة . فهل يمكنك ان تتكلمى بالنيابة عنه

وماذا لديك من الاقوال التى تنفعه ؟

فشعرت باضطراب يمازجه شىء من السرور وقد رفعت رأسها تيهاً بأمورى لعلمها انه انما اصرّ على الكتمان لاجلها وهو كتمان قد يودى به ؟ ويلقى عليه عهدة جناية كبيرة !

ادركت حقيقة الحال وايقنت انه بذل نفسه ضحية حتى لا يفتضح فابقى لها تاج عفافها متلألئاً على رأسها ودخل سجن القتلة

فيا لها من شهامة نادرة المثال !

فعظم امورى فى عينى جيلبرت واعجبت به ايما

اعجاب وخفق فؤادها بلذة وعطفها عاطفة عجيبة شديدة واستعظمت حب أمورى لها !

انه خاطر بروحه فى سبيل هواه الطاهر الشريف

فشغلها تفكرها فى وفاء ذلك الحبيب وحسن ولائه وملأ ذهنها هذا الخاطر على ما به من لذة وألم فآلت على نفسها ان تذكر له تلك المنة التى لا يفى حقها الشكر الدائم ولكن كيف تكافئه عليها

فقالت اعلم أيها الوكيل اننى جئت لاكلمك فى الافراج عن المسيو درتيل فاننى اعرف الاسباب التى حملته على السكوت ... واعنى به السكوت الذى كان سبباً فى اتهامه بقتل أبى

قال انى مصغ اليك

قالت انى لا ادرى اين كان المسيو أمورى درتيل عند وقوع الجناية ...

قال بحدة :

تكلمى أيتها الآنسة تكلمى

فترددت جيلبرت كأنها تتجلد ثم استنجدت ببسالتها

فقالت لقد كان معي

قال معك انت ؟

فنظرت اليه غير هيابة ولا وجلة وقالت نعم كان معى وقت وقوع الجناية

وقد اودعت جوابها مااستطاعت من قوة الصدق والاثبات والتأكيد فكان فى لهجتها مايشير الى انها بعيدة عن الخطأ وفى بصرها كل مايشعر بالطهارة وسلامة النية

فدهش المسيو برترو من اقرارها فاتى بحركة تنبئ بأنه لا يصدقها

فقالت ألا تصدقنى !.. انى فهمت مرادك .. انى مخطوبة المركيز سمروز ولذلك يبدو لك سرى غريباً مريباً لعلمك باننى فتاة ليس فى سيرى مايعاب

فتأثر وكيل الجمهورية وقال اطلب اليك أيتها الانسة ان تأذنى لى فاقول لك ان هذا الكذب الشريف الذى أتيت به ...

قالت اناشدك الله ياسيدى لاتنظر بهذه العين الى اقرارى الذى شق علىّ ولم يدفعنى اليه الا الضرورة !

اقسم لك على اننى لم انطق بغير الصدق والحق !.. بل اقسم لك على ذلك بتربة والدى الذى يرانى ويسمعنى

أجاب لايحق لى ان اعارضك بالتكذيب لاننى مطلع على العاطفة الخفية التى حملتك على هذا الاقرار واننى أرثى لك واحترم ماانت فيه من تألم ... ولكن يحق لى بالنظر الى معرفتي للقضية ان أقول ان البرهان الذى دبرته لابعاد المسيو درتيل عن موضوع الجناية وقت ارتكابها شديد الوطأة والخطر عليك

قالت لايهمنى غير الصدق والاقرار بالحق ومن الجرائر التى لاتغتفر ان أدع التهمة تقع على رجل اعلم يقيناً انه برىء منها بل أنا افضل افتضاحى على ان انقذه ..وبذلك أغدو آمنة شر التندم

قال غير مكترث لكلماتها الاخيرة !

ان هذا البرهان المدبر بعيد عن الصواب والحق ومن ذا يصدقه ؟..وقد تكلمت عن كذب شريف لجأت اليه فاحتججت وجادلت . فانظرى هل انت قادرة على اقناعى بان علاقة الهوى التى بينك وبين المسيو درتيل لاشان

لها فى اقرارك ؟

فخفضت جيلبرت رأسها حين تكلم ثم رفعته لتجيب فقالت نعم اننى أحببت المسيو درتيل وما من سبب يحملنى على انكار ذلك لان حبنا لم يكن فيه مايشين أو يعيب

قال ولعلك حتى اليوم مقيمة على حبه فأنت تبذلين ماعز وهان توصلا الى انقاذه . . . ولا تتوهمى اننى أتعرض لاستطلاع سر فؤادك ان ما يقال هنا لايدريه احد الاأنا وأنت فقط . لكننى يجب ان أعرف كل شىء لأكون على بصيرة وهدى

أجابت اننى أتيت الى هنا لاقول لك كل ما أعلم ... فأعيد لك قولى اننى كنت مع امورى درتيل ساعة خرّ والدى صريعاً بضربة حنجر

قال اين كنت ؟

أجابت فى مماشى الحديقة ؟

قال فى أية ساعة

أجابت فى الساعة الثامنة وربع الى ما بعدها بنصف ساعة

قال نعم ففى ذلك الوقت وقعت الجناية اذن فدعينى القى عليك سؤالا ألم تكونى وقتئذ خطيبة المركيز دى سمروز منذ الليلة البارحة ؟

فلم تجب جيلبرت

فقال لها لا تلجئنى الى المؤاربة ولعمرى فالعاطفة التى تحملك على هذا التصرف نبيلة فى نفسها وممدوحة ولكنها لاتكفى للموافقة على ما تقولينه لى

أجابت اعلم ايها الوكيل اننى قابلت أمورى درتيل وقتئذ مقابلة أخيرة اردت منها توديعه الى الابد ..وقد كان يهوانى ... كما كنت أهواه ... فمن يلومنى على تلك المقابلة ياترى ؟

قال ألم يكتم المسيو درتيل خبرها من جهله بها ؟ ... والا فما كان يمنعه ان يبوح به ثم هى ايتها الآنسة اننى نسيت أمراً نسيت انك اليوم خطيبة المركيز دى سمروز وزوجته غداً فهل تستطيعين نسيان ذلك أنت !

أجابت لست أنسى ان أمورى يتألم . . وانه برىء!

قال لقد أمرت بأن لايهان وان يعتنى به بمقدار

مايمكن الاعتناء بمن كان فى مركزه . وهو متهم لم تثبت الجناية عليه بعد وان كانت الدلائل ضده وجيهة

فصاحت لايمكن ان تكون أقوى من الحقيقة

قال لست بمحاول ازالة اوهامك وانما أود أن أراها قد تحولت الى حقائق . . . ومهما يكن من اعتقادى الشخصى فان الواجب المفروض يقضى بأن أمدَّ اليك يداً وآخذ بناصرك فى عملك المشكور

قالت شكراً لك فانت كريم الخلق وارجو . .

قال انى سأكتب شهادتك واطلب الى الكاتب نقلها الى السجل حتى توقعى عليها

ونهض واتجه الى الباب فبادرت اليه جيلبرت واستوقفته وقد استدركت أمراً لم يخطر لها لاول وهلة فى بال وهو ما ينجم عن شهادتها من النتائج التى تؤثر على زواجها القريب فلودرى المركيز دى سمروز باجتماعها على خطيبها السابق قبيل مقتل أبيها ربما قطع كل صلة له معها لمجرد فكرة احترام الناس اياه

وهى لاتخشى قطع تلك الصلات بل تلك أمنيتها

لانها لاتحب المركيز .. ولا بدع فقد أقسمت لاموري على حفظ عهد ولائه وعلى ان لا يميل فؤادها الى سواه

ولكن اذا خاف المركيز استهزاء الناس به رجع عن عزمه وخطبته واذ ذاك تكون الضربة قاضية على والدتها مدام برتلمى اذ يشتهر افلاس الجوهرى بعد مماته وتصبح زوجته هدفا للبؤس والفاقة ويصبح اسمها عرضة لعار الافلاس ويكون العار لاحقاً بذلك الفقيد الذى دفن في صباح ذلك اليوم فيوصم صيته التجارى الذى كان يفديه بروحه بوصمة الخزى والمذمة

مرَّ هذا الخاطر بذهنها مرور البرق فادركت وجوب تضحية عواطفها والطمس على معالم الحقيقة والانتظار ريثما يتهيأ لها اشهارها !

وهو انتظار اليم !

ثم تندفع بعده الى الاقرار بما تشاء غير هيابة ولا حاسبة لاحد حساباً ولا مكترثة لغير الوفاء والاخلاص

ولئن يئس أموري فى غضون تلك المدة فهى على يقين من مقدرتها على انقاذه فى اليوم الذى يلى يوم

اقترانها بالمركيز دى سمروز

ويتسنى لها استدراك مافاتها اليوم

فكرت فى ذلك كله بسرعة فاقبلت على المسيو برترو تقول له على رسلك . . . فلا تبح بما قلته لك لاحد.. وسوف أتكلم علانية متى آن الاوان الذى اختاره

أجابها ليكن ماتريدين أيتها الآنسة ولا ينبغى ان أكتم عنك انك تتحملين تبعة ثقيلة عليك وتلقين على عاتقك مالا قبل لك به فان اعباء التهمة الواقعة على المسيو درتيل كافية وافية وهو حتى الساعة لم يقدر على تخفيفها عنه

اجابت سوف تأتى ساعة ايضاح الحقيقة التى لاتدفع . وانى لواثقة

وحيته بنظرة كآبة لا توصف وخرجت مستمهلة

فعاد المسيو برترو الى مكتبه واطرق يفكر أما الفتاة فقصدت الى البيت لتكفكف عبرات والدتها الارملة وتحاول تعزيتها وقد نسيت ما ألمّ بها من الحزن عندما نظرت الى أشد منه وأعظم وقعاً

الفصل الخامس

جمعية اللصوص العامة

وصل جاك نورتون الى باريس فى صبيحة يوم صفا جوه ورق هواؤه فانتعش وأحس براحة في جسمه وضميره وكان فى أشد الاحتياج اليها

فلما نزل الى المحطة صرف اعتناءه في بادىء الامر الى شراء جريدة فقصد الى مكتبه فابتاع نسخة من احدى الجرائد الباريسية الصادرة فى ذلك اليوم

فنشرها وهو سائر وأخذ فى مطالعتها وكان يهمه الاطلاع على ما نشر عن قضية الجوهرى برتلمى

ثم ان انكبابه على مطالعة الجريدة فى الطريق على مرأى من الناس يحجب وجهه شيئاً عن الابصار فلا يعرفه أحد . فانه لم يكن يود أن يعرف والفطنة لمن كان فى مثل حاله تفيد ولا ضرر منها . وقد تقرر فى ذهنه

يومئذ ان اعتزال الناس والاحتجاب عنهم من أفضل الوسائل المؤدية الى الدعة والهناء

وهكذا خرج من المحطة من غير عائق فلما وصل الى الشارع تنفس الصعداء واتجه الى أحد القهوات العديدة المجاورة لمحطة الشرق

وهناك جلس يطالع جريدته على مهل فما عتم ان وجد ما بحث عنه اذ قرأ عنوانا مطبوعا بحروف كبيرة واليك نص الخبر الذى طالعه تحت العنوان :

جناية خفى جانيها

(لمراسلنا الخصوصى)

من ويسول فى ٨ ايار (مايو)

وقعت جناية لا تزال أسبابها خافية

وقد اضطرب لها سكان مدينتنا ولا شغل لهم الا بالتحدث عنها . وبيان الخبر ان تاجراً جوهرياً مشهوراً عندنا وجد قتيلا فى حانوته الكائن فى الميدان المجاور لدار الحكومة هو المسيو برتلمى وعنقه مقطوعا بضربة خنجر ولم يوجد الخنجر فى مكان الجناية وقد توفى

الرجل على أثر الضربة . وهو من التجار الحائزين على ثقة الجمهور واحترامه . اما الباعث على الجناية فلم يظهر بعد لان شرفات الحانوت وسائر خزائنه وجدت على حالتها ولا أثر فيها لسرقة أو تخريب . والحكومة تتحرى وتبحث »

فطوى نورتون الجريدة ودسها في جيبه وقال يخاطب نفسه :

المهم فى المسئلة ان الحكومة لم تفلح فى القبض على . نعم ان الخبر وصل الى هنا ساعة اهتدائهم الى الجثة ولكنى ما احسبهم يهتدون الى معرفة شىء

ثم أخذ يلتهم ماجاء به غلام القهوة قائلا لننتظر جرائد المساء

فلما انتهى من طعام الفطور نهض فاستوقف مركبة وسارت به الى مكتب البريد فى شارع امستردام وهو مجاور لمحطة سن لازار وذلك ليتناول ماعسى ان يرد باسمه فى البريد

فلم يجد شيئاً من الرسائل فقال لا شك انه لم يجد ما يمنع

انعقاد الجمعية. . فالامور حسنه:

فصرف المركبة وسار ماشيا الى فندق مفروش قد اتخذه سكنا وهو في زقاق تريفولى على مقربة من المحطة فبادر الى غرفته وهى فى الطابق الثالث

وكان ظاهر الفندق كداخله لارونق له ولا زخرف فيه الا ان غرفة جاك نورتون كانت حسنة الفرش وانما فرشها نورتون كما شاء فابتاع لها مايدل على سلامة ذوق وخبرة ببعض الاشياء الفنية .

وربما كان ذلك المقام فى حاجة الى التأنق والنظافة غير ان جاك نورتون وقع اختياره عليه وفضله على سواه لان ظاهره حقير ولان له بابين يؤدى أحدهما الى زقاق تريفولى المجاور لشارع سن لازار ويوصل الآخر الى شارع لوندره

وهذا امتياز يهم نورتون كثيراً لانه يتمكن من النجاة وقت الحاجة اليها. فلو هاجمه رجال الشرطة لوجد الى الفرار سبيلا ولهزأ بهم جميعاً.

فاسرع وخلع ملابسه وارتدى بغيرها ثم خرج وهو

فى زى كبار الناس وعلية القوم الباريسيين فلو رآه راء منذ هنيهة لما عرفه بعد تغييره ملابسه .

وحمل خرج الجواهر مخفياً فى محفظة كأنه محام يحمل اوراق القضايا أو سمسار ذو اشغال كثيرة مهمة

فاجتاز زقاق ريفولى ماشياً الى شارع سن لازار حتى وصل الى حى مونمارتر فدخل الى منزل على بابه الرقم ٢٧

فصعد الى الطابق الاول من بابه الوحيد وقرع مرتين بسرعة وبعد هنيهة مرتين ايضاً على مهل بتفاوت بين الاولى والثانيه وكان على هذا الباب لوح من نحاس عليه هاتان الكلمتان .

(ناد عام)

ففتح الباب وظهر رجل طويل اللحية على العتبة فنظر الى جاك نورتون مستفهما.

فتلفظ جاك نورتون بهذه الكلمات الغريبة قال انما جئت لابتاع جلد السمور.

قال من عند من ؟

اجاب من عند الشيخ سام

قال الرجل فادخل .

وهى جملة متفق عليها بين اعضاء الجمعية أو النادى بل هى كلمة المرور التى بدونهـا لايمكن الدخول الى ذلك البيت ولا الاشتراك مع العصابه الشهيرة « جمعية اللصوص العامه »

وتكورت هذه المحاورة الصغيرة على عتبه الباب عشرين مرة في ساعة يوم الاجتماع .

فاجتاز جاك الفناء ودخل الى بهو واسع انيق الاثاث الا ان جميع مقاعده من جلد وفى وسطه طاولة كبيرة عليها غطاء أخضر

وكان فيه عدة اشخاص مجتمعـين فلما دخل جاك نورتون حيوه جميعاً ورحبوا به وقال قائل منهم جاء ميلورد الذهب فاهلا وسهلا بميلورد الذهب ! وليحي ميلورد الذهب ! .

فانحنى للتحية مسرورا بها وصـافح الايدى التى امتدت لمصافحته

وكانوا مختلفى السحنات والوجوه الا انهم لابسون

ملابس حسنة وان كان جاك نورتون اكثرهم اعتناء بملابسه حتى قال أحدهم ما اعجب أمر جاك اللعين فانه كثير التفنن

وقال آخر لايوجد سواه من يتجمل بمثل هذه الثياب

وقال ثالث ارشـدنا الى الخياط الذى يشتغل فى ملابسك .

وقال رابع وما الغرض من ذلك وجميعكم قاصرون عن محا كاته ومباراته فهو أوفر ربحاً منكم واحـذق من الجميع .

فاجاب جاك نورتون متواضعاً بل ربما كنت أحسن حظاً

فقال بعضهم انت اوفر ربحاً فان محفظتك لاتخلو من الاوراق المالية وجيوبك لاتفرغ من الذهب

فتبسم جاك وأجاب لاعجب اذ يجب على ان يطابق اسمى المسمى وأنتم تدعوننى ميلورد الذهب

قالوا أصبت ! أصبت !

فجلس فى وسط اعضاء الجمعية

ودار الحديث بينهم كافة بجميع اللغات المتداولة أى

بالانكليزية والالمانية والفرنساوية والايطالية والاسبانية الخ الخ

فكانما ذلك النادى برج بابل

هذا والجرس يقرع بين كل فترة من الوقت والمحاورة القصيرة تدور بين القادم والرجل الواقف على عتبة الباب فيقول من عند من فيجاب من عند الشيخ سام.

ثم يدخل قادم جديد الى ان دقت الساعه الثانيه

فازيح ستار الباب وولج رجل هو من كان يستقبل القادمين ويأذن لهم بالدخول بعد ان يسمع منهم كلمة «الجواز»

لكنما انتزعت لحيته من وجهه وزال شعره وبان رأسه اصلع ابيض كانه كرة من عاج

وهو قد يكون في الخمسين من عمره لو امكن تقدير سنه من مجرد النظر الى وجهه

فهمس نورتون فى اذن آخر جالس الى جانبه يقول لايزال الشيخ سام نشيطاً داهية فقد خفيت على معرفته عند الباب وانت ؟

أجابه وأنا لم اعرفه كذلك

ولم يعرفه أحد من الباقين ولذلك كان الشيخ سام مبتهجاً بفوزه فى تنكره يمتع بصره بالنظر الى اندهال الحضور وتعجبهم منه

فخاطب نورتون متوددا اليه وحياه تحية خاصة ثم عطف عليه يهمس فى اذنه قائلا سلام على ولىّ عهدى .

فتبسم جاك نورتون وغمغم يقول هل تظننى ولى عهدك حقاً؟

أجاب نعم يابنىّ فالساعة آتية دانية . . . وسوف نتباحث فى هذا الامر.

ثم دار دورة كأنه قائد يراقب الفرقة الخاضعة لامره

وبعد ان صافح بعض الحضور اشار الى احدهم فنهض واوصد الباب بالقفل

فجلس الشيخ سام اذ ذاك فى وسط النادى بعظمة وكبر شأن زعيم مؤتمر وجلس كل من الحضور فى مكانه

فخاطبهم الشيخ سام بالفرنساوية وكانت لغتهم السياسية ... فقال قد عزمنا أيها الرفاق على افتتاح الجلسة

وعلينا الآن ان نتحقق انا جميعاً أصدقاء ونتيقن انه لايوجد بيننا اجنبي عنا

فاجابه أحدهم يستحيل ان يطلع اجنبي عنا على كلمة الجواز وانت الذى فتح الباب للقادمين

قال نعم ولكن الحذر لايجلب للضرر ولا سيما فى جمعية كبيرة كهذه الجمعية

فوافقه ميلورد الذهب

وللحال انتصب كاتب سر الجمعية ينادى الاعضاء باسمائهم واحداً واحداً .

فكان هناك الغريب من الاسماء والالقاب والكنى

فقال الشيخ سام يوجد واحد منا غائب

ونظر فى جريدة اسماء مفتوحة امامه ثم خاطب جاك نورتون فقال ان الفتى مانيلون لم يحضر ولم يلبّ دعوة الجمعية . . . وكان قد تقرر ان يقوم بمهمة معك فاين هو؟

اجاب جاك نورتون لست ادرى

قال وكيف ذلك ؟

اجاب انه فارقنى بغتة يوم أمس .

قال أين كان ذلك ؟ .

اجاب فى مدينة ويسول .

قال الشيخ سام لئن غاب فالذنب ذنبه فانه خسر حصته من الارباح

فقال أحدهم انها تضاف الى حصصنا

اجاب الشيخ سام بلاريب ونظاماتنا صريحة لاتحتاج الى شرح على اننى ذكرت بها الجميع فى رسالتى التى دعوتكم بها الى هذا الاجتماع .

فوافق الحضور على هذه الكلمات

فقال الشيخ سام والآن فلننظر فى اعمالنا. من حسن الحظ اننا لانشكو من القبض على أحد منا وذلك يدل على فطنتكم ومهارتكم

قال جاك نورتون احسنت

فقال الشيخ سام ايضاً :

لقد وفقت الى رصيف لنا فى لوندرة يتعهد بتصريف الحلى والاشياء التى تصعب تصفيتها على أهون سبيل وافضل شروط .

فاستصوب الحضور كلام الرئيس وتلقوه بالاستحسان
فقال الشيخ سام . اما هذا المراسل فهو ذو علاقات
وصلات مع التجار والباعة فمساعدته لنا ذات شأن عظيم
قال أحدهم وهل من مخاطرة ؟
أجاب الشيخ سام لا يوجد امر خال من المخاطرة الا
انها قليلة.
فقال جاك نورتون اية عمولة تعطى له على هذه الخدمة
أجاب الشيخ سام عشرة فى المائة
فوافق الجميع
فقال الرئيس أيضاً :
انما لانزال فى حاجة الى مراسل فى بروكسل
فقال أحد الحضور لقد وجدته أنا
فقال الشيخ سام أحسنت ياواندزوم وسوف نكلفك
مفاوضته فى الامور المختصة ببلاد البلجيك
ثم قال ان دوائرنا اصبحت تامة واعمالنا جارية أيها
الرفاق على مايروم فقد انتشرتم فى جميع الاقطار واظهرتم
من ذكاء الفهم والمهارة ما حقق آمالى بكم ومكننا من

احراز الارباح الوفيرة
« والآن فلتشرق شموس جمعيتنا فى كل مكان وليكن
لها وكلاء في اقطار المسكونة وامامنا مستقبل باهر ايضاً.
فلنوسع نطاق اعمالنا وامتحاناتنا ولنا الثروة !
فصفق الحضور تصفيقاً حاداً لهذه الكلمات
فقال الشيخ سام هل افلح المفوض فى استحضار
ملابس رجال الشرطة ؟
فاجابه احدهم . نعم وامكننا من الحصول عليها خياط
للملاعب لقيناه بحجة اننا جوق من الممثلين نطوف فى
ريف البلاد واننا نحتاج الى هذه الملابس لتمثيل رواية
فضحكوا
قال الرئيس ان هذه الاثواب تنفعنا نفعا جزيلا فى
الحيل التى ادبرها احسن تدبير. ولا سيما في تهديد بعض
الناس بالفضح والتشهير .. . وهل افلح المفوض منكم
فى الحصول على ملابس رجال الجمرك
فاجابه مجيب نعم ايها الرئيس
قال وهل افلح المفوض فى الحصول على اردية

مستخدمى المصارف الذين لايتم لنا عمل فيها بدونهم وهل جئ بملابس موظفى المخازن الكبرى لتفريغ مركبات البضائع من غير تعرض لخطر

فاجابه آخر نعم

قال واين اختام قسم الضبط ؟

فدنا احدهم منه وسلم ماطلب قائلا هاهى وهى مقلدة احسن تقليد

قال احسنت فلم يبق الا ان نستأجر محلا نتخذه مكتباً لرجال البوليس ونقود اليه البلهاء الذين نوفق الى كشف اسرارهم . وسوف اهيىء المحاضر حتى تكون قانونية واتصرف بالاوراق الرسمية على اختلاف أنواعها ثم قال هذه كلها اسباب جديدة لفوزنا فعلينا ان نكون اقوياء ماهرين ولسوف تكتب الجرائد فصولا ضافية عما تسميه « عصابة اللصوص العامة » معجبة بما تأتيه من جرأة ومايحيق بنا من الاسرار التى لا يصل اليها أحد

فعظمت حماسة الحضور

فقال جاك نورتون يأذن لى الرئيس بسؤال

قال الشيخ سام تكلم

قال لو جرح احدنا فى اثناء تأدية وظيفته الا يكون له تعويض عما لحق به الضرر

اجاب بلاريب ايها الصديق فان التعويض يقدر بعدل وحق

قال هذا ما كنت اريد العلم به !

قال الشيخ سام هل يوجد أحد أصيب بجراحات

أجاب نعم أيها الرئيس

وابرز خده المعضوض وقال بالامس هجم على كلب من الكلاب التى تقام على الحراسة وذلك فى مخزن افرغته

قال الشيخ سام يحق لك التعويض فان جرحك هذا انما أصبت به فى وقت العمل الذى يطلب منك انجازه وسيقدر ذلك حسب اهمية الجرح . . . فهل من طلبات أخرى من هذا القبيل ؟ . . .

فلم يجبه أحد

فقال ذلك خيراً لنا أيها السادة بل خير لنسائكم

وعشيقاتكم

فاستضحك الجميع

فدعاهم الرئيس الى تقديم مالديهم من نتائج سرقاتهم فامتلأت اذ ذاك الطاولة بالاشياء المسروقة وضعوها عليها .

فكان كل منهم يخرج من جيوبه أو من محفظة معه ثمرة لصوصيته وجنى سرقاته فى الشهر المنصرم .

ذلك لان اعضاء جمعية اللصوص العامة كانوا يجتمعون فى كل شهر فى يوم يعينه الشيخ سام ويدعو اليه جميع الاعضاء .

ولا ينكر القارىء تسميتها بالجمعية العامة لانها كانت عامة ولصوصها مختلفو الاجناس يسرقون من كل بلاد

واما تسميتها بالنادى فعلى بابها ذلك العنوان مكتوبا عليه النادى ولم يكن من الاندية السرية بل انشىء طبقاً للقانون كأنه ناد اعتيادى فلم يرب احد أمره منذ نشأته

وكان رئيسه الشيخ سام معروفا من نزلاء باريس وله صلات حسنه يستخدمها لابدال مسروقات

اللصوص ويفلح فى ذلك على الدوام

والشيخ سام اميركى الاصل مولود فى مدينة شكاغو فلم يكن يدور فى خلد احد ان وراء ظواهره الاميركية الساذجة مثل تلك البضاعة وانما كانوا يحسبونه من الاغنياء الذين امتازوا بغرابة الاطوار وكثرة السياحات لانهم رأوه يكثر من ركوب السيارات والتجول بها وانما كان يفعل ذلك عملا بما تقتضيه مصلحة الجمعية

اما خادم باب النادى فقد كان يحسب أولئك الذين يختلفون اليه قوماً مولعين بلعبة البوكر أو غيرها من الالعاب !

على انهم كانوا يلعبون غير تلك الالعاب ويغنمون الكسب الجزيل الذى لا يتيسر اغتنامه للمقامرين وكل ذلك من غير ان يتشاجروا كما هى العادة فى اندية القمار

وكانت نتيجة اجتماعهم ان الارباح العامة فى هذه المرة بلغت مبلغاً جسيما دل على تقدم الاشغال ونجاحهم فيها .

واجتمع على مكتب الرئيس حلى من كل نوع وشكل ، واسهم وسندات واوراق ذات قيم مالية مختلفة الاجناس

وجملة القول ان الاشياء المسروقة كانت مختلطة كاختلاط الحابل بالنابل الا ان قيمتها جسيمة وبينها ماسرقه جاك نورتون دع عقد اللالىء الذى ابتزه من مانيلون فى الليلة البارحة عند ما قذف به من مركبة السكة الحديدية

فلما انتهوا من وضع المسروقات على المكتب قال الزعيم اهذا كل مالديكم ؟

فاجابوه بالايجاب فقال الشيخ سام هذه الاشياء ترسل الليلة الى ثلاث بلاد اعنى بها لوندرة وامستردام وزوريخ وهناك يصرفها مراسلونا الزملاء باثمان تلائم مصلحة الجميع .. وبعد شهر تأتون ايها الرفاق لتتناولوا حصصكم من الارباح

فكان السرور شاملا للحضور وكانوا متهللى الوجوه فرحاً بالتوزيع المقبل

وكانوا شركاء حقيقيين كالشركاء فى المتاجر

واخرج الشيخ سام من تحت الطاولة ثلاثة اكياس من جلد الا انها ضخمة فوضع فيها جميع الاشياء

المسروقة واقفل الاكياس بالمفاتيح

فضحك ميلورد الذهب قائلا انها اكياس سياسية !

ثم اخرج الرئيس من جيبه دفتراً صغيراً واخذ فى توزيع الارباح الناجمة عن بيع المسروقات فى الشهر الفائت

ووضع على الطاولة رزمة من الاوراق المالية الفرنساوية

فالقى اللصوص اعضاء ذلك المجتمع نظرات على تلك الاوراق المالية يتجسم فيها الجشع والطمع

فقال الشيخ سام اليكم بيان ميزان الشهر الفائت لقد بلغ ما قبضته لحساب الجمعية بعد حسم النفقات العمومية وقيمة ايجار المنزل عن الاشهر الثلاثة الاخيرة ثمانية وأربعين الفاً ومائتين وخمسة وسبعين فرنكا

فصفق الحضور وصاحوا من كل ناحية عافاك الله !. ان الارباح جسيمة !

وعظم اعجابهم وارتفعت أصواتهم فقال الشيخ سام صه ياقوم فانى مطلع كلا منكم على المبلغ الذى يناله من

ذلك المجموع

وأخذ فى ذكر أسمائهم على التوالى الا ان قيم الارباح تختلف وشأن هذه الجمعية شأن شركات المضاربة فلكل ما يستحقه ويوازى مهارته وعناءه وانما يقبض كل منهم بمقدار اجتهاده فى عمله أو بمقتضى ما جاء به

وللحال جرت محاسبة كل منهم بالتدقيق وبالمصادقة من الجميع

فكان توزيع الحصص شارحاً صدورهم لأن دخل ذلك الشهر كبير واجمعت آراؤهم على انه لا يوجد عمل يأتى بمثل تلك الارباح وهذا رأى كل لص من الطرز الجديد

وهكذا تبين لهم ان « الاشغال » فى رواج وان (الريع) على ما يرام وتوزيع (الارباح) جار بمزيد الاستقامة والعدل

وتناول الشيخ سام نصيبه فدسه فى جيبه وقال لسنا نخشى كساداً !

فلم يجادل أحد فى صحة الحساب الذى سطره الرئيس

وقد باتوا يحترمونه حقاً وينضمون تحت لوائه متحدين

أما حصة جاك نورتون من التوزيع فقد بلغت ثلاثة آلاف وسبعمائة فرنك

وهو ربح جليل القدر على انه لا يقاس بما يناله فيما بعد من بيع عقد اللؤلؤ وقد غدا يعلل النفس بالاثراء منه

فلما قبض كل منهم نصيبه ختم الرئيس الجلسة قائلا الى الشهر القادم ايها الرفاق فادعو لكم بالتوفيق فليعمل كل لنفسه والله يجزى الجميع !

فانصرفوا واحداً بعد واحد كأن كلا منهم لا يعرف الآخر.

﴿ الفصل السادس ﴾

سيجاريت

يوجد في شارع القرم تحت نمرة ٢٢١ منزل كبير بنى خصيصاً للعمال اى ان صاحبه ابتناه ليتناول من أجور غرفه ريعاً وفيراً

وهو منزل ذو ست طبقات يسكنها كلها عمال وعاملات ذوات حرف متعددة . فتخلو الغرف سحابة النهار لان الساكنين والساكنات يغتدون الى المعامل والمخازن ويمتلئ ذلك المنزل بهم عند الصباح حين ذهابهم وعند المساء حين ايابهم فتسمع الاغانى والاناشيد والضحك وترى الانوار فى كل النواحى

وكان المنزل ممتلئاً بالسكان فى ذلك المساء اى ليلة انعقاد جلسة جمعية اللصوص العامة والانوار تبدو من نوافذه التي لاتعد لاقتراب بعضها من بعض

وكانت تلك الليلة لطيفة باعتلال الهواء وانقشاع الغيوم .وخادم الباب وهو شيخ ملتف بشال تركى قاعد فى موضعه يدخن لفافته ويتحدث مع زوجته وجار كان عنده

فدخلت وقتئذ فتاة رشيقة القد خفيفة الحركة فناداها باسمها سيجاريت!

فتراجعت قليلا وقالت لبيك ماذا تريد

وسيجاريت لم تتجاوز الثامنة عشرة فكانت كثيرة الضحك والابتسام تلبس زى أهل الحشمة ثم انها حسناء تجتذب الابصار برقتها ورشاقة قدها

فنهض خادم الباب وقال لك عندى وديعة أيتها الآنسة ..

قالت ماهى يامسيو جيبلو ؟

أجاب انها رسالة برقية

قالت ياللعجب رسالة برقية لى أنا ؟

قال نعم فهل يدهشك ذلك

أجابت بلا ريب فممن تكون الرسالة ؟

وهى لم تتلق رسالة قط من هذا النوع فكانت تلك الاولى ... ولكل شىء بداءة

فغمغمت تقول لاشك ان مانى مرسلها الىّ ! . . .

وكان يجب ان يأتى فى هذا الصباح ... ولكن الى أين ذهب وأين هو وماذا عسى يفعل

اما خادم الباب فدخل الى غرفته وعاد منها برسالة برقية سلمها للفتاة فشكرته وتناولتها فاذا هى معنونة بما يأتى نصه :

الى الآنسة سيجاريت

فى شارع القرم نمرة ٢٢١

فجمجمت الكلام تقول لست اعرف هذا الخطر ...

ثم انثنت الى الشيخ جيبلو تقول له فى أية ساعة وصلت اليك هذه الرسالة ؟

اجاب منذ نحو نصف ساعة

فدنت سيجاريت من مصباح هناك فمزقت الغلاف وقرأت ماصورته :

« أيتها الآنسة

« انى مكلف من صديقك مانيلون بمفاوضة مهمة معك !..

« فهو غير قادر على ملاقاتك فلا تنتظريه لئلا يذهب وقتك ضياعاً وانما تعالى فى هذا المساء - من كل بد - فى الساعة التاسعة الى القهوة التى فى زواية شارع المعبد تجدينى انتظر قدومك

(سأكون هناك . ولست تعرفيننى فلذلك سأحمل نسخة من جريدة (الوقت) فانشرها بين يدى حتى تعرفيننى بها وتهتدى الىّ سريعاً

« اذن الى الملتقى القريب وانا معتمد عليك

« صديق لمانى »

فبهتت الفتاة وطالعت الرسالة مرة ثانية فثالثة فعظم اندهالها وجعلت تقول مامعنى قول صاحب هذه الرسالة (مفاوضة مهمة) وماذا عسى تكون هذه المفاوضة ؟ ولم يطلب ان اذهب اليه (من كل بد) لكننى سأذهب

ثم قالت ان الوقت يتسع للذهاب الى هناك فيمكننى

ان اتعشى وامضى

ثم تبصرت وقالت لعل هناك مكيدة منصوبة لى ؟

من يدرى ؟.. سوف أرى !.. ومثلى لاتخاف !

وهاجها الفضول فعزمت عزماً أكيداً فصعدت الى غرفتها بخفة الظبي وكانت في اعلى البيت مجاورة للسطوح

فقالت مدام جبيلو لزوجها ان هذه الفتاة ذات عزيمة ونشاط

فاجابها نعم وانها فتاة فاضلة نظيفة الثياب حسنة التدبير عاملة مجتهدة ولا تتأخر عن دفع أجرة بيتها.

فضحك جاره وقال انما يهمك من هذه الصفات الصفة الاخيرة دون سواها !

قال خادم الباب ويوجد أمر آخر هو انها لا تتأخر فى الاياب الى البيت وقت انصرافها من العمل وكم من الفتيات من يخالفن هذه العادة الحسنة.

قال الجار نعم وانما تعرف ذلك من كثرة الساكنين والساكنات عندك

اجاب نعم وأسفاه فما أشبه هذا المنزل بثكنة عسكرية

فتنهدت زوجته وقالت ولا نفع لنا من هذه الكثرة بل نجنى منها تعباً ومشقة !

قال الجار اخبرنى ياهذا احقاً ان اسم هذه الفتاة سيجاريت ؟

اجاب لا ادرى وانما دعيت بهذا الاسم لانها تشتغل فى معمل للدخان

قال الا يعرف اسمها الحقيقى ؟

اجاب نعم فهو لويزا بودرى

قال الرجل لكن يلوح انها فتاة فاضلة عاقلة

أجاب نعم ولولا ان لها صلة وداد مع فتى متشرد ..

قالت زوجته نعم انت تعنى مانيلون فهو مقيم في هذا الحى ويعرف الفتاة من زمن طويل ولكن لايؤخذ من ذلك انها تحبه أو ترتكب وزرا بمعاشرته فهى نقية الجيب مبرأة من كل عيب

فهز الجار رأسه وقال سوف تودى بالفتى مانيلون قدوة السوء كما اودت بكثيرين

فاجابه البواب ما أحسبه فتى شريراً وانما اراه طائشاً

ضعيف الرأى فهو ينقاد الى رفاقه ويدفعون عنه ثمن الشراب

قالت مدام جيبلو لا يوجد مايؤاخذ به حتى اليوم ولم يأت منكراً نعم انه كثير الحركة ولكن ليس الذنب ذنبه لانه نشأ ولا قوم له ولم يتلق تربية من احد

قال زوجها أن مصيره الى شر

قالت انه ولد لقيط . . . وما ذنب الاطفال اللقطاء المساكين الذين لم يعرفوا لهم والداً ولا والدة وانما طرحوا في الازقة كما تطرح الآنية المكسورة !

قال الجار صدقت

قالت وبعد ذلك ليس مانيلون بالفتى الشرير السيء السيرة . . .

قال جيبلو هل تظنين ؟ . . . انه لايخبرك بما يفعله وبما يكيده . . . اما أنا فرأيي فيه انه سيء السيرة والسلوك مقدام الى الموبقات . . . والدليل على صدق كلامى انه لايشتغل وجيوبه مع ذلك ملآى بالنقود فهل من بيان لهذا التناقض وما قولك يامسيو دورنيه

فاجاب الجار اصبت فان مانيلون لا حرفة له معروفة

قالت انه يبيع الجرائد وتلك حرفته

فهز زوجها رأسه غير مصدق

فقال دردينه احقاً انه يبيع الجرائد ؟

اجاب الشيخ جيبلو نعم ولكن في اليوم الثانى والثلاثين من كل شهر . الا صدقونى ياقوم انه لص

قالت زوجته لو أتيح لهذا الغلام من يدربه ويكون له قدوة حسنة لامكن الانتفاع به فهو نشيط زكى الفهم

واذ ذاك نهض الجار ومضى الى عمله بعد محادثة قصيرة مع البواب وزوجته

* * *

خرجت سيجاريت فى الساعة التاسعة قاصدة الى القهوة التى فى شارع المعبد لتلقى الرجل الذى يدعو نفسه صديقاً لمانى فوجدت فى بهو القهوة رجالا كثيرين يطالعون الجرائد حتى يصعب عليها أن تعرف مراسليهم فوقفت على الرصيف مترددة تراقب الرجال الجالسين هناك حتى نهض من قراء الجرائد اثنان ثم انصرف

اثنان أيضاً فتأملت الباقين فاذا بينهم ثلاثة ولاحظت أحدهم وقد نشر بين يديه جريدة كانه يعرضها على المارة

فعلمت انه الرجل المقصود فدنت منه فرأته لابساً ملابس فى غاية الاتقان والهندام

فنظرت اليه فلم تعرفه لانها لم تره قط على انها ارادت ان تتحقق امره وهاجها الفضول كما سبق لنا القول

وكان الرجل الذى لم تعرفه سيجاريت معروفاً عند القراء فهو جاك نورتون قاتل جوهرى ويسول والفاتك بمانيلون بائع الجرائد وهو ميلورد الذهب كما يدعوه رفاقه اللصوص .

ولا يزال لابساً ملابسه التى زار بها النادى الا انه زرر عليها رداء خارجيا طويلا ازاد منظره خطورة وطوق عنقه بمنديل من حرير الا انه مرفوع حتى ذقنه

ولعله وصل الى القهوة منذ وقت طويل لان اقداح الشراب الفارغة كانت امامه عديدة

قلنا ان سيجاريت دنت منه حاملة بيدها الرسالة البرقية فلما رآها نهض واقفاً واستقبلها باحتفاء اهل

الشرف والذوق كانه من علية القوم وقال لها تفضلى بالجلوس ايتها الآنسة

وقال فى نفسه سراً :

انها فتانة ولم يخدعنى مانيلون حين وصفها لى ولقد كان سليم الذوق رحمه الله !

فجلست الفتاة واخذت تنظر ملياً الى الرجل الذى تراه أمامها

فقال لقد علمت انك تلقيت رسالتى البرقية ولا اشك الآن فى انك الآنسة سيجاريت

اجابت نعم انا من يقال لها سيجاريت اما اسمى الحقيقى فهو لويزا بودرى

قال لقد سرتنى معرفتى اياك فماذا عسى ان تشربين ؟

فلم تجبه على هذا السؤال ولكنها قالت له ليس لى صبر ياسيدتى على معرفة المفاوضة المهمة التى تشير اليها رسالتك

قال عفواً فقد وددت لو انها كانت مما يسر !

قالت وكيف ذلك ؟

أجاب نعم . فان الانباء التى انقلها اليك ستكون سبباً فى ذرف العبرات من عينيك اللطيفتين

قالت تكلم

أجاب ان صديقك عهد الىَّ بأن أقول لك لا تنتظرى لقاءه بعد اليوم

فاضطربت وصاحت لماذا ؟

أجاب لانه اضطر الى الرحيل عن الديار الفرنساوية

قالت متى ؟

أجاب أمس . . . فهل كنت تنتظرين وصوله اليوم

قالت نعم

قال اذن فلا فائدة من انتظاره بعد الآن فانه لا يعود

قالت تقول انه اضطر الى الرحيل عن الديار الفرنساوية فماذا الذى اضطره الى الرحيل

أجاب ان له حكايات مع رجال الشرط وانها حكايات شائنة

فتنهدت الفتاة وكادت تصعد الزفرات ثم قالت من مثل ذلك كنت خائفة عليه ولكم حذرته وأوصيته ولكنه

لم يسمع نصحى

قال بماذا نصحت له

أجابت بأن يفعل فعلى أنا فيشتغل بدلا من ان يلجأ الى البطالة والكسل ويعاشر أشقياء الناس

قال جاك نورتون اصبت فانه لم يفلح ولكم نصحت له ايضاً نصح صديق

فلم يخف ما فى هذه الكلمات من رياء على سيجاريت فرابها أمر هذا الرجل المرتدى بلباس أهل الفضل والنبل وهو يدعى صداقة صعلوك كمانيلون .

ان مانى كان لها رفيقاً فى الحداثة ولازمها فى ايام البؤس والشقاء ونشأ معها فكان مثلها لا أهل له ولا اقارب طفلا شريدا فقيرا بلا مأوى محروما من كل مايتمتع به اولاد الناس فتحابا وليس فى حبهما مايحمل على التعجب بل كان طبيعياً . . على انه وجد مافرق بينهما وحال دون ائتلافهما

فانها عمدت منذ نعومة اظفارها الى المعيشة المنظمة والسلوك الحسن والمنهج السوى أما هو فراقت له البطالة

والبطالة أم المعاصى والنقائص . . . فاخذ يهبط من دركة الى دركة الى ان لقى نورتون وتعلم منه تلك الحرفة الشريفة التي رأيناه يزاولها فى مدينه " ويسول "

وعظم نفوذ نورتون عليه فاقتاده الى المنكرات والموبقات وسيجاريت جاهلة انه احترف اللصوصية غير انها اساءت به الظن وخامرها قلق مبهم ...

وكان ذلك علة تعسها

كانت سيجاريت على الرغم من التربية التي تلقتها فى الازقة ذات صلاح مستمسكة بعروة الفضيلة الوثقى فلم تحد عن الطريق السوى .

ولو درت ان رفيق حداثتها أتى امرا منكرا لما رضيت بمجاورته ومصاحبته وتودده اليها لكنها فى المدة الاخيرة أصبحت ترتاب بسيرته ولاحت لها دلائل ارعبتها قليلا

فكانت على الدوام تؤخر الموعد المضروب لاقترانها به وقد طلب منها عقد قرانه من زمن طويل وكادت تعده بالقبول :

وكانت كلما امعنت النظر وتبصرت تزداد اعتقاداً

بأن الزواج لاينبغى ان يتم مالم يكن كل من الزوجين كفوءاً للآخر يعتمد عليه كل الاعتماد ورأت انها لا تستطيع ان تثق بمانيلون كما تحب فانه تعود الكسل والبطالة وهى عادة تخيفها أما فى هذه الاثناء فان سلوكه الغريب زادها ريبة وحذرا

فلما سمعت نورتون وهو الرجل الذى تدل ظواهره على انه من علية القوم يزعم انه صديق لذلك الفتى الصعلوك السيء السيرة دهشت وكبر ارتيابها فقالت فى نفسها :

أى علاقة بين مانيلون وهذا السيد المتأنق في لباسه وشرابه ؟

فاستفهمت منه وقالت له هل تعرف صديقى !

أجاب اعرفه حق المعرفة أيتها الآنسة

قالت ومن عهد بعيد !

أجاب مرتبكا :

منذ بضعة شهور ...

قالت لعله كان يشتغل عندك ؟

أجاب نعم كان يشتغل عندى ...

قالت اى حرفة يزاولها ياترى ؟

أجاب لقد كنت اعهد اليه ببيع بعض اشياء مشتراة من محلات التصفية ... فهو يحسن البيع

قالت وهل كان يكسب مالا كثيراً من هذا البيع ؟

أجاب نعم اذا اشتغل بنشاط

قالت اذن من هنا مصدر النقود التى كنت اراها معه على الدوام ولا اراه يربحها ..

قال هل كان يعطيك نقوداً ؟

أجابت كلا ولو اعطانى لما اخذت

ثم قالت بكبر وانفة :

لست في حاجة الى نقود احد فاننى اكسب رزقى بالعمل المستمر

فصاح جاك نورتون بحماسة .

احسنت ايتها الانسة ونعم ماتفعلين

فلبثت الفتاة مطرقة ثم رفعت رأسها وقالت ماذا فعل حتى اضطر الى الفرار

أجاب انه تعرض لرفيق له هاجماً عليه ليسلب ماله

قالت ايكون مانيلون لصاً ؟ . . . ويلاه ماهذا الذى اسمعه ؟ . . .

اجاب نورتون بلهجة لاتخلو من سخر:

ليست هذه اول مرة لكنه استخدم العنف بالامس فترك الرجل طريحاً فى مكانه .

قالت مقتولا ؟ . . .

أجاب لا بل مثخنا بالجراح مشرفا على التلف . . .

ولعمرى انه اوقع نفسه فى ورطة سيئة وربما اهتمت الحكومة بالقبض عليه .

قالت أف له ايقدم على مثل هذا !.. آه من المنكود الحظ ! . . .

وذرفت عيناها دمعتين فكفكفتهما بطرف منديلها كانها خجلت من انفعالها وانعطافها على رجل لا يستحق الانعطاف

أما نورتون فكان يراقبها مراقبة دقيقة فتنهدت تنهداً عميقاً الى ان قالت لقد وددت ان يرحل حتى لا أراه بعد

اليوم .. ولست قادرة على ان أراه

قال أصبت يابنية

قالت وهيهات ان ارضى به زوجا .. على اننا تعاهدنا على الزواج وتواعدنا به عند مايتم لنا الحصول على نقود نقتصدها ونفرش بها بيتاً لنا ... ولهذا انهكت نفسى فى العمل المتواصل ... رغبة منى فى اعداد بيت يصلح لزوجين ..

وهنا شهقت بالبكاء على أملها الضائع

أجل فقد كانت تحب رفيق حداثتها وتأنس بوجهه وكان بشوشاً طلق المحيا فى أيام البؤس وعقدت رجاءها على ان تعيش معه مدى العمر وان تفديه بروحها وتعتمد عليه كنصير يمنعها ويقيم على ولائها فتؤلف معه عيلة فقيرة صغيرة الا انها قادرة على مقاومة نوازل الدهر وضرائه بالصبر والحب المتبادل

فاذا بها قد الفته غير كفء لها ووجدته لا يصلح لشيء بل عرفته لصاً !

فلم يكن لها بد من ان تنساه وتمحو حبه من صحيفة

قلبها الى الابد

فاستشعرت كآبة حقيقية ولوعة اليمة واشجاناً لم تألفها من قبل وتمنت لو تطلق لعبراتها العنان

أما ميلورد الذهب فلم يكترث لوجدها وهو لم يستدع صاحبة مانيلون عبثاً وانما لقصد مقرر عنده وخطة مرسومة

ود ان يعرف اذا كان ذلك الفتى تكلم عنه مع صاحبته أو تلفظ باسمه . وهذا أمر فى مكان من الاهمية عنده كما لا يخفى بالنظر الى حادثة القطار لو ان الحكومة استنطقت سيجاريت عنها

فاراد ان يتحقق ليطمئن على نفسه من هذه الجهة فقال لها :

ألم يخاطبك مانيلون عنى قط ؟

قالت يجب ان تخبرنى أولاً من انت حتى أتمكن من مجاوبتك على سؤالك

قال الم يكلمك قط عن جاك ... عن جاك نورتون ؟

قالت ماشأن ذلك الرجل !

قال اجيبي أولاً أيتها الانسة . . . وانما اسألك ولا غرض لى الا نفعه

أجابت لا فانه لم يتلفظ أمامى قط بهذا الاسم

فتبسم ميلورد الذهب تبسما خفيا وقد علم ان لا خوف من هذه الناحية

فقالت سيجاريت اذن هل تدعى جاك نورتون

فارتعد وأجاب كلا وانما ذاك اسم صديق لى ولمانيلون

فقالت الفتاة عجباً !

ورابها أمر ذلك الرجل

واذا ببائع ينادى باسماء جرائد المساء

فدعاه جاك نورتون ليشترى منه عدداً وأخذ يبحث فى باب الحوادث عما يهمه غير مكترث للفتاة

وللحال لفت بصره عنوان مكتوب بحرف كبير هذه صورته

جريمة ويسول

وتحت هذا العنوان سطر آخر هذا نصه

القبض على المتهم

قبضت نيابة ويسول على متهم بقتل المسيو برتلمى تاجر الجواهر وهو أستاذ مقتبل الشباب اسمه المسيو أمورى درتيل والبينات التى ظهرت على اقترافه للجريمة ثقيلة الوطأة عليه الا انه على الرغم من كل ذلك ما برح مصرّاً على الانكار

فقال مليورد الذهب فى سره :

أما انا فاصدقك أيها الحبيب !

ووضع الجريدة أمامه وقد فرح واستبشر سره ان الامور حسنة كما يقول لان غيره رمى بذنبه فله أن ينام مستريح الفكر مطمئن القلب آمناً ففرك كفيه ولم يخف سروره

ولاحظته سيجاريت فعلمت أن لاستبشاره وارتياحه سراً خفياً وهيهات ان يخطر فى بالها ان ذلك الرجل الشرير يطرب ويسر لانه أنزل الغموم والاحزان باسرة

كريمة وان تهلل وجهه ناشىء عن اتهام برىء فى مكانه

فحملها الفضول على الاستطلاع وادركت فى الحال انه يوجد علاقة بين مطالعة الرجل للجريدة وذلك الابتسام الذى افترّ به ثغره

فتناولتها وقالت تأذن لى بالنظر فى هذه الجريدة ؟..

فاتى بحركة كانه يمنعها من المطالعة الا انها كانت قد سبقت فتناولت الجريدة وأخذت فى تلاوتها

فوقع بصرها على عمود فى الصفحة الثالثة وما كادت تطالع سطوره حتى قرأت اسماً خفق له فؤادها هو اسم مانيلون . . .

وكان مطبوعاً بحروف خيل لها انها من نار

فقرأت ذلك الفصل وعيناها محملقتان وفؤادها يخفق وحلقها يجف ويتقلص وهذه صورته

قضية سرية

«عثر اليوم بعض الفعلة الذين يشتغلون فى خط المحطة الشرقية على رجل مضرج الوجه بالدم طريح في مكان قريب من المحطة عند نفق لابومراى

«فحملوه الى المستشفى وعولج فاستفاق وتبين انه من باعة الجرائد الباريسيين واسمه مانيلون. وأخبر ان رجلا انكليزى الاصل اسمه جاك نورتون كان رفيقه فى سفره وهو الذى قذف به من مركبة القطار وذكر من ملامحه وشكله علامات تدل عليه فقال انه طويل القامة اشهب العينين اشقر الشاربين والعارضين متختم بخواتم عديدة

« ومن غريب التقادير ان بائع الجرائد لم يقتل ولم تسحقه عجلات القطر العديدة التى مرت على ذلك الخط لكن ساعده انكسر وبدنه تهشم ويرجى له الشفاء في زمن غير بعيد

« ومن العلامات التى اشار اليها على الرجل الذى رماه انه عضه فى خده اثناء دفاعه عن نفسه وقبيل وقوعه على الخط الحديدى عضة ربما بقى اثرها فى وجهه

« والمأمول ان يرتفع حجاب السر عن هذه القضية اما الفتى المشار اليه فلا يزال يعالج فى مستشفى شومون»

قرأت سيجاريت هذا الخبر بلهفة واندهال وانفعال

وكانت ترفع بصرها اثناء القراءة لتنظر الى وجه الرجل الجالس أمامها فلما وصلت الى العلامات عراها ارتجاف لانها وجدتها منطبقة كل الانطباق عليه

فجعلت تقول فى نفسها نعم هو بعينه طويل القامة أشهب العينين أشقر العارضين والشاربين متختم بخواتم عديدة

اما جاك نورتون فكان وقتئذ منهمكا فى النظر الى دفتر صغير معه فامكنها ان تلاحظه كما تحب

ولفت انتباهها أمر لم تحفل به لاول وهلة هو ارتفاع طرف الرداء الخارجى الى موازاة خد الرجل وربطه عنقه بمنديل

فانكرت ذلك لان الهواء لم يكن باردا فى ذلك اليوم بل يكاد يكون حارّا . ولبس ذلك الرداء الثقيل غير لازم ولا سيما لمن كان متأنقاً فى ملابسه كجاك نورتون

فقالت فى نفسها لعله يخفى أثر العضة التى فى خده على ماذكرت الجريدة

فزال الريب من نفسها وايقنت انه ذلك الذى قذف بمانيلون من القطار

وهو اذن جاك نورتون !

جالت هذه الخوطر باسرع من لحظة فى ذهن الفتاة فادركها الخوف من ذلك الرجل وسرحت بصرها حولها

فاطمأن قلبها لكثرة الناس الذين رأتهم حول ذلك المكان وضعضعها ما قرأته فلم تعد قادرة على ان تحول بصرها عن ذلك اللص السفاك

ثم لم تتردد فقالت له بصوت يرتجف :

هو . . اعلم يا هذا ان جاك نورتون اى الرجل الذى كلمتنى عنه الآن انما

قال ماذا ؟

اجابت انت الرجل

قال انا ؟ . . .

وحاول الضحك فلم تدعه يفعل لكنها رفعت صوتها وقالت أنت الذى رمى صديقى من مركبة السكة الحديدية في الليلة البارحة ! .. وهذه جريدتك تروى خبرك ... فما بالك لا تتكلم !..

فنهض سريعاً وقد امتقع لونه ... وعظم اضطرابه فهدر متوعداً وقال ويك اصمتى !.. اصمتي !..

وأجال بصره فى القهوة بسرعة البرق

فاطمأن لانه لم يجد من رجال الشرط أحداً هناك

فجلس ونظر الى الفتاة بعين المرتاب المحترس

فلم ترعها وقاحته وجسارته بل دنت منه بحدة وغضب وأنزلت طرف ردائه مع المنديل عن وجهه فبان لها أثر العضة واضحاً. فصاحت لقد برح الخفاء وهذا البرهان ظاهر !.. يالك من شقى !..

ففارقته سكينته

واشتد بها الغضب فصاحت يالك من نذل . والحمد لله على ان صديقى لم يمت ... وسوف يرجع واما انت فتساق الى المنفى !

فقلق جاك نورتون وخاف من ان تدور عليه الدوائر فقال لم تات الساعة بعد !

وللحال التف الناس حول سيجاريت وقد اجتذبهم اليها صياحها .

فجعل جاك نورتون يقول كلا لم تأت تلك الساعة بعد ووثب وثبة الى الرصيف قبل ان يفكر أحد فى منعه واذا بمركبة الفاها خالية فامتطاها وقال للحوذى اسرع مااستطعت ولك احسن مكافأة !

فادرك الحوذى المراد وضرب الخيل بسوطه فسارت المركبة تنهب الارض وفى اقل من ثانية غابت عن العيان فى عطفة شارع اكدوك

فصرخت الفتاة صرخة عالية وقد أثر عليها مارأت وما علمت وترامت على كرسى وهى ترتعد

الفصل السابع

الشيخ سام

ولما ابتعدت المركبة امر جاك نورتون الحوذى ان يسير به الى زقاق تريفولى

ويذكر القراء ان منزله فى ذلك الشارع

فنظر من كوة المركبة الى ماوراءها فلم ير احدا يتبعه فلما بلغ محطة الشرق وايقن انه أضل من يبحث عنه استوقف الحوذى عند قهوة واشترى عددا من جريدة بدلا من العدد الذى بقى امام الفتاة سيجاريت

فاطلع عليه وعرف الحقيقة فان الفصل الذى هدى سيجاريت اليه ابان له خطأه فى استبشاره بالسلامة لنفسه والامن من تبعة الجريمة التى البسها امورى درتيل كما يلبس الثوب

فلم يدم سروره واطمئنانه الا قليلا

ذلك لان من يزاول حرفة اللصوصية لا يأمن ما يجىء به الغد ولا ما يجىء به اليوم

فقد يتخذ المجرم كل تدبير ويحتاط جهده فتأتى الحوادث بما لا يكون فى حسبانه وتفسد ما دبره بالجهد على أهون سبيل

فكأن الحكومة قد باشرت بأن تثأر لنفسها منه . اذ لم يكد يستريح من قبيل جناية ويسول حتى قلق الآن من ناحية مانيلون

لم يمت مانيلون فى النفق لكنه ظل حياً وفضحه عند الحكومة

لم يبال ان يقرّ بكل أمر وان يجر الى غريمه البلاء ولو اوقع فيه نفسه

فجعل يعيد تلاوة الفصل المنشور فى الجريدة ويقول يالها من قضية ملعونة !

وكان أهم الامور أن يغادر الفتاة سيجاريت حيث هى حتى لا تهتدى اليه وقد نجا منها . . . على انه وعد نفسه بالتروى والتحذر بعد اليوم

فلما وصل الى منزله اضطجع على فراشه ولاح له ان تلك خير الوسائل التى يتجنب بها الخطر وان خروجه من البيت في ذلك اليوم المشؤوم قد يوقعه فى ورطة فان النحس يجلب النحس والعاقل من تجنب المخاوف ومن تعرض للبلاء لا يأمن ان ينزل به

فقضى ليلته وهو مضطرب واستيقظ عند الصباح وباب غرفته يقرع

فقال فى نفسه:

ترى من القادم الىّ فى مثل هذه الساعة ؟

هل يكون رجال البوليس ؟ ..

فارتعدت فرائصه

على انه لم يكن بدّ من الظهور للقادم بعد ماعرف انه هناك من صاحب الفندق

فذهب الى الباب يفتحه وهو لابس قميص النوم ويده ترتجف خوفاً

فلما انفتح الباب بصر برجل مجهول واقف على العتبة

فقال له بصوت الخائف :

ماذا تريد ؟

أجاب اردت لقاءك

قال لاى غرض ؟

أجاب انى مخبرك

ودخل الرجل وهو يضحك فاكره نورتون على التقهقر امامه ثم اقفل الباب وراءه

وكان ذلك الرجل غريب الزى لابساً ملابس متقنة ورداء طويلا يصل الى قدميه وساقاه مطوقتان بسماة من جوخ كانه خارج للصيد وعلى رأسه قبعة رمادية اللون

فرآه جاك نورتون قد جلس على كرسى كانه صديق فانذهل منه ثم قال وهو يضحك فى فتور كالمستهزىء

الم تكن اول أمس في ويسول ؟

قال لكن ....

فلم يدعه يتمم الكلام بل قال قل نعم ... وكان معك فتى اسمه مانيلون . اليس الامر كذلك ؟

قال ما اعلم . . . . .

قال لاتنكر فانى مطلع على الحقيقة فلا جدال ولا انكار . اما اذا أبيت الجواب الصريح فالضر واقع بك

فقال نورتون ولكن من أنت ؟

أجاب كان يجب عليك ان تبدأ بهذا السؤال أيها الصديق !

ونهض الرجل فانتزع شاربيه وخلع قبعته ورفع منظاره عن عينيه فبان الشيخ سام

فقهقه نورتون وقال له لقـد اخفتنى ياشيخى فانا أوبخك على فعلك معى

فلم يضحك الشيخ سام بل قال أما انا فاننى اعنفك أشد تعنيف على أمرين

قال ماهما

أجاب أولهما انك لم تعرفنى . ولا أجهل مافى ذلك من الصعوبة فلا انقم عليك كثيراً والامر الثانى وهو الاهم لدىَّ انك تركتنى ادخل عليك وأذنت لى بالقاء اسئلة سرية عليك وهذا لايليق الا بمن كان حديث عهد فى

الجماعة

قال انى اعترف بان ....

قال بل اعترف بغباوتك ولا تزد ... ويحك هبنى واحداً من رجال الشرطة ألم تكن الان مقبوضاً على عنقك ومسوقاً الى السجن ... وقد اردت تعليمك بهذا الدرس لانك فى أشد الحاجة اليه ولم أكن أحسبك غافلاً ...

أجاب ان درسك يفيدنى أيها الشيخ سام فكن واثقاً

قال هذا ماأرجوه والان فلنتكلم عن اشغالنا

أجاب انى مصغ اليك

قال يجب عليك ان تسافر فى هذه الساعة

قال أأرحل من باريس ؟

أجاب نعم

قال لماذا ؟

قال ألم تطالع الجرائد

أجاب صحيح ....

قال يجب ان تفهم ايها العزيز ماأقوله ... فان قضية

النفق فى شومون قد شاع خبرها وذاع وسوف تعرف
ويدهشنى كثيراً انك لم تصفد بالاغلال حتى الساعة.
واقسم لك بما شئت على اننى لم أكن ارجو ان أراك
هنا ...

أجاب ولكن لا يوجد أحد يعرفنى أيها الشيخ العزيز

قال ان الشرطة تتعرف بك بسرعة والعلامات التي
ذكرتها الجرائد واضحة ...

أجاب تلك علامات لا شأن لها ومتى تنكرت خفيت
على كل انسان

قال هذا كلام معقول وقد عظمت الان فى عينى ..
والان حدثنى بكلمتين عن خبرك مع مانيلون

فحدثه جاك نورتون بوقوع مشاجرة بينه وبين الفتى
وزعم انه باداه بالشر الى ان قال انى افدت جمعيتنا خيراً
كثيراً حين تخلصت من ذلك الشقى

قال وكيف ذلك ؟

أجاب ان اللص أراد أن يحفظ لنفسه بعض الجواهر
فلما اعترضت وأفسدت تدبيره هددنى بفضح امرنا

جميعاً.

قال ولكن الخطر لا يزال يوجد لان مانيلون لم يمت

أجاب بل ينفعه الدرس والتأديب ... ثم انه ليس
بيده برهان يقوم ضدنا لا رسائل ولا أوراق ولا
دعوات

قال أصبت فانه لم يستوف مدة التمرين المعتاد ! ..
ولكن لا يهمنا ذلك بقدر ما يهمنا اجتناب النازلة التى تحوم
فوق رأسك وتكاد تنقض عليك فالحكمة تقضى عليك
بالابتعاد عن العاصمة مسافة كبيرة

أجاب أصبت

قال وعجل بالسفر فالعجلة احمد . سافر اليوم الا
تعرف المثل القائل لا تؤجل عمل اليوم الى الغد ...

أجاب سمعاً وطاعة

فتهلل وجه الشيخ سام وقال انى اعتمد عليك فى ذلك

قال الى اين اسافر ؟

أجاب الى لوندره .. فقد مات سفيرنا هناك وتلقيت
النبأ بعد يوم انعقاد الجمعية فتحل محله ريثما يأتيك

أمر آخر

قال الامر اليك

قال أظنك تعرف العاصمة الانكليزية حق المعرفة ؟

أجاب كيف لا وقد ولدت فيها واقمت فيها حتى بلغت العشرين ثم سافرت منها الى باريس . . .

قال اذا لم اكن مخطئاً فان فى تلك العاصمة والدتك لاتزال حية ترزق

فاضطرب ميلورد الذهب واجاب نعم .

وخفض رأسه عند ما تلفظ بهذه الكلمة ولاح الارتباك على وجهه .

فقال زعيم جمعية اللصوص وماعسى تصنع أمك ؟

اجاب ان لها ريعاً صغيرا تعيش منه .

قال أنى أوصيك منذ الآن بان لاتتعرض للاجتماع بها فان اعمالنا تقضى علينا بترك الوالدين والاقارب فانهم يضايقوننا فهل فهمت ياجاك ؟

اجاب بقوله Yes أى نعم

قال انت مسافر بلا امهال اليس الامر كذلك

اجاب فى هذا اليوم بعد الظهر فاى طريق اسلك .

قال سر فى طريق البلجيك فالفطنة تقضى بذلك . وفى اليوم التالى ليوم وصولك الى لوندره تجد فى البريد الخصوصى رسالة باسمك مكتوب عليها (تبقى فى البريد) وفيها العنوان المتفق على ان يكون عنوانك

وسلمه غلافا مختوما كانه رسالة رسمية . على انه كان رسالة رسمية حقيقية لانه يتعلق بمصلحة الجمعية

فقال الزعيم تحوى هذه الرسالة ايضاحات على امور سانظر فيها فى هذا اليوم لاخراجها الى حيز العمل فى الاسبوع القادم فعليك ان تفعل ما اشير به عليك

أجاب سمعاً وطاعة وهل شاهدت منى غير ذلك ؟

قال هذا صحيح فاننى امتدح غيرتك ولذلك اثق بك ولذلك ايضاً عزمت على ان اجعلك خلفاً لى فى الرئاسة متى اعتزلت الاعمال

قال أنت تصانعنى ايها الرئيس ..

أجاب كلا وقد اخبرتك بالامس انك ولى عهدى وقد انتخبتك رئيساً لجمعيتنا العامة ووقعت على الانتخاب

قال أرجو ان لايكون ذلك الا بعد زمن طويل

أجاب بل يكون بعد زمن قصير

قال سوف ترانى كفؤاً لهذه الثقة فلا اضيعها

أجاب لقد بلغ منى الكبر فلا بدّ من الاعتزال والراحة

ففكر نورتون يقول نعم ولكن بعدما احرزت ثروة جسيمة !

وكان جاك نورتون يسرّ كلما خاطبه الرئيس بهذا المعنى فان مركز الرئيس اهم المراكز عنده فهو يدير ادارة جمعية اللصوص العامة

ولو طلبوا من الشيخ سام ان يستبدل منصبه بمنصب وزير لابى وامتنع

ذلك لانه منصب يفضل الوزارة من وجهين احدهما انه ارسخ واوطد وثانيهما ان مكاسبه اوفر واغزر هذا فضلا عن ان متاعبه قليلة ومخاوفه لاتكاد تذكر . . .

فان الرئيس محاط بحجاب من الكتمان وسور من الرجال الخاضعين لامره

وبين اولئك اللصوص وامثالهم يندر ان يخفروه وهو ان يكتم كل منهم سر رفاقه

وقد اتى عشرة اعوام على الشيخ سام وهو فى ذلك المنصب السامى فجمع ثروة طائلة لان له من الارباح حصة الاسد وان كانت ارباح معاونيه كبيرة

وقد غدا جاك نورتون آملا ان يصل يوماً الى تلك الاريكة فيأمر وينهى ويظهر عظمته وسيادته ويغنم المكاسب

ولا غرو فان الشيخ سام نفسه قد اختاره خلفاً له فكان ذلك الاختيار داعية التيه والسرور عنده وهو فكر بدد سحائب الاكدار من مخيلته

فقال الشيخ سام قد اتفقنا اذاً على ان ترحل الى لوندرة بعد ان تتنكر كل التنكر ومتى وصلت تبادر من فورك الى مكتب التلغراف فترسل الىّ رسالة برقية فيها عنوانك . فربما احتجت الى مراسلتك بالتلغراف

اجاب قد اتفقنا على ذلك

قال اتدرى مايطلب منك للقيام بالمنصب الجديد ؟

جاب ادرى شيئاً

قال دعنى اذكرك بواجباتك الجديدة. وأخرج من جيبه كراساً يشتمل على نظامات الجمعية أوقوانينها فقرأ بصوت مرتفع مايأتى :

المادة السابعة عشرة — يجب على الوكيل والمراسل المساهم المقيم في الخارج سواء كانت اقامته الى أجل مسمى او دائمة ان يقوم باعمال التبادل اى ان يرسل الى مركز الجمعية فى باريس الاشياء الآتية من البلد التى يقيم ويشتغل فيها ويتلقى بدلا منها الاشياء الواردة من البلاد الاخرى مما يمكن تصريفه في الموضع الذى يقيم فيه فيصرفه لحساب الجمعية

المادة الثامنة عشرة ـ يجب عليه ان يتخذ مساعدين يثق بهم فيعهد اليهم بتوزيع الاشياء فى المدن ويستوفي قبض اثمانها ويحسم منها اجور العمال ويرسل الباقى الى مركز الجمعية

المادة التاسعة عشرة ـ على الوكيل او المراسل ان يذهب مرة فى كل اسبوع الى الحدود والتخوم بطلب

« الهميان السياسى » فيدفع رسوم الجمرك ثم يسلم ساعى الجمعية وهو الذى يستلم منه الهميان السياسى مالديه من الاسبوع الماضى اعنى الاشياء المراد نقلها الى باريس

وهنا سكت الرئيس قليلا ثم عاد الى القراءة فتلا مايأتى

المادة العشرون ـ اذا فوجئ المساهم مفاجأة فهو يتعهد ان لا يبوح بانتمائه الى الجمعية

ثم اطبق الكراس ووضعه فى جيبه وقال انت ترى ان هذه المواد واضحة جلية فلا حاجة بالمرء الى تلقى العلم في المدارس العالية توصلا الى فهمها

فضحك جاك نورتون واجاب نعم انى أرى ذلك

قال والآن بقى علىّ أيها الصديق ان ادفع اليك نفقة السفر

فلمعت عينا جاك شراهة وطمعاً.

فناوله الشيخ سام غلافا فتلقفه مسرعاً وقال كم يوجد فى هذا الغلاف ؟

اجاب ستة آلاف فرنك .

فلاحت أمارات الرضى على وجه نورتون وتبسم

فادرك زعيم اللصوص معنى تبسمه فقال لقد تبين لى انك تعتبر المبلغ كافياً كما اعتبرته انا

اجاب نعم

قال ان مدينة لونده من أهم المدن عند الجمعية بالنظر الى سعة نطاق اعمالنا فيها والمقيم فيها يحتاج الى الانفاق عن سعة واما مدينة بروكسل فهى علامة الوصل بيننا وبين المدن الشمالية واما زوريخ فهى المركز المتوسط من القارة الاوربية . لكنما لونده تشرف على انكلترا وايكوسيا وايرلندة ثم انها الحى الذى يدور فيه دولاب اشغالنا وتنتقل حركته الى نيويورك وسائر الاقطار الاميركية .

أجاب مليورد الذهب عندى علم بذلك

قال آمل ان تنوب عنا وتعمل لمصلحة الجمعية خير الاعمال . . . واعلم أن عين الجمعية ناظرة اليك ترقب الخير على يديك ولا أكتم عنك ان ارتقاءك الى منصب الرئاسة موقوف على نتيجة اجتهادك وقيامك بما

يرجى منك

وهمّ بالانصراف فعمد الى التنكر والتزيي بالزى الذى جاء به فجعل جاك نورتون يتأمله بفضول

فقال له انظر وتعلم فقد يفيدك هذا العلم خيراً عند الحاجة

أجاب يوجد أشياء اعرفها . . . وانى مبرهن لك الساعة على ذلك

وفيما كان الشيخ سام يغرس شاربيه وقف نورتون الى طاولته وأخذ فى تغيير صورته فاستخدم لذلك صباغا وانشأ خطوطاً وبيض شعر لحيته وضخم انفه بشىء من القطن حتى صار ينكره من يراه فاعجب به الشيخ سام وصاح به عافاك الله ايها الصديق

فقال له اصبر ايها الزعيم ريثما البس ثيابى فترى عجباً

ودخل الى غرفة وبعد هنيهة خرج منها وكأنه رجل آخر فلبس صدرة بيضاء وبنطلوناً واسعاً وسترة سوداء فكان كأنه تاجر شيخ قد عجز عن الدأب والكد

فبسط الشيخ سام اليه كفه وقال أحسنت فانت لى

نعم الخلف ياجاك نورتون

فانحنى امامه وقال انى ذاهب متأهب للسفر الى لوندره

فألقى اليه الشيخ سام بعض نصائح ذات شأن فلما انتهى من ذلك استأذن وانصرف

فتأهب جاك نورتون ولم يهتم بدفع اجرة الغرفة الى صاحب الفندق لانها مدفوعة سلفاً فانزل امتعته من غير ان يقابل أحداً وهو مسرور بذلك لان تنكره يهمه كثيراً

الا انه استاء من امر اذ تفقد امتعه فلم يجد بينها الخنجر الذى استخدمه فى جناية ويسول

فبحث عنه من غير جدوى وقد كان واثقاً مع ذلك من انه كان يحمله فى مساء الامس

فعكف يفتش عنه فى الغرف وتحت المقاعد والاثاث فلم يجده فايقن انه وقع منذ حين فراره من القهوة ولكن فى أى مكان ؟

ذلك مااستحال عليه معرفته وكان أهم الامور لديه

فانطلق وعند الظهر تغدى فى مطعم بجوار محطة الشمال وفى الساعة الثانية والدقيقة الخمسين ركب القطار السريع الى بروكسل وهو يهزأ بالبوليس الفرنساوى وبمانيلون وصديقته سيجاريت

فتمنى لنفسه سفراً سعيداً وانشأ يقول لقد تحقق ماكنت ارجوه وسوف ادعى ميلورد الذهب حقاً !

الفصل الثامن

صديقة

صدقت الجرائد التى روت خبر مانيلون فقد نجا من الموت باعجوبة لان الخطر كان يعدل تسعة وتسعين فى المائة والنجاة تعدل واحداً فى المائة

فاصبح وهو متمدد على سرير المستشفى فى شومون جريح يرجو فرجا من الضيق وقد اتى عليه يوم واحد منطرحا على كتفه الدامية غير قادر على ان يحرك أعضاءه الا قليلا . أما ساعده المكسور فكان يؤلمه أشد ألم الى

درجة الصياح واما وجهه فمحجب بالخدوش

على انه تمكن من المجاوبة على الاسئلة التي وجهت اليه عند الاستنطاق

وفي اليوم الثاني أعطى مهلة الى الصباح

وبعد ظهر ذلك اليوم دهش لما وقع بصره على وجه سيجاريت الحسناء وقد وافت اليه تعوده وشاهدها واقفة أمامه تبتسم له ابتسامها الذي يخفق له فؤاده حباً.

كانت تلك الفتاة سليمة الطوية طيبة القلب وقد علمت ان صديقها جريح قد نجا من خطر الموت وانه يعاني الآلام ... فرأت ان تعوده

وما ذا يهمها الباقي !

فحاول القعود وقال من ارى ؟.. آه لقد سرني انني أراك هنا ... فيالله ما أعظم امتناني لك ...فهل تحبينني قليلا ؟ . . .

وعظم انفعاله من تلك المفاجاءه فأخذ يلثم راحتيها

فاجابته بلا ريب ولذلك جئت سريعاً

قال ارأيت كيف كدت اهلك ؟

قالت أواه ماهذه الحالة التي وجدتك فيها أيها العزيز

وجلست الى جانبه والحزن آخذ منها

فقال لها من انبأك بأمري ؟...

أجابت اني قرأت الجرائد فتعرفت خبرك منها

فقلق مانيلون لاهتمام الصحافة بحادثته وقال آه من الجرائد !

قالت وعرفت بوسيلة أخرى ايضاً

قال ماهي ؟

اجابت زارني جاك نورتون

فامتقع لونه في الحال وصاح ماذا تقولين ؟ .

اجابت لم اقل الا حقاً

قل هل تجرأ اللئيم على زيارتك بعد ان فعل بي مافعل

اجابت كلا ولكنه ارسل الي رسالة برقية فاستدعاني بها الى مكان عينه لاجتماعي عليه وقال فيها ان لديه أموراً مهمة عنك اراد مكاشفتي بها

قال لقد كنت غبياً يوم انبائه عن عنوان منزلك اذ كنت معه في القطار وربما كان يفكر وقتئذ في ان يطرحني

من باب المركبة !... آه من اللعين... ثم ماذا ؟

فحدثته سيجاريت بما جرى لها مع جاك نورتون فى القهوة

ثم قالت هل اخبرت الحكومة بما حدث.

قال اخبرتها تماماوقد استنطقونى أمس.

قالت وهل تكلمت عن كل ماتعرفه حتى يقبضوا على ذلك اللص الشرير ؟.

اجاب نعم !...

وهنا كان مانيلون نصف صادق او نصف كاذب

فقد انباء رجال الحكومة ببعض ماجرى وكتم عنها البعض الآخر. كتم عنها الاهم اى حادثة ويسول التى ساقت جاك نورتون الى الغدر به.

وكتم اشتراكه مع ذلك الرجل فى الجناية وفى عضوية الجمعية وكتم قصة عقد اللؤلؤ فلم يفه عن كل ذلك ببنت شفة

وسيجاريت لايمكن ان تعرف شيئاً من ذلك ومن اين لها ان تطلع على الاسباب التى دعت الى الحادثة

فقالت متى تفكر فى الخروج من هنا ؟

أجاب وهل ادرى ؟ وما أظن أمرى يطول... فاننى لا ازال مهشم الاعضاء وارجو أن يشفى ساعدى قريباً. آه من الشقى ولسوف ادركه ويكون لى معه شأن واى شأن !

قالت نحمد الله على سلامتك أيها الصديق

قال نعم وقد كانت اعجوبة من الاعاجيب. فيالله من تلك السقطة المخيفة فى الظلام ولم اكد افكر في هولها فلما بلغت الارض كان رأسى فى الاول فارتطم بجدار النفق ولا ازال اسمع دوى العجلات بجانب رأسى وأحس بالهواء المنبعث من مرورها بجانبي على بعد اصبع من شعر رأسى هذا كل ما شعرت به في تلك الدقيقة

قالت وهل أغمى عليك وقتئذ ؟

أجاب بلا ريب ايتها الحبيبة ومن ذا الذى يقع وقعتى ويسلم

قالت وهل لبثت زمناً طويلا فى ذلك النفق

أجاب ساعتين وقد مرت عشرات من القطر المختلفة بقرب وجهى ... ومن حسن حظي انني لم اتحرك ... من حسن حظى انني أغمى علىّ وفقدت رشدى الى ان جاء العمال الى هناك فاحتملونى ولولاهم للبثت هناك حتى الساعة

وأخذ ينظر الى سيجاريت نظرة المحبّ المفتون المعجب بها الى ان قال انك لم تعرضى عنى فواها لك من فتاة كريمة العنصر

قالت لم أعرض عنك لانني لم استطع ذلك

قال ما معنى كلامك

أجابت معناه انني لو كنت أعرف مكانك على الدوام لمنعتك التعرض لمثل هذه الحوادث... ولكنك لا تخبرنى بما تصنع ولا الى أين تمضى فامرك لا يعجبنى لانه غير جلى .. فاذا شئت ان نظل صديقين وجب عليك ان تغير سلوكك فى المستقبل

قال واذا لم اغير سلوكى

أجابت نمتنع عن التلاقى وكل منا يسير فى طريقه...

ان ذلك يكون سببا فى حزنى لانني ألفتك يامانى وتعلقت بك ولانني منقطعة لا أهل لى ... ولكن لا أبالى !.. وخير لى أن أعيش وحيدة من ان تفاجئنى بمثل هذه المفاجآت التى لا تطاق والتى يمكن اجتنابها

قال خاصمينى ما شئت !

أجابت بلطف

كلا فلست اخاصمك ولم آت الى هنا لاجل الخصام وانما جئت لاظهر لك مودتى الصادقة ولارى اذا كنت محتاجاً الىّ ... ومع ذلك يحق لى ان اعاتبك على سوء سيرك

فصاح انى اشتغل

قالت تشتغل بماذا !

أجاب بكل نوع من انواع الشغل

قالت من يشتغل بكل نوع من انواع الشغل كمن لا يشتغل ابداً فان صناعتك مجهولة . . . فيجب عليك أن ترجع عن سلوكك اذا كنت تحرص على صداقتي

قال وكيف ارجع

أجابت من زاول حرفاً عديدة كان كمن لا حرفة له ..

فأراد ان يتكلم فلم تدع له وقتاً لذلك بل قالت يخيل لى ان قد حان وقت رجوعك وارعوائك يامسيو مانى

فاطرق يفكر فى نفسه قائلا انها على هدى وصواب وانه لو سلك الطريق السوىّ لما وصل الى تلك الحال الى ان قال فى نفسه ايضاً :

ان للنساء فى بعض الاوقات أراء سديدة وفى سيجاريت فتاة فاضلة . . .

واثر عليه قولها انها قد تعرض عنه

ومانيلون فتى شريد طريد نشأ تائهاً فى ازقة باريس وقضى زمن حداثته منكد العيش الا انه لم يجد احداً نظر اليه نظرة الرفق والاقتراب الا جارته سيجاريت ولم يسمع من احد كلمة تودد وتلطف الا منها ولم ير ثغراً يبسم له الا ثغرها

فتعلق بها تعلقاً شديداً ولم تطب له حياة الا بقربها ولا صفا له عيش الا معها

وهى فوق ذلك ذات فضيلة وعفاف واستقامة فكان

يجد عندها راحة وسلاماً وامناً

شغف بها ولكنها كانت تزجره اذا خطر فى باله يوماً ان يتخذها صاحبة فعظمت منزلتها عنده وبات لا أمنية له الا الاقتران بها كما وعدته وانما وعدته بالاقتران وضربت له موعداً يوم يجتمع لهما من النقود مايكفى لفرش بيت صالح لزوجين

ثم انخرط مانيلون فى سلك المتشردين واللصوص ومازج اهل الطبقة السفلى وساء مسلكه بمعاشرته لقرناء السوء الا ان نفوذ الفتاة عليه مازال عظيما فكان يلين اذا سمع صوتها ويختلج فؤاده بعواطف ولائها

ولا غرو فان نفوذ النساء على الرجال عظيم سواء كان منصرفاً الى خير او شر

وهكذا كانت الفتاة لويزابودرى (اسم سيجاريت) ذات سلطة على الفتى مانيلون حتى بات يعتبرها ارفع منه قدرا واسمى خلقاً .

كان يراها مكبة على العمل والاقتصاد تحسن تدبير نفسها

ولا ندرى كيف مالت الى ذلك الفتى الفاسد السيرة وتنازلت الى الاعتناء بامره

وقد اطرقت سيجاريت تفكر ايضاً وقد بقى في ذهنها أمر لم تحققه بعد فارادت ان تزيل الريب من نفسها وهى تعلم ان ذلك الفتى من أهل الشقاوة والكذب لكنها لم تعتقد انه ارتكب جناية أو انه تورط فى المخازى تورطا يسجل عليه الاثم

وانما كانت ترن في اذنها كلمة لص رنيناً يستنفر فؤادها انفة واشمئزازا .

ولكن كيف السبيل الى معرفة الحقيقة ؟ كيف تجسر على الاستفهام منه ؛ اشفقت ان يورثه الاستفهام حزناً كبيراً فيما لو كان بريئاً من تلك الوصمة

فاذا بها قد وقفت وقالت انظر الى هذا السلاح ولا شك فى انه لذلك اللص جاك نورتون .

واخرجت من جيب ردائها خنجراً غمده من نحاس فوضعته على فراش مانى

فلما رأى ذلك السلاح ارتعد وعلا وجهه الاصفرار

لانه عرفه ؟

عرف الخنجر الذى قتل به جاك نورتون جوهرى ويسول

فلم يتمالك ان قبض على ذلك الخنجر وأصابعه ترتجف

فدهشت سيجاريت وقالت ماذا دهاك ؟

أجاب أنا ؟.. لاشىء ...

قالت بلى فانت ترتعد ...

قال ماهذا الكلام ؟... مابى من شىء ... ومن المحتمل مع ذلك ان ارتعد فقد أثرت تلك الليلة على أعصابى فلا عجب اذا ارتجفت أصابعى

فامسكت يديه فاذا هو محموم

ذلك ان الفتى اللص استشعر خجلا وخزياً أمام تلك الفتاة الصالحة التى يهواها ...

فقال فى نفسه:

آه ماذا يكون الحال اذا درت !

وبرزت له صورة الجوهرى ساقطاً تحت طعنة الخنجر وعنقه مفتوح يتدفق منه الدم ... فارتعدت فرائصه

واقشعر جلده من تلك الجناية التى ارتكبت على مرأى منه ... وحمله الجبن على السكوت عنها ... وكان ذلك ساعة تمكنه من اختلاس عقد اللؤلؤ

فقال فى نفسه :

هل كان فى وسعى ان امنع وقوع الجناية ؟

وتولاه خوف شديد ... خاف ان تدرى سيجاريت كما خاف ان تكتشف الحكومة سر الجناية ..

الى ان قال أين وجدت هذا الخنجر ؟

أجابت فى مكان جاك نورتون بعد انصرافه من القهوة التى فى شارع المعبد . واظنه سقط من جيبه حين فراره ... أما أنا فاصابنى اذ ذاك ارتعاش عصبى فلم أتمكن من اللحاق به ... فلما زال ما كنت اجده سلمنى صاحب القهوة السلاح ... وطلب منى ثمن الشراب الذى تناوله الرجل ..

ثم قالت ارجع الىّ هذا الخنجر

قال اليس لك بد منه ؟

أجابت كيف لا . فهل خطر فى بالك اخذه منى ؟

قال كلا ... فخذيه

وارجعه اليها ولكن على مهل كانه مرغم على ذلك وأخذ يسأل نفسه عما يكن ان تفعل به ولم يجادلها لئلا يوقظ شكوكها فانها كانت تنظر اليه نظرة الفاحص الممتحن نظرة يمازجها القلق فاحس بها كأنها تتضمن توبيخاً له

هذا وقد انتهى الوقت المعين لعيادات المرضى فنهضت سيجاريت قائلة انى راجعة الى باريس مطمئنة القلب لاننى رأيت حالك اقل خطراً مما كنت اخاف والآن آمل ان تشفى سريعاً وتنهض معافى فى وقت قريب

اجاب هذا ما ارجوه ايتها الحبيبة والظاهر ان بنيتى قوية ...

قالت سأكتب اليك فى هذه الاثناء وأما أنت فلا تقطع اخبارك عنى

أجاب كونى مطمئنة من هذا القبيل ولعلى انبئك بقرب رجوعى اليك

قالت يجب ان يكون رجوعك الىّ تاما لاننى

أحسبك لا تجدد ما كنت فيه ...

أجاب لا بدّ للمرء من السعى لكسب رزقه

قالت سوف أسعفك حتى تجد عملا صالحاً فى باريس والقليل يكفى مع القناعة . ومتى غدوت عاملا مجتهداً حسن السيرة ورأيتك تشتغل ثابتاً يومئذ ..

قال يومئذ ماذا يكون ؟..

أجابت اغدو زوجتك يامسيو مانى

وتبسمت تبسماً لطيفاً أطرب الفتى فضم يديها الى يديه بلهفة وامتنان

وانطلقت. فخيل له ان غرفته قد أظلمت حين ذهب منها السرور والشباب

ولم يتسع الوقت للاسف فقد جاء وقتئذ من أخبره بقدوم قاضى التحقيق لاستنطاقه للمرة الثانية

ذلك لأن استنطاقه الاول لم يكن جلياً فأراد المحققون استجلاءه

وقد اضطروا فيه الى الايجاز والاقتصار على المهم لضعف الجريح وقتئذ وشدة تألمه اما الآن فقد تحسنت

حالته فيمكن التوسع معه فى الاستجواب

واراد قاضى التحقيق ان يتعرف اصل مانيلون وحالته المدنية والوسائل التى يعيش بها

غير ان مانيلون كان زكى الفهم عارفا كيف يرضى السائلين .

على انه كان ذا منزل هو غرفته الصغيرة التى فى شارع القرم فى باريس .

ثم انه كان معروفاً ببيع الجرائد وهى صناعة ليس فيها مايعاب وتقضى عليه بالسفر احيانا .

ثم انه اوضح حادثتــه مع جاك نورتون يوم جار واعتدى عليه فى القطار

قال له قاضى التحقيق من اين كنت آتياً

فشعر مانيلون باهمية السوءال أو الجواب لان وراءهما تحقيقا فاجاب بلا تردد:

لقد كنت آتيا من فافر

قال ومن اين كان آتيا ذلك المسافر الذى رماك من المركبة ؟

اجاب انى رأيته فيها وقال لى انه ركب القطار من ويسول

قال قاضى التحقيق ركب من ويسول ؟... عجبا ! . .

ثم قال ياله من اتفاق غريب !

وصمت وجعل ينظر الى الجريح ملياً ثم قال له :

هل علمت بحدوث جناية قتل فى ويسول قبيل حادثتك ؟

وكان مانيلون يتوقع هذا السؤال فلم يكن له اقل تأثير عليه واجاب من غير اكتراث أو اندهال قال ياسيدى لم اسمع شيئاً من ذلك

فصمت المستنطق صمتا تمالك فى مدته مانيلون وتماسك

فقال قاضى التحقيق في نفسه .

أى فائدة من الالتجاء الى هذا الاثر وصاحب جناية ويسول سجين ؟

ثم القى بعض الاسئلة على مانيلون مستعلما عن كيفية الاعتداء وانصرف معتمدا على ان لا يرجع الى المستشفى ليسأل الجريح مؤقتاً ان ليس لديه مايهم

العلم به .

فاحال فى ذلك المساء الى باريس اجراء التحقيق واستعلم فى محطة فافر عن ركوب بائع جريدة فى اقطار فورد عليه الجواب فى اليوم التالى ومؤداه ان مسافرين كثيرين أخذوا تذاكر سفر الى باريس فى مساء يوم ٩ ايار (مايو)

وهكذا وقف التحقيق عند ذلك الحد وهنأ مانيلون نفسه بهذه النتيجة

وبعد ثلاثة أسابيع خرج من مستشفى شومون وقد وعد رجال الحكومة بأن يحضر حين يطلبون ايضاحات جديدة بشأن حادثة النفق

الفصل الثامن

البريء

يوجد رجل غادرناه بين جدران السجون يائساً حزيناً وما برح ينادي انه بريء فلا يسمع صوته أحد وانما كان يخفت ويضعف في داخل حبسه

فكان يقضي الليالي باكياً مدفوناً في قبر فراغه سكوت وظلمة . وكانما اطبق عليه من تلك التهمة الفظيعة حجر كاد يقضي عليه ظلما ؟

حبسه الرجال الذين انيط بهم الانتصار للعدل على الظلم !..

فاتهموه بارتكاب جناية القتل !

رموه بتهمة هائلة هي قتله لوالد الفتاة التي يهواها! .

وهو يفضل ان تحل به العذابات على اختلاف انواعها على ان يتهم ذلك الاتهام

ولكن وا اسفاه من اين له ان يختار ما يريده لنفسه من الشقاء وزاد بلاءه انه صار يرى الدفاع عن نفسه عسيراً وان شئت فقل مستحيلا

رأى الناس جميعاً يأتمرون به ويتحدون على هدم شرفه وربما اجمعوا على وجوب اعدامه

ذهب ضحية الحوادث ..والظواهر

وبات الرأي العام معتقداً فيه الوزر لاحظ ذلك يوم نقلوه من سجن التوقيف الى النيابة وتحمل الاهانات من الجمهور والتهديد والوعيد حين ظهوره للناس

وسمع عند مروره بهم صياح الصائحين ينادون ما جزاؤه الا الاعدام !

سمع صياحهم يتأجج فيه ضرام الغيظ والبغضاء وانصت اليه مطأطئ الرأس ذليلا

ثم ثار ثائره وهاج هائجه من ذلك الظلم الذي لا يطاق والخطأ المر المذاق

فأراد ان ينادي بقوله :

أنا بريء مظلوم ! . . انا بريء مظلوم ! . .

وبسط يديه يحتج ويتوسل

ولكن صوته كان اضعف من صوت الجمهور وضجيجه .·. فحال غضب الناس وعنفهم دون ارتفاع ندائه

فتحمل ثقل الخجل وشرب كأس الهوان دهاقاً

وكان يعلم ان بعض اصدقائه تظاهروا بالانتصار له في بادئ الامروان السواد الاعظم من السكان شجبوه ورموه باقبح المذمات

الا ان أولئك الاصدقاء خافوا ان يكونوا على خطأ في دفاع عن مجرم اثيم فانزووا صامتين

وانما فعلوا ماتقضى به الحكمة ..

فعظم علمه بذلك يأسه وقال في نفسه متى كنت سعيداً اقبل الناس عليك باسمين اما اذا شقيت يوما فانهم يتولون عنك معرضين ولو عرف الشعر العربي لتمثل بما قاله ابن مقلة الكاتب :

تحالف الناس والزمان * فحيث كان الزمان كانوا

ولطالما رددمعنى ذلك لتلامذته ومادرى انه سيقاسى

بنفسه هول تلك الساعة

وانما تتعب الصداقة من طول زمن الجهاد ويندر في الناس الاوفيأ

رأى ذلك أمورى عياناً فيئس من تودد الناس وانصافهم كما يئس من انصاف الحكومة

أما المحامى عنه وهو الاستاذ خرستيان فكان يدأب في تعزيته ويجاهد في تشديد عزيمته واعادة الرجاء اليه فلم يفلح . فاولاه ذلك التضعضع حزناً واورثه التفجع واليأس استياء لانه كان معتقداً فيه البراءة من تلك التهمة التي رمى بها ظلما

والمحامى خرستيان مقتبل الشباب بليغ الكلام ذو حماسة وشدة . رضى بالدفاع عن امورى بارتياح وعطفه عليه ملاءمة في الطباع وميل طبيعي لعله ناشئ عن احترامه اياه

فكان يزور السجين في سجنه مراراً وينفق معه ساعات استعدادا للمرافعة

وهو الرابطة الوحيدة التي كانت بين السجين والعالم

وقد انفصل المسكين عنه بغتة

فكان يأتيه فى كل يوم بصدى الاقوال التى يتداولها الناس عنه وعن قضيته ثم يشفع الكلام بقوله انه يرجو ان يفوز فى الدفاع عنه ويبين له وجوه دفاعه والخطة التى عزم على ان يسلكها فى المرافعة

فشغله بذلك عن الاسترسال فى يأسه وانما يحتاج المحزون الى ما يشغل فكره كى لا يذهب قلبه مع تيار الاشجان !

غير ان دفاع المحامى سيكون فى محكمة الجنايات وكفى بذلك عضاضة تلحق امورى ومعرة ترهقه وترجف فؤاده

لكن المحامى قال له ارجو وآمل ان لا نصل الى تلك المحكمة وان نحصل على قرار بان لاموجب لمحاكمتك فيها

قال له ذلك تطميناً وتسكينا

فساله قائلا هل تظن ذلك من الممكنات ايها المحامى

أجاب ذلك اعتقادى

قال أما أنا فلا اعتقده

قال لماذا ؟

أجاب لان الحكومة لا تقر ابداً بخطائها ولانها لم تجد مجرماً وقد وجدتنى امامها . .

قال لا يخامرك هذا الظن .

اجاب كل ماجرى يؤكده لى

قال انت واهم فان المسيو برترو وكيل الجمهورية تولى النظر فى هذه القضية وهو من اهل الفضل والنبل والكفاءة التامة لمنصبه

اجاب انى امتدح عنايته لانه اذن لى بكل مايمكن ان يؤذن به لمن كان في حالتي

قال ان فضله فى هذا لا ينكر

قال امورى وقد احسن الىّ بأن اذن لى بمطالعة الكتب التى طلبتها ولم يضيق علىّ فى محبسى

قال لا سبيل بعد هذا كله الى انكار عدله .

أجاب ماذا افادفي عدله وأنا اكابد آلام الانفراد فى سجنى والخلو الى افكارى الثائرة . ان نفسي تأنف من

الظلم الذى وقع علىّ بجهل المحققين او خطائهم وشرفى أصبح هدفاً لنبال الطاعنين بل على شفير هار ... فيالله ما اشد عذابى

قال مهما يعظم العذاب فان اعلان براءة ساحتك سيكون أعظم . ولا يمكن ان يصدر حكم عليك

أجاب على الله توكلت انه هو السميع المجيب

وكذلك كان المحامى يحيى ميت الرجاء فى نفس أمورى درتيل فيفلح فى بعض الاوقات ولكنه يرى وجوب الرجوع الى مثل ذلك فى اليوم التالى

ورأى المحامى ان الانسان اذا يئس وقنط احاق به النحس ولزمه شؤم الاقدار فلا ينجو من مصيبة حتى يقع في غيرها ثم ان العاصفة اذا اصابت شجرة نخرها السوس قصفتها سريعاً

هذا وأمورى متجه الروح على الدوام الى امر واحد

كان يفكر فى جيلبرت دائما

يقول فى نفسه ماذا جرى لها؟

وهل يخطر في بالها كما تخطر في باله ؟

هل درت بما فعل وما أصيب به لاجلها؟

خيل له انه يسمع صوتها الرخيم وهى تقسم له على الوفاء بعهد ولائه الى الابد

تلك دقيقة مرّت وما احلاها !

كانت ساعتئذ حزينة النفس دامعة العين الا ان فى حزنها مايفتن العابد . ودموع النساء الحسناء امضى سلاح في افئدة الرجال

وما برح امورى المسكين يفكر فى موقفها يومئذ ويستشعر لذة فيطبق عينيه حتى يعيد الى ذهنه ذلك الماضى مجسما أو ذلك الحلم شبيهاً باليقظة ويتصور طلعة الحبيب ووجهه الفتان منعطفاً عليه ليقبله قبلة الوداع الاخيرة

ذلك هناء ربانى الا انه مرّ المذاق !

وما برح ينعم به خاشعاً ...

وهمّ مراراً بمخاطبة المحامى عنها لان الحديث عنها يطربه غير انه كان يحجم لها حس يهجس فى ضميره ولا يتجرأ على التلفظ باسمها امامه

اما قضى عليها بأن تكون زوجة رجل آخر فقد رأى انه لايحق له ذلك ..

اجل فقد اعتبر ان الواجبات المفروضة عليه لا تبيح له ان يشرك الحبيبة فى شىء من حياته الحاضرة بعد ماتقرر انها ستدعى فى القريب العاجل المركيزة دى سمروز

هذا وقد ادرك المحامى مايجول فى ضميره من أول محادثة دارت بينهما ففهم الحقيقة وحزر الغامض

لم يخاطبه أمورى بكلمة واحدة عن اجتماعه بالفتاة فى مماشى الحديقة العمومية بجوار المعبد ـ وهو اجتماع كان علة شقائه ولو باح به لنجا مما هو فيه ـ غير ان المحامى تنبه اليه من تلقاء نفسه

فبات معجباً به من ذلك اليوم لعلمه انه يأبى التلفظ بكلمة الخلاص فهو يتحمل آلامه صامتاً أنوفا منطلقاً وهو راض الى حيث تنقضّ على رأسه المصيبة وكل ذلك حرصاً على صيت الفتاة

فهو الامين على العهد والواجب . الثبت الجنان فى هواه المشؤوم عليه !

وفى ذات يوم قال له المحامى بغتة :

هل تدرى فان الآنسة جيلبرت برتلمى ذهبت الى النيابة .

فارتعد أمورى ارتعادا واضحا عند سماعه اسم حبيبته وعند تلقيه ذلك النبأ ولم يكن ينتظره

فاجاب كيف ادرى ايها المحامى

قال صحيح ... فاعلم اذاً انها زارت المسيو برترو

قال وهل دعاها وكيل الجمهورية ؟

أجاب لا ... وانما ذهبت لتفاوضه فى شأن خطير

فقال بصوت يرتجف :

هل علمت شيئاً عن تلك المفاوضة

أجاب لا . . . ولكن هل تحسب ان لها صلة بقضيتك ؟

قال لا ... وقد كلمتنى عن جيلبرت أيها المحامى العزيز فدعنى أعيد ذكر اسمها واسألك ...

أجاب تكلم بحقك

قال ماذا جرى لامر زواجها

أجاب لقد أعلنوا عنه اعلانا رسمياً

قال آه

وقال المحامى لقد نشر الخبر ويلوح لى ان المركيز دى سمروز مستعجل فى عقد هذا القران وسوف يتم من غير احتفال بالنظر الى ما يوجبه الحداد فى مثل هذه الحال .

فلمعت عينا أمورى وقال هل تعرف شيئاً آخر ؟ تكلم ...

وأراد الاستعلام ولو كان فيه ازدياد لوعته وحرقته

فاجابه المحامى انى لاعلم ما يعلم كل ساكن فى ويسول وهو ان المركيز دى سمروز قد انقذ بيت برتلمى من الافلاس وبذل المال بسخاء ووهب لخطيبته بموجب عقد قدراً جسيما من النقود

فغمغم درتيل يقول لقد اختلس هذا الرجل سعادتى بماله !

فقال المحامى أما ارملة الجوهرى وابنته فلا يراهما أحد الا حين خروجهما للصلاة فى المعبد او الى المقبرة

وهما تذهبان فى كل يوم فتصليان على قبر فقيدهما وتزينانه بالازهار ... والناس جميعاً يرثون لحالتهما

قال وارحمتاه لهما من تعستين ! .. والزواج متى يكون ؟

أجاب لم يتعين وقته بعد وما اظنه بعيداً

قال هل يعقد قبل ان تصل القضية الى محكمة الجنايات

أجاب هذا الارجح اذا افترضنا ان القضية تحال الى تلك المحكمة وهذا أمر أشك فيه وارتاب

وكان المحامى يعود فى حديثه الى هذا الموضوع ودرتيل عند ما فكر فى ان الزواج سيعقد قبل المرافعة اصفر وجهه

ثم قال ومتى تنتهى مدة انعقاد جلسات المحكمة ؟

أجاب فى أوائل شهر تموز (يوليو) على الارجح

قال ويلاه انها لا تتأخر شهراً واحداً .

ولبث مطرقا ثم رفع رأسه وقال ليعقد هذا القران اذ لا بد منه . وليكسر فؤادى الدامى . وليأت يوم

مثولى بحضرة المحلفين سريعاً !

اجاب المحامى سوف يبرئون ساحتك اذا وصلنا الى هذا الحد

قال من يدرى ؟ . . . فاننى لا اجسر على ان ارجو لاننى ارتاب فى كل أمر وقدفقدت كل امل وتلاعبت بي الحوادث مابين مؤلمة ومبهمة فانا اتخبط فى محيط شقائى على اننى مع ذلك كله برىء والله !

اجاب اعرف ذلك وانى بمعرفتى تقوى حجتي ويحسن بيانى وبرهانى

قال هل تصدقنى انت؟

اجاب نعم لاننى ادركت حالتك تماماً .

قال انى شاكر لك ايها المحامى . . . والصديق!

فلما مضى المحامى استشعر السجين قوة غير ان الخلوة التي صار اليها ذهبت بتلك القوة بعد هنيهة وانطفأ شعاع الامل عند وقوفه للاستنطاق .

فلما خرج من النيابة او من مكتب قاضى التحقيق احس بان الارض تتزلزل تحت قدميه من شدة يأسه

ذلك لانه بقى مصراً على كتمان كيفية استخدام وقته فى مساء يوم الحادثة فاخذ وكيل الجمهورية يفترض الاسباب وتحولت تلك الاسباب ضد أمورى درتيل حتى انتهى امر وكيل الجمهورية بان اعتقد افتراضاته حقائق مسلمة

فلم يكترث لاميالهالخصوصية وقدعطفته فى بادىء الامر على المتهم بل اقتنع بانه مصيب سائر فى اقوم سبيل ومقتف أثر القاتل في تحقيقه وانه قابض عليه .

وكان فى كل يوم يستخدم نفوذه الادبى وبلاغة منطقه لكى يقنع امورى بان انكاره لا تفيده حتى غدا المسكين عاجزاً عن الجدال وايقن ان الاقدار عاملة على هلاكه ولا يوجد لديه الا دليل واحد على براءة ساحته وبه ينسف براهين وكيل الجمهورية نسفاً ويتركه معتقل اللسان ويبكمه ويدحض حججه وادلته التى ساقها طول التحقيق والتدقيق

الا ان ذلك الدليل الواحد قد حظر أمورى على نفسه استخدامه وابى الانتفاع والنجاة به

انتهى التحقيق على ماتقدم من اقتناع وكيل الجمهورية بارتكاب الرجل جناية القتل واعدت اوراق القضية التى ترميه بذنب غيره لترسل الى مجلس الاتهام ومنه الى محكمة الجنايات

الفصل الثامن

صوت الصداقة

جاء يوم المرافعة العلنية مستمهلا وأمورى ينتظره بذاهب الصبر فلما حل موعده كان المتهم البرىء فى أشد ساعات الضنك واليأس والجزع

ومعلوم ان أمورى كان قويا لعلمه ببراءته ولتيقنه بانه ذو حق الا انه كان فى موقف الشك وانتقل الى موقف اليقين ووصل الى الحل النهائى لتلك المشكلة فاستشعر اضطرابا جديداً

ولا يمكن ان يتحقق الانسان ما تأول اليه قضية فى

محكمة . ومن ذا الذى لا يخفق فؤاده رهبة من موقف يتوقف عليه مستقبله وشرفه ووجوده ؟

ثم ان الايام الاخيرة جاءته بعذاب جديد هو اقتران جيلبرت بالمركيز دى سمروز فصارت تدعى المركيزة دى سمروز وصارت زوجة لرجل آخر . وشريكة له مدى العمر !

وحدث ولا حرج عن تفطر فؤاده يوم سمع اجراس الكنيسة تقرع اعلانا لذلك القران !

انه لعذاب اليم كابده وهو فى سجنه الضيق مستهدف للبلاء واليأس . وجيلبرت الفتاة التى ما برح يهواها حتى تلك الساعة ويهواها على الدوام تدخل الى الكنيسة وتجثو أمام الهيكل وتقسم القسم العظيم على أن تحفظ عهد الامانة لزوجها وتشرك حياته بحياتها وتتحد معه بالاقتران اتحاد الابد

فاخذ يعضض يديه من جزع وقنوط ولوعة وحرقة !

ثم صمتت الاجراس فسكن امورى الى البكاء وفزع الى السكينة الا انها سكينة من يسيل فؤاده دما حتى يموت ...

٭٭٭

كانت القاعة التى انعقدت فيها جلسة محكمة الجنايات حافلة بالجمهور وقد قصدوا اليها من كل ناحية في البلد يتزاحمون على أماكن الجلوس

ذلك لان القضية اشتهرت أعظم اشتهار لما أحاق بها من الاسرار وتوافد مخبرو الجرائد من باريس ليشهدوا المحاكمة وينقلوا خبرها الى الجرائد

فجلس اصحاب الامتياز المتقدمون فى مثل هذه الجلسات فى مقدمة الجمهور ونعنى بهم وجهاء البلدة والموظفين ورجال الصحافة فكانوا على مقربة من مقعد المحامى خرستيان

وتوافدت الغيد الحسان الى هناك كأنهن آنيات لمشاهدة تمثيل رواية وانما دفعهن الى الحضور ماسمعنه عن تلك القضية وما علمنه من ان الحامل عليها لوعة هوى وحرقة انتقام

هذا ورسل المحكمة يجتهدون فى حمل الناس على السكوت حتى لايسمع لهم صوت

والمحلفون يدعون باسمائهم

فنادى مناد يأمر الناس بالسكوت

فسكتوا وجلس القضاة وقعد المسيو برترو وكيل الجمهورية فى كرسى النائب العمومى وقد عزم على اثبات الدعوى الجنائية فكان افتتاح الجلسة وشمل السكوت الحضور

وبعد هنيهة سيق المتهم فتحرك الحضور واقبل امورى درتيل يمشى بين جنديين وكان اصفر اللون الا انه ثابت العزم فجلس امام المحامى وصافحه باليد مصافحة الاصدقاء

فاحتمل النظرات الموجهة اليه من الحضور بصبر وثبات وكان بعضهم ينظر اليه بعين البغض والآخرون بعين الفضول

أما النساء فقد كن يلاحظنه بلطف وعناية.. كيف لا وهو البطل المحبوب منهن لانه ارتكب جناية القتل فى سبيل الغرام محمولا عليها بحامل اليأس والوجد

وتهامسن وتبادلن هذه الكلمات عنه فقالت واحدة

منهن انه جميل المنظر فكيف ترين . .

فاجابتها اخرى لكنه اصفرّ لونه من التضييق عليه فى محبسه

فقالت احداهن نعم واصفراره يصلح له ويزيده هيبة ..

وقالت جارة لها لقد تغير كثيراً منذ ما انقطع عن التمشى فى الشارع الكبير وكان يتجول هناك بعد القائه الدروس ...

فاجابتها مجيبة ان هؤآء السجون لا ينفع الاجسام

وكان التأثير على المحلفين حسناً

هذا وأمورى يتحدث مع المحامى وقد قال له اننى واثق وعلى أمل فلا تجزع

قال لا تطمعنى بالمحال !

قال اصغ الىّ فان دفاعى عنك مفحم بالبراهين ثم ان لدىّ ما افاجىء به النائب العمومى مفاجأة تؤثر عليه .

قال أمورى وكيف ذلك ؟ . .

أجاب صه ولا تسألنى فاننى لا ابوح لك بما عندى. ولكن سوف ترى

قال نعم ولكن . . . .

فقطع عليه المحامى الكلام وقال كن واثقاً بى مطمئن القلب ولا أستطيع ان ازيدك بياناً . .

وهنا انقطعت المحاورة بينهما لان الكاتب أخذ فى قراءة تقرير لاتهام وبعد ان سأل الرئيس المتهم عن حالته المدنية قال له هل تدرى ما هى الجناية التى اتهمت بها ؟ ...

فاجابه بلهجة المطمئن قائلا أدرى شيئاً واحداً هو اننى برىء !

وقد وقف فاطلّ على المجلس وكان يتكلم بانفة وكأنه يخاطب الجمهور

فاشار الرئيس اشارة معناها سوف نرى فى ما اذا كنت بريئاً أو اثيما

الا انه لم يجب على كلمات امورى بل امر بان تتلى اقوال الشهود من رجال الشرط والمارة وجيران المسيو برتلمى

وهم شهود ليس فى شهاداتهم غير ما عرفوه عن الحادثة بعد وقوعها وسمعت كذلك شهادة الطبيب موريل الذى كتب تقريراً شرعياً عن الجناية بعيد وقوعها .

أما مدام برتلمى فلم تحضر لان اعتلال صحتها كان مانعاً لها عن الحضور . وقد ارسلت شهادة طبية تؤيد ذلك وأما ابنتها المركيزة دى سمروز فكانت متغيبة وربما كانت فى خارج الاقطار الفرنساوية فلا يتناولها الطلب

وانقضى هذا القسم من الجلسة من غير فائدة تذكر

وانما تنبه الجمهور حين عزم لرئيس على استنطاق أمورى فقال له :

انهض واقفاً أيها المتهم

فهاج قوله فضول الحضور اجمعين فتطالت الاعناق وامتدّت الابصار الى أمورى درتيل

ثم قال الرئيس أيها المتهم انك تنتمى الى عيلة فاضلة محترمة جداً وقد كنت أنت نفسك حتى اليوم محترماً من الجمهور وتلقيت العلم حتى برّزت فيه على سائر طلابه

فى الكلية فاحرزت الشهادة العليا وكان يرجى لك مستقبل مجيد .. أما والداك فقد توفيا منذ بضعة اعوام

أجاب نعم أيها الرئيس وقد بكيتهما أحر بكاء أما الآن فانا احمد الله على وفاتهما لانهما كفيا عذاب النظر الىّ فى هذا الموقف وانا متهم ظلما

قال دع المرافعة للمحامي عنك ... فلست اجادلك فى هذا الموضوع وانما أشرت اليه لاعلمك اننا نعرف قومك وماضيك وان ليس فى سيرتكم ما يعاب فانا اعيد هذا القول بارتياح

وقد اراد الرئيس من هذا الكلام ان لا يبقى مجالاً للارتياب فى انصافه وبعده عن المحاباة فى المناقشات

ثم قال والآن نتكلم عن الحوادث التى جرّت الى اتهامك فهل كنت تهوى ابنة المسيو برتلمى ؟

اجاب بثبات :

نعم

قال هل كنت ترجو الاقتران بها ؟

فأومأ برأسه مجيباً بالايجاب

قال الرئيس غير أن امتناع المسيو برتلمي احبط آمالك فان التي كنت تعلل النفس بالاقتران بها خطبت اليه من سواك وتزوجت بعد ذلك . . . فهل كنت تدرى يوم قتل المسو برتلمي بخيبة آمالك ؟

اجاب نعم ايها الرئيس

قال ان هذه المسئلة لفي مكان من الاهمية على ان اقرارك عنها لم يتغير من أول التحقيق حتى الساعة

أجاب انى لم أقل غير الصدق

قال لم تقله كاملا ولسوف نتحقق ... ينتج من كلامك انك فى يوم ٨ ايار (مايو) كنت عارفاً بأن لم يبق لك رجاء فى الآنسة برتلمي وكنت عارفا ان اباها يأبى مصاهرتك فمن الامور الطبيعية ان يخطر فى بالك الانتقام منه

أجاب هذه مسئلة مبنية على الحدس والتخمين والحقيقة انني لم اعتقد للرجل بغضاء ولم ارد به اذى او انتقاما

قال الرئيس يحق لنا ان نبحث فى الاسباب التى تبعث على العمل فانت ضيق الخلق حاد الطباع

وربما دفعتك الحدة الى عمل ثم ندمت عليه هذا معروف عنك .

أجاب من هذا الذى يعرف عنى ؟

قال هي ملاحظات رجال البوليس

فرفع كتفيه محتقراً فكان الحضور موافقين له على احتقاره تلك الملاحظات الا انهم لم يظهروا تلك الموافقة

ذلك لان ملاحظات رجال الشرط من الوسائل التي يتوكأ عليها المحققون ويغلب ان تكون غير منطبقة على الواقع أو مبنية على الظواهر

فانثنى الرئيس الى المحلفين وقال ارجو من المحلفين ان يعيروا هذا القسم من الاستنطاق انتباهاً خاصاً . .

ثم خاطب اموري قائلا لقد وجد المسيو برتلمي مقتولا فى مساء ٨ ايار (مايو) ولم يوجد بجانب جثته مايدل على اختباط أو اكراه ولم يسرق شيء من مخزنه فنتج من ذلك ان السرقة لم تكن الباعث على الجناية . فمن ذا الذى ينتفع بقتل المسيو برتلمي ؟ من ذا الذى يزيل العقبة التى اعترضت مقاصده غيرك ؟

« وهنا قد يستند الدفاع على ان هذا الاتهام لا دليل محسوس عليه وانما هو افتراض مرجح عقلا ولكن الاتهام يغدو ذا قوة غريبة لا تنكر عند ما نراك عاجزاً عن اخبارنا بكيفية استخدامك الوقت فى ساعة وقوع الجناية

وهنا نهض المحامى خرستيان فقال اما وقد وصل البحث الى موضع الدفاع فانا قادر على ان أؤكد للمحكمة وللمحلفين ان الغامض في هذه المسئلة سوف ينجلى تماماً .

فاتى اموري درتيل بحركة دلت على اندهاله ونظر الى المحامى مستفهماً

غير ان هذا استمرّ يتكلم فقال وفضلا عن ذلك يوجد مسئلة اخرى يجب جلاء غامضها هى مسئلة السلاح الذى استخدم لارتكاب الجريمة

فانبرى وكيل الجمهورية يقول ان السلاح الذى تتكلم عنه لم يوجد

أجاب المحامى لم يوجد حتى اليوم

قال وكيف ذلك ؟ . وما معنى كلامك ؟

أجاب لقد تلقيت فى بريد أول أمس خنجراً قاطعاً مصحوباً برسالة معنونة باسمى وفيها ان القاتل استخدم الخنجر حينما ارتكب الجناية

قال الرئيس من أين وردت الرسالة

أجاب من باريس

قال هل تود ان تقرأ هذه الرسالة على مسمع منا ومن المحلفين

اجاب لقد كنت انوى الاستئذان منكم بقراءتها

واخرج المحامى رسالة من جيبه فاخذ يقرأها وجميع من حضر سكوت كأن على رؤوسهم الطير وهذا نصها

« ايها المحامى

« لقد علمت من مطالعة الجرائد انك سترافع فى محكمة الجنايات فى ويسول مدافعاً عن الرجل المتهم بقتل المسيو برتلمى الجوهرى الذى قتل فى حانوته الكائن بجوار ميدان دار الحكومة فى مساء يوم ٨ ايار الماضى

« فاعلم يقيناً ان المتهم برىء

« انى اعرف الرجل الذى ارتكب الجناية ، ولست اود انباءك باسمه لانه يتمكن من ايصال الاذية الىّ انتقاماً قبل ان تتمكن الحكومة من القاء القبض عليه

« لكننى ارسل اليك السلاح الذى قطع به عنق الجوهرى التاجر

«وتنبه الى الخنجر فهو ذو زوايا ثلاث وكل من رأى الجرح يعلم يقيناً انه من وقع شفرة هذا الخنجر دون سواه

« واعيد لك قولى :

« لست قادراً على انبائك باسم المجرم ولكننى لا أريد ان يصدر الحكم على برىء »

فعقب تلاوة الكتاب سكوت مؤثر

فقال المحامى وهو يطوى الرسالة :

أرأيتم

فقال الرئيس الم تذيل الرسالة بتوقيع ؟

اجاب لا

قال تفضل فاطلع عليها اعضاء المحكمة والمحلفين وارهم الخنجر

اجاب حباً وكرامة فهذا الخنجر وكل الذين رأوا الجرح كما رأيته يشهدون بأنه من وقع خنجر ذى زوايا ثلاث كهذا الخنجر ... على اننى اطلب ان يعتمد فى الاستدلال على رأى الطبيب موريل

فامر الرئيس رسول المحكمة ان يدعوه فلم تمض دقيقة حتى اقبل وفحص الخنجر بدقة واهتمام لا مزيد عليه ...

فقال له الرئيس ما رأيك ايها الطبيب

فاجاب بتمهل قائلا ان جرح العنق ذو شكل مثلث الزوايا وقد كان طول حوافيه ثلاثة سنتمترات وهو قياس ينطبق على عرض الشفرة

وكان برترو وكيل الجمهورية يرقب المناقشة بانتباه لا يوصف فقال اذن فما مؤدى رأيك ؟

اجاب رأيى ان هذا السلاح يمكن ان يكون عين السلاح الذى استخدم لارتكاب الجناية بلا اشكال ولا ابهام

قال الرئيس ربما

وقال ذلك بلهجة تدل على شىء من الارتياب

فانبرى المحامى يقول لم ارد قط اثبات ان هـذا الخنجر استخدم للقتل ولكن اردت ان ابين لكم ايها الرئيس انه يوجد تلاؤم صريح ونسبة جلية بين السلاح والجرح او علاقة توجب البحث والنظر

«وازيد على ذلك ايضاً ان السلاح الذى قتل به الجوهرى لم يكن فى يد موكلى ولا يوجد احد يستطيع ان يبرهن على عكس ذلك

« ولئن كان فى أمر ارسال هذا الخنجر الىّ من باريس اتفاق فهو اتفاق غريب جداً غير مقبول عقلا ولا عادة بل هو اتفاق يستحيل ! واى امر اغرب واعجب من تساوى قياس حوافى الجرح بعرض شفرة هذا الخنجر لولم يكن سلاح القاتل حقاً !

قال الرئيس سينظر المحلفون فى ذلك

وكان لهذا الامر تأثير على الجلسة اما امورى درتيل فتهلل وجهه وقال فى نفسه أهذا ما وعدنى به من مفاجأة النائب العمومى مفاجأة تؤثر عليه؛

وأراد ان يسأله غير انه رآه قد عاد الى الكلام والناس

مصغون اليه ليس ذلك كل ماعندى، بل لدىّ كلام على خلل خطير وقع فى التحقيق ...

قال الرئيس دع ذلك لوقت المرافعة أيها المحامى

أجاب عفواً أيها الرئيس فالمسئلة تتعلق باثبات التهمة أو عدمه وأنتم تستنطقون فى هذا الموضوع فيحق لى ان اعتبر الآن وقت التعرض للدفاع

قال المسيو برترو وكيل الجمهورية انى على رأى المحامى فاننا انما اجتمعنا هنا للبحث عن الحقيقة فلا بد من اعداد الفرصة لظهورها مااستطعنا الى ذلك سبيلا

فقال الرئيس تكلم أيها المحامى

فقال المحامى انى أشكر ممثل النيابة العمومية لاتفاقه معى فى الرأى ... ثم أقول ان التحقيق أسفر عن أمر هو انه لم يقع سرقة أو اكراه أو خلل فى حانوت الجوهرى برتلمى مساء يوم مقتله . وقد كان من وراء ذلك ان المحققين أضافوا برهاناً جديداً على التصاق الجناية بالمسيو درتيل فاثبتوا أيضاً ان الباعث عليها ظمأه الى الانتقام من الجوهرى وماذلك الا لأنهم لم يجدوا الباعث

الحقيقى على ارتكاب الجناية ... أما أنا فقد علمت أمراً ...

وهنا توقف المحامى ليغير لهجته ويحدث تأثيراً على الحضور

وكان السكوت شاملا فأخذ كل منهم يقول فى نفسه ما عسى ان يكون ذلك الامر الذى علمه المحامى

فقال قد علمت ان المركيز دى سمروز طلب الى المسيو برتلمى قبيل وقوع الحادثة بيومين ان يستجلب له من باريس حلية غالية الثمن كان يريد ان يهديها الى الآنسة برتلمى

« واختار الحلية من لائحة فيها رسوم حلى عديدة

قال الرئيس وهل تم طلب تلك الحلية ؟

وقال وكيل الجمهورية وهل تم تسليمها !

فاجاب المحامى نعم تم طلبها وتسليمها

قال هل لديك من برهان على ذلك ؟

ففتح المحامى دفتراً كان موضوعاً أمامه وقال متأنياً هذا دفتر يشتمل على رسائل محل المسيو برتلمى مطبوعة

فيه ... وآخر ورقة منه طبع عليها رسالة عليها الرقم ١٦٤ وتاريخها ٥ ايار (مايو) وهى معنونة باسم محل دوفرن تاجر الجواهر فى شارع رمبوتو فى باريس

« وفى الرسالة طلب لعقد من اللآلىء وتعجيل بارساله واشتراط ان يكون دفع الثمن بعد شهرين طبقاً للمعتاد فى معاملة محل رمبوتو المشار اليه

« أما العقد فقد وصل يوم ٨ ايار صباحاً مؤمناً عليه فى البريد وتسلمه المسيو برتلمى عند أول توزيع للبريد كما يشهد بذلك سجل الساعى الذى سلمه

« أما السند الذى كتب بقيمة العقد فقد جاءوا به أول أمس الى منزل المسيو برتلمى

« اذن فالحلية النفيسة سلمت وهذا أمر جلى ثابت بالبرهان فلا جدال فيه

« فأين الحلية ؟

« لم يجدوا لها أثراً ! وقد استعلمت من المركيز دى سمروز فقال انه لم يجد العقد . ومن المحقق ان المسيو برتلمى استلم الحلية كما اوضحت لكم

قال الرئيس وهل تكلم عنها مع زوجته او مع ابنته؟

اجاب لا . . . وانما كانت تلك الحلية هدية يراد بها المفاجأة على غير علم

« اذن فما رأيكم ايها السادة وما ذا الذى تستنتجونه من ذلك ؟ اما انا فاستنتج ان التحقيق باطل من اوله الى آخره ؟

« لم يوجد عقد اللآلىء عند المسيو درتيل ولا عند غيره وهو ذو شأن فى القضية كما لايخفى على احد

« فينتج من ذلك انه مسروق

« والارجح بل يكاد يثبت ان السارق هو القاتل او شريكه

« وعلى كل حال فلا أثر للعقد المسروق من منزل المسيو درتيل

وهنا ساد السكوت وقد راع هـذا البيان القضاة والمحلفين والنيابة العمومية وأدهش الجميع

أما المسيو برترو فاحس بانفعال شديد وأما رئيس المحكمة فاخذ يشاور من حوله بصوت منخفض

الا ان المحامى خرستيان لم يقعد فلا جرم ان لديه أقوالا أخرى يقولها ولعلها أهم ما جاءبه فقد كانت ملامح وجهه تدل على بيان كفصل الخطاب فى القضية

فرفع صوته وقال ايها السادة بقى لدى بينة اخيرة لكنها خطيرة جداً

قال رئيس المحكمة ما هى ؟

أجاب لا بد من سماع اقوال شاهد جديد فيها حتى يتضح ما اريد

قال الرئيس وهل يوجد شاهد جديد لم يدع دعوة رسمية ؟

اجاب المحامى نعم ولكنى ذلك لا يمنعه من تأدية الشهادة

قال الرئيس ولماذا لم يذكر هذا الشاهد قبلا

اجاب لانه كان غائباً عن البلد . . . وقد آب اليوم من سفره وكان وصوله فى هذا الصباح فبادر وانبأنى برغبته فى تأدية الشهادة

قال الرئيس ومن هو ؟

اجاب هو المركيزة دى سمروز وقد كانت تدعى
الآنسة جيلبرت برتلمى منذ بضعة اسابيع

فاهتز جميع من حضر عند سماع هذه الكلمات وتولى
الانذهال الجميع حتى الرئيس نفسه

ونهض امورى من غير تدبر فامسكه المحامى بلطف
وامره بالجلوس

ثم قال بصوت جهورى

اطلب اليك ايها الرئيس ان تأمر بسماع شهادة المركيزة
دى سمروز

فانثنى الرئيس الى وكيل الجمهورية يقول هل توافق
على ذلك ايها الوكيل بصفتك محامى الجمهورية

فاجابه نعم

قال اذن ليدخل الشاهد الجديد الى المحكمة

واشار الى المحضر فنادى باسم المركيزة دى سمروز

فظهرت حركة بين الجمهور وانفتح بينهم طريق
لسيدة لابسة ملابس الحداد فتقدمت مستمهلة فلما دخلت
الى ردهة المحكمة رفعت عن وجهها النقاب

فعرفها الجميع

وكان جمالها فتانا فى تلك الساعة وقد اكسب سواد
الثياب لونها اشراقا وصفاء فظهر ببياض اللبن الحليب
اما عيناها الزرقاوان فكانتا تلمعان وكأن فيهما اثراً من
الحمى او لعلها بكت قبيل ذلك ولاحت منها التفاتة الى
امورى ثم خفضت بصرها فثنى وجهه . وبعد هنيهة عاد
الى التأمل فيها وكانه يرى رؤيا فغمغم يقول جيلبرت !

فقال الرئيس لقد طلبت ايتها السيدة سماع اقوالك
فاجابتك المحكمة الى طلبك ففى اى فرع من فروع
القضية تريدين ان تسألى

فنهض المحامى واجاب انى قادر على اخبار الرئيس
فارجو ان تلقوا على الشاهدة هذا السؤال « هل تدرى
اين كان المسيو امورى درتيل فى يوم ٨ ايار ما بين
الساعة الثامنة وربع والتاسعة الا ربع ؟

فاعاد الرئيس السؤال بعينه

فاجابت جيلبرت نعم ادرى

قال الرئيس تفضلى باطلاع المحلفين على ماتدرين

فترددت شيئاً وعلا الاحمرار وجهها ثم اطبقت عينيها كأنها تريد ان تحكم على ارادتها وكأن فى فؤادها عراكا عنيفاً ظهر تاثيره على ملامح وجهها الا انها تجلدت في الحال وقالت ان المسيو امورى كان معى

ورفعت رأسها تنظر الى القضاة وقد تهلل وجهها بغتة واستشعرت راحة لانها انقذت ضميرها !

علمت ان اقرارها ينجى البرىء المتهم ظلما .. وينجى حبيبها

اما امورى فكان راقص الفؤاد طرباً يسمع صوتها ووجهه يتغير استبشارا

قال الرئيس اين كنت .. مع المتهم ؟

اجابت كنت اودعه التوديع الاخير .. فاتفقت معه على الملتقى فى مماشى حديقة المعبد فوافانى فى الموعد ... ولبثنا هناك نصف ساعة وكان ذلك وقت سقوط والدى قتيلاً ...

« ان المسيو امورى درتيل كان يهوانى وكان يرجو ان يتخذنى زوجاً ... واذا بى قد علمت ان زواجنا غير

ممكن فاردت ان اطلعه على ذلك بنفسى حتى اخفف لوعته ..

فارتفع صوت همس فى الحضور وقد مالت الافئدة الى تلك الغادة النبيلة الحسناء واعجبوا بها ورثوا لمصابها واثر عليهم مارأوه رأى العين من كرم عنصرها وسلامة طويتها

فقال الرئيس مهما يكن احترامى لشخصك كبيرا فان الواجب والحق يقضيان علىّ بان اتحقق صدق كلامك لان هذا البيان الذى جئت به خطير جدا .. فهو يقلب التهمة رأساً على عقب اذا كان حقاً

فرفعت يديها الى السماء واجابت اننى اقسم بالله عز وجل على اننى قلت الصدق ولم اقل الا الصدق

قال الرئيس لقد كان فى وسعك ان تقولى هذا القول قبل الآن .. كما كان ذلك ايضاً فى وسع المتهم

اجابت يوجد اسباب جليلة مقدسة اوجبت علىّ السكوت

قال الرئيس ولكن قد كان فى وسع المتهم ان يتكلم ولا

يمكن ان يتردد المرء فى الاختيار بين ان يفضح فتاة باقراره أنها كانت واياه على موعده وان يلتصق به عار تهمة القتل !

أجابت لقد تصرف المسيو درتيل فى هـذه القضية تصرف متهم كريم الخلق فانا أحفظ له هـذه المنة مادمت حية.. فقد أدرك وجوب تضحية نفسه ورضى بها حرصاً على أسرتنا ان تنالها مصيبة فاضحة

قال لقد تأخرت قليلا في التعرض لهذه القضية وايضاح ما اوضحته

أجابت لقد كنت آمل ان تعرف الحكومة براءة المسيو درتيل من تلقاء نفسها ثم اننى لم اكن قادرة على استخدام وقتى كما اريد . . . أما الآن فقد وصلت فى الوقت الملائم ولله الحمد والشكر !

قال الرئيس أيضاً :

لقد كان فى الامكان ان تكفى المتهم بالجناية الفظيعة مشقة الحبس وخجل السجن

فنهض امورى وعيناه مغرورقتان بالدموع فقال بصوت

خافت: لست أطلب شيأ أبداً !.. فان افراح هذه الساعة تعدل جميع العذابات التى قاسيتها ..

وأراد ان يتكلم ايضاً ... ويشكر جيلبرت . . لكنه لم يطق الكلام وخنقته العبرة فاحتبس صوته فى حلقه وترامى على مقعده مسترسلا في البكاء

فكان المشهد فى المحكمة شبيهاً بما يراه الناس على الملاعب في الروايات المحزنة !

وللحال اتفق فى الرأى كل من الرئيس ووكيل الجمهورية المسيو برتروفقال بالنظر الى الامور الجديدة التى ظهرت فى المحاكمة واخص منها بالذكر الامر الاخير فانا اعلن باسم النيابة العمومية التنازل عن الاتهام

وصدر بعد هنيهة قرار الحلفين بالافراج عن المسيو امورى درتيل واعلنت براءته . فصاح المحامى خرستيان يخاطبه قائلا ها قد اعلنت براءتك وهذا ما كنت آمله من الاول . وكان فوز المحامى فى هذه القضية مما يتوق اليه كل من زوال المحاماة

وفيما كانت جيلبرت خارجة من المحكمة والرؤوس

تحنى امامها احتراماً وسلاماً اخذت الحضور حماسة كبرى وجعلوا يصيحون : ليحى العدل ! ليحى العدل !

اما اموری درتيل فاجتاز بينهم رافع الرأس وقد عظم قدره فی النفوس واجلوا شأنه . بعد ان ازدرته العيون دهراً ولقى كل مذلة ومهانة

الفصل التاسع

تأثير القدوة

ان الذی أرسل الخنجر والرسالة الى المحامی خرستيان ومكنه من عرضهما على القضاة فی محكمة الجنايات هو مانيلون

ولم يأت هـذه الحسنة من تلقاء نفسه فان اشتراكه فی الجناية يقضی عليه بالابتعاد عن مناقشات تلك المحكمة وانما يرجع الفضل فی العمل المشكور الى نفوذ الفتاة سيجاريت من غير ان تعلم وتأثيره على الفتى مانيلون

ولا شك عندنا فی ان للقدوة تأثيراً على كل انسان ومما لا جدال فيه ان نفوذ الفتاة العاملة الحسناء كان سبباً فی اصلاح حال ذلك الشاب الضعيف الرأی والفطرة الكسول المتهيء لاقتباس كل مايراه ملائماً لهوى نفسه

ومن سوء حظه انه لم يكن يصحب لويزا بودری الا قليلا فيتنزه معها يوم الاحد وربما صحبها فی بعض الايام الأخر اذ يمضی فينتظرها خارج المعمل فيوصلها الى منزلها

ثم يفترقان فتدخل الى غرفتها فتنظفها وتعتنی بعشائها ثم تعكف على الخياطه وهی تغنی او تترنم

أما مانيلون فينطلق فاذا لم يلق رفاقه الاشرار عاد ليسهر عندها فتقدم له كرسياً وتقطع غناءها وترجع الى عملها . فيتحدثان مسرورين كانهما غلامان صغيران ويتكلمان عن المستقبل وما ينويان

فكان مانی يرى نفسه حينما يكون عندها فی موضع أمن ودعة وحشمة فيقسم لنفسه على ان يرجع عن غيه ويرتد عن القبائح والموبقات ويتجنب العشرة السيئة . الا انه ينسى في اليوم التالى قسمه

فكان فی اشد الاحتياج الى عزيمة ثابتة تجنبه طريق الشر وتميل به الى طريق الخير اما ان يكون له من نفسه لنفسه زاجر فذلك بعيد الاحتمال

يفكر فی ذلك كله وهو ينظر الى اصابع الفتاة تتنقل

سريعة على النسيج الضخم فيعجب برشاقة حركتها ويمتدح اجتهاد الفتاة كما يعجب بحسنها ولطفها

وكان يلذ له ان يكرر على سمعها قوله متى تزوجنا . فيستشعر عند تلفظه بهاتين الكلمتين هناء ويعلل نفسه بأن تغدو تلك العاملة الحسناء المجتهدة زوجته فيرقص فؤاده طربا فيدنو منها ويختلس قبلة ..

فتنهض غضبى وتقول له لئن عدت الى مثل هذا العمل فانني اطردك من هنا طرداً فقد انذرتك انني لا أرضى منك بهذه الجراة الا بعد الزواج فيقول لها : اذن فلنتزوج سريعاً انى مجنون بك ياحبيبتي سيجاريت ..

فتجيبه لا نتزوج مالم تصلح شؤونك وتعمد الى الشغل . ذلك ما اتفقنا عليه والامر يتعلق بك اما الآن فنظل صديقين ... والا ...

وتحدق فيه تحديقاً شديداً فينكفئ عنها ويجلس فى مكانه مغلوبا ويقول لها لا تغضبي أيتها الحبيبة فانا احترمك احترامى لاعظم السيدات مادمت راغبة في ذلك ...

تلك محاورة صغيرة كانت تتجدد على الدوام . فينسى

وعوده ويسوقه الوجد .. ثم تسود عليه بحشمتها وتكرهه على الخضوع والاذعان

وسيجاريت على ظرفها ذات ذكاء وفهم فهى تدرى انها اذا استسلمت اليه يصغر قدرها فى عينيه وربما ضعف حبه. ففضلت ان تحفظ نفوذها وسلطتها سالمين من كل معرّة

وقد علمت يقيناً انه غدا عبداً لها وقد يغير لاجله مسلكه وينتهج فى معيشة غير خطته من شدة تعلقه بها فيشتغل . وذلك غرضها الذى تسعى اليه وتعده بالزواج مشترطة عليه العمل والابتعاد عن القبيح وتقول فى نفسها من يدرى ؟ فقد يطيعنى فيما بعد ؟ ولكن من أين لسيجاريت ان تلزمه حتى تقربه وتبعده عن كل نقيصة

كانت تقضى سحابة نهارها في المعمل تلف لفائف التبغ فيزول فى اثناء ذلك نفوذها ويذهب مانى فيعاشر رفاقا اشراراً ويجتمع بهم فى الحانات وكلهم من أهل البطالة والمنكرات

فاتخذ اصدقاء له من طرز جاك نورتون أو لوسيان مرليه وهو شاب سيء السيرة فكانوا يسوقونه الى

القهوة أو الى مكان آخر فيتهيأون للسرقات ولا يفكر مانيلون اذ ذاك الا فى كسب المال من وراء السيئات ويبرزون له المعاصى فى صور متلألئة تستميله بكليته اليهم واليها. فأخذ يهوى فى دركات الرذائل شيئا فشيئاً حتى انخرط فى سلك عصابة اللصوص التى يرأسها الشيخ سام على ما مر بك

وكان مانيلون كلما مثل بحضرة صديقته الفتاة التى افتتن بها ذكر ذلك كله وخجل واستحي

وانما كان يخفى عليها الجهة القذرة من سيرته الفاسدة المعيبة فيعلو وجهه احمرار الخجل امامها ويشعر بانه غير كفء لصداقتها وحبها

كان يهواها بكل قوة روحه فيخطر فى باله انه لا يستحقها زوجة الا اذا سلك سبل الفضائل ويرتعد فرقاً وخوفا كلما فكر فى انها قد تطلع على حقيقته ... لانها تنبذه يومئذ بلا رحمة وتقاطعه مقاطعة ابدية ..

وكانت سيجاريت تجهل حتى ذلك اليوم نقائص مانى ومخازيه ولكنها تراه متعطلا متبطلا او تحسبه

قليل الشغل وتعزو ذلك الى كسل فيه لا الى شر وسوء

على انها لبثت وفى نفسها شيء من حادثة نقولا بومراى ورابها ما بين جاك نورتون وصديقها من العلاقة الخفية

ورابها كذلك اضطرابه حين حملت اليه الخنجر يوم كان فى المستشفى

فباتت تسائل نفسها عن سر اضطرابه وتكرر السؤال فكانت تقول لعل له علاقة مع نورتون لا يستطيع اقراراً بها ؟. ولعله اشترك معه فى احدى السيئات ؟

بل ربما اشتركا فى جريمة ؟...

وهى اسئلة كانت تورثها عذابا وهواجس وقلقاً وارتعادا ... ترتعد خوفاً من ان تكون قد احبت رجلا شريرا وهى الفتاة البعيدة عن السوء الصالحة السيرة

وأدرك مانيلون وجود تغير فى حالتها . وفهم مايجول فى ضميرها من الشكوك وما يخامرها من القلق وان بدء ذلك كان منذ ما علمت بحادثة جاك نورتون ... انه اجابها يومئذ على اسئلتها جوابا لا يروى الغليل وانه كان مترددا زاعماً مزاعم باطلة فقال فى نفسه :

حقاً ان حبل الكذب قصير والكذبة الواحدة تقضى باستنباط عشر بعدها تأييدا لها وهلم جرا الى ان يسقط الكاذب فى هاوية لا ينهض منها

واخذ يشعر بانحراف الفتاة عنه ويتلقى فى نظراتها معنى التوبيخ وفي مصافحة كفها اثر النفور وفي كلماتها بعض الجفاء

الى ان كان ذات مساء وقد مضى لانتظارها على باب المعمل ليصحبها فى ايابها الى منزلها فلم تمالك ان فاض فؤادها بما فيه كما تفيض الكأس الدهاق

فوصلا فى سيرهما الى حديقة عمومية وجلسا على مقعد فقالت له :

اصغ الىّ فان الصبر على هذه الحال محال فانت كذبتنى القول ياماني قال انا ؟ اجابت نعم فقد وقع لك مع جاك نورتون امر خطير . خطير جدا

فارتبك وقال العلك عازمة على فتح باب الخصام

أجابت كلا ولكننى أعيد لك كلامى ان الصبر على هذا الحال محال . يوجد بينك وبين ذلك الرجل سر يروعنى ... فاتوسل اليك ان تخبرنى بالحقيقة كاملة ...

ولعلك لم ترتكب حتى الآن ذنباً عظيما أو عازم على سيئة ... فانا أود منعك من السقوط الى احط من الدركة التى سقطت اليها .. فامتقع لونه لانها لم تخاطبه بلهجة التعنيف الاليم وانما كلمته برقة وانعطاف

وكان لصوتها الرخيم ساعتئذ قوة الاقناع والتأثير فاضطرب اضطراباً غريباً .

الا انه تجلد ما استطاع وقاوم انفعاله ما قدر خيفة ان يقر لها اقراراً يكون سبباً في صدها عنه صداً لا رجوع فيه..

فلم يتجرأ على الجواب .. وخيل له انه يرى المسيو برتلمى مفتوح العنق هاوياً بضربة خنجر نورتون ...

فقال فى نفسه :

أما والله لو درت لويزابودرى ! اذن لاشاحت بوجهها معرضة عنى ونفرت منى كما تنفر من أفعى !

نعم لم يمد يداً الى الجناية ولم يسفك الدم ... ولكنه على كل حال شارك الجانى فانه ارتكب الجناية أمامه وفضلا عن ذلك فهو قد تخلى عن البرىء المتهم فى ويسول وسوف يصدر حكم قضاتها عليه ظلما !

طالع فى الجرائد خبر أمورى درتيل فعلم ان ذلك المسكين سيؤخذ بذنب غيره ويحكم عليه خطاء !.. وهو يخشى ان يعرف فلا يستطيع ان يتكلم ولا ان يذكر اسم الجانى الحقيقى وما برح خائفاً من جاك نورتون

ولو درت لويزا ذلك كله لاحتقرته وامتهنته كل الامتهان ولقاطعته وصارمته الى الابد !

فقال فى نفسه كلا فلست اتجرأ على اخبارها ...

فكان سكوت بينهما الا انه ثقيل عليهما .

فتنهدت سيجاريت ونهضت لترجع الى منزلها وسارا وكل منهما كئيب

أما سيجاريت فلم تتكلم بل لزمت الصمت لان سكوت مانيلون كان افصح من الكلام فكانه انبأها باجترامه فاضطرمت نار سخطها وتاهت فى بيداء الفكر

وظهرت القسوة فى نظراتها وارتعدت شفتاها وابيضتا

ذلك لانها كانت صادقة فى هوى مانى تهواه لانه فكه الاخلاق حسن المنظر ذكى الفهم كثير الضحك والابتسام وقد كان محسناً اليها في ما مضى .

اصيبت بمرض فى فصل الشتاء الماضى فلزمها معتنياً بها وكان يأتيها بما تحتاجه ويحنو عليها ويتحفها بالازهار ويجبر قلبها الكسير ويؤنس خلوتها فى اعتلالها

وكلاهما وحيد منقطع لا اهل ولا صديق تائهين فى هذه الدنيا ..فلا عجب اذا أحبته واحبها لان الاشتراك فى الآلام والنكبات يجمع بين القلوب بجامعة الحب

أجل فقد كانت سيجاريت مغرمة بالفتى مانى...ولولا انها ذات هدى وحكمة لما أخرت اقترانها به الى ذلك الوقت

اما الآن فقد خامرها الريب .. وعظمت شكوكها فامتنع عليها ان تتزوج به

فتبادرت الدموع الى عينيها . . . ونكست بصرها حزناً حين علمت ان ذلك الصديق الحبيب غير كفء لها ..وانه قد سار في طريق الضلال وركب متن المعاصى والشرور وربما استحال عليها ان تقيل عثراته وترفعه من الحضيض الذى ترامى اليه . فقالت له

اذن عولت على الكتمان عنى ؟.. وفضلت ان تتركنى اخمن وافترض كل مايسوء ؟..

فشق عليه بكاؤها وعظم انفعاله فقال لاتصدقى . . .
فلست شريراً . ولا أكتم عنك اننى سرقت ولا انكر
انى أتيت شيئاً من المنكر . . . لكننى كنت مدفوعا الى
ذلك مسوقا اليه . . . والحقيقة ان جاك نورتون شقى
شرير ونذل مجرم ! انه ارتكب جريمة القتل . وهو القاتل
لجوهرى ويسول المسكين الذى تناقلت خبره الجرائد

فاستعظمت النبأ وقالت ياللهول وياللداهية وارجو ان
لاتكون منغمسا في تلك الجريمة

أجاب كلا ياسيجاريت واقسم لك

وهنا سكت الاثنان الا ان سيجاريت مابرحت ترتاب
ثم طردت ذلك الارتياب من ذهنها فقالت فى نفسها
لايمكن ان يقدم مانى على مثل هذه الجناية الفظيعة

فقال لقد جرنى نورتون معه الا اننى لم أشاركه فى القتل
والدليل على هذا انه أراد التخلص منى حين قذف بى
من باب المركبة على السكة الحديدية فى نفق لابومراى

وهنا تعرض لهما شاب لابس ملابس حسنة فقال
سلام على الصديق

فقال مانيلون مرحبا بك يا لوسيان . فجعلت
سيجاريت تنظر اليه بفضول واخذ يتحدث مع مانيلون على
انفراد فقال له : هل يمكن ان نراك غداً فلى كلام أقوله لك
أجاب عند الظهر تجدنى فى حانة ديبو . قال أحسنت

ثم دنا منه ايضاً وأسرّ اليه قوله لقد وجدنا عملا
يعجب فايك واخلاف الوعد

أجاب كن مطمئناً أيها الصديق

وافترق الرجلان بعد ماتصافحا بالايدى

فلما ابتعد قالت سيجاريت احقاً ان لوسيان هذا صديقك
أجاب نعم

فقالت انه لامهنة له مثلك فانى له النقود التى اشترى
بها هذه الملابس ؟ الا تجده كانه من ابناء الامراء ؟ . .

ثم قالت بكآبة وامتعاض :

ان اصدقاءك سفلة طغام ياحبيبي مانى !

فطأطأ الرأس خجلا من هذا الملام العادل

فقالت أيضاً :

لقد اتضح لك اننى كنت على صواب يوم قلت لك

انك تسير فى طريق تصل به الى الحبس او الى المنفى . وربما امكنك الآن الرجوع عن هذا الطريق فانا انذرك الانذار الاخير

قال الانذار الاخير ؟

أجابت نعم ... فقد نصحتك مراراً ولم تنتصح وانما هزأت بى وبنصحى ورأيت الاستمرار على عيشة اهل البطالة والكسل بدلا من العكوف على الشغل كاهل الفضل واخيار الناس فآخرتك مشؤومة ولا شك . . اما انا ففى وسعى الابتعاد عن ذلك كله . ويمتنع على الاقتران بك . اذن فلا القاك بعد اليوم . . . هذا كل ماعندى !

فقال وصوته يرتجف .

الا تلقيننى بعد اليوم ؟ .. ولماذا . .

اجابت ذلك لابد منه . ولم اصدّ عنك وانما انت اردت الانصراف عنى .. وما ذلك الا لانك تفضل صحبة الاشقياء على صحبتى .. فانت حر . . .

تلفظت بهذه الكلمة بلهجة ارادتها صارمة قاطعة الا انها كانت معربة عن كآبة

فتأثر مانيلون تأثراً شديداً وعلم انها مصيبة فى ماتقول وما تفعل وانه مخطئ، وملوم

علم انه يسترسل كل يوم فى مخزية مخاطراً بحريته الشخصية وبنفسه مع انه يسهل عليه ان يعيش عيشة عادية كسواه فلمع بارق غضب فى عينيه وانما كان غضبه على نفسه وتولاه اسف حقيقى فى تلك الدقيقة اورثه اياه كلام سيجاريت

فقالت له نعم هذا انذار اخير منى فعليك ان تختار !

ومدت اليه يدها تودعه قائلة اننى أنتظر جوابك غداً ولا ينبغى ان تعتقد لى عداوة أو تضمر حقدا ؟ . انما أردت لك الخير ولولا نيتى الحسنة لما خاطبتك مثل هذه المخاطبة . ولعمرى أنت فى حاجة الى من يخلص لك النصح وما أخالك تجهل !

وانطلقت سريعاً مغادرة مانيلون واقفاً فى مكانه وقفة الصنم مبهوتاً محتبس اللسان

ينظر اليها منذهلا ولا يجد كلمة يستوقفها بها

فلما ابتعدت عنه قليلا وكادت تحتجب بالظلام استفاق من دهشه واضطرابه وصاح كلا ليس هذا بوداع بل

سوف نلتقى !

فسمعت صيحته وانثنت فاشارت اليه اشارة معناها:

الامر اليك

ثم اختفت فى آخر الشارع فسار في طريقه أيضاً خافض الرأس ناكس البصر وفى أذنيه صدى كلماتها. اذ قالت له اذا رأيت الاستمرار على عيشة أهل البطالة والكسل بدلا من العكوف على الشغل كاهل الفضل واخيار الناس فآخرتك مشؤومة ولا شك اما انا ففى وسعى الابتعاد عن ذلك كله ويمتنع عليّ الاقتران بك. اذن فلا القاك بعد اليوم ... هذا كل ما عندى»

فقد عزمت على تركه وهى الحبيبة الوحيدة التى مال اليها قلبه من الصغر فما أحب مخلوقا سواها وتعشقها فى الكبر حتى تملكه سلطان هواها ولئن تركته فلا لوم عليها ولا تثريب

وللحال نفرت نفسه من عيشته واشمأز من حالته وقال فى نفسه ان الخطر الذى اتعرض له لاعظم من المغنم الذى اناله اما اذا كان المغنم كبيراً فان النحس يتولى حرمانه اياه

والشاهد الاقرب على ذلك عقد اللآلىء

اذن فما الداعى الى الاستمرار فى هذه الحال الملعون

فقر قراره ووطن النفس على الاصلاح والانتهاء عما هو فيه والاقلاع عن الجهل والقبيح حتى يغدو من أهل الرشد ويستقيم على الطريقة المثلى فيزاول العمل الذى لا عيب فيه ويدأب فيه حتى يساوى سيجاريت فى السيرة الحسنة والاجتهاد فيستحق ودادها والاقتران بها

وهكذا عزم مانيلون على الرجوع عن مخازيه وراق له التمتع بالسلام والدعة وكان الفضل فى هذا الانقلاب عائداً الى تلك الفتاة التى تكاد تكون شريدة فهى التي اجترحت هذه الاعجوبة وهى صاحبة هذه المعجزة

ولكن هل يدوم على نيته ؟ الا تستغويه المعاصى فى أجل قريب فيعود اليها ؟ الا يمين فى يمينه متشبها بالسكيرين الذين يحلفون على ترك الراح ثم يجعلون لانفسهم مخرجا من ذلك الحلف ؟؟

ومهما يكن من امره فانه عقد النية فى ذلك الوقت حسنة ثابتة وأراد ان يبرز بها الى حيز العمل

١٦ – ١٠٣ – س٩ خامس

سريعاً فقصد من فوره حانة ديبو وطلب الى صاحبتها ان تخبر لوسيان مرليه عنه وتقول له ان لا ينتظره فى موعد الظهر

وذلك من غير بيان أو ايضاح ...

فكأنه فر هارباً من سيرته القديمة ونجا من الشر سالماً وخطا الخطوة الاولى في الطريق السوى

وصدق من قال ان الخطوة الاولى عسيرة دون سواها

الفصل العاشر

حانة شارع البرنس

سافر ميلورد الذهب أوجاك نورتون الى لوندره فوصل الى محطة شارين ونزل فى احد الفنادق وانتحل اسماً ريثما يختار مكاناً فى حى آخر من أحياء المدينة التي تعد قاعدة الجزر البريطانية وملكة البحار .

وفى صبيحة اليوم التالى ركب عربة الى شارع البرنس لان هناك مركز البريد الخصوصى الذى كلمه عنه الشيخ سام ..

فذهب اليه عملا باشارة رئيسه قبل ان يعمل عملا

وكان محل البريد فى طبقة أولى من منزل فى طرف

الشارع واقع بين مخزن لشراب (الصودا) ودسكرة لبيع الخمور المختلفة من جعة وويسكى وبراندى وغيرها وكلها اشربة انكليزية

فمحل البريد مجاور لمحال الاشربة الكحولية فيتمكن كل ذى شغل فيه من الذهاب ليأخذ كأساً من ماء الغازوز أو الشاى أو الخمرة اذا شاء من غير ان يعانى مشقة السير الى مكان بعيد

وانما يكون ذلك تبعاً للاخبار التي يتناولها من البريد عند التوزيع فاما ان تكون محزنة فيعمد الى المسكر من الشراب أو سارة فيختار بينه وبين غيره من المرطبات

وهذا قسم من بريد لوندرة انشىء خصيصاً لاصحاب الاشغال وانشىء، مثله بعد وقت قصير فى باريس وبرلين وسائر العواصم الاوربية الكبرى

وهو مكتب يتناول اجرة تزيد زيادة قليلة على الاجرة المعتادة ولكل ان يذهب الى هناك فيتناول رسائله سراً ويكتب محتجباً أو يبعث رسائله كتابية أو برقية فيتكفل الموظفون فى المكتب بارسالها الى أية جهة من جهات

ومعلوم ان هذا الفرع اجزل نفعاً لمن يخشى المراقبة من العاشقين أو لمن أراد تجنب العيون

فدخل جاك نورتون وكان الضباب كثيفاً فى الخارج الى غرفة ضيقة مظلمة شيئاً فالتى اربعة من الموظفين يشتغلون وراء مكاتبهم وأمامهاسور خشبي كسائر مكاتب البريد العادية

وكان الناس يأتون فيأخذون رسائلهم ويدفعون الرسم المقرر عليها

فقصد نورتون الى اول مكتب وسأل عن رسائل قد تكون واردة بعنوان (ا. و. ز نمرة ٢٨)

فبحث الموظف وبعد هنيهة سلمه غلافا كبيراً مختوما بالشمع الاحمر باختام خمسة . فقال له: أهذا كل ما ورد باسمى ؟ فاجابه نعم ياسيدى فدفع جاك الى الرجل شلناً وانصرف فما كاد يخطو بضع خطوات حتى تلاقى برجل قادم الى هناك فاصطدم به فصاح ياللشيطان فهل أنت مستعجل الى هذا الحد حتى تصدم الناس فى طريقك

فوقف الرجل ليعتذر ثم نظر اليه وصاح من ذا أراه هنا ! اجاك نورتون؟ كيف حالك أظنك فى أحسن حال

فقال جاك نورتون أهلا بالطبيب بلتيمور ويالها من صدفة عجيبة !

أجاب انها صدفة شيطانية لكنها سعيدة

وكان الرجل المدعو الطبيب بلتيمور طويل القامة يبلغ طوله خمسة أقدام وستة أصابع اصلع الرأس شيئاً اشقر الشعر وربما لا يزيد عمره على الاربعين الا انه مهزول حتى تكاد تبدو عظامه

فقال ماذا جاء بك الى هنا يا مستر نورتون ؟

أجاب اذا شئت تفضل بالذهاب معى فاجيبك على سؤالك فى غير هذا المكان فكيف ترى ياصاحب السيادة

قال ان مولاى على صواب فهيا بنا

قال جاك الى أين ؟ فهل تريد أن تشرب (غازوزه)

أجاب كلا وما كنت اشربها والخمر موجودة

قال لكن ماتحب الا انى حسبتك هاجراً للمسكرات

اجاب نعم ولكن فى الفصول التى اكتبها فقط اما فى المعيشة العادية فليس الامر كذلك . . . فافعل كما أقول ولكن لا تفعل كما افعل ! اعمل بنهيي ولا تقتد بي !

ودخلا الى حانة ملاى بالشاربين فطلب الطبيب خمراً وجلسا الى مائدة عالية ينتظران اعداد ما طلبا

واخرج بلتيمور قصبة التدخين فملاها تبغا واخذ فى التدخين فقال نورتون لقد كنت اظنك لا تدخن

أجاب وأى شيطان اوحى اليك بذلك

قال انى لاذكر خطبك ومحاضراتك التي افضت فيها ببيان اضرار التدخين واخطاره فهل نسيتها انت ؟

أجاب نعم ولكن فى خطبي التي القيها اقاوم التدخين واذمه اما في المعيشة المدنية فليس الأمر كذلك ولست قادراً على مباشرة شغل مالم ادخن . وكل المحاضرات التى لى في مضار التبغ والتدخين مكتوبة بين سحائب دخان متلبدة فوق رأسى . وقس على ذلك مقالاتى فى مضار المسكرات او الكحول فقد سطرها يراعى ويدى ترتجف سكراً

وشرب بلتيمور كأسه جرعة واحدة ثم حرك لسانه فى فمه يستطيب الشراب

وكان هذا الطبيب غريب الاطوار والاعمال ولقد زاول حرفا عديدة وسافر كالسندباد البحرى فاشتغل فى البحث عن الذهب في مناجم الاسكا وكان بدالا فى سان فرنسيسكو وماسح احذية على ارصفة نيويورك ولصاً فى السفن التى تسافر منها الى اميركا الجنوبية وبائع جرائد ووقاداً للسيارات ومستخدما فى الترمواى الكهربائى وسائقاً وصانع الات للسكة الحديدية وتاجر اعلانات فى الجرائد ورائض ذئاب وملاعب قردة ومدير ملعب ونخاساً وغلام قهوة الى غير ذلك من المهن التى لاتحصى فطاف حول الارض اوفى مناكبها ثم عاد الى لوندرة يزاول صناعة الطب

وكان حاصلا على شهادة قانونية من زمن بعيد فاستخدمها فى الزمن الاخير .

ونورتون لايجهل احواله وانما كان ينظر اليه كما ينظر الى من هو اصغر منه واحقر

فلما انتهى بلتيمور من شرب كأسه قال هاقد رجعت الى لوندرة بعد طول الغياب وكنت احسبك مسافراً

اجاب لكل مسافر أوبة

قال اتقيم هنا زمناً طويلا ؟

أجاب الامر يرجع الى الاشغال ...

قال أى اشغال ؟

أجاب انت مهذار ايها الطبيب وفضولى كانك امرأة

فغير الموضوع وقال لقد رأيت والدتك منذ ايام

قال متى كان ذلك ؟

أجاب فى الاسبوع الماضى ... وعالجتها

قال هل كانت مريضة ؟

أجاب نعم وصحتها منذ سفرك غدت معتلة مختلة... ولا بد ان تكون قد اورثتها غماً

قال انا ؟

أجاب هذا فكرى ... فهل تنطلق لتراها

قال ربما ..

أجاب انك تحسن عملا ايها العزيز

قال هل كلمتك عنى ؟

أجاب كلا

فلبث جاك نورتون مطرقا يفكر واعتمد رأسه بين يديه وقد اثر عليه ماسمعه عن والدته

كانت أمه من اتعس الامهات فكم اورثها شجنا وكم القاها فى هاوية البؤس والشقاء ! .

ترملت بعيد زواجها وكان زوجها شابا فقيرا وموظفاً صغيراً فغادرها وحيدة بلا مال فانصرفت الى الكد والدأب تشتغل الليل والنهار لتربى ولدها جاك وكانت تعبده عبادة

فلما بلغ الخامسة عشرة كان لصاً صغيرا نشالا فى الاسواق الحافلة بالجماهير كثير التردد على حانات الجعة مدمناً للسكر .

وهناك صادف بلتيمور وكان طالب علم فى مدرسة الطب سكيرا منذ اول بلوغه الحلم فتعارفا سريعاً لاتفاقهما فى سوء السيرة ولؤم الطباع .

فكانا رفيقين مدة سنوات يسكران معاً ويحتالان

معاً الى ان عنّ لبلتيمور ان يصلح شؤونه اذ أصيب بمرض فى معدته واضطره الى الاستقالة من تلك المعيشة المشوشة .

فعكف على الدرس واحرز شهادته الطبية ونورتون مواظب على ضلاله وقد وجد رفاقا آخرين ثم انضم اليهم بلتيمور مجتذباً اليهم بفطرته الخبيثة

وكانت الام تنام على الحصير لتقضى ديون ولدها جاك وتدفع عنه خسائره فى المقامرة وغوائل تصرفه السيء

أما الآن فقد غدت منقطعة كئيبة مريضة ساكنة منزلا صغيراً فى شارع ليسستر تتكسب بالجهد من شغل ابرتها

فخيل لميلورد الذهب انه يرى ذلك كله ومر خيال أمه امام عينيه.

وهو قد تخلى عنها من زمن بعيد فلم يعد يجسر على الاجتماع بها

ذلك لانه هجرها هجراً معيباً بعد ان سامها من العذاب ألوانا وضروباً . فلم يطق نظراتها ولا بد ان

تكون ممتلئة حزناوملاما

فهز رأسه ليطرد منه تلك الخواطر المحزنة ورفع بصره الى بلتيمور وقد كان يشرب الكأس الثالثه ويدخن القصبة الثانية .

فما عتم ان غلب عليه الشراب والتدخين واسترخت مفاصله واطبق عينيه الا قليلا واسترسل فى التأمل الذى ينشأ عن السكر ممتعاً بلذة تخديره .

وكان الى جانبهما رجالا ونساء يتعاطون الشراب ومعظمهم عمال جاءوا لينفقوا هناك بضع ساعات وفيهم امثلة للبوءس والقذارة والرذيلة وبحمد الله على ان داء السكر لم ينتشر عندنا انتشاره عند الطبقة الواطئة من الشعب الانكليزى حتى صار يضرب بسكرهم المثل فيقال سكرة انكليزية .

الا ان جاك نورتون لم يحفل بهم لان افكاره اتجهت الى ناحية أخرى بعيدة.

ولعل بلتيمور وجد فى جسمه بقية قوة فطلب كأساً أخرى فشربها وراق عليه السكر.

فرأى جاك نورتون ان قد آن اوان الاطلاع على الغلاف الذى تناوله من البريد .

فافتض اختامه وبلتيمور يغمض عينيه ويحنى رأسه .

فوجد فيه ورقة بيضاء كالتى كانت معه يوم قرأها فى مركبة السكة الحديدية حين كان عائداً من ويسول الى باريس

فعرضها للهب فظهرت الكتابة عليها بقلم الشيخ سام فطالع فيها ما صورته

ـ أمر سرى ـ

« يجب على جاك نورتون ان ينطلق سريعاً الى المنزل نمرة ٢٣٦ الواقع فى شارع ليسستر وذلك عند ما يتلقى هذه الرسالة في اليوم عينه او فى ثانى يوم من وصوله الى لوندره . . .

فارتعد ارتعاداً واضحاً حين تلاوته هذه السطور لان المنزل المشار اليه فيها هو عين المنزل الذى تقيم فيه والدته ويعرفه حق المعرفة . . .

على انه أتم قراءة الامر

« هناك يوجد مخزن للازياء صاحبته عانس عجوز بخيلة غنية يقال له مس جود

« فهى تخفى أموالها عندها .

اما هذه الاموال فهى ذات قيمة جسيمة ولا بد ان تكون موضوعة فى محفظة سرية مخبوءة فى الجدار بقرب الباب الداخلى لمخزنها

« فعلى نورتون ان يفعل ما يجب ويخبرنا عن النتيجة في مدة لا تتجاوز خمسة أيام

« سام »

فطوى الرسالة وهو يقول لعنة الشياطين على الشيخ سام فانه لا يبرح مستعجلا فهو لا يحب الاعمال التى يطول وقت انجازها

واخذ يفكر فى المهمة التى عهد اليه بها الا انه ذعر حين سمع بغتة صوت رفيقه يدوى بجانبه كالرعد طالبا كأس شراب وقد استفاق من سكره شيئا على ان كأسه كانت امامه ملأى ولم يشربها بعد

فقال له نورتون اخبرنى ايها الطبيب الا تزال والدتى

مقيمة فى منزلها القديم بعينه ؟

أجاب نعم ايها الصديق فهى في المنزل نمرة ٢٣٦ من شارع ليسستر فهل تنوى الذهاب الى هناك ؟.. لعمرى انك تحسن صنعا !

قال كلا وانما اردت معرفة البيت فقط . . .

أجاب أما أنا فارى ان الشراب هنا ردىء فهيا بنا نذهب الى مكان آخر

قال انى عائد الى منزلى

قال افعل ماشئت وأما أنا فاننى قاصد الى غير هذه الخانة حيثما يكون الشراب اجود وعندى محاضرة يجب علىّ الاهتمام بها لاننى سأكون فيها الرئيس المقدم ومتى كان الشراب رديئاً لزمنى التقصير والعى !..

قال جاك اعرف ذلك

وقال بلتيمور متى أراك ؟

أجاب فى أحد الايام وسأكتب اليك

وظاهر من هذا الجواب انه يريد ان يكون مطلق اليدين حر الحركة متستراً مااستطاع

فاذا انتهى من مهمته المعلومة راق له ان يلقى بلتيمور لما بينهما من الملائمة فى الصفات

فقال بلتمور انى اجىء كل يوم فى مثل هذه الساعة الى مركز البريد الخصوصى فوافنى اذا شئت اواكتب الىّ

قال جاك نورتون وهل ترد رسائلك فيه ؟

اجاب لا يرد كلها وانما بعضها واعنى به رسائل بعض السيدات اللواتى يطلبن منى ايضاحاً عن بعض المواضيع

وغمز باحدى عينيه فصافحه جاك قائلا الى الملتقى

فأجابه الى الملتقى القريب

وافترق الرجلان فانطلق بلتيمور باحثاً عن الخانة المفضلة على سواها وانصرف نورتون يدبر تدبيره الى ان وصل عند المساء الى شارع ليسيستر راكباً مركبة لان السير في العاصمة الانكليزية ينهك القوى وكانت المركبة تسير الهوينا فجعل يمر بالحوانيت فوقها الطبقات العديدة التي يسكنها عدد لا يحصى من صغار التجار والموظفين وينظر الى الطريق وكان يعرفها من عهد بعيد حتى وصل الى المخزن نمرة ٢٠٠

وما عتم حتى بلغ نمرة ٢٣٦ وهو المشار اليه فى رسالة الشيخ سام

فرأى مخزن الازياء ولم يكن يجهله كما انه لم يكن يجهل مس جود صاحبته وكانت وقتئذ فى محلها منكمشة فى محادثة سيدة عندها ولاح لنورتون من النظر الى كثرة حركاتها واشاراتها انها مهتمة فى اقناع السيدة بمحاسن بضاعتها حتى تشترى

فتبسم جاك الا ان تبسمه زال سريعاً حين رأى امرأة عجوزاً خارجة من باب الدهليز المجاور لمخزن الازياء لان تلك المرأة كانت امه . . .

فعطفته عاطفة عليها بالرغم من قساوة قلبه . . . وقد وهن عظم المسكينة ورق جلدها وابلاها الهم والكبر ورآها ترتعش وتوشك ان تنال الارض بوجهها

فكانت تمشى على الرصيف مستمهلة متعبة كانها حاملة حملا ثقيلا . ومع ذلك لم تكن تحمل الا سلة صغيرة لتضع فيها الشيء اليسير من البقول والزاد

فلما رآها الشقى واهية القوى أحسّ باضطراب لعلمه



« جاك نورتون »

انه هو الذى صيرها الى ذلك الحال وجرّ عليها الويل والوبال

على ان والدته لم تكد تناهز الخامسة والخمسين الان من يراها يحسبها قد تجاوزت الثمانين . فخامرته رغبة فجائيـة دامت دوام لحظة كاد فيها يناديها اماه ! . . اماه ! . . انا ابنك جاك ! . .

ولو فعل لضربت صفحاً عن كل ما فعل بها وجنى عليها وتلقته فاتحة له ذراعيها فقد كانت ذات رأفة به واغضاء عن عيوبه وزلاته ولعلها أفرطت فى ذلك الاغضاء فنشأ ولدها لصاً . ولا بدع فان التغاضى عن تأديب الغلام يضيعه حتى يغدو رجلا !

كانت تصفح عنه ... وانما تصفح عن ولدها وحشاشة كبدها !

وكاد يناديها وقتئذ ان النداء وقف على شفتيه وادركه الخجل بغتة لالتقائه بها بعد ان أتى الموبقات التى لا تعد وبعد ما عزم على ارتكاب جناية تحت سقف المنزل الذى تقيم فيه !

وهو لا يستطيع الرجوع عن عزمه لان الامر السرى الذى تلقاه من الشيخ سام جلى صريح ولا يمكن نقضه ولا مجادلته فيه

فأمر الحوذى بالاياب وانزل قبعته على عينيه حتى تخفى معرفته على والدته اذا حانت منها التفاتة اليه ...

الفصل العاشر

« اللورد بورنت »

بعد ظهر اليوم وقف بمخزن مس جود فى شارع ليسستر رجل متقن اللباس حسن الشارة كأنه من نبلاء الانكليز وكبارهم واغنيائهم . مهيب الطلعة قد وخط الشيب رأسه ولحيته واقبل على شرفاته ينظر الى القبعات المعروضة ملياً كان كثير الاهتمام بها فاخذ يحقق النظر فيها تحقيق خبير مولع بها

فلما لاح انه وقع اختياره على واحدة منها دخل الى المخزن . . .

وكانت مس جود منفردة فى المحل مشغولة بلف صندوقاً من صناديق المقوى

وللحال دارت المحاورة بينها وبين الداخل باللغة الانكليزية وقد اعتبرته شارياً الا انه من الشارين الممتازين

لان هيئته تدعو الى هذا الظن به

فقال لها عندك نموذجات لطيفة جداً فى الشرفة

أجابت نعم وانها باريسية الزى ياسيدى جديدة

قال نعم ... وقد اردت ان اقدم لزوجتى قبعة منها

وأشار الى قبعة في مقدمة المعروضات فاستهدى حب الربح فى مس جود واجابت حباًوكرامة ياسيدى

قال انما أود ان تختار منها ماتشاء

أجابت اصبت ياسيدى اصبت

قال هل يسعك ان ترسلى الى نخبة من هذه القبعات

أجابت بلا شك وانما يكون ذلك حين تهدينى الى عنوان منزلك العامر

قال اسالى عن منزل اللورد هارى بورنت بميدان كوينتون نمرة ٢٣

فقالت بلهجة لاتخلو من احترام :

اذن فى حى وستمند ؟

أجاب نعم

فخفضت الرأس اجلالاً ولمعت عيناها طمعاًلان هذا

العميل مقيم فى اعظم احياء العاصمة فلا شك فى انه يدفع اغلى ثمن

فقالت فى أى وقت ينبغى الذهاب الى منزل جناب اللورد ؟

أجاب فى الساعة التاسعة من مساءاليوم

قالت سمعا وطاعة ياسيدى

قال اياك والتخلف عن هذا الموعدفان اللادى بورنت تنوى الذهاب الى زيارة اللوردمير فاذا اعجبتهاقبعتك لبستها

قالت نعم !

قال خذى كل مالديك من كل نفيس غال فان ارتفاع الثمن لا يهمنا كثيرا

فكاد يطير عقل مس جود فرحا وكادت تجثو على قدمى اللورد !

فقالت لقد اتفقنا يامولاى وانى لشاكرة وقوع اختيارك على مخزنى وآمل ان يكون اهلا لهذا التفضل من مولاى . . وفي الساعة التاسعة تماما من مساء اليوم امضى فاتشرف بمقابلة اللادى بورنت . فكن ياسيدى على

تمام الثقة

فانصرف جناب اللورد

اما مس جود فوثبت الى داخل مخزنها وفيه مخدعها الذى تنام فيه ومعملها ايضا . وكان هناك عاملتان تشتغلان فصاحت بهما

اسرعا فى مالديكما فيجب ان اذهب بنخبة كاملة من القبعات الى بيت رجل من النبلاء المقيمين فى وستند وليس لدينا كثير من البضاعة الجيدة فاسرعا مااستطعتما !

فاجتهدت العاملتان وعمدت مس جود الى مساعدتهما رغبة فى الاستعجال فكانت تشتغل بيديها الاثنتين

أما اللورد بورنت فسار فى طريقه يمشى مشية الكبر والخيلاء الى ان دخل زقاقا يفضى منه الى شارع آخر فلما طلع من ذلك الشارع اختفت لحيته وخرج حليق الذقن

ذلك لان اللورد بورنت لم يكن الا جاك نورتون فلما ازفت الساعة الثامنة كان واقفا بجوار مخزن مس جود يرقب ويرصد

الا ان زيه كان وقتئذ زى العملة وقبعته تكاد تحجب عينيه وان لم تمنعه من النظر الى ماحوله

فاخذ يروح ويجىء بين جمهور المارة وبصره لا يتحول عن المخزن الآنف ذكره ومازال مفتوحا الا ان الحركة فيه دائمة .

فنظر فى ساعته فاذا هى تشير الى خمس دقائق انقضت بعد الثامنة فقال مابال مس جود لم تنته بعد

واخذ يضحك وهو لا يقر له قرار من السأم ولكنه لم ينتظر قليلا فان العاملتين خرجتا من المحل ولحقت بهما مس جود حاملة صندوقا كبيرا من المقوى فاقفلتا باب المخزن

فضحك جاك نورتون قائلا هذه قبعات اللادي بورنت فى الصندوق

وركبت تاجرة الازياء عربة سارت بها سريعة فتجاوز الشارع الى الرصيف المقابل وقد بقى عليه ان يدخل الى المخزن

وقد درى قبلا ان للمخزن بابا على الدهليز وسرّ جاك

نورتون تزاحم المارة هناك فلا يلاحظه احد حين خروجه

فدخل الى الدهليز المظلم فانزوى هناك كأنه ينتظر واحد من السكان اما موضع البواب ففى داخل الدهليز يكاد يخفى وراء السلم

ومن صعد فى السلم كان معرضاً لبصر البواب غير ان جاك نورتون لم يكن فى حاجة الى الصعود لان باب مخزن مس جود كان بقرب باب الدهليز وموضعه مظلم لانه واقع وراءه .

ومعلوم ان جاك نورتون اقام زمنا فى ذلك المسكن فانحرف حتى وقف بالباب الذى يفضى منه الى مخزن مس جود وتسرع فاخرج من جيبه اداة كسر بها القفل فانفتح الباب لساعته ودخل نورتون ثم اغلقه وراءه .

فاسرج مصباحاً كان في جيبه وأخذ يصدع بامر الشيخ سام فبحث عن المكان الذى يمكن أن تخبأ فيه أموال العجوز

فاهتدى اليه اذ وجد بقرب سريرها خزانة اعمل فى قفلها ادواته . فكان العمل شاقا وطال الزمن على اتمامه

فأخذ يمسح العرق عن جبينه ويشتم ويقول ما امتن هذه الخزانة اللعينة

نعم فقد كانت تلك الخزانة حافظة لصاحبتها عهد الصيانة والامانة

الا ان جاك نورتون كان ذا عزيمة وعناد وفي يده اداة متينة فما لبث يهز بها القفل هزاً عنيفاً حتى انكسر

فتنهد والقى ادواته على الارض وأولج يديه فى الخزانة فاهتز فرحاً لان كفيه عثرتا برزمة ففتحهاشيئاً فعظم سروره لانه وجد فيها اوراق مالية من نوع (البنكنوت) لا أسهما ولا سندات

وحمل هذه الاوراق اخف واهون من حمل سواها فأخفى الرزمة فى جيبه بسرعة البرق . وقدر من أول نظرة ان قيمة ما فيها لا يقل عن الف جنيه انجليزى او خمسة وعشرين الف فرنك

وهو مبلغ جسيم وقد يكون سبباً فى سرعة تعيينه فى منصب رئيس جمعية اللصوص العامة

واذا به قد عرته هزة عنيفة لانه سمع وقع اقدام تدنو

فايقن بوجود شخص هناك . يدنو على مهل...
واحس بالهلاك

فاراد الوثوب الى ناحية المصباح ليطفئه أو يدوسه بقدميه . ولكن فات الوقت وانقضى

برزت له امرأة عجوز اخذت تتأمله فعرفها من اول نظرة لانها أمه !

عادت الى بيتها فسمعت حركة فى داخل مخزن مس جود وكانت تدرى انها غائبة . فرابها الامر . فيالله من هول تلك الدقيقة . وسرعان ما بهت كلاهما معا ووقفا وقفة لا يوصف روعها بلسان

فقد عرفت ولدها كذلك على الرغم من تنكره .

ان عينى الام لا تخطئان فى معرفة الولد انما ينكشف لهما الستر عن الحقيقة المحجبة عن العيون

فامتقع لونها بغتة . فارادت الكلام فارتعدت شفتاها ولم يصدر منها صوت . ثم احست بدوار

أما هو فطأطأ رأسه وفكر فى الخطر المحدق به اكثر مما فكر في والدته وقال فى نفسه لاشك ان مس جود

فى الطريق

ومعلوم انها لم تجد اللورد بورنت ولا زوجته اللادى عند ذلك العنوان الكاذب فلا جرم انها عائدة والغيظ يتوقد فى ضلوعها ناقمة على من خدعها واحتال عليها ..

ولا ريب ايضا فى ان عربتها تسابق الريح فى ايابها الى محلها

ذلك ما جال فى خاطر الشقى وهو يتجنب وقع نظرات والدته عليه

الى ان تمكنت من النطق فقالت أأنت اللص الذى القاه ههنا ياجاك ؟...

ولم يكن فى سعة من الوقت تمكنه الاخذ والرد فقال دعينى أنطلق يا اماه !

قالت اهذا كل جواب لديك !

قال دعينى فهل تريدين ان يقبضوا علىّ فى هذا المكان !

قالت يالك من شقى منحوس .

وأخذت تعضض زنودها وقد تغيرت سحنتها فقال كفى فاوسعى لى طريقاً . . ولسوف القاك فى غير هذا

المكان ياأماه فاسر باللقاء . اما الآن ففى هذا اللقاء كل الخطر يقع علىّ !

قالت جاك ! . . . ياولدى جاك !...

قال دعينى امر ! . . . الا اذا شئت ان انام الليلة فى السجن .

وازاحها بشراسة تاركا امامها المصباح والادوات .

ومر تحت جنح الظلام .

فخطا خطوات الذئب حتى ابتعد ولم يره أحد

واذ ذاك رجعت مس جود . . . وهى ترقص من غير طرب وتفور من شدة الغضب علمت بانها خدعت خداعا فظيعاً فباتت مرتعدة الاطراف غيظاً لانها خسرت الوقت وانفقت أجرة عربة ذهابا وايابا

والانكى من ذلك حنقها كلما فكرت فى انهم هزأوا بها

فلما دخلت الى الدهليز صدمت والدة جاك خارجه من بيتها وهى اقرب الى الاموات منها الى الاحياء .

فدخلت الى محلها وشاهدت مافيه من انقلاب وتفقدت اوراقها المالية : وللحال امتلأ المحل صياحاً كأن هناك

مائة هرة تذبح معاً

فكانت تنادى مستنجدة

فبادر اليها الجيران ثم جاء رجال الشرط فابصروها تشتم « مسترس نورتون » أقبح شتم وقد تول هذه خبل وشلل فلم تحر جواباً

فهدرت مس جود تقول للشرطي اقبض على هذه اللصة ! . . اقبض عليها فقد سرقت مالى كله ! . .

وقبل ان يجيبها الشرطى الى طلبها وثبت على مترس نورتون وأمسكت عنقها وهزته وهى تتوهج وتضرم حنقاً

فاجتهدوا اجتهاداً كبيراً حتى أنقذوها من قبضتيها .

فقالت وقتئذ :

ما أنا بالسارقة ... وانما

فدنا منها الشرطى وقال اذن فمن ؟

فصمتت وخفضت رأسها لانها لم تشأ وشاية بولدها

فقال لها الشرطى تكلمى من السارق ؟

أجابت انه رجل كان هنا وفر ... فر بعد دخولى الى

هنا بدقيقة واحدة

فهدرت صاحبة المخزن وزمجرت وصاحت ذلك شريكها فى السرقة شريكها فى خراب بيتى !

قالت مسترس نورتون :

انظروا ففتشوا فى ملابسها وحيث شئتم فليس معى شىء ولم آخذ شيئاً

فصاحت مس جود نعم فان شريكها أخذ الكل ... وهو الرجل الذى أرسلته الى هنا ليحتال علىَّ ويخرجنى من مخزنى !.. آه من الشقية !

قال الشرطى لوالدة نورتون :

تعالى معى فاوضحى لقاضى التحقيق

أجابت أناشدك الله دعنى . . . واقسم لك على أننى لست بسارقة !

قال هناك اقسمى ماشئت

وأمر شرطيين معه بالقبض عليها فساقاها . ولم يكترثوا لدموعها وصياحها فجروها والجمهور يتألب حولهم ومس جود مستمرة على الصياح والعويل



﴿ سيجاريت ﴾

أما جاك نورتون فسار من فوره الى مكتب البريد الاقرب الى هناك وأرسل رسالة برقية الى الشيخ سام هذا نصها

« قضى الامر »

مسامرات الشعب

اكبر مجلة روائية تصويرية اجتماعية تصدر ثلاث مرات فى الشهر

(لاشهر الكتاب العصريين)

سنتها عشرون عدداً

لصاحبها

خليل صادق

السنة الخامسة — العدد ١٠٤

السائلة الحسناء « الجزء الثانى »

(قيمة الاشتراك)

٥٠ غرشاً صاغاً فى القطر المصرى والسودان

وثمانية عشر شلناً فى الخارج

وكل طلب اشتراك غير مصحوب بقيمته فهو غير مقبول

« ثمن العدد الواحد ٣ قروش صاغاً »

مطبعة الشعب بدرب الجماميز بمصر

السائلة الحسناء

لواضعها

الكاتب القصصي الفرنساوى الشهير

م. روبيير

ومعربها

الكاتب الناثر البليغ

نقولا رزق الله

مدير ادارة جريدتى الاهرام والبيراميد

ما كل من تلقاه يبسط كفه
مستجديا هو في الحقيقة معدمُ
كم خامل كسل يمد يداً وكم
من بائس يقضى ولا يتظلم

المعرب

الفصل الاول

صبابة وشجن

لقد اقترف جاك نورتون الذنوب وركب الجنايات العديدة لكنه ما وقف وقفة من يبكته الضمير ولا احس بشيء من الانفعال الناجم من ركوب الوزر ومزاولة الشر الا بعد سرقته لمحل مس جود فى لوندرة

فانه اضطرب على الرغم منه لأنه غدر بأمه والصق بها ذنبه فى هذه المرة وهى امه !

الا انه حاول ان يعذر نفسه قائلا انما صدعت باوامر الجمعية وليس فى وسعى العصيان ولو لم افعل مافعلت لعهدت الى غيرى من اعضائها بهذه المهمة

ومع ذلك فانه جنى على والدته واساء اليها اعظم اساءة فمالبث حتى نبذ هذا الخاطر جانباً وقال ماهذه الاوهام فان والدتى تخرج بريئة من التهمة وتحسن التنصل مما

رميت به ظلما ومتى ظهرت براءتها أطلقوا سراحها فمدة انزعاجها قصيرة

واقنع نفسه بذلك حتى استراح فكره واطمأن قلبه فاتجه الى حى تكثر فيه الحانات على أمل من ان يبدد غياهب الهموم برنين الكؤوس

وطالع فى أثناء سيره إعلانات عديدة ملصقة على الجدران ومنها اعلان قد رسموا فيه صوره امرأة بديعة الجمال رشيقة القد جذابة الملامح كاملة المحاسن كأنها حورية من حور الجنان وهى مع ذلك لم تتجاوز السابعة عشرة

وبجانب الصورة اسمها واسم الملعب الذى تمثل فيه هكذا

ملعب الحمراء

ينينا الحسناء

وهى رقاصة ارمنية أحرزت صيتاً في عاصمة الانكليز واشتهرت بغنائها

وفى ذلك اليوم بعينه قرأ ميلورد الذهب فى الجرائد

فصولا عديدة عن ينينا . وسمع عنها فى الفندق والحانة والشارع مديح المعجبين بظرفها وحسنها ورقصها

فقال لنفسه امضى الليلة فأراها وهذه خير الفرص التى أنتهزها لانفاق وقتى . وللموسيقى قدرة على طرد الهواجس من ذهنى

فركب عربة وقصد بها الى ملعب الحمراء فلما وصل اليه سمع الجمهور يحيون هاتفين لينينا وقد ظهرت على الملعب وكأنما مسهم جنون لان حسنها كان ممايستحق ذلك الافتتان

جمال كما شاهده نورتون فى الاعلانات الا انه حى مجسم . فالغادة التى برزت للحضور شقراء الشعر قد عقدت منه تاجاً على الرأس وأنشأت منه سلاسل ذهبية مرسلة الى الجبين النقى بياضه كأنه من رخام . أما عيناها فينبعث منها ضياء يكاد يسطع ويعرب عن سلطان عظيم أوعن رقة ودعة لاتكون الا للملائكة تبسم عن اسنان كالبرد وشفتين كأنهما من الورد

هذا بعض وصفها وأما مابقى فهو أتم ماينا سب رأسها

البديع من رشاقة قوام واندماج جيد وصدر وخفة حركات واشارات

ويظنها من يراها راقصة انها ذات جناحين لسرعة تنقلها ولطف حركاتها ولين قدها وتثنيه

وكانت ترقص رقصة خاصة بها وأحرزت بها نجاحاً باهراً فصفق لها الجمهور تصفيقاً متوالياً أما جاك نورتون فاحس بفؤاده يطير على تلك الفتانة الخلابة وهاجته الصبابة فبات سكران ضائع الرشد

فلما انتهى الفصل اكثر من التصفيق حتى أعادها الى المرسح وكان واقفاً كأنه يعلن نفسه لينينا أو يعلن استحسانه لها وافتتانه بها فلاحظته باسمة

فخرج وهو كما قلنا طائر اللب والقلب

ثم لم يلبث حتى رجع عاقداً نيته على الاقتراب من الفتاة الحسناء والسعي للحصول على التفاتة منها اليه غير مكترث لما وراء سعيه من النفقات

أم غير مكترث فانه كان مالكا قدراً كبيراً من المال تهزه فى محفظته ويشعر كلما زحزح الاوراق المالية

بفرط قدرته وجرأته

ثم انه فضلا عن ذلك حسن الشكل لابس ملابس علية القوم أهل الثروة والنيل فخيل له انه يستطيع استغواء فتاة رقاصة بحذقه وذكائه ..وكيسه وكياسته

ولئن أتى حماقة وجنوناً فذلك يهون عليه فى سبيل هوى ينينا

فلا بد ان تلاحظه فيعرض عليها أوراقه المالية ولا بدع ان يفوز وقتئذ لأن الرقاصة لا يمكن ان تكون ذات فضيلة يعجز عنها سلطان المال

* * *

وهكذا جرى تماماً

بعد ساعة كان ميلورد الذهب جالساً مع الفتاة ينينا فى أحسن المطاعم يتناولان ما لذ وطاب

وكانت ذات شهية ونهم فأكلت مااشتهت وشربت من الخمور الفرنساوية ما لذ لها وحدثت جاك في أثناء العشاء بما وقع لها فقالت انها لم تكد تبلغ السابعة عشرة وموطنها ارضروم من أعمال ارمينيا قدمت الى اوربا

طفلة مع زمرة من صيادى الاوعال وفيها قومها فهاجرت معهم

لكنهم تفرقوا في الطريق فسار قوم ينينا الى باريس فالبلاد الشمالية الى ان رمتهم الاقدار فى لوندره وهم هالكون بؤساً .

فعمدوا الى التكسب بالفتاة فعلموها الرقص فى الساحات العمومية والشوارع وكانت طفلة الا ان ملامحها الشرقية وحسنها النادر أولاها حسن القبول على الرغم من صغر سنها

وفي ذات يوم رآها مدير جوق صغير في نواحي محطة شارينج كروس . فاتخذها ممثلة رقاصة فافلحت عنده الى ان تيسر لها الارتقاء الى افضل من ذلك الملعب فوجدت وظيفة فى ملعب الحمراء

وهناك رآها جاك نورتون . فجن بها ولذ له التمتع بحسنها النادر .

ثم ان اوراق (البنكنوت) التى رأتها ينينامعه لعبت بعقلها على انها امتنعت عنه فى بادىء الامر غير مجيبة

اياه الى تودده الا اجوبة مبهمة . وتلك صنعة بعض النساء يتخذن ميل الرجال اليهن وسيلة للحصول على كل مايرمن منهم .

الى ان اتى وقت اتخمت فيه ينينا فلم تعد قادرة على ان تقول لا

ذلك عند ما أخرج ميلورد الذهب عقد اللآلئ البديع الصنع من علبة معه . وكان ينوى بيعه أما الآن فعدل عن بيعه .

وقال فى نفسه يكفينى ان تطيعنى هذه الارمنية وتحبنى!

وقد فتنته حتى شغلت عقله عن كل شاغل سواها فقدم لها العقد وانفاسه تتضرم وجداً وعقله سليب .

فرقت له واعتبرته قاروناً واذعنت لهواه راضية مسرورة . وعرف كيف يريها السخاء وكرم الاخلاق فى وقت معاً

فلما خرجا من المطعم كانا صاحبين خليلين متحابين وقد نسى جاك نورتون حادثة شارع ليسستر ونسى ان والدته سجينة فى موضعه لان ابتسامات ينينا محت كل

ذكرى من صحيفة فؤاده .

فسارت معه الى بيته فلما فارقها عند صباح اليوم الثانى ارتفعت منزلته فى عينى نفسه وفخر واعتز ما شاء لان ينينا الحسناء غدت عشيقته وخليلته لا يشاركه فيها أحد!

انه الفوز المبين

وقد استأسرها بكرمه فهى تتبعه الى حيث يمضى ووعد نفسه بان لا يدعها تتفلت منه وانما يمسكها بجود كفه وشدة حبه

بات يهواها ويعبدها عبادة ولم يعشق قلبه غير الذهب فاذا بالحاظ ينينا اعظم سلطانا من الذهب واشد فعلا :

الا انها ولم يخف ذلك عليه لا تقنع منه بالمال اليسير ولا يرضيها الا ان تغترف من بحر وتنفق عن سعة

وانما خلقت لتعيش عيش أهل الرفاهيـة والتأنق وتسلك نهج ذوى الترف والنعيم

لاحظها حين كانت تطلب الوان الطعام والشراب فى المطعم فاذا هى مسرفة متنعمة كانها نشأت فى بيت نعمة ومجد وثروة وبها ميل شديد الى كل غالى الثمن

بعيد المنال على ابناء الطبقة الوسطى من الناس

فهى غول النقود ولا شك !

ولرب غانية مثلها اضاعت الثروات الجسيمة فى أجل قريب

غير أن هذا الخاطر لم يكن ليطفىء نار الصبابة المضطرمة فى فؤاد ميلورد الذهب وانما زاد فى ايقادها وعظمت رغبته فى الفتاة ليفاخر بها وينافس

قال فى نفسـه لا بد لى منها لاباهى بها الاقران فى مقبل الايام . . . وصدق الشيخ سام فى اعتقاده اننى ممتاز على سائر اعضاء الجمعية فلتفوض الىّ المهمات الاولى وليا نينا النصيب الاوفر من مكاسبي !

وهان عليـه ان يبذل لاجلها كل ما عز وهان وان يقتحم الصعاب حبا بزرقة عينيها !

عقد النية على ان يكون أحذق لص فى العالم وامهر المجرمين وادهاهم واجرأهم واقدرهم على الاكتشاف وأحيلهم فى الاستنباط واكسبهم للاموال والجواهر وأسكره فوزه فى غرامه فاخذينى العلالى والقصور

ويشيد من الآمال حصونا لا تقوض

وأنساه حاضره ما مضى. نسى تعديه على مانيلون فى مركبة السكة الحديدية وجنايته فى مدينة ويسول وسرقته بالامس ولؤمه الهائل اذ ترك والدته ترمى بذنبه ....

وانما أخذ يفكر فى منكرات جديدة يأتيها وذنوب يقدم عليها جسوراً وكل ذلك لاجل عينى بنينا

فكان يمشى منخفض الرأس ويرى الدنيا زاهرة زاهية كانها لبست ثوب الربيع وتحلت بالوان الزهر والورد

واذا ببائع جرائد ينادى وقدمر به فابتاع منه جريدة والقى عليها نظرة

واذا به قد وقف واصفر لونه وافلتت انامله الجريدة من غير انتباه ؟

فماذا طالع فيها ياترى ؟

جملة صغيرة لا تتجاوز خمسة سطور أو ستة

الا ان هذه السطور القليلة اطاشته وضعضعته وكان وقعها عليه كوقع الصاعقة

وخلاصة ما فيها ان امرأة عجوزاً التى القبض عليها

مساء الأمس فى شارع ليسستر متهمة بسرقة فانتحرت ليلا فى سجنها بعد ما كتبت على جداره انها بريئة ولا قبل لها باحتمال عار سجنها واقرت فى كتابتها انها تعرف السارق ولكنها لا تنبئ عنه احداً بل تفضل الموت على كشف سرها . ووجدوها ميتة مشنوقة بنسيج من فراشها ومعلقة باحد اعمدة السرير

ذلك ماقرأه جاك نورتون . وعلم ان تلك المرأة البريئة او الضحية التى ازهقت روحها بيديها انما هى والدته !.

علم انه قتل امه !

الفصل الثانى

المركيزة

اتى عشرون عاماً على الحوادث التى رويناها

فننتقل بالقارئ الى مدينة باريس وشارع فيليه المجاور لشارب مالرب فهناك قصر فخيم قديم العهد مرتفع الجدران انيق البناء يدخل اليه بسلم عال درجه من الحجارة البيضاء الى فناء متسع يشرف على الشارع. ذلك قصر المركيز دى سمروز زوج جيلبرت ابنة التاجر الجوهرى برتلمى المقتول فى مدينة ويسول منذا كثر من عشرين عاماً

فلندخل الى الطبقة الاولى منه نجد بين غرفها العديدة غرفة كبرى وفيها شيخ مريض مدنف متمدد على كرسى طويلة يرتعد تحت الاغطية وبجانبه طاولة عليها الكتب وزجاجات الادوية

وهى ادوية معظمها مما يسكن الالام اما الكتب فيراد منها محاربة الملل والضجر

وكان ذلك الشيخ المركيز دى سمروز بعينه. وفرش الغرفة كسائر ما في ذلك القصر المعجب يدل على سعة قديمة العهد وبيت عريق فى الثروة والمجد

ويا بعد ما بين ذلك الشيخ المدنف والضابط الذى رأيناه فى الفصول الاولى يخطر فى برد الشباب ويرفل فى نضارته ايام كان فى ويسول

اتى على ذلك عشرون عاماً فبلغ الستين او تزيد قليلا الا انه كان كمن تجاوز الثمانين

ادركه الوهن والضعف وتولاه السقم ورزح تحت اثقال الحياة الا ان المتأمل يتوسم فيه اثراً من آثار ماضيه ويلوح له من خلال شيخوخته شبح ذلك الفارس المتغطرس الانوف

ولا نزعم ان وجهه الاصفر اللون يخبر عن حسن كان يجتذب القلوب كلا فان ملامحه لم تكن كذلك غير ان فيها ما يشير الى شرف محتد وكبر

وكانت عيناه تلمعان تحت حاجبيه الكثيفين وهو طريح كجثة . فكأن الحياة هاجرت من بدنه الى بصره وبين يديه مجلة علمية مفتوحة ملقاة على قمطر (القمطر ما يصان فيه الكتب) حتى لا يتكلف عناء حملها وانما كان يعانى مشقة عند ما يمدّ يده لتقليب صفحاتها باصابعه التى فارقتها الحياة كسائر بدنه

ولعل ما يقرأه يهمه جداً لان جمر البغضاء يتوقد فى عينيه كلما طالع جملة وكانه يهم بتمزيق المجلة بيديه المرتجفتين

أما عنوان المقالة التى كان يطالعها فهو :

اموری درتيل

وهذا اسم هاج ذكره اعصاب المركيز واستوقد النيران فى ضلوعه

فنظر الى الساعة فقال لقد ازفت الرابعة . . . ولم ترجع بعد . . .

فضغط على زر بجانبه يقرع به جرساً فاقبل خادم بملابس زرقاء ومثل بحضرته ينتظر صدور الامر اليه

فقال هل قرع الجرس مولاى المركيز ؟

اجاب المركيز هل عادت المركيزة يافرمين

قال أجهل ذلك ياسيدى ولكن يمكننى الاستعلام من وصيفتها

قال اذهب وعد سريعاً . .

فانطلق الخادم .

وبعد دقيقتين رجع الى موقفه امام المركيز فقال له ماذا جرى

اجاب انبأتنى الوصيفة كورالى ان مولاتى المركيزه لم تعد بعد ولكنها لا تتأخر لانها وعدت بالرجوع فى الساعة الرابعة تماما

فالقى المركيز نظرة على الساعة فاذا به يرى ان عشر دقائق باقية

فلاحظه فرمين وقال ان ساعة سيدى المركيز سابقة فقد دقت الساعة الرابعة فى المعبد الآن .

واذ ذاك سمع صوت مركبة فى ساحة القصر فقال المركيز امض فانظر من أتى الآن ؛

فبادر الخادم الى احدى النوافذ وقال نعم فهذه مولاتى المركيزه

قال دع كورالى تقول لها اننى اريد مخاطبتها

أجاب سمعاً وطاعة يا مولاى

وانصرف الخادم بعد ان أقفل الباب على مهل وللحال دعاه مولاه بقرع الجرس

وكان المركيز قد استنجد بما بقى له من قوة فوثب على مقعده وقال بلهجة الغضوب

الا تعلم ويحك اننى لا اطيق سماع صوت فلماذا اقفلت الباب بعنف . . ولقد كدت تهدم البيت !..

فعاد فرمين فاعتنى باقفال الباب وراءه ثم مضى يهز رأسه .

وظل المركيز على كرسيه جامداً الا ان وجهه متغير تلوح الحمية عليه من الغيظ .

ذلك لان المركيز كان غيوراً وللغيرة افعى تنهش القلب بانيابها السامة

واذا به يسمع حفيف اثواب حريرية . ودخلت مدام

دى سمروز

فقال لها بصوت ساكن طبيعى :

ها قد جئت ياجيلبرت وكنت انتظر قدومك من زمن طويل

فاحست بالتوبيخ فى كلماته فقالت تنتظرنى من زمن طويل يااوليفيه ؟

قال لقد كدت احسب انك لاتأتين ابداً .

قالت ماخالك الا مازحا . . . وهذا لايمكن ان يسوءنى منك

قال لا بأس . . . ولكنك تجهلين اننى فى حاجة الى ملازمتك اياى ياجيلبرت

اجابت انت ترى ياصديق اننى لا افارقك الا قليلا قليلا جدا .

قال لا استطيع ان البث بدونك . . فاذا كنت بعيدة عنى ابطأ سير الدقائق وكأن عقرب الساعة لايتحرك .

وقد كان فى صوته شىء من اللطف والتسامح

حين تلفظ بهذه الكلمات

فجلست المركيزه بجانبه . وكان يحدق فى وجهها تحديق معجب وناقم فى وقت معاً . وفي نظراته افكار كثيرة

لبثت جيلبرت فتانة المحاسن فان عشرين عاماًمضت ابلغتها الاربعين وهو سن يخشى منه كثيرا على حسن النساء الا ان جيلبرت مابرحت ممتازة بجمالها الفتان وما برح فى وجهها ذلك الجاذب اللطيف وتلك الملامح التى استهوت المركيز قبلا

الا ان في عينيها اثاراً للبكاء

وبعد سكوت قصير المدة قال المركيز .

لا انكر ان عشرة المريض لاتسر احدا . . . ولا سيما بعدايابنا الى باريس . . . وفي باريس مايشوق ويروق

فتبسمت بكآبة ظاهرة .

قال غير ان الواجب المفروض يقضى عليك بان تمكثى بقربى محرومة مسرات هذه العاصمة ولعلك تململين من ملازمة عاجز كسيح مشرف على التلف ..

فتكلمى بحرية فكرى ياجيلبرت اليس الامر كذلك

أجابت ان الواجب الذى تتكلم عنه انما يسمى اخلاصاً

قال ليته يسمى محبة ... ولو كان كذلك لما دعى واجباً لو كان كذلك لسررت به ولذّ لك ... على اننى أحملك على الطمأنينة فانك لا تستمرين زمناً طويلا فى هذه الحرفة حرفة الممرضة

فصاحت بلهجة انعطاف ورأفة حقيقية قالت هل تجدك أحسن حالا ؟ . .

أجاب كلا واأسفاه . من أين لى ان اكون احسن حالا فاننى لا افهم معنى هذا الكلام انما انا انطفىء على مهل كما ينطفىء مصباح قد نفدزيته

قالت لايحق لك ان تعذب نفسك فانت ايها الصديق لاتزال قوياً

اجاب كلا فاننى ادرى بنفسى والكلام لا يغير حالى ولا يبدل أشجانى الدائمة .. خذى يا جيلبرت وطالعى هذه المجلة

ودفع المجلة الى زوجته فجعلت تطالعها وهى شديدة الانفعال

فقال الاترين ياجيلبرت ان امورى درتيل العالم النحرير قد آب الى باريس بغتة بعد ان سافر مدة خمسة عشر عاماً في بعثة علمية . ففى هذه المجلة نبأ ايابه .. ألا ترين انه يوجد اتفاق غريب بين ايابه بعد طول سفره وايابنا أيضاً وذلك فى وقت واحد ؟

فارتجفت يدا المركيزة ولم تجب

فقال ان هذا الرجل يتبعنى ولا يزال على أثرى . . . آه ماأشد بغضى له ! . . . وانما استعفيت من اجله لكى امنع كل تلاق بينكما فى أحدى الحفلات ولاجله هربت من باريس وانفقنا اعواما طوالا مبتعدين عنها فى طوران . . . ولما سافرنا الى هناك رحل درتيل فى بعثة علمية الى الخارج ولعله حاول ان ينساك بالاسفار ولما رجعنا الآن الى باريس اذا به قد رجع ولعله يرجو ان يلقاك ؟ .

اجابت بخجل

وأى شأن لذلك ؟

قال انه كان مفتونا بهواك . . . ولا يزال . . . فلا تنكرى ! . . . ولاجلك طلب ان يعين فى منصب استاذ فى باريس بعيد زواجنا . . . ومن يدرى نيته فقد كان على امل منك . . .

قالت أوليفيه ! . . . أوليفيه . . . ماهذا الكلام . .

اجاب نعم اجيبى . . . اجيبى بكلمة . . . قولى اننى على خطأ . . . وقولى انك لم تحبيه قط حاولى تبرئة نفسك

فرفعت رأسها بكبر وأجابت أنا أحاول تبرئة نفسى !

الا ان هذه الحركة لم تدم الا لحظة عين وكأن قوة خفية تسلطت عليها فخفضت رأسها

فقال المركيز أراك لاتجاوبين بكلمة واحدة حين أخاطبك عن العذاب الذى قصر عمرى

أجابت ماذا عسى أقول فى غيرة كغيرتك ... فهى بعيدة عن الصواب ... بل هى غيرة عمياء !

قال وهل يمكن الا ان تكون كذلك وانا منذ زواجنا أفكر فى هوى تحدق بك اشعته وبجتذبك اجتذاباً...

أجابت لقد بذلت ذلك الهوى ضحية لك ..

قال اواه !.. من يدرى مقدار أسفك عليه !...

قالت انت قاسى الفؤاد

أجاب ان الاقدار كانت أشد قسوة على" لانها وضعت ذلك الرجل الذى امقته فى طريقى ذلك الرجل الذى يعبدك عبادة

قالت لقد كان يحبنى فى ما مضى من الزمن ...

قال وأحبك بعد ماتقيدت بالزواج ... وقد شاهدته عند ما اتفق تلاقيكما فى حفلة سفير انكلترة بعد زواجنا باربعة أعوام . وشاهدته مراراً فى حفلات أخرى - وذلك حينما كانت تجمعه الصدفه" بك او يهيء الصدفه" لاجتماعه بك - بعد ماتضلع من العلم واحرز شهرة بين الناس !..

وهنا انقلب صوته الى لهجة" متهكم وكان كلامه قارصاً فتجلدت جيلبرت وقالت بسكينه"

هل انت ناقم عليه لانه ادرك بجده وكده منزلته العاليه"

أجاب نعم أنا ناقم عليه لاجل كل شيء ... لاجل كل شيء يرفعه اليك ويدنيه منك ...

قالت هذا جنون ياصديقى ...

اجاب بل هو النظر الثاقب والرأى السديد

قال ولكنك تتكلم عن أمور مضى عليها أكثر من خمسة" عشر عاماً ... ومنذ ذلك الزمن لم نشاهد المسيو درتيل كما تعلم لاننى اطعتك واذعنت لامرك فتبعتك الى طوران ولم افارقك قط ...

أجاب هيهات ان يخمد مرور الزمن غراماً كغرامه انى لاذكر نظراته اليك فى مرقص سفارة انكلترة وكاد اللعين يفترسك بعينيه افتراساً !.. واما لحظاتك انت فقد كانت تترجم عن اضطرابك ولوعتك وتحرقك لانك لست بصاحبته . . . الا اننى رأيت ذلك كله وفهمته !

فلم تغضب ولا تذمرت لكنها دنت منه وقالت اناشدك الله يا أوليفيه خفض عليك وا كفنى هذا الملام ... فقد طالما لقيتنى بمثله ...

اجاب ان عذابي قديم ياجيلبرت ويبدأ تاريخه منذ اقدامك على الظهور فى محكمة الجنايات ...

قالت الرحمة ياهذا فانك تزهق روحي

اجاب ألم تزهق روحي أنا حين ذهبت فدخلت الى المحكمة تحدثين القضاة بقصتك معه واجتماعك به على موعد ؟ . .

قالت وهل كان ينبغي ان ادع القضاء يحكمون على برىء وانا عالمة بأن كلمة مني تنقذه ...

فالتقط الكلمة وقال انها كلمة لم تتلفظي بها تلفظا ولكنك ملأت بها الدنيا صياحاً. بحت بها على رؤوس الملأ رافعة الرأس كبراً ونالني منها هزء الناس وسخرهم ولشدة ماكان دفاعك عن اموري الجميل المنظر قوياً باهراً !.. ولا شك انه فاخر بك فى ذلك اليوم . لقد كنتما آية فى اظهار الهوى الصادق والاحساس النبيل فهنيئاً لكما بذلك!

وضحك المركيز ضحكا كالبكاء ثم قال أما أنا فاضطررت الى الاستقالة من الجيش وترك منصبي

العسكرى على رغم انفي وكل ذلك لانه راق لك ان تتصدقي بحمايتك الفاضحة على ذلك البائس المستجدي هواك

أجابت بسكون .

لقد اعدت على سمعي هذه الاهانة مائة مرة وانت تدرى مع ذلك ان ذلك الموعد الذى كسرت فيه فؤاد خطيبي السابق معلنة له قرب اقتراني بك كان موعداً لا يعاب . . . وعظمت شكوكك وقتئذ حتى هممت بمفارقتك . . . ولعلني كنت احسن صنعاً ...

قال نعم ولكنني لم أشأ ولم اوافقك على ما اردت . حملني هواك على الرضى بالجبن والهوان . . لم أشأ لانني فى اشد الاحتياج اليك ولانك من ضروريات حياتي كالهواء لرئتي . ولانني اردت ان ارزق منك ولدا .. ولانني لا ازال احبك كوالدة لولدي العزيز روبر الذى يشبهك ويخلف اسرتي . . لانني . . آه ان عواطفي مضطربة وعذابي اليم

وهنا توقف عن الكلام من تعب وبعد هنيهة قال وقد تزايد عذابي عشرة اضعاف حين لقيته ثاني مرة

وراقبت على وجهيكما ماخامركما فى تلك الدقيقة . فلاح لى اذ روحيكما قد امتزجتا امتزاجاً ابدياً .. آه من النذل . آه من النذل ...

واكفهرّ وجهه من شدة حنقه وبغضائه وحقده وامتعاضه

فقالت له بحق السماء سكن غيظك وخفض عليك وارحمنى . . . لماذا يعجبك شتم الرجل انه امر لا يجدر بك

قال آه ما اشد كراهتى اياه وان اتى عليها عشرون عاما فانها تتجدد فى كل دقيقة وتزداد

قالت انك تضر نفسك ياعزيزى اوليفيه . . .

أجاب ماذا يهمنى ! . . . فان قهرى يقتلنى خنقاً اذا لم أبح به علنا . . .

قالت لماذا تؤلم نفسك بذكرى ماضية وتعذبها باوهامك

فتبسم تبسم الحنق وقال اوهامى ؟ ومن ذا يبرهن لى على انها اوهام ؟ . . . وهل اعلم اذا كنت لقيته مرة ثانية ؟ ... وهل اعلم الى اين تذهبين ؟ ... ومن اين لى

الاطلاع على ماتفعلين ... وما يجول فى سريرتك ؟

فلم تجب وكانت فى كل يوم تكابد من تلك المحاورة ما تكابد وتتجلد . . .

اما الآن فقد خارت قواها فامتنعت عن الدفاع والجدال ... وكانت ترثى لزوجها لان هواها يضرم فى فؤاده نارا من الغيرة ويذهب برشده

وقد مضت اعوام وهو يرتاب بها ويظهر لها شكوكه ويعنفها مثل هذا التعنيف المر ويقيم عليها العيون والارصاد .

فلم تثر غيظاً وانما تحملت مصيبتها ولم تشأ الا تسكين آلامه وأوجاعه وتعزيته بكل ماتشعر به من اخلاص وعناية الا انها لم تفلح قط . . .

ومن التي تفلح في مثل هذا ؟

هذا والموت يخطو الى الرجل على مهل وهو يقاسى اوجاع المرض وعذاب الغيرة والاضطراب .

ولم تنفع ذلك المركيز ثروته ولا مقامه

فنهضت جيلبرت لعلها تقطع تلك المحادثة المضنكة

فاقبلت على وسائد زوجها تصلحها ووضعت يدها بلطف على جبينه الملتهب كأنها توصيه بالسكينة والراحة والنسيان

فقال لها بصوته الجافي :

أنت سليمة الطوية على الرغم من كل ما جرى ويلذ لي ان اشعر بك ملازمة اياي كأنك من أخوات المحبة آه ما كان اسعدني لولا ذلك الرجل وتعرضه لهنائي

قالت لقد كان خطيبي قبل ان عرفتني وعرفتك .. افلا يستحق مني قليلا من الشفقة والانصاف ... وقد اتهمه الناس جميعاً بجناية لم يأتها ولا يأتيها من كان مثله ؟

اجاب ما أقوى حجتك في الدفاع عنه ويخيل لمن يسمعك الآن انك واقفة في محكمة الجنايات !

قالت بحقك دعنا من المسيو درتيل فلا نتكلم عنه بعد اليوم انك تجلب لنفسك ضرراً شديداً وتسيء الىّ بلا فائدة !

قال بل الامر بالعكس يجب ان نتكلم عنه لانني افكر فيه على الدوام فلا تمر بي دقيقة الا وهو شغل فكري

الشاغل ... اني منذ مامثلت بحضرة القضاة اعيش وخيال الماضي نصب عينيّ ... اراه امامي على الدوام

قالت على الدوام

أجاب نعم .. وذلك عند ماتكونين بعيدة عني ولو انه بعد قليل .. فيخيل لي انك ذهبت اليه وانك عنده فاراكما متحدين ... واضلّ صوابي !

قالت اذن فلا اخرج بعد اليوم ياصديقي .. والزمك ما استطعت حتى لاتخامرك هذه الافكار المحزنة

قال ولكن اذا الزمتني هل يكون فكرك معي ام معه ؟

أجابت رحماك يااوليفيه ...

قال اني على يقين ... ويحق لي ان ابغض ذلك الرجل الذي لم يخلق الا ليكون شؤماً عليّ

أجابت انه لا يعتقد لك البغضاء ومع ذلك فقد أخذت حصته من الهناء وسحقت فؤاده الى الأبد ...

قال ألم يسحق فؤادي أيضاً ؟ . ان ذلك اليوم الذي برز فيه للجمهور متوجاً بهواك كان يوماً مشهوداً ترتجف منه اعصابي حتى الساعة ! خرج من قاعة محكمة الجنايات

خروج الظافر المنصور أما انا فطأطأت رأسي يومئذ من الخزى والخجل والفضل في ذلك عائد اليك فقد صيرتني هزءاً وسخرية فى البلد !

أجابت أدرى انك تألمت بالنظر الى عزة نفسك التي جرحت . تلك الحقيقة بتمامها ولا أنكرها

قال يحق لى ان انفعل اذا عرضت مسئلة تتعلق بشرفي . . وهل بقى لى الا الشرف . . . اما درتيل فكان نصيبه مفضلا على نصيبي لانه اخذ فؤادك . . .

اجابت لقد وهبت لك نفسي وقدمتها لك تقدمة فاعترف بذلك لانه عدل . . الا ان اخلاصى لك لم يهن دقيقة واحدة . . . واما حياتى فهى مقسومة الى شطرين احدهما انت والشطر الآخر رلدناروبر المحبوب

قال لا انكر اخلاصك . . . واشكرك على عنايتك بى وانعطافك علىّ . . . الا ان روحك افلتت منى

اجابت لما تزوجت أنجزت ما عاهدك والدى عليه افضل انجاز لأنك انقذته من الافلاس وكانت محبتي رهناً لك على امتنانى . . . فهل تستطيع نسيان ذلك ؟

قال ليت امتنانك اقل وحبك اكثر . .

ثم قال بكآبة وتوجع :

« كل شيء عند العطار الا حبنى غصباً »

وهنا كادت تخنقه الحدّة التى هاجته فى اثناء هذه المحادثة الخشنة المؤلمة

فتناولت جيلبرت يديه بلطف وقالت انك تورثني حزناً عميقاً بما تقول ولكنني لا انقم عليك فانت مريض ويسؤنى منك هذا التسخط لانه يمكن منك العلة . . فسرّ عنك وخفف من حدتك والتياعك

فتأملها ملياً بعينين يتطاير منهما الشرر وفي بصره مالا يحصى من المعانى والخواطر لانه حوى اعجاباً وشغفاً واسفاً ولوعة . .

فعطفت عليه تقول له الا تجد الماً

أجاب نعم .. فاننى اشعر بتعب وانخذال قوة وكل مامرّ بي يوم افقد شيئاً من قوتي فقد كنت بالامس قادراً على رفع هذا الكتاب بيدىّ الاثنتين اما اليوم فلا بدّ لى من جهد جهيد ابذله لرفعه واما غداً فهيهات ان استطيع

ذلك.. وبعد غد .

وهنا اتى بحركة تشير الى انه سيقضى نحبه ويفارق دنياه .

وعاوده فكره الملازم فقال لها ماذا فعلت اليوم ياجيلبرت ؟ .. فهل ذهبت لتوزيع الصدقات كعادتك؟

فاجابت بتردد قليل:

نعم

الا ان المريض لم يتنبه الى ترددها وقال انك لعلى صواب . ولعمرى ان الحسنات خير مايفعله الانسان فى دنياه ويدخره لاخراه فانا اهنئك بانعطافك على الفقراء

وبعد سكوت قليل قال دعينى الآن وقتاً قليلا لاننى فى حاجة الى الراحة وعودى الىَّ قريباً

أجابت انى على ماتريد ياصديقى

ومضت

الفصل الثالث

جاسوس البيت

وما كادت تغيب عن عينيه حتى قرع الجرس لخادمه فقال له هل صابوريو فى مكتبه ؟

أجاب نعم يامولاى فقد وصل الساعة

قال قل له انى فى حاجة اليه فليأت سريعا

أجاب سمعاً وطاعة

وصابوريو كاتب سر المركيز

وهو رجل طويل القامة هزيلها محنى الاكتاف فى نحو الاربعين من العمر الا انه اصفر اللون اغبر الشفتين اصفر الاسنان حليق اللحية والشاربين لايستقر له بصر كأنه الخفاش فهو يخشى ان يتفرس فى عينى من يخاطبه وهو مع ذلك جامد جمود الصنم لاينفعل اولايظهر على وجهه للانفعال أثر فكانه رودين الموصوف فى قصة

فتقدم حتى اقترب الى المركيز دى سمروزو وانحنى امامه فقال له المركيز بضجر ظاهر :

تكلم ماذا جرى ؟

فاجابه بصوت جلي وهو يتردد قائلا عن اى شيء يسألنى سيدى المركيز ؟

فغمغم يقول عن أى شيء ! ... عن أى شيء ! ... الا تدرى عن أى شيء اسألك ؟ الا اكفنى هذه البلادة ودع الاجوبة التى لا تفيد

قال مولاى ...

قال لقد كلفتك اللحاق بالمركيزة ومراقبتها منذ ماتخرج من هنا والرجوع الىّ بعد ذلك لاطلاعى على حركاتها وسكناتها فتكلم اننى انتظر سماع تقرير اليوم

الا ان صابوريو لم يكن من امره على عجل

فاخذ المركيز يرتعد سأماً وقال له :

لقد انبأتك فى صباح هذا النهار ان المركيزة تخرج من القصر بعد الظهر

اجاب نعم ...

قال هل خرجت من القصر . اجب نعم او لا

اجاب نعم ياسيدى المركيز .

قال اتبعتها ام لم تتبعها ؟

اجاب لم اتبعها .

فارغى المركيز وازبد وصاح لماذا ؟ لماذا لم تصدع باوامرى ؟ اننى لم استخدمك لغير ذلك ! .. لقد حسبتك رجلا امينا يعتمد عليه ! ... آه يالك من شرطى حاذق ! بل انت افضل رجال الشرطة على الاطلاق اننى ادفع لك اجرة كافية وافية فيحق لى ان اطالبك بالخدمة الحقة .

قال صابوريو بلهجته العادية :

ليتكرم علىّ سيدى المركيز بالوقت الكافي للايضاح

اجاب انى صابر صبر الكرام . فقل وأوجز مااستطعت

قال لقد اخطأت الى نفسى اذ قلت لك اننى لم اتبع سيدتى المركيزة فاننى ذو ضمير وسريرة ... والحقيقة اننى اتبعتها

قال اذن فماذا ؟

اجاب من سوء حظى انها فاتتنى واحتجبت عنى

قال أتقول حقاً ؟

أجاب نعم لااقول الا الصدق وان ساءنى

قال ولكن كيف ذلك ؟ . ماذا فعلت ؟

أجاب لقد استأجرت مركبة قبل الوقت المعين لخروج سيدتى المركيزة من القصر كعادتى ... وقعدت فيها مختفياً منتظراً خروجها... فلما أزفت الساعة الثانية رأيت مركبتها تمر بى فأمرت الحوذى ان يتبعها من مسافة غير بعيدة

قال وبعد ذلك ؟

أجاب لقد جرى الامر على ما احب فى البداءة فلم تغب مركبتها عن عينى... فتجاوزنا شارع مالرب فشارع رويال فميدان الكونكورد الى ان بلغنا رصيف التويلرى والمركبتان متواليتان

قال ثم ماذا

أجاب ثم ان مركبتها أخذت تنهب الارض نهباحتى

صرت اخشى ان لاندركها... فاغريت الحوذى وحثثته فاسرع مااستطاع ولكنه لم يفلح

فكادت تزهق روح المركيز وقال اوجز !

أجاب فلما وصلنا الى جوار اوكسروا سبقتنا مركبة سيدتى المركيزة كل السبق وغادرتنا فى الطريق ... فلم يبق من أمل فى اللحاق بها

قال كان يجب ان تختار خيلا اكرم من جوادى المركبة التى استأجرتها لهذه الغاية وهنا الخطأ كله

أجاب ان مركبة سيدتى المركيزة لم تختف الا فى ميدان شاتله

قال ويك وكيف ذلك ؟

أجاب هناك كما تعلم مجتمع مركبات الترامواى والاومنيبوس وغيرها وهناك الزحام الشديد

قال كان يجب عليك ان تبحث وتستقرى وتستطلع وتفعل مايفعله الصياد اذا لحق بطريدة !

أجاب لم اقصر فى ذلك ياسيدى المركيز فدفعت مركبتي فى الازقة المجاورة لميدان شاتله ... ولكننى لم

أجد شيئاً

قال هذه غباوة منك كيف يفوتك اللحاق بمركبة لو كنت جديداً فى هذه المهنة لصفحت عنك غير انك قديم فيها . ولا أدرى ماأقول لك !

أجاب ليعلم سيدى ان هذا اليوم كان أول عهدى بالخيبة والفشل

قال ولكنه فشل عظيم !.. والآن لايجدى الملام فعليك ان تتنبه فى المستقبل

أجاب اهذا كل مايطلبه منى سيدى المركيز ؟

قال نعم فى الوقت الحاضر ... والآن فاذهب ولكن لاتبتعد بل البث فى مكتبك متأهباً لما أريده منك

فاستأذن صابوريو وترك المركيز يجمجم ويقول شارع رويال فرصيف التويلرى ... فميدان شاتله ... الى أين ذهبت ياترى ؟

* * *

وفيما كان المركيز يكد ذهنه ويعصر دماغه من غير جدوى عاد صابوريو الى مكتبه

وهو غرفة متسعة كائنة فى الطرف الشمالى من الطبقة الاولى من القصر

وكأنه استاء من توبيخ سيده . فجاء فجلس الى مكتبه وكان يجلس هناك فى كل يوم لكتابة الرسائل والتقييد فى دفاتر المركيز التى يقيد فيها ريع ممتلكاته وأمواله

ذلك لأن جابوريو كان كاتب حسابات فى البيت وجاسوساً . يشتغل فى المهنتين معاً

وماكاد يستقر فى مكانه حتى قرع الباب فنهض ليفتحه وقد عرف القادم فقال حياك الله ياسيدى الكونت !.. فادخل

وكان القادم روبر نجل المركيز دى سمروز

وهو فتى ناشىء فى التاسعة عشرة من عمره لطيف الزى والشكل بارع الحسن شديد العزيمة ممتاز فى ظواهره الحسنة المقبولة . له عينا أمه وشىء من شراسة أبيه ...

فادنى منه صابوريو كرسياً وقال له متودداً :

ماهذه الصدفة السعيدة التى جاءت بك الى هنا ؟

أجاب ما هى بالصدفة السعيدة يامسيو صابوريو...

قال هذه أول مرة تزور فيها مكتبي

أجاب لاننى لاشغل لى عندك اما اليوم فقد عرض لى أمر هاج فضولى فجئت أضيع معك قسما من الوقت

قال انى اطوع لك من بنانك ياسيدى الكونت . فما ذا تريد

قال انت تعرف باريس حق المعرفة لانك وكيل اشغال والدى ومن شؤونك الاهتمام بممتلكاته المنتشرة فى انحاء المدينة

اجاب نعم فانا اعرف باريس حق المعرفة ويحق لى ان افخر بذلك

قال هل من صلات تبيح لك استطلاع امر خفى على جناح السرعة ؟

اجاب اى امر تعنيه

قال اريد استطلاع شأن امرأة

قال ماذا عسى تكون ؟ ومن اية طبقة هى ؟

اجاب عليك اعتمد فى معرفة ذلك

قال تكلم صريحاً فانا مصغ اليك ياسيدى الكونت كل الاصغاء.

قال كنت أمس فى سباق اوتيل فرأيت امرأة ذات جمال عجيب راعنى وسحرنى

فغمز صابوريو باحدى عينيه خفية وكأنه اهتمّ فعطف على الفتى يقول له ثم ماذا ؟

قال انى كاشفتك بما فى صدرى لتساعدنى ياصابوريو

اجاب ومثلى من يصون الاسرار

قال هذا املى فيك وانما ارجو على الخصوص الكتمان عن والدتى فان الامهات حتى افضلهن كوالدتى يقمن القيامة وينزعجن ايما انزعاج اذا عرفن لابنائهن صلة جديدة بالنساء...

اجاب من اين لحضرة المركيزة ان تطلع على سرك ياعزيزى ... فما صفة المرأة المجهولة التى رأيتها ؟

اجاب انها فتانة شقراء الشعر تتدلى منه خصل كخيوط الذهب زرقاء العينين مهيبة الطلعة كأنها من بنات الملوك

قال حقاً انها تستحق الاهتمام وهذا يدل على ..

قال ولا استطيع ان اصف لك زيها فاننى لم اشاهد مثله لا فى البلد ولا فى الملاعب وقد شاهدت هذه المخلوقة البديعة فى مركبة مكشوفة عند الصباح كأنها ذهبت لتحيّ مطلع الشمس فكانت الابصار حولها تكاد تنهب حسنها نهباً وكثر وصف الناس لمحاسنها وسبحوا الخلاق العظيم

قال صابوريو يالك من زير نساء

اجاب لا وانما هى التى لاحظتنى

قال هل توهمت ذلك منها ؟

اجاب كلا وانما انا متحقق فقد نظرت الىّ مراراً نظرات لا انساها

قال اهنئك ايها الكونت فانت اسعد الناس اجمعين

أجاب لا لم أصل الى السعادة ولكننى لا أيأس منها فان تلك الهيفاء المعبودة رنت الىّ حين ابتعادها عن ميدان السباق وتبسمت لى اذ مرت مركبتها بجانبى وللحال وقعت منها هذه البطاقة . فانحنيت والتقطتها ثم

طارت بها المركبة طيراناً

واخرج الشاب من جيبه بطاقة رآها وكيل اشغال ابيه فقرأ فيها هذا الاسم

البارونة بولنكا

وما كاد يقع بصر صابوريو عليها حتى قال لا يوجد عنوان على هذه البطاقة

اجاب روبر واأسفاه نعم لا يوجد عنوان ... وهذا أمر لاجله أتيتك آملا ان تسعفنى فى الاهتداء الى عنوان

قال اذلك كل ماعرفته عنها ؟. اى اسمها فقط ..

أجاب نعم .. والباقى عليك

قال سنرى .. واظن انها اجنبية فكيف ترى أنت؟

أجاب ان ظواهرها غريبة لكنها ممتازة برقة لا تكون الا للباريسيات

واستشعر صابوريو اثناء تحدثه مع ابن مولاه كبراً وارتفعت منزلته فى عينى نفسه لان الشاب كاشفه بسره ولجأ اليه طالباً مساعدته

فكان يخاطبه فى أول المحادثة باحترام كمن يخاطب

من هو اسمى منه قدراً غير انه لما اطلع على سره بان في لهجته تغير فصار كأنه يخاطب نظيراً له الا ان روبر لم يتنبه الى ذلك التغير الطفيف

فقال ان لى علاقة مع جميع الناس ولسوف استخدمها فى سبيل قضاء حاجتك فنهض الشاب وقال اذن فاستعجل

أجاب سأبدأ فى الاستطلاع منذ الليلة

قال ومتى حصلت على دليل بادر الى اخبارى به

أجاب آمل ان اهتدى الى ماتروم فى وقت قريب

قال روبر ولا ادعك تندم على خدمتك اياى

وانطلق روبر معللا نفسه بالآمال واكب صابوريو على عمله وهو يغمغم قائلا ان المسيو روبر مستعجل.. آه من سلطة الغرام!

وفتح دفتراً كبيراً اخذ يقلب فيه ثم اطبقه وقد شرد ذهنه واستهوته جملة روبر اذ قال له لا ادعك تندم على خدمتك اياى

وكان يرن فى اذنيه صدى هذا الوعد كأنه أغنية مطربة

ومعنى ذلك ان الشاب سيكون سخى الكف معه اذا أفلح فى مسعاه

واخذ يقدر أجرة التعب ويقول ماذا عسى تكون قيمة الايضاح الذى يطلبه روبر!

ماأظن ان خمسمائة فرنك مبلغ كثير عليه

وتبسم للنقود سلفاً

***

وقد دلتنا المحاورة التى دارت بين هذا الرجل والمركيز دى سمروز على المهنة المعيبة التى يزاولها فى بيته

قضى المركيز خمسة عشر عاماً بعيداً عن العاصمة فلما وافى فصل الشتاء رضى بالاقامة فيها مذعناً لروبر وقد مل الفتى طوران وسئم عشرة اهلها ورأى نفسه فى حاجة الى المعيشة الباريسية ويحق له ان يرى ذلك لأنه فى عنفوان الشباب وفتاء العمر ومن كان مثله يتوق الى الملذات ويميل الى هوى النادات فلم تطب له الاقامة معتزلا عيشة النعيم كما ود ان يفعل أبوه

والمركيز دى سمروز لجأ الى الاعتزال لا حباً فى الخلوة

والانفراد وانما اراد ابعاد زوجته الممتلئة شباباً وحسناً عن باريس . ولم يكن يزور العاصمة مصحوباً بها او بولده الا نادراً لضرورة ملزمة كعلاقات ماليه او شراء

وللمركيز القصر الذى اشرنا اليه فلم تكن تفتح ابوابه الا اياماً قلائل

الا ان المركيز فى هده المرة اذعن ورضى بالاقامة مدة طويلة

وبات جزوعاً شديد القلق لان للغرام سلطاناً نافذ الحكم فى تلك العاصمة ولأن نزغات الشيطان واميال السوء لاحد لهافيها ...

وما برح يفكر فى امورى درتيل

وقد صار امام وقته وعالم بصره وأقيم فى منصب استاذ فى « جامعة فرنسا »

وكان يومئذ يجهل ذلك وعهده به انه مسافر من زمن طويل فى رحلة علمية الى الخارج

فماذا جرى له بعد ذلك ؟

فقلق وعذبته شكوكه وهواجسه فأرد الوقوف على

على الحقيقة واستطلاع طلع حركات المركيزة فى غدوها ورواحها

وانفت نفسه الاستفهام من الخدم أو من سائق مركبتها وهو يعرفهم مخلصون لها أشد اخلاص فلا يغدرون بها أبداً

فوقع اختياره على صابوريو

فعهد اليه بمراقبة زوجته وكان يرتعد من شدة غيرته كلما خرجت من المنزل . فاتخذ صابوريو شرطياً خاصا ودليلا خفيا فاعطى القوس باريها وفعل صابوريو مايطلب منه

فكان للمركيزة كالظل الا انه اخفى منه. يتتبع خطواتها فى كل نزهة ولا يفارقها دقيقة واحدة

ثم يعود الى المنزل بعد عودها بضع دقائق فيخبر مولاه عن كيفية تنقلها ويعد له الشوارع والساحات

وهكذا بات المركيز يعرف كل مايتوق الى معرفته فكان يدرى ماتفعله زوجته ساعة فساعة ويوما فيوما ولم يفده ذلك الاهتمام لانه لم يكتشف موضع ريبة

وانما كان عذابه مجانا...

كانت تقارير صابوريو تشير على الدوام الى زيارات صديقات أو الى دخول المعابد أو الى احسان الى فقراء

الا ان غيرة المركيز لم تضعف وما برح يتهم زوجته فلما لم يجد مايريبه لم يزل مابه من جحيم يتقد كاد يود ان يجد لجيلبرت زلة ليعلل بها عذابه... ولكنه لم يجد ... ولم يعثر على أقل هفوة منها أو وصمة تعاب بها

وانما علم يقيناً انها جمة المبرات واسعة العطاء لا يشغلها الا العطف على الفقراء ولا يهمها الا تخفيف كرب المنكوبين والمحزونين واسعاف المصابين

وخلاصة القول ان المركيز على الرغم من كل اجتهاد لم يستطع ان يلومها على أمر ... ومع ذلك كله فانه مابرح يقول يومئذ لنفسه :

الى أين تذهب ياترى ؟

الفصل الرابع

الى أين تذهب

الى أين ذهبت المركيزة ساعة اخفت آثارها على صابوريو وغادرته يفتش على مركبتها ؟

سؤال نجيب عليه في هذا الفصل فنقول :

لقد شعرت جيلبرت من زمن طويل ان زوجها أقام عليها رقيباً لا تغفل عينه وجاسوساً يتعقب خطواتها ويتعرف احوالها

ففى ذلك اليوم أرادت التخلص من تلك المراقبة لسبب تعلمه هى

وكانت تعرف قوة الخيل التى تجر مركبتها وهى مختارة من أكرم خيل السباق . ففى الوقت الذى أرادته أمرت السائق بأن يحث السير ويحاكى البرق

وقد عزمت جيلبرت على زيارة تود ان يجهلها المركيز

فرأت ان تضيع صابوريو وتذهله عنها

وبعد ان تحققت فوتها اياه أمرت السائق فتحول الى ناحية دار الحكومة وهناك وقف

فنزل خادم كان قاعداً بجانب السائق فبادر وفتح باب المركبة لمولاته فنزلت منها وعلى وجهها نقاب كثيف يخفى منها الملامح حتى لا يعرفها أحد

فدخلت من الباب الكبير. ومعلوم ان دار الحكومة تكاد تكون مدينة بكثرة ناسها ومصالحها وطبقاتها ومماشيها واروقتها وفيها الجم الغفير من القضاة والضباط والمحامين وغيرهم مما لا حاجة الى وصفه

فقصدت جيلبرت الى مكاتب قضاة التحقيق وتكلمت مع أحد الحجاب قائلة هل يمكن ان التقى المسيو برترو ههنا ؟

أجاب نعم ياسيدتى فانه منفرد فى مكتبه فهل لك من طلب ...

قالت لا وانما اعطه هذه البطاقة

أجاب سمعاً وطاعة

وانطلق وبعد دقيقة عاد يقول ان قاضى التحقيق ينتظرك أيتها السيدة

فمرت جيلبرت تخترق الجماعات الى ان بلغت الحجرة المقصودة فاذا المسيو برترو واقف بقرب الباب لاستقبالها وقد ابيض شعره وزاده السن رونقاً بعد ما رقى الى مثل منصبه القديم وانما فى العاصمة

فانحنى أمامها ورحب بها

فازاحت النقاب عن وجهها الجميل وحيته تحية حسنة فقدم لها كرسياً ثم انثنى الى الكاتب يقول دعنا الآن يامسيو لوفرى

فنهض الكاتب ومضى الى مكتب آخر

ولبث قاضى التحقيق والمركيزة معاً في المكتب فقال لها :

أى غرض حملك على تشريفى بهذه الزيارة فهل اتخذت باريس مقاماً من عهد قريب ؟

أجابت نعم منذ شهرين . وانما جئت بنفسى لأسلمك هبتى السنوية التى تبرعت بها لجمعية رعاية الاولاد وهى

الجمعية التي تفتخر بانك العامل على تأسيسها

واخرجت من كيس ذهبي ورقة مالية قيمتها الف فرنك فسلمتها لقاضى التحقيق

قال اشكرك ايتها السيدة الكريمة . اشكرك بالنيابة عن الاولاد الفقراء الذين لا اهل لهم

ووضع تلك الصدقة السنية في درج

فقالت المركيزة ولى غرض آخر من هذه الزيارة هو انى طالبة رأى تشير به علىّ ومساعدة تسعفنى بها ...

أجاب انى افعل ما استطيعه ايتها السيدة واشكرك ايضاً على انك فكرت فىّ وقصدتنى لمثل هذه الخدمة

قالت انت احق الناس بالاطلاع على اسرارى المحزنة لأنك مطلع على الماضى

أجاب نعم فقد كان منصبي فى ويسول يوم كنت وكيل الجمهورية سبباً فى مكاشفتك باسرارك وذلك حينما قتل والدك رحمة الله عليه

وهنا طأطأ راسه وقال ثم انك لبثت على مفاوضتى فى شؤونك الخصوصية وثقتك بى فلك منى الشكر

على ذلك

« وقد ادركت عظم آلامك أيتها السيدة وشاركتك فى احزانك وكنت على الدوام معجباً بيسالتك التى انقذت بها درتيل السيء الحظ ...

أجابت لقد عرفت اخلاقك السامية منذ ذلك اليوم فانك لم تتردد دقيقة واحدة فى الاقرار بخطائك واعلان براءة المتهم الذى امرت بالقبض عليه وبالغت فى تحقيق أمره . وكان ذلك الاقرار منك حالما ظهرت لك الحقيقة

قال انني فعلت مايجب علىّ ولم ازد شيئاً على الواجب

قالت كم من موظف فى مركزك لو بدت له الحقيقة لاستمر مكابراً معانداً وكم من ذى منصب يعرفها ولا يقربها حتى لا يرجع فى رأيه

أجاب أولئك لا يكونون أهلا لمنصب القضاء ... ويجب على القاضى ان يتجمل بالبسالة فيقدم على الاعتراف بخطائه حتى يتدارك مافرط منه احسن تدارك واسرعه ذلك ما فعلته فلست بنادم

وبعد سكوت قصير المدة قال على ان هذه الحادثة

أثرت تأثيراً حسناً على نجاحي وتقدمي . فقد مرت بي وقائع عسيرة مبهمة يحار فيها العقل منذ ماانتقلت الى باريس الى منصب قاضي تحقيق . فكنت على الدوام افكر في قضية برتلمي وقد ظلت ذكراها مرسومة على صفحات ذهني وفي سريرتي فاذا ذكرتها نبذت الظواهر شيئاً وسعيت وراء الحقيقة غير معتمد الا على البينات الصحيحة

أجابت جيلبرت ان الذين شعروا بمثل العواطف التي شعرت بها يدركون معنى اجتهادك ويقدرونك حق قدرك

قال برترو نعم انى لأفعل مايقضى به المنصب والعدل

قالت ما أنت بالقاضى العادل فقط بل أنت رجل خير ومبرات ودليلى على ماأقول علمى بمساعيك المشكورة فى تأسيس هذه الجمعية الخيرية

أجاب انى ابذل نفسى فى هذا السبيل وقد لقيت عناء شديداً فى تأسيسها ... الا انى نلت المكافأة لأنى رأيت مشروعى ناجحاً !

قالت هل أتسع نطاقه ؟

أجاب بمقدار ما امكن استخدام الاشخاص والمفتشين ...

قالت ما أحسن ماتقول وهل تساعدون العيلات أيضاً ؟

أجاب انانساعد على الخصوص أولاد الفقراء والاولاد المتروكين من ذويهم . وهذا مشروعنا الذى ندأب فيه الآن وقد تمكنا من استطعاف قلوب الاغنياء وحملهم على اسعافنا بمالهم . ولا ينقصنا الدخل الوافر لأن مبدأ التضامن الاجتماعى قدعم وانتشر . وأنت أيتها السيدة في مقدمة الذين أخذوا بناصره بل أنت افضل قدوة لكل ذى مال

قالت ان نفسى ترتاح الى أتيان المبرات والاحسان الى المعوزين حتى أجد فى ذلك الهناء والغبطة فلاتشكرنى على مايكاد يكون حباً لذاتى

وتبسمت تبسما لطيفاً

فقال المسيو برترو لنتكلم عنك أيتها السيدة فهل من

حاجة لك اقضيها على الرأس والعين ؟

أجابت ماخالك الا عالماً بسبب زيارتى من الرسالة التى وجهتها اليك من طوران

قال أصبت ومرادك ان تكلمينى عن .. ابنتك ؟

أجابت نعم عن ابنتى نائلة المسكينة !.. تلك التى فقدتها فاتوسل اليك ان تساعدنى لعلنى اجدها !..

وهنا اغرورقت عيناها بالدموع لكنها تجلدت وقالت انت تعرف سر مولدها وقد اطلعتك عليه منذ ست عشرة سنة .. لقد ساق نكد الطالع الىّ المسيو درتيل واسترسلت فى ميلى اليه فرضيت بلقائه ...

فلما التقينا استيقظ ذلك الهوى المشؤوم من رقدته ووجب علىّ ان اكتم سرى فى اخفى الخفايا حتى لا يتمكن زوجى من الاطلاع على نباء الطفلة المنحوسة

« وكان سقيما عليلا فاخذنى الى طوران ليبعدنى عن الناس . ذلك لان غيرته عظمت بعد مصادفتى لامورى درتيل حتى كانت لى معه مواقف هائلة وطفق منذ الحين يوسعنى تعنيفاً جارحاً ومعاملة قاسية حتي تجنبت

مخاطبته أسابيع عديدة واذ ذاك فاجأه الداء الملازم واصابه شلل فى أعضائه فانطرح منذ أعوام على كرسيه الطويلة لا يقوى على الانتقال والحركة...

ومدت يدها الى جبينها كانها تسكن ماثار في ذهنها من قوة التذكر ثم قالت بصوت الجزع واللهف

« يالها من ساعات مخيفة قاتلة مرت بى وكنت فيها مرغمة على الكذب أمام زوجى وولدى روبر وكان طفلا صغيراً أحمله فابسم له وفؤادى يقطر دما... اكذب زوجى القول وابنى الابتسام !

« فلما وضعت نائلة امكننى اخفاء مولدها لاننى ابتعدت عن بيتى فارسلت مولودتى الى نسيبة لى عجوز مقيمة فى باريس . ولم تستطع الاهتمام بها فالقتها الى مرضع ثم نقلتها الى بيت قوم ظنتهم كراما صالحين وكانت تدفع اليهم وظيفة شهرية تعدل تربيتهم للطفلة وانفاقهم عليها ...

« ثم توفيت نسيبتى منذ عامين فكتبت مراراً الى أولئك القوم واعنى بهم رجلا يقال له برموش يقطن حى فيليت فلم يرد لى جواب على رسائلى .فكتبت الى

مالك البيت الذى كان يقيم فيه برموش هذا فاخبرنى ان برموش وزوجته قد اخليا بيته منذ شهور طويلة وانه لا يعرف أحد مقرهما...

« فكتبت اليك يامسيو برترو لاننى حرت فى امرى ولم أدر الى من أشكو بلائى. فان موقفى من أحرج المواقف وزوجى يبث علىّ العيون والارصاد ولا استطيع ان اخرج من البيت ولا ان افعل ما اريد...فكابدت عذاباً لا يطاق وجنيت ثمرة تهورى !...

قال ان الرسائل التى كتبتها الىّ ذاكرة فيها امر الطفلة مختصرة جداً فالممت بالمسألة الماماً لكننى لم استطع الشروع فى البحث والاستقصاء فانتظرت ايابك وقد قلت فيها مراراً انه قريب وانما انتظرت لحاجتى الى تتمة الايضاحات التى احتاجها

قالت أما الآن فآمل ان تساعدنى ... فقل هل استطيع الاعتماد عليك ؟

أجاب كل الاعتماد ايتها السيدة ولسوف اتوسل الى خدمتك بجميع مالدى من الوسائل

قالت شكراً لك

قال ولكن ... هل اهتم المسيو درتيل بأمر ابنته ؟

أجابت انه يجهل ولادتها .. ثم اننى لم يقع بصرى عليه منذ ما ابنت له خوفى من الحمل . يومئذ رحلنا عن باريس أنا وزوجى ... ثم أردت ان اعود الى ما يقضى به علىّ الواجب والشرف كما كنت قبلا متناسية من احببت ... فاقسمت على ان لا اراه

قال ألم تكتبى اليه بعد ذلك ؟ ..

أجابت كلا ! لأننى وطنت النفس على قطع كل صلة معه ولاح لى ان هذه الضحية تغسل ذنبى وتريح ضميرى ولو ان المسيو درتيل رأى ابنته لعلم بوجود رابطة جديدة بينى وبينه ... وهى رابطة تدنى كلا منا من الآخر .. وذلك لا اريده

وهنا توقفت عن الكلام وتنهدت ثم قالت

ان المسيو درتيل عاش أعواماً طوالا وهو بعيد عن هذه الديار فليس يعرف ولده ولا يدرى بوجوده ... فلا يمكن ان يكترث له والآن قد اختفى الولد ... أواه من

لوعة التندم انها تقطع نفسى وتذهب بها حسرات !

فتأثر المسيو برترو ورثى لمصاب تلك المخلوقة المعذبة فقال يالك من أم تعسة !

قالت كم تقلبت على مثل شوك القتاد تحسيراً على زلتي ولأنى جنيت على مخلوقة قضي الواجب عليّ بتركها لرحمة القدر الجائر ... ولعلها تشقى وتتعذب بسببي أنا

وهنا صعدت الزفرات وأسبلت العبرات وقالت ان تلك الطفلة المنكوبة لفى أشد الحاجة الى عناية امها ورأفتها وانعطافها !.. ثم من يدرى اذا كانت لاتزال حية ترزق

قال سوف نجدها فكونى على أمل من الاجتماع بها ولا تقنطى من رحمة الله !

قالت اذن تعدنى بالمساعدة ؟

أجاب بالمساعدة التامة. وهاأنامنذاليوم أباشر الاستقصاء واكلف اثنين من رجال الشرط هما النهاية فى الدهاء والخبث والعقل فاطلقهما وراء البحث عنها ...ألم تقولى ان الرجل الذى كفل نائلة اسمه برموش ؟

أجابت نعم

قال وهو مقيم مع زوجته ؟

أجابت نعم

قال ان اسمه غريب منكر ولكن ماذا كانا يصنعان

أجابت أما الرجل فقد كان حمالا فى سوق الخضر وأما المرأة واسمها فيرجينى فكانت تشتغل فى اصلاح الكراسى

قال انه بيت عمل فما ذا كان عنوان مقامهما الاخير ؟

اجابت شارع المانيا نمرة ١٢٧

فكتب ذلك على مذكرة أمامه

فنهضت المركيزة تستأذن بالانصراف وقالت انى اكرر شكرى لك

فشيعها الى الباب فقالت ارجو ان توافينى بنبأ جديد فى وقت قريب ؟

اجاب ارجو ذلك واعيد لك القول واعتمدى على الله وعلى ولاتجزعى

وانحنى امامها ثم انطلقت الى مركبتها فسارت بها مسرعة

﴿ الفصل الخامس ﴾

نائلة او السائلة الحسناء

يوجد بيوت عديد مجتمعة يراهـا من يمر فى شارع سان فنسان على قمة عالية . وهى منازل حقيرة منفردة يأوى اليها فقرآء الناس من حمالين ومتسولين صعاليك وماسحى أحذية الى آخر ما هنالك من أصحاب الحرف الدنيئة

وبيوت تلك البقعة ممتازة بما حولها من الاقذار المتراكمة وان كانت مرتفعة عن البلد غير انها لانوافذ لهـا وكل بيت غرفة واحدة جدارها الى الشارع ملصوقة عليها الاعلانات

وبين هذه البيوت الحقيرة يوجد بيت هو أصغرها واقذرها يحمل منظره على الاكتئاب فكان ظاهره يدل على باطنه وما أشبه بعض المنازل بالسكان . فان

خارجها قد ينم على مافى داخلها وكذلك ظاهر الانسان قد يدل على باطنه . ورب وجه يترجم عن سريرة

غير ان خارج البيت الذى نحن فى صدده لا يشير الى مسكنة وفقر وانما يعرب عن رذيلة وعيب

يحزر الناظر اليه ان الساكنين قوم كسالى قذرون لافقراء مساكين . وان الصدور لتنقبض عند تلك المساكن الدنيئة

أما البيت الذى أشرنا اليه فقد كان على بابه لوح من الخشب مكتوب عليه ما صورته

فيرجينى برموش

نجادة تعالج الكراسى

وكان على باب ذلك البيت قط اسود اللون راقد وفي الداخل امرأة تغنى والقدر امامها تغلى وفى صوتها بحة لعلها ناشئة عن السكر واذا بها قد اقبلت الى ناحية الباب وهى بادنة سمينة قصيرة القامة منتفشة الشعر أما عمرها فالله أعلم به لأن هيئتها لا تدل عليه فربما بلغت الخمسين منه أو ما يقاربها ويستحيل ان يوجد شبه بين

هذه المرأة وسائر النساء فان صوتها صوت رجل بلغ من الكبر عتياً ووجهها يضرب لونه الى السواد من كثرة سكرها وتمرغها فى المعاصى وعيناها حمروان تائهتان

فالقت نظرة على الشارع وغمغمت تقول أية داهية عاقتهما حتى الساعة فقد أزف الظهر فلا برموش أتى ولا السائلة ! فماذا يفعلان : ولسوف أدبر أمرى مع زوجى فاعلمه الواجب عليه ! ان الطعام قد نضج وما انا بالأمة عنده لاصبر عليه !

ودخلت وهى ترغى وتزبد ثم قلبت قطعة من اللحم فى القدر .

أما البيت فهو مؤلف من غرفة واحدة مشطورة شطرين أحدهما للنوم والآخر للطبخ فالفراش مجاور لموقدة الطبخ

وهنا وهناك طاولة عتيقة احدى قوائمها مكسورة وثلاث كراسى تكاد تقع من ضعفها ولا ينطبق عليها عنوان البيت فان كراسيه تحتاج الى نجادة تعالجها

احتياجاً كبيراً

وأما الجدران فعارية وأما السقف فكاس بخيوط العنكبوت السوداء

تلك مغارة برموش وزوجته لأن ذلك البيت أشبه بمغارة منه ببيت

فلما انتهت صاحبته من طبختها عمدت الى التبغ تمضغه ثم نهضت فحملت مقعداً قديم العهد متخلخلا فلما رآها القط تجىء به شعر بقرب وقت الاكل فأقبل عليها يحك رأسه بذيل ثوبها

فقالت وارحمتاه لك ياعزيزى فأنت جائع

وكان صوتها عند مخاطبتها للقط رخيما رفيعاً ومن عجائب المخلوقات ان بعض القلوب تكون أقسى من الجلمد فلا تعطفها عاطفة بشرية على انسان ولكنها ترق وتلين للحيوان الداجن

ومثل هذه المرأة لاتبالى ان تعذب طفلة صغيرة وتدخر حنانها واحساسها لكلب أو قطة أو ببغاء

فقالت تلك المرأة تخاطب الهر أيضاً :

ما كنت لاضربك ياسود وسوف اطعمك لحما طيباً
واختصك بشىء من حصة السائلة أيضاً

فانطرح القط على قدميها

فقالت ولئن لم يرجعا بعد فما عاقهما الا كثرة الكسب

ومضغت مضغة من التبغ

واذا بصوت خشن سمعته فرفعت رأسها وقال قائل
أهنا تقيم مدام برموش ؟

وبصرت بشرطى واقف بالباب ممسكا بيده ابنة صفراء
نحيفة الجسم لابسة أطماراً بالية

فلما وقع بصرها عليه قالت وهى مستاءة :

جاءت السائلة !.. ولكن ماشأن هذا الشرطى

ثم رفعت صوتها وقالت نعم أنا فيرجينى برموش فما
تريد ياسيدى ؟

أجاب هذه طفلة وجدتها تتسول فى الشارع العمومى
واخبرتنى انها تقيم هنا

قالت نعم فما ذا تريد ؟

قال احقاً انها تقيم هنا ؟

اجابت كيف لا وانا عمتها ...

ثم عطفت على البنت تقول لها بلطف
اليس الامر كذلك يابنية ؟

فاجابت ولكن بصوت خافت يرتجف خوفاً وحياء :

نعم ... ايتها السيدة ..

فقبضت فيرجينى على اصابع البنت واسرّت اليها توبيخاً
عنيفاً والشرطى ينظر الى البيت نظرة عامة فقالت لها :

الم اقل لك لاتنادينى الا بياعمتى امام الناس ... فهيا
الآن ونادينى كذلك

وضغطت على ساعدها ضغطاً عنيفاً

فقالت السائلة وقد تزايد اصفرارها من الالم:

نعم ياعمتى ...

فانبرت المرأة برموش تقول للشرطى ارأيت ياسيدى
فان هذه الفتاة بمنزلة ابنة لى ولشارلمان زوجى وقد تبنيناها
وهى عندنا فى أعز مقام وارغد عيش . اليس الامر
كذلك يا حبيبتى؟

أجابت نعم يا ... عمتى ...

قالت ألا تضطجعين عندنا على فراش وثير الا تأكلين طعاماً طيباً الم نعاملك بالحسنى ؟؟

اجابت نعم ..

قالت الا تقدم لك كل ماتحتاجين اليه ؟

أجابت نعم ...

قالت وفضلا عن ذلك كله فليس ما يتعبها لانني لااود ان تتعب ولا اكلفها شغلا فوق طاقتها . وكل ما اطلبه منها هو ان تذهب فى قضاء حاجات البيت فتمشى قليلا فى السوق وتستنشق الهواء فى الخارج . لاننى احرص على صحتها »

ويصعب عليها ان تجىء بأبلغ من هذا الكذب

فقال الشرطى بلهجة قاسية :

اذن فلماذا تتسول ؟

اجابت لم اطلب منها ان تتسول . . فالارجح انها طمعت فى الفلوس لتشترى لها شيئاً من الحلوى لانها نهمة شرهة :

قال ليس ذلك ماتزعم ! فقد اخبرتنى انها تسأل الصدقة

فى ساحة سان بيير لانك امرتها بذلك . فبين القولين فرق كبير كما ترين

فصاحت فيرجينى بوجه الفتاة قائلة ويحك من كاذبة اتجسرين على هذا المين المعيب . سوف أؤدبك غير هذا التأديب

قال الشرطى وكانه اقتنع بصدق فرجينى

كفى ولكن حذار ان تعود الى مثل مافعلت اليوم فانى اذا لقيتها مرة ثانية تبسط كفها مستجدية كتبت المحضر وهذا انذار لك منى ايتها المرأة

وانصرف الشرطى على مهل

فجعلت تتأمله حتى ابتعد وقالت قبحك الله !

ثم انثنت الى الابنة وقد انزوت خائفة صامتة فقالت لها :..

سوف ترين ماذا افعل بك ايا بنت اللئام ! والويل لك ان وقعت مرة ثانية بين يدى البوليس ؟.. انى احطمك تحطيما !

فخفضت الفتاة رأسها .

ويظهر على الرغم من نحولها وهزالها واصفرارها وسقمها انها فى نحو الثالثة عشرة الا ان فى الكآبة المنبعثة من عينيها مايشير الى انها ناهزت الخامسة عشرة على الاقل

وواضح انها لو اتيح لها ان تعيش غير تلك العيشة او تعامل غير هذه المعاملة او اريحت من التعذيب والقساوة والحرمان لكانت زهرة ناضرة

فخرجت فيرجينى حتى تتيقن ذهاب الشرطى فلما رأته قد ابتعد وعطف فى شارع آخر عادت وهى تفرك كفيها والشرر يتطاير من عينيها

وكانت الفتاة الصغيرة قد جلست على كرسى اثناء غياب زوجة برموش وان لم تطل مدته منتهزة تلك الفرصة للاستراحة لانها فى اشد الحاجة اليها

فهدرت برموش وصاحت ياللعجب ماذا ارى ؟ لقد جلست الآنسة على كرسى ! جلست تستريح !

وتقدمت اليها مزبدة

فنهضت الفتاة مرتاعة ومضت فلجأت الى الطاولة فأمرتها ان تشتغل فى اعداد بعض البقول ثم قالت

لها انى ذاهبة فى قضاء حاجة لى ! فلاحظى القدر والا فالعصا حاضرة !

وانطلقت الى حانة مجاورة فوقفت الى مائدة الشراب وهناك يباع نوع من انواع المسكرات يقال له (توردبويو) شديد الفعل حتى يمكن المرء ان يسكر بكاسين منه لايتجاوز ثمنهما نصف قرش

فدخلت وطلبت كأساً كبيرة

فبادر صاحب الحانة الى خدمتها لأنها من احسن العملاء

فقالت له لائمة آسفة :

ان كؤوسك صغيرة جداً !

قال اتعتقدين ذلك حقا ؟

اجابت بلا شك

قالت ولكن الزجاجة كبيرة ملأى ...

قالت هات كأساً ثانية

اجاب حبا وكرامة

قالت اسرع

وفى اثناء ذلك كانت السائلة قد انتهت من ! عملها وقعدت تبكى

فماذا عسى يجول فى ضمير تلك الفتاة الصغيرة فقد كانت تقاسى الماً وعذاباً من زمن طويل . ولو انها عاشت في غير هذه البقعة الفاسدة لنشأت بارعة الشكل لأن الحسن باد في عينيها غير ان الاوصاب غيرت وجهها ورسم الحزن عليه آثار وعلامات

فكأنها زهرة أذبلها الهم والحرمان كما تذبل الرطوبة والظلمة الازهار

فزالت نضارة الصبى عنها فى زمن تلك النضارة لغيرها.

كانت مضمرة الوجه منقوفة البدن شاحبة الوجنتين ينم نحولها على ماتقاسيه من ضنك أما اطمارها الرثة فهى دليل شقائها

بكت وقتاً طويلا وهى صامتة ثم تنهدت ونهضت لتراقب القدر . فلما دنت منها اشتمت رائحة اللحم المحروق فغمغمت تقول رباه لقد احترق الطعام ...

ماهذه المصيبة !. الا يكفيني مانالني من ألم الضرب حتى اضرب الساعة أيضاً !..

وخطر فى بالها ان تفر هاربة وليست هذه بأول مرة خطرلها فيها هذا الخاطر

ولكن الى اين تمضى؟ ومن الذى تلجأ اليه وتتوسل؟ واذا اكتشف برموش مقرها فأى عذاب تلقاه منه ومن زوجته ؟...

فلا صديق تشكو اليه حزنها ولا أهل ولا والد ولا والدة !

فلبثت مسمرة فى مكانها تنظر الى قطعة اللحم المحروقة وهى مبهوتة مدهوشة ولم تفكر فى رفع القدر عن النار واذا بصوت كقصف الرعد نبهها من ذهولها فانثنت فرأت برموش يصيح بها:

لقد بلغ منى الجوع ياسائلة فهل انتهيت من طبخ الطعام واين برموشة ؟

اسم لقب به زوجته فيرجينى

وكان الرجل برموش الملقب بشارلمان . وقد ناهز

الخمسين . وهو طويل القامة طويل العنق قوى البنية جافي الطباع شرس شكس شرير

فوجمت الفتاة لاتتكلم

فقال لها مابالك لاتتكلمين يالعينة ومالى أراك جامدة كالصنم وكان الاجدر بك ان تلاحظى القدر ...

وتقدم شيئاً وقال انى لاشتم رائحةالشويط واراهن على ان اللحم قد احترق ... وأنا لاأحب اللحم المحروق ولا فيرجينى تحبه !

واقبل على القدر يتأملها فقال صدق ظنى فياللداهية

ومشى الى الفتاة رافعاً قبضتيه وقد احتدم وهاج كما تهيج الجمال وصاح أنا اجازيك يالصة والله لاقتلعن عينيك فاغربى من وجهى والا قتلتك ؟..

فهربت الى ناحية الباب . ولكن الاقدار عاكستها لانها وقعت بين ساقى برموشة وكانت داخلةالى البيت فحزرت ماجرى وقالت لقد حرقت الطعام ؟.. آه كنت على يقين من ذلك ؟...

فقال شارلمان مادمت على يقين فلماذا تركت الطبخة

وعهدت بها الى هذه الزعنفة التى تضر ولا تنفع ؟...

وبسط قبضتيه مرة ثانية يهم بضربها

فقالت برموشة اننى ذهبت لحاجة لى .

فصاح انت كاذبة ياعجوز النحس ؟.. انما ذهبت لتسكرى ؟..

فشتمته زوجته وعظم الخصام بينهما فانتهزت الفتاة تلك الفرصة وانزوت فى زاوية البيت ...وقعدت تبكى صامتة مستريحة من النظر الى جلاديها الشقيين

غير ان شارلمان وثب عليها وامسك ساعدها قائلا أين النقود ! اين كسب هذا الصباح ؟

« هاته سريعاً!

فاخرجت البنت من جيبها فلوساً سلمته اياهاالواحد بعد الآخر . فعدها وقال بلهجة احتقار .

ويك الم تجمعى الا عشرين فلساً فقط ! ..

فدنت فيرجينى وهى مكفهرة الوجه فقالت آه لو تدرى ماذا فعلت الغبية اليوم ! فقد اوقعت نفسها بين ايدى الشرط .. واوقعتنا معها

قال وكيف ذلك ؟ ويل امك !

أجابت نعم قبض عليها فى ميدان سن بيير

قال من قبض عليها ؟

أجابت شرطى جاء بها الى هنا عالماً اننا ارسلناها للكدية

قال هل اخبرته بذلك ؟

أجابت بلا شك ... وثق اننا عما قريب تقع نحن بسببها فحذار منذ الساعة

فاحمر وجه شارلمان حتى حكى القرمز من شدة الغضب .

ثم صاح بالفتاة وهى مرعوبة قائلا ويحك هل نسيت ماعلمتك اياه ؟ . انى ربيتك غير هذه التربية يا ابنة اللئام ! . واوضحت لك كيفية السؤال وعلمتك كيف تتجنبين ان يتعرض لك الشرط ! .

قالت برموشة لابد من تذكير هادرسها بضربات عصا المكنسة ... وانما قل استجدادها وكسبها لانها كبرت شيئا وصلحت ملابسها وكان خيراً لنا لو انها عارية

أجاب اصبت ولسوف آخذ ثوبها الى الشيخ سبتان خياط اثواب المتسولين ... فاطلب منه ان يزيد مافيه من الثقوب

ثم وجه كلام الى الفتاة قائلا وانت ياشقية اذا وقعت مرة ثانية بين أيدى الشرط أو قلت لاحدانك تستجدين لحسابنا فالويل لك منى

واشار اشارة تهديد . وفيرجينى تهىء له شبه صحن .

فقالت للفتاة خذى اثنى عشر فلسا فاشترى بها زجاجة حمراء من عند البدال ... واسرعى

فبادرت مطيعة وقد سرها انها تبتعد عن ذلك الحبس دقيقة من الزمن

فلما رجعت اعطتها فيرجينى شيئاً من العظام وقشرة اللحم بعد مااختارتها من القطعة المحروقة وهى شر مافيها وقطعة خبز يبيسة

ثم قالت لها اسرعى فى الاكل اذيجب عليك ان تعودى الى الشغل فى الحال ولكن لاتذهبى فى هذه المرة الى ميدان

سن بيير لئلا تصادفى الشرطى الذى قبض عليك اليوم وانما الزمى كنيسة « القلب المقدس » فان الزائرين لها كثيرون في هذه الايام ... وكسبك من هناك محقق

وكانت برموشة تتكلم وتمضغ الطعام وتقلد زوجها وكان يجد فى أكل اللحم المحروق لايدفع منه شيئاً ويشرب الخمر بشراهة

فانتهت السائلة من طعامها الحقير قبلهما

فصرفتها فيرجينى قائلة ويحك انطلق ولاتهمى واحذرى ان يراك احد من رجال الشرط ! .. ويجب عليك ان تأتينى الليلة باربعين فلساً على الاقل فان الناس كثيرون والجو صحو

فلما انفرد الزوجان او الصاحبان قال برموش لزوجته اصغي الىّ ايتها العجوز

قالت ماذا ؟

قال يوجدامر يؤاذينى

اجابت ماهو

قال لقد كنت ماراً بشارع المانيا فالتقيت بالبواب

الذى يقيم فى منزلنا القديم نمرة ١٢٧ فاردت الفرار من وجهه كاننى لم اره غير ان الخبيث امسك ساعدى وقال ها قد وجدت شارلمان اللعين بعد مابحثوا عنه فى كل مكان

«فقلت له ولماذا يبحثون عنى ؟ ومن ذا الذى يبحث فأجابنى لا أدرى : لقد جاء من يسألنى عنك مراراً وكتبوا الىّ مراراً ليعرفوا مقرك

« فأنت تعلمين يا برموشه عظم قلقى فاننى لا أحب ان يسأل عنى أحد وانما انتقلنا من شارع المانيا لنستريح ونخلص من قصة الطفلة ... فهل يأتون الى مضايقتنا ههنا أيضاً ؟ . . ان هذا لا يكون أبداً فلنرحل الى غير هذه البقعة ..

قالت فيرجينى ولكن لايوجد من يعرف عنوان بيتنا . . وما اظنك أطلعت عليه البواب ؟

أجاب كلا وان شقّ علىّ التخلص منه لأنه أراد ان يحملنى على التكلم . الا انه عرف اننا بجوار مونمارتر فى أعلى القمة المجاورة للحى

قالت عجباً وكيف عرف ذلك

أجاب ألا تعلمين يازوجتي العزيزة ان امبراطور الشحاذين معروف فى البلد . . ذلك فخر لى عظيم نعم انا من عظماء الرجال ...ومعاشر المتسولين يعرفونني وهل يخفى القمر

ثم دنا منها وخفض صوته قائلا لا يهمني الا تجنب الاستفهام عنا ... فاذا كان وراءنا قوم عاقدون نياتهم على استطلاع أمرنا فلا بد من ان يهتدوا الينا

فقلقت فيرجيني وقالت وماذا عسى يفعلون بنا ؟ ربما كان السبب احتيالك واتخاذك حرفة استاذ للشحاذين . .

قال أخشى ان يتعرض رجال البولس لنا . .

قالت بل أظن انه يوجد من يبحث عن الطفلة ويرغب فى أخذها . . . ولعمرى ان هـذا الامر مزعج فهى كالبقرة الحلوب تأتينا فى كل يوم بالكسب الجزيل ! . .

فمد ساعده المفتول وهدد قائلا ويل لمن يحاول ذلك

فاعتمدت فيرجيني ذقنها بكفيها وقالت ولكن ما رأيك اذا أقبل أهلها فى طلبها !

قال أهلها ؟ سوف أعرف كيف أخاطبهم فقد مضى

عامان ولم نقبض درهماً من المرتب عليها فهل يمكن أن أدعها تمضى على أهون سبيل . . . الاساء ما يتوهمون

أجابت فرجيني صدقت فان ما تكسبه الفتاة بالكدية يزيد على المرتب الذى كانوا يدفعونه لنا

قال نعم واظن أيضاً انها ستأتينا بما هو أوفر . . .
اذن تبقى عندنا وعليك أن تراقبها واياك والاهمال

قالت على ماذا عولت ؟

أجاب دعيني أفكر وأدبر

وأخذ يدخن بقصبة مستنداً الى الطاولة وعيناه شاخصتان فكان يفكر ويدبر

أما فيرجيني فاهتمت بتهيئة القهوة

الفصل السادس

تدبير برموش

كان برموش وبرموشة من نوادر العصر في اجتماعهما وائتلافهما فكانهما خلقا ليتفقا

مضى على اتفاقهما عشرون عاما يبدأ تاريخها من تلاقيهما فى أحد الايام فى حانة وخروجهما سكرانين وانما جمعتهما الرذيلة واحكم رابطة اتحادهما المعاصى والآثام

وكانا يختلفان فى معظم الاوقات ويتخاصمان الا انهما لا يفترقان أبداً

والفضل فى ذلك عائد الى عادات سافلة تعوداها وموبقات تشاركا فيها وان الطيور على اشكالها تقع

أما برموش واسمه القديم شارل فكان فيما مضى جزاراً ولكنه اهمل الشغل من زمن طويل والف البطالة

والخمول وما يلتصق بهما من الرذائل

ثم زاول حرفا عديدة وشأنه فى ذلك شأن جميع الذين ينفرون من العمل

فكان حمالا فى سوق الخضر ثم صانع شمع ثم بيّاع شراب الى ان عاد الى صنعته الاولى وهى البطالة فكان يقول انه يبحث عن وظيفة فى محل ولا يشتغل فعمد الى السرقة واللصوصية وكان يفاخر بقوة ساعديه ولقى اعوانا من زملائه يجلوّن قدره

ثم خاف شر العاقبة وكره المخاطرة فاختار صنعة الشحاذة او الكدية وفضلها على سواها

فانقلب كسيحاً عاجزاً . واحتال حتى اخفى احدى يديه .. ليمدّ الاخرى . ثم ازال احدى ساقيه فكان يجر نفسه على رجل من خشب سائلا مستجدياً . والكدية اجزل المهن ربحاً لمن يزاولها فى القواعد والمدن الكبرى وسيرى القراء فى هذه السيرة ما يمكنهم من الاطلاع على أسرارها وادراك حقيقتها المجهولة

ذلك لان الكدية المنظمة المرتبة على قواعد وأصول

قد أصبحت دولابا تدور عليه ارزاق كثيرين وقد يبلغ عدد المرتزقين منها مبلغاً يزيد عاما فعاماً

كتب الفونس كار يقول لئن كان الفقر آلة كسب فان الكدية صناعة

اذن فقد كان برموش شحاذاً

فلما تعب من استعطاف المارة على بؤسه الخاص وسوء حاله عمد الى استخدام آخرين وتدريبهم على مثل ذلك

فما عتم ان صار استاذا كبيراً فى هذه الصنعة وزعيم عصبة من الشحاذين ومقاولا على الايدى المبسوطة للاستجداء او قائداً لجيش من الهمل . فكان ربحه من هذه الرئاسة أوفر من كل ربح آخر. شأن الرئيس الذى يدير حركة العمال فى معمل كبير

فلقبوه امبراطور الشحاذين لان له رعايا فى جميع اقسام العاصمة فكان يفترض على كل منهم جعلا اى قدراً معلوماً فى المائة مما يكسبون . وبعض المتسولين يفضلون الاستجداء لحسابهم فهؤلاء يتناول منهم اجرة دروس فى الشحاذة يلقيها عليهم

وهكذا يجتمع له من المال قدر كبير لا يحلم به متسول عادى

والفتاة نائلة فى الطبقة الاولى من طبقات رعاياه وقد دعاها السائلة الحسناء

ونائلة ابنة المركيزة دى سمروز . فكان وزوجته يعذبانها ويستخدمانها فى السؤال ويستغلان منها ربحاً كبيراً

اتى اكثر من خمسة عشر عاماً وهما حافظان لها مغتصبان حريتها عاملان على قهرها مبعدان اياها عن الناس غير حافلين على الاطلاق بمساعى امها المسكينة والتدابير التى اتخذتها للعثور عليها

والحق تقول انهما لم يعاملاها على الدوام تلك المعاملة فان نسيبة "المركيزة" عهدت بها اليهما فى اوائل اقترانهما ولم يكونا قد خسرا عواطف الحنان والبر" بعد فأحسنا العناية بها

وكانا يشتغلان يومئذ . اما شارل ففى الجزاره" واما زوجته ففى معالجة الكراسى ويقيمان فى شارع المانيا

ففعلا فى الاول ما يجب من حيث الاعتناء بالطفلة وكانا يتناولان مائة فرنك فى الشهر . ووكيلة جيلبرت لم تشك قط منهما

ثم جاء الاهمال ولاشك عندنا فى ان المرتب الذى عين لهما أضر بهما ...

كانت نسيبة جيلبرت تدفع اليهما فى كل شهر مائة فرنك مرتباً قانونياً كأنه ريع ارض او أسهم. فعمد الزوجان الى البطالة والكسل والسكر

وكانت البنت الصغيره تكبر شيئاً فشيئاً كما كان يتسرب الاهمال والشر الى فؤادى مربيها فاخذا يحرمانها رويداً رويداً حاجاتها الضرورية لينفقا على لذاتهما وما يسول لهما الكسل والخمول

فاخذ ذلك البيت يتداعى ويسقط

الا انه استمر فى الظاهر على حاله فلم تتنبه نسيبة جيلبرت الى الحقيقة ولم يخامرها اقل ريب فى الزوجين

ثم ان شارلمان وزوجته كانا يتداركان الامر ويسبقان تلك المرأة فيأخذان الطفلة اليها غالباً حتى لا تأتى الى

بيتهما ولا تشاهد حالتهما

فلما قضى الله بوفاة تلك المرأة بغتة ولم تدع لهما دليلا يهتديان به الى اقرباء الطفلة ذهبا بها الى موضع حقير فى شارع سن فنسان

وانقطع المرتب وقدره خمس ليرات فى الشهر

فابلغا الطفلة الخبر بقساوة شديدة

ومنذ ذلك اليوم اخذت المسكينة التى هى ثمرة هوى امورى درتيل وجيلبرت تقاسى عذاب الشهداء من سوء معاملة الزوجين برموش

وعظم شقاؤها وتعسها باستمرارها على الهبوط فى دركات الرذائل والشرور

الى ان افضى بهما الحال الى استخدام الشدة فى معاملتها والشراسة فى مراقبتها ومعايشتها

لكن ذلك لم يعد اليهما المرتب الشهرى الذى كانا يتناولانه من نسيبة جيلبرت وقدره مائة فرنك ففكرا فى وسيلة للحصول عليه وانما بواسطة الفتاة المنكوبة الأسيرة عندهما

فدرباها على الشحاذة

وطاب لهما ان يعيشا عيشة الخمول ولا يعملا عملا واكتفيا بالصدقه التى تعطى لها رزقاً هيناً

ومن أقبح الأمور التى اتياها انهما اخذا يستثمران كآبتها وحسنها ولطفها المؤثر

فكانا يرسلانها فى اوقات الحر والبرد لتبسط يدها بالسؤال على قارعة الطريق

فتقعد في فصل الصيف معرضة لحرارة الشمس عند الظهيرة كما تجلس فى فصل الشتاء والثلوج تتساقط وهى مقشعرة من البرد تقاسي سبرات الشتاء وزمهريره القارس فلا تتزحزح عن موضعها وتتجلد للمطر والثلج والوحول وليس على بدنها الا اطمارها البالية وثيابها الممزقة

وهى مع ذلك تنادى بلهجة تفطر القلوب قائلة الرحمة ! تصدقوا على المسكينة بفلس صغير يرحمكم الله !

فيرق لها المارة ويعطيها أكثرهم

ومن ذا يرى مثل تلك السائلة المعذبة الحسناء فى مثل تلك الحال ولا تسخوا كفه عليها

وخلاصة القول انها كانت صورة مجسمة للعذاب والبؤس الشديد كما كانت صورة مجسمة ايضا للحسن الخافى تحت اثواب الضنك والشدة

فلا يمر بها احد الا نفحها شيء ثم لا يتمالك ان يلتفت اليها ليتأمل صفاء عينيها النجلاوين وينظر معجباً الى ذلك الحسن المختلط بالبؤس والعسر

وكانت فى حى مونمارتر معروفة من السكان . وهناك بعض رسامين طلبوا اليها الوقوف ليرسموا صورتها على النسيج المشمع لأن المصور يحتاج فى تصوير بعض الحوادث الى مثل رسمها

الا ان شارلمان كان آية فى الدهاء والفطنة فلم يشأ ان يأذن لأحد المصورين برسمها لئلا يساق بالطمع فى ربح عاجل الى خسارة ربح آجل لا يشك فى انه اوفر

ذلك لاعتقاده ان صورتها تنبه اليها اهل الطبقة العليا من الناس . وربما وجد من يعرفها او يشتبه بأمرها فيبحث عنها وتكون العاقبة انقاذها من ربقة الاسر

فاستمرت نائلة سائلة مستجدية وانما فى الاماكن

التي يختارها لها ذلك الرجل الشرير مالك رقها

والويل لها اذا لم ترجع اليه بما يكفيه او يرضيه. يومئذ ينالها العقاب الشديد وقد تحرم القوت اليسير الذي لا يشبع

ولطالما عاقبها الزوجان بالجوع غير مكتفيين بالضرب والتعذيب

تلك كانت حالة نائلة ابنة اموري وجيلبرت ... ثمرة العشق ... او ثمرة الاثم ...

وهي غير مذنبة لانها لم تخير قبل ان تطرح الى هذه الدنيا وانما نزل بها العقاب على زلة والديها

فالآباء يأكلون الحصرم والابناء يضرسون !

الا انه يحق للمركيزة دي سمروز ان ترتعد شفقة على طفلتها بعد ما فقدتها ولكم تمزق فؤادها ألماً وندماً ولو علمت في أي هاوية سقطت مولودتها المسكينة لارتعدت فرائصها جزعاً

* * *

نعود الى سياق الكلام على شارلمان

فانه انتهى من تفكيره فرفع رأسه وقال بخشونة وغلظة :

لاشكَّ عندي في انهم انما يبحثون عنا هذا البحث الدقيق ليأخذوا «السائلة» منا . . . . ولكن هيهات ان يجدونا

قالت فيرجيني وماذا نصنع ؟

اجاب لا يوجد الا وسيلة واحدة هي الرحيل من هذا المكان .

قالت كيف نرحل والى اين ؟ . .

اجاب الى حيث لا أعلم ! . . فان السائلة تأتينا بالغنائم . . . فيجب ان نحتفظ بها ونستبقيها لنا . . . فلم يبق الا ان نختبيء او نخفي عنوان مقرّنا

قالت أصبت يا زوجي . . .

قال ولنبادر الى الفرار سريعاً فان في المقام هنا خطراً علينا ولا ندري متى يأتي السارق . . ولو عرفوا اننا هنا لوجدونا . فهيا بنا والبدار البدار !

فبهتت فيرجيني وصاحت ماذا نفعل بهذا الفرش ؟

يستحيل علينا حمله على الاكتاف

فضحك وقال أنعم به من فرش لا يساوى فلساً !

فلندعه لصاحب البيت أجرة بيتـه وسنتخذ غيره فى غير هذا المكان

فتنهدت فيرجينى وقالت اذن يجب أن البس ثيابى وأسفت على تلك البقايا الحقيرة التى فى بيتها لكن شارلمان تكلم وأمر وهو على صواب

فقال لها :

افعلى على عجل. والبسى أفضل ما عندك لاننا سنترك ما بقى . فنمضى من هنا الى كنيسة « القلب المقدس » فنأخذ الفتاة اى نأخذ الدجاجة التى تبيض لنا ذهباً ومع السلامة . . . فلا يسمع بنا أحد ولا يرانا أحد . . . .

وسوف يأتى الباحثون فيجدون الدار قفراً والمزار بعيداً ! . . فالعجل العجل والنجاة النجاة !

فاطاعت برموشة من غير جدال وجمعت رزمة مما عنـدها ولبست ثيابها وحملت القط فى سلة غير حافلة بامتناعه قائلة له لاتبك ياحبيبي فاننا ننتقل من بيت الى

آخر ولسوف نجد احسن من هذا المقام

وتأهبت لساعتها

فتناول برموش قطعة فحم وكتب بها على الجدار

« للايجار والمفاوضة مع المالك »

واعجبه هذا المزاح فقال لزوجته.

سيرى امامى يابرموشة!

وانطلق الشقيان فمرّا بنائلة وقد وجداها قاعـدة على سلم الكنيسة تتسول كعادتها فاستاقاها ليقيما في مكان آخر : . .

وضيقا دائرة البؤس والرذيلة والـقذارة على ابنة المركيزة دى سمروز واقصياها عن والدتها حتى يستحيل عليها ان تلتقى بها . . .

الفصل السابع

البارونة بولنكا

هى التى شغف بها روبر نجل المركيز دى سمروز كما مرّ بك

كانت مقيمة فى منزل فخيم حديث البناء فى حى مونصو نمرة ١٤

وقد وردت عليها رسالة برقية يوم عهد روبر الى صابوريو بالبحث عن عنوان بيتها

جاء ساعى التلغراف بالرسالة يسأل البواب عن البارونة بولنكا

فأجابه فى الطبقة الثانيــة فامسح نعليك ولا توسخ الدرج

وبعد دقيقة سلم الساعى الرسالة الى وصيفة البارونة وعاد فرحاً بالمكافأة

فحملت الوصيفة الرسالة الى سيدتها وكانت جالسة فى قاعة صغيرة مفروشة فرشاً انيقاً تعزف على البيانو نغماً شرقياً وتغنى

وهى امرأة حسناء كأنها لم تتجاوز الثلاثين بعد لها عينان لونهما كلون المياه الزرقاء ووجه يترقرق فيه ماء الجمال وشعر أشقر كثيف يتوج رأسها بتاج البهاء . وجملة القول انها من الحسان اللواتى يمتزن بشىء غريب فى جمالهن ولعل الحسن الشرقى يكون اجذب للقلوب من كل حسن سواه

ثم ان فى نظراتها سيالا كهربائياً للغرام . . . وللكبر ايضا

فقرعت الوصيفة الباب بلطف فتوقفت البارونة وانثنت فرأتها داخلة فقالت لها ما وراءك يا سيلين ؟ ألم أقل لك اننى لا أحب ان يدخل علىّ أحد ؟

أجابت نعم ولكن وردت رسالة برقية جئتك بها

قالت مادام الامر كذلك فلا بأس . . . أين الرسالة

وتناولتها منها وصرفت الوصيفة ثم فتحت الرسالة

بفضول ولهفة . لانه لايدرى أحد ماذا تحوى رسالة برقية تأتيه افرح أم ترح أم ضجر وملل ؟

الا انها تماسكت فى الحال وقلبت شفتها السفلى وقالت من لوندره ؛ اذن فهو مرسلها

واليك نص ماقرأته بالحرف الواحد

« أصل غداً فى الساعة العاشرة صباحاً مع قطر كاله واقبلك يا ينينا ياحياتى »

ويلى ذلك التوقيع هكذا

« جاك »

وقد عرف القارىء الآن من هى البارونة بولنسكا من اسمها الوارد فى الرسالة

فدعكتها بين أصابعها ولاحت أمارات الضجر على وجهها الصبوح ولبثت مطرقة تفكر

ثم هزت رأسها واقبلت على البيانو وعادت الى التغنى ...

الا ان افكارها كانت مضطربة فلم تستطع الثبات على تلك الحال بل نهضت وقرعت جرساً كهربائياً

فدخلت سيلين فقالت لها :

الم يأت الطبيب بلتيمور بعد ظهر اليوم ؟

اجابت كلا ياسيدتى

قالت هذا امر غريب فانه لم يتأخر قبل اليوم ولم بجر له عادة فى الانقطاع عن زيارتى

اجابت الوصيفة قد يجىء ايضاً ولم يفت وقت زيارته بعد ...

قالت ماالساعة الآن

اجابت الخامسة ونصف

وما كادت الوصيفة تتلفظ بهذا حتى قرع الجرس فقالت احسبه القادم الآن

قالت اذهبى وانظرى

وبعد هنيهة دخل الطبيب بلتمور الى القاعة فمدت اليه يدها تحييه تحية وداد والفة فحياها بأحسن منها

ثم جلس واضعاً احدى ساقيه الطويلتين فوق الاخرى

والطبيب بلتيمور هو من صادفناه فى لوندره بصحبة جاك نورتون منذ عشرين عاما

ولم يتغير الرجل غير ان صلع رأسه ازداد شيئاً وطال شعر عارضيه قليلا فقال لها كيف انت يا نينينا ؟

أجابت على أحسن حال

قال هل من نبأ جديد عندك ؟

أجابت بلى فخذ فاقرأ هذه الرسالة

فتناولها وقال آه انه قادم اليك وذلك من حسن حظى !

أجابت لما ذا ؟

قال لاننى اشتقت عشرته فهو صديق ودود . . .

أوليس صديقاً لك ؟

أجابت لا . . . فقد مللت عشرته . . .

قال اتشكين منه وقد جاد لك بالنفائس . . . وانت تعلمين انه خلف الشيخ سام . . . الا فدلينى على خليلة في باريس ناعمة بأحسن من عيشتك . . .

فقطبت وجهها وقالت لاتخاطبنى بمثل هذا الكلام فما أنا بخليلة أحد !

قال بلتيمور هل تريدين التمويه علىّ أنا أيضا ؟ . . لم يكن ينقصك الا هذا ... الا فانظرى الىّ تعلمى اننى

صديق لا يعرف الكذب ولكن لاألومك فالحقيقة تجرح على مايقال ... فهل جرحتك أيتها البارونة ؟

فبهتت من تهكمه وقالت كلا ولكن فى وسعك ان تستخدم الفاظا أرق من الفاظك

اجاب نعم واصبت فنحن فى باريس بلد الذوق وحسن الاسلوب ... ولكننى اعدك في المستقبل باصلاح نطقى واتخاذ ارق الاساليب معك

وهكذا يتبين للقراء ان الطبيب بلتيمور كان غريب الاطوار

فقال لها :

ألست ناقمة علىّ يا نينينا ؟

أجابت لا

قال أتأذنين لى بتدخين لفافة ؟

اجاب دخن ما شئت

وكان شبيهاً ببركان يقذف من فيه الدخان على الدوام لانه لا يكف عن التدخين ما دام مستيقظا

فلما أشعل لفافته قال هل أساء اليك جاك المسكين ؟

اجابت نعم

قال بماذا ؟

اجابت بأشياء عديدة

قال ألا يعطيك نقوداً وافرة ؟

أجابت أقل مما كان يعطى قبلا

قال ليس هذا الخطأ مقصوداً منه فان الاشغال على غير مايجب ويوجد حرب بينه وبين البوليس اليوم . لأن البوليس اكتشف اخباراً كثيرة عن جمعية اللصوص العامة

قالت ويك اخفض صوتك لئلا يسمع

قال ان لجدران بيتك آذاناً ! اذن يجب ان تتحولى عنه الى غيره

أجابت كلا فما للجدران آذان ولكن لوصيفتى اذنين تكاد تسمع بهما دبيب النمل... ولكن مالنا ولهذا فقل لى متى كان انخراطك فى سلك أعضاء الجمعية

قال منذ مادسنى فيها نورتون أى منذ اثنى عشر عاما غير ان العمل المعهود به الىّ يسير جداً

قالت أعرفه فهو ينحصر فى استلام مايسمونه بالهميان السياسى

أجاب نعم وأنا الذى يتكفل بنقل الأشياء الفاضحة أو التى يعسر تصريفها من لوندره الى باريس وبالعكس فأنا ساعى النادى العام

قالت انك لم تكن موفقاً على الدوام فى سفراتك

قال وكيف ذلك ؟ . . وما معنى كلامك أيتها العزيزة

قالت هل نسيت ماجرى لعقد اللآلئ ؟ ذلك العقد بديع الصنع الذى كان لى قبلا ؟

أجاب واحسرتاه لست انساه وقد طلبت منى تصريفه فى لوندره ولعمرى انه هدية من جاك لا يهدى مثلها الا الملوك والامراء ولم يكن يليق بك ان تعرضيه للبيع

قالت للضرورة أحكام وقد يكره الانسان على مالا يريد . كنت يومئذ محتاجة الى النقود لادفع ديناً على الى صاحبة الملابس

قال وكانت مستعجلة ولذلك أردت تصريف تلك

الحلية النفيسة أيتها البارونة

أجابت ولكنك صرفتها أنت ... فكان عملك ضغثاً على أباله ! (هذا مثل معناه بلية على بلية)

قال كلا وانما اصابتنى معاكسة من الأقدار ولم يأخذ العقد منى احد فلا تتوهمى غير ذلك بل فقدته وهذا كل ما فى الامر...

قالت لا تهزء بى !

قال لقد أخبرتك بقصته مائة مرة فقد أضعته فى محطة الشمال قبل أن أركب القطار ... وأرجو أن لا تكونى تكلمت مع جاك عن فقد العقد ؟

أجابت كلا ! .. ولكن لماذا لم تخبر معاون البوليس بفقدانه ؟ الا ترى انك انت نفسك لا تصدق القصة التى استنبطتها ...

فوثب بلتمور عن مقعده وصاح اتريدين منى ان اخبر معاون البوليس والفت الابصار الى شخصى واهيء لرجال الشرطة الادلة والبينات على حالتى المدنية واعطيهم علامات على عقد لم يدفع ثمنه :.. فهل اضعت صوابك

كما اضعت عقدك !

قالت لا تغضب ولكن دعنى ابدى لك ملاحظة صغيرة وهى ان من فقد شيئاً لغيره وجب عليه ان يأتيه بشيء آخر يكون بدلا من المفقود ويقضى عليه الذوق السليم بذلك

اجاب اننى طلبت عقداً آخر يشبهه

قالت لؤلؤة كاذبة !..

قال بلا شك ولكن ثمنه لا يقل عن خمسين ليرة ولا استطيع ان انفق اكثر من هذا القدر... فأين هو الست تلبسينه ؟

اجابت كلا

قال لماذا؟

اجابت لاننى لا احب الجواهر الكاذبة ولذلك تركته في علبة فلا افتحها ابدا

قال بلهجة المستاء :

افعلى ما يروق لك ايتها البارونة . . ولكن لنعد الى جاك انك تخطئين كثيرا فى معاملته على هذا الوجه

فهو متيم بك يبذل لاجلك كل شيء وربما بذل كل ماملكت يداه !

اجابت ليس ذلك بكثير عليَّ ...

قال لا أنكر ذلك ولكن هذه الاوقات حرجة فلا تطالبيه بمالا طاقة له عليه

فتنهدت واجابت لقد طال زمن الضنك فانني اكاد أعجز عن أثمان ما يعجبني من الملابس

فتأمل الرداء الفاخر الذى على كتفيها ثم نظره ملياً الى قرطيها وحدق فى خواتمها المتألقة في أصابعها وقال انك لعلى أتم نعمة وكم من نساء غنيات يباهين بمثل حلاك وملابسك

أجابت ربما كان ذلك ولكن يصعب النزول على من تعود الصعود ...

قال صبراً يانينينا صبراً فاننا فى أعوام القحط والجدب أما اعوام الخصب والرخاء فغير بعيد على من صبر ... ولدينا الآن تباشير أعمال حسنة لا تلبث أن تتحقق آمالنا منها واذ ذاك يتسنى لك الصعود كما تريدين

وهنا ساد سكوت بينهما الى ان قال بلتيمور لقد كنت على هناء أو صعود كما تقولين وما برحت كذلك

فلم تجب نينينا ولبثت تفكر وعيناهامفتوحتان محدقتان فى السهى كأنها ترى مالا تراه عين سواها

فماذا كانت ترى؟

لعلها تنظر فى ماضيها أو المستقبل الذى تتوق اليها أمانيها أو الحاضر وهو لا يسرها ولا يرضيها

فقال الطبيب أيضاً :

لا نكران انك منذ أعوام كثيرة تتمتعين بتوفيق عجيب وسعة لايحلم بها الامن نشأن والثروة بين ايديهن

قالت صدقت أيها الطبيب !

الا انها لم يكن جوابها مترجماً عما فى ضميرها بل كانت آسفة ذات أمنية تحلم بها

فقال الطبيب أيضاً :

واذكرى يا نينينا يوم لقيك جاك نورتون فقد كنت مغنيه فى ملعب الحمرآء في لوندره والناس يعرفون اسمك الحقيقى نينينا سارى ... أو نينينا الارمنية وكنت

تتناولين أجرة قدرها أربعة شلينات فى الليلة وليس في ذلك شىء من المجد والفخار لك ... فلما لاحظك جاك رفعك الى أعلى مقام . .

أجابت نعم وغدوت أدعى البارونة بولنسكا ...

فضحك بلتيمور وقال وان نسبك خالص صحيح لانه يرجع الى اشرف أسرة فى بولونيا !... الا ترين نجمك فى صعود عجيب !...

قالت ولكنه آخذ فى الافول ... فحسبك الآن كلاماً عنه ان الكلام فى هذا لايجدى نفعاً !

وبعد هنيهة قالت لقد وددت ان أغادر نورتون ولكننى . . .

وهنا ترددت شيئاً ثم قالت ولكننى أخاف منه

أجاب صدقت فانه فظ الاخلاق عنيد . . . فهل انذرك أو توعدك ؟

قالت انذرنى بالقتل أيها العزيز اذا أنا اقدمت على تركه وهو من الرجال الذين لايهولهم القتل .. ولئن لم يقدم عليه بنفسه فانّ من رجاله من يطاوعه عليه ويقضى له حاجته

قال وهبى انك اختبأت فانه قادر على اكتشاف مقرك

أجابت اعرف ذلك ... ان منزلتى لاتسر . . . على اننى حين أجد فى نفسى انصرافاً عنه فلا يهولنى ان أغادره يعضض الانامل ولا أبالى بحنقه أو بتهديده ووعيده ...

ثم قالت لى سؤال القيه عليك

أجاب بل سلى عشرين مرة ومائة وألفاً اذا شئت فاجيبك

قالت بل سؤال واحد

ونهضت فجاءت بمجلة مختصة بالحفلات والازياء وما شاكل ذلك ففتحتها ونظرت فى رسومها ثم أشارت الى صورة فيها فقالت له هل تعرف هذا الشاب ؟

فصاح انه روبر دى سمروز !..

قالت لايصعب عليك ان تقرأ اسمه المطبوع تحت الصورة وكذلك بقية الصور ولكن هل تعرفه معرفة شخصية ؟

أجاب كيف لا اعرفه !

قالت أحقاً تقول ؟.. أما هو فلا يعرف رجلاً مثلك

أجاب انه من أصدقائى

فهاجها الفضول وقالت من أصدقائك أنت وكيف ذلك ؟

أجاب الامر أيسر مما تظنين فانت تدرين ان لى صيتاً بعيداً فى الطب وقد اشتهرت على الخصوص فى قسم مونصو . وتعلمين أيضاً اننى أزاول صناعتى واننى مفلح فيها ولا أباشر الا حين أتفرغ من أعمال الجمعية

قالت وبعد ذلك ؟

أجاب أختصر الكلام فاخبرك اننى أحد اطباء اسرة دى سمروز وهى تمتلك قصراً فخيماً فى شارع ويليه

قالت وكم طبيب لتلك الاسرة

أجاب ثلاثة .أحدهم لمعالجة المركيز والمقصود بأحدهم شخصى أنا والآخر للمركيزة وابنها الكونت روبر أما الثالث فيعالج خدم القصر

قالت وكيف تسنى لك التعرف بهذه الاسرة

أجاب الامر يسير فان آل سمروز عادوا الى باريس منذ شهرين وكان طبيب المركيز القديم غائباً عنها فارسلوا يطلبون طبيباً منزله مجاور للقصر فوقعت القرعة على الطبيب الذى يخاطبك الآن فانا اشكر الآلهة على اهتدائهم الىّ

قالت ولماذا

اجاب لان المركيز دى سمروز مريض مشرف على التلف وهو فضلاً عن انه كبير السن مصاب بحمى الدق لا تفارقه دقيقة واحدة فحالته توجب استدعاء الطبيب فى كل وقت ولذلك كثر ترددى على المنزل وفيه لقيت المسيو روبر نجل المركيز مراراً عديدة ولعمرى انه شاب جميل المنظر

فالقت نظرة على الصورة وقالت صدقت فانه حسن الهيئة

قال ويالله أية ثروة يحرزها في وقت قريب !.. لكن عجباً انى أراك تستحسنين هذا الفتى ؟.. فهل اعجبك أيتها العزيزة

أجابت لست انكر اننى اوافقك فى وصفه

قال احذرى !.. فهو فتى صغير بالقياس اليك... وان كان جمالك يفتن النساك . . .

قالت اترى اننى كبيرة

أجاب اظنك فى الخامسة والعشرين ... فهل من سر لديك تخفيه علىّ ؟

أجابت ربما ...

قال لا بأس ولكن اذا اطلعتنى على سرك فلا اطلب منك الا شيئاً من المكسب يسيراً

قالت هل لك من عشيقات

اجاب كيف لا . ولا يفوتك اننى اخدم الانسانية وانت فى جملتها

قالت اصغ الىّ فأ كاشفك بسرى

أجاب بل انا افعل ماهو خير من الاصغاء. فاكتب ماتملينه علىّ

وتناول دفتراً صغيراً من جيبه

فضحكت ينينا وقالت مادام الامر يتعلق بعشيقاتك

فخذ صفة علاج منى لحفظ الجمال

قال هاتى لنرى

قالت يجب على الحسناء ان تستحم فى كل صباح بحمام مستحضر مما يأتى

من كحول نصف ليتر

وكافور خمسين جراماً

وملح النشادر خمسين جراماً

وملح البحر مائة وخمسين جراماً

وماء غال ليتراً واحداً ونصفاً

قال ليتر ونصف ...

قالت تمتزج هذه الاشياء ثم يدعك بها الوجه كما يدعك البدن حتى يدخل المزيج المسام ... وهذا دواء يحفظ جمال عشيقاتك واذا وصفته لعميلاتك غنمت مالا جزيلا

اجاب شكراً لك فسأفعل

فضحكت وقالت هذا سر ينفعك ولا تبعه الا باغلى الاثمان

ثم زال ضحكها فقالت اخبرنى فقد كلمتنى عن ثروة روبر دى سمروز ... او عما يرثه فى وقت قريب

قال ايهمك ذلك ايتها المرأة الطماعة !

اجابت نعم وكثيراً

قال لاشك عندى فان اباه المركيز دى سمروز ... عازم على مفارقة دنياه ... ولعله يرحل رحلته الابدية بعد ايام ...

فنشرت ينينا اذنيها وانصتت الى هذه الكلمات وذقنها على كفها واجفانها تضطرب .

فقال بلتيمور لعمر الحق ان ثروة روبر يومئذ تغدو جسيمة جداً !..

قالت بفضول غريب

اذن فالقوم من اهل الغنى واليسار ؟

اجاب ليس هذا ماعنيه فان قولك من اهل الغنى واليسار . لايستفاد منه كل الحقيقه ويمكن ان يعنى به من يمتلك مليونا او مليونين

فقالت اذن ماقدر ثروة آل سمروز؟

اجاب لا احسبها تقل عن عشرة ملايين وقد سمعت صابوريو يقول هذا القول وهو كاتب سر المركيز وقد طلب الينا الانخراط فى سلك جمعيتنا العامة . وهنا لى حاشية على الكلام هى ان صابوريو هذا كفء لأن يكون عضواً عاملا فيها

فنهضت ينينا وقد استفزها الطمع وقالت عشرة ملايين !..

الا انها لم تتم جملتها ولا اظهرت مايجول فى ضميرها لانها فهمت ما ارادت وضنت على الطبيب بلتيمور بما تنويه وما يشغل افكارها.

فلما نهض لينطلق لم تلح عليه كى يلبث عندها ايضاً لانها ودت ان تخلو الى نفسها

فقال الى الملتقى ايتها الحسناء المحبوبة وهنيئاً لشارل بك انه لاسعد خلق الله !

اجابت هل تظن ذلك !

قال بل انا على يقين !.. فاخبريه اننى انتظره غدا بعد الظهر فى بيتى وان لايتأخر

اجابت سمعاً وطاعة ياعزيزى بلتيمور

قال شكراً لك

ولثم يدها بظرف وانطلق

فاطرقت تفكر وهى مقطبة الحاجبين ثم ذهبت فوقفت وقفة الى المرآة تتأمل جمالها الباهر النادر المثال الى ان قالت :

لست أخشى من تناظرنى ولسوف يهوانى ذلك الفتى روبر كما أريد ... ثم انه غنى او سيغدو غنياً جداً قبل ان ينقضى زمن طويل ... وسيلقب ايضاً بمركيز ! .. فالمستقبل لى اذا عرفت كيف اتدبر وانتفع بالحوادث الجارية اما الآن فيجب التخلص من جاك ... ثم اسعى وراء امنيتي ! .. فاكون مركيزة في احد الأيام !.. آه مااحلى هذه الأمنية ولا بد ان تتحقق !

الفصل الثامن

« العالم العامل »

يوجد فى باريس شارع مطل على حدائق ناضرة بعيد عن الجلبة والضجيج ممتلىء بالخضرة والزهر. والاطيار تغرد فيه من مطلع الفجر حتى المغيب ويقال له شارع (الأوبسد فاتوار) وهو خير موضع لمن أراد الاعتزال او مالت نفسه الى مناجاة الخليقة او خلا الى التأملات والتذاكر اوشاء الانكباب على العمل تحت ظلال السكينة

وهناك بيت واقع تحت النمرة ٩ من بيوت ذلك الشارع وفيه مكتب لرجل عاكف

وكان ذلك فى اوائل شهر مارس من سنة ١٩٠٧

وكل ما حول ذلك الرجل يشير الى ولع شديد بالعمل لان جدران مكتبه محتجبة بالخرائط والرسوم العلمية فكأنه عاشق للعلم والعلماء

والنور ينفذ الى مكتبه من نافذة واسعة متسرباً من خلال الاغصان ولا يصل اليه الا تغريد الاطيار وصيحات الاولاد الصغار فى أثناء تنزههم تحت الاشجار

هذا والرجل عاكف على مكتوبه باسم لتلك الاصوات المشتركة

الا انه كان يرفع رأسه احياناً وتظلل جبينه سحابة ويتنهد ويغمغم ويقول ما الطف أصوات الصغار ولو ان حولى عدداً منهم لكنت سعيداً.. يسعدنى ان اسمع صياحهم في لعبهم ولهوهم وان أعطف عليهم وأحن اليهم...

ثم يعود الى عمله

وهو لم يتجاوز الخامسة والاربعين بعد الا ان امارات التعب بادية على وجهه ويمكن استطلاع شؤونه من النظر اليه فيعلم المتفرس فيه انه لقى مالقى من دهره وانه انهك جسمه فى خدمة العلم والاجتهاد المستمر

وقد وخط الشيب شعره قليلا وعلت الغضون صدغيه وبقى فى فيه ابتسامة كانها طبعت من حرية فكره وسلامة طويته . اما بصره فيعرب عن ذكاء وحسن

وولاء..

ذلك اموري درتيل

وقد غدا من صدور العلماء وحلبتهم واصبح فى علم التاريخ منقطع القرين

خاض عباب هذا العلم واستجلى غوامضه واقترب فيه الجد والكد بذكاء الفهم وجودة العزيمة فادرك ماقصر عنه كثيرون واحرز منزلة رفيعة

عاد اخيراً من الشرق وكثر مادحوه والمجلون قدره

كان فى مامضى استاذاً وضيعاً فى أحد الاقاليم الصغرى فآلى على نفسه ان يشتغل دائماً ويبذل مجهوده حتى يبلغ اسمى الدرجات ويغدو كفؤاً لجيلبرت وآلى على نفسه ان يحرز الشهرة الطائرة والصيت البعيد...

فلما تقوضت حصون آماله عند زواج من يهواها ومرت به تلك الزوبعة الهائلة التى روينا خبرها فى الفصول الأولى فى هذه السيرة استشعر لوعة اليمة

ولكن لم يتصرم رجاؤه من نفسه ولم يقض اليأس على همته فاعتقد انه اذا ابرّ بيمينه يزيده ذلك قرباً من

حبيبته ولو انه قرب أدبي . .

فاندفع الى الشغل وانكمش فى العمل ونصب عينيه غرض واحد هو ان ينسى لوعة الغرام

فلما انشأ اول سفر تاريخي عرف مزيته الناس

ذلك لان كتابه دل على فضل وتوسم فيه أهل العلم خيراً وصدقت ظنونهم

فاتبعه بكتابين آخرين وضعهما على طريقه ممتازة وحقق فيهما ما شاء وغاص فيهما على دقائق المسائل وغوامضها ففاز في نشرهما فوزاً حميداً وصارت له منزلة بين أهل الادب والعلم

وقد قيل من الف فقد استهدف . فانتقد الكتبة كلامه ماشاؤا الا ان فضله لم يحتجب بانتقادهم بل ظهر فيه طول باعه وغزارة مادته

ثم كتب مؤلفاً رابعاً فانفتحت امامه ابواب المجتمع العلمى الادبي والسياسى

وتوالى نجاحه بعدئذ فكان يلقى المحاضرات ويدرس فى الكلية واستمر ممعناً فى التنقيب والبحث وجمع أشتات

الحقائق التاريخية

ولم يمض زمن طويل حتى كان استاذا فى كلية فرنسا وعضوا فى المجتمع العلمى ومحرزا وسام اللجيون دونور

وهكذا صعد فى مراتب العلى من مكانه الوضيع حتى صار عمدة العلماء ومن جهابذة اهل النظر وذاع صيته فكان يذكر اسمه بين صدور العلماء المؤرخين

وانما أدرك تلك المنزلة الجليلة واحرز المال بعمله وسعيه فهو العصامى الذى نال ما نال بعمله وحق له ان يتمثل بقول القائل

ان الفتى من يقول ها أنا ذا

ليس الفتى من يقول كان أبي

وكان يشتغل يومئذ فى كتاب جديد وضعه مستندا فيه على بينات تاريخية أتى بها من سفراته فى البلاد الشرقية وسماه « فلسفة الاعمار » ولم يكن ينتهى من كتابته حتى طفقت الجرائد تتكلم عنه وتطريه

ولبث وقتاً طويلا عاكفاً على عمله

فلما رفع رأسه كان يلمع فى عينيه نور الصواب شأن

من يأتى بأمر يرضى الضمير والسريرة وانما يتجلى ذلك الضياء فى ابصار المجيدين من الكتاب والمحققين من العلماء والنابغين من الشعراء

وظل بضع دقائق مفكراً يبسم للفوز الجديد المأمون من وراء نشر كتابه وقد اعده ليرسل الى المطبعة فلا ينقصه الا ان يشمله بنظرة اخيرة ثم يخرجه للناس

وقد وضع يومئذ كلمة «انتهى» فى آخر صفحة منه

واذا به قد ارتسم على جبينه ظل وغشى عينيه سحابة وما ذلك الا لأن جرح فؤاده لم يندمل بعد فكان ينفتح ويسيل بين فترات الوقت ..

يشعر الرجل بالفرح من الفوز الا انه يشعر أيضاً بفراغ ووحشة لانه منفرد بفوزه لايشاركه فيه من يحب

واأسفاه ليس ذلك المجد الذى وصل اليه بمسليه وهو انما سعى اليه مدفوعا بدافع الهوى فلما ادركه انثنى فلم يجد لمن يهواها أثراً

فكان مستشعراً كآبة اثناء مراجعته كتابه وقداودعه

من روحه وامتعض امتعاضاً شديداً لانه لايستطيع ان يشرك تلك الحبيبة المعبودة بجنى اتعابه

فبدرت دمعة على خديه وقال مانفع هذا كله !..

* * *

تلاقى امورى بجيلبرت منذ سبعة عشر عاماً فى سفارة انكلترة لاول مرة بعد زواجها

وانما تلاقيا بغتة وعلى غير موعد سابق فما هى الا دقيقة وجد فيها كل منهما صاحبه امامه

فلما وقع بصره عليها وهى داخلة تجر وراءها ذيولها والابصار تتقاطر اليها من كل صوب وهمس الاعجاب يتوالى من المدعوين الى حفلة السفارة احس بفؤاده يخفق حتى يكاد يشق صدره

فاتكا على موقدة بعيداً عن الباب الذى دخلت منه جيلبرت الى ان البصرين تلاقيا فى الحال كأن بينهما جاذبا من الكهرباء أو المغنطيس وارعدفرائصهما فى وقت معاً

فكانا يبسمان حتى يخفيا ما ألم بهما من هول تلك الساعة . وقد شعرا بروحيهما تمتزجان وتلتحمان ثم تمزقان

وتفترقان

دام ذلك دوام البرق . . . ثم وقف بهما الشرف يأمرهما بالتنائى والتجاهل والفرار والتغلب على تلك العاطفة الشديدة العميقة التى ارجفتهما معا

ولئن اعتزت جيلبرت مباهية بأنها وجدت هناك ذلك الرجل الفاضل والعالم العامل الذى أحبته فيما مضى وما برحت تحبه . . ولئن لذّ لأمورى اضطرابه من نظرات عينيها الصافيتين الساحرتين ـ فكل منهما يدرى انه لا يحقّ له ان ينطق بما فى ضميره او يظهر ما فى صميم فؤاده

ولكن الحب الكامن ثار من مكمنه بقوة غالبة وسلطان لم تكن له قبلاً ذلك التحكم العنيف المحزن اللذيذ

فيالله من هوى رسخ دهراً برغم حوادث الايام وتوالى النكبات

كانا فى تلك الحفلة متباعدين وبينهما الجم الغفير من الحسان وعظماء الناس الا ان شعورهما ادنى كلا منهما

من صاحبه ووجدانهما وحد احساسها وساوى بين كربتهما ولوعتهما

كانت الشرارة تحت رماد سترها دهراً الا انه لم يخمدها فلما تلاقى البصران اتقدت وقذفت ناراً لاذعة

فاختلط الحاضر بالماضى وهب لاعج الوجد اشد مما كان

فاى رشد واى عزم يقوى على مقاومة مثل ذلك الغرام بعد ما أراد له الخمود والهمود وظفروا به زمناً طويلا !

الا ان المقدر كائن وما كتب قد كتب والاضحية المطبقة لابد ان تنشر ...

فابتعد امورى عشرين مرة عن بهو المنزل يحاول مغادرة ذلك المكان وفيه جيلبرت صفراء تضطرب الا انها تروح بمروحتها وتتلهى بالحديث مع صديقاتها لتخفى اضطرابها ..

واقسم عشرين مرة على ان يفر من الخطر القريب .. الا انه كان يعود مجذوباً الى حبيبته وشفتاه

ترتعدان وتجمجمان كلاماً لا يسمع ... أو يسمع ولا يفهم ...

فاخترق الجمهور مارا بين الغيد ملامساً أثوابهن الحريرية الناعمة والاكتاف الناصعة البيضاء كالصدور مكشوفة والماس يتلألأ وجيلبرت تزهو بجمالها وذكائها وبهائها

فسكر العالم العامل بشذاهن وذهب ماشاهده من الرقص ببقية رشده وخيل له انه يرى ملائكة تطير من امامه ومن ورائه ورأى بينهن جيلبرت ربة الجمال

فاستطار فؤاده الى ذلك النظر

الا انه لم يجسر على ان يتفرس فى وجه جيلبرت وانما كان يختلس النظر اليها اختلاساً

وهناك نسى الواجب والاقسام وخانته شجاعته

واذا به يرى مرآة كبرى امامه فتأمل يستعرض فيها من فى القاعة الى ان وقع بصره على جيلبرت فاضطرب اى اضطراب

رآها صفراء تنظر اليه . . .

وطالع فى نظراتها هواها كانما يطالع كتاباً فصيح اللهجة كما ظهرت له متاعبها واحزانها فلم يتمالك ان تجرأ على التقدم . .

ثم تجرأ فطلب اليها ان ترقص معه على ما جرت به العادة فى تلك الحفلة وامثالها

فتضاما وعقد الايدى وتلاصقا حتي اتحدا ونسيا الدنيا ومن حولهما .. ومرت هنيهة ناب فيها السكوت عن الكلام. كلا وانما كان فيها الكلام للقلب دون اللسان

فظفر الهوى بالواجب وتغلب على الشرف وظللها بجناحيه وسلطانه

ويبدأ تاريخ غيرة المركيز من تلك الدقيقة

فانه رآهما .. وحزر وفهم العراك الذى قام في نفسيهما واضطرمت فى فؤاده نار البغضاء لاحدهما كما اشتعل جمر الحب فى فؤاده للآخر

فامتقع وجهه وارتعد ارتعادا واضحا لكنه كان عاجزا عن اظهار سره المكنون واشفق ان يفتضح ويغدو هزءا وسخرية في اعين الحضور فبات يفترسهما بعينيه

اما هما فقد شغلهما الوجد والوله عنه وعن كل مخلوق.

فشهد المركيز دى سمروز ابتهاجهما وغبطتهما وهو يتلظى حنقا وغيرة بعد ما ظن ان ذلك الهوى القديم قد طوته الليالى والايام

فكان كأنه يسمع كلماتها وفسر حركاتهما وسكناتها وقاسى اشد عقاب يمكن احتماله

اما جيلبرت وامورى فكانت لهما سكرات ايام بعد تلك السكرة او سكرات اسابيع.

فاذعن درتيل وهو العالم الذى شغف فؤاده دهراً بالعلم لسلطة العشق واما جيلبرت فلم تدر كيف تدفعه عنها . . .

فاستسلم كل منهما للآخر . . .

ولاح لامورى ان عمره قد تجدد وان قواه قد تضاعفت واسكره انه محب محبوب

لما دخلت جيلبرت الى منزله فى ذلك الشارع الذى وصفناه خيل للاستاذ ان الهناء دخل معها ليستقر عنده الى الابد...

غير ان جيلبرت وجدت السم فى الدسم وندمت ولكن لات ساعه مندم

تبين لها انها اقدمت على خيانه وامتزج الكذب بالصدق فى سلوكها مع زوجها فاشمأزت نفسها النبيلة من تلك الحال وثارت فيها عوامل الاستقامة واستشعرت سقوطها فى هاوية

فرجعت مروعة مكروبة الصدر ناكسة البصر

قضت زمنا وهى الزوجة التى لا تعاب سيرتها الى ان افضى بها الحال الى اختلاق حجة للخروج من منزلها وضاقت حين رجوعها ان يلاحظ زوجها احمرار الخجل البادى على جبينها

وباتت تخجل من ولدها وكان يومئذ وليداً لم يبرح المهد بعد ففارقتها الطمأنينة وهجرتها السكينة

ثم انها على الرغم من كل ذلك لم تقو على مفارقة امورى

كانت تجلس ناظرة الى الطفل روبر نائماً على سريره نوم الملائك فترتعد فرائصها خوفاً من نقمة الله ان

يقتص منها بولدها ويعاقبها على غبطة واحدة عرفتها فى دنياها او على زلة مشؤومة فقدت بها رشدها

ولقد كان خوفها ذاك اول عقاب حل بها

غير أن المصاب الذى توقعته لم يحدث فنشأ روبر قوى البنية جميل المنظر لطيفاً محبوباً

الا ان النظام لا ينقض ولا بد دون الشهد من أبر النحل ! . . والجريمه لا تمر من غير عقوبة

فلم ينقض حين من الزمن حتى علمت انها حامل . .

فاضطربت حين علمت بذلك وأيقنت ان امامها حياة مملؤة بالكذب والرياء والعار والعذاب

فلم تشك القضاء ولكنها تصاغرت للقصاص واعتقدت انه العدل والحق فرضيت به كل الرضى

لكنها عقدت النية على امر لا بد منه هو قطع كل صلة لها مع امورى واجتناب كل حسرة بقربه واحتمال شقائها بصبر وخضوع وقنوت

وعلم درتيل باشجانها حينما انبأته بمخاوفها الاولى من الحمل الا انه لم يفهم معنى ذلك العذاب الذى شاهد

علاماته على وجهها

وفى ذات يوم كان ينتظر زيارتها فاذا به قد تلقى رسالة منها تودعه فيها توديعاً لا لقاء بعده وتسأله الامتناع عنها وتستحلفه ان لا يحاول مشاهدتها

فثار فى بادىء الامر ساخطاً وابى الرجوع عن ذلك الهناء الذى تمتع به وظنه خالداً

فكتب اليها ما شاء واتخذ كل تدبير حتى لا يطلع غيرها على رسائله وتوسل اليها وتضرع ولكن لم ينتفع بذلك ؟ .

ثم لم يسمع عنها فعلم انها ابعدت نفسها عنه راضية مختارة . .

فلاح له وقتئذ ان اليأس خامره مرة ثانية واظلمت الدنيا في عينيه .

وزاد همها همه لانها حامل وعما قريب تصبح والدة لولده ! . . .

فقال لنفسه : .

اليس ذلك الطفل مصدرا جديدا لآلام تلك المرأة

فقلق وجزع واصابته المخاوف وندم على مااقترف واستحال عليه ان يرى جيلبرت ليعزيها أويشجعها ويخفف الكرب الذى نالها بسببه

لكنها امرته بالابتعاد عنها وامرته بالنسيان

فلم يفد الاحتجاج ولم تفد الرسائل والكتب ولا استنجاده بذكرى الهوى الفائت لانها لم تجب

فايقن بمقاطعتها اياه مقاطعة لارجوع فيها

فلم يجد بدا من الطاعة ... ورأى الاذعان واجباً مفروضاً عليه

فعزم على ان ينفى نفسه ايضاً

وتمكن من الحصول على اذن بالسفر من ناظر المعارف العمومية الى اقطار المشرق لاستخراج مخبآت علمية فى تلك البلاد

فسافر وهو راض على الرحيل تائق الى الابتعاد عن باريس بعد ماتركتها جيلبرت

فتغيب اعواما طوالا ولم يعد الا فى اوقات نادره

واستبقى منزله العزيز عنده فلم يتخل عنه

فكان يسافر فى كل مرة وهو مسرور حزين اما سروره فلأن المهمة التى يشتغل فيها بعيدا تقضى عليه بالانهماك فيها واما حزنه فلانه وحيد لا اهل له ولا صلة تدعو الى تعلقه ببلاده ... بلى بقى له التذكر وهو تذكر قاس لطيف

اما وقد اتم عمله المفيد للعلم فقد آب من سفراته الى باريس واعد له المجمع العلمى استقبالا حافلا يليق بمنزلته العالية

* * *

رجع الى بلاده ولكنه لم ينس جيلبرت ...

وكان فى اليوم الآنف ذكره جالساً الى مكتبه مستشعراً لذة بايابه الى مقره وهو المكان الذى باركته ابتسامة الحبيبة . فذكرها وخفق فؤاده لذكرها

فطالما وافته الى هناك مراراً فى ايام الهناء والسعادة والذهول والسكر . . . ولطالما جلست على مقعد المكتب واسندت ساعدها المندمج على وعاء ملآن بالورود .

أنها تحب الازهار حباً جماً

فخيل له انه يستنشق شذى تركته في ذلك المكان ومعلوم أن الرجل يألف الجدران والسقف وسائر مافى بيته اذا قطنه دهرا فكأن مايجده من غبطة واسى مكتوب على دائرة ذلك البيت او منتشراً فى هوائه

ثم شعر اموری بفراغ فى فؤاده . هاله ان يعيش وحيدا في خلواته لاتعطفه عاطفة على احد ولا يميل اليه قلب فهو مفتقر الى من يحبه ويعنى به..

واذا به قد نهض ففتح درجا فاخرج منه صورة صبية حسناء تبتسم فتأملها معجباً بهاواستمر وقتاً طويلا لايحول بصره عنها .

والصبية التى ارتسمت صورتها امامه على المقوى فى نحو الرابعة والعشرين نجلاء العينين صغيرة الفم جذابة الملامح مهيبة الطلعه فغمغم يقول آه ياحبيبتى جيلبرت !

وتساقطت عبراته حتى غشيت عينيه

واذ ذاك خامره خاطر أخر ازعجه . . . فكر فى الولد فقال !

أين هو الآن وما اسمه ؟ .

ذلك ولده ! . . . فاحس بالرعدة تسرى فى عروقه الا ان تعلقه بهذين المخلوقين ونعنى بهما الام والولدكان أشد تعلق . فلثم الصورة وكأنها تنظر اليه . . .فاسرع خفوق فؤاده .

ولم يكن ذلك الهوى كما كان قبلا فانه فقد تلك الحرارة التى تلهب الصدغين حرارة الوجدوالصبابة والشباب .

بات هواه ممتزجا بالاحترام والاجلال والاعظام فكان كمن يعبد فى جيلبرت ربا لا كمن يعشق امرأة حسناء ومقامه متوسط بين النيران التى تنبعث من لوعة الشوق والكآبة الناجمة عن الاسف واللهف

ثم وضع الصورة في مكانها واخرج رزمة رسائل تتضوع منها رائحة البنفسج . فاستنشقها بلذة لا توصف ثم حل رباطها وفتح منها رسالة فاخذ فى مطالعتها

وكان يحفظها من ظهر القلب فلا يخرم منها حرفاً كما يحفظ بقية رسائل الحبيبة . ولا غرو فانه قرأها

مراراً عديدة وسكر بعذوبة الفاظها ودقه معانيها .وقد اصفر لونها بمرور الزمن . وكذلك يمحو الزمن كل أثر منقوش او مخطوط سوآء كان مكتوباً لخدمة التاريخ او كان رسائل صبابة وغرام

وكانت تلك الرسائل خلاصة مافى حياته من سعادة ماضية

فاشتد انفعاله عندمطالعتها وخيل له ان روح جيلبرت تتردد بين السطور . فكلها تعرب عن هوى سام كبير !..

رسائل يجوز ان تسمى قلباً مفتوحا كما ينفتح الورد لجانيه عن الاكمام فيشتم كل ماحوى من طيب

واذا بالباب يقرع فذكر حقيقة امرأة وتنبه من ذهوله واقبل خادمه يقول

سيدة بالباب تريد مقابلتك

فدهش أمورى وقال سيدة تريد مقابلتى ؟ وهل ذكرت اسمها !

أجاب كلا بل أجابتنى ان لا فائدة من ذكره

فاستاء أمورى لانه ود الاستمرار في رؤياه الغرامية اللذيذة لكنه اذن للسيدة بالدخول

فدخلت امرأة مبرقعة الوجه فقدم لها كرسيا فجلست ثم كشفت نقابها عن وجهها فكانت المركيزة دى سمروز

فبسط امورى اليها يديه وقد اصفر وجهه فى الحال وارتعش ارتعاشاً لم يشعر بمثله من زمن طويل وصاح واطرباه .. هذه انت ياجيلبرت ؟

ولم يستطع ان يزيد لان التأثر حبس نطقه

فقالت له بصوتها العذب الرخيم :

نعم ياصديقى قد رجعت اليك لاحدثك بعذابى الشديد .. واسألك الاخذ بيدى ...

وجثا امامها ممسكا كفيها فقال آه ان فى ذلك غبطة لى لاتفوقها غبطة .من لى بأن تستخدمينى فى قضاء حاجة لك ياعزيزتى .. ياجيلبرت .. انت تعلمين اننى ابذل روحى على قدميك وان غرامى .

فقطعت عليه الكلام وقالت لاتكلمنى عن الغرام ! لاتكلمنى عن الغرام! وانماحدثنى عن الالام والاشجان!

حدثنى عن الالام والاشجان التى جناها علىّ هذا الهوى الاثيم فكانت عقوبتى العادلة

قال مامعنى هذا الكلام وعن اية عقوبة تتكلمين ؟

أجابت لقد لقيت الاهوال يا أمورى بعد ما افترقنا وتحملت عاقبة زلتى فكانت عقوبة ليس اقسى منها !

قال وارحمتاه لك ياروحى !... وهل قدرت على ان أكفيك أقل ضنك ومشقة ؟.. ولكن اخبرينى بما جرى لك حتى ينالنى نصيبى من أشجانك وهمومك

قالت واحر قلباه ان تأريخ شقائى يبدأ منذ يوم مولد نائلة .. ابنتك...

فضعضعته هذه الكلمة وصاح ابنتي ؟... ولكن أين هى ؟.. قولى . تكلمى .. آه لماذا فررت منى فى ذلك الوقت من غير ان تأذن لى بلقائك ... لكى أعزيك وأؤاسيك . . . لقد كنت قاسية الفؤاد ياجيلبرت !.

أجابت بل أردت الرجوع الى الطريق السوىّ ... فبذلت نفسى بأسرها لاحتمال مااستحققته من القصاص

قال القصاص ؟...

قالت آه مما قاسيت وكابدت ياأمورى بعد افتراقنا !

قال ولكنك كسرت قلبي وصيرتنى اتعس مخلوق

أجابت اننى فعلت بنفسى مثل مافعلت بك ولكن لم يكن ذلك الا أول أحزانى ومتاعبي ...

« يستحيل علىّ ان أبين لك المخاوف التى مرت بى وأنا بين ان اكتم سرى وان يطلع عليه زوجى فذلك بيان لاطاقة لى عليه

« خطر فى بالى عشرين مرة ان انتحر واخلص من حياتى ولكننى كنت افكر فى ولدى فاحجم واتقهقر . كنت كلما فكرت فى روبر وكلما ارتكض الجنين فى بطنى اشعر باننى لايحق لى ان أموت

« فعزمت على ان احيي ... ولكن اى جهاد القاه فى هذه الحياة !.. وجب علىّ ان اكذب فى كل ساعة وفى كل يوم ... الى ان تدنو الساعة المشؤومة القريبة ... فما ذا أصنع وأى أمر الجأ اليه لتلافى الخطر المحيق بى ؟

« أما المركيز زوجى فقد أصيب يومئذ بحمى الدق

وتحكم فيه الهزال والسقم فلزم حتى الآن سريره وشلت أعضاؤه فاعتنيت به باخلاص عظيم !..

قال أموري بكآبة :

نعم وانما فعلت مايجب عليك فاطلت حياته ...

قالت ولذلك كان يتجرح موقفي ويعظم همي فان الواجب يقضي عليّ بان لاأفارقه ...

« غير ان الله رحمني بنازلة نزلت بي .. اذ توفيت والدتي فسافرت الى ويسول تاركة زوجي طريحاً على سريره فقضيت واجب التوديع الاخير لوالدتي العزيزة

قال وهل وضعت في اثناء تغيبك ؟

أجابت نعم . فانني لبثت في تلك النواحي بحجة أمور عيلية توجب لبثي فيها فاعتزلت الناس لاجئة الى قرية صغيرة منفردة

« وكنت اتلقى هناك رسائل المركيز على يد صديقة لي وفية وكلها تعجيل وحث على الاياب وتلك الصديقة عينها كانت تبعث برسائلي من ويسول جواباً على رسائل زوجي وكل ما كتبته اليه وعود كنت اضطر الى ان

أودعها التسويف والمطل والكذب

« الا ان تلك المدة كانت اشق عليّ من سائر أيام عمري وحيدة بعيدة عن بيتي وأهلي وولدي تجرعت الكأس الى آخر نقطة منه فكم من أيام وكم من ليالي قضيتها باكية العين نفسي ! ويعلم الله وحده كم لقيت !

قال أموري ويحي لست اصفح عن نفسي أبداً لانني كنت السبب في هذه الاحزان

قالت ثم ولدت الطفلة بعد حين وقد ورد على كتاب من المركيز يقول فيه انني اذا لم أعد اليه سريعاً وضرب لي موعداً قريباً فانه يأتي اليّ مصحوباً بروبر ولا يبالي بمشقة السفر ولو مات بسببه

قال اموري خفضي عليك ياجيلبرت اني اتألم اذا رأيتك متألمة

قالت ولدت نائلة ولعل الطفلة المسكينة تأثرت بما كنت فيه من اضطراب وعذاب فولدت ضئيلة لالون لها ولا صوت ولا بصر وخيل لي يومئذ انها غير حاصلة على الحياة لولا تنفسها الضعيف

« فاعتنيت بها أعظم اعتناء حتى تجاوزت الساعات الاولى من عمرها ... وقيل لى انها ستعيش على الرغم من ضعفها

قال انك انقذتها من الموت وهيهات ان ينقذها من الموت غير أمها

قالت وتسجل اسمها فى سجل المواليد نائلة برتلمي اى اننى اعطيتها اسم قومى ثم وجب علىّ السفر لانقضاء الموعد الذى ضربه لى زوجى ففارقت ابنتى وفؤادى يتمزق فقبلتها وأنا أقول متى أراها مرة ثانية ! واأسفاه لن اراها الى الابد !

وهنا تبادرت الدموع على وجنتيها ثم قالت فسافرت تاركة هناك نصف قلبي تاركة هناك تلك الوليدة الصغيرة وقد استودعتها نسيبة لى مقيمة فى باريس فذهبت واخذتها من القرية ريثما تجد لها من يعنى بتربيتها فاهتدت بعد حين الى الزوجين برموش فوكلت اليهما امر الطفلة اما الان

قال ماذا ؟

قالت أما الآن فقد اختفى أثر الزوجين برموش

قال اموري أما من دليل يهتدى به اليهما ؟

أجابت لقد بحثت بحثاً طويلا ولكن من غير جدوى ولا يمكن اكتشاف مقر هؤلاء القوم ولا معرفة ما جرى لابنتنا يا اموري . انى ليأخذنى الرعب كلما فكرت فى وقعتها بين أيدى اولئك الناس ... ربّاه أية صناعة يعلمانها اياها ! ...

وشهقت بالبكا،

أما اموري فأخذ ينظر اليها صامتاً حزيناً

الى ان قالت ألا تظن الآن ان الله انزل بنا العقوبة على ضعفنا ؟ .. تكلم ... ولكن لماذا ينتصف الله من طفلة صغيرة مسكينة لم تذنب

فضم اموري يديها الى يديه وقال انى ارثى لك ايتها الام المسكينة وافهم ما تكابدين ،

قالت لقد أذنبنا يا اموري وكان الذنب كبيراً !

أجاب نعم ولكن هوانا كان شديداً قادراً فاستبد بنا وتحكم ! .. او ليس فيه معذرة لنا ؟ أما انا فقد حاولت

ان اظل وفياً بعهدى بعيداً عن الاثم ولكن جنون الهوى ذهب برشدى ومن ذا الذى يستطيع مقاومة ذلك الجنون . . . اننى لم أتمالك حين رأيتك مقبلة علىّ باسمة متهللة الوجه ان بسطت اليك ذراعى وأدنيت شفتى منك واستسلمت الى تلك السلطة التى لا تبقى على حكمة . وكل مافى امرنا اننا لم نستطع مقاومة حبنا القدير ! .. اما الآن فقد بت اعنف نفسى على حيادى عن جادة العفاف واقابل بين نصيبى من الهناء وحصتك من الشقاء ! . .

قالت يوجد فى الاثم شىء يعزى الى الاستقامة فاننى فعلت كل ماقدرت عليه حتى لا اجر على غيرى شقاء الحياة ! .. وان تفهم ماعنى فان المركيز دى سمروز لم يدر شيئاً . . .

قال درتيل ولم يدر أحداً ؛

قالت لو كنا سبباً فى عذاب غيرنا لما كان لنا عذر قط غير اننا من جهة اخرى لانعذره فقد اولد الحب طفلة منحوسة قدمناها ضحية ... ومن يدرى فلعل ابنتنا الآن

شريرة بائسة شقية ساقطة . . :

وبكت احر بكاء

فقال اموري بثقة وحزم :

سوف نجدها يا جيلبرت فلا تيأسى .. انى نصيرك فى البحث عنها وسوف نبذل ماعز وهان فى هذا السبيل ولا نلبث حتى نجد نائلة ونصلح شأنها ونهيء لها ما تستحقه من السعادة . . .

أجابت انما جئت من اجل ذلك آملة ان تأخذ بناصرى ولأجل ذلك حنثت باليمين التى حلفتها قبلا اذ آليت على نفسى ان لا القاك أبداً

« لست مطلقة السراح كما تعلم فان زوجى المشرف على التلف المسمر على فراشه يتلظى من غيرته العمياء ويحرص على ملازمتى اياه فلا يدعينى أخرج من البيت الا متبوعة بجاسوس فيستحيل على ان افعل امراً

« لكن شأنك يااموري غير شأنى لأنك قادر على ان تفعل ماتشأ بلا معارض ... اذن اناشدك الله والمروءة أسرع فى ماتنويه من السعى لعلك توفق الى اكتشاف

مقرها

أجاب اقسم لك ياجيلبرت انني لا ادخر جهداً في هذا السبيل

قالت ولا تكون باول ساع في هذه المهمة .. لان لي صديقاً يسعفك فيها

قال صديق

أجابت نعم وأحسبك تنذهل اذا عرفت اسمه فهو المسيو برترو

قال لعله وكيل الجمهورية قبلا في ويسول او هو الان قاضي التحقيق في باريس ؟

أجابت هو بعينه ..

قال لست بالناقم عليه لانه اعترف بخطائه على مسمع من الملاء فهو رجل نبيل السريرة

قالت وهو مطلع على آلامي الحاضرة واشجاني الماضية .. فقد اقررت له بكل شيء لانني رأيت الاقرار له امراً لابد منه فان مساعدته لنا ذات شأن كما لايخفى وقد وعدني بها

قال سأنضم اليه وابذل المجهود معه

قالت بادر ياأموري واستعجل !

أجاب منذ اليوم الا ان ذلك واجب مفروض علي فان نائلة ابنتي .. وما اسعدني يوم القاها واحبها .. معك ! .. ولئن وفقت اليها فاني اتخذها زينة لبيتي وانساً وتعزية لقلبي وافيض عليها كنوزاً من الانعطاف والحنان حتى تعيش عندي ناعمة البال قريرة العين !

وهنا بكى اموري بكاء شديدا لتفكره في تلك الطفلة التي اضاعها شقاؤها وما جناه الاه . واشفق ان تكون قد فقدت الى الابد

ونهضت المركيزة قائلة تجد في هذه الغلاف جميع الايضاحات التي تحتاج اليها

وبسطت اليه الغلاف ثم قالت بحماسة .

شكرا لك يا أموري وقد كنت على علم بعواطفك الشريفة

ومدت اليه يدها تصافحه فلثمها بلهفة وشوق وغمغم يقول انني أسير هواك يا جيلبرت ! ان

ذكراك لا تفارقنى قط . منذ هنيهة قبيل دخولك عليّ كنت أحسبنى أرى رؤيا لذيذة توجهت اليها افكارى حتى نسيت وجودى وما هذه الرؤيا الا شخصك يا جيلبرت ! . . . وكنت أطالع رسائلك الكريمة وادعوك بملء جوارحى !

فلمعت عيناها وخفق فؤادها واضطربت من شدة هواها

وهنا شعرت بالخطر لكنها غدت باسلة فقالت كفانا يا أمورى شجواً وحنيناً ولنعتصم بالقوة والشرف لعلنا نستحق نعمة اكتشاف ابنتنا والآن استودعك الله !

اجاب الى الملتقى أيها الملك المعبود !

قالت اسأل الله ان يوفقك الى وجود نائلة حتى تؤلف بها منزلا وتعيش معها سعيدا ! . .

وأفلتت هاربة وخرجت مغادرة أمورى ذاهلا متوسلا فاقد الرشد

وكان خادم المركبة ينتظرها فى الدهليز فصعدت اليها.

وهى لم تشأ المجىء على مركبتها الخصوصية الى بيت أمورى خيفة ان تبدر من خدمها كلمة عن هذه الزيارة فتقوم قيامة زوجها ويحسبها امرأة ساقطة

فاقفلت باب المركبة والاضطراب آخذ منها وشعرت بوجود الانفراد لتخلو الى نفسها وتتأمل . . . وتبكى على مهل . وتطلق لفؤادها العنان حتى تسكن ثورته ويهدأ هياجه

ولقد كانت قوتها عجيبة غريبة لتمكنها من الابتعاد عن أمورى وقد أحست بروحها تطير اليه ولا سيما فى تلك الساعة اذ ألف بينهما غم واحد واهتمام واحد هو وجود ابنتهما نائلة وهى رابطة جديدة تقرب كلا منهما الى الآخر

على انها لم تجد تلك القوة الا بحركة عنيفة هزت أعصابها أما الآن وقد ابتعدت عن الحبيب فأصابها رد فعل فزفرت زفرات حرى واستخرطت فى البكاء

وكانت منزوية فى مركبتها وهى على ما وصفنا من الاضطراب فلم تعر التفاتة الى مركبة أخرى كانت

واقفة تحت الاشجار في الشارع

فلما سارت مركبتها نزل رجل عن المركبة الاخرى سريعاً ودخل الى منزل امورى فقال لخادمه :

طلبت منى السيدة التى نزلت من هنا أن ابحث عن محفظة نسيتها

فقرع الخادم باب المكتب وكان أمورى مطرقا مسترسلا فى اضطرابه وانفعاله وتبع الرجل المجهول الخادم

فنهض أمورى وقد تنبه من ذهوله فقال الرجل لقد تركت المركيزة محفظتها عندك يا سيدى

فسرح امورى بصره فى مكتبه فلم يجد أثرا للمحفظة

فقال الرجل ان المركيزه ارسلتنى من مركبتها خصيصاً للبحث عن المحفظة .

وانحنى كانه يفتش عن شىء على الارض

فانحنى امورى ايضاً ليرى ولم يجد شيئاً

غير ان الرجل المجهول انتصب بغتة والقى نظرة كالبرق على المكتب ومد يده فاختطف ورقة من الاوراق

المبعثرة فدسها فى جيب صدرته بسرعة ثم تقهقر معتذرا بادب وانصرف

فصعد الى مركبته وهو يتبسم ابتساما غريباً

فسارت به الى حديقة لوكسبورج وما كادت حتى اخرج تلك الورقة ونشرها بين يديه وقرأفيها بفضول لا يوصف مايأتى .

فى ٢٠ يناير سنة ١٨٩١

« حبيبي امورى

«لا تنتظرنى الليلة كما اتفقنا فاننى غير قادرة على الخروج من منزلى

« لكننى اعدك باننى انجز هذا الموعد فى الاسبوع القادم فى نفس اليوم فاكون بكليتى لك

ان لقبلتك الاخيرة أثرا اشعر به على شفتى ...

آه ما احلى الحب ! . . . فقل لى لماذا فرق الدهر الخؤون الجائر بينى وبينك هذا التفريق ! .

« فاصرف الايام الثمانية الباقية لانجاز الوعد في التفكر فىّ ايها الحبيب وتقبل منى تحيات الولاء الدائم والحب

الابدى

« حبيبتك جيلبرت»

فضحك الرجل وقال احسنت !... ان الرسالة قصيرة لكنها مفيدة . وهى قانونية لانها ذات توقيع وتاريخ . واظن سيدى المركيز يكون راضياً فى هذه المرة

وقد حزر القراء فالرجل صابوريو وقد سره عمله فوضع الرسالة فى جيبه بعناية وفرك كفيه مغتبطاً جذلان :.

ثم قال هذه صفقة رابحة !...لقد كنت حاسباً هذا الحساب حين صعدت الى البيت اذ قلت لنفسى لابد ان أجد أثراً نافعاً . والحق يقال لم أضيع الوقت سدى

وهنا اطرق يفكر فابتسم كانه يرى تباشير للفلاح جديدة فقال ويحى من غبي كيف خطر فى بالى ان اسلم الرسالة الى المركيز والاجدر بى ان اسلمها الى جيلبرت الحسناء اولا واطالبها بالقدر الكبير من المال فتدفعه الى صاغرة لانها لاتريد ان احملها الى المركيز . ان ثمن مثل هذا السر غال فلا ينبغى ان نبيعه بالثمن البخس !

الفصل التاسع

الرسالة

بعد نصف ساعة وصلت المركبة التي فيها صابوريو الى ميدان انيوسان

فهناك بيت فى الطبقة الاولى منه حانة نزل صابوريو عندها ودخل دخول رجل معروف فيها وحيا امرأة عجوز هى صاحبتها وكانت تسكب خمراً فى الكؤوس لاربعة او خمسة من الشاربين

ولا يوجد كراسى فى بهو ذلك المكان لأن الذين فيه يشربون وهم وقوف الى شبه مكتب ووراء صاحبة الحانة

فقال لها صابوريو سلام على الأم ديبو

فقالت له وعليك السلام ياصابوريو فهل جئت لاجل طعام الغداء

أجاب كلا فان الظهر لم يحن بعد. انى ذاهب الى القاعة

فهيء لى كأساً من النبيذ . . . ومعه ادوات الكتابة

وفتح باباً فى داخل البهو ودخل الى القاعة وكانت فيها كراسى للجلوس فجلس وادار ظهره الى النافذة واخرج من جيبه محفظة نشرها على الطاولة

فجاءته لام ديبو بماطلب ثم جلست أمامه وقالت له انى عازمة على الجلوس معك اذاشئت هنيهة قصيرة لا سيما واننى قدمت لعملائى ما يشربون فعندي وقت لمحادثتك وقد طال وقوفى امامهم فانا فى حاجة الى الراحة ولا يخفى عليك ان من كانت عجوزاً مثلى لا تستطيع اطالة الوقوف

قال انت تشتغلين كثيراً يامدارين وتنهكين جسمك بالتعب

اجابت كيف العمل والوافدون الىّ فى كل يوم عديدون

قال لايجوز لك الشكوى

اجابت لى عملاء يأكلون ويشربون فى الطبقة العليا فضلا عن الذين هنا

قال من هم هؤلاء ؟

اجابت انهم تلامذة برموش وانت تعرف امبراطور الشحاذين

قالت كيف لا وتلامذته يتعلمون من حرفة التسول فكانهم اعضاء جمعية علمية

قالت انهم يأتون الى هنا فى كل مساء

اجاب ماذا يهمك انت مادمت تربحين كثيراً من النقود بل ماذا يهمك تسميم العدد الغفير من ذلك الجمهور ؟

قالت ماكنت لاسم احداً فان الشراب الذى يوجد عندى منتخب من اجود الانواع وثمن الليتر منه ثلاثون فلساً وهو غير مغشوش ولذلك ترى عملائى لايختارون غيره شرابا وانت فى جملتهم يامسيو صابوريو

اجاب صدقت وانى على يقين من انك تكسبين مالا كثيراً

قالت نعم اكسب شيئاً من المال لكنه غير كثير كما تتوهم بل يكفينى الحاجة

قال اظنك مقتصدة مدبرة اليس الامر كذلك ؟

اجابت لقد جمعت اليسير ازيده فى كل شهر نحو عشرين فرنكا

قال هل استودعت نقودك احد المصارف ؟

اجابت هل يدور في خلدك انى اودعها مصرفا يتولى مديره فى احد الايام هارباً الى الاقطار الاميريكية او الى بلاد البلجيك حاشا لى ان افعل

قال انك حكيمة ياديبو !

اجابت ولا ثقة لى بالحكومة منذ ماصارت تنشىء اسهماً فافضل الاحتفاظ بنقودى ريثما اجد لها مكاناً صالحا استثمرها به

قال وكيف ذلك ؟

وارهف اذنيه للسمع

فقالت الا تعرف مكاناً يصلح لمثل ذلك ؟

فاطرق متظاهراً بالتفكير

الى ان قال سوف نرى !

قالت انك تسدى الىّ يداً صالحة اذا وجدت من

يستدين نقودى برباً طيب ولك جعل صغير يعدل تعبك

قال لا بأس وما قدر النقود التى تقدرين على اقراضها

اجابت ثلاثون الف فرنك لا تنقص ولا تزيد

فسحر صابوريو جسامة القدر وقال آه انك كالخبيئة فى الزاوية اذ لا يمكن احد ان يحسب ان مثل الحانة تأتى بمثل ذلك المبلغ الكبير

قالت وكيف ذلك ؟

اجاب نعم ومن ذا الذى يشم رائحة كنزك من وراء هذا الجدران السوداء والكراسى العتيقة

قالت لا بد من ان انبهك الى امر فاعلم اننى لا احب ان يعلم احد بما ذكرته لك انى اخاف اللصوص

قال الا تخافين القتلة!

اجابت لا تكلمنى عنهم فان عملائى مختلطون

قال صابوريو ولا سيما اولئك الشحاذون فاننى لا احسبهم موضع ثقة

قالت انك تخيفنى بهذا الكلام شديداً

قال انهم قوم لا يبالون بأن يفتكوا بامرأة متى علموا

انها ذات مال مخبوء عندها ويدركون غرضهم بلا تردد

اجابت نعم ولذلك لا يعلم احد فى الحي ان عندى من المال مايزيد على مقدار الحاجة فى تولى تجارتى فليس من الحكمة ان نلفت ابصار الاشقياء الى ذلك فكيف ترى !

قال بل يجدر بك ان تكثرى من الشكوى استجلاباً للشفقة فذلك خير من ان تستجلبي حسد الناس

قالت ذلك رأيي أيضاً ولو لم ادر انك من اولى الاستقامة والعمل لما اطلعتك على سرى ولا انبأتك بحقيقة امرى ولكننى اعرفك يامسيو صابوريو . وارجو ان تفكر فى قضيتى هذه ؟

قال وهل انت مستعجلة ؟

أجابت نعم واظن اننى لا اتأخر فى اعتزال العمل واود ان اتمتع بالراحة فى البقية الباقية من عمرى

قال سوف اجتهد لعلنى انفعك بشيء وسأبذل جهدى حتى تكون نقودك فى موضع ثقة شأن صاحب عيلة يريد ان يكون فى طمانينة آمناً على صغاره

قالت حبذا ماتقول ولا تنس ان لك منى مكافأة على تعبك وهدية سنية فوق المكافأة

أجاب انى لا اكره ذلك

واذ ذاك سمعت الشاربين يدعونها فنهضت وخرجت واقفلت الباب وراءها

فلبث صابوريو منفردا وجعل يقول معها ثلاثون الف فرنك ! .. ثلاثون الف فرنك ! .

وشرب كأسه على مهل وهو يفكر وعيناه تلمعان من شدة الطمع والشره

ثم تناول ورقة من الورق الذى جاءت به صاحبة الحانة واخذ يكتب

لكنه مالبث حتى القى القلم من يده وامتنع عن الكتابة ثم مزق الورقة التى بين يديه وقال لقد كدت اقع فى ورطة ملعونة . يجب ان يخط هذه الرسالة غير قلمى

ثم نهض وفتح الباب ونادى صاحبة الحانة فقالت له لبيك !

قال ارسلى الىّ خادمك دفير انى فى حاجة اليه

اجابت حبا وكرامة

قال استعجلى

وبعد هنيهة اقبل فتى هو من يدعى دفير وعلى كتفه فوطه وفى زناده مئزر

وهو خادم حانة ديبو شاب طويل القامة عريض الالواح لكنه مهزول تنفر النفوس من قبح طلعته

وكان يزاول حرفة الخادم فيقدم الاشربة والاطعمة ويغسل الاوانى فى وقت معاً

فقال له صابوريو هل يمكنك ان تسعفنى فى حاجة لى اليك

أجاب كيف لا يامسيو صابوريو وبيننا معرفة قديمة انى اطوع لك من بنانك

قال هل تحسن الكتابة ؟

اجاب اظننى احسنها وعندى شهادة من المدرسة لاتزال محفوظة عندى :

قال وهل يداك نظيفتان

اجاب نعم فقد غسلت الاقداح الساعة

قال اذن تعال فاكتب ماامليه عليك رسالة لاينبغى لى ان اكتبها بخطى فهل فهمت ؟

اجاب انى على ما تريد . . . فهل تملى الرسالة علىّ الآن

قال بلا شك فهل رضيت

أجاب ولماذا لا ارضى .

قال ان لك مكافأة حسنة اذا افلحنا فى عملنا ولا ازيدك بيانا . ومتى انتهيت من كتابة الرسالة يوجد أمر آخر تفعله ايضاً .

اجاب انى مصغ اليك يا مسيو صابوريو فتكلم

فجلس دفير وتناول القلم وانصت الى مايملى عليه

وبعد خمس دقائق كانت الرسالة مكتوبة

* * *

وفى اليوم التالى كانت المركيزة دى سمروز جالسة الى جانب فراش زوجها تحاول تعزيته وتهون عليه احتمال دائه بالصبر وكانت قواه تضعف شيئاً فشيئاً

لزمته قياماً بالواجب عليها كزوجة مخلصة فجعلت

تتكلف الابتسام لها وهمها يمزق فؤادها تمزيقاً والندم الشديد يوليها امتعاضاً ولوعة أليمة

على انها لم يكن لها بد من مقاومة اشجانها والتظاهر بانشراح الصدر لئلا تتعاظم شكوك زوجها ويزداد ارتيابه بها ...

فكانت تتجلد وتتحمل

واذا بوصيفتها قد دخلت عليها فسلمتها غلافاً

فقالت لها :

من أين هذه الرسالة يا كورالى

أجابت من رجل صعلوك بائس أوصانى بتسليمها الى سيدتى المركيزة يداً بيد . وما أظنه الا طالب صدقة كغيره

قالت هل مضى ؟

أجابت نعم ياسيدتى ولا أظن الا انعنوانه فى داخل الرسالة

قالت لا بأس فخذيها ريثما اتفرغ لها

فقال لها المركيز كلا ياجيلبرت بل انظرى فيها حالا .

ولا تتماهلى فى التصدق على مسكين

أجابت لست أريد ان أضيع دقيقة من الوقت الذى اختصصتك به

قال انت صالحة كريمة ياجيلبرت . . . وما برحت حسناء كذلك !

وجعل يتأملها معجباً بحسنها

أجل فقد بلغت الاربعين الا ان حسنهامازال يلفت اليها الابصار

فكان زوجها ينظر اليها ملياً ويقول نعم مابرحت حسناء ولكننى مشرف على الموت !..

يقول ذلك بلهجة قلق وأسف وحسرة ولهف

أما جيلبرت فطالعت عنوان الرسالة فاذا هو كما يأتى :

الى المركيزة دى سمروز

فتبسمت وقالت ان الرسالة لاتعرف من عنوانها ولعله عميل جديد .. فذلك خير لى وادعى الى الاحسان وماأشهى الاحسان الى انه ألذ مافي اليسار والحمدلله اذ لم احرم منه !

ثم افتضت ختم الرسالة وفتحتها وأخذت فى مطالعتها فاذا به قد اكفهر وجهها وتغيرت ملامحها ودعكت الرسالة بين يديها وقالت رباه .. رباه !..

ولبثت جامده ذاهلة مبهوتة لا تجسر على التلفت الى ناحية زوجها ..

فحزر انفعالها

وناداها قائلا ماذا يطلب منك الرجل المسكين ؟

فنبهها صوته الى حقيقة أمرها وأجابت بصوت لا يخلو من ارتجاف :

انه منحوس يسألنى صدقة ...

وتصاعد الاحمرار الى وجهها بدلا من الاصفرار السابق ذلك لانها كذبت !... وما زال يشق عليها الكذب وان طال عهدها به

ولم يشاهد المركيز اضطرابها فقال لها بلهجة صدق حقيقى :

لعل فقر المسكين يدعو الى الاسراع فى اسعافه ... فاذهبي ياجيلبرت ولا تدعيه ينتظر طويلا فهل فى الرسالة

عنوان مكانه ؟

أجابت نعم وها أنا ذاهبة طوعاً لامرك . نعم خير البر عاجله .. وسوف يأتيك روبر فيحل محلى بقربك ...

ودخلت الى غرفتها واطلقت العنان لانفعالها وكادت تخونها قواها على مرأى من زوجها

فانطرحت على مقعد طويل مضعضعة تقول أنا والله هالكة فى هذه المرة !.. وهيهات ان انجو !

على انها تماسكت شيئاً فشيئاً وعاودتها السكينة فتناولت الرسالة وقرأتها مرة ثانية والرعب ظاهر فى عينيها

واليك صورتها :

« أيتها السيدة

« يسهل علىّ ان اخبر زوجك بزيارتك فى هذا الصباح للمسيو أمورى درتيل المقيم فى شارع الاوبسرفاتوار

« ويسهل علىّ أيضاً ان أسلمه برهانا على ماييننك

وبين ذلك الرجل من علاقة غرامية . . ففى يدى رسالة كتبتها اليه بيدك وتاريخها ٢٠ يناير سنة ١٨٩١ وهى لاتبقى أقل ريب فى تلك العلاقة ...

« اذن أنا قادر على ايصال الاذية اليك . .

« أما اذا بسطت كفك وكنت سخية فاسكت . . ويكفينى لذلك مبلغ من المال قدره خمسة آلاف فرنك

« فاكتبى الى بعنوان

ا . ب . ذ .

مكتب البريد نمرة ١١٤

لتخبرينى بقبولك . اننا نتداول فى قضية تهمك من حيث السمعة والشرف والطمأنينة وتهمنى من حيث المال . وسر كسرك يعدل ذلك القدر الحقير . فما رأيك أيتها السيدة ؟

« اننى انتظر الى ما بعد الغد فاذا انقضى هذا الموعد اعتبر نفسى خارجا عن عهدة كلامى حراً أفعل ماأشاء

« ولك منى الف تحية

« خبير »

ولبثت جيلبرت مرعوبة ذاهلة

ولاح لها ان حروف تلك الرسالة ترقص بين يديها

ثم استجمعت شوارد افكارها

هالها انه يوجد رجل مطلع على شؤونها عالم بما فى فؤادها من هوى وعذاب . . . ينذرها بانباء المركيزدى سمروز عن زلتها التى كفرت عنها أشد تكفير

ولو فعل للحق بها عار لاتمحوه الايام ولقضى زوجها فى الحال

لأن مثل هذا السر اقتل من طعنة خنجر ومن رصاصة تصيب القلب فكيف به اذا أطلع عليه شيخ يعالج سكرات الموت

فكادت تجن من هول هذا الفكر وقالت كلا !.. لاينبغى ان يجرى ذلك . . سوف ادفع للرجل ماطلب وابتاع سكوته بالمال . . . ولكن ياللخجل وواذلاه !...

وارادت النهوض عن مقعدها فلم تستطع بل شعرت

بانخذال قواها من هذا النبأ الجديد الذى جاء به من يشهر بها تشهيراً ويضرب عليها جملا

فجرى دمعها حاراً على وجنتيها . بكت اسفاً وخجلا وحنقاً على ذلك الوغد الذى احتجب وراء كتاب غفل شائن وطلب منها ضريبة على مامضى من عارها

واذ ذاك قرع الباب وجاءت الوصيفة لتساعد سيدتها على الارتداء بملابسها

فتجلدت جيلبرت وتبسمت خيفة ان يشفق عليها شخص غريب شأن من كان عزيز النفس

فيالها من ابتسامة تحكى سائر ابتساماتها التى تتخللها العبرات ... انها ابتسامة شبح من الاشباح تتردد فيه بقية رمق أخير ... بل هى برقع الالم وكم مرة سترت به الزفرات والنحيب...

أيتها الابتسامة الكاذبة !

لانت أمر مظهر من مظاهر السرور لان وراءك عبرات يجول بها جولان الغموم وتجيش منها الغصص الباطنة الكامنة !

وبعد هنيهة مضت الوصيفة تطلب تحضير المركبة

وكانت جيلبرت قد تجلدت ووطنت النفس على امر رأت ان لا بد منه

رأت الضرورة قاضية عليها بالاسراع فى العمل وكم ذلك الفم بمفتاح من الذهب خيفة ان ينجز ايعاده الهائل .

على انها عزمت على مشاورة المسيو برترو قاضى التحقيق قبل ان تفعل

فأرادت ان تلقاه أولا وتسأله رأيه ووساطته بينها وبين ذلك الرجل المجهول الذى ينذرها ويتوعدها

على ان الرجل قد اتخذ التدابير .. فيجب عليها ان تحذو حذوه

فنظرت أيضاً الى تلك الرسالة فلم تجد فى الكتابة شيئاً غير مألوف يمكن ان يهدى الى الكاتب

ولاح لها انه اجرى يراعه على الورق بطمانينة وسكينة هائلة غير خائف من العقوبة

فهو لايخاطر بشئ بل هو فى أمن ودعة لعلمه انها

تجتنب الفضيحة وتشترى سكوته لامحالة

لكنها خافت من ان يبرز لها المستقبل مايزيدها ارتياعا . وهي ذات شرف ولها ولد عزيز هوروبر وأمام زوجها ساعات قلائل في هذه الدنيا . فلا مندوحة لها عن اجتناب كل مايمس شرفها وراحة زوجها ومستقبل ولدها

وما من سلاح بيدها تجرده على النذل الا الاحتقار ولا وسيلة تتخذها لاسكاته الا المال

فبالمال تدفعه وتدفع عنها العار ثم تحاول نسيان مامضى والصفح عمن أساء لعل الله يصفح عنها

الفصل العاشر

« السائلة الحسناء »

فنزلت المركيزة من بيتها الى الفناء حتى خرجت من الباب الكبير وفيما كانت تهم بالصعود الى مركبتها دنامنها شيخ محنى الاكتاف بالى الثياب يسألها صدقة ونظراته يدل على ضنك شديد شأن من تعود قرص الجوع لامعائه

فالقت اليه المركيزة قطعة فضية من النقود فغمغم قائلا عوضك الله خيراً منها أيتها السيدة الكريمة !

وفيما كانت تصعد المركبة وضع الصدقة في جيبه ناظراً يمنة ويسرة

ولما اختفت المركبة استوت قامته وزال ارتجاف اعضائه وتحول من الضعف الى القوة كانه ساحر فاتجه يمشى الى عطفة الشارع مشية فتى قوى البنية . وكان

هناك رجل ينتظره هو برموش اوشارلمان أو امبراطور الشحاذين

فسأله كم المبلغ ؟..

فاجابه انه صغير !

قال لاتهزأ بى فقد رأيت بعينى

أجاب لقد خدعك بصرك يابرموش واقسم لك على ان السيدة لم تعطنى شيئاً ... ولا فلساً واحداً

فقبض برموش بقوة على لحية الشحاذ وصاح به قائلا اتجسر على هذا الكلام ؟

فاذا بلحية الرجل طلعت بكف برموش . وقد انتزعها من ذقنه ولكن من غير ألم لأنها لحية كاذبة ... كاذبة كشيخوخته

وانما اكتسى تلك الثياب ودبره شيخ الشحاذين ورئيسهم الاكبر برموش فالبسه اللحية وعلمه كيف يتظاهر بالكبر وارتعاش البدن واختار له المكان واتفق معه على مشاطرة الارباح

وقد مضت أيام ولم يكسب قرشاً واحدا فراب برموش

أمره ولحق به يراقبه ويرصده من بعيد ورآه يتناول الصدقة من السيدة ثم سمعه كاذباً يأبى اعطاءه حصته

فقامت قيامته وهاج هائجه ووثب عليه يهزه بكلتا يديه ويصيح به ويلك هات الفلوس والا قتلتك !

واذا بالمارة قد أخذوا يجتمعون وداروا حول الاثنين

فقال ذلك المتسول هيا بنا الى مكان آخر ألا ترى الناس قد اجتمعوا علينا انى لاخاف الشرطة

فلما ابتعد أذعن المتسول لرئيسه وأعطاه بعض دريهمات وهو آسف

فقال شارلمان لابأس ... اما الآن فاذهب الى حيث ولا ترجع الى هنا . وقد اقلتك من مكانك عندى ومنذ الغد يكون فيه سواك يالص !

وانطلق يمشى مشية الخيلاء بعد ما وضع فى جيبه لحية المتسول

وغمغم يقول أما الآن فلنتعهد المواضع الاخرى

وقد كانت هذه الحادثة سبباً لطول تفكره أثناء سيره

وقد ساءته خيانة ذلك التلميذ . .

وفيما هو سائر أخرج من جيبه ورقة نظر فيها وهى جريدة له كتبها بيده وسرد فيهـا أسماء المواضع التى اجرها للمتسولين عنده وانها لمواضع صالحة للاستجداء فقال فى نفسه :

اذهب اولا فارى ماذا فعلت السائلة الحسناء

وكأنى به قائد عام يتفقد المعاقل والحصون

فتجاوز شارع ويليه الى ميدان بريز . هذا ومركبة المركيزة قد سارت فى تلك الطريق بعينها ووقفت بباب الكنيسة فنزلت جيلبرت ودخلت الى الكنيسة وركعت تصلى

ولبثت وقتاً طويلا وهى مسترسلة فى الصلاة ... تسأل الله رأفة بها وتفريجاً لكربها

فلما نهضت مشت عازمة على الخروج من الكنيسة فابصرت فتاة واقفة هناك باسطة يدهـا بالسؤال وهى ترعد من البرد وعليها أطمار رثة

فتوسلت اليها تقول الصدقة أيتها السيدة

وكان فى صوتها شىء من العذوبة يرقق القلوب وقالت

تصدقى على المسكينة بفلس واحد :

فوقفت المركيزة وقد أثر عليها توسل تلك الفتاة فنظرت اليها ودهشت من حسن صورتها كما راعها هزالها واصفرارها

وشأن تلك الفتاة شأن الازهار التى تنبت فى الظل فلا يظهر لها لون ولا تفوح منها رائحة طيبة الا انها زهرة لكنها أقرب الى الذبول منها الى النضرة والبهجة

ومن يراها يعلم انها معذبة تعيش بعيدة عن كل مسرة محرومة من كل ماهو ضرورى لها ... حتى من النظافة ...

فاهتمت بها المركيزة وتحرك الوتر الوالدى فى فؤادها وقالت لها ماسمك يابنية ؟

وسمعت الصغيرة هذه الكلمات وما أودعت من لهجة انعطاف فتبسمت على الرغم منها واشرق بصرها سروراً

انها تعودت سماع هجر القول والشتم والسباب أما الآن فقد سمعت صوتاً رقيقاً رخيماً يوجه اليها بلطف

حتى لا يخيفها

فتولاها الحياء ووقفت مطأطئة الرأس

فقالت لها جيلبرت تكلمي ما اسمك ؟

أجابت اسمى السائلة

قالت أليس لك اسم آخر ؟

أجابت لا أدرى أيتها السيدة وانما هكذا ينادوننى

قالت هل الذين ارسلوك لتتسولى هم اهلك ؟

اجابت نعم أيتها السيدة . . .

قالت وهل يضربونك ؟

اجابت نعم فى بعض الاوقات... وذلك حين لا اجيئهم بنقود كافية

قالت اذن فطيبي نفساً انك اليوم لا تضربين . . . فخذى يا بنية

ونفحتها بقطعة ذهبية

ثم قالت لها :

هل تأتين مراراً الى هذه الكنيسة ؟ يلوح لى اننى لم أرك قط

أجابت هذه أول مرة

قالت ولكن الا ترجعين الى هنا ؟

اجابت ربما

قالت اننى أجيء الى هنا غالباً فاحب ان اجدك هنا فاخبرى والديك اننى أريد ان تلبسى ماهو خير من هذه الاثواب البالية ولاجل ذلك اعطيتك هذه الليرة واخبرى اهلك اننى سأهتم بك

اجابت نعم ياسيدتى . . . انت كريمة صالحة . . . واشكرك . . .

قالت نعم سوف اهتم بك أيتها الصغيرة المسكينة انك لحسناء لطيفة فارجعى يوم الاحد القادم . فهل ترجعين ؟

اجابت سوف اجتهد فى ذلك ايتها السيدة... وليس الامر لى أنا

قالت صدقت فالامر لاهلك . فلا تنسى ان تخبريهم باننى راغبة فى مشاهدتك واعلمى انهم لا يندمون وانت كذلك لا تندمين

وكانت الشمس تحتجب وراء السحاب والهواء يعصف فاخذت الفتاة ترتجف

فقالت لها المركيزة هل أصابك البرد ؟

فاومأت نائلة تقول نعم

وللحال مدت المركيزة يدها الى عنقها فخلت عنه فرآء جميلا يبعث الدفء والحرارة فطوقت به عنق السائلة وكتفيها وقد بهتت الفتاة المسكينة وتهلل وجهها وظنت انها فى حلم لا فى يقظة

ثم ابتعدت عنها تمشى على مهل

وكانما تبتعد برغمها أو كان هناك جاذباً خفياً يجتذبها الى الوراء

وانثنت بعد خطوات قليلة لترى وجه السائلة المهزولة فوجدتها تتبعها نظرات تطفح شكراً وامتناناً والدمع يغشى تلك النظرات . بل كانت تطفح اعجابا كذلك واحتراماً

وتمنت لو استطاعت ان تعلن شكرها وتعترف على رؤوس الملاء باجلالها اياها وتعظيمها وانعطافها عليها

الا انها لم تتجرأ على ذلك فان الحياء والخوف عقد لسانها ولعل ما لقيته من الذل والمهانة فى حياتها حال دون ماتتمنى وتود

لكن عينيها تكلمتا وكان كلامهما فصيحاً بليغاً

وقبل ان تصعد جيلبرت الى مركبتها نظرت الى الفتاة أيضاً نظرة تشتمل على معنيين أو عاطفتين احداهما عاطفة الوالدة وعاطفة المحسنة التى يلذ لها الاحسان.

ثم سارت بها المركبة وهى تقول وارحمتاه لك أيتها السائلة الحسناء !.. ما أرق نظراتك وما أكثر تمسك واحر قلباه لاشك ان نائلة فى سنها أو تكاد تقاربها سناً !.. فهل هى أسعد منها حظا عند الاشقياء الذين اختطفوها ؟ لا يعلم ذلك الا الله !

وبعد دقيقة وصلت المركبة الى شارع مالرب

فلم تكد تحتجب هناك حتى برز برموش من مكمنه وكان يشاهد نائلة من بعيد وقد رأى المركيزه دى سمروز تحدثها

أما الفتاة فلم تكن تفكر فيه وقتئذ وانما كانت تنظر الى القطعة الذهبية التى بيدها وتمتع البصر بذلك المنظر الذى كان غريباً بالقياس اليها

واذا بالقطعة قد اختفت لان أصابع برموش اختطفتها وقال ما أضيع هذه العطية فيك انما انت صفر ولكنك تأتين بالمئات

ثم تفرس فى السائلة وقال لها :

ماذا قالت لك السيدة الحسناء ؟

أجابت انها حاولت تعزيتى ...

قالت تعزيتك عن أى مصاب ؟

أجابت عن تعاستى وشقائى ...

فرفع كتفيه وهز رأسه ثم قال وما ذا الذى قلته لها انت ؟ كأنى بك طفقت تشكين لها وتتذمرين ؟

أجابت لا

قال احسنت فهل تكلمت عنا ؟

اجابت لا

قال ويل لك اذا تكلمت عنا يوما !.. انى لا أود ان

تستعطفك مثل تلك السيدة ومهما تكن عطيتها حسنة فلست أريد ان يتجدد حديثك معها اذن لا تعودين الى هنا أبداً وسأختار لك موضعاً آخر !

ثم هز ساعدها بعنف وقال قومى لنرجع الى البيت واختطف الفراء وقال انه يصلح للبيع وما أظن ثمنه يقل عن عشرة فرنكات

فنهضت نائلة وتبعت مولاها العاتى وقد تولاها شجن مفاجىء لعلمها انها لا ترى تلك السيدة أبداً

فقالت لنفسها :

من تكون تلك الغادة التى تجبر كسر القلوب بكلمة وتملأ النفس تعزية وسلوى بابتسامة ؟

وكأنها رأت رؤيا واردة عليها من عالم غير هذا العالم .. من عالم ليس فيه توبيخ ولا ضرب ولا تعذيب ولا اكراه على استجداء

ففكرت فيها وقتاً طويلا وهى تائقة الى لقائها آسفة على فراقها ... وخيل لها ان السعادة مرت بها ولامستها ثم ذهبت بالسعادة كاتمة اياها فى ثوبها المخمل اللامع ...

الفصل الحادى عشر

صاحب الجعل

ذهبت المركيزة دى سمروز الى دار الحكومة فلما وصلت اليها سرحت البصر وراءها حتى تكون على ثقة من انه لايوجد من يتتبع خطواتها كالعادة

ثم دخلت الى مكتب قاضى التحقيق وقد دهش قليلا من زيارتها الجديدة وليس بينها وبين القديمة عهد بعيد ولما رآها متأثرة قلق واهتم بها وعظم اهتمامه حين اطلعته على نبأ الكتاب الغفل الذى تلقته فى ذلك اليوم

فقال لها كيف وصل اليك ؟

أجابت جاء به رجل لايعرفه خدمى

قال ماهو بصاحب الجعل بعينه ولكنه شريكه أو معاونه ومهما يكن من أمره فهو لص

أجابت انما بادرت اليك أيها الصديق لاستعين بك

على أولئك الاشرار فتسعفنى فى هذه الشدة الجديدة التى نزلت بى

قال اصبت فى اعتمادك علىّ أيتها السيدة فقد مرت بى أمور عديدة شبيهة بهذه القضية المحزنة ودعيت لحل مافيها من الاشكال ... فعندى بعض التجربة والعلم

أجابت انى اتكلت عليك فما ذا يجب علىّ ان افعل

قال تقبض على النذل

قالت ولكن اخشى ان ينذرنا بالفضيحة والتشهير ؟

قال سوف نرى فان فى الوقت متسعاً للمعاملة . . . من يكون هذا اللئيم ؟ الا يخامرك شك فى أحد ؟

أجابت لا . . . على انى ذهبت بالامس الى منزل المسيو درتيل وكنت قد عقدت النية على زيارته بعد تردد طال وقته وماذلك الا لاسأله مساعدتنا فى البحث عن نائلة . . لعله يضم جهده الى جهدك ويجمع قوته الى قوتك وينصرف معك الى ايجادها . . فوعدنى بذلك وعد صادق وانى على يقين من انه يبذل روحه فى هذا السبيل ولا يمكن ان يكون قد رآنى احد ذاهبة الى بيت درتيل الا رجل واحد .

قال من هو ؟

أجابت هو الذى يرصدنى ويترقب خطواتى ويتجسس حولى ويختبىء ورائى مع ملازمته اياى كأنه ظلى وغرضه اطلاع زوجى المركيز على كل ما أفعله وأخباره عن المواضع التى أقصدها وأعنى به صابوريو كاتب سره الخصوصى وجاسوسه السرى ...

قال ألم تلاحظيه أمس ؟

أجابت كلا ومنعنى من ذلك ما كنت أجد من الاضطراب فى نفسى ثم انه حاذق ماهر محتال فيعرف كيف يحتجب عنى ...

قال اذن دعينى أيتها السيدة افعل ما يجب وما يلائم الحال

أجابت نعم ولكننى أناشدك الله أن تحذر الفضيحة كل الحذر انى اشفق على زوجى ... وولدى !... ولا أرى بأساً من سد فم الرجل بقبضة الذهب التى يطلبها منى . .واجتهد لعلك تتوصل الى منع حدوث مثل ما حدث في المستقبل .

قال سأفعل ما أستطيعه مراعياً كل ما ذكرت فكونى على تمام الثقة. قالت ولا بد من الاسراع . فالضرورة قاضية والموعد قريب بعد غد .

قال اطمئنى فسوف اسكت الرجل قبل حلول الموعد

* * *

وفى نحو الساعة العاشرة من اليوم التالى دخل رجل الى مكتب البريد فى شارع سن مارتين نمرة ١١٤ وهو مكتب محاذ لمحطة الغرب فوقف ينتظر حتى يتسنى له الاستعلام أو طلب رسالة واردة له

وكان الرجل دفير خادم حانة ديبو وشريك صابوريو

وهناك مسافرون وخدم تجار جاؤا ليتناولوا رسائلهم ورجال ونساء من كل صنف وطبقه

فلما حان الوقت تقدم دفير سأل عن الرسالة التى ينتظرها طالباً عنوان ا . ب . ذ

فبحث الموظف ثم سلمه غلافا تناوله منه بلهفة وسرعة وللحال رجع عن موقفه ففتح الرسالة

وتولاه انذهال وضح على ملامحه لان الغلاف كان

خالياً.

فثار ثائرة وقال ما معنى هذا ؟

ولم يتسع وقته للتفكير لان يداً قد استقرت وقتئذ على كتفه وقال قائل تعال معى

فانثنى مدهوشاً فابصر شرطياً وراءه آخر فقال له الى أين ؟ .. ولماذا ؟..

أجاب الشرطى لا تطل فنحن من رجال الحكومة وسوف تعلم انه يحق لنا ان نقودك الى المخفر

فامتقع لونه ولم يحر جواباً

واذا بمركبة واقفة فصعد اليها الشرطان ومعهما شريك صابوريو وقال أحدهما للحوذى اقصد بنا دار الحكومة

وفى أقل من نصف ساعة كان دفير في مكتب المسيو برتروماثلا بحضرته

وكان قاضى التحقيق وقتئذ منفرداً فجعل ينظر الى الشاب الواقف أمامه ودفير غير مكترث الى ان قال له:

هل انت كاتب هذه الرسالة ؟

وأراه الرسالة التى يعرفها القرآء وعليها توقيع «خبير»

فأجابه نعم أنا كاتبها

قال هل لك من شريك في عملك ؟

أجاب لم اكتب الرسالة لحسابى وحدى انما أنا واسطة خير

فرشقه قاضى التحقيق بنظرة صارمة وقال كنت حاسباً هذا الحساب

أجاب انما يفعل المرء ما يوفق اليه

قال ما اسمك

أجاب أى فائدة من أخبارك باسمى ؟

قال سوف نرى فى ذلك فهل علمت ان عملك ذو شأن خطير ؟ انه احتيال يعاقب عليه القانون

أجاب أدرى ذلك

قال ويجب ان تدرى أيضاً ان الحكومة لا تتغاضى عن المحتالين . فالسجن أمامك

فضحك دفير وقال ماذا يهمنى السجن ؟ اولا أخرج منه فى أحد الايام ... انى مطمئن القلب عالم مع ذلك ان المسألة لا تصل الى هذا الحد

قال مامعنى كلامك ؟

أجاب معناه ان السيدة التى أوصلت اليك هـذه الرسالة يهمها ان لا تفتضح ولا يشتهر خبرها

قال أنت وغد خسيس !

أجاب غير مكترث !

انى على يقين من ان تلك السيدة الغنية بالمال تدفع المبلغ المطلوب حتى تأمن شر العاقبة ... وهذا أمر لا شك عندى فيه

قال ماذا عسى تفعل اذا لم تعط ما تطلب

اجاب يصل خبر هذه الرسـالة سريعاً الى المركيز دى سمروز

قال اذن فاعـلم انى عازم على القاء القبض عليك ان المادة ٤٠٠ من قانون العقوبات تقضى بحبس من يستخدم مثل احتيالك مدة من سنة الى خمس سنين !

فشبك دفير يديه على صدره وقال عليك بتلك المادة عليك بها ولا تمهل . اسرع فصفد يدى بالحديد !. واذ ذاك لا يبقى مجال للصبر فان صديقى الذى ينتظرنى بعد

ساعة وينتظر المال اجيئه به سوف يقف على الحقيقة ويعرف ما يجب أن يفعل . وثق ان الامر لا يطول .

قال بوقاحة غريبة :

ولا يفوتك ياسيدى ان الخبر لا يقتصر على المركيز وحده بل ينشر فى الجرائد التي لا تتردد عن النشر .

وسوف تروى قصة تلك السـيدة الحسناء مع عشيقها وتدرج رسائلها اللطيفة . ولعمرى ان خبراً كهذا يشتهى الناس مطالعته فتتداوله الالسنة ويدور ذكره فى المحافل الباريسية ومتى قلنا ان تلك السيدة من الطبقة العالية فى الاهلين كان للخبر اهمية عظمى !

فاحتدم المسيو برترو غيظاً ولم يكد يتماسك من الحنق والاشمئزاز ولكنه ذكر توسلات المركيزة دى سمروز فتجلد اذقالت له اناشدك الله ان تحذره الفضيحة كل الحذر انى اشفق على زوجى وولدى

ولو شاء لتلفظ بكلمة واحدة او اشار اشارة واحدة وذلك الرجل الخسيس يغدو بها في غيابة السجن .لكن تلك الكلمة اوالاشارة تلحق بالمركيزة عاراً فاضحاً وتكون

سبباً لخزيها ومعرة دهماء تلتصق بها وتسقطها من أعين الناس

وكل ذلك من غير ما فائدة لان لذلك الرجل الذى يتاجر بمصيبة غيره شريكا هو صاحب الجعل المجهول المطلق السراح القادر على ان يفعل ما يشاء غير هياب ولا مستحى واذا لم تستحى فافعل ما شئت !

فلا سبيل الى طول التفكر

فاضطر قاضى التحقيق الى اسكات سريرته والاذعان الى ما توجبه الفطنة ومصلحة مدام دى سمروزوشرفها فقال بعظمة :

لا بأس فارنى البينة التى تريد بيعها

فأخرج الرجل من جيبه غلافاً يحوى رسالة وقال انها رسالة قديمة غرامية كتبتها المركيزة من قبل الى المسيو امورى درتيل

ونشر دفير الرسالة على مرمى طرف قاضى التحقيق حتى يمكنه من معرفة الخط

فقال له :

هل يوجد معك غيرها من الرسائل !

أجاب نسخة منها الا ان هذه موقع عليها فهى غالية الثمن .. ولك ان تشتريها اذا كنت وسيطا بيننا وبين السيدة ..

وظل واقفاً على مسافة كأنه خائف ان يفاجأ مفاجأة بمن يختطف الرسالة من يده

قال قاضى التحقيق كيف حصل شريكك عليها

أجاب أما عن هذا فلا تسل اننى لا ادرى

فاخرج المسيو برترو محفظة وابرز رزمة من الاوراق المالية وقال للرجل تقدم

ثم وضع الاوراق على طرف المكتب ووقف بعيداً عنه وقال له ضع الرسالة على ذلك الطرف ..

فاطاع الرجل فتناولها بملقاط طويل ونظر فيها نظرة ثم القاها الى الموقدة

وهكذا تناول الاوراق وسلمها للرجل

فدس دفير تلك الاوراق فى جيبه بسرعة خافضاً رأسه فلما رفعه رأى المسيو برترو مشيراً الى الباب باصبعه آمراً

اياه بان يخرج مطروداً

فاراد ان يجيب على تلك الاهانة بكلمة بذيئة غير ان المسيو برترو مشى اليه بعينين تتقدان سخطا وقال له

اخرج من هنا أيها النذل الخسيس واللص الوقح أما والله لو ان الامر يتعلق بي لما تركتك الا سجيناً تبيت في حبس ضيق . لقد كنت عارفا ماذا تفعل عندما ضاربت هذه المضاربة الدنيئة ... فاخرج من هنا أيها اللص !

فتقهقر دفير وانصرف مهاناً مرذولا الا ان في فؤاده ناراً تغلي من حقده على قاضي التحقيق

فلما وصل الى الباب فتحه من غير ان يجسر على رفع بصره وفر كأن الشيطان يتتبع خطواته

* * *

وكان يمشي مسرعاً وقد زرّ ثوبه الخارجي على الاوراق المالية كما يفعل من يسرق كنزاً ويخبأه في جيوبه

فقصد الى حانة ديبو فلقي صابوريو هناك فبدره بقوله ماذا جرى !

أجاب لقد نلنا المرام

قال أين خمسة الآلاف فرنك !

أجاب معي

قال هل لقيت معاكسة !

أجاب قليلة .. غير ان دفع المال كان أمراً مقرراً . على انهم توعدوني ما استطاعوا

وحدثه بما كان من قاضي التحقيق وصابوريو يحمر ويصفر في اثناء المحادثة

فلما انتهى قال له أين المال !

أجاب معي

فتناول صابوريو المبلغ ونفح دفير بمائتي فرنك على سبيل المكافأة

ثم دنا من صاحبة الحانة

وهو لم يفارقها الا قليلا منذ ما حدثته عن مالها المجموع وقد وطن عزيمته على توطيد صلات الولاء معها حتى يغدو اقرب الناس اليها

واستمر على ذلك والمرأة ديبو تراه عندها في كل هنيهة بحجة انه وجد طريقة لاستثمار نقودها أو انه يريد

الاستعلام أو يحدثها عن نقودها ويأتي بالاسهاب كانه يبذل الجهد فى خدمتها ثم يدفع ثمن الشراب من غير حساب حتي غدا رجل الحانة المحبوب والعميل العزيز والصديق الحميم

لقى من صاحبة الحانة خطوة فمالت جوارحها اليه حتى لم تعد قادرة على الاستغناء عنه

فكانت تكاشفه باسرارها وهو يكثر لها من النصح حتى تعظم ثقتها به

وما ذلك الا لان صابوريو دبر تدبيراً خفياً ورسم خطة للعمل

وانصرف تصوره الى القدر الكبير الذى تمتلكه المرأة العجوز فلم يكن يأكل أو يشرب أو ينام الا والثلاثون الف فرنك نصب فكرته

فكان يحوم حول الكنز كانه حريص عليه ان تمتد اليه يد غير يده

هذا وفكرته تطبخ الخطة التي يريد انتهاجها حتى تنضج على مهل

الفصل الثاني عشر

الاجل

دعي في ذلك اليوم الطبيب بلتيمور الى عيادة المركيز دى سمروز فكان واقفاً بباب القصر قبيل الساعة الرابعة بعد الظهر

وانما دعاه المركيز لان العلة اضنته واثقلته ونهكت مع الهم جسمه

وكان الطبيب لابساً افخر ملابسه فصعد فى الدرج الى الطبقة الاولى وأمامه خادم من خدم القصر يسير به الى قاعة الانتظار

فجلس ريثما يذهب الخادم فيخبر المركيز بقدومه فما استقر فى مقعد ولكنه اخذ يطوف فى تلك القاعة ويفحص ما فيها من الاشياء النفيسة والتماثيل القديمة والنقوش البديعة ويتحسر ويتلهف ويقول لعمرى انها

بدائع اجتمعت فى هذا البيت ولو وصلت الى « الهميان السياسى » لامكن استجلاب قدر كبير من المال بها !

ولمع بصره طمعاً

ثم أحس بقدوم قادم فغير ملامحه واتخذ وجهه صورة رجل بعيد عن المنكرات . فدخل الخادم ووقف على عتبة الباب قائلا ان مولاى المركيز ينتظرك أيها الطبيب

فتبع الخادم وبعد بضع ثوان ادخلوه الى حجرة المريض وكان متمدداً على كرسيه الطويلة لا يقوى على حركة فرد تحية الطبيب بايماءة من رأسه

ثم تجلد حتى تمكن من الكلام فقال لقد دعوتك أيها الطبيب فى هذه الساعة التى ليست وقت عيادتك لى لاننى فى حاجة الى ان اراك وحدى من غير ان يكون معنا ثالث

اجاب انى طوع أمرك أيها المركيز فماذا تطلب ؟

قال ان زوجتى خرجت من البيت وولدى غائب فاطلب منك ان تخاطبنى بحرية فكر عن حالتى لأنك ربما لا تجسر اذا كانا حاضرين ههنا على ان تجاوبنى على

السؤال الذى القيه عليك

قال ماهذا السؤال ؟

اجاب اصغ ... ارجو منك ان تخبرنى بالحقيقة من غير مؤاربة أوتورية اواحتراس فاننى لا اريد منك تلطفاً فى القول جرت به عادة الاطباء مع المرضى ولا مراعاة عاطفة او امر من الامور

قال انى مطيع لك ايها المركيز

أجاب انى لشاعر بما يجول فى جسمى ... ان بى داء عقاماً لا يرجى برؤه ابداً واشعر بثقله وضعفى ودنو اجلى مثلى فيه مثل السراج الذى نفذزيته ... ولكننى راغب منك فى ان تذكر لى ماتعلمه وتخبرنى عن عدد الاسابيع والايام الباقية لى من عمرى او الساعات ...

وهنا صمت المركيز لانه كان عاجزاً عن الاسراف فى وقته او فى كلامه

ولكل وقت عنده قيمة ذات شأن ..

فانتظر جواب الطبيب بعد ما ابان له ما يريد منه فلاحظه بلتيمور وقد دهش من قوة عزيمته على ما

به من ضعف الجسم وانتهاك القوى

وفيما هو يحاول ان يعرف سبب تلك العزيمة اخذ يطالع فى وجه العليل مايستعين به على الجواب المطلوب فدنا منه وأخذ يفحص جسمه ملياً

وكان المركيز صامتاً صمتاً بعيداً عن كل انفعال والطبيب مستمر من فحصه وكأنه غير حافل به ساكن تبدو عليه ظواهر الدعة حتى كان ليس المراد البحث فى حياته اوموته

ثم رفع بلتيمور رأسه وكانت هيئته خطيرة

فالقى عليه العليل نظرة مستطلع ثم قال له : تكلم ... ماذا بقى لى من اجلى ؟

فنظر اليه بلتيمور وقال اننا فى الساعة الرابعة ايها المركيز ... وغداً فى مثل هذه الساعة تفارق دنياك

فلم يقطب العليل وجهه بل قال بصوت خافت :

لا بأس فقد عرفت ما اريد واشكرك ايها الطبيب وأودعك !

فنهض بلتيمور لينطلق وقد انتهى عمله فحيا العليل

وانصرف وهو يقول لا يهمني ان كنت قد اسأت اليه فانه ذو عزيمة كالفولاذ وان اظله حمامه وذهبت ايامه

ثم قال يالله من ارث جسيم !... قد علمت الآن معنى تأثير الخبر على بنيتنا الحسناء فلعلها تريد ان تصتبي الوارث. ميراث جسيم والله !

ولما رجعت جيلبرت عند المساء وجدت المركيز اشد ضعفاً فقال لها :

لقد كنت انتظرك يا جيلبرت فاجلسى بقربى ...

قالت هل تجد فى جسمك ضعفاً زائداً ؟

اجاب نعم .. وغداً فى مثل هذه الساعة . اقضى نحبي . فاردت مخاطبتك قبل الوفاة .

فارتعدت جيلبرت ارتياعاً لان الموت يروع ولاسيما اذا اصاب من حولنا وذلك لما يحيط به من الاسرار الخفية والموت يوشك ان يصيب رجلا لم تحبه جيلبرت قط الا ان قرب حلوله اثر عليها تأثيراً مشؤوماً

ومن الغريب ان هذا الحيوان الناطق يحس بالموت مفاجئاً للعليل مهما تطل مدة اعتلاله ومهما رأى من

مفاجآت المنية لاصحابه وجيرانه ومن يعرفهم ويكثر انكاره للموت عند ما يصيب اقرب الناس اليه بعد ان يكون قضى دهراً يعتني به ويمرضه شفوقاً عليه

كان المركيزدى سمروز محباً لجيلبرت .. أفلا ينبغى ان تأسف عليه بالنظر الى ذلك الحب ؟

انه أضاع هواها بحبه لذاته ... لكنه زين لها السجن المذهب الذى تعذب فيه كما عذبها

هل كان براً بها ؟ كان قليل البر بها

لكنه مع ذلك كان مستقيما حتى فى اشد ساعات غيرته وغرامه

اتخذ جيلبرت معبودة له أحبها ولم يكن فى ذلك حكيما لأن ذلك الهوى المبنى على انقاض هوى آخر لم ينبه فيها أقل عاطفة ...

صير زوجته ملكة فى أعين الناس الا ان التاج الذى تحمله كان شائكا كأنه اكليل من الشوك

ولقد افلحت وفازت على اترابها فى مضمار العظمة والجمال وكان زوجها شديد الاعجاب بها ..

ولكن واأسفاه كان كل ذلك باطلا لا نفع فيه ... فان جيلبرت لم تعرف من السعادة الا ظواهرها وسرور المرأة بالحفلات ليس الا وهماً

ذلك كل ما استطاع المركيز ان يعطيه زوجته وانما كان مفتوناً بها يهواها هوى يقرب من الشراسة ... ويود ان يحجبها في حبس لا تخرج منه ولا تقع عليها الابصار

اما جيلبرت فلم تنقم عليه انه اشقاها باقترانه بها وصفحت عن غيرته الوحشية وطرقه فى تجسس احوالها وتناست خطأ الاقدار التى قضت عليها بأن تكون زوجته

ذلك ما كان يتردد فى نفس جيلبرت ساعة دنو اجل زوجها

تلك عاطفة ممتازة عطفتها على الرجل الذى وهب لها اسمه النبيل وثروته الجسيمة

ولعلها كانت نادمة ايضاً لأنها لم تستطع اجتياز الطريق التى رضيت باجتيازها معه فان الهوى الشديد خامرها وظفر بيمين الامانة والوفاء بل ظفر بالقضاء والشرف ... وانه لاقوى من كل شيء في العالم !

فلبثت صامتة ممتقعة اللون مروعة

بلى فقد ندمت ندماً شديداً على زلتها وعظم تحسرها حين رأت زوجها مشرفاً على مفارقة دنياه

وكان جالساً أو منطرحاً على كرسى كبير جامداً لا حراك به ولم يبق من أثر للحياة الا فى عينيه ويكاد نورهما ينطفئ الى الابد

على انه لم يفارقه رشده وان فارقته قوته بل كان على اتم حالة من الادراك والتعقل وكأنما كل ما كان يمتلكه من بسالة وقوة قبل المرض قد انحصر فى دماغه

فظل عقله كما كان من قبل فقال لها .

ادعى لى ولدى روبر فاننى أود ان اراه ايضاً وأكلمه

فنقلت جيلبرت ذلك الامر الى خادم ثم عادت الى مكانها جاثية قرب المريض ممسكة يديه الباردتين

وبعد هنيهة دخل الشاب روبر فقعد بقرب أبيه ولثمه بحنو وحاول ان يوليه أملا وشجاعة

فلم يتلفظ الشيخ بكلمة لكنه قطب جبينه ألماً وحزناً حزن لانه راحل عن الدنيا رحيلا لا اياب منه ولانه

مفارق من يحب وتارك هذه الارض التى لم يذق فيها طعم الراحة والهناء !

فكان فؤاده يخفق وتولاه شعور غريب ...

ثم أخذ ينظر الى زوجته وولده ...

وكانت نظراته تدل على كآبة وضنك لا يوصف بلسان

واذا بدمعتين قد انسكبا على خديه الشاحبين فاضطرب ابنه الكونت ووالدته

ثم خفض المركيز اجفانه كأنه يريد ان يجمع شوارد فكره ويخفى عواطفه

وبعد هنيهة رفع بصره وقال لقد دنا اجلى ...

وساد السكوت بعد هذه الكلمات الثلاث كأنها القيت على قبر

فقال المركيز لقد دنا اجلى واشعر بالبرودة تتمشى فى مفاصلى وعظامى وانها البرودة القبر ... تتصاعد ... تتصاعد بسرعة :.. فاذا بلغت القلب قضى الامر ...

فانزعج روبر وأراد ان يحمله على الطمأنينة وهم بالكلام

فاشار أبوه اشارة وقال انى مفارق هذه الدنيا وأنا آسف على أشياء كثيرة .. واشق ماعلىّ انى راحل عنكما ... انت ياولدى وانت ياجيلبرت ...

وهنا خفت صوته من شدة الجزع والتحسر ثم قال اقتربا الىّ ... اقتربا أيضاً ...

فاشاح روبر بوجهه حتى يكفكف دمعه ويمسك زفرته !..

فقال له :

لاتبك ياولدى العزيز ان الموت نهاية كل حى ... وهو المحطة الاخيرة من محطات هذه الحياة ... فلا تدعنى اذهب مزوداً بالكآبة بل كن باسلا ... وانت ياجيلبرت ... تدرعا بالصبر والبسالة كما اتدرع بهما الآن

ثم قال وهو يتبسم تبسما شجياً :

اليس من العدل ان يرحل عن هذه الدنيا من كان مثلى أكبر سناً ؟.. ان القانون الطبيعى يقضى بذلك فلا بد من الاذعان والتسليم

وهنا حاول الالتفات الى زوجته وقال لها مازلت

ياجيلبرت صبية .. وما زلت بديعة المحاسن كما كنت قبلا ... ولعلك تتزوجين يوما ... ولقد وددت ان ... كلا فلست أريد الا ان يصفو عيشك ولك متى قضيت نحبي ان تفعلى مايروق لك لان الموت يحل كل رابطة

تلفظ بهذه الكلمات بأسف وحرقة ظاهرة ثم قال لروبر واما انت يا ولدى فأصغ الىّ الآن .... انك وارث ثروة جسيمة ... جسيمة جداً .. فأوصيك بالمحافظة على الشرف خصوصاً ... شرف اسمك واسرتك !.. وانما انت تحيي فى هذه الدنيا للشرف وبه وفكر فى أبيك احياناً ...

قال آه يا ابتى !.

قال عليك بحفظ تذكارى فانى راحل ونصب عينى شخصك وشخص أمك أتزود منكما هذه الرؤيا .. وأتمنى لكما أن تعيشا عمراً طويلا على دعة وهناء وسعادة ..

وهنا غير لهجته وقد كادت تفارقه القوة الاخيرة فقال بصوت خافت جداً :

أني أعهد اليك ياجيلبرت روبر . . فهو فتى . . وفي أشد الاحتياج الى نصائحك ومعونتك . . فعدني أن تلاحظيه بعين العناية والارشاد دائماً . وان تزوجت بعد زمن . .

قالت اقسم لك على ذلك

واراد المركيز ان يتكلم أيضاً لكنه لم يقو على النطق وخذلته قوته

فامسك يدى روبر وجيلبرت وظل وقتاً طويلا ممسكا اياهما وقد وضعهما على صدره وأغمض عينيه ولبث جامداً على كرسيه الطويلة

فانحنى روبر وهو منزعج يقول لنفسه لعله يقاسى النزع ؟ . . .

ولكنه احس بخفوق قلبه

وبعد بضع دقائق فتح المركيز فاه وتحركت شفتاه وطلب ان يؤتى بقسيس ...

الفصل الثالث عشر

عاشق يانينا

فى الساعة الحادية عشرة صباحاً اقبل رجل تلوح ملامح الاشراف على لباسه فقرع باب منزل البارونة بولنسكا

ففتحت له الوصيفة وحيته احسن تحية

فقال لها هل نهضت سيدتك ؟ . .

أجابت كلا فانها رجعت بالامس من الملعب متأخرة

قال هل ذهبت الى الملعب ؟

اجابت نعم وكان معها الطبيب بلتيمور

فسرّ الرجل هذا الجواب وقال فى نفسه :

ما اكرم هذا الصديق ! . فانه يعتنى بعشيقتى اثناء تغيبي

ودخل الى البهو لاحقاً بالوصيفة



﴿ المركيز ﴾

« روبير دي سمروز »

فلما ذهبت لتنبيء البارونة بوصوله انتهز الفرصة فوقف الى مرآة هناك يصلح ربطة قميصه وينظف ملابسه لانه كان قادماً من سفر بعيد . من لوندره

وكان هذا الرجل جاك نورتون بعينه لم تغيره الاعوام التي أتت عليه منذ ماغادرناه في العاصمة الانكليزية

نعم كبر وكثر الشعر الابيض في رأسه غير أن الخضاب المتقن كان كفيلاً له بمخادعة عارفيه وقد أطلق لحيته ولا ندري اذا كانت حقيقية او مستعارة الا انها كانت ملائمة لوجهه

وجملة القول ان ظواهره ظواهر سيد عظيم او ذي ممتلكات كثيرة يعيش من ريعها على سعة وفي أصابعه خواتم عديدة تلفت اليه الابصار

فلما انتهى من ملاحظة شخصه على المرآة جلس وللحال انقلبت سحنته وقطب وجهه وقال في نفسه أترضى يا ترى بما اريد ؟

ولبث مطرقاً كئيباً كثير التفكر

واذا به قد شعر بقدوم نينينا فرفع رأسه وتبسم لها

وقد رآها واقفة امامه

ولم تصلح شعرها كما ينبغى بل بادرت الى لقائه مكتفية بأن القت حراماً على كتفيها

فتأملها بوله وشغف وبسط اليها يديه فجذبها اليه وقبلها بلهفة وشوق مطبقاً عينيه ليزداد تمتعاً بشذاها الطيب

فتركته يفعل غير حافلة ولا مكترثة لقبلاته

ثم انفلتت تقول له :

لقد كنت احسب انك لن تعود ايها العزيز . فقد تأخرت خمسة ايام عن موعدك

قال ألم أنبئك عن تأخرى فى أول رسالة ارسلتها اليك ؟ فقد كان يستحيل علىّ القدوم الى هنا فى الموعد الذى اردته

قالت لماذا !

أجاب لامر وجب علىّ النظر فيه ريثما يتم وكان ذلك من الضرورة بمكان

فجلس وقال ان لك وجهاً مشرقاً بنور الصحة والجمال

افلا تجدين نفسك كذلك ؟

أجابت بلى

قال ألا ينهك جسمك السهر الطويل وكثرة التردد على الملاعب ؟

أجابت انى اعبد الملاعب عبادة وقد كنت تحرمنى اياها !

قال لم اقصد الا خيرك

فهزت رأسها وأجابت اننى اشتاق التمثيل وكل ما يتعلق به من المؤثرات ...

أجاب ادرى ذلك وادرى أيضاً انك قضيت ليلة البارحة فى الملعب مع بلتيمور

قالت انت حسن الاستطلاع ولك شرطة حاذقون

أجاب لا تتكلمى عن الشرطة فان وصيفتك سيلين انبأتنى عنك .

قالت العلك غيور ؟

أجاب ما كنت لاغار عليك من بلتيمور ...

قالت فممن تغار علىّ ؟

أجاب لست أغار من احد فى هذا الوقت

قال أما بلتيمور فان لم أكن على ثقة من صداقته فلى معه شؤون اعرفها ولو شئت لابعدته عنك ولكننى لاأشاء ...

قالت ان بلتيمور صديق لى فكن مطمئن القلب

قال انى أعرفه يعشق قصبة التدخين والكحول دون النساء وهو أميل اليهما فاذا وجدت اجمل امرأة فى العالم لم يصب اليها كما يصبو اليهما

اجابت صدقت ولكنك تدرى انى لولاه لسئمت عيشة الوحدة والانفراد

قال أفى باريس يوجد من تشكو وحدة وانفراداً ؟!

أجابت نعم فى باريس

قال الا تعلمين انه يصعب على عاشق بعيد عن فاتنة لبه ان يعلم انها راغبة في التلهى والتسلى

اجابت انت قلت . ولعمرى ان الغائب مخطىء فى تغيبه . ولكن يمكنك ان تطمئن على والفضل لصديقنا بلتيمور وهو خير صديق وناصح حكيم شفوق ثم انه

اخبر الناس بمواضع اللهو والانشراح فهو دليلى الى الملاعب ومواضع الالعاب السحرية وميادين السباق والحفلات وغيرها فعليك ان تعترف له بالشكر على صنيعه

قال سأفعل ... وانى لآسف أسفاً شديداً لان الحرفة التى ازاولها يقضى علىّ أحياناً كثيرة بالابتعاد عنك لاننى رئيس شركة مهمة بل أنا خليفة الشيخ سام !

وهنا تبسم تبسماً خفياً

فقالت كيف احوال حرفتك ؟

فتنهد واجاب ليست على ما اروم

قالت وكيف ذلك ؟

اجاب ان رجال البوليس لايدعوننا نستريح فهم يزعجوننا فى هذه الاوقات ليلا ونهاراً

قالت اى بوليس تعنى فهل تعنى البوليس الانكليزى ؟

اجاب كلا لست اعنيه وحده وانما اعنى جميع رجال الضبط العام وبينهم علاقات منتشرة ولهم صلات غير منقطعة بين باريس ولوندره وقد انتدبوا من الجواسيس

والرقباء كل داهية ليراقبونا فى كل مكان فهم يتلاعبون بنا كما يشاؤون . وبينهم واحد اروغ من ثعلب واخدع من سراب وقد كان لى معه فى مامضى شأن فهو ناقم علىّ يتمنى لى الهلاك . فيجب علىّ ان أتحذر منه واحترس على نفسى دائماً فلا اقدم على عمل الا بعد امعان الروية والتدبر الشديد لانه يرصدنى فى كل مكان

قالت ولكن ماذا يصنع اعضاء الجمعية ؟

اجاب ان هذه المضايقة نفسها تغل ايديهم وتثبط عزائمهم

قالت اذن فالاعمال واقفة ... او هى سائرة على غير ماينبغى ؟...

اجاب هو ذاك .. وقد دهانا نكد الطالع ياحبيبتى بيننا ويوشك ان يخامرنا اليأس والجزع وانما كان ذلك منذ ماضاع بلتيمور البهيم عقد اللؤلؤ اى منذ العام الماضى !

قالت عجباً هل علمت بذلك !..

أجاب نعم ولا تخفى علىّ خافية . وقد اسأت اساءة

كبرى يا بنينا حينما عزمت على التخلص من ذلك العقد النفيس فقد كان وجوده عندنا فألا حسناً حتى اعتقدت ان فى لآلئه طلسماً عجيباً وان له علاقة بما كتب لنا فى لوح المقدور

قالت اتصدق ذلك ؟

أجاب نعم فقد كان كل مانباشره من المساعى مقترناً بالنجح والفوز يوم كان العقد باقياً فى حوزتك . فلما فقدناه فقدنا السعد وحرمنا التوفيق

قالت هذه اوهام

أجاب ربما كان الامر كذلك غير ان الاعمال شاهدة ومن ينكر ضوء الشمس؟

فرفعت البارونة كتفيها متهكمة وقالت بجفاء :

دعنا من هذا الكلام الفارغ فانت اما ان تكون واهماً أو راغباً فى مخادعتى . . . لقد مضى زمن طويل وانت لا تأتى حسنة وانما اضطررت الى بيع العقد اضطراراً بعد ماقل ما بيدى منك وبعد ماقطعت عنى كل عطاياك

فقال نورتون لم يكن من الحكمة ان تستبدلى مثل

تلك الهدية النفيسة بالدراهم !

أجابت ماذا عسى افعل ؟ فان مثل هذه الهدية النفيسة كما تقول لا قدر لها الا اذا كانت السعة شاملة كاملة اما مع الضنك فان وجودها يضيق الصدر ... واذكر انني كنت خالية الجيب والكف مفلسة من الفلس وعندي ذلك العقد الذي يقدر ثمنه بعشرين الف فرنك . واللالىء لا تؤكل ..

قال كان في وسعك ان تسلميه لمصرف الرهون وتتناولي ماتحتاجينه من النقود ...

فاتت بحركة تدل على استياء شديد وأجابت حسبك لا تزد !

قال ما كان ايسر رهن تلك الحلية واستقراض النقود بها الى يوم تتحسن فيه الحال فتسترجعينه بعد ان تدفعي قيمة القرض

اجابت هيهات ان اقدم على هذه الحماقة وانا البارونة بولنسكا . ثم انني كنت محتاجة الى اكثر من المال الذي يعطيني اياه مصرف الرهون قرضاً على العقد ... كنت

محتاجة الى قدر جسيم جداً !

فسكت جاك نورتون سكوتاً مكرباً

وبعد هنيهة قال بصوت منخفض كانه يحدث نفسه :

لقد كان ذلك العقد ذخيرة لنا ولو بقى لكفانا مؤونة احتياجنا الحاضر ولفرج كربنا

فذعرت ينينا وقالت بحدة :

عن اى احتياج واى كرب تتكلم !

اجاب اتكلم عن العسر الذى نلقاه الآن

فدهشت وقالت احق ما تقول !

قال يوجد امر يغيرك شيئاً يا عزيزتي ينينا ياربة الحسن الساحر . فاعلمي انني جئت اليك فى هذه المرة اسألك اسعافا بدلا من ان اجيئك بالمال

فصاحت تسألنى انا !...

وكأنها اعتبرت كلامه اهانة لها

فأجاب انت اقرب الناس الىّ واعزهم عندى فمن اولى منك باستماع شكواى وتفريج كربى واسعافى والاخذ بيدى . اننى فى ضنك شديد لكنه وقتى فاطلب

اليك ان تأخذى بناصرى ريثما اجتاز العقبة الوعرة التى فى طريقى ... هذا كل ماأسألك اياه

فلم تحر جواباً ولكن سكوتها دل على حقد وضغينة فخفضت بصرها تجنباً ان يقع على بصره واخذت تنظر الى اطراف قدميها وتعبث بالبساط

فقال جاك نورتون بصوت يرتجف :

اعلمى ياحبيبتي اننى اقبلت على نفسى اقول لها ليس لى فى هذه الدنيا من احب سوى يننينا البديعة الجمال وهى التي بذلت لها كل مالدى واوسعتها دلالا ورفاهية ولا شك انها تقابل الاحسان بالاحسان وتصنع معى ماصنعته معها ... فما ذا تقولين ؟..

اجابت وفى صوتها من الغلاظة مافيه :

هذا محال ؟ نعم انت تطلب محالا !

فرن كلامها فى اذنيه كصرير قفل وقال هل يمكن ان تردى طلبى ؟

اجابت لقد جئت فى اشأم الاوقات فلا مال عندى

قال لامال عندك ؟ . . انما انت تنفقين من ريع

ماتمتلكين

اجابت احسب نفسى حرة التصرف فهل تنوى مراقبتى فى ماانفق

قال هبي انك لامال عندك كما تدعين ... فما شأن حلاك !

اجابت هل يمكن ان يخطر فى بالك بيع حلاى ! لااظن ذلك ! انما انت مازح ياميلورد

وضحكت ضحكة عصبية

فقال كلا وانما ارهنها اذا شئت وارهنها الى اجل مسمى ثم استخلصها من الرهن بعد حين

قالت بئس الهدية ترجع فيها فقد كان الاجدر بك ان لا تهديها !

قال لننظر فى المسئلة ايتها الحبيبة . .

اجابت حسبك ولا تزد يا مستر جاك . . . أما وقد وصلت الى هذه الحال فما عليك الآن تدعنى وتنصرف

وكان فى كلامها شيء من الغرابة وفى لهجتها شيء آخر منها أيضاً فارتعد جاك

ونهضت وأخذت تروح وتجىء وهى مضطربة

فسكت وهو مرتبك قلق

فقالت من يتخذ صاحبة مثلى يجب عليه ان يحسب حسابا لنفقاتها فان لم يكن لديه المال الكافى المضمون حصوله عليه فلا أقل من ان يرجع عنها ... أما حلاى فباقية لى واما انت فاننى لفى غنى عنك . ولك ان تكفينى حضورك الى هنا بعد اليوم

ونظرت اليه نظرة تشف عن احتقار لا يوصف

وقد هبط من مقامه عندها وسقط من عينيها بعد ما ذهب ماله .

سقط في لحظة من اسمى منزلة لديها فبات كأنه غير موجود بالقياس اليها

ولطالما أسرف وبذر ونفحها بالاوراق المالية والذهب الوهاج من غير حساب . وهبها كل ما ملكت يداه من جنى السرقات

فلما نضب ماله نبذته بلا رحمة

وعجز نورتون عن الاستمرار على اعطائها ماتطلب

والمواظبة على دفع المرتب لها كما عودها قبلا ومن اين له ان يظل سخى الكف بالمال المسروق . تلك الاموال التى ترضيها قد تبلغ الملايين وتحوجه الى ثروة قارون فهو قد هبط الى ما تحت الصفر واعتقدت الغادة الحسناء ان جاك رجل اخنى عليه الدهر وطوته الايام وفرغ خيره الى الأبد فلا نفع منه وسواء لديها عاش او مات

وتناست عند ذلك الافلاس اعوام اليسر والرخاء حين كانت تعبث يداها بالذهب وتعيش عيش الاميرات تحف بها الخدم وتختال فى أثواب الدمقس

وكان شأنها فى ذلك شأن مثيلاتها بنات الفجور فما اسرع ما نسيت الماضى .. واشتغلت بالحاضر ... وانصرفت آمالها الى المستقبل ...

ولم تشأ ان تجد فى سماء طالعها اقل سحابة فانطفأت شرارة الصبوة التى بعثها طمعها من قبل بمغانم جاك نورتون فاقتحمته عينها بعد الافلاس ورغبت عنه انفة واستنكافا بعد ما شاهدته ذليلا متصاغرا مقصوص الجناح !

وطالع اللص في عينيها مثل هذا البيان فثار ثائر حنقه فقال لها :

تقضى مصلحتك عليك ان لا تعاملنى هذه المعاملة ؟

وما لبث ان هدأ ثائره فى الحال فقال انك توليني حزناً يا ينينا . . حزناً شديداً . .

فقلبت شفتيها وقالت لا تسمعنى شكواك ! . . ولا تئن كثيراً !

فنظر اليها نظرة العاتب اللائم وللكآبة فى وجهه وعينيه علامات ظاهرة

ذلك لانه كان يهواها ... كان يهوى تلك المرأة او تلك الساحرة بل كان مجنوناً بها

ولقد فتنت لبه واستأسرته بحبائل فتنتها حقبة من الدهر واجتذبته اليها مصفداً بالاغلال

ولعل جاك نورتون لم يحب فى مامضى سواها ذلك الحب الحقيقى لانه كان يشعر بروحه بين يديها وبعواطفه تتلاعب بها كيف تشاء

فلو أمرته بما شاءت غير البعد عنها لما عصاها

ولما وجدت أشد منه رغبة فى مرضاتها

كانت له أمنية واحدة هى ان يقدم لها كل ما يوليها سروراً ويمتعها بكل ما يمكنها من الرفاهية والزهو والمفاخرة بجمالها

اما الآن فقد وجب عليه ان ينبذها وهى لا تزال مالكة عنانه وما برحت فتانة على ما بها من كبرياء ونقائص

ولقد اخطأ اذ اعترف لها بفقره وضيق ذات يده لانه كان كمن يقضى على نفسه القضاء الاخير

ولا شك انها تهتدى فى لحظة الى رجل آخر يحل عندها محله ويقودها كما يشاء ولكن على شرط واحد هو ان يكون واسع الثروة . واى متمول يعرض عن هذه المخلوقة العجيبة بل اى موسر لا يجود عليها بكل ماملكت يداه ليتخذها صاحبة ! . .

فهى ملكة بجمالها النادر ويوجد الوف من المجانين يتهافتون عليها . وينفقون عليها المال والروح معاً يطرحون على قدميها الاموال الجسيمة

وهى تدرى ذلك بل كانت واثقة منه .. فلا تبالى



﴿ ينينا ﴾

ان تهزأ بجاك نورتون وتطرده من حضرتها وهي باسمة

تلك خواطر جالت في ذهن ذلك اللص فرفع اليها ذراعيه كأنه فقد رشده وقال بكآبة :

آه لقد عرفتك الآن حق المعرفة .. ولقد بان لي ماخفي من طباعك . لقد كشفت لي سريرتك في دقيقة واحدة بعد ان خاتلتني وخادعتني أعواماً طوالا !

فاشاحت بوجهها عنه أنفة وازدراء حتى هاجه السخط واحتدم

فصاح بها بغتة قائلا ويل لك مني فاحذري !

ونهض وهو متغير الوجه مخيف

فقالت له بسكينة تامة :

لست اخشاك ياهذا مع علمي بما أنت فيه وما انت أهل له لانك اخبرتني في أحد الايام الماضية ويومئذ كنت تباهي أو كنت سكران بالجناية التي ارتكبتها !

قال اخفضي صوتك ويحك !

قالت هيهات ان تبلغ مني مابلغته من تاجر الجواهر في ويسول . . .

قال اصمتي !

غير ان ينينا لم تشأ الصمت وقتئذ بل ساقها الغضب والحذر الى الكلام فقالت أيضاً :

نعم لست ارهب صولتك ياجناب رئيس جمعية اللصوص العامة ! . بل عندى مايرهبك في كل وقت ؛ الست تخشى رجال البوليس ؟ . اذن فويل لك منى واحذر !

فامتقع لون نورتون حتى حكى لون الاموات واستشعر انخذالا وانحداراً أمام تلك المعشوقة الحسناء المطلعة على خفاياه القادرة على هلاكه بكلمة

فكتم حنقه وسخطه ولم يحر جواباً

على انها استمرت تحتدم وقد اطربها ازدراؤها اياه واستصغرته ولم تتمالك ان صرحت له باحتقارها فقالت بلى انا ابغضك ياهذا ... ويسرنى ان اقطع كل صلة معك وان الحق بك الضرر

فوثب عليها وقبض على ساعدها بعنف وقوة فصرخت من الالم فزاد الضغط عليها

فانت بحركة شديدة فجائية وتخلصت منه ثم صاحت له بلهجة السيدة الآمرة اخرج من هنا

وأشارت الى الباب

فانتصب واقفاً أمامها ينظر اليها بعينين يتطاير الشرر منهما وقال سوف تندمين على مخاطبتك اياى بهذا الكلام ..

« لئن فزت اليوم علىّ فغداً أفوز عليك وتلقين منى مالا يخطر فى بالك ولسوف اتعقب خطواتك وارصد حركاتك وسكناتك والويل لك يوم تستسلمين الى رجل آخر !

وانطلق يمشى مشية الكبر والوعيد الا انه يرتجف من الغضب وقد ابتلى بلوعة اليمة من صدودها وجرح فى أرق الاماكن من فؤاده احساساً

لقى الطرد والاهانة من تلك المرأة التى اتخذها رباً فكان عذابه فوق كل عذاب وتألمه من لذع افعى الغيرة يوليه ظمأ شديداً الى الانتقام منها

* * *

فلما خرج من عندها تنفست تنفس المستريح من عناء ولم تأسف على فراقه بل املت ان يكون فراق الابد واستشعرت انطلاق نفسها من عقال السأم لانها ملت

صحبته وتكرهته واستثقلت ظله

وغمغمت تقول حقاً انه ثقيل!

ولولا انه اوسعها عطاء لقاطعته وصارمته من عهد بعيد...

أما الآن فالفرصة سنحت فانتهزتها واصبحت مطلقة السراح قادرة على ان تطير الى حيث شاءت وتقع على من تريد

فذهبت فتناولت المجلة المصورة وفتحتها ناظرة الى صورة الشاب روبر دى سمروز. وتأملته ملياً والابتسام فى ثغرها ثم قالت انه غض الشباب وضىء الطلعة ظريف الهيئة ... فلا بد لى من تعزيته عن مصابه...

وضحكت وارسلت قبلة الى الصورة وقالت آه أيها المركيز سيكون لى معك شأن وأى شأن!

الفصل الرابع عشر

معركة قديمة

مضى ميلورد الذهب أوجاك نورتون متجهاً فى سيره الى ناحية حديقة مونصو وكان يمشى مطأطىء الرأس منكسر الجناح ومن عجب الاقدار ان مثل هذا الرجل الذى قد فؤاده من جلمد تؤثر عليه عاطفة الحب ويتألم منه ويتظلم فكان يقول ويحك يا بنينا من جاحدة احسان وكافرة صنيع ..

ثم رفع رأسه كانه يطرد من ذهنه ذلك الشاغل وقال صبراً!... ولسوف أخذ بثأرى منها!.. واعرف كيف انتصف منها وانما ينبغى لمن أراد الانتقام ان يتأنى ويتروى

فوصل الى محطة متروبولتين فنظر فى ساعته وقال مضى نصف بعد الحادية عشرة ولا يتسع الوقت لغير

الذهاب الى مونمارتر فاكون هناك عند الظهر تماماً

فركب أول قطار الى ميدان ناسيون

وكان وراءه رجلان مرتديين بافخر الاثواب يتبعانه .

وقد لحقا به منذ ما خرج من بيت البارونة بولنسكا

وشغله اضطرابه عن التنبه اليهما على انهما كانا متخذين كل تدبير واحتياط فلا يمكن ان يرتاب بهما من مجرد النظر اليهما

فكانهما اثنان من المارة يتمشيان ويتحدثان عن شؤونهما

فما زالا يرقبانه باعين لا تغفل ويتعقبان خطواته حيثما راح حتى ركب السكة الحديدية فركباها مثله لكنهما قعدا فى الطرف الآخر منها

وهناك من غير ان يظهر منهما مايدل على عملهما اخذا يتفحصان أحواله متظاهرين بالانكباب على مطالعة الجرائد التى اخرجاها من جيوبهما

أما جاك نورتون فكان خافض الرأس مهموماً

فقال أحد الرجلين :

لم اخطئ، فهو بعينه كما اخبرتك

قال الآخر هل انت على يقين يامانيلون ؟

أجاب نعم أيها الصديق

والرجلان أو الرقيبان هما مانيلون وصديقه مرليه ولنا بهما معرفة قديمة كما يذكر القراء

فان مرليه اقلع عن شروره وانكفأ عن ضلاله وارعوى مقتديا بمانيلون بعد ما كان مانيلون يقتدى به ويجتمع عليه فى الحانات ويباشر معه السرقات

ثم وفق بينهما أيضا دخولهما فى خدمة البوليس العام فكانا زميلين وقلما يفترقان

فما ذا جرى حتى انتقلا الى هذه الحال ؟

* * *

حدث حادث هائل فى باريس يوم ٨ مايو سنة ١٨٩٧ فكانت مصيبة تلك العاصمة أجل مصاب هذا العصر واشدها خسارة على فرنسا بالخصوص وسائر الدنيا بالعموم

نريد بها الحريقة التى مات فيها مئتا نفس ذهب اكثرها دوساً تحت الاقدام وسائرها فريسة للنار.

اقيمت في ذلك اليوم سوق خيرية عظيمة كلها من الخشب وفيها نحو سبعمائة نفس علقت بها النار فلم تلبث عشرين دقيقة حتى احترقت كلها وصارت رماداً وحتى صار ينكرها بانيها ويجهلها ساكنها ولم يبق في باريس أحد الا بكى حزناً على تلك الضحايا

فلما شبت النار كان الرجلان مانيلون ورفيقه مرليه يطيران من مكان الى آخر ويقصدان موضع الصياح صياح اليأس والجزع

يظهران ويختفيان عشرين مرة في الساعة فلا يقفان الاحيث يقف بهما الاخلاص في خدمة الانسانية واعانة المصابين فلما تفاقم الخطب شعرا بهول الموقف وعلما بانهما تعرضا لخطر الهلاك

وانهما لكذلك اذا بهما يسمعان أنيناً ويبصرا بامرأة كأنها تبحث عن شيء مفقود منها بين تلك الجثث السوداء فتحققا ما تفعل فاذا هي تحاول انقاذ صديقة لها

ذلك انه كان بين الجثث المحروقة من تتردد فيه الروح

فكانت تلك المرأة واقفة على لوح من الخشب مشتعل الاطراف وهي عاكفة على استخراج امرأة من بين الالواح الاخرى ويكاد ذلك اللوح يسقط فتهوى وراءه وتدفن تحت الانقاض

فسمع أحد الرجلين أنينها واقبل عليها ونظر فعلم عظم الخطر ... فوثب فما وصل الى تلك المرأة الا وهي واقفة على ذلك اللوح المتخلخل المهتز تحتها فاحتملها واعانه رفيقه واخرجها من وسط اللهب وهي مغمى عليها لكنها سالمة

فلم يكادا يبتعدان عن المكان حتى سقط السقف بتمامه واخذا يهتمان بوضع المرأة على محفة لحملها الى صيدلية واذا برجل قد اقبل وهو تائه البصر مضعضع الحواس ووراءه خادمان فنزل من مركبته واقبل على المرأة فصاح بصوت المخنوق لما رآها:

ويلاه انها زوجتي !.. فهل ماتت ؟..

فقال له احد اللذين انقذاها .

كن مطمئن القلب فانها لم تصب بضر.. وانما الخوف

أفقدها الصواب فاغمى عليها فصاح شكراً لكما فانكما انقذتماها من الهلاك . . فاعلما انني المركيز دي سمروز . وارجو أن تأتيا الى منزلى لاراكما واكافئكما ...

فامر ان تدنو المركبة فحملوا اليها المرأة وقد اخذت تستفيق

وكان المركيز دي سمروز فى اسوأ حال من الانزعاج والقلق على غير ما عرف به من الجمود فتبادرت الدموع الى عينه وجعل يلثم زوجته ويناديها :

جيلبرت ! . حبيبتي جيلبرت ! قولي انك لم تصابي بسوء ! .

وهمت المركبة بالسير فالقى المركيز الى الرجلين بطاقة من بطاقاته وقال لهما :

أود ان اراكما لازيدكما شكراً .. فهل تأتيان الى منزلى فى وقت قريب ؟

غير ان الرجلين لم يحفلا الا قليلا بدعوة المركيز وسرهما ان المرأة نجت فعاد الى موضع الخطر ليسعفا من احتاج الى اسعاف

وعظمت الحريقة حتى استحال ان تقاوم واعجز اخمادها قوى الانسان الضعيفة كما اعجزها ان تنقذ من

هلك فيها

فلم يكن بد من الرجوع عنها ..

على ان الرجلين وغيرهما من رجال المروءة انقذوا كثيرين من أهل الفضل والكرم الذين كانوا فى تلك السوق الخيرية

الا ان الرجلين جاهدا أعظم مجاهدة فى ذلك السبيل

فنطقت الالسنة والقلوب بشكرهما واعجب بهما الجميع

فكان يحدق بهما الناس من كل صوب مجلين قدرهما هاتفين لهما مهنئين

وقد أصابت أحدهما حروق ذات شأن اما الآخر فجرح جراحات أليمة ولذعت النار كليهما فتركت فى وجهيهما أثاراً

ولم يكترثا لذلك بل سرهما ما اظهراه من المروؤة ولما وافى معاون البوليس يسألهما عن اسميهما تلقياه بكبر

فقال احدهما اسمى مانى وان شئت فمانيلون

وقال الآخر اسمى لوسيان مرليه

فقال المعاون وما الصناعة .

فاجاباه بصوت واحد :

نحن من باعة الجرائد

ثم قال مانيلون وعندى شهادة عسكرية

وقال لوسيان فضلا عن ذلك يوجد مع كل منا شهادة بحسن سلوكه

قال المعاون انكما اهل لكل مدح لانكما اتيتما اليوم عملا عظيما

وكان الرجلان معروفين بما سبق لهما من اتيان الاعمال المشكورة وقد خاطرا فى هذه المرة بالروح لا نقاذ ابناء جلدتهما فعلا ذلك من غير ان يفكرا فى خطر ولم يحملهما عليه الا رغبة شديدة فى خدمة الانسانية

ولا يخفى ان مثل هذا الصنيع يبرر الآثام

فلم يفارقا ساحة الحريق الا عند المساء عند ما اقفر المكان ولم يبق من يمكن تنجيته

فصار يجب عليهما ان يعتنيا بجراحاتهما فدخلا الى صدلية مجاورة فاعتنوا بهما اجل اعتناء ريثما تمكنا من الرجوع

الى بيتهما

فقال مانيلون لصديقه تعالى معى فان زوجتى تعد طعاماً لى ولك . ان سيجاريت من فضليات النساء ويحق لها اليوم ان تفاخر بزوجها . ولا سيما متى علمت بما فعلنا

قال لوسيان لقد اسعدك الحظ ولولا انك ربحت نمرة النصيب لما تمكنت من الاقتران بمن احببت

اجاب صدقت على اننى كدت امزق تلك النمرة لاعتقادى يومئذ ان الاقدار قد اختصتنى بالافلاس والحاجة ولكنى الآن شاكر لها لانها كانت سبباً فى سعادتى . وثق يالوسيان اننى لو لم اربح النمرة لأمكننى العمل والارتزاق بعد ماغيرت سيرتى الماضية .

قال لوسيان وكيف ذلك

أجاب نعم وان السعادة الحقيقية فى الابتعاد عن المنكرات والانكباب على الكسب من طريق الحلال

قال نعم مافعلت وقد كنت لى قدوة صالحة يوم حذوت حذوك وأثر علىّ نصحك فلست بنادم على صلاح حالى

قال لولم تزدجر لاقفلت سيجاريت باب بيتى وبيتها

أمامك

أجاب يخيل لى الآن ان لى أهلا كلما زرتكما والفضل فى ذلك كله لزوجتك الكريمة التى هدتك الطريق السوى كما هديتنى أنت

قال مانيلون على اننا اسعد حالا من اولئك المتمولين المساكين الذين هلكوا فى حريقة اليوم فيا لله ما أهول ما رأينا اليوم !

واذذاك اجتازا شارع جان جيوجون وسرحا نظرة اخيرة فى تلك الانقاض وما زال الدخان يتصاعد منها

واذا بمانيلون قد عثر بشىء فظن انه يمشى على قطعة نسيج غير انه انحنى والتقط كيساً صغيراً من ذهب معلقاً بسلسلة مرصعة

فقال لا شك ان هذا الكيس لاحدى السيدات اللواتى ذهبن ضحايا اللهب وقع منها وهى هاربة

فدنا لوسيان منه بفضول طبيعى ... وقال ما بالك لا تفتحه لعلنا نعرف من يكون صاحبه . . .

فوجدا فيه كيساً آخر ملآن ليرات ومحفظة دقيقة الصنع

صغيرة كذلك

فنظر كل منهما الى الآخر وقد خطر فى بال كل منهما خاطر واحد . عاودتهما العادة القديمة اذ كان لا يباليان باختلاس ما يتفق لهما اختلاسه

فكرا فى سهولة الحصول على تلك اللقطة غنيمة باردة لا يراها ولا يدرى بها أحد ...

وهى لقطة ذات قيمة !

فحزر مانيلون ما يجول فى ضمير صديقه ومادار فى خلده . فهم ذلك من مطالعة سريرته فقال كلاً ما كنا لنقدم على مثل هذا بعد ما بهرنا الناس بمروؤتنا السامية الا تباً لشهم يختار اللصوصية بعد ما تخلق بأشرف الطباع .... فما رأيك يالوسيان

اجاب ربما كنت على صواب ... على ان هذه اللقطة ذات ثمن وافر يمكن الانتقاع به فى هذا الضنك الملم بنا فلا أدرى ماذا يضرنا اذا حصل كل منا على شىء من النقود للنفقة ...

قال ويك لو درت زوجتى لازدرتنا واحتقرتنا

قال انظر لمن هذه اللقطة وما اخال المحفظة الصغرى خاليه من بطاقة عليها اسم صاحبتها . . . وما دمنا قد انتقلنا من حال الى حال فلا بد من ارجاع الحق الى أصحابه ...

ففتح مانيلون المحفظة ودنا من مصباح الشارع وصاح عجباً من هذا الاتفاق . ان صاحبة . هذا الكيس لهى المركيزة دى سمروز تلك السيدة الحسناء التى انقذناها وارجعناها الى زوجها ... انظر الى بطاقاتها ومذكراتها ورسالة لها أيضاً

واقبل مانيلون على الرسالة يطالعها فما كاد يقرأ السطور الاولى حتى تولاه اضطراب شديد وامتقع لونه وارتعدت يداه

هذا ولوسيان يتهيأ لسماع ما فى الرسالة غير ان مانيلون طواها لساعته وقال بصوت مرتجف .

ليس للرسالة شأن وغداً نرد الكيس الى المركيزة فهل انت على رأيي يامرليه ؟

اجاب بلا شك ... والعنوان معروف عندنا

قال نعم فهو مطبوع على البطاقة . والآن فعد بنا الى البيت

وسار الرفيقان الى حى الاسواق حيث يقيم مانيلون غير انه فقد بشاشته فلم يعد ينطق بكلمة

اما سيجاريت فقلقت لتأخر زوجها فلما عاد ولاحظت كآبته حسبت انها ناجمة عن الحروق التى اصيب بها فى جهاده

وبعد العشاء انصرف لوسيان مرليه تاركا مانيلون وزوجته فى ذلك البيت الوضيع ولم يكن على ضعته ليخلو من الهناء . ان الهناء يوجد على الاكثر فى دور الفقراء العاملين الذين يكسبون الرزق بالكد والتعب والحب رأس الغبطة والسعادة

وفيما كانت سيجاريت مهتمة بشؤون بيتها اخرج مانيلون رسالة المركيزة يطالعها مرة ثانية وهذه صورتها

« ويسول فى ٦ سبتمبر سنة ١٨٩١

« ابنتى العزيزة

« اننى منذ أيام استشعر الما وسقما

« لقد هد ركني مصرع أبيك المسكين ولا أزال مضعضعة حتى اليوم

« فلست قادرة على الذهاب الى باريس كما طلبت الىّ. انى متعلقة بذلك القبر قبر فقيدنا الحبيب ومع ذلك فاشتهى ان أراك ياجيلبرت

« ما أخال صهرى المركيز دى سمروز يضن على بهذه المنة ولعلها الاخيرة !.. فتعالى سريعاً

« اقبلك والدموع ملء عيني

« والدتك »

« اليس برتلمى »

فايقن مانيلون ان مدام برتلمى هذه انما هى ارملة الجوهرى الذى قتله جاك نورتون فى مدينة ويسول وذكر انه كان شريكا فى تلك الجناية الفظيعة ... نعم انه لم يمد يداً الى الرجل ولكن الجناية ارتكبت امامه لسرقة كان فيها شريكا

والمركيزة دى سمروز ابنة ذلك الرجل المقتول !

وهى التى انقذها من الهلاك منذ ساعتين

فبلل العرق البارد جبينه وبان له سوء صنيعه الماضى وادركه الندم وقطع نفسه باللوم والتعنيف

ثم قال اواه لو درت سيجاريت !...

لو درت من الرجل الذى احبته واتخذته زوجاً وهدته السبيل القويم .لو درت انه متعب الضمير معذب السريرة بذنب لم يجنيه سوى انه لم يمنع وقوعه

لو درت لما رضيت به شريكا لها ولفارقته غير آسفة عليه ولا راحمة !

وسمع خطواتها فى مخدع النوم فتظاهر بالرقاد

فاتخذت كل حيطة كى لا توقظ زوجها لعلمها انه قضي سحابة نهاره يعانى اشق الاعمال وأشدها تأثيراً على العواطف

الى ان عطفت عليه وهى باسمة فاخذت تلثمه بحنو واشفاق فلم يفتح عينيه . . . غير ان العبرة هطلت من بين اجفانه

فكر فى عظم سعادته لو انه استطاع نسيان ماضيه ولنا سؤال نلقيه فى هذا المقام

هل يمكن ان يحيي المرء سعيداً بعد ان يسوء فعله ويعدو بالشر والقبيح اذا لم يستطع تلافى الضر واصلاح ما افسد ؟

* * *

وكان اليوم التالى موعد ذهاب مانيلون ولوسيان الى منزل المركيزة دى سمروز لارجاع المحفظة وانجاز الوعد

فلم يتمكن لوسيان من مصاحبة صديقه لان جراحاته قضت عليه بملازمة فراشه بضعة ايام

فقضى مانيلون تلك المهمة منفرداً

وكان ذلك فى الساعة الحادية عشرة صباحاً فقرع باب منزل المركيز دى سمروز

وقد أمر الخدم بأن يفتحوا له طالما يصل لان الخادم الذى فتح له الباب سار أمامه في الحال الى حجرة المكتبة وهناك تلقته المركيزة بقولها انت ايها البطل وصديقك منقذان حياتى بالامس فشكراً لكما على يد لا اكفرها ولا انساها ابداً !

فجعل يميل قبعته بين اصابعه وهو متأثر أشد تأثر

وأجاب لم اقدم لهذا الغرض ايتها السيدة ... وانما جئت لا أرد اليك ماا ضعته بالامس . فخذى هذا الكيس اننا وجدناه بعد ذهابك انا ورفيقى لوسيان مرليه . .

ومد اليها يده بالكيس الذهبي . . .

فلاحظته المركيزة بتودد وقد اعجبت بعمله ولا سيما لان ظاهره يدل على فقر ومسكنة وعمله يعرب عن امانة واستقامة فقالت له :

ان عملك هذا من أفضل الاعمال ايها الصديق . وهذا كيس احب الاحتفاظ به لكننى اطلب اليك ان تبقى الذهب الذى فيه لنفسك

وقدمت له المحفظة الملآى بالليرات

غير ان مانيلون ابى اخذها .. وكانه لم يلاحظ تلك الحركة التى أتت بها حين وهبت له ذلك المال بسخاء

فمغم يقول مالهذا الغرض جئت ايضاً ايتها السيدة

قالت لا بأس فخذ ياصديقى .. انى ذهبت الى السوق الخيرية حاملة هذا المال وغرضى الاحسان به الى الفقراء بواسطة زميلاتى اللواتى ذهبن ضحايا مرؤتهن وكدت

اهلاك كما هلكني حين حاولت انقاذ البارونة دى كانتابل صديقتي ومن حسن الحظ انها نجت ايضاً . ولقد نجيتني من موت محقق فاردت ان اعترف لك بامتناني تكلم .. انني مديونة لك بالحياة بل انا وزوجي وولدي جميعاً مدينون لك بصنيعك . فماذا عسى اصنع لا كافئك عليه... تكلم

أجاب لست اطلب اليك ايتها السيدة الا امراً واحداً ...

قالت ماهو ؟ .. انى على اتم الاهبة لاجابة طلبك .

فتردد مانيلون غير انه غمغم بعد هنيهة يقول اطلب اليك صفحاً . .

واكفهر وجهه عند ماتلفظ بهذه الكلمات الثلاث وكادت الزفرة تخنقه فخفض رأسه امامها

فدهشت وقالت تطلب مني صفحاً ؟ .. ولماذا ؟ . .

قال اصغى الى ايتها السيدة .. ولا تلعنيني ! . يوجد سر ارهقني كتمانه من عهد بعيد . . يوجد سر يذيب فؤادي .

فعظم انذهال المركيزة وشعرت بأن وراء لهجته الخطيرة امراً تجهله فقالت ماعسى ان يكون ذلك السر ؟

فصمت شيئاً ثم تغلب على اضطرابه وقال لقد وجدت فى محفظتك ايتها السيدة عند مابحثت عن اسم صاحبتها رسالة .. وهى رسالة اليك من والدتك مدام برتلمى . واردة من ويسول ..

اجابت نعم فهى الرسالة الاخيرة التى ارسلتها الى أمي قبيل وفاتها . ولم تفارقني هذه الرسالة العزيزة بعد

قال الم تكن والدتك ارملة ؟ .

أجابت نعم

قال هل قتل زوجها ؟

أجابت وا أسفاه عليه ! . . ولكن هل عرفت أبي المسكين ؟

فقال بلهجة التوسل :

أسألك صفحاً أيتها السيدة !

قالت لماذا ؟

أجاب لانني شهدت مقتلة...

فضعضع جيلبرت هـذا النبأ وصاحت هل كنت حاضراً حين قتل أبى ؟...

أجاب نعم ولم أمنع وقوع الجناية . .

قالت الهى ماذا أسمع ؟.. الملك

واتسعت حدقتاها اشمئزازاً وارتياعاً ولم تجسر على اتمام جملتها ... لانها توهمته قاتل أباها

فتقهقرت مذعورة أمامه وبسطت يديها كأنها تريد ان تدفع رؤيا مفزعة

فأجابها كلا أيتها السيدة لست بالرجـل الذى قتل المسيو برتلمى ولا استطيع ان اقتل رجلا ..غير انى كنت وقتئذ لصاً سافلا ونذلا ساقطاً .. بل كنت فتى شريداً زنيا

فراعها ماسمعت وقالت رباه !...

قال انما أتينا أنا والقاتل الى ويسول لنسرق مخزن أبيك . . . ولم يكن غرضنا الا سرقة بعض الجواهر والفرار بها ... غير ان اباك فاجاءنا ... فطعنه رفيقى ...

آه عفواً أيتها السيدة عفواً !

وترامى على قدميها متوسلا مبتهلا

فتجلدت وبعد جهد تغلبت على شجنها وأساها وقد شعرت بانخذال قواها عند ذكر تلك الحادثة وما تلاها من الساعات التى لا تنساها

فارتعدت ثم قالت وهان عليك ان تترك التهمة تقع على برىء ؟..

أجاب كلا فاننى لم أغادر التهمة تصل الى نهايتها بل كتبت كتاباً الى المحامى عن المسيو درتيل .. وارسلت اليه خنجر القاتل دليلا على براءة المتهم ظلما

قال ا كنت صاحب ذلك الكتاب والخنجر؟

أجاب نعم فاننى لم استطع غض الطرف عن قضية يحاكم فيها رجل برىء منها ولو كان المجرم الحقيقى موجوداً لسعيت فى القاء القبض عليه ...

وهنا تغيرت لهجته فقال وكان يوجد سبب آخر يحملنى على الانتقام منه !

قالت ماذا فعل بك ؟

أجاب انه قذفنى من مركبة السكك الحـديدية بعد رحيلنا عن ويسول الى باريس...ومن العجب العجاب

انني سلمت ..

قال ومن ذلك الرجل ؟.. النذل ؟..

أجاب انه يلقب ميلورد الذهب وهو رجل انكليزي محتال ... واسمه الحقيقي جاك نورتون

قالت ألم يكن من باعث يحمله على الفتك بوالدي

أجاب لا وانما غرضه احراز المال غير مكترث للوسيلة وهو الذي استاقني الى أعمال منكرة من سرقات واختلاس واحتيال ...

قالت وبعد ذلك ؟

أجاب بعد ذلك ؟... لم اره قط ... ولو لقيته لما نجا من يدي . لانني اريد مناقشته الحساب مناقشة هائلة على ماجنى ! .. ثم انني ايتها السيدة افقت من سكرتي وارعويت عن القبيح واصبحت من اهل الخير والبر ... وكل ذلك اكراما لسيجاريت ..

قالت ومن سيجاريت ؟

اجاب انها مخلوقة لطيفة كريمة باسلة قد انتشلتني من هاوية الشقاء وانقذتني من شرور اللصوصية ووعدتني

بالاقتران بي عند ما اغدو عاملا مجتهداً كاسباً رزقي بالحلال ... فاصغيت الى نصحها .. فتزوجتها وهي ذات فضيلة واحسان لاتبارى فيه .. والآن سرت من اهل العمل بعيداً عن المنكر مطمئن القلب راضياً بعيشتي . ولولا ان ذكرى جناية ويسول تنغص عيشتي لكنت اسعد الرجال

قالت يالك من منحوس !

قال لاجل ذلك جئت ضارعا اليك ايتها السيدة طالباً صفحاً ! ولئن صفحت عني قل تندمي وحسنت توبتي ! . آه ليتك تقولين لي ان ذنبي الماضي لا يصغرني لديك ولا يحملك على احتقاري

فصمتت جيلبرت وبعد هنيهة قالت ان ندامتك صادقة وهي خير شفيع لك ياصديقي على انك نجيتني من الموت وقضيت دينك بالقياس الى ذكر والدي .. فانا اصفح عنك مادمت قد عزمت على ان تغدو من اهل الخير والصلاح ..

قال شكراً لك ايتها المركيزة فقد اوليتني غبطة عظيمة

بصفحك الكريم ! . ونعم مافعلت باقرارى فقد خفف ثقل مابى ؟ .. وكان يرهقنى من زمن طويل ؟ . . فلا شك ان صفحك يتم مابدأت به سيجاريت .. والحمد لله قد استرحت من لوم نفسى وقرع سن الندم وصرت قادراً على الانصراف بكليتى الى عملى ومصلحة بيتى

ولثم ثوب المركيزة دى سمروز وهو لايدرى كيف يظهر لها مسرته وشكرانه لانه وجد في كلماتها آيات الخلاص والسلامة والرجاء

فأدركت جيلبرت ذلك وجعلت تنظر اليه متأثرة وقد قام فى سريرتها عراك ونضال

جعلت تقول فى نفسها هل احسنت عملا بالصفح عن رجل كان شريكا لآخر فى قتل والدى المحبوب ؟

«الا يجب ان نسعف بالعناية والرحمة رجلا لايتمنى الا ان يعود الى الطريق السوى ويصلح سيرته ؟

« واأسفاه ان والدى مات قتيلا ! فماذا عسى تجدى القساوة وهل تعيده الى الحياة ؟

« ان العدالة الانسانية نفسها قد باتت عاجزة عن

الانتصاف لى من القاتل بعد مرور الزمن الطويل فحقيق بى ان آخذ بناصر هذه النفس التى تود ان تبرر السيئة بالحسنة وتكفر عما فرط منها

فاشارت اليه لينهض وقد استشعرت ميلا الى تلك المرأة سيجاريت التى تكلم عنها مانيلون لانها عرفت كيف تهوى شريداً وتلين قلباً قاسياً وتصلح سيرة فاسدة فقالت له :

انهض ايها الشاب فاننى أراك راغباً فى محو ذنوبك الماضية وأود ان اهتم بك . اكتب الى عند ما تحتاجنى لاننى مقيمة فى باريس الى أجل مسمى وراحلة الى طوران بعده . لكننى سأذهب قبل سفرى فأرى سيجاريت وما أخالها الا امرأة سليمة الطوية سامية الاخلاق

فبكى مانيلون وقال ان لسانى يعجز عن تأدية حق الشكر لك ايتها المركيزة الصالحة ! ..

وهذا كل ماقدر على النطق به في وقت تغلب السرور والاضطراب عليه

فقالت اما الآن فاليك هذا المال ريثما ينظر فى أمرك !..

قال لكن ..

قالت لا تمتنع عنه .. لاننى وهبته لك تذكاراً

اجاب اذن اقبله يا سيدتى المركيزة وسوف اشاطره صديقى لوسيان مرليه

قالت لماذا لم يأت رفيقك معك ؟

اجاب لان جراحاته تؤلمه وتمنعه من مفارقة فراشه

قالت اشكره بالنيابة عنى وتعالجا حتى تشفيا كلاكما تمام الشفاء انى أقدم لكما كل ما تحتاجانه فلا تشغلا الفكر بذلك

قال جعلنى الله فداك ايتها المركيزة ..

قالت ثم اننى سأكتب الى طبيبي كلمتين عنكما .. فاننى لا أريد ان تنفقا على نفسيكما بعد ما جاهدتما تلك المجاهدة في سبيل انقاذ الناس

وكتبت له بضعة سطور على بطاقة سلمته اياها وقالت له اقصد بها الطبيب الذى تجد عليها اسمه وعنوان محله

فيذهب سريعاً ليعود صديقك ويعالجه أتم معالجة

* * *

وفارق مانيلون قصر دى سمروز وهو طائر الفؤاد سروراً يشعر بارتياح وخفة كأن له اجنحة يحلق بها في الفضاء لو شاء

فبلغ منزله بسرعة

وفى الاسبوع التالى تقدم طلب بحقهما الى ديوان الضبطية فتلقاه الديوان بالقبول ودعيا الى هناك

فاعطى لهما وسام «الانقاذ» مشفوعاً بتهنئة من الحكومة وقد بلغ عدد الذين انقذاهما من الحريق عشرين نفساً

اما ديوان الضبطية فاستعلم عنهما فكانت عنده لائحة عنهما ذكر فيها ما يأتى

«من باعة الجرائد سلكا فى مامضى مسلكا مبهما فى سبيل الشر

وعلى الخصوص احدهما لوسيان مرليه غير انهما ليس لهما سوابق . وقد صلحت سيرتهما منذ أعوام عديدة

وعرفا بالشغل والكد. أحدهما مانيلون متزوج سلوكه حسن »

وعلق كل منهما وسامه المثلث الالوان على صدره

ولبثا منذ ذلك اليوم يختلفان الى دائرة البوليس وقد نشأت لهما صلات بها بعد ما كانا يرتعدان فرقاً من تلك الدائرة

ولقد اسديا الى البوليس العام أيادي صالحة فكانا يهديان الدائرة الى الاشقياء وينبئان سلفا بما يعزمون عليه من النهب والسلب

فلم يمض وقت طويل حتي فكر رئيس الدائرة فى استخدامهما بصفة دائمة لما رأى من غيرتهما وحذقهما

وكان استخدامهما فى بادىء الامر وقتياً فما لبثا حتى القيت اليهما مقاليد الوظيفة الدائمة

وقد غادرناهما في مركبة مراقبين جاك نورتون أى مباشرين واجباتهما بحذق ونشاط ونزاهة شأنهما منذ ثمانية أعوام طوعاً لاوامر رؤسائهما وقد باتوا يحسبونهما اذكى رجال البوليس فهماً وأحيلهم واقدرهم على اكتشاف الحقائق

﴿ الفصل الخامس عشر ﴾

التكفير عن السيئات

وبقى لمانيلون ومرليه ما عرفا به من الخفة والنشاط والرشاقة

وكان الفارق بين صبغتيهما الماضية والحاضرة أمر واحد هو انهما أصبحا يزنان الكلام بميزان التعقل فلا تبدر منهما بادرة يندمان عليها

وانما كانا يتكلمان بروية وتدبر شأن العقلاء الرجال الذين يهتمون بالامور الجدية فلا يبوحان بما عندهما ولا يطلع احد على اسرارهما

فجلس كل منهما بجانب الآخر واعينهما ترصد جاك نورتون وهذا جالس فى اخريات المركبات كانه منصرف الى مطالعة جريدته

لكنه لم يكن يقرأها فى الحقيقة. بل كان يفكر

فى ينينا

فلما كاد يصل القطار الى محطة بيجال قال لوسيان مرليه .

تنبه فالرجل قد نهض وهو عازم على النزول ههنا

فغمغم مانيلون يقول اننا فاعلان فعله

فوقف القطار ونزل جاك نورتون فتبعه الاثنان

فنزل فى شارع مرتير وهما يقتفيان خطواته ولا يحولان البصر عنه

فقال مانيلون لقد وفقت الى اكتشاف هذا اللص الشقى ولسوف تسر سيجاريت كثيراً

قال مرليه لماذا .

اجاب لانه احتال عليها فى مامضى احتيالا لا تنساه

قال على ماعولت ؟.. فهل تقبض عليه ؟

أجاب كلا فما نستطيع ان نعيد قضية ويسول بعد مرور الزمن عليها ولا قضية نفق لا بومراى . . غير ان الاعمال المتعلقة بعصابة اللصوص العامة كافية للقبض عليه

قال مرليه ليس ذلك من الامور اليسيرة

قال لماذا ؟ .

أجاب لان الرجل داهية وما اظنه تاركا وراءه بينات تثبت عليه عهدة او تلحق به تهمة

قال اصبت ولكننا نهتدى الى وسيلة تمكننا من امساكه

قال مرليه ليته يذهب بنا الساعة الى المركز الجديد الذى اتخذه النادى العام ! .. اما القديم فقد كان فى حى مونمارتر ؟

أجاب نعم . غير ان الخبثاء انتقلوا منه الى غيره منذ اعوام وكان ذلك وقت ظهور بعض مسروقاتهم

قال اذن فلنتبع الرجل ولعله يهدينا الى مانروم

قال وهبه فعل

أجاب خير لنا ان ندع الثمرة تنضج على مهل قبل اقتطافها ... واعلم ايها الصديق ان العجلة تورث الندامة ولا ينبغى الاقدام على عمل مالم نكن على ثقة من النجاح والا فسد كل تدبير

قال الا ترى الرجل يستوقف مركبة

قال هيا بنا نحذو حذوه

واستوقف مركبة وأشار الى السائق يقول له اتبع تلك

اجاب حباً وكرامة

وانطلق جاك نورتون بمركبته وهو غير عالم باللحاق

وبعد مشية طويلة وقفت مركبة نورتون امام المنزل نمرة ١٢ في شارع مازاجران

فدفع للحوذى اجرته ودخل الى البيت

فقال مانيلون هاقد صرف العربة فلم يبق شك فى انه نزل الى حيث يقيم وقتاً طويلا

اجاب لوسيان ربما

قال اذن فالبث هنا رقيباً ولاحظ المداخل والمخارج

اجاب لا تخف وكن قرير العين !

قال لا تضيع الوقت وعليك بخادمة الباب فما ينبئك مثلها

اجاب سوف أرى وقد كنت أنوى ذلك

قال اجتهد لتعرف اذا كان نورتون يقيم هنا اويجيء غالباً او يزوره أحد ..

قال لوسيان كن واثقاً بى .. وانت الى اين ذاهب

اجاب انى عائد الى المكتب وسوف تجدنى هناك

بل الافضل ان تأتى الى بيتنا وتتعشى معنا

قال لا بأس بذلك فقد مضى زمن طويل لم أذهب الى بيتك

قال لقد تنبهت سيجاريت فى صباح اليوم الى ذلك

اذن الى الملتقى ياصديقى

أجاب الى الملتقى

وانطلق مانيلون وهو مطروب يترنم للفوز

فلما أمسى المساء التقيا فى بيت مانيلون فى شارع بريشور . وقد انتقل مانيلون اليه منذ ما تزوج فسكن فى دار صغيرة فى الطبقة الرابعة مع زوجته اللطيفة سيجاريت

ولم تعد تذهب الى معمل الدخان كعادتها السابقة لأن مانى منعها من الشغل لان كسبه يكفى اثنين وفضل ان

يرى زوجته تدبر شؤون البيت

وسيجاريت ما برحت حسناء كثيرة الابتسام تتدفق عيناها سحراً وحناناً وحبوراً

وانما كان يلذ لها انها نقلت زوجها من حال الى حال . حولت ذلك الشقي الشريد بالامس الى رجل ذي شأن والفضل لها في ما آل اليه وما وعى بيتهـا من طمأنينة ورغد وهناء

فكانت سعيدة بعيشتها فخوراً بما فعلت لانها سعت الى خيرها واتت عملا حميداً

ولم يقتصر عملها على واحد لان لوسيان مرلية اقتدى بصديقه مانيلون كما مر بك

فاصبحا رفيقين لا يفترقان وكأن كلا منهما تتمة لصاحبه واشتهرا بهذه الصحبة حتى كان رجال الضبط يقلدونهما عملا واحداً

وامتاز مانيلون بالفطنة وحل المعضلات كما امتاز لوسيان مرليه بالاقدام والجرأة فكانا جامعين للصفات التي يجب ان يتصف بها رجال البوليس

وفيما كانت سيجاريت تهيء الطعام للعشاء . قال مانيلون للوسيان اخبرني الآن ماذا جرى لك مع الرجل في شارع مازاجران

أجاب لم افلح غير انني سأجدد المراقبة. لم أر الا نفراً قليلا دخلوا وخرجوا وذلك لان للمنزل الذي وقفنا به بابين او منفذين عرفت ذلك بعد فوات الوقت

قال لقد فاتتنا معرفة ذلك

قال لوسيان يمكن الدخول من شارع (مازاجران) الى شارع سن دنيس . ويجب علينا في المرة القادمة ان نراقب المنفذين

أجاب انت تقيم على احدهما : . وان على الآخر

قال نعم فأحسن المراقبة ما كانت من جهتين

أجاب مانيلون كل وسيلة حسنة اذا أدت بنا الى القبض على ميلورد الذهب

واذ ذاك اقبلت سيجاريت تقول لقد تهيأ الطعام وحملت الصحاف الى المائدة فما كادت تصل اليها حتى وقفت مدهوشة لانها رأت طاقة من الازهار بديعة

الالوان يتضوع منها شذا يملاء جو المكان

فحملقت عينيها وتصاعد الاحمرار الى وجهها سروراً وصاحت ماهذه ؟

اجاب لوسيان انها باقة زهر

قالت انني اعرف ذلك ! ولكن لمن؟

فنهض مانيلون ولثم جبينها وقال لك انت ايتها الحبيبة . فقد تذكرت فى صباح اليوم انه تذكار يوم انعقاد زواجنا

قالت سيجاريت لقد اتى على ذلك ثمانى عشرة سنة ثم قالت بكآبة .

الهى ما اسرع مرور الزمن !

قال مانيلون باسما :

مازلنا فى نضرة العمر واوله

أجابت متى دام الحب دام الشباب

قال لوسيان صدقت وان فى هذا الكلام لحكمة فبقى عليك أن تضعى هذه الصحفة الكبرى الى جانب الطاقة وأخذا فى تناول الطعام وأمارات البشر تلوح على

الوجوه وشربا وصفا لهم الوقت

وفيماهم كذلك قرع الباب ووفد ساعى البريد فنهضت سيجاريت ورجعت وفى يدها كتاب لزوجها يتضوع من غلافه رائحة الطيب فقالت أظن الرسالة من سيدة عظيمة فهل للمسيو مانى علاقة معها ؟

فنظر مانى الى العنوان وقال انى اعرف هذا الخط ثم فتح الرسالة وقرأ العنوان وقال صدقت يازوجتى العزيزة فهى من سيدة عظيمة كما قلت لان صاحبتها المركيزة دى سمروز

قال لوسيان لعلها تلك التى كادت تهلك فى الحريقة المشهورة . أجاب هى بعينها وقد طالعت كتابتها يوم سلمتنى بطاقتها الى الطبيب

قالت سيجاريت انعم بها من سيدة كريمة العنصر فقد أظهرت من نبالة الخلق مالا حد له لانها استمرت تسأل عنكما وتستطلع اخباركما وترسل اليكما الهدايا وكذلك فعلت معى فانها زارتنى وتوددت الىّ كل التودد ... فلا انساها ابداً ... ولعمرى انها تستحق من

الانسان أن يطرح بنفسه لاجلها فى النار

فضحك لوسيان مرليه وقال ذلك ما فعلناه لاجلها تماما. قالت ماذا عسى تطلب منك المركيزة دي سمروز يامانى. أجاب اصغى لاقرأ لك مكتوبها

وقرأ الكتاب الآتى نصه.

« قد عرفتك شهما باسلا وقد أبديت لى مراراً رغبة منك فى اسداء يد صالحة الىّ تكون برهانا على حسن ولائك.

« وها أنا ذا قد جئت ممتحنة اخلاصك ففى وسعك أن تسدى الىّ يداً صالحة

قال مانيلون حبذا ما تقول وليتنى قادر على نفع هذه المرأة الفاضلة!..

وعاود القراءة كما يلى:

« المسئلة تتعلق بطفلة تبحث عنها والدتها بيأس وقلق لا مزيد عليه ويهمنى أمرها كثيراً

« وهى ابنة اودعت عند رجل اسمه برموش كان مقيما مع زوجته فى شارع المانيا نمرة ١٢٧. والابنة يجب

أن يقارب عمرها السادسة عشرة واسمها نائلة

« وقد جرى التحرى عنها فاتصل بنا ان برموش وزوجته رحلا عن مسكنهما الى مسكن آخر عرفناه فيها كائناً فى حى مونمارتر ... وبحثنا عنهما هناك فاذا بهما قد اختفى أثرهما ... حتى الساعة ...

« انت من رجال الشرط يامسيو مانيلون فلعلك قادر على معرفة مكان الزوجين والاهتداء الى هذه الابنة التي لا اشك فى انهما يستخدمانها فى مهنة انزه قلمى عن ذكرها ...

«ولئن وجدتها فان الله يغدق عليك نعماءه بدعاء امها التى تبكيها منذ أعوام ... وترتعد وجلا واشفاقا عليها!

« فانا التى اليك ثقتى عالمة بمقدار اخلاصك .. وكتمانك فاذا وقفت على أثر للابنة اخبرنى فى الحال وبذلك تغنم منى شكراً لا ينفد

«وتقبل سلامى

« المركيزة دى سمروز »

وسمع لوسيان وسيجاريت القراءة منصتين الى كل

كلمة . فلما انتهى منها مانيلون قال لوسيان اظنني عرفت برموش هذا

قال من يكون ياترى ؟

أجاب انه يلقب بامبراطور الشحاذين ؛

قال مانيلون واظنني سمعت بالرجل

وقال لوسيان من غير شك فانه اشتهر بتعليم حرفة الكدية لنفر من أسافل الناس يكرهون العمل

قال مانيلون واين يلقى هذا العلم الجليل ؟

أجاب لوسيان فى حانة مجاورة للاسواق يقال لها حانة ديبو . قال انى أعرفها من عهد بعيـد ولكننى هجرتها ولا أدرى ما جرى فيها

قال لوسيان لا بدلى من ارتياد ذلك الموضع حتى ارى برموش واعرف اذا كان هو المعنى برسالة المركيزة

اجاب مانيلون الامر عسير

قال لماذا ؟

أجاب لان الشرطة بلغها امره ولكن هيهات ان يهتدى أحد الى مقره

قال كيف ذلك ومدرسته عند صاحبة تلك الحانة معروفة

اجاب لا سبيل الى القبض عليـه ما دامت الحرية الشخصية تبيح لكل امرئ ان يعقد محاضرات ومذاكرات مهما يكن نوعها .. الا اذا كان المراد منها تقليل عدد المواليد وفي هذه الحال تكون ذنباً الى الوطن

وبعد هنيهة قال مانيلون اذا لم يكن من سبيل الى الدنو من برموش غير احتراف الكدية فانا اتقدم اليه تلميذا راغباً فى التعلم وانخرط فى سلك المتعلمين عنده

قال وكيف تصنع ياصديقى ؟

اجاب اتسألنى كيف اصنع ؟ . . الامر هين البس لباس الشحاذين والقاه غير اننى اريد ان اتيقن فى بادىء الامر اذا كانت الابنة التى تتكلم عنها المركيزة عنده

قالت سيجاريت رأيك سديد ياماني فعليكما ان تجتهدا فى خدمة المركيزة دى سمروز واجابتها الى طلبها . وتحدثنى نفسى ان عملكما من افضل الاعمال. قال لوسيان انى معك ايها الصديق فاقدم. قالت سيجاريت يوجد مهمة اخرى اطلب اليكما ايها الصديقان ان تنظرا فيها

فقال الاثنان بصوت واحد : ماهى ؟

اجابت تعاسة كبرى يجب علينا ان نسعى جهدنا الى دفعها . هل تذكر يامانى رجلا اسمه المسيو درتيه وهو صانع ازهار كان مقيما فى نفس المنزل الذى قطنته قبلا فى شارع القرم ؟

قال كيف لا وهو عامل مجتهد نزيه

اجابت الامر كما تقول فالرجل جارنا ومنزله فى شارع كوسونرى

قال غير بعيد من هنا

قالت انى صادفته فى صباح هذا النهار وجاء نحيانى فلم اعرفه لفرط ما الم به من التغير

قال مانيلون لعله مريض ؟

اجابت بل هو منحوس شديد التعس . . . يرثى له كل من يراه . .

قد اصبح متعطلا لا عمل له وعنده زوجته تعالج سكرات الموت وله ولد عليل محروم كل مايحتاجه فيالله ما اكبر بليته !

قال مانيلون يجب علينا اسعاف هؤلاء المساكين والاسراع فى اسعافهم

اجابت سيجاريت اما انا فلم انتظر سماع هذه الكلمة ولكننى اعطيت الرجل اليسير الذى كان معى من النقود ..

قال لوسيان وهل نحن قادرون على اسعاف احد ووظيفتنا لاتكاد تكفينا الحاجة ؟ . .

قال مانيلون مخاطباً زوجته ؟ . .

بل يجب ان نبذل المجهود فاستمرى على التردد على القوم ريثما يقدر الله للعسر يسراً

اجابت سوف اتردد عليهم

قال اما انا فسوف اسعى لدى ديوان الضبطية بمساعدة خيرية لهم

فصاحت سيجاريت شكراً اقدمه لك ياحبيبي بالنيابة عنهم !

ونهضت فعانقته بفرح شديد

يصدر العدد **١٠٥** وهو الجزء الثالث من هذه الرواية فى اواسط ابريل سنة ١٩٠٩ فنلفت اليه الانظار سلفاً

مكتبة ومطبعة الشعب

انتقلت مكتبة ومطبعة الشعب فى ميدان العتبة الخضراء بعمارة الاوقاف الجديدة باول شارع عبد العزيز بمصر واستحضرنا كافة الادوات الكتابية والمدرسية وعموم اصناف الاقلام الامريكانية والاثمان متهاوده جداً وعلى الله الاتكال فى جميع الاحوال

خليل صادق

رقم تلفون المكتبه ٨٨٠ وتلفون المطبعه ٢٧٤١

تفتح المكتبة من الساعه ٧ صباحا لغاية الساعه ٩ مساء

مسامرات الشعب

اكبر مجلة روائية تصويرية اجتماعية تصدر ثلاث مرات فى الشهر

﴿ لاشهر الكتاب العصريين ﴾

صفحتها عشرون عدداً

لصاحبها

خليل صادق

السنة الخامسة — العدد **١٠٥**

السائلة الحسناء « الجزء الثالث »

﴿ قيمة الاشتراك ﴾

٥٠ غرشاً صاغاً فى القطر المصرى والسودان

وثمانية عشر شلناً فى الخارج

وكل طلب اشتراك غير مصحوب بقيمته فهو غير مقبول

« ثمن العدد الواحد ٣ قروش صاغاً »

مطبعة الشعب بدرب الجماميز بمصر

السائلة الحسناء

لواضعها

الكاتب القصصى الفرنساوى الشهير

م. روبيير

ومعربها

الكاتب الناثر البليغ

نقولا رزق الله

مدير ادارة جريدتى الاهرام والبيراميد

ما كل من تلقاه يبسط كفه
مستجديا هو في الحقيقة معدم
كم خامل كسل يمد يداً وكم
من بائس يقضى ولا يتظلم

المعرب

الفصل الاول

مقاصد جاك

لو تمكن لوسيان مرليه صديق مانيلون وزميله من اللحاق بجاك نورتون الى داخل المنزل فى شارع مازاجران يوم افضت اليه مراقبته لشاهد منظراً عجباً

دخل جاك نورتون عند الظهر تماماً فقرع الباب اول مرة ثم قرعه مرتين متواليتين ثم ثلاثا

ففتح الباب اذ ذاك . ودنا خادم فحياه باحترام وانزوى موسعاً له الممر فدخل دخول رب البيت

وبعد دقائق قرع الباب ايضاً ودخل زائر آخر فآخر فغيره وغيره. وكانت المحاورة القديمة تدور بين القادمين ومن يستقبلهم على النسق الآتى

- انما جئت لابتاع جلد السمور

- من عند من؟

- من عندالشيخ سام

وهكذا يرى القرآء ان كلمة المرور لم تتغير غير ان الصدفة دون سواها اطلعت رجال البوليس العام عليها

ولا تزال الجمعية تدعى جمعية اللصوص العامة وما برحت آخذة فى عملها

فاجتمع الاعضاء فى غرفة موصدة النوافذ ينيرها الغاز وكانهم مجتمعون فى منتصف الليل

ويستحيل ان يرى من الخارج شئ لان النوافذ موصدة كما قلنا

فلما التف الاعضاء حول الطاولة دخل ميلورد الذهب الى القاعة بعد ما كتب بعض مذكرات فى الغرفة المجاورة ..

فنهض الجميع لاستقباله لانه صار رئيساً للعصابة .

ورث الرئاسة عن الشيخ سام وقام باعبائها متحملا اخطارها وتبعاتها . فجلس فى كرسيها وقدزال من وجهه كل اثر لذلك الامتعاض الذى ظهر عليه بعد مخاطبته للبازونة بولنسكا

فكأن وجه قواه باجمعها الى منصبه فقال ايها الرفاق اننا عازمون على فحص ميزان المدة الفائتة اما من الجهة الانكليزيه فلا يوجد مايسر وذلك من سوء حظنا وسوف نرى اذا كان التوفيق ملازما لنا فى الجهات الاخرى التى يزهر فيها اعمال الجمعيه هذا ما ارجوه . وقبل كل شئ ندعو المساهمين باسمائهم

واخذ ينادى بالاسماء على التوالى فكان الحضور من فرنساويين وانكليز والمانيين وسويسريين وبلجيكيين ونمساويين وايطاليين واسبانيين يلبون النداء

فقال الرئيس لننظر الان فى الحساب

وكانت الارباح وافرة فوزعت وتناول جاك نورتون نصيبه منها فبلغ ثمانية الاف فرنك

وهو قدر جاءه فى وقت الحاجة اليه لأنه كان خالى الوفاض بادى الامتعاض

فطفق يتكلم ممتدحاً نتيجة أعمال الجمعية ومبيناً انصافه فى توزيع الارباح على رجالها وذاكراً كيف يتساوى عنده الاعضاء كما يتساوون فى اغتنام الربح . فقد يخون التوفيق

أحدهم اليوم فلا يخرج خاسراً وانما يناله قسم من ارباح الآخرين . وهو تعديل جديد يأمن به العوز كل لص من لصوص العصابة

وتكلم عن المساواة والتضامن السائدين على الاعمال

وحقيقة أمره انه لم يكن يأمل ان يتناول شيئاً من المال فى هذه المرة بل كان يائساً من كل ربح لأن التقارير التى وردت عليه من لوندره كانت مما يثبط العزائم لكن هناك سرقة فى بلاد النمسا أصلحت « الميزانية » أيما اصلاح . ولم يدر بها الا فى آخر وقت

ولو درى بها لما لجأ الى كيس ينينا ولما لقى منها ذلك الصدود والاعراض!...

أما الآن فرأى مصالحتها من الامور التى لا مندوحة عنها. وقد ساءه انه اضطر الى طلب نقود منها وعلم بعد فوات الوقت انه لا يجوز له بأى حال من الاحوال ان يطلب نقوداً من امرأة وان كانت خليلته او مديونة له بما يزيد عشرين ضعفاً على ما يطلبه منها

أما وقد ردته خائباً . . فقد عرف قيمة صداقتها

ومحبتها ولبث كسير القلب حزيناً

وعز عليه بعد التأمل ان يصالحها

فهل يفارقها ان فى ذلك عذاباً شديداً يكابده ولكنه يعرف كيف يجازيها عاجلا أو آجلا !

تلك كانت خواطره حين قبض الاوراق المالية

ثم التفت الى الحضور وقال ايها الاصدقاء ان النتيجة التى حصلنا عليها من اعمال الشهر الماضى على انها حسنة ليست كما نأمل او كما يحق لنا ان نأمل وذلك بالقياس الى الماضى

فقال أحد الاعضاء ان ايراداتنا تقل شيئاً فشيئاً

أجاب نعم واأسفاه ولست اعزو الاسباب الى ضعف اجتهادكم أو قصور منكم ولكن للمعاكسة التى يناصبنا اياها البوليس العام ويحبط بها مساعينا

فقال أحدهم هذا هو الصواب!

قال جاك ان البوليس آخذ في معرفة مبادىء شؤوننا وقانوننا . فلا يدهشنى ان تقل الايرادات لانها انما تقل بمقدار ما نخاطر

قال بعضهم وما رأيك الذى عولت على العمل به أيها الرئيس ؟

اجاب يجب علينا ان نتخذ طرائق جديدة فان المصارف ترتاب وكذلك ادارات البريد وكذلك تجار الجواهر وهكذا تسد فى وجوهنا الابواب الواحد بعد الآخر . فيجب ان نبحث عن أمور جديدة ؟

قال بعضهم وكيف ذلك ؟

اجاب انى موضح لكم أفكارى . اننا مشرفون على فصل يكثر فيه سفر ذوى اليسار اذ يقصدون الى سويسرا والمواضع الصحية . فهذا وقت ملاحظة القطر الاوربية . . .

فصاح أحد الحضور عافاك الله !

قال يجب منذ الآن ريثما يدخل فصل الصيف ان نرتاد القطر التى تنقل اصحاب الملايين وذوى الاملاك الى الشواطيء الجنوبية

قال أحدهم هذا رأى سديد !

قال جاك ويوجد ثروات واسعة يمكن اغتنامها بهذه

الطريقة الجديدة سوآء اشتغلنا ليلا فى المركبات بتنويم المسافرين او بتفريغ عجلات الامتعة

فقال بعضهم أحسنت أيها الرئيس !

قال فكروا فى عظم الثروات التى تنتقل مع المسافرين فى اكياس الحلى والجواهر ومحفظات الاوراق المالية ودفاتر الحوالات ! . . ولى رغبة وهوى فى مباشرة هذه الاعمال فى القطر المتقنة المختصة بالكبراء

فأجابه أحدهم سوف تجد من يساعدك ايها الرئيس

قال اليكم بعض الشرح وضعته لهذا الغرض ففيه امثل الطرائق وايسرها وآمنها عاقبة وفيه كل مايتصوره الذهن من الدهاء وقد عهدت الى كاتب سرى بنسخ صور من هذه اللائحة فلكل منكم صورة يطالعها ويتدبر ما فيها

ووزع النسخ المكتوبة على الحضور فلما انتهى قال هل يوجد من يريد الكلام

فنهض الطبيب بلتيمور واجاب انا

قال جاك نورتون تكلم

اجاب لدى طالب جديد

قال من اين

اجاب من باريس

قال ما اسمه ؟

اجاب صابوريو

قال هل هو من اهل الامانة والفطنة ؟

اجاب نعم

قال أتضمنه ؟

أجاب بلا شك

قال هل يسعه ان ينفعنا بشيء

اجاب بل نفعه جزيل انا وقد فعل لحسابه الخاص ما فعل . قال هل يستطيع ان يدفع الى صندوق الجمعية رسم الدخول وقدره الف فرنك ؟ اجاب انه دفعه الى وها هو . قال ادفعه الى امين الخزانة يا بلتيمور .. والآن فاقترعوا على قبول المرشح صابوريو

فارتفعت الايدى اشارة بالموافقة . فقال الرئيس لقد قبلنا الطالب . وانثنى الى بلتيمور قائلا له : انبئه بما

قررناه .. وسلمه نسخة من اللائحة التى كتبها تسهيلا للعمل فى الاسفار ..

فضحك الجميع فقال جاك نورتون لقد ختمت الجلسة ايها الرفاق ... وبعد شهر كامل عودوا الى هنا الا اذا صدر امر جديد عن انتقال مركز الجمعية

فخرج الاعضاء متفرقين الواحد بعد الآخر حتى لا ينتبه اليهم احد

وانصرف جاك نورتون بعدهم جميعاً وهو يقول معى ثمانية آلاف فرنك !.. فالقدر كاف جزيل

ولمعت عيناه سخطاً على الخائنة التى صارمته فقال ساء ما تتوهمين يا نينا حسبتنى عادماً كل قوة بل حسبتنى لاشيء !.. ولسوف ترى العاقبة لمن تكون !

الفصل الثانى

(امبراطور الشحاذين)

ان حانة العجوز ديبو واقعة فى قسم يعد من اقدم اقسام المدينة فحيث مررت تجد بيوتاً ازرى بها الفقر وسكاناً مثل بيوتهم

ولا ندرى السبب في كثرة ارتياد القوم لتلك الحانة ولئن كثر عدد المترددين عليها فتلك العجوز لم تكن تدعوهم . والذى نعلمه انه لا تأزف الساعة العاشرة من مساء كل يوم حتى يتوافد الاقوام على تلك الحانة من رجال ونساء مبادرين افواجاً

يأتون زرافات ووحداناً وكانى بهم يحاولون التخفى او هم لايتعارفون او يتظاهرون بذلك

فيدخلون ولا يقفون امام مكتب الحانة او مقصفه حيثما جرت العادة للشرب بالوقوف امامه ولكنهم

ينطلقون الى سلم صغير يفضى بهم الى طبقة ارضية لايخرج منها صوت ولا ينبعث نور

وبعد ساعة او ساعة ونصف يخرج الجميع من رجال ونساءمن غيران يتلفظوا بكلمة واحدة كانهم جواسيس قد اجتمعوا لمؤامرة او لمكيدة ثم تفرقوا وهم صامتون

فمن هؤلاء الاقوام ؟

من اين يأتون ؟

وماذا يصنعون هناك ؟

اذا شئت ايها القارىء ان تعرف ذلك فانزل معهم الى حيث يجتمعون اى الى تلك الطبقة الواطئة واسمع مايدور بينهم

والطبقة المذكورة موضع معقود سقفه بالحجارة كالقبو لكنه واطىء جداً ليس فيه من الاثاث الا طاولات ومقاعد خشبية وفي داخله طاولة اعلى من سائر الطاولات كأن عندها مقام رئيس يلقى خطبة او محاضرة

وعلى الجدران عصي وهراوات وثياب قديمة معلقة

وفى السقف ثلاثةمصابيح تنار بزيت البترول

ذلك كل مافى القبو

أما الاشخاص فسوف يجىء الكلام عنهم

قلنا ان المصابيح الثلاثة المعلقة فى سقف القبو تنار بزيت البترول غير ان أحدهما كان فى تلك الليله مضيئاً دون الاخرين

واذا بوقع اقدام فى السلم ولاح شبحان احدهما طويل والآخر قصير فالقصير صاحبة الحانة او العجوز ديبو واما الطويل فذلك دفير

فقالت له .

الا ترى النور ضئيلا جداً يادفير فما بالك لاتنير المصباحين الاخرين

أجاب سمعاً وطاعة

واقبل على المصباح المعلق وصاحبة الحانة تعالج الطاولات بالمسح والتنظيف وتتحدث مع الخادم

فقالت له

هل هم عديدون فى هذه الليلة ؛

فضحك دفير واجاب سوف انبئك فى وقت قريب

قالت في وقت قريب ! .. فى وقت قريب ! .. اننى اذ ذاك أعرف ما تعرفه تماما

قال اذن فماذا تريدين ؛

أجابت أريد أن أحضر الاقداح من غير ان ازعج الذين هم فوق

قال أنت تعلمين ان عددهم يكون فى كل مساء نحو عشرين شخصاً ولا ينقص ...

أجابت صدقت ... الا انهم فى هذا المساء يزيدون

قال نعم فاليوم يوم سبت .. ويزيدون لان غداً يوم الاحد

قالت ان يوم الاحد أفضل الايام ولا سيما عند الشحاذين والجمهور اسخى يداً فيه ولا أدرى لماذا

قال لان الجمهور يأكل طعاما طيباً فى ذلك اليوم !

قالت ربما كان ذلك سبباً

قال اذن زيدى الاقداح عشرة وسأهتم بتهيئتها

قالت ويحك لاتكسر منها شيئاً

اجاب كونى مطمئنة فلا خوف

وصعد دفير

وفى اثناء ذلك اتمت تنظيف الطاولات فقالت سوف يسر برموش ويعلم اننى أعتنى به لانه من أفضل عملائى ... وها هو مقبل !...

وحيته باسمة فحياها باحسن من تحيتها

فجلس وقال هل كل شىء حاضر ؟

أجابت نعم مثل كل يوم يامسيو برموش

قال أحسنت ... فاعطينى شيئاً من الطعام

قالت الم تتعش فى هذه الليلة ؟

اجاب كلا . فان زوجتى اكثرت الشرب فلم تستطع أن تفكر فى اعداد طعامى

فقالت بهيئة نصفها اعجاب ونصفها استياء :

لعنة الله على فيرجينى

قال يلوح لى انك تستصوبين عملها لانها تأتى الى هنا وتسكر عندك ... واعلم انك تشجعينها على السكر وتحببينه اليها ولا يخفى عليك ان ماتبتلعه من الشراب في كل اسبوع يدير طاحوناً مدة يوم كامل

أجابت انعم بها من امرأة شديدة الحيل

قال وهى عميلة لك من اكرم العميلات ولكنها زوجتى اونصفى كما يقولون وادمانها الشراب يحملنى على نفقة

قالت كلا كما عظيم

اجاب كيف لا ولا يحق لى ان افخر على غيرى ؟

أجابت صدقت يحق لك فعندك الكفاءة ولا يمكن ان يسمى كل انسان امبراطور الشحاذين

قال اننى لم أصل الى موضعى الا بقوة يدى وتعبى

قالت ومن الذى يأتيك بالربح الاوفر من بين جميع رعاياك ايها الامبراطور؟

أجاب لقد يحسب الناس مكاسبى كبيرة وهى أقل مما يحسبون فان تلاميذى ورعاياى لايدفعون الى فى هذه الاوقات كما كانوا يدفعون قبلا ... ثم ان المزاحمة افسدت حرفتنا .. فقل عدد الشحاذين الاغنياء عن ذى قبل ولم يعد الاحسان رابحاً ؟ .

قالت وكيف ذلك

أجاب اريد بالاحسان التصدق في الطرق فهذا

امر قل وندر الآن . والظاهر ان أصحاب الاموال اكتشفوا حيل المتسولين فعمدوا الى طريقة جديدة وهى اعطاء الصدقات للجمعيات الخيرية فهم يشكون من احتيال الشحاذين ويرغبون فى الاحسان حتى يشتهر عنهم انهم كرماء ...ويزعمون انهم راغبون في الاحسان الحقيقى أى فى التصدق على من يستحق ... وانهم لكاذبون !

قالت لعلهم على هدى ...

قال هبيهم كذلك ولكن اذا كانوا يحسنون الى المنكوبين والبؤساء الحقيقيين فمن ذا يعولنا نحن ومن يطعمنا نحن الشحاذين المحترفين للشحاذة ؟

قالت اخبرنى ايها الامبراطور والكلام بيننا الا يجب على المتسولين الاشداء الذين هم مثلك ان يكسبوا ارزاقهم من غير الشحاذة ؟

فانتشاء شارلمان من هذا الانتقاد وتقدم اليها قائلا بعظمة :

انى لم اخلق لبسط يدى للسؤال وانما خلقت لاكون

سيداً عظيما ..: أما العمل فلا يدخل فى اشراكى ... أنا وفرجينى تعودنا السعة وعيش الرخاء وتعودنا اغتنام الربح بمساعى الغير ... وهي خطة لا نحول عنها أبداً

اجابت أصبت فانها خطة حسنة !..

قال تبصرى في الامر جيداً . لو عكفنا على العمل لما كنا نأتى الى حانتك في كل يوم

وهنا اظهر استياءه وقال أتشكين من تصرفنا فاذا كان لا يعجبك فما ايسر الرحيل من هنا !

أجابت كلا لست اشكو يامسيو برموش انى عالمة بمعنى المزاحمة التى أشرت اليها فى كلامك والمزاحمة موجودة فى جميع الحرف فى هذه الايام ... والدليل على ذلك انى ...

قال كفى فانت تربحين ربحاً كبيراً وتريدنى اجئك باصحابى ... وتلامذتى ... وفيهم وحدهم الكفاية !

وجلس منتفخاً كبيراً

فقالت قر عيناً ايها الامبراطور فانى لا اجحد صنيعك معى !

وانحنت امامه باحترام مصطنع

فقال انما تفعلين الواجب المفروض عليك وفى هذا المساء يوجد بين اصحابى اثنان جديدان

اجابت من هما ياترى ؟

قال طالبة علم وطالب . وكلاهما فى احتراف الشحاذة راغب

فقالت لله درك يابرموش من استاذ يستحق التقدم فان دروسك تتوالى من غير انقطاع ولا شك عندى فى نجاح تلامذتك !...

اجاب اصبت ... وانما خلقت لالقى محاضرات فى كلية صوربون واراس المحافل واشعر بذلك فى نفسى

قالت وما بال السائلة الحسناء الم تأت بها ؟

اجاب كلا ولا تجىء فى هذا المساء لان لها شغلا مع فيرجينى

قالت ياللخسارة فهى مفيدة فى محاضراتك

اجاب اعرف ذلك وحسبها برهاناً حياً او نموذجاً لا يوجد خير منه ! ولكن تغيبها مرة واحدة لا يضر.

قالت وهل انت راض عنها ؟.. وهل تأتيك بنتيجة حسنة ؟

اجاب ان تلامذتى كلهم يأتون بالنتيجة الحسنة ويعرفون كيف يرتقون القلوب غير ان السائلة منقطعة النظير فى ذلك

قالت حقاً ان الكآبة مرتسمة على صورتها السقيمة الا انها مع ذلك بديعة الحسن — فهى تستدر الدموع من الحجارة

اجاب بل تستدر الذهب من الخزائن !

قالت اقسم لك على اننى اتأثر من مجرد النظر اليها

اجاب دعى تأثرك لنفسك ولغير هذه الاوقات فان الزعنفة عائشة رغداً تأكل وتنام ولا تحتاج الى شىء

قال ربما تحتاج الى والدة . . .

اجاب هذا امر لا يعنينى ولا شأن لى فيه ! . . وقد اخبرتك انها ابنة يتيمة .. بل لقيطة وان لم نصادفها انا وفيرجينى لماتت جوعاً من زمن طويل

قالت لعمر الحق انك أحسنت اليها يامسيو برموش

والآن فاتنى ان اجيئك بالطعام

أجاب الحمدلله على انك تذكرت ذلك ...

قالت ها هو دفير فمره بما شئت ياصاحب الجلالة

فدنا الخادم حاملا اقداحاً وزجاجات فوضعها على الطاولة فقال شارلمان جئنى بطعام

قال ماذا يرغب جلالة مولاى الامبراطور ؟

قال ويحكما لقد أمللتمانى وابرمتمانى بلقب الجلالة والمخاطبة بمولاى افلا تنتهيان

قال دفير عجباً اولست امبراطور الشحاذين ؟

أجاب هذا صحيح . اذن فهات ما تختاره لى من الطعام على ان يكون جيداً وكثيراً

قال فهمت ياذا الجلالة

فانطلق دفير سريعاً وتبعته صاحبة الحانة

وقد سمعت صياح عملائها ينادونها

وعاد دفير بعدهنيهة حاملا صحناً عليه لحم بارد وقطعة من الخبز وزجاجة من الخمر وقال تفضل ياذا الجلالة

فجلس أمبراطور الشحاذين الى طعامه وشرابه وبعد

بضع دقائق التهم فيها كل ما لديه وقال قد انتهينا وصلحت نفسى الآن ...

ودخل وقتئذ أشخاص عديدون من غير أن يسمع لهم صوت

الفصل الثالث

« مجتمع شحاذين »

فقعد الداخلون فى زاوية من القاعة على مقعد خشبي طويل

وجاء بعدهم غيرهم وفيهم الفتيان والكهول والشيوخ وثلاثة غلمان أو اربعة وأربع نساء وصبية ذات خجل شديد صفراء اللون

أما ملابسهم فكانت متشابهة ولهم وجوه منكرة

فجلسوا وهم سكوت ... وكانوا ينتظرون شيئاً يبدو لهم فى المكان كأنهم ينتظرون ظهور احدى الاعاجيب

هذا وبرموش قد أدار ظهره للقادمين وطفق يملأ قصبة التدخين تبغاً من غير ان يحفل بهم وكانهم غير موجودين

وهو احتقار بديع من سيد كبير لقوم أدنى منه منزلة !

ثم أخذ يدخن بلذة . فاراد أحد الحضور ان يحذوا حذوه ويقلده في التدخين فاسرج عوداً من الثقاب

فالتفت اليه شارلمـان غضوباً ورفع بيمينه وصاح بصوت جهورى :

التدخين ممنوع من هنا !

ومعلوم ان المنع لا يتناول امبراطور الشحاذين لانه ممتاز عليهم ويحق لهم الانتفاع بامتيازه

ومن مثاله بينهم وقد أسعده الحظ فصار ملكا عليهم والا فما نفع السلطة والشوكة اذا لم يكن المراد منها التحكم والاستبداد ؟ ان العاجز من لا يستبد

ثم قال ان التدخين ممنوعاً خوفاً من ازعاج النساء . ومن اخطار الحريق

نطق بهذه الاوامر وتعليلها ثم رجع الى القصبة يدخن

بها على مهل

ودخل أشخاص آخرون واستمر الجمهور يتزايد على مهل وكلهم صامتون . فلما كثروا علا همسهم وأخذوا يتحدثون

فنظر شارلمان الى ساعته وهى ساعة قديمة من النيكل قد اشتراها من عند بائع أثواب عتيقة

فقال ها قد حلت الساعة التاسعة وجاء الوقت المعين فلنبتدىء !

فتحول وقتئذ الى ناحية المجتمعين وقد يبلغ عددهم ثلاثين شخصاً من الجنسين

وكانوا صابرين لشارلمان ينتظرون منه افتتاح الجلسة

فجلس الى طاولته الكبرى وضربها بكفه ثلاثاً لينبه الحضور

وكان برموش متعوداً افتتاح هاتيك الجلسات وقد اقتبس ذلك فيما مضى فاصدر أمره قائلا تقدموا الى الصندوق

ووضع قبعته على الطاولة كانها وعاء للنقود

فقال ليدفع كل منكم ثلاثة فلوس وهى قيمة الرسم المضروب على كل واحد أو واحدة

فاخذوا يقتربون الى ذلك الصندوق الوقتى

فمروا جميعاً بالطاولة وتساقطت الفلوس على القبعة

والمراد بالفلس هنا مايعرف باللغة الفرنساوية بكلمة (سو) وهو قطعة مسكوكة من نحاس قيمتها عندهم جزء من عشرين من الفرنك

هذا وعينا برموش تراقبان الجميع الى ان قال حاذروا ان يكون بين هـذه الفلوس زيف أو غريب وحسبى انى غششت امس باربعة فلوس وكفى !

فلما انتهى من تحرير الحساب دس تلك النقود الصغيرة في جيبه وقال انتبهوا الى ماالقيه عليكم واجتمعوا حولى

فلما أطاعوه أنشأ يقول :

اعلموا ايهـا المجتمعون أيا كنتم انكم قد متم الى هنا لتتعلموا حرفة هى افضل حرف العالم والطفها واخفها وتحديدها انها الحرفة التى يكسب فيها المرء نقوداً من غير ان يشتغل والتي يكون للمرء فيهـا دخل من

غير رأس مال

« ولعمرى انها صناعة نبغ فيها افراد وظهر أساتذة ولها تعاليم خاصة بها واحاديث وروايات ولا عيب فيها. ويزيدها فضلا ان أصحابهـا لا يتعرضون للاخطار ولا يعرفون معنى اليأس ولا يضرهم كساد سـوق . وقد قرأت فى أحد التقاويم انها حرفة لا ضحايا لها ابداً

فارتفع ضجيج استحسان وموافقة من الحضور

فقال شارلمان هذه هى الصناعة التى القيها اليكم لتتقنوها كما اتقنها غيركم ولى تلاميذ كثيرون تعلموها منى ورفاق اقتبسوا دقائقها فهم الآن فى ارغد عيش ولا يريدون بصناعتهم بديلا. واذا سمعتمونى أدعوها صناعة فلانها صناعة حقيقية والذين عرفوها حق المعرفة يأبون الانصراف عنها الى تجارة او الى صناعة اخرى معروفة

واعلموا وقاكم الله ان للموظفين آفة هى الحكومة لانها تبتليهم بالعزل وان للتجار آفة هى الدين يصيبهم بالقتل ولكن الشحاذين لايعزلون ولا يصيبهم الافلاس أبداً . . . وها أنا شارع فى الالقاء

وهنا تنحنح كما يفعل الخطيب اذا أراد الافصاح

وقال هل تعرفون مكاناً يجب فيه على السائل ان يقرع الباب او الجرس ؟

فلم يجبه أحد

فقال هو ضواحى البلد . لأن هـذا العمل لا يفلح صاحبه فى عاصمة بسبب كثرة البوابين ورجال الشرط

وما كاد يتم هذه الجملة حتى رأى الحضور الخادم دفير مقبلا مبادراً وهو مضطرب الحواس

فقال شارلمان ماذا جرى ؟

فتقدم اليه وهمس فى اذنه قوله ان رجال البوليس فوق !

فظل برموش غير مكترث وقال ماذا يهمنى ؟ اننا أحرار نجتمع كيف نشاء وحرية الاجتماع غير ممنوعة فى ما ارى ... اليس الامر كذلك . اننا جمعية علمية او مدرسة فنية اسمها مدرسة الشحاذين

أجاب نعم ولكن صاحبة الحانة لا تود ان يحدث عندها امور ... فاخفض صوتك ..ولا يطلع لكم حس

ولا حسيس !

قال الافضل ان ترسل الىّ زجاجة خمر وكفى فاذهب

فانطلق دفير وعاد شارلمان الى اتمام ما بدأ به فقال ليس قرع السائل للابواب من الامور العسيرة وانما هو كأحرف الهجاء للمتعلم القراءة أى كالالف والباء والتاء من لغة الحرفة نعم ان السائل لايفوز بالصدقة فوزاً محققاً ولكن بين اربعة ابواب تفتح يوجد باب يتصدق فاتحه . وذلك معروف بالاحصاء الدقيق . فاذا اراد احدكم ان يتسول من الصباح الى الظهر فقط امكنه الحصول على خمس وعشرين صدقة . وهبوا ان قيمة الصدقة الواحدة فلسان فيكون المجموع خمسين فلساً . ويمكن الحصول على مثلها بعدالظهر فيبلغ مجموع الكسب اليومى للمتسول الواحد بطريقة قرع الابواب خمسة فرنكات من غير مشقة ولا عناء . وهذه طريقة يسيرة جداً وفيها فائدة للاجسام لان السائل بانتقاله الى ضواحى البلد يستنشق هوآء نقياً وينزه الطرف فى

المشاهد الطبيعية

فنهضت امرأة من الحضور وقالت قد عرفت ما عرفت من هذا القبيل وسأمتحن ذلك غداً

قال تجولى فى نولى واسنيار وجارش وسن كلود ويمكنك ان تفعلى ذلك مدة شهر كامل لان البيوت عديدة فى هذه النواحى كما تعلمين ويوجد اماكن أخرى صالحة كسان مانده وفنسان وغيرها وكلها ممتلئة باصحاب الاموال ... الذين لا نفع منهم لاحد !

فضحك الجميع

ففكر برموش فى تنبيه دفير وأثر عليه وجود رجال الشرط فى المكان فقال لهم :

صه ياقوم ! ..

وكانت المرأة التى تكلمت قد نهضت وانطلقت لتجرب الشحاذة فى الضواحى على ما ذكر برموش واذ ذاك عاد الخادم دفير حاملا زجاجة خمر

فقال له برموش الا يزال البوليس فوق ؟

فاجابه كلا فقد ذهبوا

قال انى أفضل أن أراهم من بعيد ...

ثم انثنى الى الحضور فقال ماذا كنت أقول ... لقد تذكرت الآن ... بعد قرع الابواب يأتى طريقة ثانية تجب معرفتها هى مقابلة الخبازين والاستعطاء منهم .

وهذه طريقة يفلح صاحبها فى وسط باريس وفى جميع اقسامها سواء فى الطبقة التى يسكنها أهل الطبقة الوسطى او فى الاحياء الانيقة التى يقطنها خاصة الناس . معلوم ان الخباز اوصاحب حانوت الخبز لا يمنع قطعة خبز صغيرة عن سائل فالخبازون اما أن يكونوا فى هذه الحالة خائفين من السائل ان يجيء ، فيختطف رغيفاً ويطير به طيرانا فلا يدرك اثره واذا دركه فلا يستطيع أن يأخذ الرغيف منه لان العامة تنتصر للسائل لحسبانها اياه فقيراً . واما ان تحرك الخباز الشفقة حقاً ومهما يكن من الامر فانجع الحيل فى هذا الباب أن يتقدم الى الخباز غلام يطلب قطعة الخبز شاكياً قرص الجوع وهذه حيلة لا تحبط ابداً

فعليكم ان ترسلوا الصغار وترقبوهم عن بعد فتجنون ثمرة سؤالهم .. فاذ امتلأت السلة او الكيس يمكن بيع

ما فيها او ما فيه من رجل يربى الفراخ او من احد
العمال اصحاب العيلات فهو يبتاع كسر الخبز باثمان جيدة.
اما عنوانات باعة الفراخ فى البلد فقد جئتكم بها مكتوبة
بعد ما اخترت منهم الذين يدفعون الثمن العالى . وثمن
الورقة من هذه الاوراق المشتملة على اسماء باعة الفراخ
وعنواناتهم اربعة فلوس ... فمن منكم يرغب فيها ؟

فانبرى رجل فى نحو الاربعين من عمره معه ولد ضئيل
مهزول وقال انا ؟... فهات واحدة ...

أجاب لبيك

وللحال اعطاه ورقة وتسلم منه اربعة فلوس فاخذ
الرجل الورقة وانصرف . وضم شارلمان الفلوس الى
سائر ما جمع

واذ ذاك دخل شخص جديد الى قاعة الجمعية . فجاء
وقعد فى الصف الاول فى مكان الرجل الذى
انصرف

فقال له برموش ادفع رسم الدخول !

وكان الرجل لم يفهم المراد من هذا الامر مع انه

صريح فوضع امبراطور الشحاذين قبعته امامه وقال له:
ادفع ثلاثة فلوس ... ولا تتأخر

فاطاع الرجل

وكان لابساً ملابس بالية غزير الشعر لا يعرف عمره
وبينه وبين بعض الحضور مشابهة فى الزى ومظاهر
البؤس

وما كاد يدفع رسم الدخول حتى اقبل دفير فهمس فى
اذن برموش يقول له :

الم يدخل شرطى الى هنا ؟

فاجابه لم يدخل احد سوى هذا الشيخ الصعلوك ..
وهو طالب راغب في الشحاذة ...

ونظر برموش الى الرجل ملياً الا انه اطمأن لما رأى
سكينته وهيئته

فعاد الى خطبته فقال يوجد للشحاذين عدو هائل
هو كاتب مؤلف وضع كتاباً فى الشحاذة اودعه حيلهم
وابدع فى وضعه فلم يبق على شيء مجهول الا كشفه
واتى عليه بالبينات

« ومن حسن الحظ ان قراء هذا الكتاب قليلون ولولا ذلك لامتنع الانتفاع بحرفتنا

« فاذا علمتم بوجود هذا الكتاب فى مكتبة او عند باعة الجرائد فلا تتأخروا عن شرائه

فقال الرجل الذى دخل الى المجتمع :

لماذا ؟

اجاب برموش لمنع انتشاره فانه مضر بالشحاذين واذا وقفت اليه فأطرحه فى النار وكن واثقاً انك رابح فى ذلك ربحاً جليلا

فضحك بعض الحضور وقال شارلمان ايضاً :

وصلنا الآن الى ما اسميه الخدمة العملية والخدمة التى لا تتطلب عملا

وهنا تناول برموش عن طاولته بعض دفاتر مكتوبة فاختار منها واحداً وقال هذا دفتر الشحاذين وفيه اسماء احياء البلد وشوارعها مقسمة احسن تقسيم . واسماء الاشخاص المعروفين بحب الاحسان مع عنواناتهم وبعض صفاتهم التى تهم السائلين واعنى بها الايضاحات

الضرورية التي يتمكن بها كل واحد منكم من معرفة ما يجب ان يقوله لهؤلاء الاغنياء ... مثال ذلك

وفتح برموش الدفتر وقرأ فى الصفحة التى فتحها اتفاقا فى اولها ما يأتى :

« م . ك . رجل تقى شديد التقوى . تطلب منه اسعافاً للقيام بتنصير غلامك فلا يبخل عليك بمائة فلس يدفعها فوراً . والافضل ان تقصده بعد الظهر

« م . ز . صباغ قديم يشتغل الآن بشراء الملابس . تتقدم اليه كأنك عامل لم يجد عملا يرتزق منه او كأنك متبطل متعطل يلتمس شغلا

« م . ى . تحدثه انك توشك ان يطردك مالك البيت الذى تسكنه لانك عاجز عن دفع قيمة الاجرة بالاستحقاق . فيتصدق عليك بسخاء

« الجنرال ف . عسكرى قديم عاد حديثاً من الاقطار البعيدة والمظنون انه كان فى تونكين أو فى مداغسكر تخبره بانك عاشق مفلس راغب فى التطوع في الجندية لتخاطر بنفسك وتستريح من فقرك

« م . ت . هذا الرجل اشتراكى لكنه يمتلك الملايين فاكتب له انك ابن رجل هلك فى ثورة ٢ دسمبر والق طلبك الى البواب وارجع فى اليوم التالى

« م . س ـ ازعم عنده انك من جنوبى البلاد الفرنساوية وتعلم لهجة ابناء تلك النواحى

« م و . الرجل اديب كاتب يكتب المقالة بعشرة فرنكات واكثر ما يكتب للشعراء مساعداً اياهم فى وصف المشاهد النثرية فاذكر له انك مارست التمثيل قبلا ولكن بختك عاثر وقد كنت تشتغل فى الريف فلم تفلح وثق ان النتيجة تكون حسنة

« م . ن هذا الرجل عضو فى المجمع العلمى فقل له انك مخترع نفدت نقودك على اختراعك واطلب منه عشرين فرنكا . ويجب ان تقصده في الصباح من الساعة العاشرة الى الحادية عشرة ولا تقصده فى غير هذا الوقت لانك لاتجده فى منزله »

وهنا توقف برموش فقال عندى عنوان استاذ طاعن فى السن يبذل النفس والنفيس فى نفع المولعين بالكتب

ومن يتقدم اليه كفقير طالب علم اجزل له العطية وقيمة عنوان الرجل فلسان اثنان ومعلوم انها زهيدة بالقياس الى شهرته من العلم .. فمن دفع فلسين لايحتاج الى عناء السعى للحصول على اربعة فرنكات فى يومين فمن يشترى ؟

فبيع العنوان اربع مرات لاربعة من الحضور

ثم عاد امبراطور الشحاذين الى قرآءة مافى كتابه على ما يأتى:

مدام . ا . ـ امرأة باسلة كثيرة الاولاد فاكتب اليها انك رزقت ستة غلمان الا انهم يموتون جوعاً . . .

فلا شك فى انها تعطيك أربعين فلساً على الاقل

« مدام . ب هذه صاحبة املاك لكنها ذات صلات مع الراهبات فعليك ان تطلب منها توصية الى الراهبات اللواتى تعرفهن بالاحسان اليك بالخبز واللحم والفحم وغيره من الحاجيات . ولعمرى ان عنوانها جزيل النفع ومنه خير كثير

« مدام س . هى امرأة على مذهب البر وتستانت

فاكتب اليها انك موظف فى منصب حقير اومستخدم جار عليك مخدموك لانهم على غير مذهبك فيكون جزاؤك منها خمسة فرنكات على الاقل

« مدام د . امرأة يهودية . فتقدم اليها زاعما انك من الاسرائيليين الروسيين فتجود عليك

وهنا اطبق كراسته النفيسة وقال قد رأيتم فائدة هذا السفر الجليل القدر . ففيه نحو الف ايضاح مما سمعتم. فهو منجم ذهبي لمن يمتلكه ويقره فى جيبه . وثمن النسخة منه فرنكان ... فمن يشترى ؟ . .

فامتدت اليه عشر ايد بينها يد الرجل الذى جاء فى الآخر

فوزع شارلمان عليهم نسخاً من كراسه وقبض الثمن وهو باسم

ثم قال اما الآن فعندى بعض امور أوردها لكم على سبيل التبيين

قد تجدون فى كتابى حيلة لطيفة تتعلق بمسئلة التأخر عن دفع اجرة البيت فهذا الادعاء ينفع فيه وصل من

مصرف الرهون تحصلون عليه بطريقة سهلة هى مصاحبة احد مستخدمين المصرف الذين يطرحون تلك الوصولات للنار متي انقضت مدتها فواحد منها ينفع نفعاً جزيلا عند الحاجة اليه

وأوصيكم بأمر آخر هو ان لا تعطوا عنواناً حقيقياً لمحل تقيمون فيه ويكفى عند ماتتوقعون تحقيق مدعاكم ان تذكروا حياً من الاحياء المتنائية عن وسط المدينة فذلك يمنع التحقيق السريع

وهنا اظهر برموش رغبة منه فى الاستراحة فشرب كاساً وثنى

ثم عاد الى اتمام محاضرته المهمة فقال وصلنا الآن الى خدعة الزواج . . . يوجد هنا برسم البيع فى مساء كل يوم اثنين جريدة تشتمل على أسماء اصحاب الاعراس ويمكن الاهتداء بها الى كل من يحتفل بزواجه فى العاصمة فى مدة الاسبوع

«واعلموا ايها الاصدقاء ان هذه الخدعة الصغيرة تأتى بربح عاجل أكيد

« يمكن ان يختار احدكم أى عرس شاء فيقصد الى باب الكنيسة التى يحتفل فيها وذلك في الوقت المعين للاحتفال وهناك يستقبل العروس عند خروجها من الكنيسة ويقول لها ان احسانها اليه يوليها سعادة وتوفيقاً ويكون فألا حسناً . ويوجد طريقة أخرى هى ان يرسل اليها وقت عشاء العرس تحية وتهنئة يكتبها له استاذنا الشيخ . فيعطى مالا وفيراً .. اما جريدة الاسماء المشار اليها فلا يزيد ثمنها على عشرين سنتيما لاغير

« وفى هذه النشرة الاسبوعية العصرية دليل يهدى صاحبها الى المنازل التى يتصدق ذووها على السائلين

« الى هنا ينتهى الكلام على الخدمة العملية . وبقى علينا ان نتكلم عن الخدمة التى ليس فيها عمل وهى تتعلق بالاوراق والوسائل التى لكل واحد

ولما تلفظ بهذه الكلمات نهض بعض الحضور وانصرفوا مكتفين بما علموه . ولعلهم من أهل العمل وقد تلقوا ما يحتاجون الى تلقيه ووجدوا فيه ما يغنى عن سواه

فلما انصرفوا رجع امبراطور المتسولين الى تتمة خطابه

فقال ان الكدية مع العقود يمكن اتفاقهما بسهولة عجيبة وكيفية ذلك ان تحرك عواطف العيلات المحسنة وتكتب الى المستشفيات والصيدليات والجمعيات الخيرية والمصارف والمحال التجارية ولجن الاعياد الخيرية والمجالس البلدية وغيرها

« فاذا لجأت الى هؤلاء جاءك الرزق وانت قاعد من غير ان تتحرك وجاءك مختلفاً مابين كساء وطعام وفاكهة وسائر اصناف العطايا من غير ان تتكلف عناء حملها الى بيتك

« وانما تحتاج لتحقيق هذه الامنية الى امرأة معتلة الصدر او ولد سقيم . فيبادر اليك المحسنون بحسناتهم وتتوالى عليك النعم . فتأتيك النقود واللحوم الطيبة وزجاجات الخمر »

فارتفع ضجيج استحسان من الحضور

ثم قال اما اذا اردتم الخروج من البيت فخير مكان يصلح للمغنم محطات الامنيبوس ومحطات الترمواى الكبرى

« هناك يوجد على الدوام أناس كثيرون ينتظرون أو يمرون . ولا حاجة بكم الى بسط الايدى بالسؤال وانما يجب ان تذرفوا العبرات صامتين .. وترعد اعضاؤكم .

« ويوجد نفوس كريمة تهتم بكم وقتئذ فيستفهم منكم بعضها فيكون جوابكم على الوجه الآتى :

« منذ أمس لم أذق طعاماً

« أو منذ خمسة عشر يوماً وأنا أسعى ولا أجد لى عملا .

« ان اهلى لا خبز عندهم ولا نار يستدفئون بها ... وهلم جرا

« فاذا سقط أول فلس اليكم تبعه فلوس عديدة كأنها برد يتوالى سقوطه من السماء

« فمتى انتهى اليوم كان الكسب وافراً

« ومن المواضع الصالحة باب الكنيسة غير ان المكان هناك يشترى يا اولادى . فاذا لم يشتر احدكم مكانه بل اراد القعود حيثما يشاء طرده الرفاق الآخرون زملاؤه فى الشحاذة

« وعندى مكانان للبيع عن مدة شهر أحدهما على باب كنيسة القديس بولس والآخر على باب كنيسة القديس جرمين

فقال الرجل الذى كان آخر الحضور :

وهل هما صالحان ؛

أجاب كيف لا !

قال كم الثمن

أجاب ثمن الواحد خمسة فرنكات

فلم يطلبها أحد . ولعلهم وجدوا الثمن غالياً بالنسبة الى مايحملون من الفلوس

فقال وعندى مكان ثالث لثمانية أيام فمن شاء الحصول عليه فليدفع اربعين فلساً وهو على باب كنيسة نوتردام

فقال أحدهم انا اشتريه

ودفع له فرنكين فسلمه بها وصلا وقال يمكننى تأجير اماكن ليوم واحد ولا اتناول من المستأجر الا قدراً معلوماً في المائة من الكسب اليومى . وذلك فى مساء اليوم

« وافضل وسيلة للكسب ان يجد المرء عاهة فى بدنه

أو يحسن التظاهر بانه مصاب بها . ويعرف كيف يتنكر ويتزيى بغير خلقته

وهناك نظر شارلمان نظرة الى الرجل الذى امامه واشتبه به الخادم دفير

فلم يهتز ولم يأت بحركة

فاطمأن قلب امبراطور الشحاذين وقال حقاً ان دفير حيوان بهيم فهو اذا رأى غير شيء ظنه شرطياً ! . . .

ورفع صوته قائلا أيسر حيلة يأتيها كسيح عاجز ان يتظاهر بالطرش والخرس . وذلك لان تحقيق امره عسير جداً وعندى حروف هجائية لمن اراد التظاهر بالطرش كالخرس وثمن النسخة منها فلس واحد

« ويمكن من شاء منكم ان يتعامى وعندى غلمان لقياده المتعامين أجرة الواحـد فى النهار فرنك واحد .

فقال أحدهم احتفظ لى بواحد

قال برموش هل تريد ان تتعامى أيها الصديق

أجاب بلا شك

قال أى قائد تفضله على الآخر اغلام أم فتاة

أجاب بل أفضل الفتاة

قال سوف نجدلك المطلوب .. آه ان الفتيات ذوات شأن وأهمية فى حرفتنا وعندى ابنة تخدمنى فكم من قلوب قاسية رقت لها وكم من نفوس كريمة عطفت عليها ! نعم ان السائلة الحسناء جوهرة غالية !

فقال الرجل الذى اشرنا اليه يخاطب نفسه عنده بنت اسمها السائلة الحسناء ! فهو اذن يستخدم فتاة تتسول لحسابه ؟

وقال برموش والفضل عائد الىّ فى اننى أحسنت تعليمها !... فهى تلميذتى الاولى ... وهى أفضل من استجدى !

فقال الرجل المجهول فى سره :

العلها نائلة ؟ سوف نرى !

واستمر امبراطور الشحاذين فقال يسهل أيضاً على كل واحد منكم أن يمثل دور الابله المعتوه المخبول . فان الهيئة الاجتماعية باجمعها ترثى له وتحسن اليه

فضحك الجميع

ثم قال يوجد طريقة بديعة أيضاً هى أن يدعى احدكم الفتق أو يزعم انه مصاب بارتخاء العروق وفى باريس مستشفيات وضعت لائحة باسمائها وثمن النسخة منها خمسة وثلاثون سنتيما . وهى تهب للمحتاجين أحزمة وأجربة من المطاط يمكن بيعها بثمن طيب وعندى من يشتريها

وفضلا عن ذلك فمن أراد التظاهر بالشلل أو بخسارة احدى يديه أو ساقيه .. اهديته بفرنكين يدفعهما الى الى طريقة يمكن بها أن يتخذ بها ساعداً او ساقا مصنوعة ويستجلبها من جمعية اسعاف ذوى الاعضاء المجذومة والساعد او الساق المصنوعان يباع أحدهما بستين فرنكا. فمن الراغب فى ذلك

فارتفعت يد واحدة من بين الحضور هى يد رجل طويل القامة قوى البنية

فدفع الى شارلمان فرنكين وتناول منـه ورقة عليها بعض ايضاحات وعنوانات وقال له :

لقد امنت ان تصاب بالجوع فى سائر عمرك ايها

الصديق

فانطلق الرجل

فقال امبرطوار الشحاذين هنا حيلة جـديدة هى الحصول من المستشفيات على اذن يمكن حامله من الاستحمام مجاناً فى الحمامات الحارة التى يستشفى بها الاعلاء والمرضى . فانا ادل من شاء على المستشفيات التى تسمح بالاذن من غير صعوبة . وعندى من تجار الخمور من يشترى الاذن بثمن طيب لانه يبيعه من المرضى الحقيقيين

« ولند الآن الى ذكر العاهات. انى أمكن الراغبين منكم من وسائل الحدب والكسح والشلل وسائر العاهات ومرادى الظهور في مظهر المصاب باحدى العاهات لا ان تصابوا بها حقيقة

« داء النقطة يسير أمره جداً . تضع قطعة من الصابون في فمك فيخرج منه الزبد . فافعل ذلك واذهب فتمرغ امام باب الملعب عند خروج الناس منه واجتهد حتى تحسن الارتعاش ثم تعال فاخبرنى بما تغنمه من هذا

العمل الهين فقد تبلغ الجباية من الذين يشاهدونك مارين بك مبلغاً لا يقل عن عشرين فرنكا ولا سيما اذا كان الخارجون من الملعب من علية القوم وأسخاهم يداً رجال الموسيقى والمؤلفون والشعراء ولا تنس فضل الممثلات والعشيقات والفواجر المتسترات فهن رقيقات تأخذهن الرأفة سريعاً

وهنا ضحك واقتدى به الحضور

ثم قال ويوجد وسيلة أيضاً هي التشيخ أي ان يصير الانسان شيخاً ولا حاجة بكم في هذه المرة الى السيدات ومن رغب في الشيخوخة فليطلب مني شعراً ولوازم التظاهر بها فمتى انقلبت شيخاً تنطلق فتقف بباب حلواني وتنظر الى شرفة الحانوت بعينين كاسرتين مفتوحتين وتتأمل اقراص الحلوى تأمل العاشق في وجه معشوقته فتتساقط عليك الفلوس تساقط المطر المنهمر اوكما تتجس الانواء في العارض الهتن . ذلك لان عملاء الحلواني يستحيون ان يملؤوا بطونهم ويشبعوا اجوافهم على مشهد من شيخ صعلوك فارغ المعدة والجيب.

فينقذون ضمائرهم من آلام التبكيت ...

وهنا تبسم وقال ايضاً :

واجل الايام يوم الاحد من كل اسبوع اما في سائر الايام فيمكنكم ان تقفوا بباب معمل او مخزن فيه كثير من العمال والمستخدمين وهناك تشكون لكل من هؤلاء ما ألم بكم من النوازل الناجمة عن كثرة الشغل ولا بد من الارتعاش والارتجاف والسعال في اثناء وقوفكم هناك . ويغلب على العامل ان يكون حي الشعور يتوجع لامثاله فلا يضن على رفيق منكوب بثمن رغيف

وهنا توقف الخطيب ليشرب مابقي من زجاجته فلما فعل ذلك بشره ولذة رفع صوته الجهوري قائلا كدت انسى درساً من اهم دروس الحرفة فاسمعوا وعوا

«اذا اعطيتم ملابس فلا ترتدوا بها اذا وجدتموها لاتزال حسنة . وانما يجب تحويلها الى ثياب طال عليها القدم كما يجب ترقيعها وعندنا الشيخ سبتان فهو في هذا النوع من الخياطة حاذق

فنهض الشيخ الآنف ذكره وتقدم حتى حازى

برموش فحيا الحضور وقال انى حاضر مستعد لكل ما تطلبون منى

وكان يحمل على الدوام ثيابا للشحاذين مختلفة الاجناس مختلطة بعضها ببعض من جميع أنواع الملابس فيصلحها أو يفسدها على الاصح لانه يصيرها ملابس لاتصلح لغير المتسولين

وقد حمل على ساعده رداء خارجياً يكاد يكون جديداً لكنه خرق ظهره خرقا واسعاً ليضع بدلا منه رقعة مشابهة للون الرداء

وأظهر للحضور ناقلا من يد الى أخرى ثوبا لطخ ارادنه لانها لم تكن متسخة كما يجب وذكر انه عازم على جعله بحيث يستندى منظره الاكف

وكان عمله مما يحمل على الفضول فالقى عنوان محله على الحضور

فقال برموش لم يكتف الشيخ سبتان بحرفة الخياطة على انه الماهر فيها بل احترف كتابة الرسائل الشعرية فهو يقدم اناشيد للمغنيين فى الشوارع وعلى أبواب

البيوت . وهى أناشيد مؤثرة جداً

فقال الشيخ سبتان نعم فعندى أكثر من مائة انشودة أعرضها عليكم عند ما تحبون لتختاروا منها ما يروق لكم أما انشودتى الاخيرة فهى محزنة مؤثرة ولا شك فى انها مجلبة النقود الكثيرة

وصعد الى دكة عالية ومدّ يده الى لحيته التى وخطها الشيب وقال اصغوا الىّ

وأخرج من جيبه ورقة وانشد قصيدته بصوت مرتفع مقسومة الى أدوار وهى طويلة عربنا بعضها تعريباً حرفياً حتى لا يفوت القارىء شىء من ادراك كنه تأثيرها على السامعين

وعنوانها

وداع الشاعر

وهذا الدور الاول منها

آه لو علمت ايتها الحبيبة بمقدار خفقان فؤادى لك !

انى بهواك مجنون وهو وحده دينى وشريعتى !...

« واحر قلباه قضى علىّ بمفارقتك فان الطبيب صدر

حكمه الاخير على وبعد أيام قلائل افارق الحياة الى القبر ...

لازمة

تعالى فاذرفي شيئاً من عبراتك على قبرى
وذلك بعد ما تنقطع صلاتى من هذا العالم
وبعد ما يستريح محبك من شقاء الانسان
فدمعك ينعشه ميتاً ويكون له بركة ويمناً

الدور الثانى

أوصيك خيراً بالقفص والاطيار التى ربيناهامعاً تغرد فيها تغريدها الشجى
قضى علىّ بان احرم سماعه وانا تحت اطباق الثرى
وأوصيك بالازهار التى كنت ارويها فى كل صباح
فاجمعى لى طاقة منها وضعيها على قبرى ...

الدور الثالث

وداعا أيتها الحبيبة الصغيرة المحبة الىّ لانك الملجأ الامين والمفزع الخفى
لقد كان هذا الشاعر الفقير بالامس غيوراً عليك

محباً لك ..
ذهب التقبيل وانقطع الضحك وكان لهما عندك رنين يبدد غياهب الغم ويولى القلب ارتياحا !
فالبسى الحداد حزنا على شاعرك الفقيد وكللى ضفائر شعرك بالنقاب الاسود

الدور الرابع

انى راحل عنك منفرداً مغادر اياك غير تارك لك شيئاً لانى لا املك شيئاوما كنت املك من نعيم الدنيا غير هواك وكان يكفينى ويكفيك اما الآن فماذا عسي تصنعين ؟ فاذكرينى اذا اقبلت الدنيا عليك !

وما كاد ينتهى الشيخ من تلاوة انشودته حتى نفحه أحد الحضور بفلسين ثمنالها

فصاح امبراطور الشحاذين ارأيتم تأثير الشعر على النفوس ومن هنا يمكنكم أن تحكموا فى مسئلة تأثيره على الناس في الشوارع .. فثمن الورقة التى فيهاالانشودة فلسان لمن رغب ؟ فامتدت الايدى جميعاً

فهمس برموش فى اذن الشيخ سبتان قائلا لاتنس

سمسرتى

فناوله اربعة فلوس وقال لا أنسى ايها الامبراطور

ثم قال انى طوع اوامر الطالبين اعلم الشحاذة انى فيها استاذ ولا تجدون استاذاً يقبل أجرة زهيدة كالاجرة التى اتناولها منكم. ومن شاء عاهدته على التعلم بثمن اتفق معه عليه ومن شاء قدمت له غلمانا وادوات يحتاج فيها من مارس الصناعة

« فعندى حيل عديدة مختلفة ابيعها لمن يشتريها أو يشترى شيئاً منها . عندى وصولات مزورة تنفع من يدعى له منزلا يقيم فيه . وتذاكر توصية باسعاف وتوصيات للمخابز

وانى انشر صحيفة اسبوعية عنوانها دليل الشحاذين وبدل اشتراكها فرنكان فى السنة واليكم نسخة منها وفيها الاعلانات المهمة

فاصغى الحضور كل الاصغاء

فقرأ اعلاناً هذا نصه :

يطلب رجل اشل للتسول فى حمامات البحر

واخر مثله للوقوف عند الاحتفال بدفن مدام ا ... في مقبرة داكين أما الصدقات التى يتبرعون بهـا عن روح الفقيدة فقد يتولى صهرها فى توزيعها

ـ يوجد مكان اعمى صالح جداً فى باله رويال وهو ذو ريع حقيقى يتفق على التعويض مع صاحب الجريرة الخ الخ ..

ثم طوى الصحيفة قائلا يوجد فيها كل مايهم الشحاذين معرفته .

واذ ذاك اقفل الجلسة ونهض الحضور

فصاحوا بصوت واحد هاتفين .

ليحى الامبراطور شارلمان ليحى زعيم الشحاذين !.

واحاطو به والتفوا حوله وكانوا جميعاً تلامذته

هذا يروم منه بعض ايضاحات ... وذاك يريد عقد اتفاق وآخر يطلب غلاماً أو غلامين فارهين مدربين على التسول وآخر يود شراء جميع مالديه من النفائس

والاخير هو الرجل الذى جاء في الآخر واثرنا اليه مراراً فى هذا الفصل

فحصل على مايروم وسار فى طليعة السائرين

فلما صار الى خارج الحانة قال في نفسه :

صرت قادراً على اقناع لوسيان

وكان الرجل مانيلون متنكراً وقد تمكن من الانخراط فى سلك الشحاذين والحصول على بينات عن اعمال رئيسهم ..

فانطلق وهو متهلل الوجه آمل ان يعرف مقر الابنة التى طلبت منه المركيزة دى سمروز ان يبحث عنها

ثم جعل يصرف باسنانه ويقول آه منك يابرموش اللعين سوف نرى اذا كانت الفتاة التى علمتها التسول هى التى تطلبها المركيزة .. والويل لك يومئذ من شرى

أما امبراطور الشحاذين فلما خلا الى نفسه فى الحانة اخذ فى احصاء ماربح من النقود

فاذا مجموع ذلك يبلغ عشرين فرنكا وهو ربح كبير لليلة واحدة

فضحك وبشر انفاسه بزيادة الغنم لان عدد تلامذته عشرين شخصاً

﴿ الفصل الرابع ﴾

صلاح وتقوى

ذكرنا فى الجزء السابق ما كان من سيجاريت اذ لفتت بصر زوجها مانيلون الى جار لهما صعلوك صناعته عمل الزهر الصناعى وقد احنى عليه الدهر حتى اضطرت سيجاريت الى اسعافه بما تيسر والتماس الاحسان له من ديوان الضبط

والرجل اسمه المسيو درنيه يقيم مع زوجته العليلة وولده المهزول فى نفس البيت الذى يسكنه برموش منذ أعوام

وفرانسوى دورنيه قوى البنية يبلغ الاربعين من عمره باسل لطيف الملامح

ثم انه مجتهد دائب في صناعته لاهم له الا ان يجد شغلا وكان يبذل قواه فى الوصول الى هذه الغاية وهو

سليم الطوية رقيق القلب صبور كريم

أما زوجته واسمها جوليت فهى معتلة البدن. تزوجها سقيمة وداؤها عضال لانها مصابة بعلة الصدر

ويستحيل عليها ان تباشر اخف الاعمال وأقلها فكانت تعيش عيش الشقاء فى بيتها الوضيع ومع ذلك فلم تحرم عناية . لكن علة الصدر من العلل المستعصية فلا بدّ لصاحبها من ان يقضى ساعات فى نهاره مأخوذاً بالسعال الشديد وهذا ما كان يقع كل يوم للمسكينة فتهتز اهتزاز القصبة من قوة السعال

فاذا وجدت فى نفسها قوة بعد ذلك ساعدت زوجها

وما فتئ يوليها العناية القصوى والاخلاص الذى ليس بعده اخلاص. ومن يرى ظاهر هيئة ذلك الرجل وما يبدو عليه من قسوة وشراسة يعجب من رقة عواطفه وصفاء سريرته وتحرك احساسه وشدة انعطافه على زوجته وولده

فلم تضعف الاعوام حبه لجوليت ولا سقمها الذى انحل وجهها واذهب حسنها ولم يقل اهتمامه بها دقيقة

واحدة.

ولم ينحصر همه فيها وحده غير ان له منها ولداً جاء عليلا مثلها فكان اعتلاله داعية قلق الوالد المسكين

كاد يبلغ الخامسة عشرة غير انه يظن فى العاشرة لتغمر وجهه وهزال جسمه . فكانه عوقب بداء والدته المنحوسة

فهو منذ ماشب اصفر اللون نحيف البدن ضئيل وتزايد نحوله بكبر سنه فلما كبر غدا مكفهر الوجه اغبر اللون كثيراً الشكية في عمر يكتسى امثاله عافية ويتدرعون قوة الا انه لبث محروماً كل سرور وكل حركة كلعب ولهو . . .

فلم يتلون بالاحمرار خداه ولم تبد امارات البشاشة على أسارير وجهه ولم يعرف الابتسام ثغره وما ذلك لأن فقر الدم كان يفترسه افتراساً

نشأ ولا رفيق له يلعب معه أو يصحبه وانما كان يتبع الغلمان من بعيد ويرقبهم من نافذة البيت أما ان يشاركهم فى ضحكهم وعبثهم فذلك حرام عليه ؟

وشاع له اسم لقبوه به على سبيل المزاح لصغر جثته هو كيكو

وطالت مناداة الغلمان له حتى اقتدى بهم والداه ولم يذهب الغلام الى المدرسة لأن هوآء جو المدرسة ثقيل على رئتيه الضعيفتين ومخالطة الصبية تشق عليه فعلمته القراءة والكتابة والحساب والدته فى ساعات فراغها

على ان والدى كيكو كانا يعبدانه عبادة ومن ذا الذى لا يحب ولده وهو قطعة من كبده وانما يعظم حب الوالدين لأولادهم اذا رأوهم يتألمون من ضعفهم ويكتئبون من تعسهم

فكان دورنيه وزوجته قلقى الخاطر خائفين ان ينزل نازل الردى بولدهما وعلى الخصوص فرانسوى لعلمه ان زوجته جوليت لا تعيش ساعة واحدة اذا اصيبت بفقد الولد

فغدا يشتغل الليل والنهار وايام الاحاد ليزداد كسبه ويقدم لاهل بيته مايحتاجونه أو ما يمكنهم من التوسع فى المعيشة

وتمكن بالكد والتعب من اراحة زوجته واطالة عمرها القصير وعظم انعطافه على غلامه فقلل عذابه وأذاقه طعم الدلال مااستطاع

وافضل المكافآت عنده ان يرى غلامه باسماً له ووالدته حية والاثنين يكرمانه ويحبانه

الا انه مع انكماشه فى العمل ما برح مقصراً عاجزاً عن القيام باود بيته فكان الضيق ينتابه فى بعض الاحيان ولا كساد فى صناعة الازهار ولكن اجرة الطبيب وثمن الدواء مما لا يتحمله شغل عامل مسكين مهما اجتهد وسعى

فادخل بميزانية النفقات داء جوليت وشوش حساب الايرادات

هذا فضلا عن اعتلال الغلام كيكو فقد كان ذلك الاعتلال ينبوعاً ثانياً للانفاق

فكان العامل المجتهد المسكين يشترى العلاجات القوية والخمور الصحية حتى يدفع آلام السعال عن زوجته ويدرأ اعتلال ولده

فاضطر الى ان يحرم نفسه عشرة الرفاق أو الجلوس فى قهوة كى لا ينفق القرش الواحد فامتنع عليه ان يضحك مع اخواته وخلانه ثم اقلع عن التدخين واستغنى عن الراحة فى أيام الاحاد ...

مع انه كان يشتهى قصبة التدخين بعد غروب الشمس ! ..

لكن لم يسؤه ذلك بل سره انه قام بالواجب المفروض عليه وانه بقى لديه من يحب وتمكن من الاحسان اليه بما تصل اليه يداه

او ليس في ذلك هناء حقيقى لمن كان ذا عيلة مثله ؟

بل اين يستطيع ان يجد عواطف أصدق وأشرف من تلك العواطف التى شعر بها وهو بين أهله وفى بيته ؟

فلبث دورنيه على حالته يلقى دهره ببسالة ويبسم له كلما عبس في وجهه . يقاوم الافكار المحزنة التى تخامره كلما طال مرض زوجته وتسقم ولده

وكان فى أحد الايام منكمشاً فى عمله اليومى يشتغل

لاحد مخازن الازياء التى فى شارع سبستابول أزهاراً صناعية لتزيين القبعات النسائية وهى مما يوضع بجانب الريش فتكسبها منظراً لطيفاً

وكان كيكو ولده جالساً بقربه يساعده وكذلك جوليت لأن حالتها فى ذلك اليوم تمكنها من مساعدة قليلة لزوجها

ذلك لأن صاحب الشغل مستعجل فيه ويجب على دورنيه تسليمه اليه في ذلك المساء بعينه

فقال وهو مكب على العمل لا يرفع رأسه :

من حسن حظى انكما اليوم قادران على مساعدتى ولولا هذه المساعدة لما قدرت على اتمام العمل المطلوب

فقالت جوليت بلهجة الاسف :

بل من سوء الحظ اننا لا نقدر فى كل يوم على مساعدتك

اجاب لست الومكما على ذلك .. بل الامر بالعكس فاننى أتبرم واتسخط اذا رأيتكما تجهدان نفسيكما فى العمل ولا سيما انت فان صحتك قد ساءت واقل عناء يضر بها ضرراً جسيما

فقال الغلام بل نحن نتبرم ونتسخط يا ابتى لاننا عاجزان عن مساعدتك كما نحب . فأنا أحب الشغل حباً كثيراً :

قال أحسنت يا ولدى ولكن الا ترى اننى قادر على أن أ كفيكما مؤونة التعب فى الوقت العادى

قالت جوليت نعم ولكنك تقاسى مشقة عظيمة ايها الحبيب

اجاب انت واهمة فأين المشقة ؟ . . . وكيف عرفت ذلك ؟ فاننى ممتلىء قوة وارادة . . .

ولا أسف الا على شىء واحد هو اننى لا اكسب زيادة على كسبي العادى وليس الذنب فى ذلك على غير الحرفة فان صاحبها محدود الرزق

قالت صدقت فان العامل لا يغدو غنياً ! . . .

اجاب لا وا أسفاه فان المزاحمة تمنع كل نجاح . . . والآن فانت تعلمين ان بعض الناس أخذوا ينشئون معامل كبيرة تقدم المصنوعات بالاثمان البخسة . . . فالآلات الصناعية تقتل الرجال او تكسر سواعدهم . .

ولا ادرى ماذا كنت قادراً على الاحتفاظ بعملائى فيما بعد وربما اضطررت الى الشغل بأجرة كازهد مايكون فالربح يغدو قليل جداً ! . .

وهنا تنهد فرنسوى دورنيه وتنهدت زوجته وولده

وكانوا ثلاثتهم يشتغلون في صنع زهرة . يصنعون وردة كما يصنع غيرهم بر تقانة

وكان فرانسوى في أول عهده بالزواج يشتغل فى صنع أنواع الخضار والاعشاب ثم ترك هذا القسم من اقسام صناعته لعمل الازهار لكثرة الراغبين فيها فلما اجتمع له نفر من العملاء اصحاب المخازن لزم بيته يشتغل فيه

وكان يزعم ان ملازمته بيته تأتيه بربح اوفر والحقيقة انه لم يشأ مفارقة زوجته وولده لانه كان يستشعر بقربهما قوة وجلداً وثباتاً

فكانوا يشتغلون يومئذ معاً وفى كل فترة من الوقت يجتمع لهم زهرة من الورد

هذا والغلام يسعف اباه عاملا بارشاده كيفية ضم الاوراق وجوليت تركب الورود فى محلها

وهنا وصف المؤلف كيفية صنع تلك الازهار وطول المشقة التى يعانيها العامل الى ان قال

تأمل ايها القارئ كيف تطلع هذه الازهار الناضرة من بيت ممتلئ اشجانا وغموما وا كدارا لتنقل الى احد تلك المخازن الانيقة وتوضع على احدى هاتيك القبعات ثم تظهر على رأس غادة هيفاء لتزيد حسنها حسنا

كم من خود رداح تجلببت بالعار وكسبت رزقها ببيع العرض وتاجرت بالشرف والجمال وليشترى احدى تلك القبعات التى صنعتها ايدى البائسين والبأسات

فيا لها من ازهار تنبت فى ظلمات الشقاء ثم تحمل على الرؤوس وقد تكون تلك الرؤوس فارغة وقد تكون مقر الامانى الزاهرة

فلما انتهى دورنيه من شغله رفع رأسه وتفرس فى زوجته فاذا به يرى اصفرار وجهها قد انقلب الى اكفهرار واغبرار ولمعت عيناها لمعاناً غريباً

فقال لها :

ماذا أصابك ايتها الحبيبة ؟

أجابت لا شىء ...ولعل التعب أثر علىّ ...ولكننى لا اشعر بالم

وما كادت تتلفظ بهذه الكلمات حتى هاجها السعال العنيف فهز عظام صدرها كأنه يكذبها

فنهض دورنيه بسرعة البرق وامسك يدى زوجته قائلا ماعدت تشتغلين بعد اليوم

قالت ولماذا ؟..

اجاب لأن الشغل انهك قواك ... وكاد يودى بك

قالت هل تظن انه يسهل علىّ ان اراك تعانى التعب وحدك ؟ .. كلا لست بقادرة على ذلك

فرفع ليكو رأسه بكبر وسذاجة وقال اننى حاضر

فاغرورقت عينا والدته بالدمع وقالت وارحمتاه لك ايها الصغير ... ان اخلاصه قوته الوحيدة

قال فرانسوى نعم. . عليك ان تنظرى الىّ فقط وتستريحى ياجوليت.. فانت فى حاجة الى انتظام المعيشة والراحة !.. وهذا كل ما اطلبه الك . . . فيجب ان تفعلى ما أقول

فخفضت جبينها قائلة

ليكن ماتحب

الا انها قالت في نفسها :

سوف اسعفها بقدر جهدى . . . والا هلكنا جميعاً ...

وسكتوا وبعد وقت قصير قال فرانسوى لزوجته :

اننا فقرآء غير ان الفقر لايدوم الى الابد . وحسبي مع ذلك مابيننا من ولاء دائم ..ووالله لو حرمتك لقضيت نحبي بعدك ... اذن دعيني اشتغل لثلاثة فانى قوى البنية متين الالواح ولا خوف عليّ من الجهد والتعب

قالت حذار فان الصحة ليست من جلمد ! . . وقد كنت مثلك ممتعة بالعافية يوم كنا خاطبين ... غيرانني اصابنى البرد ليلة عرسنا اثناء الرقص . . فاخذ في السعال فى اليوم التالى . . . ومنذ ذلك اليوم لم يفارقنى حتى الساعة . . .

قال آه لو كنا اغنياء بالمال !. . اذن لكنت اعهد الى اعلم الاطباء واحذقهم بمعالجتك اختار لك افضلهم

واشهرهم واذهب بك الى البلاد الجنوبية بلاد الشمس والحرارة ... ولكن وا اسفاه اننا صعاليك ! والويل لكل فقير

ثم ضرب طاولته بعنف

فقالت بكآبة :

نعم اننا فقرآء والويل لكل فقير . . .ليس عندنا الا الهموم والشقاء . . على اننا عثرنا فى أحد الايام على ثروة جسيمة . . الا تذكر تلك اللقطة يافرنسوى ؟

اجاب انها ثروة لم تكن لنا فلا تتكلمى عنها ابدا !

فانت تعنين عقد اللآلئ الذى وجدته فى الطريق العمومى

قالت ياالها من حلية نفيسة

قال لقد قدروا ثمنها باربعين الف فرنك

اجابت لو ان لنا هذا القدر الجسيم من المال لودعنا الشقاء الى الابد ولما كنا فى مثل هدا الاحتياج القاتل

فغمغم فرانسوى يقول لو انه لنا لامكن شفاؤك

قالت واحسرتاه يوجد اربعون الف فرنك كانت راقدة هنا ولانفع منها حتى الساعة لاحد ! . .

اجاب نعم لا انكر ان ذلك المبلغ يحمل على الطمع والجشع ولو وقع العقد لغيرنا لابقوه لينتفعوا به بدلا من ان يحملوه الى ديوان الضبطية ويسلموه الى معاون بوليس ولكن اولئك من اهل المنكر الذين يستحلون ماحرم الله ... فهم يسرقون ..

قالت صدقت يافرانسوى وهذا هو الكلام الذى رددته لنفسى فى بعض الاوقات

قال اما انا فاننى ارعى شرفى واحفظه لانه بقى لى دون سواه ...

والضمير المستريح اوالسريرة التى لا يبكتها مبكت تولى المرء غبطة وانما ينحصر سرورى من دنياى بهذه الغبطة فلا اود ان احرم اياها ... وانى لذاكر على الدوام «لاتشته مالغيرك» ولذلك لم تحدثنى نفسى قط بالتندم على مافعلت بشأن العقد لانه لم يكن لنا فلا يحق لنا ان نمد اليه يدا

قالت يخيل لى كاننى أراك راجعا الى البيت حاملا تلك اللقطة

أجاب لقد اتى على ذلك عشرة شهور .

قالت نعم كان ذلك فى يوم أحد

قال نعم

قالت ورأيتك مضطربا قلق الخاطر فلما سألتك عما لففت فى الورقة التى كانت معك لم تجبنى الا بعد تردد

أجاب نعم ولا انكر ياجوليت لما فتحت العلبة التى التقطتها هناك فى محطة الشمال خامرنى اضطراب شديد كاننى كنت مسحوراً وبهر منظر العقد بصرى كما خفق له فؤادى ...

قالت وهذا الانفعال نفسه وقع لى أيضاً حينما اريتنى الحلية .

قال وقد كان اول خاطر خطر لى حين وجدتها ان انطلق من فورى الى مكتب الاشياء الموجودة لاطلعه على ما وجدت ... فلما وصلت الى هناك كنت مضعضعاً .. وسلمونى وصلا يدل على انهم استلموا العقد منى . وهذا كل ماحدث . . . وسيبقى العقد مدة سنة كاملة ويوم واحد في ادارة المكتب ريثما يوجد صاحبه

ويأتى بالبرهان على انه ملك له

قالت ولكن اذا انقضت تلك المدة يافرانسوى ولم يأت صاحب العقد ؟

أجاب لقد انبأنى المعاون ان العقد يصير ملكا لى بعد انقضاء تلك المدة اذا لم يتقدم صاحبه الى طلبه فيحق لى يومئذ ان اتصرف بلقطتى كما اشاء

وهنا لمعت عيناه بضياء غريب ..

ثم قال نعم هذا صحيح وقد بقى شهران لانقضاء الميعاد

ثم رفع رأسه بكبر واباء وقال على كل حال اذا اتى صاحب العقد قبل ذلك فسوف يقولون له ان العقد وقع بين يدى رجل شريف النفس ... فحمله الينا وهذا هو ! ... »

وكان صوت دورنيه يشف عن عظمة حقيقية حين تلفظ بهذه الكلمات ذلك لانه صادر عن صلاح ومعرفة بالواجب

فمدت اليه جوليت يدها وقالت يالك من صديق باسل !

قال كيف تجدين نفسك الآن ؟

فتبسمت تبسما موجعاً وقالت أحسن قليلا ..

قال من لى بأن اشفيكما انت وكيكو وادفع عنكما آلام المرض . وأعيدكما من اسعد الناس ! ..

قالت يوجد من هو اشقى منا فلو تمالكنا العافية لما اكترثت لأمر آخر .

أجاب نعم انما تحتاجين الى العافية كما يحتاج ولدنا الى القوة .. ولكن ذلك يرجع اليكما أيها العزيزان وسوف تريان الايام مقبلة علينا وحظنا من دنيانا خيراً من حظوظ آخرين

قالت كعيلة برموش جارنا مثلا ولعمرى ان شؤونها غريبة يافرانسوى

أجاب انها عيلة سكر وكسل فلا تستحق الرأفة وانما تستحق اللوم على ماهى فيه . وخير للقوم الاخيار ان يبتعدوا عنها على ما أرى

قال الغلام اننى لا اخاف منها فقد سمعتهم بالامس يتشاتمون ويتشاجرون ويصرخون وكأنهم فى غضب

شديد .

وهنا تأثر الولد مرتاعا من تذكر ما سمع من الشتائم الفظيعة فلجأ الى والدته

فتنهد فرانسوى دورنيه حين رأى ذلك المشهد أى حين رأى ولده عنوان الضعف مستجيراً بوالدته السقيمة .

ونهض ليلف مصنوعاته وكان يجب تسليمها من غير عائق ليأتى بالخبز الى البيت لان جيبه فرغت من النقود

وقد ابتاع علاجا بما بقى معه من كسب الامس

وهو يرجو أن يقبض اجرته فى ذلك المساء فيأتى بطعام الى البيت أو بخبز ويسكن حزن أهله

فحمل على كتفه سلة اودعها ازهاره وقبل ابنه وزوجته وخرج وهو يقول اننى راجع اليكما سريعاً ! . فلا تستبطئا عودتى

ولما رجع كانت جوليت قد اوت الى مضجعها ورقدت مع ابنها لتسلط التعب عليهما ولم يتناولا طعاما الا قليلا من اللبن . فاكل الرجل وحده من غير شهية

ثم دخل الى حجرته فاخذ يشتغل صامتاً لعله يكسب بعض دريهمات علاوة على كسبه المعتاد

فلما انتصف الليل وهو مكب على شغله اطفأ مصباحه وتهالك على فراشه

الفصل الخامس

كيكو

كان هذا الغلام يقاسى الرعب فى كل يوم وتهوله الصيحات التى يسمعها صادرة من بيت برموش

ذلك لان فيرجينى زوجة برموش قد عظمت شراستها وفظاظتها وتوعرت اخلاقها فكانت تؤاذى فى كل يوم زوجها او ينزل شرها وعربدتها بالفتاة نائلة

وقد ذكرنا ان تجارة شارلمان كانت رابحة هذا فضلا عن النقود التى تأتى بها السائلة الحسناء فى كل يوم

فاعتمدت تلك العجوز الشريرة عليهما واعتزلت كل حركة فاطمأنت الى الخمول المتزايد وأصبحت قعيدة ذلك

البيت مستنيمة الى الراحة تتمطى وتتثاءب سحابة نهارها بلى كان شغلها الوحيد معاقرة الكؤوس فتشرب وتأخذ فى العربدة وقد تنهض ليلا لتصيح وتتلظى حنقاً وسوء خلق

أما صناعتها القديمة فقد تناسيتها ولم تعد تفارق البيت الا لتطوف بالحانات وتشرب ذلك الكحول الذى يزيد ما بالانسان من خير أو شر فاشتد بها التسخط حتى صارت أقرب شبها الى الوحوش الضارية منها الى الانسان

وكانت تضطر الى السكوت امام شارلمان فتخفض من غلوائها وتكظم شرها وضرها وذلك حين تراه سكران مثلها فتدرى انه اقوى منها فلا يطيق عربدتها فتهابه

واذ ذاك تحل نقمتها على المنكوبة نائلة وتوسعها قساوة وشكاسة وتعذيباً

فاذا عادت الفتاة عند المساء منهوكة من التعب تلقتها فيرجينى بالشتم والسباب والضرب واللطم مستلذة تعذيبها

متهجمة عليها من غير أن تجد من يردها عنها ثم تأخذ النقود التى كسبتها بالتسول وتعطيها بدلا منها صفعات متوالية بمقدار ما ينقص المبلغ عن تقديرها

وقد الفت فيرجينى هذه الحال حتى باتت لا تستغنى عن تلك المخلوقة لتصب عليها جام حنقها وتماحكها وتخاصمها وتعترف بذلك فتقول انها تسكن هياج اعصابى اذا ضربتها وكانت ترتعد وجلا اذا فكرت فى امكان افتراقها عنها يوما

وطلبت من زوجها شارلمان ان يقيم عليها أحد الشحاذين رقيباً فلا يفارقها دقيقة واحدة مدة قعودها بأبواب الكنائس

وكان امبرطوار المتسولين على رأى زوجته فى الاحتفاظ بنائلة المسكينة وكان يسميها « الدجاجة التى تبيض ذهباً »

واحتملت نائلة ذلك العذاب الأليم من غير شكوى خاضعة لحكم الاقدار أو لحكم الروع والفزع

فكانت تسكت وتخشع وتطيق فظاظة فيرجينى وكأنها

تعودت ان تتلقى ذلك اللطم وان تسمع الشتم فلم يعد يدهشها ما تقاسيه

تخفض الرأس والكتفين صاغرة دائماً

وكأنما يئست وخاب رجاؤها فى كل شىء فعلمت انها ضحية ... وخانها فهمها فضعف رويداً رويداً

واستمر عذابها دهراً حتى خمد حسها وزال تألمها

على انها كانت فى بعض الاوقات تبكى صامتة وتكفكف دموعها حتى لا يراها الجلاد الموكل بتعذيبها او الجلادة

وقد تزفر الزفرة فتوهم من يلاحظها ان صدرها يتمزق

وانما يصيبها هذا الانفعال وهى فى خارج البيت عند ماتصادف أولاداً يمشون مع امهاتهم فى الشوارع الكبرى الحافلة بالناس وحين تراهن يلاطفهن ويشترين لهم فاكهة او يعطفن عليهم بالتقبيل

الا انها اذا رجعت الى البيت الملعون تستسلم الى الخضوع والامتهان ويخمد حسها

وأخذ الضعف يستولى عليها لانها حرمت المعيشة

الحسنة والحنان فكانها غرسة حرمت حرارة الشمس فاخذت فى الذبول ...

وزاد تعسها منذ ما سكن الشقيات شارع كوسونرى لان شراسة فيرجينى تعاظمت جداً

فكانت نائلة تفضل الذهاب الى التسول على الاقامة مع تلك العجوز الخبيثة الشريرة ...

نعم فقد لبثت تمد يدها بالسؤال غير حافلة بالبرد يصيبها عند الصباح لانها انما يسرها الابتعاد عن البيت والتعلل بانها مطلقة السراح وان كان تعللها وهماً ترى حركة الناس فى الشوارع وتشاهد الرجال يمرون بها متحدثين والاولاد يلعبون ... وتسمع تغريد الاطيار فى صبيحة كل نهار متنقلة على الاغصان

فتفرح بذلك وانما يفرح الانسان بالحصول على ماحرم منه بظلم الاقدار ومن اين لها ان تجد شيئاً آخر يجبر قلبها الكسير

فكانت عند الصباح تسرع فترتدى بملابسها لتتخلص من البيت وتباشر عملها اليومى اى التسول فى الطرق

وهى لا تجهل ان عليها رقيباً ولكن ذلك لا يهمها فحسبها ان تسرح وتستنشق هوآء غير هواء القن ... فكأنها خرجت من حبسها

على ان البيت الذى اقام فيه برموش وزوجته اوسع من البيت الذى كانا يقيمان فيه قبلا فى حى مونمارتر

وقد أفلح شارلمان فى صناعته فرأى ان يستأجر ذلك البيت لان دخله كثر فمن الحكمة ان يكبر منزله كما كبرت تجارته

ولنائلة نفسها غرفة خاصة بها معرضة للهواء ولها كوة تشرف على فناء لا نكران في انه قذر ولكنه يأتى النور من ناحيته

وفى ذات صباح بعد مالبست اطمارها المرقعة قبيل انصرافها فتحت الكوة

فتقهقرت الى ماوراءها لانها لمحت شخصاً ينظر اليها من كوة المنزل المقابل

رأت رأس فتى اصفر الوجه مهزول مثلها حسبته مريضاً ورأت عينيها تلمعان كعينى محموم . . .

الا ان فى نظراته سيلا يطفح اعجابا واستحسانا وميلا اليها

فاجتذبها جاذب اليه ونظرت اليه ملياً فاذا به يتبسم لها تبسما لطيفاً

والابتسامة فى عينى السائلة الحسنا، نعمة سابغة لم يفضها أحد عليها

فهى تشعر بملاطفة رأتها جديدة لانها حرمت كل ملاطفة من عهد بعيد جداً !

فهزت روحها ابتسامة ذلك الغلام السقيم هزاً لطيفاً كانه هدهدة الطفل الصغير ...

فتبسمت للغلام كذلك تبسم سذاجة وظرف

وفيماهو يهم بالرجوع عن الكوة سمع صوتها الرخيم تناديه كيكو !...

فقال لها :

أتعرفين اسمى ؟

أجابت نعم ... وقد سمعتك تنادى به بالامس

قال صحيح !

قالت بلطف وقد دهشت من نحوله :

هل أنت مريض ؟

أجاب نعم وأمى كذلك مريضة ... ولذلك فوالدى قلق الخاطر اشفاقا علينا !

ولبث كيكو صامتاً على أثر تلفظه بهذه الجملة المحزنة وانما كان يفكر فى ضنك والديه واجتماع البؤس والمرض عليهما

يفكر فى آلام والدته وغمّ والده

على أن بصره لم يتحول عن ابنة المركيزة وقد ناب عن اعجاب تذكر مصاب قومه ومصابه

ولكنه ما لبث حتى نسى ذلك كله وكانما طارت روحه من ذلك المحبس الذى يشقى به قومه الى جو جديد آخر فاخذت تمتع بضياء من عينى السائلة الحسناء وتسبح فى شعاعه البهي البهيج

أما نائلة فلذ لها أن ترى مخلوقا يعطف عليها ويبادلها العواطف الرقيقة

فقالت له :

ما عمرك يا كيكو ؟

أجاب اثنتا عشرة سنة

قالت ألا تشتغل أنت ؟

اجاب لا وا أسفاه ومن أين لى ان أقدر على شغل وهذا الضعف ملازم جسمى على اننى أساعد والدى كلما قدرت على مساعدته ... ولكن ذلك قليل

قالت فماذا يصنع أبوك ؟

أجاب انه يصنع ازهاراً

ولمعت عيناه سروراً فدخل الى الغرفة وعاد بعد هنيهة وفى يده وردة حمراء محاطة بالاوراق الخضراء كأنه اقتطفها من بستان

فصفقت نائلة براحتيها كأنها طفل صغير يرى لعبة جديدة وصاحت يالها من وردة بديعة

ومدت يدها لتتناول الزهرة

فالقاها اليها كيكو فاصاب بها جيدها فتناولتها تتأملها معجبة بها ايما اعجاب

فقالت شكرا لك ! .. انها وردة صناعية لكنها حسنة

كانها طبيعية ... ولا ينقصها الا الشذا

ولثمت الوردة وتبسمت شاكرة ايضاً

ثم قالت له :

هل أنت وحدك يا كيكو ؟

أجاب لا فان ولدى خرج ليسلم شغلا لكن والدتى فى البيت . والمسكينة لاتخرج قط ولا تقدر على مفارقة المنزل ... فهى مريضة .. وتنام فى المخدع المجاور ... ولاتستطيع شغلا لان التعب مستحوذ عليها وكذلك الضعف والسقم ! .. قضت ليلتها البارحة وهى تسعل سعالا شديداً

واغرورقت عينا الغلام بالدموع وللحال فاجاءه سعال عنيف كاد يمزق صدره الضئيل

فرق له قلب نائلة وقالت وارحمتاه لك ايها الصغير !

وهنا سمعت صوت سعال عنيف صادراً من داخل البيت .

فارتعد كيكو وقال لقد استيقظت والدتى ! .. فانا ذاهب اليها ! فاودعك الآن

فتبسمت له السائلة تقول عسى ان اراك فى وقت قريب .

واختفى داخل البيت

فلبثت نائلة واقفة الى النافذة تفكر وبعد أن خبأت الوردة الصناعية ظلت تفكر وقد نسيت غمها واهتمت بامر ذلك الصبي الذى جار عليه القضاء فسلبه صحته وعوضه عنها سقاما فقالت لنفسها

هل يمكن للانسان ان يلتقى آخر اشقى منه ؟

اجل تلك سنة الخلق والحياة . واشقى من الانسان قد يجد جراحات تحتاج منه الى ضمادة وعلاج واحزاناً يعوزها منه تعزية ومؤاساة ..

الا ان نائلة خطر لها مع ذلك ان تغبط الصبي جارها اذ قالت والدمع يترقرق فى عينيها :

ان له اماً تحبه وتلثمه .. وكفى ان له اما فان حنو الام ربما لايعدله شىء فى العالم ! ..

* * *

وفي اليوم التالى ارادت السائلة الحسناء ان تحيي جارها

كما فعلت بالامس

فتمكنا من تبادل كلمات رقيقة

وهكذا كان يحدث كل يوم فان نائلة تعتمد الى محادثة الصبي عند الصباح وفيرجينى تغط فى نومها وبرموش يتهيأ لاخذها الى مكان صالح كما يقول

الى ان كان ذات صباح فابصرت الصبيّ مضعضعاً وعيناه حمراوان من كثرة البكاء

فقلقت نائلة وقالت له:

ماذا اصابك ؟

أجاب ان والدتى في حالة سيئة جداً ! . . . ووالدى غير موجود فى البيت . . الا اننى خائف ! . .

قالت وهل هى متألمة كثيراً ؟

أجاب نعم . . . فهى تشكو وتقول انها مشرفة على الموت . .

قالت استغث وادع من يسعفها ! . .

قال استغث بمن؟ وادعوا من ؟ .. لسنا نعرف احدا فى هذا البيت ... ولا علاقة لنا بالجيران . والمنحوس

ليس له من صديق

قالت ولا يمكن ان تترك والدتك على هذه الحال..

واذ ذاك سمعت نائلة صوت سعال شديد مشفوع بنحيم ونحنحة وزفير كأن ذلك صادر من اعماق الصدر فهو يحترف معه قطعاً من الرئتين

فاشفقت نائلة ان يذهب ذلك السعال القاحب بروح المرأة وقالت وارحمتاه للمسكينة...

وظهرت عليها امارات الشفقة والانعطاف حتى صاح الصبى بربك تعالى فاسعفينا

وكانت صيحته تترجم عن يأس وضنك ورجاء والتماس

فجعل يعيد قوله بربك تعالى تغنمى الشكر ودعاء المسكين ... اتوسل اليك جاثيا على ركبتي ... انى خائف ... آه ياماه ... بربك ايتها الآنسة ارحمينى وتعالى

واذ ذاك سمعت نائلة صوتاً خشناً يناديها من داخل البيت ويستبطئها

وكان صوت امبراطور الشحاذين

فقالت لكيكو ويلاه هذا شارلمان ينادينى ..
فلست قادرة على تلبيتك كما احب

وعظم صياح برموش وكان يقول لايتسع وقتى لانتظارك يابنت اللئام : انى ذاهب الى حانة ديبو فتجدينى هناك ... واسرعى ... والا فويل لك من العصا

فقالت واطرباه لقد مضى انتظرنى يا كيكو فانا آتية

وبادرت فلما سمعت الباب الخارجى يقفل وراء شارلمان ورأت فيرجينى نائمة سكرى ... أخذت تمشى على أطراف قدميها خيفة ان تستيقظ تلك المرأة الشريرة .

فوجدت كيكو ينتظرها على الباب . فلم تتردد ولم تفكر فى ما ستلقاه من تعذيب برموشة وبرموش بل دخلت تسوقها الشفقة غير مصغية الا الى صوت عواطفها الكريمة وطويتها السليمة واخلاصها الفطرى

فياله من مشهد موجع وقع بصرها عليه حالما وصلت الى المخدع

وجدت امرأة مضطجعة على سرير واطىء ضيق

هى والدة كيكو وقد حشرجت انفاسها ونزلت بها غشية الموت .

وكان جسمها يهتز اهتزازاً هائلا وهو جسم لم يبق منه الا هيكل من عظام تتردد فيه روح توشك ان تطير الى خالقها

وقد وقف الريق فى حلقها وعجزت عن اساغته فلما دخلت نائلة استفاقت شيئاً ففتحت عينيها ونظرت اليهما ثم نظرت الى ولدها . فلاح فى بصرها أسف جارح اليم وضنك لا يوصف بقلم أو لسان

فتغلبت على ضعفها الشديد وأمكنها أن تقول ولدى!

وكأن هذه الكلمة صوت ما أودعت روح الوالدة من حنان

ثم قالت تعال فاقعد بقربى . . . انى راحلة عنك . . . وسوف تغدو وحيداً ...

قال الغلام كلا لا تتلفظى بهذا الكلام !

فمدت يدها الناحلة الى حلقها وقالت انى أقاسى الماً هائلا.. اصغ الىّ يا ولدى ... ان اباك لا يعود الآن ... فاذا لم

أره قل له اننى لم اتعذب فى احتضارى

قال اماه ! . . . أماه !... لا أريد ان تموتى !... فلا تموتين !..

أجابت بل أجلى قريب ياولدى !... والموت لا يصبر وا أسفاه !... فقل لابيك أيضاً اننى أروم أن أدفن فى مدافن الفقراء ولا حاجة بى الى اكاليل أو غيرها مما يوضع على النعش ... حسبى دموعكما . . . وأى فائدة من التبرج والتزين بالزهر بعد الموت ان ذلك جدير بمن كان كثير المال !...

فلم يجب الغلام وانما كان يبكى حاجباً جبينه بغطاء الفراش

واذ ذاك سعلت والدته سعالها الجاف ... واخذت تنفث دماً

فبادرت اليها مائلة بملعقة من دواء وساعدتها بلطف وعناية على النهوض ورتبت لها غطاءها شأن الممرضة

فنظرت اليها العليله نظرة شكران وامتنان وقالت بصوت خافت.

شكرا لك يابنيه ... واسألك ان تعطفى على ولدى

هذا ... ان اباه يحبه محبة شديدة ... ولكنه يضطر الى مفارقته كثيرا .. ليشتغل ... ليكسب اجرته الزهيدة . ومادام قد جاءبك كيكو الى هنا فاجبى طلبى انه رجاء ميتة تفارق دنياها . فتعالى وساعديه كلما سنحت لك الفرص . والله يجزيك خيراً جزيلا ويغدق عليك بركاته !

ثم تساقطت على فراشها .

وتنهد تنهداً ضعيفاً كان فيه ذهاب روحها

وقد نزلت بها صرعة الموت

ماتت وعيناها مفتوحتان لان المنية فاجأتها فلم تتمكن من اغماض عينيها

فصرخ كيكو صرخة هائلة واتبعها بزخرة حرى وعلم انه فقد أمه !.

فقد والدته فغدت لا شىء بعد ان كانت عنده كل شىء فى هذا العالم

فما أشد وقع الموت على الاطفال والاولاد وما أقساه واشرسه حين يختطف الام من ولدها !.

فعطفت نائلة على الغلام تعزيه وتبكى معه
ثم اقبلت على والدنه فمدت يدها الى عينيها فاغمضتهما وقد ظللتهما غشاوة الموت ولفت عليها غطاء الفراش
واذ ذاك سمعت صيحة وراءها فالتفتت فابصرت فرانسوى دورنيه داخلا الى البيت

فادرك ماحدث !.. فجاء وترامى الى جانب السرير وهو يشهق وينتحب ويندب زوجته ويناديها باعذب الاسماء

الى ان قال الهى !.. الهى !. لقد جئت وفى فؤادى شىء من الرجاء لان معى بعض نقود وقلت فى نفسى اليوم اشترى لها ماتستطيبه . فبدل الموت رجائى يأساً واعتضت عن الهدية بالتابوت والقداس .. والهف قلبى عليها فقد ادركتها الوفاة ولم ارها ولم اسمع كلماتها الاخيرة! ان خطبى لجسيم !

واستمر يندب زوجته ويبكى وينتحب وقتاً طويلا
ثم رفع رأسه فخاطب السائلة الحسناء بلطف وعذوبة قال لها :

انت يابنية فتاة كريمة طيبة القلب لانك تفضلت علىّ من غير معرفة سابقة فجئت لمساعدة زوجتى المسكينة فانا اشكرك بالنيابة عنها أو عن نفسها العزيزة . ولكن لاينبغى ان يذهب الاسى برشدى فقد سمعت جارنا عائداً وهو يحتدم سخطاً عليك ويناديك مناداة غضوب ويبحث عنك فى كل مكان صادفته وانا آت الى هنا . ولا تخفى علىّ حالتك عنده . ان هؤلاء لقوم اشرار . فهل تخافين منهم .

أجابت وأى خوف .

قال هل هم اهلك ؟

اجابت لا اهل لى ... و نما انا عندهم لانهم لايتخلون عنى ...

قال انى ارثى لك ايتها الفتاة المعذبة ... الا ان القضاء جائر على الناس ... فهل تودين ان تمكثى معنا ؟ انى اخفيك عندى .

وهكذا يتبين للقارىء ان هذا الرجل الساذج الكريم من اشد الناس رغبة فى الاحسان وارأفهم قلبا واعطفهم

على البؤساء امثاله ولا غرو فمن كابد الشقاء كان اجدر بمساعدة اهله

فتمالك الروع نائلة وقالت كلا . فقد يأتيان الى هنا باحثين عنى .واذ ذاك ترتبك بسببي . فلا حاجة بي الى شىء . فاودعك الآن وساعود .

ونزلت السلم وفؤادها يخفق وجلا

فتلقاها شارلمان بالزمجرة والشتم ثم قال لها :

اين كنت ياشقية ؟ انني انتظرتك زمناً طويلا فالويل اذا عدت الى مثلها

فلم تتلفظ بكلمة ولكنها تبعته خاضعة ذليلة كعادتها غير ان الكآبة متسلطة عليها مما رأت فى منزل الجيران ولقد ودت المكث بينهم بقرب جثة الفقيدة لتمزج عبراتها بعبراتهم وتشترك معهم فى احزانهم

هذا وكيكو ما برح ينظر الى الباب الذى خرجت منه نظرة طويلة

اما دورنيه فظل يذرف العبرات صامتاً

الفصل السادس

ويل للفقراء !

انبأ دورنيه سيجاريت بالمصاب الذى حل به ففقده زوجته فبادرت الى بيته مسرعة الى تعزية الارمل والولد

أما مانيلوز زوجها فسعى سعيه لدفن الفقيدة على نفقة المحافظة على انه دفع مع ذلك اثنى عشر فرنكا قيمة نفقات لا بد منها

وفى اليوم التالى دفنت تلك المرأة الفقيرة من غير احتفال وكان ذلك اليوم ماطراً وكأن المقبرة تلقت الجثة آسفة أو بالرغم منها !

ثم عاد فرانسوى دورنيه وكيكو ولده الى البيت فلما انفردا فيه لاح لهما انه خال يصفر وشعرا بالآلام الوحدة

اصبح البيت موحشاً بعد مفارقة من كانت تملأه انساً ..

ثم جاءت الفاقة وأقبل البؤس يجرر اذياله

ذلك لان النفقات التي انفقها دورنيه على زوجته صيرته الى اسوء حال والجأتهما الوفاة الى لبس السواد وتغيير ملابسهما

ولم يقدر عامل الزهر على عمل فى مدة حزنه وبكائه فانه فقد البسالة وانكسر قلبه فجعل يستدين وهيهات ان يستطيع قضاء دينه .

فاستحق عليه قسطان من اقساط البيت وتأخر عن دفعهما . فكيف السبيل الى قيمتهما ؟

وزاد ضعف كيكو . وهو داء الوالدة بالولد .

فكان يسعل ليلا ونهاراً سعالا يفتت قلب الناظر اليه وزالت شهيته واكفهر لونه وغارت عيناه ومشى الى الموت مشية مستمهل .

على ان فرانسوى دورنيه لم يكن يراه مستمهلا بل مستعجلا

والمحب يرى الدآء فتاكا بمن يحب

فكان نظر الوالد كلما هب من نومه صباحاً الى ولده

ويتفرس فى وجهه تفرس الجازع . فيرى هزاله يتزايد واصفراره يتحول الى اغبرار وبدنه يتضاءل

فيقول فى سره

ويلاه ماهذه المصائب . هل كتب لى الشقاء والكسل .. الا ان الموت يرصد ولدى يريد اختطافه منى كما اختطف جوليت .. رباه ماذا فعلت واى ذنب جنيت حتى يحل بى هذا العقاب الشديد ؟

ثم يسترحم ويستغفر ويسأل الله رأفة به وبولده

وتهطل الدموع من عينيه فيشيح بوجهه معرضاً حتى لا يراها كيكو الصغير الشهيد

كان يخشى ان يردعه بعبراته الساجمة اويورثه كآبة فوق كآبته

ولكن ماذاعسى يرجو واى رحمة يأملها

اما الطبيب فقد انبأه ان الامل من شفاء الغلام ضعيف ...

فاذا استمر على هذه الحال لا يلبث حتى يلحق بوالدته

وقال له لابد من تداركه بالعلاجات وتنقله فى الحال

وترويح نفسه بالهواء النقى والمناظر الطبيعية والانفاق عليه انفاقاً يمكنه من التمتع بكل ماينفع صحته ويقوى بنيته

ولكن كيف السبيل الى ماوصف الطبيب والجيب فارغ والديون متراكمة عليه ؟ .

فايقن دورنيه بهلاك ابنه

واذ ذاك يغدو وحيدا . منقطعا . بلا اهل ولا ولد ولا اقارب ولا اصدقاء . وهاله ذلك السقم الملازم الذى يحاكى احتضارا طويل المدة وشعر بعجزه عن مقاومته ومن ذا يقاوم الاقدار اذا حكمت وابرمت

واستمر كيكو يتضاءل نحافة وهزالا حتى صار وهو فى سن الثانية عشرة كانه واقف على ثنية الوداع وطاو مراحل الشباب

فهل من دواء اواعتناء اوانعطاف يؤخر اجله اويبعد يومه اوساعته

ذلك خاطر كان يفتت فؤاد الوالد المنكوب والعامل الحقير وتعدى اليه الاصفرار كذلك

ثم جرت حادثة اجهزت على بقية صبره

فان دائنية سئموا المماطلة فارسلوا اليه الانذارات وفى يوم واحد تلقى اثنين منها

فلما جاء المحضر او رسول المحكمة لم يكن فرنسوى دورنيه موجوداً فى البيت

فاستلم الغلام العليل الورق المدموغ وهو لا يفهم معناه ومغزاه

على انه ادرك ان تلك الاوراق المكتوبة تشتمل على مايزيد والده كآبة وغماً

فسلمه اياها عند ايابه ويده ترتعد

فرأى وجهه يكفهر وراه صامتاً لا ينطق وقد أخفى تلك الاوراق فى جيبه وأقبل على ولده يعانقه ويقبله من غير ان يتكلم ثم عكف على الشغل بهمة واجتهاد لا مزيد عليه

فلبث وقتاً طويلاً منكمشاً فى عمله والازهار التى يصنعها تخرج من يديه كانه ساحر

وارحمتاه لذلك الرجل المنكد العيش السىء الطالع . .

فانه يصنع الوردة كالا بتسامة لطفاً وزهاء وفؤاده ينفطر وعينه تدمع

ولم يجسر الغلام على ان يتعرض لابيه الصامت وانما كان مصغياً الى تنهداته

الا انه لم يطل صبره على تلك الحال بل انقلبت ملامحه كانه رزح تحت حمل ثقيل من الهم او الضعف وأذعن لما ابتلاه به الدهر او كانما انقطع وتر صبره وتصرم

فترك أدوات العمل وطأطأ رأسه فأسنده على يديه وزفر زفرات حرّى وأسلمه الجلد وضاقت عليه المسالك

وكان موعد الحجز على أمتعة بيته غداً ! . .

نعم اذا لم يدفع غداً بعض فرنكات لدائنه فان رسول المحكمة يرجع ليباشر تلك المهمة

يفعل مايقضى به القانون من غير امهال . فلا مناص من ذلك

يأتى الى ذلك البيت الحقير لايحفل بحزن اهله ولا بمرض الغلام فيستولى على ما فيه من أشياء ذات ثمن

ليوزعها على الشارين بالمزايدة العلنية

تلك مهمة رسول المحكمة وانما تباع الاشياء على هذه الطريقة بثمن كان يأبى صاحبه ان يتناوله من مصرف الرهون ديناً على تلك الاشياء اذا أودعها عنده فى أيام الجوع او البرد القارص !

يطرح للبيع ما يذكره بايام هنائه وهى اقصر الأيام وقد طال عهدها وأضنى عليها القدم !

فلا يتركون له الا أدوات العمل التى يشتغل بها وفراشه أما الباقى فيؤخذ ويباع لقوم يجهلون كم دموع أريقت في سبيل اقتناء تلك الامتعة

فلا ينجع توسل لمنع البيع ولا تجدى وعود . . ذلك لان القانون لا يعرف معنى التوسل والوعود

والقانون لا يرحم الصعاليك وقد يرحم كبار الناس واقوياء العصر أما الصغار والضعفاء والمساكين فويل لهم منه ومن شقاوته !

والقانون منقوش على ألواح من رخام فلا قلب له ولا تعطفه عاطفة !

وفيما كانت تجول فكرة الخجل والعار والالم والثورة في دماغ فرنسوى دورنيه المضطرب كان كيكومروعا ينظر اليه ولا يتلفظ بكلمة

يقول فى نفسه لقد صدق ظنى فما هذه الاوراق التى ناولته اياها الا بلية جديدة

غيرانه لم يجسر على الكلام لانه رأى يأس ابنه شديداً فخاف أن يتعرض له بكلمة

هذا ودورنيه يذرف الدمع ويصعد الزفرات

وبعد حين تغلب الصبي على خوفه فدنا من أبيه بخجل وقال له :

هل من مصاب جديد يا ابتى ؟

أجاب دعنى ياولدى

قال كلا فانى أود معرفة السبب فى هذا الحزن . . .

أؤد أن اكون لك بمنزلة والدتى كما لو كانت معك الآن

فهز الوالد رأسه بكآبة لا توصف وقال لا يمكنك فهم ذلك يابنى لانك صغير

قال أليست هذه الاوراق علة شجنك ؟

أجاب نعم لكن ذلك أمر لا يعنى الاولاد

قال الا يحق للاولاد ان يشاركوا والديهم فى البكاء ؟.

ولماذا ؟.

قال لا تزد علىّ يابنى . فان همومى كثيرة فى هذا اليوم ولكن غداً نتدبر

فالقى الصبي على أبيه نظرة وحملق اليه بصره وقال غداً ؟. وهل تكف غداً عن البكاء ؟

أجاب نعم . وسوف ترى .

قال اذن فحسبك الآن بكاء ياابتى . فانى أريد تقبيلك حتى يقل شجنك

وأقبل الغلام على أبيه يقبله فكفكف عبراته متجلداً وعاودته السكينة الا انها سكينة تهول لانها جاءت عقيب هياج ولم يسكن الهياج الا بجمود يعترى البائسين

وحاول ان يرجع الى عمله فجمع مقصاته ومخارزه وصنع وردة أولى وثانية وثالثة .

وجال فى فكره الكذب الذى اسمعه ابنه اذ قال له

غداً تتدبر .

فقال فى نفسه :

وا أسفاه اين تكون غداً فى مثل هذه الساعة

***

وفى اليوم التالى ذهب برموش وبرموشة منذ الصباح معاً . .

فوقفت نائلة الى النافذة لعلها ترى كيكو كما تعودت وقد انتهزت فرصة تغيب سيديها

وكانت تسر بمحادثة الصبى وتشعر بميل اليه يحمل على الشفقة

وكذلك الغلام فقد كان يتهلل وجهه عند محادثته اياها فلم تشأ ان تحرمه وتحرم نفسه من تلك المسرة .

وفى اعتقادها انها تأتى مبرة أو عملا صالحاً

نعم انها لمبرة تأتيها نائلة لانها لاحظت استبشار الغلام بها كلما رآها واقفة امامه فيعجبها انها وهى المحرومة المنكوبة قادرة على تعزية ذلك المسكين الصغير

وكيكو يعجب بها كما يعجب الوثنى بصنمه . ويجلها

كما يجل العابد ولياً . .

فكان ينتظرها فى كل يوم بصبر ذاهب . . وتراه لايزداد الا نحولا واصفراراً .

فاخذتها رأفة به وعظم انعطافها عليه منذ ماشاهدت والدته تفارق الحياة .

وذكرت كلمات تلك الفقيدة فى آخر دقيقة من عمرها اذ تبسمت لها وشكرتها واوصتها بولدها وقالت لها تعالى فساعديه كلما سنحت لك الفرص

ولذلك ودت ان تلقى الصبى فى كل صباح فتعزيه بحضورها وكلامها وابتسامها

وهى مساعدة ادبية وعدت بها امه اذ كانت على فراش الموت .

بل تلك نجدة تنجد بها اليتيم لاحتياجه اليها

غير ان كيكو لم يظهر لها فى ذلك الصباح

فلبثت وقتاً طويلا واقفة الى النافذة ونوافذ بيت دورنيه مفتوحة امامها وهى تعلم ان الغلام يأتى ليستنشق هواء جديداً ينفعه

واذا بها تحدث نفسها وتقول لئن لم يأت فهو عليل عجز هذه المرة عن النهوض والمجيء الى هنا

وسمعت صوتاً عرفته صوت الغلام وكان يقول لابيه :

آه يا ابتى لقد اصابنى البرد

فقال له ابوه :

هل يجب ان اقفل النافذة ؟

اجاب لا . انى اختنق اذا اقفلت . وانما احتاج الى الاستدفاء بالنار

قال لا يوجد عندنا حطب للوقود

أجاب لا بأس يا ابى فقد زال البرد . .

وسمعت السائلة الحسناء هذه الكلمات فاحست بفؤادها يتفطر حزناً على ذلك الصغير الذى ترى آلامه تتزايد من شدة الفاقة

فخطر فى بالها خاطر يدل على سمو اخلاقها التى انضجها البلاء والتعس واولاها رأفة بالمساكين امثالها فخرجت مسرعة الى لقاء شارلمان فى حانة ديبوه

كعادتها فى كل يوم

فسار بها امبراطور الشحاذين الى باب كنيسة وقعدت هناك تتسول ثم انذرها واوعدها شراً كعادته وانطلق وهو يصيح بها :

اريد منك ثلاثة فرنكات حتى الظهر والا كسرت عظامك !

غير ان نائلة لم تكن خائفة منه فى هذه المرة فبسطت يدها بالسؤال ساعات وهى غير مشمئزة ولا مكتئبة فكان الناس يتصدقون عليها وهى انما تجمع تلك الصدقات لكيكو وابيه . . وهى فلوس تتساقط اليها واحداً واحداً لتشترى بها طعاماً سائغاً وغير ذلك مما يحتاجه المريض . .

ولو شاهدت تلك المخلوقة الصغيرة البديعة مافى داخل بيت دورنيه من شقاء حقيقى لاستطار فؤادها فرحاً باخلاصها !

ولرأت مشهداً مؤثراً !

كان فرانسوى دورنيه جالساً بجانب ولده يحاول

تدفئة قدمى الغلام بيديه الاثنتين والسعال يأخذه متواصلا ولا يشكو لئلا يزيد أباه شجناً على شجن

هذا والصبي ينتفض من البرد وتقعقع اضراسه وكفاه الزرقاوان فى جيبه

ووالده يقول ويحى من لى بالنار !

ويجيل بصره فيرى الكانون وفيه بقية من رماد

واذا به قد نهض بغتة لخاطر مفاجىء خطر له فحمل كرسياً ورفعها الى ما فوق راسه ثم ضرب بها الارض فتحطمت قطعاً

وغمغم يقول ما دام انهم عازمون على الحجز والبيع فليبيعوا ما بقى !

وجمع قطع الكرسى المتبددة فألقاها فى الكانون واوقد النار..

فاشتعلت فى الحال فأقبل عليها الصبي يستمد منها الحرارة لاعضائه المتقبضة

وكان الهواء باردا فى الخارج ويمكن الصبر على برودته لكن الصبي لشدة ضعفه لم يطق صبرا

على ان حطب الكرسى اوشك ان ينفد وقد انتفع كيكو بالنار انتفاعاً لم تطل مدته

فحطم فرانسوى دورنيه كرسيا ثانية وطلع اللهب

واذ ذاك قرع الباب فدخل رجل الى البيت

فقال كيكو لوالده :

هو رجل الامس . صاحب الاوراق

وكان ذلك الرجل رسول المحكمة يتبعه ثلاثة رجال اثنان منهما شاهدان لم يكن بد من حضورهما عملا بنص قانون المرافعات المدنية وثالثهم محام قد عهدوا اليه بكتابة محضر الحجز

فتقدم رسول المحكمة وخاطب دورنيه قائلا هل انت المسيو فرانسوى دورنيه ؟

اجاب نعم

قال انى آت بناء على طلب دائنيك كما هو مذكور فى الانذار الذى استلمه ابنك منى لا كلفك دفع المبلغ المطلوب لهم منك كما في الانذار ايضاً والا اضطررت الى اجراء الحجز

اجاب فرانسوي افعل ما شئت

قال اليس عندك نقود ؟..

اجاب ليس عندى الا البؤس والغم . وهذه نقود لايقضى بها دين

فلم يجب رسول المحكمة ولكنه لاحظ فى لهجة الرجل يأساً شديدا وشعر بارتباك شديد

وقال فرانسوى لست امتلك شيئاً لان الموت والمرض سلبا منى كل شيء . ولا يوجد للحجز اشياء كثيرة !

اجاب انى ارى ذلك . لكن لا بد من الاجراء على كل حال .فاننى مضطر اليه بحكم القانون

فرنت كلمة القانون فى اذن دورنيه وقال آه لا يزال القانون منحياً على الفقراء !

فقال احد الرجال الثلاثة

لنشرع في عملنا ..

وكتب الكاتب جريدة بما حوى ذلك البيت من أثاث ولم تستهلك الكتابة وقتاً طويلا

هذا والكاتب يكتب بسرعة والرجل الآخر يملى عليه

بسرعة ايضاً وكلاهما متعود على هذه المهمة

فلما انتهوا من المحضر قال رسول المحكمة يخاطب دورنيه :

اذكرك بأن امامك مدة ثمانية ايام ولعلك تستطيع الحصول على المبلغ المطلوب منك فى هذا الاجل.وهى الطريقة الوحيدة التى بها تأمن بيع امتعتك بالمزاد

ثم وقع الشاهدان على المحضر وانصرفوا جميعاً وبقى دورنيه مبهوتاً متفزعاً من قرب يوم حلول المصيبة

فصمت هنيهة ثم رفع ساعده الى السماء وصاح ويل للفقرآء ! ويل للفقرآء !

وهى صيحة ضنك ويأس صدرت من فؤاد جريح لم يطق الصبر على الارزاء

ثم ارتمى على الكرسى الوحيدة الباقية بجانب ولده

فناداه الغلام يا ابتى ! .. يا ابتى !

قال لاتتكلم يا كيكو . لا يتعبك التكلم ياحبيبى ! ..

ثم فكر في كلمات رسول المحكمة قائلا انها ايام ثمانية مضروبة لى اجلا ! ..

وهم على ضلال والله ! . ايظنون انى احصل فى هذه المدة على مايبتغون ؟ وانى لى ذلك انى لى النقود ؟ ومن ذا الذى اطلبهامنه ؟ من ذا يعيرنى نقوداً اذا انا تجرأت على الاستدانة ؟ .. لا يوجد احد .. فويل للفقراء !

واذ ذاك قرع الباب ايضاً واقبل البواب فرفع قبعته وهو مرتبك لعلمه بما فى مهمته من الصعوبة فقال انت انت تدرى يامسيو دورنيه بأن المستحق عليك حتى اليوم قسطان من اجرة البيت

أجاب نعم ادرى ..

قال ان صاحب البيت طلب اليك مراراً ان تدفع .. ولكنك لم تفعل

قال دورنيه بخشونة :

ثم ماذا ؟

أجاب انى آت من قبل صاحب المنزل . . لاطلب منك .. ان تبحث عن بيت آخر

قال ايطردنى صاحب المنزل ! ايطرحنى الى الخارج ومعى ولد عليل ..

قال البواب بحقك لاتخرج عن حدود التعقل . . . بل أقم نفسك فى مكان صاحب المنزل فماذا كنت تفعل ؟

أجاب بل وددت ان يقيم نفسه في مكانى يوماً واحداً فقط .. او ساعة واحدة لكننى لست شريراً لاتمنى له ذلك . . . فلا بأس ... قل له اننا سنرحل .

قال لاتشك من المالك يامسيو دورنيه

أجاب لست أشكو من احد !

قال لقد كان في وسعه ان يطردك من هنا . . ولكنه تأنى فى امرك . فهو يمنحك مهلة الى آخر هذا الشهر ولا يطلب منك ماتأخر عليك لانه يعرف ضيق ذات يدك

فرفع يديه الى السماء وقال ضيق ذات يدى ! . . .

قال البواب انه يطلب منك ان تفرغ له البيت ليتمكن من تأجيره لسواك . . . لان عليه ديوناً ايضاً ويطلب منه اشياء كثيرة

اجاب سنرحل كما قلت لك

فانصرف البواب مسروراً لانه تمكن من قضاء تلك

وقال دورنيه فى نفسه :

نعم سنرحل ولكن الى عالم الابدية . . .

وهنا فكر المنحوس فى الموت . او فى الانتحار . .

ولماذا لا يفكر فيه . . فان ابنه صائر الى الهلاك مادام على هذه الحال من الفقر . . . وأما هو فلا يبالى ان يقضى على نفسه بمثل ماقضى على ولده وزوجته من قبل

او ليس الموت افضل من تلك العيشة المرة ؟

ان الله تخلى عنه ولم يتداركه برحمته ! . . . فلا يبالى ان يرتكب الى الله ذنباً !

فنهض واقبل على ولده يلاطفه شيئاً ومضى ففتح خزانة في داخل الغرفة فأخرج منها محفظة من جلد كانت مخبوءة تحت ثيابه ولم يرها رسول المحكمة

وفى تلك المحفظة ورقة هى وصل كان قد أخذه بالعقد الذى وجده فى ناحية محطة الشمال

فصاح من يظن انه يوجد هنا وصل بثروة جسيمة !..

قدرها أربعين ألف فرنك !

واستمر يخاطب نفسه ويقول ان تلك الحلية لا صاحب لها . . . ولم يطلبها أحد حتى الساعة . . ولو أتيح لنا الحصول على شىء من ثمنها لنجونا من كل مكروه . . . كان يجب علىّ أن أبقى الحلية عندى . . .

نعم كان يجب علىّ ذلك . .

وأطرق يفكر هنيهة غير انه نبذ هذا الخاطر لساعته وقال بعزيمة :

كلا ! . . لا بأس بالفقر والضنك والهم والموت ! . .

لا بأس بالرزايا تتساقط على رأسى كالصواعق ما دام شرفي باقياً ! . . فقد أحسنت عملا ولست بآسف ولا نادم . . نعم أنا رجل من اهل الصلاح والفضيلة وكنت على الدوام كذلك وأريد أن أموت وأنا على ما أنا من الخلق . . .

وأرجع المحفظة الى الخزانة ثم قال يخاطب نفسه ايضاً :

لنعتصم بالشجاعة الآن . . لا يزال يوجد فى محفظتى

شيء من الفلوس . . وهي كافية لشراء مد من الفحم

وكانت النار قد خمدت في الكانون الا قليلا فطرح فيها الكرسي الباقية الاخيرة

ثم تناول قبعته ومضى من غير أن ينظر الى ولده خيفة أن تضعف عزيمته قائلا انتظرني ريثما أعود سريعاً

قال أذاهب أنت يا ابتي ؟

أجاب نعم ...

قال اتغيب مدة طويلة ؟

أجاب لا . بعد ربع ساعة فقط اكون هنا

ومضى ليشتري الموت

﴿ الفصل السابع ﴾

صديقه

لم تمكث السائلة الحسناء وقتاً طويلا بباب كنيسة نوتردام وانما نصف ساعة فقط

وقد كانت لهجتها في الاستعطاء ذلك اليوم أشد تأثيراً وبصرها أقوى توسلا من عادته

فلم يمر بها أحد الا تصدق عليها بشيء

فاجتمع لها من الفلوس ما رن في جيبها الداخلي وهو من جلد وطالما أوصاها شارلمان بوضع الصدقات فيه

فاجتمعت ما جمعت فاذا به قد بلغ ثمانيه وعشرين فلساً أي نحو فرنك ونصف

فطربت وقالت لعمري انها كافية لشراء الفحم والخشب وتدفئة كيكو

فاحالت بصرها خائفة فلما لم تر بوموش نهضت واستخفها

السرور فانطلقت تحت السير الى شارع كوهونزى وبعد بضع دقائق وصلت الى منزل دورنيه

فلم يرها احد صاعدة اليه لا برموش ولا برموشة لانهما كانا غائبين

ذلك لان امبراطور الشحاذين كان يراقب مستخدميه العديدين فى أماكن كثيرة أقامهم فيها للتسول ويرصد ما يعملون أما فيرجينى فكانت تطوف بالحانات وتعاقر الكؤوس المختلفة

على ان نائلة كانت موطدة عزيمتها فلم ترهب ولم يخامرها خوف .

نعم لا شك فى انهما يضربانها في ذلك المساء ضربا مبرحا ويعاملانها بصوت الغلظة والقساوة متى علما بأنها لم تأت بالدخل كاملا ولكن ماذا يهمها بعد أن تكون اسعفت صديقها كيكو الصغير وجلبت اليه الدفء والراحة

فقرعت الباب فصاح الغلام يأذن لها بالدخول

فلما رآها طفر من مكانه طروبا غير ان قواه خذلته

فارتمى على قدميها

فانهضته بلطف فبحثت عن كرسى وبحث أيضاً فلم يجدا

فعلمت السائلة ماهنا لك من بؤس وانكمش فؤادها ان فقرها لا يعد شيئاً بالقياس الى هذا الفقر المدقع وقد زاده المرض واليأس شراً وضيراً

فقدمت له فلوسها وقالت خذ فاشتر فحماً وحطباً وانى عالمة بما اصابك من برد وان أباك لا يملك مالا

قال وكيف علمت ؟

أجاب سمعتك تشكو البرد فاردت اسعافك فخذ هذه النقود فهي هبة منى اليك وقد كسبتها

ورفعت رأسها بكبر

فاحمر وجه الفتى حتى حكى الارجوان وخجل من ظهور ما ود كتمانه عن تلك الصديقة

غير ان ذلك التأثر زال سريعاً وقام مقامه عرفان الجميل فقال انت طيبة السريرة محمودة الجوار فما اعظم شكرى لك ؟

قالت ياليتنى قادرة على اسعافكم ايها العزيز

قال شكراً لك والف شكر !

قالت سوف اجىء فى كل يوم فاتيك بما اقدر عليه

قال هل تشتغلين ؟

اجابت كلا .. وانما اتسول ..

قال انت تتسولين ؟ ..

وهل تسولت اليوم لاجلنا نحن ؟.

اجابت بلا شك ! ويسرنى ان اتسول لاجلك انت المسكين المنحوس فذلك خير من التسول للشقيين اللذين يسكران بالنقود التى يأخذانها منى في كل يوم ويضربانني

فلم يجب كيكو لكن اصفرّ لونه وعظم انفعاله

فامسك يد السائلة الحسناء وضمها الى صدره خاشعاً ولثمها ثم قال انت اطيب الناس قلباً . وانا احبك محبة شديدة ! .

وبعد سكوت تنهد وقال لكننى لن اراك الا قليلا وهذا أمر يولينى غماً . فاننا راحلون من هنا

قالت لماذا ؟

أجاب لأن مالك البيت لايريد ان تقيم هنا فهو يطردنا..

قالت والى أين ؟

أجاب اظن اننا ننتقل الى مكان اقل اجرة من هذا .
فقد عضنا ناب الفقر بعد وفاة والدتى .

قالت انى ارثى لك !.

قال ربما رحلنا غداً فانا اريد توديعك الآن . واتمنى لك كل ماتستحقينه من السعادة مكافأة لك على احسانك

قالت على احسانى ؟.

قال نعم. فانك احسنت الينا يوم وفاة والدتى اذ جئت الى هنا . واحسنت الىّ لمخاطبتك اياى فى كل صباح من النافذة برقة ولطف كعادتها معى . ولقد كنت اتشجع بك واحسب انعطافك علىّ تصدقاً . فليجزك الله نعمة لك وليهبك السعادة التى انت اهل لها !.

فقطبت وجهها وقالت اواه من أين تأتينى السعادة

قال انى افكر فيك احياناً كثيرة واكتئب لاننى

لااراك . واعلمى اننى لا انساك ابدا .. فالوداع الآن.

اجابت بل سنلتقى ! .

فاومأ برأسه واعرض بوجهه حتى لاترى عبراته وامسك زفراته متجلدا

فاضطربت الفتاة وقالت وارحمتاه لك يا كيكو ! . .

وانطلقت وهى كثيرة التفكر فقصدت الى باب الكنيسة لتبسط يدها بالسؤال قبل ان يدرى شارلمان انها فارقت مكانها واذ ذاك يمتنع عليها ان تعطى كيكو واباه فى الغد ماتجمعه من الصدقة

الفصل الثامن

عقد اللآلئ

فلم يتأخر فرنسوى دورنيه بل دخل الى البيت فوجد كيكو مضطجعاً على سريره فلم يتحرك لوقع خطوات ابيه

وقد ضعضعه توديعه لنائلة وانتحابه على اثره فلم يعد يقوى على القعود

فقال دورنيه احمد الله على انه نائم. لاشك ان العناية الالهية القت عليه سباتاً حتي ينتقل من عالم الرقود الى ذلك العالم الابدى او الراحة الدائمة

فترك ولده على سريره واطلع من وراء ردائه ورقة كبيرة زرقاء مملوءة فحما

ثم اخذ فى الكتابة بيد ترتجف واليك نص ماكتب :

انى اموت وولدي معى لرغبتى فى الموت فانه ورث عني حياة مجبولة بالتعاسة والعذاب . وهو عليل مشرف

على التلف . فلا أكون الا مقربا اليه أجله . أو نجاته مما هوفيه

« وأحسب انى اسديت يداً صالحة الى ولدى باماتتى اياه معى . ولئن كنت على ضلال فان الله ولى أمرى وهو أعدل الحاكمين .

« أما أنا فقد نفدت حيلى وذهب صبرى .. والداء يرصدنى . وقد توفيت زوجتى . وهذا ولدى عليل . ثم اننى ساغدو بعد أيام طريداً بلا مأوى . فلا حول لى ولا قوة على مقارعة الخطوب . انما انا معترف بالعجز والتقصير !

« واسأل الذين يجدون جثتينا ان يصفحوا عنالمشقة تنالهم بسببنا . فذلك آخر ما نجشمه الناس من تعب

« الامتعة التى فى البيت محجوزة فاذا بيعت وبقى منها شىء فليعط لفقراء الحى

« ويوجد فى الخزانة محفظة تحوى وصلا بلقطة وجدتها قبلا هى عقد لآلئ غالى الثمن فليعلم قارئ كتابى اننا نهلك جوعا وبردا وفقراً وقد كانت بين ايدينا

تلك الثروة الجسيمة . لم نتصرف بها لأنها ليست لناوقد وجدتها فى ناحية محطة الشمال منذ سنة

« ويرحم الله من يسترحم لنا ويستغفر !. »

فلما انتهى من كتابة وصيته قرأها ووضعها على الطاولة ظاهرة لكل داخل الى الغرفة

ثم أوقد النار بعد ما اقفل النافذة وأوصد الباب

فلما اتقد الفحم شيئاً ذهب ابو كيكو فاضطجع بجانب ولده على السرير

وانقضى نصف ساعة

وقد ازف الظهر

وعاد شارلمان الى بيته وذهبت فيرجينى لتهيىء طعام الغداء لزوجها وسيدها وهو الامر الوحيد الذى لا تجسر على مخالفته فيه فجلس الى المائدة ينهش نهش السباع ثم جاءت زوجته مشاركته فى الاكل

ونائلة تخدم الشقيين على المائدة

واذا بفرجينى تقول اصغ اننى اظن الباب يقرع

أجاب ذلك باب دورنيه بلا شك

قالت تبا له من غبي مغفل، فانه يكدح الليل والنهار ويتحمل جهداً جهيداً فلا يسمع صوت بابه يقرع ولا يريد ان يزوره أحدلئلا يضيع فرصة شغل

قال شارلمان بل هو يترك الناس وقوفا ببابه ليباهي بانه ذو شان واهمية

واستمر صوت الباب يسمع شديداً حتى قالت برموشة انهم يكادون يهدمون البيت

فنهض شارلمان وقال ليس هذا بالامر الذي يتغاضى عنه فلنر ماذا يجرى

ومضى الى الدهليز وتبعته برموشة ولحقت بهما نائلة فوجدوا ثلاثة أشخاص واقفين بالباب رجلين وامرأة والمرأة تحمل سلة ملأى بالزاد . وهي سيجاريت . جاءت فرانسوى وولده بطعام الغداء

وصحبها زوجها ولوسيان مرليه لينتقلا الى صانع الازهار بشرى طيبة هي ان جميعة الاسعاف اختصته بمرتب يقيه غوائل البؤس

وكان مانيلون يقرع الباب بعنف وضجر من غير

فائدة .

وكلهم يعلم ان الغلام كيكو لا يكاد يخرج من البيت ثم ان البواب انبأهم بأن دورنيه في بيته

فانكمش فؤاد سيجاريت وقالت هذا سكوت مزعج ! ...

قال مرليه انصتوا !

قالت لماذا ؟

أجاب كأني اسمع انيناً كانين المختنق

قال مانيلون وقد سمعت ذلك ايضاً

فدنا شارلمان وانصت ثم قال يوجد اناس هنا ولا يجيبون ..

وكانت سيجاريت قد انحنت لعلها ترى من خلال القفل شيئاً فقالت ويلاه انني اشتم رائحة الفحم

وادركت نائلة حدوث مصيبة فقالت يارباه !

فامرها برموش بان تنطلق فتخبر البواب قائلا لها اذهبي ايتها السائلة فاعلمي البواب

ولما سمع مانيلون برموش يناديها بالسائلة عرته رعدة

وفكر في ان يرى ذلك الرجل ولم يكن قد تنبه اليه قبلا . .

فعرفه وقال في نفسه:

هو برموش استاذ الشحاذة في حانة ديبو . آه يجب ان اعرف السائلة ! . واكلمها

واذ ذاك اقبل البواب لان نائلة وجدته على السلم فصاح لما وصل يالله ما أشد رائحة الفحم ماذا جرى؟ ربما جرت حادثة هنا ..

هذا ورائحة الفحم قد انبعثت من شقوق الباب وانتشرت في جو المكان

قال شارلمان مخاطباً زوجته هذا صحيح فان الرائحة تشبه رائحة الثياب التي تكومينها يافيرجيني

فقالت وصوتها يرتعد :

هل يوجد من ينتحر ههنا ؟

فالقى خادم الباب نظرة من ثقب القفل وقال انى أرى كانوناً يتقد . وعلى السرير جثتان . . هما دورنيه وولده كيكو

فدنت نائلة وصاحت بحق السماء افتحوا الباب !

فحاول البواب فتح الباب بما معه من مفاتيح فلم يفلح لانه كان موصداً من الداخل بالزلاج

فتقدم برموش والقى كتفه على الباب ودفعه بعنف فاهتز فجعل يضاعف معالجته له وكان جباراً غليظ الالواح متين العصب فلم يكن الا القليل حتى انكسر القفل .

فقالت سيجاريت قد كاد ينفتح !

فدفعه ايضاً فانخلع

فدخل الجميع الى الغرفة

فابصروا الكانون متقداً والوالد والولد على السرير والرائحة تطيش وتحمل على الدوار

فوثبت السائلة الحسناء الى السريرين وهي تقول والهف قلبي على كيكو المسكين !

وكان كيكو وابوه بلا حراك لكن الحياة لم تفارقهما لانهما يئنان انيناً ضعيفاً

فاسرع مانيلون الى النافذة ففتحها وهو يقول لم يفت

الوقت !..

فدخل الهواء البارد واختلط باكسيد الكربون فملأ المكان ما بين النافذة والباب

ورفع لوسيان الكانون من موضعه فوضعه خارجاً

وأقبلت سيجاريت على الضحيتين وقد بدت عليهما امارات الحياة

فاستيقظ فرانسوى دورنيه فى الاول ففتح عينيه على مهل وسرح حوله بصراً تائهاً تعلوه غشاوة فكانت الكلمة الأولى التى تلفظ بها :

ولدى !..

ورأى سيجاريت تعالج كيكو لعله يستفيق

فانتصب قاعداً وقال رباه هل مات ؟

أجابته السائلة الحسناء

كلا فانه حى ... وكن مطمئن القلب.. لانه تحرك

وبعد هنيهة استفاق الغلام

فحمله صانع الازهار وضمه الى صدره يقبله بلهفة وحنان وينتحب ويقول عفواً ياولدى !.. عفواً عن

أبيك !..

فجعل كيكو ينظر ولا يفهم ... غير انه بعد حين تبسم لسيجاريت ونائلة وقال لهما :

شكراً !...

وتبددت غياهب الظلام عن مخيلته فامسكت السائلة يديه وأخذت تسكن روعه وتشجعه

وحاول فرانسوى أيضاً على الرغم من ذهوله تعزيته وتسديد عزيمته

فقال شارلمان لولا ان تيسر انقاذكما قبل انقضاء الوقت لكنتما الآن جثتين ... وخمس دقائق كانت كافية لذلك

وضحك من ملاحظته التى لم تكن فى موضعها

واستفاق دورنيه وولده تماماً الا انهما مابرحا يشعران بصداع اليم وضعف عام

فغمغم فرانسوى يقول لنفسه لماذا اعادونا الى الحياة !.. ان الموت ابى ان يضمنا اليه فهو ينبذنا ... ويجب علينا ان نتعذب أيضاً

وانقبضت ملامحه يأساً

واذ ذاك أقبل المستأجرون المقيمون فى ذلك المنزل فدخلوا جميعاً الى الغرفة

فكانوا يتكلمون مظهرين ارتياعهم ودعى رجال الشرط فصعدوا الى هناك وبعد ان وقفوا على تفاصيل الشروع فى الانتحار ارسلوا بطلب عجلة تنقل المريضين الى المستشفى

أما امبراطور الشحاذين فبادر الى الانصراف قبل وصول الشرط لانه لم يكن يميل الى هذا الصنف من الناس.

فاقتاد زوجته ونائلة وكانت فى اسوإ حال من القلق فاضطرها الى مفارقة كيكو وأبيه مع انها ودت ان تخدمهما

ولم يطق برموش الوقوف حتى يحضر رجال الشرط لئلا تكون له علاقة معهم أو يطلبون منه شهادة بما رأى ثم انه أوجس خيفة من بصر مانيلون فانه كان يتفرس فى وجهه تفرساً غريباً

وهكذا من لم يكن صافي السريرة فانه يتوقع شراً ويخاف من كل شىء، لتوهمه ان وراءه مناقشة على مافعل من القبيح والمنكر

وذلك شأن برموش

ولبث مانيلون ولوسيان وسيجاريت فى منزل دورنيه مع البواب ووافي شرطى ليكتب محضراً

فدنا مانيلون من الشرطى واسرّ اليه كلمتين واراه بطاقته

فقال الشرطى فهمت !

واتفق الاثنان على كتابة المحضر

ووقعت عين لوسيان على الوصية التى كتبها دورنيه فقال هنا رسالة ودفعها الى مانيلون فقرأها بصوت مرتفع

وكان دورنيه وكيكو قد نقلا الى المستشفى

ففتح مانيلون الخزانة ووجد المحفظة والوصل الذى ذكر فيه عقد اللؤلؤ

هذا والشرطى يكتب المحضر وبعدساعة مضى مانيلون

الى مكتب الاشياء الموجودة وطلب رؤية العقد ومكنه من ذلك على الخصوص انه شرطي. فلما وقع بصره على الحلية النفيسة لم يتمالك ان ارتعد ارتعاداً واضحاً!

فهو هو العقد العجيب الذي اختلسه منذ عشرين عاماً من حانوت الجوهري برتلمي المقتول في ويسول عرفه من أول نظرة

وهو العقد الذي استولى عليه جاك نورتون قبيل ان تقذف به من مركبة السكة الحديدية الى نفق لابومراي

فخفض رأسه وبرز له الماضي المشؤوم

فطرد هذه الذكرى من ذهنه ووعد نفسه بان ينبئ مدام دي سمروز المحسنة اليه بامر الحلية حتي تستردها لأنها ملك لها

وعاد الى منزله وهو يفكر في ذلك الاتفاق الغريب الذي اظفره بذلك العقد بعد عشرين عاماً

الفصل التاسع

غرام

لبست المركيزة دي سمروز ثياب الحداد على زوجها وفي فؤادها حزن آخر لكنه خفي هو حزنها على ابنتها... على نائلة!

لم يكن لها أثر حتى ذلك اليوم

وبذل المسيو برترو جهده من غير فائدة

ووعد مانيلون بان يتخذ كل وسيلة للبحث عن تلك الابنة الضائعة ولم ينجز وعده

والحاصل ان التعب لم يفد ولم تظهر نتيجته من تلك المساعي الدائمة حتى اليوم التالي ليوم وفاة المركيز دي سمروز

ذلك لأن برموش لم يخلف وراءه اثراً يدل عليه اوان رسل قاضي التحقيق لم يهتدوا اليه على الرغم من

حذقهم واجتهادهم في التحرى عنه

وهكذا استمرت نائلة مخبوءة خافية

فكان لهف جيلبرت عليها موجعاً ولاسيما بعدماصار يمكنها الدنو منها

أما صابوريو فقد انتهى زمن تجسسه ومراقبته للمركيزة لان المركيز الشيخ قضى نحبه والغى الموت اوامره ومراقبته الشائنة فصارت المركيزة حرة التصرف مطلقة السراح!

وفي تلك الساعة ساعة الحرية والفكاك بليت باليأس من ابنتها وانفتحت هاوية عميقة بينهما فعظمت لوعة المركيزة حتى ضعف احتمالها وزاد تألمها ماتقاسى من لوعة الندم والاسف

اسفت على مافرط منها اذا وضعت مخلوقة مسكينة ولم يكن يحق لها ان تحبها أو تدفع عنها أو تنصرها..

وندمت لانها اسلمتها الى ايدى قوم غرباء وربما كانوا اشراراً اشقياء ...

وندمت كذلك لان ابنتها على ماتتوقع قد اصيبت

بانواع الشقاء وضربت بالخزى والمذلة وربما لطخت باقذار المعيشة السافلة وهى أمها ممتعة بالحصول على اسباب الرفاهية والرغد واليسر

فلم يكن بد من الاعتصام بالصبر الجميل لتجتاز العقبة التى قامت فى وجهها

يجب ان تحتمل الرزئية وتعتمد على انها الوحيدة آمنة مطمئنة

وثبت لها بر ولدها بها عقيب وفاة المركيز . وقد نزلت بروبر تلك المصيبة نزول الصاعقة لأنه كان يحترم ويحب أباه وان لم يلق منه الانعطاف التام

ذلك لأن المركيز ربى ولده تربية عسكرية قاسية وقد أولاه نفوذه هيبة وبات ولده يجله اعظم اجلال

واحب روبر والدته ذلك الحب البنوى الشديد السائد على قلوب الامهات والبنين

والشاب روبر ذكى الفهم سامى الاخلاق رقيق الاحساس والشعور مشترك مع والدته فى العواطف والطباع لايجد مثل حنانها ولطفها ودقة ادراكها

أما حبه لابيه فكان يغلب عليه التعظيم والمهابة. وأما حبه لأمه فهو حب الولد الذى لايجد احن منها عليه ولا اعطف ولا اكرم فهى الصديقة الودود والمخلصة الوفية والامنية على الاسرار وهى الام الرؤوم

وظل يجهل كل الجهل آلام والدته وخفى اشجانها التى ضعضعتها وسحقتها دهراً طويلا

واستمر يجلها بعد وفاة والده ايضاً

وكان يحسب ان كآبتها ناجمة عن فقد زوجها ويعذرها على ذلك الا انه مع ذلك وجد من غير ان يشعر سبيلا الى السلوان والعزاء

وللشباب حقوق على ذويه لايوهنها أسى ولا يذهب بها رزء مهما يكن جسيماً

وفى الحياة ابواب مفتوحة لمن كان ممتعاً بالشباب والثروة وسائر اسباب لرفاهية

فكان روبر يحول بصره عن الماضى المحزن ويتجه بكليته الى المستقبل

فلما كان ذات مساء وردت عليه رسالة اكب عليها

يطالعها وهو منفرد فى مخدعه وقد كان لها وقع شديد عليه

واليك صورة تلك الرسالة

« ايها المركيز

« انى وان طردتنى السيدة والدتك لست انسى انتدابك اياى لامر يهمك على ما رأيت كثيرا

« اليك عنوان البارونة بولنسكا

فهى مقيمة فى شارع ريبو نمرة ١٧

« ولم اتردد فى ارسال هذا العنوان اليك منذ ما اكتشفته لاننى كما يعلم الله لم ار منك الا خيرا وبراً وانعطافاً

« اما البارونة فهى تعيش وحيدة

« ولا يزورها الا قليل

« وانت ايها المركيز تعرف مسكنى فأكون شاكرا لك اذا عرفتنى وصول رسالتى هذه وارسلت الى المكافأة التى وعدتنى بها

« ولك منى التحيات الكثيرة

خادمك المخلص

« صابوريو »

قرأ روبر هذه الرسالة عشر مرات وكان يخامره الاضطراب فى كل مرة .

فقد بات يعرف مسكن تلك المخلوقة الفتانة التى اعجب بها وسائر الناس عند ما شاهدهافى ميدان أوتيل . . .

عرف مقر البارونة بولنسكا بعد ما غادرته يصبو اليها كلمافكر فيها

وكان يفكر فيها على الدوام ذاكراً بهاء طلعتها وجمالها النادر وما برح قادراً على وصف ملابسها فى ذلك اليوم يوم رأى على رأسها عصابة من شعرها الذهبى ويوم اقتنصته بحبائل فتنتها ورمته بسهام لحظها

خيل له ان تلك السهام اخترقت حشاشته فكان يخفق لها فؤاده ويشعر بوقعها فى كل ساعة .. وهو تأثير لا يزول ابدا

حزن على أبيه حزناً شديدا اقصى عنه شواغله الغرامية التى نجحت عن مصادفته لتلك المراة الا ان تلك الشواغل

عاودته وساءت على افكاره وتصوره

فلما وافته رسالة صابوريو اضطرمت نار الهوى فى فؤاده الخالى الساذج

فجعل يعيد قوله شارع ريبو نمرة ١٧ . هناك منزلها .. على مقربة منا .. اذن سوف اراها .. واكلمها .. وامتع النفس بقربها !.

وفى اليوم التالى انطلق روبر دى سمروز يتمشى على رصيف شارع ريبو متخذا هيئة متنزه ولفافته فى فيه وهو غير حافل بشىء

فمر بالشارع يروح ويجىء فيه مرارا وعيناه محملقتان الى المنزل نمرة ١٧

فألفاه منزلا حسن الظاهر فحدق لعله يرى من خلال النوافذ داخل البيت غير انها كانت مقفلة

فوطن النفس على الدخول فتقدم يسأل البواب وفى صوته تردد الخجول :

هل تقيم هنا البارونة بولنسكا

أجابه نعم فى الطابق الثالث

قال وهل هي في البيت ؟

اجاب اظنها هنا لانني لم أرها اليوم

فصعد المركيز الشاب في السلم مستمهلا وهو يقدم رجلا ويؤخر أخرى الى ان بلغ باب البيت واذا به يرى الى جانبيه سلسلتين لقرع الجرس

الا انه لم يتجرأ بل لبث في موقفه يتردد

فقد لاحظته البارونة في اوتيل منذ أيام ...وهي التي رمت بطاقتها ... ذلك لا ريب فيه ...

ولكن الا يمكن ان يكون واهماً

ألا يمكن ان يكون أمله حاملا اياه على التوهم فخدع نفسه وعللها بالباطل

وانما ساقه الى هذا الخاطر ما فطر عليه من سذاجة وحرية فكر واستقامة

فقد يحتمل ان تكون البارونة بولنسكا امرأة ذات فضيلة وعفاف وتأبى منه مثل هذه الزيارة الفجائية من غير موعد أو طلب مقابلة ...

ولعله أساء ترجمة معنى لحظاتها ...فالمرأة غريبة الدار

وقد يكون لالحاظها غير المعنى الذي فهم ..

فهل هو مغرور ؛

وخامره الوجل والارتباك والاضطراب فكر راجعاً على السلم وهو يقول في فكره خير لي ان لا اتعرض لامرأة مجهولة بارعة الشكل والا لم آمن ان تحسبني فاقد الرشد مجنوناً ...

فلم يتجرأ ... وقال في نفسه لاجرأة لي أبداً

وانصرف عازماً على ان لا يعود

على انه عاد في اليوم التالي وما بعده الى قبالة المنزل نمرة ١٧ في شارع ريبو

وقد علم ان فاتنة لبه تقيم في الطابق الثالث

فاتجهت اليه نظراته

الا انه خاب ما يؤمل ولم يرها

الى ان كان ذات يوم فبصر بشبح أبيض مطل على الشرفة ولمح رأسها الاشقر الذهبي

فارتعش وظل كمن أخذه السحر .

غير أن تلك الرؤيا لم تدم الا لحظة عين لان الغادة

الشقراء دخلت الى البيت وأقفل باب الشرفة

ومع ذلك فقد لمحت ذلك الشاب وكان يفترسها ببصره افتراساً وخيل له انه يرى على شفتيها ابتسامة زالت بأسرع من وميض البرق . لكنه كذب بصره وحسب نفسه على ضلال

ولما مر فى اليوم التالى رأى نافذة مفتوحة . والبارونة جالسه اليها كانها لا تخطر ببالها شيئاً ولا تعبأ بأحد

وكان ذلك فى نفس الوقت الذى مر به أمس

فتأملها فاذا هى تبسم حقاً فزال كل ريب من نفسه فقوى قلبه وحياها لانه فكر فى ابتساماتها السابقة

وتقدم فوجد بالباب مركبة فاخرة يجرها جوادان من اكرم الخيل وعلى المقعد حوذى وخادم خاص

ومرت يذينا لتصعد الى مركبتها فكان مرورها بقرب روبر فنظرت اليـه نظرة كأنهـا وعد صريح فاستفزه الطرب

أما الآن فلم يبق فى نفسه موضع للريب وصار قادراً على زيارتها لانها شجعته بنظراتها وابتساماتها

قالت له عيناها اهلا وسهلا ومرحباً بك ايها الحبيب

وجلست فى مركبتها وهى مرتدية بملابس آية في الظرف واتقان الهندام وحسن الزى ووجهها متهلل يطفح نوراً وعيناها تلمعان وثغرها يفتر ويبتسم وكانها تظهر محاسنها التي تذهب بالعقول

وكانت كأن البهاء يحيط بها أو كأن حولها شعاعاً يجتذب اليها الابصار فشعرت بسلطة جمالها ولاح فى عينيها لمعان من الكبر والتيه تاهت بمحاسنها وباهت بتلك الهيبة الالهية التى لا تقاوم هبة الجمال

فمرت امام المركيز الشاب وقد سحرته وبهرته فاتبعها النظر ولذ له ان يطيل التأمل بها واستعذب طول وقوفه ممتعاً بصره بمرآى طلعتها ولطالما رآها قبل ذلك فكان يزداد شغفاً بها ويزول مابه من اسى خامره لفقد أبيه أسره الجمال وشغل باله ذلك البهاء واصابه الغرام !

ولكن هل يكون غرامه دائماً مقيما ؟ . أولعله سحابة صيف ؟ .

هل يكون هوى تثيره اعين نجل ويهيجه مرأى كل

غادة حسناء ؟

على ان روبر فى كل حال كان معجباً اعجاب هائم بجمال تلك المخلوقة وهنا الخطر كل الخطر

فبات يثنى على صابوريو واجزل له العطية

ثم وعد نفسه بالذهاب الى زيارة تلك المرأة من غير تردد

فعاد الى البيت واذا بوالدته قد عقدت النية على أمر يثنيه برغمه عن مقصده

عزمت على ان تذهب الى نيس لتنفق هناك فصل الصيف وكانت فى حاجة الى الراحة والتمتع بهواء البحر

وصف لها الطبيب الاقامة فى الاقطار الجنوبية .

فقررت الرحيل من غير امهال

وروبر كثير الاحترام لرغائب والدته قلق الخاطر مشفق على صحتها فلم يبد ولم يعد ورضى بمصاحبتها الى حيث شاءت فقال لها نرحل حينما تريدين

قالت اذن غداً نسافر

قال لقد اسرعت كثيراً !

أجابت نعم ياولدى العزيز وذلك لأن اسرة كانتابل عازمة على السفر فنكون معها

فصاح روبر طروباً :

وهل يمضى جورج معنا ؟

أجاب بلا ريب فانه فى عطلة العيد والكلية الطبية تقفل ابوابها فى مدة العطلة فهو ينتهز الفرصه

قال لقد مضى وقت طويل لم أر فيه ذلك الصديق الصدوق

قالت اذن ابشرك بقرب الاجتماع به ياولدى ولسوف تصطحبان هناك

اجاب اذن قد اتفقنا يا أماه على ان نسافر غداً

وفى ذلك المساء بعينه كتب كل من الوالدة والوالد رسالة وكل منهما يخفى عن الاخر فحوى رسالته

أما الرسالة التى كتبتها جيلبرت فكانت معنونة باسم المسيو برترو قاضى التحقيق

وبها تتوسل اليه ان يستأنف التحرى عن نائلة ويخبرها فى نيس عن النتيجة اذا كانت هناك نتيجة تسرها

أما رسالة المركيز دى سمروز فهى معنونة باسم البارونة بولنسكا

كتب اليها ما يأتى

« لا يسعنى ايتها السيدة ان انتظر طويلا حتى أبوح لك بما يخامرنى من غبطة وحبور اذا تفضلت بقبولى زائراً

« انى اتجرأ عليك اليوم بهذه الرسالة وانا آسف على انى تأخرت فيها . فاننى مسافر غداً الى نيس مع والدتى وهى ذاهبة الى هناك فى طلب كمال عافيتها

« اظننى لست ممن لا تحفلين بهم .. او غير مكروه منك أما أنا فاننى المفتون بما وهبك الله من محاسن

« لقد كنت أراك فى كل يوم فاعجب بك ويعظم أعجابى ويتزايد . ومع ذلك فانا راحل من غير ان اقدر على مخاطبتك . لكن غيابى لا يطول ولسوف اجتهد فى الرجوع متى استراحت والدتى فى ريفنيرا

« فهل تأذنين لى يومئذ بزيارة احبيك فيها نفسى ؟

وفي تلك الليلة رأى البارونة فى منامه .. راى الغادة

الحسناء الرشيقة القوام اللينة المعاطف الساجية العينين وهام فى هواها

﴿ الفصل العاشر ﴾

المخلص

قد علمت مما مر بك ان برموش وزوجته مجاوران لدورنيه

فقد سكنا شارع كوصونرى منذ ما انتقلا من حى مونمارتر وهو شارع يصلح ان يكون مركزا لاعمال امبراطور الشحاذين لقربه من الاسواق

وكان يقيم فى الطبقة الخامسة من ذلك المنزل المؤلف من غرفتين ومطبخ

فاحدى الغرفتين للزوجين وجدرانها مزينة بصور مقطوعة من الجرائد المصورة

والغرفة الثانية تسكنها نائلة وفيها كل ماجمعه ووضعه

برموش من آلات التسول التى كان يبيعها من تلامذته بالثمن الغالى

ففيهـا الثياب العتيقة المختلفة الزى وضفائر الشعر والاحزمة واللحى الكاذبة وغيرها مما لا يتسع المقام لذكره ولكنه يدل على اتساع فكرة الامبراطور وتفننه فى الاستنباط

وما عدا ذلك فحجرة نائلة عارية الجدران وليس فيها الاطاولة ذات قوائم عرجاء ووعاء للماء وفراش مطروح على الارض عليـه غطاء كأغطية الخيل الا انه عتيق مرقع

وكانت فيرجينى تقول ان السائلة حسنة البخت بما وفقت اليه ؟

وبعد انقضاء يومين أو ثلاثة على حادثة دورنيه دخل شارلمان الى بيته فى نحو الساعة العاشرة ونصف مساء وكان آتياً من جمعيته حاملا معـه اثنى عشر فرنكا دخل محاضرته

فزفر زفرة وارتمى على كرسى وقال ما عدت أطيق !

فقالت له برموشة ما عدت تطيق ماذا ؟

أجابت الصعود الى هنا فان البيت مرتفع جداً

قالت لعلك تحتاج الى آلة كهربائية تصعد عليها

أجاب لا ولكننى افضل الطابق الاول على الخامس

قالت هنا الهواء اكثر

أجاب ماذا يهمنى !

قالت هل تفضل ان تصاب بداء النقرس ؟

أجاب صدقت !

قالت على اننى أرى رأيك ياصديق

فنهض شارلمان وهمهم متبرماً وقال أين السائلة ؟

أجابت أنها فى شغلها

قال اتشتغل فى هذه الساعة ؟

أجابت نعم فقد ارسلتها تبحث عن زجاجة فى شارع سن دنيس لاننى ظامئة

قال هذا أمر يحدث لك غالباً ولا استطيع ان اسخط عليك بسببه لاننى مثلك دائم الظمأ ... خذى مايبرد ظمأك غداً

وناولها قبضة من النقود بكرم وذلك قسم من كسبه اليومى

فوثبت اليه برموشة ورفست الهر فى طريقها اليه حتى تصل فلما قبضت النقود تبسمت وقالت حياك الله يازوجى

فنظر برموش فى ساعته وقال لقد أزفت الحادية عشرة.. وقد طال تغيب السائلة

أجابت صدقت فما عساها تصنع ؟

قال هل أرسلتها من زمن طويل ؟

اجابت منذ نحو ثلاثة ارباع الساعة

قال اتضيع ثلاثة ارباع الساعة فى ذهابها لتأتى بزجاجة هذا كثير فكيف ترين أنت ؟

أجابت صدقت

قال لعلها فرت؟

أجابت لا .. والى أين ؟

قال مايدرينى ؟..لعلها فرت تشكو الى معاون البوليس ماهى فيه من مزاولة حرفتنا !

وللحال انقلبت ملامحه وقطب وجهه

فهزت رأسها وقالت هيهات ان يخطر هـذا الخاطر فى فكرها العقيم!

قال بل انت على ضلال يا فيرجينى فان السائلة قد ارتفعت عن سن الحداثة وهى منذ زمن غير بعيد قد أخذت فى النمو فاعتدل تكوينها وحسنت هيئتها وشكلها فلا يدهشنى ان تخدعنا فى أحد الايام وتفرّ ضاحكة علينا

أجابت هذا كلام لا اصدقه عنها ...

قال ألا تذكرين يوم اشبعناها ضربا لتخبرنا عما فعلت بالنقود التى جمعتها من الصدقة ... فلم ترد ان تقر وامكنها ان تقاوم ..

أجابت هـذا صحيح ... فقد وقفت أمامى ورفعت رأسها وعاندت ولم أرها قط كما رأيتها فى ذلك اليوم . فانها لم تكد تخافنا

قال قلت لك انها بدأت تمكر بنا... فاحذرى لا ينبغى ان نغفل طرفة عين عنها فهى الدجاجة التى تبيض لنا ذهباً

أجابت سوف افعل وترى

قال اما اذا حدث حادث فى هذا المساء فيكون الذنب

ذنبك يالكاع

قالت لماذا ؟

أجاب لأن العاقل لا يرسل مثل السائلة تجول فى الشوارع فى مثل هذا الوقت

فلم تحر فيرجينى جواباً وقد ادركت انها أخطأت

فقال شارلمان ايضاً :

ولا يخفى عليك ايضاً ان السائلة قد ارتدت بثوب الحسن الباهر وهى كما ترينها ساخية الطرف هيفاء القوام ومن هذه الجهة يوجد خطر عليها اذ ربما توفق الى عاشق يختطفها منا ...

فاقبلت على النافذة وقالت كفى فقد ازعجتنى بكلامك واريد ان اتحقق اذا كانت راجعة

فهز رأسه واطلت من النافذة تجيل بصرها في الشارع واذا بها قد ارتعدت لانها بصرت بمركبة آتية من سن دنيس وقد وقفت بباب البيت

فصاحت ياللداهية ماذا جرى

قال برموش ماذا دهاك . فهل رأيت السائلة ؟

اجابت نعم اراها الآن نازلة من المركبة

قال كأنى اسمع قصة الف ليلة وليلة .. ويحك انى لها المركبة فلا شك انك ترين رؤيا

اجابت بل ارى حقاً

ودنا امبراطور الشحاذين من النافذة وقال عجباً ! هذا صحيح ! وارى مع السائلة رجلا من يكون ؟ . . . من يكون هذا الابله ؟ وما شأنه ؟

قالت يلوح لى ان الرجل من أهل الطبقة العاليــة فانظر الى حسن بزته

قال برموش هذا عجيب الاترينه يساعدها على النزول من المركبة وقد سار معها حتى الباب . من يكون هذا اللص ؟ ويل لك يافيرجينى والله لئن كان شرطياً لامزقن جلدك لانك كنت السبب في وصوله الى هنا

ورجع شارلمان الى وسط الغرفة واخذ يروح ويجىء وهو منزعج

وقد راعه ان هناك رجلا غريباً تعرض للسائلة فخاف من خطر والخائن خائف كما يقول المثل التركى

فارهف اذنيه للسمع وقال انصتى ...

قالت انهما يصعدان فى السلم

قال برموش ياللشيطان ان الرجل يكلمها !...

وصرف باسنانه حنقاً

واقتربت الخطى ووقف القادمان بالباب وسمعاه يقرع

فذهبت فيرجينى ففتحته

فاذا بالسائلة الحسناء واقفة على العتبة صفراء على جبينها عصابة

والى جانبها شاب ممسك يدها فدخل معها وقال مخاطباً فيرجينى انى جئتك بهذه الابنة وكاد يقع لها حادث خطير

قال برموش وأى حادث ؟

اجاب الشاب لقد صدمتها عربة من عربيات الاومنبوس فى شارع سن دنيس . وكنت ماراً من هناك فتمكنت من سحبها قبل ان تدوس عجلات العربة غير ان الجواد رفسها قليلا فاصاب حافره جبينها

قالت فيرجينى لاجل ذلك عصبت رأسها ؟

أجاب نعم فقد ضمدنا لها الجرح فى صيدلية وكانت مغمى عليها ... ولكنه ليس بذى بال فاطمئنى

يقول لها اطمئنى ...

وهى مع زوجها على أتم طمأنينة وسكينة ومن أين لهما ان يشعرا بشىء من القلق على صحة نائلة

ولئن نالها ألم وعذاب فلا يهمهما امرها الا اذ ازعجهما مزعج

اما الفتاة المسكينة فما برحت ترتعد ولم يزل اضطرابها بعد هذا ومنقذها استمر ممسكا يدها متمماً اسعافه اياها

وكان يبسم لها منعطفاً عليها كل الانعطاف كأنه صديق لها

وهو شاب في نحو الثانية والعشرين من عمره لابس ثياباً سوداء حسنة الهندام

ومن حركاته واشاراته واساليبه يتبين انه ينتسب الى اشراف الناس

وهو معتدل القامة حسن الصورة أسود العينين خفيف شعر الشاربين

فرفع بصره عن نائلة لينظر الى ذينك الزوجين الواقفين

أمامه كأنهما ذئبان

فكأنما دهش من انهما لم يحفلا بالخطر الذى كاد يودى بحياة الفتاة ولم ير منهما ما يدل على أقل عاطفة ولم يكن من شأنه درس احوالهما ففكر فى الانصراف غير منتظر منهما شكراً هيهات ان يخطر فى بالهما

فقال هذه صفة دواء كتبتها للفتاة فعليكما ان تأتيان اليها غداً صباحا ويجب غسل الجرح بالدواء فلا تمضى ثلاثة أيام او اربعة ايام حتى يندمل ويزول

قال شارلمان العلك طبيب ؟

فتبسم الشاب وأجاب كلا ولكننى عما قريب انال شهادتى.

واخرج بطاقة من جيبه فسلمها الى برموش فقرأفيها ما يأتى

جورج دى كانتابل

طالب فى كلية الطب

شارع دوفيمون نمرة ١٦

ثم قال سوف ارجع الى هنا للاستعلام عن الفتاة

الجريح اذا اذنتما لى وذلك قبيل سفرى الى نيس أى في هذا الاسبوع.

أجاب امبراطور الشحاذين بلهجة خشنة :

الامر اليك !

قالت فيرجينى مادمت ترى ان جرحها يشفى سريعا فلا تتحمل هذا العناء .

فاجاب بجفاء ايضاً .

الامر اليكما

ثم انثنى الى نائلة فقال لها اودعك الآن ايتها الانسة فلا تخافى وان جرحك لايبقى له أثر على وجهك فلو بقى لكان حراماً ان يشوه بأثر . انما هو خدش صغير جداً لايراه الانسان الا اذا حدق فيه من قرب

قال ذلك بلهجة الجد والاهتمام والانعطاف فتأثرت الفتاة ولم تسمع قط احداً كلمها بمثل هذا الادب واللطف

فاغرورقت عيناها بالدموع وخفق فؤادها

ورأى دموعها فاضطرب لكنه قال اوصيك بالحذر

ولا تتعرضين للسير فى الشوارع ففيه خطر عليك ...

أجابته بصوتها الرخيم .

شكراً لك وانى اعدك بذلك !

وترامت امامه وقبلت يديه ودموعها تتساقط عليهما فانهضها ولاطفها كل الملاطفة وقدكان لشكرها ذاك وقع حسن عنده وعلم انه دليل على شعور رقيق فى فؤاد حرم كل حنان ولم يجد من يبر به قبل ذلك اليوم

فحمله ذلك على الاهتمام بامرها فقال ابرموش

ان هذه الابنة صفراء ويلوح لى ان جسمها نحيف وتحتاج الى العناية . وربما لاتجد هنا ماتحتاجه

وتفرس الشاب فى وجه نائلة على ضياء المصباح ثم قال كم عمر هذه الفتاة ؟

أجابته فيرجينى بتردد .

ست عشرة

قال انها صبية .. على اننى احسبها ابنة صغيرة فحرام ان يؤخر نموها الاحتياج !

وبعدصمت قال تحتاج هذه الابنة الى ملاطفة كثيرة

لانها ذات احساس رقيق وتحتاج الى هواء البحر والغابات والى حرارة الشمس والغذاء الكافى

قالت فيرجينى ما أحسن ماتقول لو كانت لدينا الوسائل اللازمة لذلك

أجاب انى مستعد لمساعدتك على كل ماينفع صحة هذه الابنة.

وقال فى نفسه .

بل كل ماينفعها نفعاً ادبياً ايضاً

قال شارلمان سوف نرى

وقال الشاب ايضاً

لقد سلمتك عنوانى فيكفى ان تكتب الىّ واذ ذاك افعل كل مايتعلق بى فى سبيل نفع هذه الفتاة المسكينة فهل تودين ذلك ايتها الآنسة

أجابت نعم بملء الشكر !

قال مااسمك ؟

أجابت نائلة

فتناول يديها وامسكها طويلا قبيل انصرافه كانه

ذاهب برغمه

ولعل نفسه حدثته بما سيكون بعد رحيله وما ينال الفتاة من تعنيف وسوء معيشة وعذاب

وقال فى نفسه :

ان هذه الابنة منحوسة ولا جرم انها ليست ابنة هؤلاء القوم فانهم لم يكترثوا لجرحها ولو كانت تلك المرأة والدة لها لماتمالكت ان تصيح مضطربة او تظهر عاطفة شفقة عند ما درت بما أصابها

ولاح له ان لها قصة محزنة ولكن لا سبيل الى الاستعلام ولا بد له من الانصراف

فالقى نظرة على نائلة نظرة موال مصاف وحياها تحية حسنة وانصرف

فكان سكوت بعد انصرافه واصغى برموش وزوجته الى وقع اقدام الشاب فلما اختفى الصوت قالت فيرجينى بلهجة احتقار واستهزاء.

ذهب الى حيث ألقت !

فقال شارلمان ولكن هل ذهب حقاً ؟

فاطلت برموشة من النافذة وقالت نعم فقد ركب مركبة وحسناً فعل فقد طال وقوفه عندنا !

قال برموش وطال سماعنا لكلامه . قبحاً له لماذا يتعرض لما لا يعنيه ؟ ومن الذى سأله النصح والمشورة ان هو الا فضولى

قالت فرجينى ان صفة الدواء التى كتبها فانظر ما افعل بها

ومزقها ورمت قطعها فى الهواء

ثم قالت لنائلة اما انت فالافضل ان يبقى جبينك مجروحا. فاذهبي يابهيمة وارقدى ! وعقابا لك على انك حرمت علىّ الشراب فى هذا المساء لاتأكلين الا خبزاً من غير ادام بعد اليوم

فبادرت نائلة الى غرفتها وهى منقبضة الفؤاد دامعة العينين

وقد سرها ان تخلو الى نفسها حتى لا ترى ذينك الوحشين الموكلين بتعذيبها

واستمرا يتكلمان عن الحادثة فقال شارلمان قدعلمت

الآن انه لا ينبغي ان تخرج السائلة وحدها واما حاجتنا فاقضيها بنفسك وأما السائلة فيجب ان تبقى هنا اذا لم تكن مشغولة بالتسول . فذلك ادعى الى الطمأنينة

قالت صدقت واصبت

أجاب لقد اقر عيني تعرض هـذا الشاب الحسن الظاهر لها ودخوله الى بيتنا واشتغاله بها

قالت فرجيني لاشك انه من اهل الطبقة العالية انظر الى بطاقته فاسمه جورج دى كانتابل ... فهو من الشرفاء !.. .. بل هو ذو شأن واهمية !

وطرحت البطاقة على الارض فقال امبراطور الشحاذين انه يصلح لنا لان بلاط الامبراطورة فى حاجة الى الشرفاء امثاله !...

قالت ما معنى قولك الامبراطورة ؟

اجاب انني انكلم عنك ايتها العجوز النحس . الست زوجة شارلمان امبراطور الشحاذين ؟.

قالت احسنت يازوجي فتعال وقبلني !

قال بل املئي القصبة تبغاً فذلك افضل .

الفصل الحادى عشر

لايفل الحديد الا الحديد

لما انتمى صابوريو الى جمعية اللصوص العامة تاقت نفسه الى عمل ما يخول له الصعود فى المرتبة حتي يعدوه من أعضائها العاملين فود ان يشترك معهم فى مهمة صعبة ليظهر براعته وحذقه وجراءته ويمتع بسهم من الارباح كغيره وتلك هى العناية التى سعى اليها

وانصرفت أفكاره الى ثروة المرأة ديبو صاحبة الحانة وقدرها ثلاثون الف فرنك . وكأنما سكن هذا المال مخيلة اللص المحتال

فكيف السبيل الى استلابه من تلك العجوز

تبصر ملياً وطويلا فى المسألة حتى ثبت لديه انه لا يفلح اذا انفرد فى السعى ولا يتيسر له الاستيلاء على ذلك الكنز ان لم يجد مسعفاً ونصيراً

وانما يجب ان يكون المسعف النصير ذكى الفهم طبعاً

ففكر للحال فى دفير ووجده خير من يرتجى لهذه المهمة لانه مقيم فى الحانة عارف بالمكان والسكان .

ولانه مجرب وقد اختبره فى حادثة الجعل الذى ضربه على المركيزة دى سمروز

فكاشفه بما فى نيته فاستحسن دفير المشروع وتلقاه بالابتهاج واثنى على حذق صابوريو

وهما من سلالة شر وخبث ولصوصية فكأنهما خلقا ليتفقا

فلم يبق الا ان يرسما خطة العمل وينتظرا الفرصة الحسنة

ولم تطل مدة الانتظار . ويذكر القرآء ان صاحبة الحانة طلبت الى صابوريو ان يسعى لها سعيه لعله يجد من يستدنى نقودها بربا كثير ارادة ان تستثمرها وهى آمنة عليها

ووعدها خيراً يومئذ وفكر في انه يسهل عليه ان يفاجئها بمستدين موهوم حاصل على ضمانات مختلفة

وقال فى نفسه اوقع لها ايضاً بالنيابة عنه واقبض المال بعد ان اسلمها تلك الضمانات المزورة

فالامر يسير وعلل النفس بأن يقضيه على اهون سبيل .

لكنه لم يحسب يومئذ حساباً لارتياب العجوز فانها تريد ان تعرف المستدين وتستعلم عنه بنفسها من أحد المصارف فلما ادرك مرادها عدل عن ذلك الرأى ولم يتمكن على الرغم من دهائه وقوة استنباطه وتحيله من اقناعها بأن تسلمه تلك الثروة

غير انه بعد جهد جهيد افلح بالاستطلاع فاكتشف موضع الكنز بحجة وجوب النظر فى الاسهم المالية التى تمتلكها العجوز ليحسن تقدير قيمتها

فعلم انها مخبوءة فى خزانة حديدية صغيرة والخزانة مخبوءة ايضا فى داخل خزانة من خشب وراء ثياب وملابس مطوية وذلك فى المخدع الذى تنام فيه العجوز ديبو

اطلعته بغباوتها على مكان كنزها

وفى ذلك المساء بعينه تلاقى صابوريو ودفير فى احدى الحدائق العمومية فجلسا على احد المقاعد واخذا يتحدثان

فقال صابوريو قد عرفت مكان المال

وشرح له شرحا وافيا

فقال دفير اذن كيف العمل فهل يجب كسر الخزانتين ؟

أجاب كلا ! ففى ذلك خطر يخشى . ويوجد واسطة اخرى لكنها خاليه من كل محذور

قال ماهى ؟

أجاب خذ رسماً مطبوعاً على قفل الخزانة التى تحوى الذهب ... وهو رسم لا استطيع الحصول عليه انا اذ لا يمكننى الدخول الى مخدع العجوز من غير ان انبه الشكوك وأما انت فشأنك غير شأنى وشغلك يقضى عليك احيانا بملازمة المخدع

قال صدقت فاننى ادخل اليه كل يوم واكنس ارضه فلا يصعب علىّ ان اطبع على قطعة من الشمع رسم القفل

قال صابوريو ما احسن كلامك !

قال وبعد ذلك ؟

اجاب صابوريو انا اهتم بصنع المفتاح عند حداد يشتغل فى الضواحى

قال ثم ماذا ؟

اجاب تسألنى ثم ماذا ؟ . . . ان الباقى لا يحتاج الى شرح

قال فهمت ولكن من منا الاثنين يباشر العمل

اجاب الافضل ان تشتغل انت لما هو معلوم من سهولة دخولك الى المخدع

قال وهذا رايى ايضاً

قال اصغ الىّ ان الاسهم التى « لحاملها » ملفوفة فى نسخة من جريدة

واخرج من جيبه رزمة وقال انظر الى هذه الرزمة فقد جعلتها مثل تلك تماما ولا فرق بين الرزمتين الا بما فى داخل كل منهما

قال حقاً انك شيطان رجيم ...

قال اذا جئتنى غداً بالرسم . وافيتك بالمفتاح بعد غد صباحا . ويومئذ ساشغل العجوز بالحديث وقتاً طويلا

واشير اليك اشارة خفية فتنطلق وتفعل ما اتفقنا عليه.

قال يسهل علىّ العمل اذا استبقيتها معك وقتاً طويلا

اجاب لاتخف ولسوف اثرثر واهذى اكثر منها.. ولا خطر . فان الخدعة التى دبرتها اى خدعة الرزمتين تجوز على اكبر المحتالين فلقد خطر للعجوز فى ذلك اليوم بعينه أن تفتح خزانتها لما وجدت فيها تغيراً يذكر

قال دفير ومتى خطر لها أن تفتح خزانتها نكون قد اتخذنا كل تدبير

قال صابوزيو اذا نجز عملك تأتينى بالرزمة فأتولى وضعها فى موضع أمين وعند المساء تقتسم وفى اليوم التالى نبيع الاسهم قبل أن يظهر اعتراض على بيعها

اجاب نطقت بالصواب ورأيك لا يعاب

وتناول منه الرزمة وافترقا وكل منهم يقول فى نفسه لقد اتفقنا

* * *

وبعد بضعة ايام عمدا الى العمل بذلك الاتفاق فانقضى الامر على ما املا وكما تنبأ

ولما رأى صابوريو دفير مقبلا وهو ممتقع اللون شيئا .

قال في نفسه قضى الامر

وكان شاغل العجوز بالحديث فلم يبق الا ان يصبر ريثما تأتى ساعة اقتسام المال المسروق

هذا واستمر دفير يشتغل فى ذلك اليوم ويروح ويجىء كانه لم يحدث شىء مما كان فلم تنم عليه ظواهره ولم ير منه صابوريو الا غمزاً خفيفا

فلم يسع صابوريو الا ان يعجب به وقال فى نفسه ما أجلده وما أصبره!

وفكر فى استخدامه فى شؤون اخرى وهو يقول فى سره !

لقد ملكنا ثلاثين الف فرنك هذا نجاح عجيب ! فيا لله ماهذه اللقطة !

وماكاد يعلل نفسه بالترفه فى المعيشة حتى انكفأ يقول كلا بل الحكمة تقضى علىّ بان لا اتسرع فى البذل والانفاق فحسبى ان انفق من هذه الثروة الجديدة شيئاً فشيئاً لان حصتى

عشر الف فرنك فقط

وجل ما فعله الآن تناول الاطعمة اللذيذة الغالية الثمن وتعاطى الاشربة الطيبة الفاخرة وانتقل الى بيت جديد افضل من بيتى الحالى ثم اودع نقودى مصرفاً او اشترى بها اسهماً تجارية ذات ربح مضمون وادفع دفعة صغيرة الى صندوق جمعية اللصوص العامة فاغدو عضواً من اعضائها ثم اعيش مطمئناً اشتغل نصف شغل وارج من ريع مالى النصف الآخر حتى يتيسر لى جمع ثروة كافية فاتمكن يومئذ من اعتزال الاعمال

حلم بديع !... وياقرب ما بينه وبين الحقيقة !

ولما أقبل المساء همس دفير فى اذنه يقول له :

عما قريب نلتقى !

فخفق فؤاد صابوريو حتى خيل له أن يتمشى فى صدره وقد دنا من الكنز وتحققت امنيته

فانطلق الى المكان الذى اتفق مع شريكه على الاجتماع فيه .

وهو يكاد يرقص من طرب والمكان حانة بجوار

الحديقة التى لقيه فيها يوم أول أمس

فانتظره ساعة ثم ساعتين فثلاثا . .

فلم يأت .

فضاق صدر صابوريو وأخذه الاضطراب والضجر ثم خامره القلق والارتياب فقال في نفسه :

لعل البهيم سرق مالى ايضا ؟

ولكنه راجع نفسه وقال كلا .. ذلك محال . لاشك ان لدفير عذراً وان فى حانة ديبو اناساً كثيرين فهو يخشى ان يتركها لئلا تتنبه ظنونها ..

وحاول ان يسكن قلقه فلم يستطع ذلك

ولما عيل صبره نهض واراد ان يتحقق الامر فانطلق راجعاً الى ناحية حانة ديبو

وكان ذلك فى نحو الساعة الحادية عشرة فقال فى نفسه اى عائق عاقه وأى شاغل شغله ان تأخره امر لم يكن فى حسابى

فلما وصل الى الحانة وجدها مقفلة ولا نور فيها ولا ضوضاء ولا مايدل على وجود قوم ساهرين فايقن ان

صاحبة الحانة تنام فى تلك الساعة مطمئنة وان دفير لايمكن ان يكون موجوداً هناك

فقفل راجعاً الى الحانة التى كان فيها آملا ان شريكه دفير فيها

هذا والعرق البارد يتصبب من صدغيه والجبين

فانتظر حتى ذهب من الليل اكثره ورجاؤه يضمحل كلما مرت به دقيقة من دقائق ذلك الوقت الطويل

فلما تصرمت حبال أماله ذهب الى بيته ليأوى الى فراشه وهو يختلق الاعذار لغياب دفير. اعذار يلفقها لنفسه ولا يعتقد صحتها

وفى صبيحة اليوم التالى بادر مسرعاً الى حانة ديبو فلم يجد دفير هناك

فقالت له صاحبة الحانة انه سافر أمس مساء ليرى والدته وقد اتصل به انها مريضة مدنفة وهى مقيمة فى الريف...وقد يتغيب يومين او ثلاثة ايام الا اذا حدث لوالدته مالم يكن فى الحسبان ...

فلما سمع صابوريو هذا الكلام ثبت لديه ان دفير

خدعه واحتال عليه

فتحققت مخاوفه وفكر قائلا لقد ذهب اللص بالغنيمة وهزأ بى . وقد استأذن بالتغيب يومين وهى مدة كافية لرحيله الى ابعد مكان ... وقد يهاجر الى خارج هذه البلاد

ورأته صاحبة الحانة ممتقع اللون فقالت له .

ماذا دهاك يامسيو صابوريو ؟ فهل أنت مريض ؟ أم لعلك تشعر بتعب ؟ اصبر انى مقدمة لك شرابا منعشاً

فأومأ براسه علامة على القبول وقد تولاها سخط وحنق لا يوصف . . . وخاف ان يأتى ذلك الشريك حماقة تفضحهما معاً

فجلس وهو يكظم الغيظ ويخفى ما به اما صاحبة الحانة فقالت له يجب علىّ الآن ان اهتم بتنظيف مخدعى لان دفير غائب وليس عندى من اعتمد عليه

وذهبت ولم ينقض الا وقت قصير حتى سمع صابوريو صيحتها قد ملأت المكان ورآها للحال مقبلة وهى ترتعد وتضطرب وقد تغير وجهها

وكانت تحمل رزمة بيدها فيها جرائد قديمة

فقال لها صابوريو بلهجة المنذهل

ماذا جرى لك؟

فغمغمت تقول جرى جرى ..

قال ماذا دهاك ؟

أجابت لقد سرق مالى ! .. لقد سرق مالى ! . ولم يبق عندى شيء ! . .

فتظاهر صابوريو بالتعجب وصاح ماذا تقولين

فصاحت نعم سرقونى مالى ! .. سرقونى مالى ! . .

ثم قالت لعل دفير ..

قال ماذا ؟

قالت انه فر هاربا .. فهو السارق بعينه ! . .

قال هو السارق ؟

أجابت نعم .. بلا شك . لست ارى غيره يفعل هذه الفعلة . آه تبا له من لص ! . سوف يلقى جزاءه ! ...

واعتراها اضطراب شديد وانت بحركات مختلة وارتعد فكاها واحمر وجهها حتى حكى لون القرمز

ثم أنت وشهقت وقالت لم يبق عندى فلس واحد ! ذهب تعبي مدة خمسة وعشرين عاماً . ضاع سدى نزل بي الافلاس والخراب ! . ليس أمامى الا المستشفى والوعتاه ! .. وامصيبتاه ! .

فاقبل عليها صابوريو يلاطفها ويعزيها ليتم تمثيل دوره وجعل يقول لها .

خفضى عليك يا أماه ! فانك لم تفقدى كل شئ كما تتوهمين . .

قالت بل فقدت كل شيء . . . لم يبق لى الا عيناى لابكى بهما على تعسى!..

اجاب كم من اناس سرق منهم مالهم واسترجعوه. هذا أمر يقع فى كل يوم فلا تيأسي

قالت انى لى هذا التوفيق !

فقال صابوريو فى نفسه : لقد صدقت

وفكر فى المراحل الشاسعة التى قامت بين دفير والحانة .

وتساقطت العجوز على مقعد وهى تنظر الى رزمة

الجرائد التى حلت محل رزمة الاوراق المالية أو محل ثروتها التى سرقت منها

ومر شرطيان وقتئذ بالحانة فاستفزهما منظرهما وناديهما بصوت اليأس فدخلا على مهل

فقال لها احدهما:

ماذا جرى هل قتل احد عندك ؟

فانطرحت على الارض بغتة وارادت النطق فاحتبس لسانها وأخذت تشهق ولا يخرج من فيها الا جمجمة لا تفهم

فدنا منها الشرطى وقال لها ماذا أصابك

وتحول لونها من الاحمرار الى الاغبرار واحمرت عيناها وفتحت فاها تتنفس صعداً

فاقترب اليها صابوريو وقال لقد احتقن دمها

فقال الشرطى بل هـذا عارض من عوارض داء السكتة . . .

فاخذت تتخبط وتحاول النهوض فلا تستطيع واصابها فالج فى ساقيها ثم أخذها الفواق فجعلت تجيل نظرات

تائهة كمن يريد فراراً

وكاد الدم يتدفق من عينيها .

ثم شهقت شهقة عالية وأتت بحركة عنيفة ووقعت بعدها لا تتحرك وقد ترامى رأسها على صدرها

فقال الشرطى ارى انها قضت نحبها ! . فيجب ان نخبر معاون البوليس بموتها الفجائى

فارهف صابوريو اذنيه للسمع وهاله ان يتعرض للقضية معاون البوليس

لكنه فكر ملياً وقال فى نفسه ان هـذه العجوز لا تعرف عنى شيئاً وهى لم تنطق بكلمة . والموت حال دون نطقها

ثم انى الشاهد الوحيد على ماجرى، قبل وصول الشرطيين

فاطمان قلبه وقال انى مستعد لتأدية الشهادة وقد كانت الفقيدة صديقة لى ولها بى اتم الثقة

قال الشرطى وماذا جرى لها ؟

أجاب انها احتدمت احتداما شديداً عقيب رحيل

خادم الحانة فانه ترك خدمتها من غير ان ينبئها بعزمه ولما كانت العجوز المسكينة عرضة للاغماء وضعف القلب اصابها ما اصابها .. كما رأيت

قال الشرطى اصبت .. فانه داء القلب اودى بها .. ولنكتب المحضر

فجلس الشرطيان وأخذ احدهما في الكتابة ومضى صابوريو فاقفل الباب حتى لا يدخل احد الى الحانة وقد تجمع بعض المارة هناك لانهم رأوا امرأة طريحة فى وسط الحانة

واقبل على المقصف فشرب كأساً لعله يتشدد فان منظر الجثة أولاه شيئاً من الارتياع

وفيما هو يشرب تخيل دفير مسافراً باسمَ الثغر .. والثلاثون الف فرنك فى جيبه

فهاج هائجه حنقاً على السارق وود لو يلقاه فيمزقه باسنانه ويشرب من دمه ولكن هيهات ان يدركه وما من سبيل اليه

الفصل الثانى عشر

شحاذ (نوتردام)

وفى صبيحة اليوم التالى اقبل برموش على كنيسة نوتردام والى جانبه نائلة معصوبة الجبين .. فاخذ يلقى عليها النصائح كعادته وقال لها :

مدي يديك الى عجائز النساء فلا يبخلن عليك ولا سيما متى رأينك جريحاً معصوبة الجبين واياك ان تدعى امرأة تمر من غير ان تأخذى منها ... فاجتهدى

قالت نعم ياسيدى ...

قال ان كنيسة نوتردام تشبه كنيسة مادلين فى امر واحد هو ان السائل لا يعدم محسنين كرماء وانى معطيك مكاناً صالحاً غير بعيد عن الباب الكبير ... فهل بقى لك من عذر !

فاجابت لا

وقد خامرها الخوف من غلظته وشره

فاقتادها الى المكان الممتاز الذى تكلم عنه

وكان هناك جماعة من الشحاذين رجالا ونساء فمن عميان وعرج وحدب وعجزة وفيهم كثير من تلامذة الامبراطوار

بينهم رجل قد حكم عليه تسعين مرة لانه تسول على الطرق العمومية الا ان ذلك لا يمنعه من استيفاء العدد الى المائة فاذا استوفاها اعلن ذلك لرفاقه محتفلا بها

وبينهم عجوز حدباء لكنها غير حدباء حقيقة وكانما خلقت لتعطف قلوب المؤمنين عليها وتستدر صدقاتهم

وبينهم شحاذ قديم يفخر بان الامبراطورة اوجينى تصدقت عليه ويقال انه يمتلك منزلا ذا ريع كبير فى حى ترم

وفيهم اعرج ينادى ماذا اصنع لقد قضى القضاء علىّ بالتسول لاننى لا اصلح لعمل . فكان يكسب ستة فرنكات فى اليوم من الكدية ...

وامكنة هؤلاء وامثالهم بابواب الكنائس الكبرى

معروفة فلا يستطيع احد ان يأخذها منهم

هذا والسائلة تتقدم يقودها شارلمان

فلما رآها أولئك القوم تزمروا وعلت جلبتهم لعلمهم انها جاءت لتزاحمهم فى صناعتهم

غير ان أحد العميان او المتعامين على الأصح عرف برموش فقال لهم :

هذا امبراطور الشحاذين ومعه تلميذة فاسكتوا فهو أقوى منا والا اوصل اليكم الاذى !

فسكت الجميع

وكان يحق لهم ان يظهروا ذلك الاستياء لان الاماكن المحاذية لباب المعبد تعتبر ملكا للشحاذين وبها يكسبون ارزاقا واسعة

ومن عادتهم ان يضجوا ويسخطوا كلما رأوا شحاذاً حديث العهد بالكدية يريد ان يساويهم فى الكسب فكأنه ينازعهم حقوقهم المكتسبة بطول الزمن

وويل للشحاذ الذى يخاطر بنفسه اذا لم يساعده نفر أو عصبة من الشحاذين فيقصد هناك مالم يستأجر

مقعده أو يشتريه . فيتلقونه بالتذمر ثم ينهالون عليه بالشتم فاذا كان خجولا فارق ذلك المكان واما اذا قام فانهم يتدافعون اليه بالضرب حتى يرحل

وهكذا يفوز حق الملكية عندهم على غيره

أما اذا بادر رجال البوليس وحقق فيجد ان الذين أقدموا على ضرب المستعطى هم العميان والعجزة . . .

على انه لم يقع خصام في هذه المرة لأن الشحاذين عرفوا برموش وكان ذا سلطة عظيمة بل كانوا يخافونه

فنظر اليهم نظرة سيد عظيم فبهتوا وسكتوا واقعد نائلة ثم همس فى أذنها يقول لها :

انى فى حاجة الى ثلاثة فرنكات عند الظهر وليس المبلغ المطلوب منك بكثير بالقياس الى مكانك هذا . . والا لبثت الليلة من غير اكل قسما بشرف امبراطور الشحاذين !

وابتعد مغادراً اياها بين اولئك المتسولين السفلة الذين أتوا الى هناك من غير خجل ليستثمروا أشرف العواطف وأسماها ألا وهى عاطفة الرحمة

فلما انفردت السائلة الحسناء استشعرت فتوراً في جسمها وقعدت من غير ان تأتى بحركة لانها كانت خائفة من اولئك القوم الذين ما برحوا يرشقونها بنظرات ملؤها البغض والعدوان

كان كل شحاذ حولها ينظر اليها نظرة تتضمن معنى التوبيخ والتعنيف الشرس لانها جاءت تختلس سهماً جليل الشأن من أرباحهم

ذلك لانهم رأوا حسنها وما أودعت عيناها من رقة فهى تلفت اليها أبصار الناس برغمها فكيف يستاءون من مزاحمتها لهم ومن الذى يستطيع مجاراتها فى استمالة الناس ؟

لكنها كانت معهم وريقه خاضعة لهم لطيفة فلم يجسروا على معاقبتها على الجراءة التى اتتها بقعودها هناك

فسكن ثائر شرهم وانقلب سخطهم الى رضى

وهذا يدل على ان اللطيف يؤثر حتى على المحتاجين والاشرار من أسافل الناس

وانقضى قسم من الوقت ونائلة فى مكانها والناس

يدخلون الى المعبد افواجا ويخرجون فيتصدق بعضهم على الفقراء والمتسولين

ووقعت بضع قطع في يدى نائلة لكن مجموعها لا يبلغ الثلاثة فرنكات التى يطلبها منها شارلمان

ومعلوم ان ثلاثة فرنكات انما يجود بها ستون شخصاً اذا تصدق كل شخص بفلس واحد والفلس قيمة الصدقة العادية فى مثل ذلك المكان

فلما ازفت الساعة الحادية عشرة ثبت لديها انها لا تجمع القدر المطلوب فيئست وتولاها القلق والجزع وفكرت فى احتدام امبراطور الشحاذين فتولاها ارتعاد وارتجاف

ذلك لأن شخص ذلك الشقى كان ممـا يخيف ولا سيما اذا شرب ؛

***

وفى اثناء ذلك كانت مركبة قريبة من الكنيسة الا أن بابيها مقفلان وهى واقفة ام حوذيها فكان واقفاً على الرصيف يدخن بقصبة ويطالع جريدة

واذا بباب المركبة قد فتح وخرج منها شيخ اكل الدهر عليه وشرب فهو محنى الكتفين والظهر يكاد ينال الارض بوجهه ويمشى متوكئاً على عصاه .

وهو ابيض اللحية والشعر ممزق الثياب تعلو وجهه غضون عديدة

ومن الغريب ان الحوذى لم يأبه لنزوله من مركبته وكانه لم يره

ذلك لأن الشيخ متنكر تنكراً يدل على مهارة وحذق ودهاء وان هو الا صديقنا مانيلون

تبع نائلة وبرموش وهو جالس في مركبته حتى وصلا الى كنيسة نوتردام واذ ذاك تنكر وهو فى داخل المركبة وتزيى بذلك الزى الغريب

زى شيخ كبير شحاذ

ولا جرم ان الحوذى تعود ذلك التنكر والانقلاب فلم يكد يرفع بصره الى مانيلون

فمشى الشيخ من غير ان يتنبه اليه أحد وهو يتبسم تبسما خفياً لانه سر بتحويل الابصار وقد يسر المرء

بمثل ذلك التخفى والدليل على ذلك تغيير الناس لاشكالهم وازيائهم فى ايام الكارنفال »

فلما أقبل على مواضع الشحاذين ارتفعت الجلسة وعظم التذمر فتبسم مانيلون ايضا وكان حاسباً حساباً لذلك الضجيج فهو مثلهم متسول قد يشاركهم فى كسبهم

لكنه لم يكترث لهم بل اخرج من جيبه تذكرة هى وصل يدل على استئجاره المكان من امبراطور الشحاذين وشكه فى قبعته

فكانهم سحرهم بذلك فانقطع حسهم وقد علموا انه من اهل الحرفة الحاصلين على اذن رسمى

فمضى وقعد الى جانب نائلة

وهو قد وعد نفسه بالدنو منها وانما راقبها وراقب برموش لهذا الغرض

وهو منذ ما بقى برموش خامره الظن بان الفتاة التى تتسول تحاكى الفتاة التى تكلمت عنها المركيزة دى سمروز فى رسالتها

خاطر لزمه فاراد ان يتحقق الامر

فلما رأت نائلة ذلك الشيخ الضعيف الفانى استشعرت شفقة عليه وانكمش فؤادها وقالت يالك من شيخ مسكين !

وانحرفت قليلا لتدع له مكانا يستند اليه بجانبها على عمود الطريق

فشكرها بصوت مرتجف

وكان الناس يتقاطرون يومئذ الى الكنيسة لاحتفال ذى شأن عندهم

غير ان كسب الشحاذين كان نادراً فاخذوا يفارقون اماكنهم وقد علموا ان كثرتهم لا تؤدى الى خير

فبقى الشيخ والفتاة معاً

فاخذ يسعل سعالا شديداً ويشكرها ايضاً

فرثت له حين سمعت ذلك السعال واخذت تكلمه ويكلمها وانست به كما يظهر انه انس بها

وما انقضى نصف ساعة حتى عرف الشيخ قصتها او ما تعرفه

فقال لها :

اذن انت تجهلين والديك . . . ولا تعرفين من هى امك؟

قالت الفتاة وقد بسطت يديها بورع وخشوع:

آه لو كنت اعرف امى اذن لعبدتها عبادة !

فقال وارحمتاه لك ايتها المسكينة !

قالت نائلة وكانما سحرها ذكر امها :

لست أعرف أمى ولن أعرفها بداً ! . .

وصمتت ثم قالت يخيل لى اننى أراها فى الليل وابسط اليها ذراعىّ .. ولا شك عندى في انها ذات انعطاف علىّ وحسنا ! . انى اتصورها كواحدة من القديسات المصورات في الكنيسة . وأراها فى الحلم تبسم لى وتهم بمخاطبتى وتنادينى . . . فاذا استيقظت ذهب الحلم الجميل . وقعدت ابكى !

قال أليس لديك منها أثر ؟ . أو شىء يذكرك بها ؟

أجابت ليس عندى الا أثر واحد او شىء واحد

قال ما هو ؟

أجابت رسالة كتبتها الىّ في ما مضى من الزمن يوم

تناولت القربان المقدس لأول مرة

قال هل تحملين هذه الرسالة ؟

اجابت نعم . . فهى لا تفارقنى أبداً

وأخرجت ورقة من جيبها مدعوكة فأرتها الشيخ فتناولها منها وفتحها وارتعش حين نظر فيها لانه عرف الخط . .

عرفه خط المركيزة دى سمروز

وقابله بخط الرسالة التى وردت عليه من المركيزة منذ أيام

فثبت لديه ان تلك الفتاة المتسولة هى ابنة المركيزة ابنتها ! . . لا ابنة امرأة أخرى كما زعمت

ولا سبيل الى الارتياب

فدهش من ذلك الاكتشاف ولم يكن يتوقعه واحد يقرأ تلك الرسالة فاذا فيها ما يأتى :

« يا ولدى

« قضى عليك ان لا تعرفينى . . . كما قضى علىّ ان أعيش مفترقة عنك

« كم يدوم هذا الفراق ؟ . . لا يعلم ذلك الا الله وحده . . .

« لكننى واليوم عيدك أردت ان تتناولى عنى فكراً وتذكرينى . . وهو فكر يتضمن معنى الحب والاسى وترسله اليك امك مع البركة

« اريد منك يا ولدى ان تعاهدى نفسك في هذا اليوم المبارك على ان تسلكى دائماً مسلك الطهر والكرامة والصلاح . . وان تستمرى دائماً ابداً طاهرة الذيل عاقلة حسنة التصرف

« وارجو ان اتمكن يوماً من ضمك الى صدرى وان انسيك بالحب والحنان والعناية القصوى ما لقيته من عناء الغربة اعواماً واذ ذاك يتسنى لى ان احبك الحب الذى تستحقينه . .

«أما الآن فاكتفى على الرغم منى بأن اقبلك قبلة والدية من بعيد فاودعها محبتى لك ايتها العزيزة المسكينة . .

« فلا تيأسى ! .. واحبى أمك .. انها شقية الطالع صلى لاجلها ياولدى ! . فهى تفكر فيك على الدوام « أمك »

قرأ مانيلون تلك الرسالة بصوت منخفض فلما تلفظ بالكلمة الاخيرة اخذت الفتاة فى الانتحاب فقالت والدموع ملء عينيها :

آه يا أماه ! . . يا أماه . . . لماذا أقصتنى عنها ؟ آه ما اشد تعاستى ! . .

قال مانيلون كفكفى عبراتك أيتها الصديقة الصغيرة فسوف ترين أمك

أجابت هيهات فلست أرجو ذلك

قال بل يجب عليك ان ترجى . . ووالدتك طلبت منك ان لاتيأسى .. فهل تأتين الى هنا فى كل يوم ؟

أجابت اظن ذلك

قال سوف تشاهديننى غداً ههنا

أجابت يسرنى ان اشاهدك ايها الشيخ المسكين ... فقد أولانى كلامك عزاء وصبراً . . . فشكراً لك

قال سأرجع الى هنا .. سوف أساعدك حتى تجدى أمك . .

قالت آمين !

ونهض الشحاذ بجهد فسار بضع خطوات ووقف يفكر ..

ثم عاد الى الفتاة سريعاً وقال لها

هيا فاذهبي معى

اجابت الى اين ؟

قال اتبعيني وكوني واثقة بي وكفى تسولا .. انى عازم على تنجيتك من ايدى ..

ولم يتم جملته لانه رأى شارلمان يدنو منه وقد جاء ليقبض ما جمعته الفتاة

فلما رأى نائلة تتحدث مع الشيخ المتسول قطب حاجبيه وقال فى نفسه :

ما معنى هذا ؟

فتفرس فى وجه الشيخ المتسول فبصر بالورقة فى قبعته وهى التى باعه اياها

فعرف الرجل الذى شهد محاضرته ذات مساء وراب أمره دفير

فقال فى نفسه :

ما شأنه ؟

واسرع يريد استطلاع الامر

غير ان مانيلون ابتعد للحال وقال لنائلة بصوت منخفض جداً .

أودعك الآن فلا تيأسى واصبرى !

وانصرف

فأقبل شيخ المتسولين فاقتاد السائلة الحسناء وهو يقول ليس الامر جلياً .. فخير لنا ان لا تعود الى هنا بعد اليوم !

الفصل الثالث عشر

سريرة فتاة

أحست السائلة الحسناء بشعاع من نور تتسرب الى فؤادها في ذلك المساء اذ عادت الى مخدعها في بيت برموش

لاح لها ذلك المحبس أقل اظلاماً واقل وحشة

فقد خاطبها السائل الشيخ عن امها وقال لها سوف أساعدك حتى تجديها

وهي كلمات أثرت على نائلة تأثيراً عميقاً

هل يمكن ان تجد امها ! . . أمها التي أحبتها من بعيد واختصتها بالاكرام والاجلال من غير ان تعرفها ! . .

أتكون لها كغيرها والدة تحنو عليها وتحبها وتقبلها كثيراً وتلاطفها وتضمها الى صدرها . . فما أحلى انعطافها عليها انما تبدد غياهب حزنها !

الا ان ذلك حلم بديع ! . . وأمنية من اشهى الاماني !

وقد طال عهدها بالانفراد والغربة والطرد فهل صار يحق لها ان ترجو مثل هذه السعادة ؟

فشعرت بضنك ولذة تمكنا منها في وقت معاً . ضنك ناجم عن خوف من كذب التمني ولذة ناشئه عن الرجاء

فبسطت يديها وهي مضطجعة على فراشها الحقير القذر وهتفت في سرها تنادي اماه ! .. اماه ! .

فقد كانت الكلمات التي بعثت ميت الامل في فؤادها مصدر النور اشرق على وجودها المظلم

كانت لهجة ذلك الشيخ لهجة متنبئ يحدث عن غيب مجهول أو سر خفي فهل يعرف والدتها ؟ . أو يعرف شيئاً عنها ؟

فودت ان تراه وتتحدث معه أيضاً !

خامرها الامل ! .. والامل عاطفة جديدة لنائلة !

فقد حرمت كل حنان منذ أول عمرها فكم يلذ لها ان تكون محبة محبوبة

وكأن الكلمات الطيبة تلقى على تلك المخلوقة الساذجة

الرقيقة الاحساس ضماد لجراحها . والقليل من الميل والانعطاف يوليها فرحاً عظيما جداً

وهى لذة عرفتها ثلاث مرات فى حياتها

المرة الاولى يوم كلمتها تلك السيدة الحسناء فى سن فرنسوى

والمرة الثانية بالامس اذ صادفها الشاب فانقذها من الموت تحت حوافر الخيل وخاطبها بلطف واعتنى بها اجل اعتناء فهى مابرحت تذكر ذلك التودد وتستشعر غبطة مجهولة لانها لم تسمع قط في حياتها كلمة صالحة من شخص مهذب

واسم الشاب جورج دى كانتابل فلا تنساه ! حفظته منذ ماسمعت فيرجينى تتهجاه في البطاقة

وهذه البطاقة التقطتها نائلة بعد ما طرحتها برموشة على الارض

وكانت وقتئذ بين يديها وهى تذكر انها بطاقة الشاب لمسها وأمسكها بيده وكانت فى جيبه

تفكر فى ذلك وتضطرب فى سريرتها عواطف تمازج

وتختلط

ويلوح لها انها لم تعد منفردة متروكة

ليست متروكة لان ذلك الشاب وعد بالاياب وابتسم لها ابتسامة بديعة!

اذن فسوف تراه ... وينتصر لها ويدافع عنها ... كما انقذها .

ان ذكرى ذلك الحادث لا تزول من ذهنها

فجعلت تتخيل الخطر وقدوم مركبة الاومنيبوس تكاد تدوسها وسقوطها قرب حوافر الخيل وصياح الناس فى الشارع وشعورها بالم فى رأسها

ثم لم تعد تسمع او ترى

ثم استفاقت ولاح لها ذلك الضياء فى وسط الظلمات المتراكمة ...

فاذا بها تراه قد صار كالهالة حول وجه الشاب اللطيف اذ كان قد انحنى فوقها لاسعافها ...

فاى شفقة وميل واستحسان تجمع في نظراته

رأت وجه الشاب يتهلل بشراً ورجاء وحباً لانها

عادت الى الحياة

زال تألمها من الجرح وقتئذ عقيب تأملها فى وجه الشاب

ولكن ألم يكن ذلك وهما او مرآة لحلم بديع ؟

كلا لم يكن ذلك وهما ولا حلما لانها رأت بعينيها ولا يزال اثر الجرح فى جبينها وتلك البطاقة بين كفيها

فانطبعت صورة جورج دى كانتابل على صحيفة فؤادها

فكانت تراه منحنياً فوقها كانما سحره شكرها اياه .

وأتت بحركة مملوءة اجلالا و حباً فرفعت البطاقة الى شفتيها وقبلتها قبلة طويلة

ثم كانها خجلت من تلك العاطفة المبهمة فخبأت البطاقة مع رسالة أمها

وهما أثران آلت على نفسها ان لا يفارقاها ابداً

واستشعرت هناء وفرحا بذلك الامل الذى رأت سماءه تظلها.

وكان فجر طلع عليها وكانت تحسب ليل حياتها لا

فجر بعده

فكانت ليلتها بهيجة ورقدت رقاداً هنيئاً تحف به الاحلام اللذيذة وما احلى الامل فى قلب المحزون

﴿ الفصل الرابع عشر ﴾

على شاطىء البحر

ننتقل بالقارىء الى مدينة نيس

الفصل ربيع بل هو أواسط شهر نيسان الزاهر ومدينة نيس حافلة بالسياح والقصاد والمتنزهين جامعة ظواهر البذخ والاسراف والجمال والتأنق وفيها الغادات الحسان مباهيات بما وهب لهن الله من جمال وماوفقن اليه من ثروة ويسار

والجو صاف رائق والازهار باسمة بهيجة تسر الناظرين

أما السماء فان زرقتها تستهوى الابصار

وقد طلعت فيهـا شمس تنعش حرارتها اللطيفة

الاجسام . والخضرة فى تلك المدينة تزدان باشجار النخيل الباسقة والزيتون الغض والبنفسج والورد متعدد الانواع وشذا تلك الازهار يتضوع فى كل مكان منها كأنها جنة الله فى أرضه

وكان يسير فى طريق هناك تؤدى الى ناحية بونشت فارسان أحدهما روبر دى سمروز والآخر صديقه جورج دى كانتابل

يسيران فى صبيحة نهار قد تجلى فيه بهاء الخليقة فبدا لهما كل ما حولهما داعية الاعجاب والسرور

وأحدهما جورج اكبر من روبر سناً واكثر رزانة وجداً ولعل كثرة المطالعة أفادته ما يمتاز به على صديقه فقد كان ذلك الفرق بيناً فى حركاتهما وعلى ملامح وجهيهما

على انهما قلما كانا يختلفان فى الطباع والاميال وعهدهما بالموالاة والمصافاة قديم ينتهى الى صداقة وطيدة الاركان قائمة بين والدتيهما . اما صداقة السيدتين فقد نجمت عن ألفة بين زوجيهما

نشأ جورج وروبر معاً ولم يفترقا الا قليلا فكان كل منهما يتمنى ان تدوم تلك المرافقة والمصادقة أبداً !

كانا يسيران فى الطريق التى أشرنا اليها وجورج وحده يتكلم وروبر يجيبه باشارة او ايماءة او عبارة مختصرة الى ان قال له جورج :

اظنك اليوم ياصديقى مشغول الفكر

فارتعد روبر وقال احقاً تظننى كذلك

أجاب نعم .. فعهدى بك فكه الخلق كثير المزاح على الرغم من حزنك ولبسك الحداد لانك خلقت بشوش الطلعة ضاحك السن أما اليوم فانت على خلاف خلقك

قال لاتعجب ياجورج فان المرء قد يقطب وجهه من لاشىء فى أوقات غير معلومة وهذا أمر لاحظته فيك منذ هنيهة .

أجاب ربما كان ما تقوله صواباً فقد كنت افكر فى مقالة قرأتها اليوم في احدى المجلات العلمية واستفدت منها اشياء قد تنفعنى في الامتحان وانت تدرى اشتغالى بالاشياء الطبية واهتمامى بالوقوف على المباحث العلمية

وقد انسى بها كل شيء وانصرف بافكارى الى الغرض الذى جعلته نصب عينىَّ وهو ان أغدو طبيباً شهيراً

قال ياله من غرض نبيل !

أجاب نعم . وذلك لان صناعة الطب من اشرف الصناعات والطبيب الحاذق يتمكن من تخفيف الام ابناء جنسه ويخدم الانسانية أجل خدمة وربما الفيتنى مسترسلا فى التفكر فاعلم اننى لا اكترث لمثل العلم الذى طلبته واشتغلت فيه

قال اعرف ذلك

أجاب نعم ولكن ليس ذلك شأنك انت وما اظنك منصرفا الى مثل هذه التأملات . . . ولا أنكر شدة رغبتك فى درس الحقوق ولكنك تفعل ذلك حباً بالعلم لا رغبة فى مزاولة صناعة المحامى

فتبسم روبر وقال نعم لان المحامين كثروا جداً فلا فائدة من زيادة عددهم ايضاً وان كان مثلى لا يحسب شيئاً مذكوراً

قال انى أعرف خلقك قبل أن أتلقى جوابك ورأيتك

تبسم فعرفت ما يجول فى ضميرك وآمل ان يظل الدهر باسما لك .

فتبسم روبر ايضاً وأجاب من يدرى ؟

قال ما اراك مقتنعاً بكلامى بل احسب انك تكتم سراً عنى ... فهيا وبح به سريعاً .. فهل تريد ؟

قال روبر لست اكتم سراً عنك ولا سر اكتمه

اجاب بل الأمر كما اقول فان لك هيئة عاشق وعلامات العشق ظاهرة عليك كل الظهور منذ يوم وصولنا الى نيس حتى الساعة

فهز روبر رأسه

وقال جورج علامات الهوى سكوت مستطيل وتنهد ... او تنهد وسكوت وهذا باد عليك

فلما لم يجبه قال هل ترانى مخطئاً ؟ ولئن كنت مخطئاً تكون مصابا بعلة عصبية تستوجب المعالجة ولسوف اخاطب والدتك بشأنك

قال روبر تخاطب والدتى ؟ آه يا جورج انها أولى منى بهذه المعالجة وأحوج اليها لانها دائمة الاطراق

والاكتئاب ولا اذكر انى رأيتها تتبسم اما الآن فأراها تتألم . . .

قال جورج ذلك من حزنها على ابيك المأسوف عليه

اجاب انى اتكلم عن كآبة سابقة لوفاة ابى المسكين . ولا شك عندى فى ان والدتى تقاسى الماً لكنه شديد

قال ماذا عسى يشغل فكرها ويحزنها وهى المرأة المعروفة بزهدها فى الدنيا واحسانها الى الفقراء ؟

أجاب ذلك سرها . فاننى لم اتجرأ على اكتشافه أو استطلاع طلع ذلك الالم الدائم . . . لكننى أحزره على اننى سألتها فى ذات يوم عن سبب اكتئابها فاجابتنى انه لا يوجد لديها سبب للاكتئاب . وكان جوابه باثبات ورقة فلم اقدم على مخاطبتها بهذا الشأن فيما بعد

قال أصبت يا عزيزى روبر فلو كنت فى مقامك لفعلت فعلك .. فان قلوب الامهات هيكل مقدس لا ينبغى لا ولادهن اكتشاف ما فيه

قال طالما رجوت ان يزول الضنك الملم بنفسها ولكنه رجاء كان باطلا ! فان والدتى ما تفتأ حزينة مظلمة الجبين

محبة للاعتزال ... ويصعب اقناعها بوجوب الخروج من المنزل فهى لا تجتاز الحديقة الا نادراً

قال يجب عليك ان تطالبها بالتنزه حرصاً على صحتها

اجاب نعم ولكن لا فائدة من ذلك فانها لا تصغى الىّ وقد بذلت جهدى ... وقد اردت ان اذهب بها الى شواطىء البحر وجوار جبال الالب لان اعزامنية عندى هى ان تلهو وتسر ... وطلبت اليها ان تصحبنى فى مركبة او على سفينة خاصة . . . ثم لم اجد بداً من العدول عن ذلك .

واذ ذاك وصل الفارسان الى عطفة طريق فتمشيا فيها فلاح لهما شبه افريز فاجتازاه فوصلا الى مكان يشرف الواقف فيه على ابهج المناظر التى يمكن ان يتصورها الانسان

فابصرا فى الجهة اليمنى البلدة وبيوتها البيضاء تتخللها اشجار البرتقال والليمون والاثل وهو شجر عظيم من الطرفاء حتى اطرافها المتاضمة للجبل وفى الجهة اليسرى جبل بورون وفى اعلاه قصر قديم كأنه التاج على هامته

وابصرا امامهما ذلك البساط الازرق الواسع يتصل آخر ماتبلغه العين منه بالافق الازرق البعيد وكأنه مرصع بالدرر البيضاء

فوقفا ينظران ويحسبان انهما قد انتقلا الى عالم الخيال أو السحر أو الاحلام

فقال جورج ماأبهج هذا المنظر !

وقال روبر نعم انه بهيج ولكن لماذا لا أراه الا من خلال استار الكآبة والوحدة ؛

قال جورج أتجسر على الشكوى من وحدة وأنت مع أمك الطيبة القلب الشديدة العطف عليك ومع صديق مثلي ؟

أجاب ليست الصداقة كل شيء في هذه الدنيا

قال الا ترى كيف كدت تبوح بسرك على الرغم منك .. الم أزعم انك عاشق !

أجاب دعنا من هذا .

قال مااسمعك تقول نعم ولا لا والان اخبرني مااسمها؟

أجاب اسم من ؟

قال اسم المرأة الحسناء التي تهواها . لانني أحسبها حسناء ولا ريب

أجاب ثق ياجورج انك واهم ..

فلم يرد جورج ولا ندري اذا كان قد لزم الحياد أو كان مكترث فنظر في ساعته وقال لقد ازفت ساعة الغداء الا نرجع الى البلد ؟

فسارا راجعين واجتازا نحو مائة متر وهما صامتان وللحال بصرا بمركبة فاخرة مقبلة بسرعة فمالا عن الطريق شيئاً ليوسعا لها الممر

وبصرا بامرأة صبية جالسة فيها لابسة ثوباً من الموسلين الوردية اللون ويطفح البهاء من شكلها الحسن واذا بها قد انثنت بغتة فرأتهما وعرفت روبر لانها تبسمت له ورشقته بنظرة مؤثرة ظل فيها كأنه مسمر في مكانه

فاضطرب لهذه المصادفة وخفق فؤاده واتبعها النظر واذا برأسها البديع قد التفتت مرة ثانية وتبسمت له من بعيد ... وللحال غابت المركبة وابتعدت كثيراً

فقال جورج دى كانتابل ما الطف هذه المخلوقة !

فتصاعد الاحمرار الى وجه روبر وقال فى نفسه !

انها هنا !..

ولاحظه جورج كما رأى الابتسامتين فقال بلهجة لاتخلو من تهكم :

هل أوصلتك هذه الغادة الحسناء الى ماأرى ؟..

فمن هى ؟.. أتعرفها ياروبر ؟

أجاب هى البارونة بولنسكا

قال اذن فهى ولاشك مالكة قلبك وشاغلة لبك.. فاهنئك أيها الصديق !

فلم يشأ روبر جواباً على هذا الكلام على مافيه من سخر قليل لانه كان فى حالة جديدة ولم يشعر قط قبلا بما شعر به فى تلك الساعة

خيل له انه يتجرع سما الا انه لذيذ أولى فؤاده حرارة لطيفة . وهو لما رأى وجهها الساحر وشعرها الذهبي حول جبينها راعه مارأى واهتز جسمه وكانما استنشقت روحه شذا الغرام فسكرت به

قال فى نفسه .

لاشك انها تلقت رسالتى .. فهى تبتسم لى ابتسامها الفتان جواباً عليها ..

ولكن مادامت هذه المخلوقة البديعة موجودة ههنا فلا بد لى أن أراها في وقت أقرب مما كنت آمل

ولما فكر فى قرب التقائه بها استشعر اضطراباً غريباً ..

على ان ابتساماتها ناطقة بما تنطق به الحاظها أى انه يحق له ان يرجو

واراد روبر اخفاء سره على صديقه لالسبب ولكنه لم يدر الا انه ود كتمان هواه

فصمت واحترم جورج صمته

وبعد هنيهة وصلا الى بناية فخيمة لحديقتها باب يشرف على الجهة الجنوبية وفى اعلى الباب هذه الكلمات

قصر سان ستفانو

فصاح جورج انه قصر فخيم جميل !

وكان هناك رجل يشتغل بدهن الباب

فدنا منه روبر وقال له :

لمن هذا المسكن الشائق ؟

أجاب انه ملك رجل ايطالى غنىّ يؤجره

قال وهل يقطنه أحد؟

اجاب نعم فقد استأجرته حتى انقضاء هذا الفصل سيدة نبيلة

قال اذن فهى تقيم فيه ؟

أجاب نعم ياسيدى

قال من تكون ياترى ؟

أجاب اسمها البارونة بولنسكا . ولعلك صادفتها وهى سائرة فى مركبتها . ويدعونها هنا غادة الشعر الذهبي

ومدينة نيس من المدن التى الفت من الملهيات الغرائب ومن المسليات النوادر والعجائب ومع ذلك فقد كان لقدوم غادة الشعر الذهبي اليها تأثير على المصطافين ولا سيما بعد مادعت كبارهم وأعيانهم الى مأدبة تقيمها فى قصر سان ستفانو

أما التأثير الناجم عن قدومها فلأنهم يجهلون أصلها

وفصلها ولا يعرفون عن حالها شيئاً

فهل يعتبرونها مجهولة

كلا فانهم لا يجهلون اسمها أى اسم البارونة بولنسكا وتقول عن نفسها انها أرملة وكان زوجها من أشرف البولونيين

وسيرتها فى نيس لم تعب بشىء سوى انها تنفق عن سعة .

أما منزلها فهو انيق مدهش ومثله حاشيتها وخدمها وقد زارت بعض جيرانها فغادرتهم يذكرون بذخها واسرافها كما يذكرون جمالها الفتان .

قالوا لاجرم انها من أهل اليسار كما تشهد الظواهر لانها تنفق من غير حساب انفاق الملوك

والثروة مفتاح ذهبي فيه رقية لفتح جميع الابواب وهنا قد اجتمعت بالحسن الباهر فكان للبارونة بهما وسيلة الى علية القوم النازلين فى البلد . .

وأنشأت لها صلات عديدة ومودات وقتية ارادت تأليفها قبل انتهاء الفصل وعزمت على ان تجمع شمل

الاشراف بيتها ولعل لها غرضا آخر من تلك المأدبة التى أعدتها لهم ..

أما نحن فاننا كاشفون للقراء ماخفى من أمرها

فهم يذكرون الرسالة التى كتبها اليها روبردى سمروز ولما تلقتها اهتزت طربا وشمخت بانفها كبراً وانتصاراً وصاحت تنادى بفوزها !

ولما امعنت النظر فى النتيجة التى تبتغيها صفقت بكفيها استحسانا ورأت انها فاقت جاك نورتون بالدهاء

وجاك انما يكذب بزعمه انه يدعى ميلورد الذهب. وقد كذبته واقعة الحال عندها أيضاً ولم تكن تحبه الحب الكافى لمشاطرتها اياه متاعب ذلك المال المكتسب بطريقة هى مكان الخوف والخطر

عاشت معه اعواما ولكنها لم تحبه حباً صادقا ولا تعلقت به تعلقاً يوجب عليها حفظ عهده

وفضلا عن ذلك فان فؤادها لا يؤخذ وحب الذات لم يدع فيه موضعاً لهوى صادق

وانما رأته صديقاً موسراً وذا مال على ما تشتهى وترد

ووسيلة تبلغها قصدها من التنعم بالعيش الرغيد واعجبها انه لا يصعب عليها ارضاؤه

أما وقد نصب معنى المال فلم يبق امامها الا ان تغادره فى مكانه وتبحث عن مستقبل اخصب واغزر مورداً والمستقبل قريب جداً لو أرادت وأحسنت التدبير أحبها المركيز دى سمروز أو كاد يحبها . وهذه رسالة تؤيد هذا القول لانه يطلب فيها مقابلتها . . . فالبشائر حسنة

ولكن ألا تخشى خسارة تلك الصفقة اذا صبرت عليه حتى يرجع الى باريس ؟ من يدرى فقد يعرض له ما يشغله عنها ؟

قد يصادف غادة أخرى تذهب بلبه فيحبط تدبيرها اذا مال فؤاده الى سواها

فلا ينبغى أن تترك الصيد لغيرها أو تمكنه من الوقوع فى غير الحبائل التى نصبتها له

وللحال عزمت عزما اكيداً سريعاً وهى لم تتعود الاحجام فى مثل هذه الاحوال

فتأهبت للسفر وبعد أيام قلائل رحلت الى مدينة نيس وقد اعدت خطة سهلة

وكانت قد لاحظت افتتان الشاب روبر وشدة تأثير حسنها على قلبه وبعض النساء اتصفن بمزية هي احداث الاضطراب فى النفوس ومطالعتها بلحظة

وينينا قد اتصفت بتلك المـزية فازدادت بها سلطة جمالها وقالت فى نفسها :

اذا أردت غداً هذا الشاب أسيرى ...

وأعدت له عدة النزال ووجهت قواها الى ثروة الشاب وأسمه

طمحت ببصرها الى ابعد غاية وحامت نفسها على اسمى مقصد عندها

فلم تكتف بتصبي روبر وامتلاك فؤاده ومد يدها الى ملايينه تغترف منها ما ترضى به شهواتها وانما أرادت ما هو أفضـل من ذلك كله ارادت الاقتران به حتى تصبح سيدة حقيقية وتتوج بتاج المركيزة ومثل رأسها البديع يصلح لذلك التاج ...

وروبر مقتبل الشباب ساذج رقيق القلب ... فهو نعم الفريسة يسهل افتراسها ...

فتحكم عليه وتروى غليل طمعها وشرهها الى الملذات

وهكذا يتحول الحلم الى حقيقة

وشعرت انها انما خلقت لذلك النضال وان النصر معقود لها منذ الازل !..

ثم انها تعرف قوة محاسنها السلابة النهابة

فلما وردت عليها رسالة خفق فؤادها سروراً وفرحا بالفوز لان روبر ابتلع الصنارة التى رمتها اليه بنظراتها وابتساماتها ... والباقى يسير يسير من تلقاء ذاته

قال في رسالته انه فى اليوم التالى مسافر الى مدينة نيس ...

وفى اليوم التالى خطر لها ان تشاهد منزل روبر فى باريس وهو القصر الذى عللت النفس بان تغدو صاحبته وربته

فراقبت القصر فاذا هو كانه مقفر لان نوافذه كانت موصدة وقد رحل اهله الا انها اعجبت به لانه فخيم

قديم العهد

فتأملت شرفاته ونوافذه وحديقته واشجارها الغدة تأمل من يريد شراءه الا ان فؤادها كان اشد خفوقا .

قالت فى نفسها :

ان هذا الصرح المشيد سيكون لى فى احد الايام !

سيكون لى ومعه اسم نبيل وتاج مركيز مرسوم على المركبات الفاخرة التى تلوح لى من ساحة الاصطبل ..

ولعله طمع فى غير مطمع ورجاء تجاوز الحد لكن ينينا كانت تحمل رسالة من الرجل المالك للقصر رسالة انبأتها انها مالكة قلبه فلا يبعد عليها امتلاك كل ماله

تلك مفتاح تفتح به ابواب قصره وخزائنه !

ولا عجب !

فاجالت بصرها فى المسكن الفخيم بكبر وجشع

ثم انثنت وملء نفسها الامل

فلما رجعت الى منزلها أحست بازدياد رغبتها وتعاظم همها فى التسلط على فؤاد روبر وما ملكت يداه

فوطنت النفس على الاقدام ووعدتها بالحصول على تاج المركيز جائزة سنية

فعقدت النية على مد الشباك والصبر حتى تثق بالصيد شأن العنكبوت التى تمد خيوطها صابرة للفريسة

وبعد ثلاثة ايام سافرت ينينا الى نيس

فباعت قبل السفر فرش بيتها وا كثر حلاها وهى هدايا ميلورد الذهب قبل ان نزل به الافلاس

فاجتمع لها من ذلك قدر جسيم فى رزمة من الاوراق المالية تكفى للظاهر بالثراء واليسار والانفاق فى مدينة نيس ذلك الانفاق الباهر مدة أسابيع

وهى لا تحتاج الى أكثر من أسابيع قليلة لاتمام ما شرعت فيه من استمالة روبردى سمروز وامتلاك فؤاده ورشاده

فقد بلغ من شلطان حسنها انها حملت ذلك المركيز الشاب على الولوع بها فيجب عليها الآن ان تنفق اياما على اجتذابه اليها حتي يعدها حياته وتصبح عنده بمنزلة نور ساطع فى افق هنائه ومهما بذلت فى هذا السبيل فما

هو بالكثير الذى يؤسف عليه

فهى اذن تخاطر بكل مالديها وتستخدم كل ما عندها من دهاء ومال وجمال لكسب الملايين والمنزلة الرفيعة

على انها لو شاءت لانتفعت بذلك المال واودعته احد المصارف وكان لها منه ريع يقيها غوائل الاحتياج فى الايام المقبلة

ولكنها لم تجد بداً من روبر تود ان تختلب عقله وتظهر له متوجة باليسار وتؤثر عليه من الجهة المالية حتى يكون تعلقه بها مشفوعاً بالاحترام حاملا أياه على طلب القران

فهى بذلك تهاجم لبه وقلبه وعواطفه وشعوره

فاستأجرت قصر سان ستفانو بعشرة آلاف فرنك الى نهاية الفصل

وهو قصر فخيم حسن الموقع مفروش فرشاً ثميناً نادراً وفيه اصطبل مشهود له بالسعة وجودة الاحصنة وحديقة لا نظير لها فى تلك النواحى لما اشتملت عليه من الاشجار والازهار

وذلك القصر مما رسمته فى خطتها وحسبته من

متممات رغبتها ومحققات أمنيتها لأنه يصلح للحفلات تقيمها ويجدر بأن يكون مقاماً لربة المال والجمال

وقد رأت ان الاشتهار فى نيس يوليها ما تتوق اليه وانها فى حاجة الى كثرة المعجبين بها حتى يصل صيتها الى روبر وتخلق الغيرة فى قلبه وتجتذبه بها صاغراً فيأتى ليراها . . . ولا بد له من المجىء اليها وهى من ذلك على أتم يقين

وقد قيل في امثال الفرنساوية ماتريده المرأة يريده الله اشارة الى قوة نفوذها فلا تنوى هناك امراً مضارعاً الا مضى قبل ان تلقى عليه الجوازم

وينينا امرأة ذات جمال فلا يمكن الا ان تفلح

وجرى ماأملت فما لبثت حتى رددت المدينة ذكر البارونة بولنسكا وابدع الواصفون فى وصف غادة الشعر الذهبي

واكثرت التردد على المتنزهات والملاعب والمحال العامة

فاما ان تركب مركبتها او السيارة وتطوف فى

الحدائق والاماكن المشهورة ويراها الناس فى كل مكان

فتلقى حيث كانت اعجاب المعجبين وتسحرهم بجمالها ولطفها وازيائها

فاذا مرت على مركبتها الفاخرة شغل الالسن الكلام على ملابسها وتفننها وسلامة ذوقها

واذا ركبت السيارة ظهرت لهم محتجبة شيئاً وهى في كل حالة تدل بيسار وسيادة وشرف وتفخر بجمال وذوق وسخاء

فتطأطىء لها الرؤوس كأنها ساحرة لكنها تهيج فى الجمهور فضولا وحب استطلاع

وجملة القول انها كانت ملكة فى ذلك الفصل البهيج

ولطالما تاهت وباهت بما سمعت من الاطراء والاغراق ولاغرو فان الدمى تسر بالبخور يحرق لها ويقدم ثناء عاطراً

على ان هنالك سحابة في افق هنائها اظلم منها فؤادها.

فانها لم تر روبر دى سمروز

وصلت الى نيس منذ ثمانية أيام . . . ولم توفق الى

مشاهدة الشاب فأسفت وندمت على تسرعها وقلة صبرها لان كل يوم ينقضى بالانتظار يكون بمنزلة معركة خاسرة

فأظلمت الدنيا فى عينيها وظنت ان الدهر خانها وان الخيبة امامها ووراءها وانها اخطأت فى الاعتماد على آمالها والتعلل بالفوز الموهوم

غير انها صادفت روبر دى سمروز فى أحد الايام.

يوم كان يتنزه مع جورج دى كانتابل على ما مرّ بك

فتنفست الصعداء وسرى عنها

فمرت به باسمة طافحة العينين سحراً مشرقة الوجه لا وبهاء

فلما وقعت العين على العين ومضى بينهما مثل البرق خفق فؤادها ايضاً . . . الا ان تجلدها لم يخنها

فلاحظته يتصاعد الاحمرار الى وجهه ويضطرب

وقالت لم يكذب في رسالته فهو يهوانى ! . . . اذن فهو لى ! . .

الفصل الخامس عشر

« الحورية »

وبعـد ظهر ذلك اليوم كان روبر دى سمروز يقرع باب قصر سان ستفانو

فادخلوه الى قاعة مفروشة احسن فرش وفيها اشياء فنية وأثاث غالى الثمن ورسوم حريرية شرقية وأزهار بديعة الصنع ووسائد موشاة منمقة وآلة للبيانو فوقها تمثال قديم يعزف بآلة من فضة وذهب

واذا بالباب قد فتح ودخلت منـه البارونة بولنسكا لابسة غلائل رقيقة وكأنها متشحة بزهر يصدر عنها حفيف لطيف

فنهض روبر وقد بهر بصره جمالها الفتان فبسطت اليه يدها بعظمة فتناولها وهو حييّ خجول وجلس فى المكان الذى أشارت اليه ثم قال انى شاكر لك أيتها

السيدة سماحك لى بهذه المقابلة . . . وقد علمت شدة شوقى الى مرآك ومخاطبتك ومعرفتك

فأجابته بصوتها الرخيم الرنان قالت لقد وصلت الىّ رسالتك ولم اكن انتظر زيارتك الابعد ايابك الى باريس ولكن ما دامت الصدفة قد جمعتك بى فى هذه المدينة فأنا القاك بسرور كثير

فتنهد وقال ان كرم اخلاقك يعدل حسنك . .

فتبسمت تبسما يفتن العابد وقالت يالك من مداح ! أحقاً انك شديد الرغبة فى التعرف بى ؟ . . ولماذا ؟

أجاب لأن من يراك اول مرة لا ينساك ابداً . . . ولا يتمكن الا ان يمتع بصره مرة ثانية بلقائك . .

قالت أراك ايهـا الشاب كثير التحمس فهل تعرف من أنا حتى الساعة ؟

اجاب لابد ان تكونى سليمة الطوية ويأبى الله ان يودع هذا الخلق الحسن غير الروح النبيلة . . . نعم لست اعرف شيئاً عنك ومع ذلك فان لك محلا عزيزاً عندى ولست انسى لجمالك المنة الصالحة لانه بدد ظلمات

الاشجان عنى قالت ينينا بلهجة الشفوق : عن اية اشجان تتكلم فهل لقيت شجناً وأنت فى هذا السن ؟

اجاب انى دهيت بفقد والدى من عهد قريب وكنت يائساً حزيناً فلما لاح لى شخصك لاح لى الشباب والجمال والسرور ولذت لى الحياة ...

قالت انى اغضى على تغزلك بى بالنظر الى قرب عهدك بالاسى والشجن واعلم اننى كابدت مثلك اسى وشجناً وأستطيع مشاركة الناس فى همومهم

ومرت سحابة على جبين ينينا وأظلم بصرها شيئاً واضطرب صوتها

وقد حزرت الممثلة الماهرة موضع الضعف فى روبر فبدرته بما يستميله اليها لمعرفتها بتمثيل جميع الادوار وانتهاز كل فرصة تسنح لتوطيد نفوذها

فامتلكت لبه لانه رآها اعجوبة فى خلق الله وسمع صوتها فاستأسرته رخامته وفتنه انعطافه وتوسم فيها فؤاداً رقيق الشعور يحس بآلام الناس فأبهجه ما رأى منها وسحره وذهب برشده

فقال باهتمام ظاهر :

هل قضت المصائب بأن لا يسلم منها احد ؟

قالت واحر قلباه ! . . . لقد كنت طفلة يوم فجعنى الدهر بوالدىّ ولما بلغت العشرين توفى زوجى البارون لاديسلاس بولنسكى ... فلبثت وحدى لا اجد حولى من يؤنس خلوتى أو يعطف عليّ حتى يئست ففارقت بلدى وقدمت الى الديار الفرنساوية فاقمت في باريس لعلنى اتلهى بملاهيها واملأ فراغ قلبي واسلو اشجانى...

حدثته بهذه الخرافة من غير ان تتردد وقد وضعتها أحسن وضع

فأخذ ينظر اليها وفؤاده يخفق شغفاً بها الى ان قالت انى أجىء الى نيس فى كل عام فلا يفوتنى التمتع بالحفلات والافراح فانسى وحدتى وانصرف الى التغنى والتلهى ما استطعت

قال لا بد ان يكون لك اصدقاء كثيرون ...

أجابت لى علاقات مع الناس . . ولكن ليس لى من صديق اشتكى اليه وأبوح له مما فى فكرى... ليس لى أحد اكاشفه بسرى ويبادلنى عواطفه ويخلص لى

الولاء واخلصه له فذلك مالا يوجد أو هو نادر الوجود

وكأنما روح روبر معلقة فى شفتى تلك المرأة وكانت تتكلم بهذه الكلمات بحماسة وحرية فكر مؤثرة ... فشعر بأن محبته لها تعظم شيئاً فشيئاً لخوضها فى ذلك الموضوع بدقة لا تعاب فقال فى نفسه :

آه لو احبت هذه الغادة اذن لكانت اصدق من عرف الحب ظن الغبى غير المجرب ان تلك المخلوقة البديعة تصلح للصداقة والهوى وربما كانت فى حاجة الى من يؤاسيها وتعطف عليه فلم يبق له الا غرض واحد هو ان يستطلع كنه سرائرها ويقف على دقائق عواطفها ويتودد اليها لعله يستميلها اليه

فلما مضى مضى موعوداً بزيارة فى اليوم التالى

فوصل الى البيت الذى تقيم فيه والدته والسرور من وجهه يتدفق والبشر فى عينيه يلمع

على انه اراد اخفاء فرحه على والدته وقد نبهه شعوره الى وجوب كتمان نبأ تلك الزيارة عنها

لكن عينها الناقدة كشفت خفاياه فما لبثت ان قالت له وهى فرحة لانبساطه :

ما اشد سرورك في هذا المساء وما اكثر لمعان عينيك ايها الحبيب !.. فهل وقع لك مايوجب هذا الارتياح ؟

اجاب كلا يا اماه وانما تلهيت شيئاً بصحبة صديقى جورج دى كانتابل وضحكنا معاً من أمور رأيناها

قالت أكنت مع جورج ؟ انه خرج الساعة من عندنا

قال متى ؟

أجابت منذ دقيقتين فقط . . وقد جاء الى هنا مستعلماً عنك

فخجل روبر وبهت لان كذبه لم يجز على والدته بل ظهر أسرع ظهور ولعلها أول كذبة أتى بها

فتأملته والدته منذهلة مستاءة وجعلت تسائل نفسها قائلة لما يكذب ياترى ؟ . . .

ودلها الشعور الذى تتصف به الوالدات عند ماتعرف حادثة لأولادهن ان هنالك أمراً يتعلق باحدى النساء فأشفقت أن يقع فى حبائل امرأة خادعة فغمغمت تقول فى نفسها :

سرعان ماوقع في كيدهن فهن عازمات على اختطافه منذ الآن ! . .

ولاح لها انها سرقة لا تطاق لانهن انما يسرقن أعز مخلوق عندها !

أولا يحق للأمهات ان يغرن على أولادهن

نعم ولا ريب فان غرس المحبة الوالدية النامى بغيث الحنان والتقوى قد يذبل اذا نما بجانبه غرس المحبة الجنسية . .

والوالدات يحسبن كل غرس غير ما غرست ايديهن لا يحمل الا شوكا ولا يثمر الا حنظلا . .

واذا بزائرة وافت فى ذلك الوقت فأنقذت جيلبرت من التأملات المحزنة ونجت روبر من الارتباك

وكانت تلك الزائرة مدام دى كانتابل والدة جورج جاءت كعادتها فى كل يوم لتذهب مع مدام دى سمروز للتنزه على مركبة

وما برحت والدة جورج فتية ممتازة بالتأنق فى لباسها وزينتها وفكاهة خلقها فبدد وصولها غياهب الاكدار والغموم وكان لمزاحها تأثير حسن على صديقتها جيلبرت فسرى عنها للحال

وفى اليوم التالى وما بعده زار روبر قصر سان ستفانو زيارات فى مواعد واحدة

واستمر يزورها على التوالى حتي غدا لا يستطيع الانقطاع عنها

وكانت الخبيثة قد استعدت اتم استعداد لتلك الزيارات فجعلت تسترسل فى ابداء ظواهر الثقة والميل من غير ان يقل شىء من نفوذها وسلطانها

أما هو فاستسلم اليها ووقع في حبائلها وقوع اعمى فى حفرة عميقة

فاشتغل بها فكره وهجر صديقه جورج دى كانتابل وهو الصديق الذى نشأ معه وكان اليفه وسميره فى زمن الحداثة والصبا واقرب الناس مودة اليه

فانذهل من تحوله وانكر تكتمه واختلاقه الحجة بعد الحجة للابتعاد عنه

على ان انذهاله لم يكن طويل المدة لانه عرف الحقيقة ففى ذات يوم صادفه بعد الظهر خارجاً من قصر سان استفانو فاوقف جواده وقال له :

ها قد كشفت مخبأك أيها الشاب الجميل المحجب بالاسرار !.

اهذا سبب اختفائك ؟

قال سبب اختفائي ؟

أجاب بلا شك . فقد مضت ايام لم أرك ولم اتعرف خبرك حتى استحال عليّ الوقوف على اثرك أو اعرف ماجرى لك وطرأ عليك .. وانما كان ينبغي ان ابحث عنك ههنا لا في مكان آخر

فاستاء روبر من انكشاف سره ولم يحر جواباً

فقال جورج اراك تنفق الوقت بعد ظهر كل يوم عند ربة الشعر الذهبي أو البارونة بولنسكا! ويالها من بارونة كريمة الاصل !..

وضحك على أثر هذه الكلمات

فقال روبر مامعنى تهكمك وضحكك ياجورج

فقبض جورج على ساعده بحدة وقال روبر روبر انت تتعرض لخطر شديد بذهابك الى بيت هذه المرأة.

أجاب روبر اى خطر ؟.. لعلك تعني به الحب ؟...

قال جورج نعم

أجاب هب ذلك وقع فاى خطر منه ؟

قال اصغ اليّ ايها الصديق فاخبرك بما علمته . كنت بالامس في مأدبة الكازينو جالساً بجانب رجل غريب الوجه عظيم الهيئة يبلغ الخامسة والاربعين أو الخمسين من عمره اشقر الشعر واظنه انكليزيا . وكان ينصت مثلي الى انغام الموسيقى فدهشت من ظواهر الوقاحة التي بدت عليه ولاح لي منه وجه شرير وقلت في نفسي لايزال يوجد اناس لم تلطف الموسيقى طباعهم

قال روبر ان قصتك هذه مشوشة ياصديقي ولم اجد فيها حتى الآن علاقة ..

فقطع عليه جورج الكلام قائلا صبراً فلسوف يظهر لك خافيها .. وبعد هنيهة أقبل رجل آخر اكبر سناً من الاول فوقف امامه واتى بحركة تدل على انذهال وتفرس فيه بضع ثوان ثم قال من ذا ارى ؟ .. ميلورد الذهب هنا !..

« فاجابه الآخر :

« هذا انت ايها الشيخ سام ! .. فماذا الذى جاء بك الى نيس ؟ . .

قال نعم فاننى تعودت القدوم اليها فى كل عام بعد ما اعتزلت الاعمال .. وانت ؟

فاجابه الرجل الذى دعى ميلورد الذهب :

« اما انا فقدمت لعمل لى !

« فجلس الشيخ سام بجانبه وخفض صوته قائلا كيف حال الاشغال ؟

« اجاب انها حسنة وذلك منذ الاسبوع الماضى

« قال هل انت راض عنها

اجاب نعم

« قال وماذا جرى لينينا ؟

« اجاب انها تركتنى .

« قال ذلك محال .. وهل تركتك من زمن طويل.

اجاب منذ ايام

« قال ماذا جرى لها ؟

« اجاب انها هنا

« قال وحدها ؟

« اجاب نعم الى ان تجد رفيقاً .. ويوجد فتى يحوم حولها سراً

« قال وهل نشات لها صلة معه ؟

« اجاب انه يزورها من عهد قريب

« قال ياللداهية ! .. وهل تعرف خلفك هذا

« اجاب كلا ولكننى ساعرفه . . ولا بد ان يكون وارثاً مالا كثيراً

قال بلا شك ولولا ذلك لما اكترثت له ينينا . . . ولعمرى فالبارونة تعرف من أين تؤكل الكتف لأنها منصرفة الى باب المال

« قال اتدرى كيف تدعو نفسها ؟ انها لم تكتف باسم البارونة بولنسكا بل اشتهرت باسم آخر هو غادة الشعر الذهبي . هكذا تدعى فى حى قصر سان ستفانو وهو القصر الذى تسكنه

« فقال الشيخ سام نعم ما فعلت فقد اتخذت لها اسمين مستعارين وهذا يدل على حذقها وكان ينتظر منها أن

تفوز بالثروة منذ ما رقصت أول رقصة فى ملعب الحمراء في لوندره

« قال ميلورد الذهب ليتنى لم اذهب اليها لاتخذها خليلة فقد اخطأت فى ذلك

« أجاب ولماذا انها فتانة المحاسن ...

« قال صدقت ولكننى تعلقت بها ... فلا استطيع سلوا عنها وانما يقتلنى هجرها وبعدها

« فقال الآخر عجباً لك يا ميلورد هل يبلغ بك الجبن هذه المنزلة فتفتنك محاسن امرأة ؟.. اننى ارثى لك ايها الصديق العزيز

« أجاب فهمت مرادك .. ولكن فات الوقت فاننى مفتون بها وتذكارها يلهب فؤادى بنار الوجد .. وكلما فكرت فى انها ستغدو خليلة رجل آخر احس بعارض جنون ... وانما تركتنى الساقطة اللئيمة لاننى عجزت عن القيام بنفقاتها وتقديم ما تشتهيه من آلات بذخها وما منعنى من ارضائها يومئذ الا سوء الحال وقلة المال.

« ولست اصفح عن فعلها بى .. اما الآن فليس

لى الا أمنية واحدة هى اما ان استردها أو انتقم منها شر انتقام !

« قال فماذا الذى تنويه ؟

« أجاب لست ادرى حتى الساعة . ولكننى ارى كل صلة قد انقطعت بيننا . ولم يبق الا ان انتقم منها واقسم لك على ذلك بشرف جاك نورتون !

وهنا سكت جورج دى كانتابل هنيهة ثم قال ذلك ما علمته بالامس واردت اخبارك به فى اول فرصة لاننى لاحظتك اذ مرت بنا يوما فاضطربت اضطرابا ظاهراً دلنى على امر خفى ولكن لم يدر فى خلدى انك ذلك الفتى الوارث الذى يحوم حول غادة الشعر الذهبي!

فلم يجب روبر ولكنه خفض رأسه مدهوشاً مما سمع

فقال جورج لقد سرنى اننى رأيتك خارجا من عند البارونة بولنسكا لاننى تمكنت من انبائك بالخطر المحيق بك او بما تتعرض له من المتاعب .. فحذار لنفسك ان تخاطر بها فى هذا الطريق الوعر انى مشفق عليك ايها

الصديق فتبصر وتدبر واودعك الآن

واعمل فى شاكلة جواده المهماز وانطلق بجواده مغادراً روبر فى مكانه مروعا مدهوشاً

ذلك لان الصنم الذى يعبده وكان يحسبه رباً قدهبط من مقامه الشامخ وانتزع التاج من رأسه المرتفع !

سقط ذلك الطلاء الكاذب الخادع فبان وراءه وجه الحق والصدق !

ولكن هل الحق والصدق ماسمع ؟

لاريب عنده فى ان جورج نقل اليه كل ما سمع بالحرف الواحد لم يحرف الكلم ولم يزد ولم ينقص

ولكن الا يمكن ان تكون تلك الاقوال ناشئة عن تأثير الغش والحسد ؟ الا يمكن ان تكون وشايات دنيئة اتى بها البغض والغرض ؟

فوقف عند هذا الفكر وتعلق به ريثما يلوح له وجه آخر يتجه اليه

لم يشأ تصديق ما قيل واقتنع ان هناك مبغضين وذوى اغراض يعملون على ثلب البارونة واطالة الالسنة

عليها بالباطل

ذلك لأنه كان مشغوفا بينينا يحبها حبا اعمى ..

سحره جمالها واقتنصته حبائلها فكان وقع كلام صديقه على فؤاده الوفى كوقع السهم او اشد ايلاما وخامره الخوف من ان يضطر الى مقاطعتها وهو لا يطيق صبراً عنها او ان يفر منها وهى المخلوقة التى يهواها بملء جوارحه ويستعذب لقائها روحه ويحن الى قربها حنين الولهان المستهام المتيم

فغدا يروعه التفكير فى ما قيل ويقال اذ كيف يستطيع ان يعيش بدونها ؟

وادرك مع ذلك معنى مخافته ومغزى اشفاقه وعلم انه يختلق لها حججاً يدفع بها التهم والريب وانه يود ان يرد كيد الذين رفعوا الحجاب عن حقيقتها فى نحورهم

وخطر له أن يرجع فى الحال الى قصر بنينا فيلقاها ويصغى الى صوتها ويرضى النفس مقتنعاً بأن مثل ذلك الفم الصغير البديع لا ينطق بالمين ولا يمكن ان يترجم بغير ما فى القلب

لكنه تماسك وابتعد مسرعاً عن سان ستفانو وهو يتوق



« بر موشه »

الى الملتقى القريب

وهكذا كانت البارونة بولنسكا ذات نفوذ تستخدمه عن قرب وعن بعد على السواء وقد مكنها منه دهاؤها فانشبت فيه براثنها بعد ماقيدته بهواها فاستسلم اليها وكان حكمها عليه كحكم القضاء

مسامرات الشعب

اكبر مجلة روائية تصويرية اجتماعية تصدر ثلاث مرات فى الشهر

(لاشهر الكتاب العصريين)

سنتها عشرون عددا

لصاحبها

خليل صادق

السنة الخامسة — العدد ١٠٦

السائلة الحسناء « الجزء الرابع »

(قيمة الاشتراك)

٥٠ غرشاً صاغا فى القطر المصرى والسودان

وثمانية عشر شلناً فى الخارج

وكل طلب اشتراك غير مصحوب بقيمته فهو غير مقبول

« ثمن العدد الواحد ٣ قروش صاغاً »

مطبعة الشعب بشارع درب الجماميز بمصر

السائلة الحسناء

لواضعها

الكاتب القصصي الفرنساوي الشهير

م. روبيير

ومعربها

الكاتب الناثر البليغ

نقولا رزق الله

مدير ادارة جريدتي الاهرام والبيراميد

ما كل من تلقاه يبسط كفه
مستجديا هو في الحقيقة معدم
كم خامل كسل يمد يداً وكم
من بائس يقضي ولا يتظلم

« المعرب »



أمير المؤمنين

« السلطان محمد الخامس »

مسامرات الشعب تحييك يا أمير المؤمنين

على مفرقك التاج وفى يمينك الصولجان وأنت على سرير الملك العثمانى العظيم والامة امامك ثغورها باسمة وأبصارها خاشعة فهى قائمة بين الجمال والجلال فتبارك الذى، بيده الملك وهو على كل شىء قدير.

هذا مشهد لم تتمتع به اعيننا ولكن تحققت به اذهاننا ولو كان فى اللسان قدرة وفى الصوت مد لقلنا حيث تزدحم تلك الجموع :

الله اعلاك ويعليكا   كل جلال أصله فيكا
استبق هذا الملك تسعد به   فمجده لو شئت يكفيكا
ارج من الرحمن توفيقه   فالشعب بعد الله راجيكا

ولقلت بعد ذلك هذه قصص فيها مواعظ نشرت فى عهد سابقك فكانت دروساً وانها ستنشر فى عهدك لتكون فكاهات وليطب على السرير مقامك ولتسم هممك وليسعد العثمانيون فى عصرك الزاهر ولتكن حامياً للشعب وواثقاً بالشعب وليتوطد بينكما منك الوفاء ومنه الولاء

خليل صادق

﴿ السلطان محمد الخامس ﴾

ايد الله دولته

اذا تركت غلطة قاصدا يلديز تجد على يمينك سوراً قديما عاليا قد اثرت فيه السنون يخفى وراءه قصراً هو احرى بلقب سجن منه بقصر اذ تجد فى اركانه قشلاقات الحراس وترى الجنود تطوف به زيادة في الاحتراس فاذا سألت سائق عربتك عن هذا القصر وقصته تجده رفع السوط حاثا الخيل على اجتياز هذا المكان خشية ان يسمع صوت جوابه انسان فلا يأمن على حياته من العدوان...

ذلك القصر هو سجن الامير رشاد اخى السلطان عبد الحميد قضى فيه نيفاً وثلاثين عاما حتى اعلن الدستور ثم اتاحت له الاقدار على ايدى الامة ان يعلو اليوم عرش آل عثمان ويتولى خلافة الاسلام تحت اسم السلطان محمد الخامس وذلك فى يوم الثلاثاء ٢٧ مايو سنة ١٩٠٩ الموافق ٧ ربيع الثانى سنة ١٣٢٧ بعد خلع سلفه واخيه السلطان عبد الحميد الثانى

ولد السلطان محمد الخامس فى ٣ نوفمبر سنة ١٨٤٤ وهو ابن السلطان عبد المجيد

اما صفاته الجسمانية فهو متوسط القامة معتدلها تلوح عليه العظمة ووداعة الاخلاق لا يلبث الناظر اليه ان يشعر بانعطاف قلبه لذاته الكريمة عيناه زرقاوان تقرأ فيهما الاستقامة وحرية الضمير والطيبة

اما صفاته الأدبية فجلالته يمتاز بالطيبة ويمثل شخصه الكريم كل الفضائل العالية والمزايا الكريمة التى اتصف بها جنسه العثمانى فهو خير من يعهد اليهم بادارة الدولة العثمانية والخلافة الاسلامية

وقد قضى اوقات اسره في دراسة الآداب وعلى الاخص آداب لغة الفرس فاصبح شاعرا فى اللغة الفارسية لا يجارى فى مضمار وجلالته كان كثير الاهتمام بالحوادث السياسية الداخلية والخارجية وهو ذكى الطبع محقق مدقق يكتب ويتكلم اللغتين العربية والفرنسية كالتركية تماما . وهو من المعجبين بنظامات فرنسا وانجلترا الدستورية

وجرت عادة جلالته منذ اعيدت له حريته مع الدستور ان يستيقظ مبكراً فى الصباح فيطالع الجرائد السياسية الانجليزية والفرنسية ويتتبع باهتمام حوادث ايران الحاضرة

وهو محب لاخيه عبد الحميد . حتى انه لما دعاه اليه اخوه عقب اعلان الدستور ولاطفه فى القول لم يسع الامير رشاداذ ذاك الا ان يقبل يدى اخيه وكنى بذلك دليلا على كرم اخلاقه

ومما يؤثره عنه التاريخ فى صحائفه البيضاء رفضه الملك والخلافة لما عرضا عليه قبيل خلع أخيه فاكرم بتلك الاخلاق الفاضلة وانعم بهذه الروح العالية ولجلالته اربعة اولاد وهم حضرات اصحاب الدولة الامراء ضياء الدين افندى (ولد عام ١٨٧٧) ونجم الدين افندى (ولد عام ١٨٨١) وعمر حلمى افندى (ولد عام ١٨٨٣ ورفيعه سلطان (ولدت عام ١٨٨٧ وقد اعتنى جلالته بتربيتهم اجل عناية ولم يفارقهم قط ومنذ اعلن الدستور كان الامير يخرج للنزهة على ضفاف البوسفور والى جزيرة الامراء فيحييه القوم فى

الطريقه فيرد عليهم التحية ببشاشته المألوفة ورقته المعروفة فيزيدهم اخلاصا له وتعلقا به حتى انهم كانوا يقولون عند مروره « هذا اميرنا المحبوب رشاد افندى « وقد قال عنه الامير محمد على فى احدى مقالاته « ان للامير رشاد احباء مخلصين سيقومون بواجبهم نحوه اذا حان الحين فاذا علا عرش الخلافة سيكون خير الخلفاء والسلاطين »

وجلالة السلطان الجديد دستورى يحب الحريه والدستور وهو السادس والثلاثين من سلاطين آل عثمان وخامس من سموا بمحمد.

فاما سميه من الملوك السابقين فهم الآتى ذكرهم :
السلطان محمد الاول ولى العرش سنة ١٤٤٠ م. ولم يملك الا ٨ سنين ثم السلطان محمد الثانى تولى سنة ١٤٥١ م وهو الملقب بالفاتح وبعده السلطان محمد الثالث تولى سنة ١٥٧٤ م وهو الذى هب فى اليوم الذى ملك فيه بذبح اخوته كلهم وعددهم ١٩ واغرق عشراً نساء من نساء ابيه الحاملات لئلا يخرج من بطونهن من يزاحمه على العرش على انه لم يملك مع ذلك اكثر من ثمانى سنين ثم محمد

الرابع وكان عمره سبع سنين حين ملك وكان خلعه فى سنة ١٦٨٦ بعد ان حكم ٤١ عاماً

* * *

أما سلفه السلطان عبد الحميد المخلوع بالامس فقد كان أشد ملوك آل عثمان دهاء واقدرهم على الحكم. ولكن شاءت الاقدار ان تكون مدة حكمه تعيسة على الدولة حيث فقدت فى غضونها أطيب بقاعها ككثير من ولايات البلقان وبلغاريا والبوسنه والهرسك وولايات في آسيا الصغرى فضلا عما أصاب قبرص ومصر كما تراه مفصلا فى تاريخه بعد

والمؤرخ العادل يحكم بأن اكثر ما انتاب الدولة فى ايام حكمه كان بدسائس الدول الاجنبية التى توجس خيفة من قيام دولة قوية للاسلام ثم بدسائس بطانة السلطان والبطانة دائما قوية فى الحكومات الاستبدادية

ولكن لم يخل عصر عبد الحميد من مآثر تحفظ له جميل الذكر فى التاريخ فلا ننسى خط الحجاز الذى قرب للمسلمين البقاع المطهرة ولا ننسى اذعان جلالته لمطالب

الدستوريين من أحرار بلاده حقناً للدماء.

وقد تم خلعه يوم ٢٧ ابريل سنة ١٩٠٩ على أثر قرار الجمعية الوطنية المؤلفة من مجلسى المبعوثين والاعيان وبناء على فتوى شيخ الاسلام. وهى ارادة الامة التى تذعن لاحكامها الحكام. وما قدر كان. « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شىء قدير .»

والسلطان عبد الحميد هو الحادى عشر من سلاطين آل عثمان الذين فارقوا العرش بالخلع . وزيادة للفائدة التاريخية نأتى على اسمائهم هنا

(١) السلطان مصطفى الاول خلع لسذاجته وعدم لياقته للحكم

(٢) السلطان عثمان الثانى لانه خالف عسكره لما منعوه من الخروج للحج لسقوط الحج عنه

(٣) السلطان مصطفى أول مرة ثانية الا بعد توليته عقب خلع عثمان الثانى وذلك للعلة التى خلعوه بها أولا

(٤) السلطان ابراهيم لعلة البله

(٥) السلطان محمد الرابع لالتهائه عن الملك واهماله الامور

(٦) السلطان مصطفى الثانى لانكساره فى حرب الروس

٧ السلطان سليم الثالث بفتوى شرعية لمخالفته احكام القرآن

(٨) السلطان مصطفى الرابع لقتله السلطان سليم

(٩) السلطان عبد العزيز بفتوى مبنية على دعوى اختلال عقله

(١٠) السلطان مراد بمثل هذه الفتوى

* * *

لكل عصر دولة ورجال وجلالة السلطان محمد الخامس المشهور بحبه للحرية والدستور رجل هذا العصر وقد تفاءل المسلمون فى اقطار الارض خيرا بتوليته على العرش لما اتصف به من مكارم الاخلاق وجليل الصفات فنسأل الله ان يجعل عهده على الدولة والمسلمين عهد خير وبركة وان يعيد لنا فى عصره دولة المجد السالف والعز الوارف التى كانت لنا فى سالف السنين. آمين .

﴿ أولياء العهد ﴾

أما اولياء العهد اليوم فهم على الترتيب أصحاب الدولة والنجابة الامراء الآتية اسماؤهم

(١) يوسف عز الدين افندى نجل ساكن الجنان السلطان عبد العزيز (ولد عام ١٨٥٧)

(٢) سليمان افندى نجل ساكن الجنان السلطان عبد المجيد (ولد عام ١٨٦٠)

(٣) وحيد الدين افندى شقيق السابق (ولدعام ١٨٦١)

(٤) صلاح الدين افندى نجل ساكن الجنان السلطان مراد (ولد عام ١٨٦٦)

(٥) عبد المجيد افندى نجل ساكن الجنان السلطان عبد العزيز (ولد عام ١٨٦٩)

٦ سليم افندى نجل السلطان عبد الحميد وهو آخر أولياء العهد واصغر اصحاب الدولة يبلغ سنه ٣٢ سنه وأكبرهم يبلغ ٥٦ سنه

وقد رأينا اتماما للفائدة التاريخية ان ناتى هنا على أشهر الحوادث التى مرت على الدولة العثمانية فى غضون حكم السلطان عبد الحميد الثانى. ٣١ اغسطس سنة ١٨٧٦ ـ تولية

السلطان عبد الحميد الثانى ـ ١٩ سبتمبر سنة ١٨٧٦ تداخلت الدول فى شؤن البلغار لما اتته العساكر العثمانية فيها

٨ ديسمبر سنة ١٨٧٦ ـ أول مؤامرة ضد عبدالحميد

٢٣ منه ـ اعلان الدستور لاول مرة في حكمه ـ ٥ فبراير سنة ١٨٧٧ نفى مدحت باشا ـ اول مارس سنة ١٨٧٧ افتتاح اول برلمان عثمانى ـ ٢٤ ابريل سنة ١٨٧٧ حرب الروسيا ـ ١٢ دسمبر سنة ١٨٧٧ واقعة بلفنا

١٣ فبراير سنة ١٨٧٨ ـ اجتازا اسطول انجليزى مضيق الدردنيل رغما عن الدولة

١٥ فبراير سنة ١٧٧٨ ـ ثورة كريت وتساليا وأبيره

٣ يوليه سنة ١٨٧٨ تنازلت الدولة عن جزيرة قبرص للانجليز

٤ يوليه سنة ١٨٧٨ ـ معاهدة برلين وبمقتضاها فقدت الدولة اجمل ولاياتها

٣٠ يناير سنة ١٨٨٠ ـ ارسلت الدول للباب العالى مذكرة شديدة اللهجة تدعوه فيها الى تحسين احوال الدولة

١٢ يوليه سنة ١٨٨٠ مظاهرة بحرية دولية ضد الدولة

٢٣ اكتوبر سنة ١٨٨٠ ـ تنازلت الدولة عن دولسينيو

للجبل الاسود

٨ مايو سنة١٨٨١ -- ثورة البانيا

٢٤ مايو سنة١٨٨١ -- تنازلت الدولة عن تساليا لليونان

٢٩ يوليه سنة ١٨٨١ حكم على مدحت واصحابه بالاعدام ...

٣١ يوليه ١٨٨١ احتجت انجلترا على هذا فابدل بالنفى المؤبد

٢٨ اغسطس سنة ١٨٨٢ مؤامرة ثانية ضد عبد الحميد

١٥ سبتمبر سنة ١٨٨٢ احتلت انجلترا مصر

١٢ اكتوبر سنة ١٨٨٢ -- ثوره مقدونيا

٢٢ سبتمبر سنة ١٨٨٥ ثورة الروملي

٢٦ نوفمبر سنة ١٨٨٧ عجزت الميزانية العثمانية مليون جنيه

١٥ اكتوبر سنة ١٨٨٨ - اقترضت ١ر٣٥٠ر٠٠٠ جنيه من البنك الالمانى وقاطعت البنك العثمانى

١٥ سبتمبر سنة ١٨٨٩ -- ثورة ارمنيا

٢٧ يونيه سنة ١٨٩٠ -- ثورة آرضروم

١٢ ابريل سنة ١٨٩٤ -- ثورة ارمينيا

٣٠ يونيه سنة ١٨٩٤ حرب الاكراد والارمن

١٤ دسمبر سنة ١٨٩٤ احتجت الدول على الحروب

الداخلية فى الدولة

١٠ اكتوبر سنة ١٨٩٥ -- ثورة الارمن بالاستانه واستعمل فيها البوليس منتهى الشدة معهم-٥ نوفمبر سنة ١٨٩٥ - تداخلت السفارات فى وضع حد الفوضى

١٨ نوفمبر سنة ١٨٩٥ - ثورة جزيرة العرب

١٦ مايو سنة ١٨٩٦ - اضطهاد الارمن بالاستانة

٢٦ اغسطس سنة ١٨٩٦ - هجوم الارمن الثوار على البنك العثمانى- ٢٧ اغسطس سنة ١٨٩٦- قتل ٦٠٠٠ أرمنى وتداخل الدول-١٥ سبتمبر سنة١٨٩٦ اضطرابات وقلاقل فى الاستانه- ١٦ سبتمبر سنة ١٨٩٦ قبض على أعضاء تركيا الفتاة وحكم بنفيهم

٢٦ سبتمبر سنة ١٨٩٦ مهاجرة الارمن

١٩ نوفمبر سنة ١٨٩٦ - تداخلت فرنسا فى مسألة الارمن وخلصت الابرياء منهم

٦ اكتوبر سنة١٨٩٦ طلبت الاحرار اعلان الدستور

١٧ ابريل سنة ١٨٩٧ حرب اليونان

١٦ دسمبر سنة ١٨٩٧ عقد الصلح مع اليونان

٢٢ اكتوبر سنة ١٩٠٠ ثورة وقتل فى الارمن

٣٠ دسمبر سنة ١٩٠٢ طلبت الدول اصلاح مقدونيا

٢٧ مارس سنة ١٩٠٣ ثورة هائلة فى البانيا

٣ ابريل سنة ١٩٠٣ مذابح مستترة فى مقدونيا

٦ مايو سنة ١٩٠٣ ثورة مناستير

٢٥ نوفمبر ١٩٠٣ اضطر السلطان لاجابة مطالب الدول بخصوص مقدونيه — ٢٩ ابريل ١٩٠٤ توفى السلطان مراد

٢٠ ابريل سنة ١٩٠٥ ثورة اليمن

٢١ يوليه سنة ١٩٠٥ شرع بعضهم في قتل السلطان

٢٥ نوفمبر ١٩٠٥ مظاهره فى مدله بشأن قبول المراقبه الماليه

١٥ مايو سنة ١٩٠٦ حادثة العقبة وقبول الباب العالى المطالب المصرية الانكليزية

٢٣ يوليه سنة ١٩٠٨ — انذار حزب تركيا الفتاة للسلطان

٢٤ منه — اعلان الدستور ثانى مرة ١٣ ابريل سنة ١٩٠٩ ثورة الاستانة ضد الدستور ٢٣ منه محاصرة الدستوريين للاستانة ٢٥ منه الاستيلاء على يلديز ٢٧ منه خلع السلطان عبد الحميد وتولية السلطان محمد الخامس

﴿ الفصل الاول ﴾

مأساة

كانت شرفات قصر سان ستفانو فى ذلك المساء مشرقة تطفح منها الانوار كأنه من القصور التى ورد خبرها فى قصة الف ليلة وليلة

قام ذلك القصر في الظلام يفاخر كواكب السماء يتألق الضياء فيه فكأن فى كل نافذة كوكبا من نور تشارك فيه الغاز والكهرباء وحسدت عليه الارض السماء

وبيان الخبر ان غادة الشعر الذهبي تقيم حفلتها الكبرى وتخاطر مخاطرتها العظمى وتفرغ آخر مافى جرابها من صنوف الحيل وهى واثقة باستلاب عقل المركيز دى سمروز وامتلاكه الى الابد حتى تفضحه فى هواها وتعلن استسلامه اليها على مرأى من الناس

أما روبر فلم يقل لينينا كلمة ولم يطلعها على شيء مما

رواه دى كانتابل

زارها فى اليوم التالى فزال كل ما خامره من ارتياب عند ابتسامتها الاولى فكأن تلك الابتسامة شعاع باهر من أشعة الشمس بدد سحابة الشك من نفسه

فسبى بلطف دلها وعذوبة منطقها وازداد بها شغفاً وفتونا وسحراً

ولا غرو فقد كان فى العشرين من سنه لم يرضه الزمان ولم تحنكه التجارب ولا ادبه الملوان والبارونة بولنسكا عرفت موضع ضعفه وادركت غفلته وكيف يسهل اقتناصه

كان غراً ذهب به الهوى والشباب فعدم الرأى والتدبير وانقاد الى شهوته واذعن لامر الغرام وجعل نصب عينيه الظفر بأمنيته وتحقيق حلمه وآماله

اجل فقد كان يتمنى ان يتم له الاقتران بتلك الغادة التى شغفته حباً ويعد ذلك غاية السعادة ومنتهى الغبطة والهناء

ذلك لان تعلقه بينينا لم يمازجه من الصبابة أثر الا ومعه آثار من الاجلال والاكرام فكان يحسبها ارفع قدراً

واسمى مقاماً من ان تكون خليلة وهو لما طبع عليه من استقامة وصدق لم يتجرأ قط على ان يجيل هذا الفكر فى ذهنه

ولم تنشأ له الفة معها تزال بها الكلفة وانما عرفت وكانت داهية فى فن التمثيل كيف تتصباه وتوعز اليه الاحترام والاجلال

كانت تحسن العبث باشرف عواطف النفس كما تعبث بالمروحة وتنتمى الى جميع الصفات كما تتزيا بجميع الازياء

فاعتبرت الشاب رجلا خطيراً واستهوته كما يريد الرجل الخطير قائلة فى نفسها لا يمكن ان يميل الى الاقتران بى اذا لم امثل دور المرأة الفاضلة الطاهرة الذيل العفيفة الثوب واللسان فلا بد من ان اغدو كفؤاً له لأنه يأبى الاقتران بامرأة تريب خفتها وتحمل على الظنون

فعملت على استئساره باللطف والادب والابتسام ولم تخاطبه الا عن هوى طاهر وأمنية تجمع بين قلبين صادقين ... وهناء لا يفوقه هناء ...

وهل يمكن لمن كان فتى غراً مثله ان يخلص من تلك

الحبائل المنصوبة بمهارة عظيمة ؟ بل كيف يستطيع التخلص من شباك الافتتان ؟

فلما تعاظم شغفه وكبر هواه حمله صدق مبدإه وشرف نفسه على اخبار والدته بامره

ووالدته شديدة العطف عليه والسهر على مصلحته فليس يوجد مايسوغ كتمان امره عنها وهل يستطيع ان يخفى عليها تلك العاطفة التي ملأت فوءاده ؟

فعقد النية على الاقرار لها بكل ما وقع له مهما جرى وقد كانت طيبة قلبه خلقاً فيه فكيف يقوى معها على التكتم والتستر

فاختار وقتاً ملائماً لذلك الاقرار . ساعة سادالسكون وابتسمت الخليقة كأن كل مافيها داع الى التآلف والوئام والبر والتعاون

كان منزل المركيزة دى سمروز ذا شرفة على البحر المنبسط بزرقته الشديدة وكأن هنا وهنالك حجباً بيضاء بلون اجنحة الطائر البحرى المرفرف على الشواطى، وشذا الزهر متضوع فى الجو والشمس مشرقة يتلألأ ضياؤها

فى كل مكان

وجيلبرت تبسم لولدها وتنظر اليه نظرات الحنان مبتهجة به ابتهاج كل والدة بابنها متى اعتدل قوامه وحسن هندامه وتجمل بالخلق الكريم

فاقبل عليها واخذ فى سرد اقراره بصوت متهدج حياء وكلمات متقطعة

فما كادت تسمع أول كلامه حتى ارتعدت وظللت جبينها سحابة وصاحت بغتة :

ويلاه تتكلم عن البارونة بولنسكا ؟.. عن غادة الشعر الذهبي !.. وهل تهواها !.. انت ياولدى !..

فتصاعد الاحمرار الى وجهه على انه كان يتوقع انذهال والدته فقال لها .

أى عجب يااماه فى ذلك ؟

فاطبقت عينيها واجابت باهتمام :

لاعجب ياروبر ... فانت فى سن الشباب والغرام.. وللبارونة صيت فى جمالها يدلنى على ولعك بها ... لكن كلام الناس عنها كثير وهذا أمر يخيفنى ...

وصواب القول ان جيلبرت ادركت مراد ابنها لأنه تكلم عن البارونة امامها مراراً وكان متحمساً فى وصفها

فتنبهت بشعورها الوالدى الى ان وراء ذلك التحمس ما يريب

فاستعلمت يومئذ عن تلك المرأة الغريبة الحسناء شاعرة ان اول هوى يعلق به فؤاد روبر لا بد ان يكون شديداً

وكل ما كانت تتمناه ان يحب ابنة ذات صيانة وتربية صالحة وعلم وادب!

وتلك امنية حقيقة بوالدة تحب ولدها ذلك الحب الشديد!

ولكن رابها ماعلمته عن سيرة البارونة وظرفها وكثرة اختلاطها بالناس

ولم تشأ اعتراضاً على شغف ولدها بها ولا ايلامه بحمله على الرجوع عن هوى شخصى يمر مرور السحابة في الصيف

ولكن وصلت يومئذ دعوة رسمية من البارونة بولنسكا الى قصر سان ستفانو لحفلة تقيمها للمصطافين

وتلقى جورج دى كانتابل مثل تلك الدعوة فتكلم عنها مع المركيزة والدة روبر

فقالت:

هل تذهب يا روبر؟

اجاب كيف لا ... فهل يسوءك ذهابي واجابتي هذه الدعوة؟

قالت اذكر الحداد ياولدى

فلم يجب روبر

فقالت لا انكر انك مقتبل الشاب ولا استطيع حرمانك اللذات التى يميل اليها من كان في سنك ... ومع ذلك ...

اجاب لا اذهب اذا امرتنى بالبقاء ...

قالت لست آمرك بذلك وانما ارجو رجاء ياولدى.. ويسوءنى كثيراً ان تزور هذه المرأة ...

« فهل تنوى الذهاب أيضاً ياعزيزى جورج؟

أجاب لا اظن .. وربما حملنى الفضول على الذهاب فلا أدرى.

ونهض روبر فاخـذ يتمشى على الشرفة يدخن لفافة تبغ تاركا والدته وصديقه فى بهو المنزل

وهو قدايقن بان والدته على صواب من حيث اجابة الدعوة لا تلائم ما يوجبه الحداد من اعتزال الحفلات والاعياد ولكن هاجه وآلمه ان ينينا الحسناء ستكون ملكة فى تلك السهرة البديعة فيتجلى جمالها الفتان ويحرم مرأى طلعتها البهية

وهنا سأل نفسه قائلا لماذا تتحذر والدته من البارونة ويريبها أمرها ؟ .. لماذا يخامرها الشك في سيرتها كما خامر صديقه جورج من قبل ؟

فداخله شئ من الغضب والحقد ودار فى خلده انهم يعكرون صفو هنائه ويجدّفون على معبوده ..

ولما خرج روبر الى الشرفة قال جورج لجيلبرت:

اطلب اليك ايتها السيدة ان تمنعيه بكل وسيلة عن الذهاب الى دعوة البارونة بولنسكا .. فانه يكاد يعشقها عشقاً لا مناص له منه .. وانها مجلبة الخطر ... بل هى تهول وتروع!.

قالت وانت أيضاً ايها الصديق ترتاب فى هذه المرأة البديعة الجمال ؟ حقاً لم اخطئ انا !

أجاب انى اود ان اثنى روبر عنها بكل قوى الصداقة والولاء . فاننى سمعت عنها أخباراً غادرتنى ارتعد خوفا على صديقى المسكين من شرها

قالت لقد روعتنى بكلامك فاخبرنى بما علمت . . .

أجاب لست قادراً على اخبارك الساعة لان روبر آت الى هنا فاذا عرف تقم علىّ ... وانما ينبغى ان نحترس ونرعاه كلانا فانه يتعرض لخطر حقيقى . . .

قالت الا ترى انه لايجب ان يذهب الى هذه السهرة؟

أجاب نعم هذا رأيى ولكن هل نستطيع منعه ؟ . . .

فامتقع وجه جيلبرت وقالت رباه ان المسئلة اشد خطراً مما توهمت !..

قال على كل حال يجب ان نتحد ونضم قوانا وننقذه من هذه الخدّاعة الخلابة فانه يريد ان يتزوج بها ...

فصاحت جيلبرت ياللداهية !

قال نعم ولئن تزوج بها فهلاكه محقق .. لكننا نستطيع

احباط تدبيرها ولئن ابى روبر الا اجابة دعوتها فانى اذهب معه ايضاً ... فاكون هناك لامنعه من ارتكاب زلة او فعل حماقة سيئة العاقبة

قالت انك لنعم الصديق الصادق فانا اعتمد على صداقتك في تنجية ولدى !

أجاب لك ان تعتمدى على صداقتى كل الاعتماد

قالت شكراً لك يابنىّ !

واذ ذاك دخل روبر وهو مظلم الجبين ولم تره والدته قبلا ولا رآه صديقه ممتعضاً ذلك الامتعاض

ذلك ان محاسن ينينا الغرارة غيرت خلقه المستقيم وانتزعت منه حرية ضميره فان هواها سم قاتل للعواطف الصالحة

فقال مخاطباً روبر

هل تنوى والدتك الذهاب الى حفلة البارونة بولنسكا ؟

اجاب انها دعيت كما دعى كل ذى وجاهة فى مدينة نيس . . ولكنها رفضت . . .

قالت جيلبرت التمها بالنيابة عنى وقل لها اننا سنقضى تلك السهرة معاً

اجاب حبا وكرامة اما انا فاذا اجبت دعوة البارونة اجىء، فانبئك بخبرها ولاشك ان روبر يهمه ذلك

قال روبر بعزيمة ولهجة لاتقبل جدالا

سأذهب معك

فعلمت مدام دى سمروز ان مقاومة هذه العزيمة لاتأتى بفائدة فلم تتكلم على الرغم من اكتئابها لتغير حال ولدها لكنها نظرت الى جورج نظرة توسل والتماس وقت انصرافه كانها تقول له انني اتكل على الله وعليك فاياك والغفلة ؟

فاومأ برأسه كانه يقول لها فهمت مرادك وسافعل ماتوجبه الصداقة علىّ

* * *

وبعد ظهر ذلك اليوم لزمت البارونة بولنسكا مخدعها للتزين والتبرج وقد عقدت نيتها على الانفراد تأهباً للفوز واعداداً لمعداته

وعمدت الى لباسها وزينتها وما يتعلق بذلك والى بدنها تعتنى باكسابه الاشراق فوقفت الى مرآتها وقفة الكبر معجبة بمحاسنها

ولم تبد تلك المحاسن بالغة حدت الكمال كما بدا فى ذلك اليوم

فلما خرجت من مخدعها كانت فتنة للرائين وآية الجمال لعابديه فقالت فى نفسها :

من ذا الذى يعصى سلطان جمالى ؟.. ان روبر آت الى هنا ولسوف يفتتن بى بل سوف اغدو مركيزة !..

وفى الساعة التاسعة تلألأت الانوار فى القصر بغتة كأنما ذلك بسحر ساحر فاندحر بها جيش الظلام وأقبل المدعوون يدخلون الى القصر افواجا والبارونة تتلقاهم وهم معجبون بما رأوا من الآيات الباهرات فى ذلك القصر

واعجب آياته صاحبة القصر فقد كانت معرضة للابصار ولا حلية عليها سوى حسنها ولا زينة لها غير لبسها ولذلك سبب يعلمه القراء فانها لم تبق لها جوهرة

ولا خاتماً ولا قرطاً ولا سواراً وكأنما جمالها لايحتاج الى مثل هذه الحلى بل يأبى ان تساعده على الظهور فهو من دونها حقيقى ذو قوة وسلطان وأية جوهرة تعدل فى الاشراق واللمعان عينيها السوداوين ؟

هذا والجمهور يتوافد شيئاً فشيئاً وأخذت آلات الموسيقى تعزف نغما للرقص وينينا تستقبل القادمين بلطفها المشهور وتتلقى الاطراء منهم بمسرة وحبور

على انها كانت تقطب الجبين من وقت الى آخر لان روبر دى سمروز لم يأت حتى تلك الساعة

لماذا ؟

هل يرفض الدعوة فى آخر الوقت ؟ وقام في نفسها الغضب مقام الاستياء والسأم فقالت فى نفسها .

هل تصرم كل رجاء ؟ وهل لقيت العناء وانفقت هذا الانفاق سدى ؟

غيران عينيها لمعتا في الحال ووثب فؤادها فى صدرها لانها شاهدت روبردى سمروز مقبلا ويصحبه جورج دى كانتابل

فصعدا كلاهما على مهل

فتدفق وجهها بشراً وخطت اليهما خطوة لتقابلهما ثم خاطبت روبر بصوتها الرنان الرخيم فقالت لقد احسنت ايها الصديق العزيز باجابتك الدعوة وانت أيضاً يامسيو دى كانتابل

فانحنى امامها كل منهما وقال روبر بصوت منخفض لينينا :

لقد عقدت النية على المجىء فلم يصدنى مانع ولم احفل بالحداد ...

فرنت اليه كأن روحها تتجسم فى ذلك الرنو وتبسمت وقالت ما أعظم شكرى لك !

فقال روبر لكننى لا ارقص . وهذا لا يمنعنى من الاعجاب بك عند رقصك . آه ما اجملك فى هذه الليلة

ولقى جورج دي كانتابل بعض اصدقائه هناك فاخذ يحييهم وانتهزت لينينا تلك الفرصة فاجتذبت روبر لتنفرد به دقيقة من الزمان . وقصدت بذلك الانفراد الى الفات أبصار المدعوين اليها

غير ان روبر ارتبك عند ما رأى الابصار محدقة به فاراد الجلوس فى زاوية مظلمة

واضطرت لينينا الى تركه لتذهب فتستقبل القادمين قياما بواجبات ربة البيت

هذا وأعين روبر لا تتحول عنها فى اثناء ذلك وهى تستقبل المدعوين بعظمة وجمالها يبدو سائداً على الجميع

وقام في نفسه عراك عنيف والموسيقى تدعو الناس الى الرقص بانغام وضعها ويبر المؤلف الشهير النابغة

وكان جورج دى كانتابل قليل الرقص وانما جاء الى الحفلة لاجل صديقه واراد أن يرى ويحكم بعد العيان . ويبعد صديقه عن الهاوية التى عزم على أن يزج نفسه فيها فيمنعه من زلة وراءها الهلاك

وهو واجب للصداقة مقدس . آلى على نفسه امام المركيزة دى سمروز ان يقوم به خير قيام فاراد أن يبر بأليته وينجز ما وعد به

فجلس فى مكان وجيه من بهو القصر غير قريب من العازفين وأخذ فى محادثة جارة له محادثة ليست بذات

شأن فانقطعت من نفسها وانصرف بعدها الى تأملاته

فلاح له أن تلك الفاتنة التي يقال لها البارونة ولنسكا شبيهة بلغز فعمد الى التأمل فيها لعله ينقذ روبر من نفوذها المشؤوم

وأعجبه ماشاهد من جمال فى الحفلة وفكر في الحب والمحبين

ومما لا ريب فيه ان روبر لم يعرف الحب قلبه وذلك على الرغم من كثرة ماله وعلو مقام اسرته . فقد انصرف اهتمامه منذ نعومة اظفاره الى ادراك العلى ونفع الناس وهو لا يكره الملذات لكنه لا يهتم بها الا قليلا ولم يدع له انكماشه فى الدرس وانكبابه على التعلم فرصة من الوقت لينفقها على لذاته

فاخذ يوازن بين دروسه ومطالعاته العلمية وهاتيك المسرات التي جمعت منها تلك الحفلة ما يلذ للشبان، وفكر في نتيجة كل من هذه وتلك فلم يسعه الا ان يحمد طريقته المثلى لما فيها من السمعة الطيبة والعمل المشكور

وهنا خطر فى باله انه ولم ينل شهادته بعد قد تمكن

من اتيان مبرة مشكورة يوم انقذ الفتاة السائلة من الردى فى شارع كوصونرى

ومرت فى مخيلته صورة السائلة الحسناء فقال وارحمتاه لها !... ما اتعس حظها !.

وفكر فى ما طبع على ملامح تلك الفتاة من كآبة مؤثرة ولطف جاذب وحسن يسترق القلوب

واذا به قد تنبه الى خادم قدجاء الى البارونة بصحن من فضة عليه رسالة

فتناولت الرسالة واجتازت البهو لتجلس وتفتحها على مهل وكان جورج يراقبها فرآها تصفر اصفراراً شديداً عند تلاوتها وهو لو تمكن من الوقوف وراءها لقرأ في تلك الرسالة ما صورته :

« يننينا

« انا في مدينة نيس

« بل انا فى قصرك مشاهد حفلتك التي اقمتها لاقتناص عاشق نصبت له الحبائل

« عرفت كل شئ لانني لبثت اياما أرصدك وارقب

حركاتك وسكناتك

« فيجب ان اخاطبك ... يجب ان القاك ... وهكذا اريد !

وفيما انت تطالعين رسالتي هذه أكون بين جمهور المدعوين وقد انخرطت بينهم

« فاذا انتصف الليل تعالى الى مستنبت الزهر فى القصر تجدينى انتظرك هناك واحذرى ان لا تأتى !!!

« لا تحاولى ابداً ان تسيئى الىّ او تخالفينى ...

« والا فضحتك فضيحة هائلة !

« اذا خالفتنى وقفت فى وسط هذا المكان وناديتك على رؤوس الملأ واعلنت لهم أصلك وفصلك واظهرت حقيقتك وابنت للجميع انك بارونة كاذبة زورت اللقب واختلسته لغرض فى نفسك وما انت الا رقاصة قديمة فى الشوارع ومغنية في الملاعب .. أصيح بالناس فاخبرهم من انت وما شأنك الحقير واقص لهم قصتك الماضية على مرأى منك ومسمع

« ثم أقول لهم انك كنت خليلتى !

ولا اكتفى بذلك فقط !

« وانت تعرفيننى وتعرفين اننى انجز ايعادى

« اذن فتعالى !

« اننى انتظر . . .

« جاك »

ودهشت غادة الشعر الذهبي من تلك الرسالة بل ارتاعت أشد ارتياع . .

انها ثورة ثائر حقود بغيض

وقالت فى نفسها :

ماذا جاء به الى هنا ؟

« كيف تسلل الى القصر كالحية الرقطاء تندس بين الازهار

« فهل اصدع بأمره المهين ؟

« وهل أذهب الى لقياه وهو لا يضمر لى الا حقداً ولا يلقانى بغير التهديد والوعيد ؟

فتغلبت على اضطرابها وأخفت اصفرارها وراء قوادم مروحتها وفكرت سريعاً فى حالتها وما يوشك ان يعكر

صفو حفلتها

فعزمت على أمر وطنت النفس عليه

فقالت ألقاه فى مستنبت القصر فماذا عسى يريد منى

« أتراه ينحى علىّ باللائمة والشتم والاهانة ويجود علىّ بما توحى اليه غيرته العمياء ؟

« أو لعله يطلب منى نقوداً يحتاجها الآن ولا سيما بعد ما رأى هذه الحفلة الباهرة ؟

« أظن هذا ما يبتغيه منى ولا شك

وهكذا تاه رشدها فى الاقتراحات

على انها قالت مهما يكن من امره فلا اتردد لاننى أعرفه كما وصف نفسه ينجز ايعاده

فلما قرّ قرارها على ذلك سكن جأشها وعاود الابتسام ثغرها

وتنبهت الى ما يجب عليها امام المدعوين ولا يمكنها ان تتنصل من واجباتها . ثم انها يهمها ان تلتفت الى روبر ولا تهمل غرضها الوحيد

فرفعت بصرها الى ساعة معلقة على الجدار فقالت فى نفسها :

لا يزال امامى ساعة من الزمان

وارتعدت فرائصها لقرب وقت اجتماعها بذلك اللص السفاح

هذا والقاعات قد اكتظت بالناس فسرحت بصرها فى الحضور لعلها ترى نورتون بينهم فلم تجده

اما روبر دى سمروز فلم يفارق مكانه وعدّ نفسه وحيداً فى تلك الحفلة لانه غير منفرد بنينينا ولم يكن يرى سواها ولا يفكر فى غيرها

واذا بها قد جاءت فجلست الى جانبه

فلما رآها تدنو تصاعد الاحمرار الى وجهه كأنه تلميذ مدرسة في الخامسة عشرة من عمره لكنه تماسك وتجلد سريعاً

واذا بنغم رقص سمع على الآلات فأنقذه من الارتباك لان نينينا أمسكت ساعده بغتة وقالت له تعال .

وجذبته الى البهو حيث الرقص قائم على ساق وقدم بل

على سوق واقدام

فقال لها :

مابالك ... انني غير راغب في الرقص ...

فاجابته بصوت منخفض

انني اتوسل اليك ياروبر فلا ترد توسلي

فلم يستطع امتناعا فاندفعا بين جمهور الراقصين

وكان تأثير الرقص عليهما كتأثير الكهربائي وقد أسلمته قامتها الرشيقة الهيفاء فسكرا وحسبا از للموسيقى معاني خاصة بهما دون سواهما

وكانت ينينا باسمة ولاح لروبر انها يوشك ان يتساقط من فيها الكلام الذي وصفه الشاعر بانه يفتح ابواب السماوات

لكنها لم تتكلم .

بلى كانت تتكلم بعينيها بأفصح بيان وللكبر دلائل على وجهها وان لم تنس ذلك الموعد الذي شغل فكرها

وكان يناجيها بلحظاته وجبينه يكاد يلتهب بحرارة

يجهلها وأحس بقدرة عجيبة فلو كلف الرقص معها الى الصباح او الى الغد او على الدوام لما شكا تعباً !...

فلما انتهى النغم رفعت اليه بصرها شاكرة له اجابته اياها الى طلبها

وهي تعرف معنى تلك النظرة او نفوذها على العاشقين لما اودعتها من سحر وفتنة

فقالت له بصوتها الرخيم الرقيق :

الا تجد حاجة في نفسك الى استنشاق الهواء البارد؟

فانحنى امامها وهو طائر الفؤاد وخرج الاثنان من باب زجاجي يؤدي الى الحديقة

وكان القمر مشرقاً يملأ نوره الحديقة والقصر . والبحر الابيض امامها تتلألأ مياهه بذلك الضياء الناصع البياض الى مسافة بعيدة جداً يمتزج فيها الافق بالماء . فلايدري الناظرون هل نزلت السماء الى البحر ام صعد البحر الى السماء

فاستسلم اليها روبر حتى بلغت الشرفة التي تطل على ذلك المشهد البديع

فجلس بجانبها ووليا وجهيهما شطر الفضاء وقد استشعر روبر انفعالا شديدا .

اما هى فكانت على اتم السكينة لا تفكر الا فى استرقاقه واستعباده

فاستخدمت جميع الوسائل المصبية من محاسن رائعة حتى استعانت بالخليقة الجميلة والهواء العليل ولم تكن فى حاجة الى الاستعانة بغير بهائها الساحر لانه بهت امامها وبات كالجريح المصفد بالاغلال

وبعد سكوت قليل قالت له :

اتأسف لانك اجبت دعوتى ؟

فأجابها حاشا لله ان آسف على دعوة سيبقى ذكرها محفوراً على صحيفة قلبى الى الابد!

قالت اتقول حقا ؟.. . لقد سرنى اننى كنت سبباً فى سرورك ... ولكن اذا جاء الغد الاتنسى ؟

فاجابها ان مثل هذه الساعات لاتنسى ولايمكن نسيانها !

قال اذن فهل تعود لزيارتى فى وقت قريب ؟...

قبل سفرى

فاجابها بصوت يتجسم فيه الخوف والانزعاج فقال وهل انت مسافرة فى وقت قريب ؟...

قالت نعم ...

قال سرعان ماعزمت على السفر ؟

اجاب اننى ملول . . . ولذلك اسافر لعلنى استأنس بالسفر واسلو وحدتى ..

قال يسهل عليك ان تعالجى هذه الوحدة التى تشكين منها

اجابت فهمت مرادك ... فانت تعنى به الزواج مرة ثانية .. آه لوكنت على يقين من اننى اجد هوى صادقا لفعلت

وهنا سكت الاثنان .. وتفرست الارمنية فى وجهه فخفض بصره متهيباً ناراً تضطرم فى عينيها أو خائفاً من سهام لحظاتها وارتبك . فلم تحاول انتشاله من ذلك الارتباك بل لذ لها ان تراه فى تلك الحال

وانما يلذ للحسناء ان لا يتسرع العاشق المعجب

بمحاسنها فى اظهار تعلقه بها

والسكوت في مثل هذه الحال اوقع فى نفس العاشق فتركته ترن فى اذنه جملتها هذه

« آه لو كنت على يقين من اننى اجد هوى صادقا لفعلت ! »

ويردد لنفسه قوله اننى حاضر وهواى صادق...فما عليها الا ان تمد يدها لتقتطف تلك الثمرة الذهبية من الشجرة الابدية ! ..

وهب الهواء يحمل شذا الزهر

ووصلت اليهما انغام الموسيقى المطربة تنقل اسرار الهوى الكامن فى النفوس

فشعر كل منهما بان هنالك قوة تدنى كلاً منهما الى صاحبه

فانحنى أمامها خاشعاً طروباً وادنى شفتيه من شفتيها

فارتعش لكنها ظلت رابطة الجأش فلم تسترسل فى الصبابة والانعفاف استرساله

فقال لها وهو كمن فقد رشده :

ينينا ! ينينا ! اننى مفتون بك فهل تأذنين لى بأن أهواك ؟ ...

فلبثت فى موقف السكينة والثبات وقالت نعم ولكن متى صرت زوجة لك...ياروبر ... ويومئذ احبك بكل قوى نفسى ! .. تلفظت بهذه الكلمات بصوت منخفض خافت كانه صدى نغم بعيد

فتضعضع روبر وحزرت ينينا اضطرابه فلمعت عيناها فرحاً بالانتصار

وايقنت بانه صار عبداً لها طائعاً

فلم يبق الا ان تهيج وجده وتورثه ذكرى لتلك الساعة او الدقيقة فتوقد بها النار فى فؤاده كلما خطرت فى باله ..

فنهضت بخفة وتخلصت من ذراعيه وقالت لا يجب ان يوهى قوانا مانحن فيه من هناء ايها الحبيب ...يجب عليّ ان أفارقك الآن للقيام بما يجب عليّ لضيوفى.. الى الملتقى القريب ياحبيبي . . : فى ردهة القصر

ومدت اليه يديها الاثنتين فعكف عليهما يلثمهما ثم

مجنون ..

وانفلتت هاربة قبل ان يتمكن من الجواب فاختفت قامتها الرشيقة بين اشجار النخيل والليمون

فاتبعها نظره فلما غابت نهض وسار الى القصر وهو مطرق يفكر

فلما دخل الى القاعات رآها تجامل الناس بلطفها وتقضى واجباً بتلك المجاملة

وانما كانت فى الحقيقة تبحث عن جاك نورتون

ولا يمكن ان يدرى احد يراها وقتئذ والابتسام ملء شفتيها والبشر يتدفق من محياها ان وراء تلك البشاشة هماً يشغل فؤادها ويضيق عليها مذاهبها

ان وجود جاك نورتون فى بيتها والموعد المضروب لاجتماعها به ولا يمكن تتنصل منه الا باخطار تتعرض لها وعداوة هائلة لما يذهل ويروع

لكن لم يبد عليها أثر ينم على اضطرابها

وكانها لم تجتمع أيضاً بالمركيز دى سمروز ولا عقدت معه عهداً يتوقف عليه مستقبلها .

انها امرأة غريبة الاطوار قادرة على التحكم فى أعصابها كما تحكمت في دماغها وفؤادها .

فما عرف الناس الا انها فتانة خلابة ذات سلطان ..

هذا وروبر يتفرس فى شخصها ويزداد بها افتتانا

على انه لو وجد هناك رقيب يحسن المراقبة ودرس الاخلاق واستطلاع الظواهر كما يجب لرأى في ابتسامتها غرابة لا تترجم ولا توصف . ولو أن هنالك رجلا احذق من روبر وأدق نظراً لما خفى عليه ان ذلك الملك شيطان رجيم

هذا وجورج دى كانتابل ما فتىء يلاحظها فادرك تيهها وعلم شدة رغبتها فى ان تعجب وتفتن وتجنن ..

وايقن انها مخادعة درست صناعة التمثيل واتقنتها ايما اتقان.:.وان لا صدق ولا حقيقة فى ظواهرها وخوافيها وان فؤادها قد من حجر جلمد

فكان كلما عكف على فحصها ودرسها يقتنع بهذا الرأى فيها ويرى عليه دلائل ... ثم يشفق على رفيقه من شرها ودهائها

واذ ذاك نشأت فى الحضور حركة دلت على فضول

ثم سكت الجميع كأن على رؤوسهم الطير وقد رأوا ينينا قبضت على عود وجلست عازمة على الغناء

وكانما ادخرت أفضل ما عندها وخبأت للمدعوين ما يدهشهم اذ أحبت أن تسمعهم صوتها الحسن

فاتكأت على وسادة وأخذت تغنى غناء مرقصاً بصوت يطفح حماسة وجودة وكانت فى خلال تغنيها ترشق روبر بسهام من الحاظها كأنها تعنيه بما فى غنائها من معانى الحب والهيام

فصفق لها الحضور تصفيقاً حاداً وارتعد روبر ارتعاداً غريباً

وطرب جورج دى كانتابل نفسه عند سماعه ذلك الغناء الشجى ولم يستطع ان يحول بصره عن ينينا على الرغم من قوة ارادته وعزيمته ورأيه فيها

وكان يرتعش كلما رآها متجهة بلحظاتها الى صديقه روبر فغمغم يقول يالها من رواية غرامية معيبة تمثلها

هذه الفاتنة اللعينة !

ثم أخذ يتفرس فى نظراتها فاخذه الرعب لانه رأى لها معانى كثيرة متضاربة ولاح له ان هنا لك هاوية وقد انفتحت ثم انطبقت بغتة على فريسة وقعت فيها .

﴿ الفصل ﴾

دماء بين الازهار

فلما اتمت ينينا غناءها اقترب جورج من روبر لانه رآها فى حالة مزعجة واستصوب ان لا يتركه غارقاً فى تلك اللجة الغرامية

ذكر وعده للمركيزة دى سمروز . . . ولكنه شعر بصعوبة المناضلة تجاه ذلك الخصم ونعنى به غادة الشعر الذهبي

على انه لم ير بداً من محاولة ذلك والواجب قاض عليه به

فاجتذب صديقه الى الحديقة قائلا له :

تعال ندخن لفافة من التبغ فى الخارج

فنظر روبر فاذا بالبارونة تبتعد فقال حباً وكرامة

وكان متهلل الوجه ممتلىء الفؤاد بتلك الحبيبة المعبودة

ورأى انه فى حاجة الى التكلم عنها شأن كل عاشق متيم .

فلما وصلا الى مماشى الحديقة قال لجورج كيف رأيت هذه المخلوقة البديعة

اجاب جورج انها كثيرة الحسن !... ولكنها تخيفنى

فاستضحك روبر وقال يالك من ساذج ! . . هل يكثر الجمال على امرأة ؟ .. ولا سيما اذا كانت تهواك ؟

قال العلها تهواك انت ؟ ..

اجاب نعم وأنا اهواها ياجورج هوى كالعبادة واحلى أمنية عندى ان اغدو لها عبداً تتصرف بى تصرف المالك بالرقيق... وانما يكون ذلك اذا وفقت الى الاقتران بها ...

قال اتفكر فى الاقتران بها حقاً ؟. ما هذا الجنون !

أجاب ان المجنون من يصادف مثل هذا الحب وينبذه جانباً والمجنون من يعرض عن هذه المخلوقة البديعة .

قال يالك من صديق مسكين !. فهل تتجرأ على أن

تحمل والدتك على اليأس منك ؟.

أجاب والدتى ؟ انها لا تعترضنى فى هذا الزواج ولا سيما متى علمت ان سعادتى تتوقف عليه .

قال سعادتك !. الم تهتد بما قلته لك فى ذلك اليوم عن البارونه بولنسكا ؟

أجاب تلك احاديث قوم حاسدين واكاذيب وشاة نمامين !. وان امرأة توجها الله بالجمال الكامل لجديرة بان يكون لها اعداء وحسد.

قال سواء كان لها اعداء أو لم يكن فان هؤلاء القوم قد كشفوا خفاياها وعرفوا انهـا تصبو الى ثروتك واسمك لا الى شخصك

اجاب انك تضايقنى ياجورج فى ماتحاوله من قطع الصلة بينى وبين من أهوى ... فلا تزد

قال لقد فضلت مضايقتك الآن فذلك خير من ان تجلب لنفسك مصيبة لاسبيل الى تلافيها فيما بعد ...
أصغ الىّ ياروبر ياصديقى انى انا شدك الحب الوالدى ارجع عن هذه المرأة !.. فان خطرها شديد وسوف

ترديك !...

فصمت روبر ولم يحر جوابا وقد وقع هذا الكلام في نفسه وعلم ان هوى بنينا سم قاتل ... ولكنه لذيذ فهو يستطيبه!

فقال لنرجع الآن

قال جورج كلا فاننى لفى حاجة الى الابتعاد عن هذه الحفلة . واشعر بثقل هواء القصر وغلاظته حتى يعسر علىّ التنفس فيه لانه يهيج الدماغ والاعصاب

فوصلا الى مقربة من المستنبت وخمـائل الحديقة تظلله وتحجب نوره

فقال جورج هيا بنا نرى مجموعة الزهر

أجاب الامر اليك

واتجها الى تلك الناحية

واذا بجورج امسك ساعد روبر بغتة وخفض صوته قائلا انظر . انظر الى هناك !.

واشار الى موضع مظلم على بعد بضع خطى عنهما

فقال روبر ماذا يوجد هناك ؟

أجاب ألم تر شبحاً قد اختفى ؟

أجاب لا لم أر شيئاً

قال كأني به يطوف حول المستنبت فلما اقتربنا اختفى مبتعداً وكانه هارب

اجاب انك واهم والليل يريك ماليس موجوداً

قال اني اريد ان أريح ضميري .. واتحقق .. فتعال

واقتاد صديقه فدار الاثنان دورة حول المستنبت فلم يجدا ما يريب وكان كل ماهناك ساكناً هادئاً ولم يصل اليهما صوت غير اصوات المحتفلين في داخل القصر

لكنهما لم يكادا ينثنيان عند طرف المستنبت حتى انفرجت الاغصان وخرج منها رجل شاحب الوجه يتقد بصره حنقا وبغضاء وهو جاك نورتون

خرج محترسا غاية الاحتراس وتقدم الى داخل المستنبت وكان ذلك في منتصف الليل تماما

واذ ذاك سمع وقع خطى امرأة مقبلة وكانت تدنو فانتصبت امامه قامة هيفاء فقال ها هي قد اقبلت !

فقالت له :

ماذا تريد ؟

فاجابها على سبيل التهكم :

مهلا ايتها البارونة وخفضي عليك

قالت تكلم فان وقتي لا يتسع لمحاورتك

أجاب اما انا فلست على عجل من امرى ....

وشبك ساعديه على صدره وتفرس في وجهها بوقاحة لا توصف

وكان لابساً ملابس رسمية سوداء أما هي فلا تزال في لباس الرقص وأمارات الكبر والعظمة بادية عليها

فوجدها على مايعهد من الحسن وكأنها لا تزال في الثمانية عشرة وفي زمن رقصها في ملعب الحمراء في لوندرة

فتأملها مبتهجاً

لكنه مالبث ان نبذ التودد قائلا بصوت جاف :

اتيت لاناقشك الحساب على مافعلته بي

وخطا خطوة اليها فتقهقرت مذعورة وقالت بصوت منخفض :

اى استنجد وأستغيث فلا تدن منى

قال افعلى اذا شئت ! ! .. استنجدى بمن تريدين وها أنا انتظرك ...

فلم تناد أحداً

وبان لها ان ذلك الخليل القديم كان صادق العزيمة فلا يحجم عن الحاق الاذية بها والتشهير بها لانه يائس

فضحك مستهزئاً وقال أهنئك ايتها العزيزة بما أحرزت من الوجاهة فان مدينة نيس قد اجتمعت عندك الليلة . ولعمر الحق مثلك من تعد الحفلات وتصلح لاستقبال الامراء وذوى الالقاب

قالت ابق تهنئتك لنفسك فلست في حاجة اليها

قال هل تفضلين ان اقدمها للعاشق الذى اغريته بهواك اى لذلك الطالب الصغير الذى يطارحك الغرام ؟

فاشارت اشارة توقفه بها فقال لا تنكرى ما أقول فاننى مطلع على الحقيقة ولا معنى لما تحتجين به تنصلا من تبعة ما أتيت

قالت لا اتنصل من أمر ولا أنكر أمراً

قال لكن يوجد ما أجهله حتى الساعة وأود استجلاءه منك . أود ان اعرف اذا كنت تحبين ذلك الشاب المركيز ؟

قالت بعظمة :

وهل يعنيك ذلك ؟

أجاب ربما

قالت لا يحق لاحد ان يناقشنى الحساب على ما أفعل يانورتون ولا سيما انت

قال بل يجب عليك مع ذلك أن تطلعينى على الحقيقة

فرفعت كتفيها

فاسخطته هذه الحركة وقال ان احتقارك لا معنى له قط ! . فقد اوعدتنى مرة بان تفضحينى وتشى بى الى البوليس فيقبضوا علىّ بسبب الاعمال التى اتيتها وساقتنى الحماقة الى اطلاعك عليها وماذلك الا من شدة كلفى بك فبحت لك بالصة بسرى لاننى لم اشأ ان تكون بينى وبين من احببتها اسرار خافية .. اما الآن

فلك ان تشى بى الى البوليس اذا قدرت ! .. ولكننى لا ادع لك الوقت الكافى

فاجابته متجلدة قالت ما معنى كلامك ؟

فضحك ضحكا مغتصباً وقال آه منك ايتها البارونة حقاً انك ابرع ممثلة فى العالم حتى ليظن من يراك انك بارونة حقيقية منذ يوم مولدك

«عافاك الله فانك تصلحين للراويات المحزنة كما تصلحين للمضحكة وأنت بارعة فى الغناء براعتك فى الرقص وبذلك تجتذبين اليك كل من كان مثلى غبياً مغفلا !

قالت أما الآن فقد أصبت فى وصفك لنفسك

قال اصغى الى ماارید مخاطبتك به الآن .فاعلمى یاینینا ان الاقدار كتبت لنا الوئام وربطتنا معاً برباط واحد سواء اردت او لم . . وسوف نظل على هذا الارتباط دائما ابداً

فقال له بلهجة تدل على سأم وشفقة سامية

هل جئت الى هنا الليلة لتخاطبنى بهذا الكلام ؟

أجاب نعم وسيكون عملى ناتجاً عما يكون منك فاذا

اطعتنى كان خيراً والافشراً !

قالت كان فى وسعك اجتناب هذا التعرض لى فتقتصد على نفسك سعياً ومضحكا ولا نفع منه

قال سوف نرى اذا كان لا نفع منه كما تزعمين ! ..

وكانت لهجته عند ماتلفظ بهذه الكلمات عنيفة وقحة جداً . . . منذرة بالشر. حتى خامر الخوف البارونة فارتعدت فرائصها

وقد علمت ان الامر خطير ذو شأن وتذكرت قوله لاتحاولى أبداً ان تسيئى الىّ او تخالفينى والافضحتك فضيحة هائلة

« اذا خالفتنى وقفت فى وسط هذا المكان وناديتك على رؤوس الملأ واعلنت لهم أصلك وفصلك واظهرت حقيقتك وأبنت للجميع انك بارونة كاذبة زورت اللقب واختلسته لغرض فى نفسك وما انت الا رقاصة قديمة فى الشوارع ومغنية فى الملاعب .. اصيح بالناس فاخبرهم من انت وما شأنك الحقير واقص لهم قصتك الماضية على مرأى منك ومسمع ثم أقول لهم انك كنت

خليلتى ! ولا اكتفى بذلك !

« انت تعرفيننى وتعرفين اننى انجز ايعادى »

بلى فقد كانت تعرفه ولم تخف عليها خافية من جرائمه لأنه حدثها بخبره في ساعة ثرثرة ومفاخرة

اذن فيداه قذرتان ملطختان بالدم الذى لا تمحوه الايام ولا تغسله الاعوام والدم كما قيل أجلب للدم

اذن فجاك لا يحجم عن جريمة تعرض له ولا يتردد فيها

فتغلبت على انفعالها واضطرابها ونظرت اليه ملياً وقالت له :

هيا وقل كم تطلب منى ؟

اجاب كم أطلب منك !. وهل تجسرين على مخاطبتى بهذا الكلام ! . .

اجابت لقد تذكرت زيارتك الاخيرة لى فى باريس وغرضك منها فانا اسألك عن المبلغ الذى تطلبه؟

فهز رأسه وقال لقد تحول الحال وتبدل . أما أعمالى فهى الآن على ما احب واشتهى بل هى خير من اعمالك لانك خاطرت بكل ماتملكين وبذلت كل مامعك من الاوراق

المالية ... فهل بقى منها شىء لديك للغد ؟

فبهتت يذينا لأن جاك نورتون كان مطلعاً على شؤونها الخاصة ملما بما هى عليه من ضنك ويأس فلا ينفعها تظاهرها بالسعة كذباً لأنه يعرف حالتها تماماً ولم تخدعه تلك الراية المضحكة التى وضعتها لتخدع بها الفتى روبر دى سمروز

ذلك لأن الحقيقة ظهرت لجاك نورتون من وراء الشرفة الخادعة ولم تنطل الحيلة عليه . فهو يدرى ان البارونة بولنسكا مشرفة على الافلاس وانها اذا لم تفلح فى ما ترمى اليه ستضطر الى الفرار من موقفها الحرج

ولولا ذلك لما أتى بل لذلك أتى وفى نفسه شىء اوهو سالك خطة يعرفها

فقال بحدة وغضب :

كلا مالاجل النقود جئت الى هنا ولست بطالب صدقة واحساناً ولكننى قادر على التصدق عليك لو شئت فهل تفهمين ذلك ؟

أجابت لست بحاجة اليك

قال اذن فعندنا حساب آخر ننظر فيه ونصفيه

قالت ما هو ؟

أجاب انى شارح لك اياه . هل سألت نفسك يا ينينا عما جرى للعاشق الذى طردته من منزلك وقاطعته شر مقاطعة ؟.. ما أظن الا انك تذكرين ذلك ...

قالت نعم ولكن ...

قال ألم يدر فى خلدك اننى لقيت عذاباً شديداً واكرهت نفسى على ان لعنتك وشتمتك ؟.. ذلك ان لى قلباً يا ينينا ولست مثلك ... وقد شقى قلبى بسببك شقاء اليما وادماه اعراضك وتهكمك... ثم نسيتنى ولم أستطع ان انساك أنا!.. وعلمت انك تعشقت رجلا غيرى وانك عازمة على الاقتران به فجننت غيظاً والماً . . . وها أنا أتيت طالباً منك ترضية قبل انذار بانتقام

أجابت انى لاافهم معنى كلامك . ولا مرادك من الترضية

قال بل لست تريدين ان تفهمى !

أجابت انى حرة فى مافعله فلا يحق لاحد ان يراقب

شؤونى ولئن كنت لا أحبك ياجاك فليس من العدل ان لااحب سواك

فخطا اليها خطوة وصاح وصوته يتهدج حنقاً قال ويل لك !

فتقهقرت وتجلدت حتى لاتصيح من رعب

فقال لها بصوته الخشن :

آه لست تفهمين معنى كلامى ! ولا تفهمين مرادى ! ويك الا تشعرين بأننى اهواك . واننى أهواك دائماً على الرغم من احتقارك واهانتك اياى ... الاتعلمين اننى مادمت محباً لك فلا اعفو عنك ؟

فاجابته كفى ياجاك ! . . فلست بحاجة الى عفوك ...

قال هل انت تحتقريننى

اجابت لا فان فى الاحتقار عاطفة . . . ولكننى لا أحفل بك وانت عندى أقل من لاشىء !

قال احذرى منى ! . .

فاضطربت من لهجته الوحشية وعلمت انها قدازالت من فؤاده كل أثر للرحمة

فخامرها الخوف من اختلائها به بعيدة عن حفلتها ومدعويها ولا بد ان يكونوا قد لاحظوا تغيبها واندهلوا منه

وكان يحدق فى وجهها تحديقاً غريباً ولاح لها انها ترى فى عينيه دماً

الا انه استكان بغتة وهدأ ثائره ولم يكن هدؤه مبشراً بخير لانها ارتعدت لما رأته قد سكن على الرغم من جرأتها

وقد أخذ الرعب يتمكن من نفسها لانها رأت نذير الشر والاثم باديا فى عينيه فارتعدت خوفاً واستشعرت انفرادها كأنها فى اقصى ارض من المعمور وقد خلابها ذلك الوحش الضارىء الشرير وعدمت النصير وتعلقت حياتها على بادرة غضب أوغيرة تبدر منه

واقترب اليها أيضاً فالقى فى جهها هذه الكلمات:

لقد دار في خلدك أيتها اللصة اللئيمة ان نجاتك من يدى أمر يسير وان فى وسعك ان تنبذينى نبذ النواة او ترفسينى بقدميك بعد ما صحبتك واظهرت محاسنك

الخداعة وأغنيتك سنين . . ظننت انك قادرة على ان تطرحينى كما يطرح الثوب العتيق حالما تجدين عاشقاً جديداً ؛ .ألم تحسبي حساباً لانتقامى منك ايتها البارونة !

فلم تجب وقد عقل الخوف لسانها وتصبب العرق البارد من جبينها وانزوت جازعة شاعرة بحر انفاسه على وجهها

فقال أيضاً :

لقد أضمرت لك الحقد المخيف منذ ماطردتنى كما يطرد الخادم وجمعت لك فى قلبى قدراً كثيراً من البغضاء والعداوة ولا يوجد الا وسيلة واحدة أنسى بها ما فرط منك بحقى..وسيلة واحدة لا غير!

قالت وماهى؟

أجاب هى ان تعودى الىّ كما كنت قبلاً

قالت ذلك لايكون أبداً

قال من يدرى فربما تحتاجين الىّ أيضاً

فاستضحكت وقد زال ارتياعها لانه امتهن كبرياءها فعظم احتدامه وقال هيا وتدبرى أمرك معى . . .

فاننى احببتك حباً شديداً . . . وفعلت لاجلك كل ما يمكن ان يفعله عاشق ولهان !.: لقد أتيت أعمال المجانين فلا أستطيع ان أعيش بدونك ياينينا.. وثق ان هواك يمكننى من اتيان المعجزات.. فاتوسل اليك ان تعودى الى !..

وهنا رق صوت ذلك الوحش الضارى، وتجسم فيه الرجاء والالتماس

فكان يضرع اليها قائلا اناشدك الرحمة عودى الىّ!

فاجابته كلا ذلك لايكون ابداً !

قال اهذه كلمتك الاخيرة ؟... احذرى لنفسك منى!

فلم تجب لكنها خطت خطوتين لتفر من امامه وقد تولاها الارتياع فوصلت الى باب المستنبت وظنت انها نجت

لكنه ادركها بوثبة ورفع ساعده الايمن قابضاً به على مدية من الفولاذ وطعنها طعنة نجلاء وهو يهدر ويزمجر

فصرخت صرخة واحدة . . . وخرت على الارض فى مكانها مخضبة بدمائها

ثم فر جاك نورتون متوارياً بالظلام وانغام البيانو تملأ القصر والحديقة

الفصل الثالث

مانيلون والامبراطور

كان امبراطور الشحاذين لا يغفل السائلة الحسناء طرفة عين فاصبح بعدما صادف مانيلون يتحدث معها وهو متنكر بزى شيخ متسول مسهراً لها قلبه فلا يقر له قرار ويكاد يحصى عليها انفاسها حتى آل به الأمر الى ملازمتها ومنعها من الذهاب الى كنيسة نوتردام مرة أخرى كى لا تلتقى بذلك الشيخ

على ان المكان الذى يحازى باب كنيسة نوتردام كان أصلح مكان للاستجداء وانما أوجس برموش خيفة من مانيلون واقبل وحده يطوف بجوار الكنيسة فرآه بزى الشيخ الصعلوك مقبلا للتسول كما فعل بالامس

فلاحظه يرفع رأسه كلما وصل سائل جديد فتبدو امارات الاستياء على وجهه كمن ينتظر شخصاً لم يأت

فقال فى نفسه :

هيهات ياابن اللئام ان تجد السائلة ههنا فيما بعد فابحث عنها فى الارض أو فى السماء

وفي اليوم التالى عاد السائل الشيخ اى مانيلون واستمر يأتى فى كل يوم ثم أخذ يغير مواقفه وساعات حضوره وقد حزر ان شارلمان فطن له فلم يعد يجيز لنائلة ان تأتى الى هناك

لكنه لم يقنط ولم يعترف لخصمه بالغلبة بل جدد اهتمامه وعلل نفسه بالفوز فى الآخر ارادة ان ينجز وعده لوالدة الفتاة فيعيدها اليها

فقال فى نفسه :

لابد من ان ابلغ غرضى فانجى المسكينة من براثن ذلك الوحش الضارى، الذى يشغلها بالسؤال ويبيع ماء وجهها لاهل النوال . وانما يجب الاجتهاد والحذق النادر المثال . ولا سيما انه تنبه الىَّ وبات محترساً متحذراً عالماً بان ثمة عدواً يحاول اختطاف نائلة منه

أما الفتاة فلم تكن تخرج الا مصحوبة بشارلمان

فيختار لها مكاناً تقعد فيه وتستجدي وعينه تراقبها وجعل يقتادها الى الاماكن البعيدة عن كنيسة نوتردام ليقصيها عن الباحثين ويفسد تدابيرهم ويحبط مساعيهم

غير ان شارلمان لم يكن بادهى واحيل من الشرطى مانيلون

فاهتدى مانيلون الى آثار السائلة الحسناء بعد ماصبر صبراً جميلا وثابر مثابرة غريبة فلم يسأم ولم تفتر له عزيمة

نهض ذات صباح باكرا جدا فاقام على عطفة شارع الكوصونرى والليل لم تتبدد حنادسه ولا طردته طلائع الفجر فجعل يقول فى نفسه هل تبلغ القسوة من فؤاد ذلك اللعين برموش ان يخرج بالفتاة المسكينة فى مثل هذا الوقت والبرد قارص والثلج منهمر . على اننى أظنه أقسى قلباً من الجلمد

وكان قد أتى مراراً الى ذلك المكان ليراقب خروج برموش ونائلة من البيت فلم يفلح

لكنه جاء فى ذلك الصباح قبل الوقت والليل باسط ذيوله

فشهد نهوض الطبقة العاملة من الناس للسعى وراء أرزاقهم وابتغاء مكاسبهم وفيهم الباعة والبائعات يغتدون الى الحوانيت واسواق الخضار لشراء بضاعتهم من القرويين والقرويات الذين يفدون في اول النهار يحملون الى باريس الفاكهة والخضار من الضواحى والقرى المجاورة والحقول

وشهد العمال مغتدين الى أعمالهم ثم سيارات البريد وسعاته فمركبات الترامواى فالخدمة من كل حرفة ومهنة فكناسى الطرق

وبصر بين هؤلاء الكناسين بواحد منهم يكسح الاقذار امام المنزل الذى يقيم فيه برموش امبراطور الشحاذين ولكنه لا يتحول عن موضعه

لكنه مالبث ذلك الكناس حتي وقف وتغنى بانشودة يعرفها مانيلون وذلك عند مارأى رجلا قد خرج من المنزل ووراءه فتاة تتبعه

فلما سمع مانيلون انشودته انثنى اليه فبصر به مشيراً اليه فبادر فقال له :

العلك لوسيان ؟

أجاب نعم وها هما

قال من تعنى؟

أجاب برموش والسائلة الحسناء

وأشار اليهما وقد ابتعدا مسرعين وشارلمان يجر الفتاة وراءه بغلظة وخشونة

فقال مانيلون انى لاحق بهما وأما انت فاخلع لباس الخداع والحيلة وانطلق الى الديوان والبث هناك منتظرا فاذا احتجت اليك أرسلت اليك رسالة برقية

أجاب قد اتفقنا

وانطلق لوسيان ومكنسته على كتفه وسار مانيلون يتعقب امبراطور الشحاذين والفتاة نائلة

وكان برموش يسرع شيئاً فشيئاً كانه مستعجل للوصول الى غرضه

ولم تكد نائلة تقوى على مجاراته فى السير ولكنها كانت توسع خطاها على الرغم منها وهو يجتذبها بغلظ بقبضة كانها من حديد ويجرها فتتعثر عند كل خطوة فيشتم ويلعن ويقول

بصوت كانه فحيح افعى :

لقد تأخرنا عن موعد صلاة الفجر فالويل لك يالكاع اذا فاتك الكسب من الكنيسة فى هذا الصباح

وبعد ان سار بها على هذه الصورة مسافة طويلة واجتاز ثلاثة شوارع او أربعة اتجه الى الكنيسة الصغيرة المجاورة لخط السكة الحديدية البالغ فنسان

فوصلها ولم يكن قد اتى اليها فى تلك الساعة الا بضعة أشخاص ولم تقم فيها الصلاة بعد

فقال من حسن حظك اننا وصلنا فى الوقت المعين أما الآن فاتخذى مكاناً صالحاً والافضلية لك لانك وحدك فلا يزاحمك أحد.

وابتعد عنها بضع خطوات

وكان مانيلون يرصد هذه الفرصة فدنا من نائلة فوجدها منحنية مطبقة عينيها باسطة يدها وقد انهكها التعب فرقدت ويدها مفتوحة

وكانت صفراء اللون تلوح على وجهها الكآبة والسقم وتنم ملامحها على بؤس وحرمان ويأس . . .

فتأملها مانيلون بشفقة ظاهرة ثم لمس كتفيها فارتعدت فرائصها وفتحت عينيها خائفة ان ترى أمامها طلعة شارلمان المنكرة موجسة شراً منه مشفقة ان ينحى عليها بالشتم واللطم

الا انها اطمأن قلبها لما رأت مانيلون يبسم لها ويحييها بلطف ويقول لها:

لقد بكرت كثيرا يابنية...

فلم ترع الا انها استأنست بصوته واجابت نعم

قال الا تعرفينني ؟

فتفرست في وجهه وأجابت لا

قال ولكن اظنك تعرفين صوتي

قالت وكيف ذلك ؟

قال اذكرى ذلك الشيخ السائل الذى لقيته منذ ايام بقرب كنيسة نوتردام واطلعته على رسالة امك . . :

فاجابت عجباً ! .. العلك ذلك الشيخ ؟ .. كلا ويستحيل ان تكون ذاك ... نعم انى اذكر انعطافه علىّ وقد كان محسناً الىّ ... واين انت منه

قال انى اعرف سبب اندهالك ولكن لايخفى عليك امرى وانت تعاشقين امبراطور الشحاذين ..

اجابت نعم فانه يمكن التنكر ... وقد علمت من ذلك اشياء رأيتها مراراً

قال ذلك مافعلته أنا أيضاً ...

قالت ألست من المتسولين ؟

اجاب كلا .. وانما أنا صديق لك

واذ ذاك كان الناس يدخلون الى الكنيسة ولم يبق احد امام مانيلون والسائلة

فعطف عليها بعد ان نظر نظرة الى حيث اختفى برموش وقال لها بلطف :

اصغى الى واخبرينى هل تثقين بى ؟

فرفعت اليه بصرها اللطيف وأجابت من غير تردد نعم فان هيئتك تولى الثقة

فغمغم يقول نعم ان هيئتى تولى الثقة

ثم رفع صوته وقال يجب ان تصدقى ما أقوله لك وتفعلى ما اشير به عليك ... فاننى لااريد لك الا الخير ... بل

اريد ان اجمعك بوالدتك ...

فصاحت تريد ان تجمعنى بامى !. . أحقاً اننى اراها

أجاب ربما ..

قالت رباه هل يمكن ان يحدث ذلك ؟.. والدتى ... آه يا أماه !

وتبسمت وجرى الدمع على خديها وتهلل وجهها سروراً

واختفى الاصفرار من وجهها الشاحب وعلاه شيء من الاحمرار

فتناول مانيلون يدها واضطرب رأفة بها وحناناً وانشرح صدره لانه عازم على مبرة مشكورة

نعم فهو عازم على تنجية تلك الفتاة من جلاديها ومعذبيها وانتشالها من تلك الهاوية الجهنمية ليأويها الى عائلة صالحة فقال لها :

تعالى !... واسرعي واحذرى ان يفوتنا الوقت

قالت الى اين تذهب بى

أجاب الى مكان بعيد عن الرجل الذى يعذبك

ويستثمرك . . اولست راغبة فى تركه ؟

أجابت نعم اذا امكن ان لا يرانى فيما بعد . . . والا فانه اذا وجدنى لقيت منه أشد عذاب

قال اذا سرت معى فلا يراك ابداً ... وسوف تكونين فى مأمن فلا تصل اليك يداه

أجابت الى اين

قال الى منزلى.. فان زوجتى تعتنى بك وتحبك وسوف ترين من رقتها ماينسيك كل شجن ... ولكن ما بالك لاتنهضى اسرعى قبل ان يأتى شارلمان

أجابت هيا بنا !

وتناول يدها واجتذبها بسرعة فسار بها فى شارع دومسنيل الى ناحية محطة ليون

وأمكنهما الوقت من السير حتى عطفا الى الشارع واذا ببيرموش قد عاد وهو يمشى متثاقلا وعيناه حمروان . وانما عاد ليأخذ مااجتمع للفتاة فيتم سكرته التى بدأ بها

فلما وصل الى ساحة الكنيسة سرح بصره فلم يجد السائلة

فبلع ريقه وهدر وزمجر قائلا ياللشيطان ! فهل عميت اليوم!

وفرك اجفانه ثم قال لا يوجد أحد ! فليست هنا ! ما معنى هذا ؟

ولبث مرتاعاً

الا انه اطمأن بعد هنيهة وقال قد فهمت الآن

فلا شك ان البرد أصابها ولا شك ان اللعينة دخلت الى الكنيسة وهو يهمهم فبحث عن الفتاة من غير جدوى

ثم خرج وهو محتدم وقد اسودت الدنيا فى عينيه واستفاق من سكره وجعل يقول

ويل لها انها هربت !.. هربت وتركتنا !.. آه ماذا عسى تقول فيرجيني؟

وفى اثناء ذلك كان مانيلون ونائلة يسيران في شارع دو مسنيل

ولقد بحث مانيلون عن مركبته فلم يجد والمركبات لاتوجد فى مثل تلك الساعة والشوارع مقفرة والصبح

لم يكد يتنفس

فلما انتهيا الى شارع شايل رأى مانيلون ساعة محطة ليون فعلل النفس بوجود عربات هناك تنتظر قطار الليل

فقال للسائلة اسرعى . .من هنا

ولكن الفتاة المسكينة كانت خائرة القوى فأحس بارتخاء يدها فى يده فانثنى اليها فاذا بها مشرفة على الاغماء

فقال لها

ماذا دهاك ؟

اجابت لا ادرى ... انى ارى الارض تدور بى . . .

قال تجلدى قليلا .. فقد وصلنا .. ويجب عليك يا بنية ان تتجلدى ما استطعت فان أمامك هناء كبيراً ابشرك به عما قريب ...

فاجابت بصوت مرتجف .

واحسرتاه من اين لى الهناء

لكنها لبثت مدهوشة لانها لم يكن لها عهد بهذه الكلمة

فقال نعم وانه لهناء عظيم ... وساذهب بك الى لقاء امك ..

قالت الى لقاء امى ؟.. آه ما هذه السعادة ...

وخذلتها قواها عند هـذه الـكلمات وانما كانت فى حاجة الى الاستئناس بهذا الفـكر شيئاً فشيئاً حتى تصدقه

فاصفر وجهها النحيف اصفراراً شديداً وكاد يقتلها الفرح . لانها لم تـكن متأهبة له ومن فرح النفس ما يقتل فتخاذلت قدماها

فضمها مانيلون الى صـدره كى لا تقع على الارض ونظر اليها وهو منزعج جداً

فاذا بها قد اطبقت عينيها واغمى عليها

ويستحيل اسعافها بعلاج لانه لا يوجد أحد فى الشارع الخالى ... ولا يوجد حانوت مفتوح

وصعد الدم الى رأس مانيلون وحار فى أمره

فماذا يصنع ؟

فقال فى نفسه :

هل تعاكسنى الاقدار ياترى ؟

قد يجىء برموش واذا أدركهما خاب الرجاء ولاسيما

انه لم يبتعد بالفتاة كثيراً عن الـكنيسه

فشددت مخافته عزيمته فقال ساحاول حمل الفتاة على كتفى

ومانيلون على قصر قامته وصغرها كان عصبىّ المزاج وضاعف قواه رغبة في بلوغ الغرض وتنجية الفتاة

فاحتمل نائلة على ساعديه بقوة لم يكن يحسب انه حامل عليها ثم جعلها على كتفه ومشى بها مسافة طويلة

غير ان نائلة ذات ثقل او هى قوى مانيلون فتثاقلت خطاه ...

لـكنه استمر فى سيره الى الامام بعناد وامانة وثقة لاقترابه من غايته التى يقصد اليها

وللحال اصطدم برجل عند عطفة طريق وقد كان آتيا من الجهة المعارضة

فلما رآه ذلك الرجل قذف بشتيمة هـائلة وشعر مانيلون بساعد كالحديد يهزه وقائل يقول قد وقعت فى يدى يا نسل الفجار

وكان الرجل شارلمان.

وقد ساقه شعوره الوحشى الى طريدته فكشر عن نابه وزبد فوه واخذ يبرق ويرعد ثم انقض على الشرطى مانيلون

فانحرف عن الطريق متجنباً هجومه وللحال ايقن انه لايمكن ان يقاومه وهو حامل ذلك الحمل . وخصمه قوى العضل حر الحركات

لكنه لم يسلم نائلة بل دافع عنها مااستطاع

لكن برموش اتقدت عيناه وما زال فيهما أثر من السكر فصاح ويلك ردها الىّ والا ازهقت روحك!

وهمّ مانيلون بالفرار لعله يجد ماراً يستنجد به او شرطياً . . .

ولكن شارلمان لم يمكنه من ذلك فانه وثب اليه حتى ادركه وهو يضم نائلة الى صدره حتى يرد عنها ضربة من ضربات ذلك الوحش الكاسر

فرفع شارلمان يده بقطعة عظم خروف وجدها على

الارض وصاح بمانيلون تخل عنها والا فاننى اشج رأسك .

فانحرف مانيلون فلم تصبه الضربة ولكنه وضع الفتاة بلطف على الارض واسرع فوقف امام خصمه الهائل على قدم الحذر جامعاً قبضتيه

وكان برموش تردد شيئاً لكن لم تطل مدة تردده .

فتقهقر قليلا ثم مد يده الى جيبه فاخرج منها رصاصة مربوطة بخيط ثخين متين فامسك بطرف الخيط بعد مالفه شيئاً على كفه ثم ادار به يده فسمع للرصاصة صفير وارسلها بقوة وسرعة فاصابت مانيلون فى جبينه

فسقط الى الارض من غير ان يصرخ وكانما صعق فى مكانه

فضحك شارلمان وقال هذا نصيبك!

ولم يضيع الوقت عبثاً ولم يحفل بمانيلون وقد انطرح على الرصيف لكنه حمل السائلة وهى من غير حراك وانطلق بها الى شارع ليون وهو يجمجم الكلام ويقول

لقد لقى ابن اللئام جزآءه اما انا فقـد استرجعت الفتاة وما اظنه يرجع الى !

الفصل الثالث

مدرسة الشحاذين

بعد ثلاثة ارباع الساعة كان برموش يصعد الى منزله فى شارع الكوصونرى وقد صادف فى اثناء رجوعه مركبة فاستوقفها ووضع نائلة على ركبتيه وهى لاتزال مغمى عليها

فلما رأته فيرجينى راجعاً والفتاة فى تلك الحالة أخـذ الروع منها واستخبرت فقال لها لقد حاول بعضهم اخذ السائلة منى وهذا ماحدث!

قالت عجباً !

قال الامر كما قلت لك يا امرأة !

وحدثها بما جرى وما فعل حتى استخلص نائلة من الرجل وفيرجينى تضجعها على السرير

وبعد هنيهة قالت وكانها انتبهت الى أمر.

الا اخبرنى عن الرجل الذى تركته ملقى فى الطريق هل مات ؟.

أجاب ما اظنه مات

واسوف ينبئنى بالقصة ...

قالت ياللداهية هذا هو الحساب الذى اخشاه

قال انى لا اخشى او يأتى أحد الى هنا

قالت واذ ذاك يقبضون عليك والامر لايحتاج الى شرح وبيان بل النتيجة صحيحة كمجموع اثنين واثنين باربعة

قال برموش ومن اين للرجل ان يعرف عنوان هذا البيت

أجابت لاشك انه تبعك قبلا عند ماخرجت بالسائلة .

فحك رأسه وبعد سكوت قصير المدة قال ربما كنت على صواب ايتها العجوز ... وليس من الحكمة ان نلبث هنا

أجابت هذا رأيى فيجب الاسراع فى الذهاب بغتة ! . .

قال ولكن الى اين نمضى اذا فارقنا هذا البيت

أجابت لو ان صاحبة الحانة ديبو حية لطلبنا منها ملجأ لنا واقمنا عندها اياماً لكنها أصيبت بالموت الابيض (هو الموت فجاءة)

فاطرق برموش قليلا ثم رفع رأسه وضرب جبينه بيده ثم صاح قد اهتديت الى ما اريد

قالت الى ماذا ؟

اجاب الى المكان . فسوف اذهب بالسائلة الى مدرسة الشحاذين وانت تعرفين المنزل الذى يسكنه الشيخ سبتان فى شارع شربونيير قرب شارع المعبد . واما انت فالبثى ههنا لحفظ البيت

قالت هذا فكر حميد ولا يمكن ان يذهب الى هناك احد ليبحث عنك

اجاب نعم وهيهات ان يهتدى الى مكان ثم ان صاحب المحل صديق قديم لنا

قالت فيرجيني بفضول :

ومن عسى يكون؟

اجاب انه دفير الذى كان خادماً فى حانة ديبو

قالت هذا أمر غريب

أجاب لا غرابة فانه اقتصد شيئاً من المال عند العجوز ديبو وجاء فاستأجر ذلك المحل

فلمعت عينا فيرجيني حسداً وقالت يوجد اشخاص يخدمهم التوفيق

أجاب دعينا من هذا فالرجل صديق لنا ... وهو لا يبيعني على كل حال لانه اخ لى ثم انك تعلمين ان هناك موضع اجتماع جمعية الشحاذين والعجزة فاذا اقمنا عنده كنا كمن يقيم عند قومه

واذ ذاك سمع الزوجان صوت تنهد فقالت برموشة .

لقد استفاقت السائلة

قال اذن لا بد من أخذها معى الساعة

قالت اتظنها قادرة على الذهاب معك

أجاب لا بد من ذلك والا خفت ان يتبعنا اذا تركتها هنا

قالت صدقت ... فان اللصة لا تتأخر عن ذلك

وكانت نائلة قد استفاقت وفتحت عينيها على مهل .

فغمغمت تقول اين أنا ؟

فاجابها شارلمان في شارع الكوصونرى ولكنك ايتها الكسول لا تلبثين هنا دهراً طويلا لاننا متأهبون للرحيل من هذا المكان

ففتحت عينيها تنظر مدهوشة خرساء :..

ولم تفهم معنى ذلك .

فانها اجتهدت فى ادراك ما هى فيه ومعرفة ما نجم عن الحادثة التى مرت بها قرب محطة ليون

وودت أن تعرف الزمان الذى مر بها حتى تلك الدقيقة وما جرى في خلاله وما جرى أيضاً للرجل المجهول ... منقذها السرى الذى جسم فى روحها صورة والدتها حية حنونا تدعوها فى كل دقيقة

فلم تهتد الى شيء مما تروم بل قالت كل ذلك لم يكن

الا حلما .. فان مثل ذلك الهناء لا يمكن أن يتم لمثلها!
وحسبت ان أمنيتها الوهمية صورت لها ذلك المحال لرسوخه فى نفسها فتوهمته حقيقة

ومع ذلك فقد رأت.. وسمعت ...

على انها شق عليها بعد ذلك الامل الذى تعلقت به أن ترجع الى مغارة اللصوص ويحيط بها الجلادان المكلفان تعذيبها

واذا بصوت برموش الابح قد أخرجها من تأملاتها

فكان يقول لها بلهجة تهديد مخيف :

هاها لقد عزمت يا لكاع على مفارقتنا فويل لك منا ولئن عدت الى مثلها او عاد اليك الرجل الذى تعرض لان يحميك لاقتلعن عينيك واهشمن اعضاءك وأفعلن به مثل ذلك يالصة !

وشفع هذه الكلمات باشارة وعيد

فارتعشت نائلة

فتقدمت برموشة اليها واكرهتها على الوقوف قائلة انهضى سريعاً !

فاطاعت وقد عظم اصفرارها وضعفها وان افادها اغماؤها

فالبستها فيرجينى ملابس غير تلك الا انها ارثمنها بحجة انها لا ينبغى لها الابصار لما فى ذلك من الخطر

فانقادت اليهما نائلة صاغرة خائفة

وقد فقدت كل بسالة وثقة واصبحت لا تحفل بشىء

تعرض لها رجل ودّ انقاذها من تلك الهاوية فلم يفلح . . اذن فهلاكها محقق ولا رجاء لها بعد اليوم

وبعد هنيهة سارت مع شارلمان الى الموضع الجديد الذى اختاره الشقىّ لها

***

كان مقر مدرسة الشحاذين فى شارع شربونيير والبيت حسن الظاهر على بابه هذا العنوان

« الى الملتقى »

الى اى ملتقى ؟ .. والى ملتقى من ؟..

ان العنوان خال من الجواب على هذا السؤال

وكأن صاحب المحل لجأ الى هـذا العنوان ليكون حراً فى اختيار ما شاء من الاعمال فى داخل محله وانتقاء من أراد من الوافدين عليه ليتخذوه مجلساً أو مقاماً

وحاصل القول ان الطبقة الاولى منه تتألف من غرف اجرها صاحبه قوماً من عمال شارع المعبد والحوذيين والخبازين والبنائين

بقيت الطبقتان الثانية والثالثة فهاتان يأوى اليهما عملاء للمحل سوف نلم بخبرهم وفى الطبقة السفلية مكتب صاحب المحل وقاعة كبرى متصلة بغرفة المكتب وفيها طاولة وخزانة للزجاجات ملاى بها

وفى تلك القاعة قد أعد مجتمع للشحاذين والعجزة من رجال ونساء فالفوا جمعية ذات نظامات او لجنة للدفاع عن مرافق طائفتهم

الى هناك دخل امبراطور الشحاذين في نحو الساعة العاشرة ونصف صباحا مصحوبا بالسائلة الحسناء

فنهض لاستقباله رجل كان جالساً الى مكتبه وحياه فردّ له تحيته

وكان الرجل دفير بعينه أى الخادم الذى كان يستقبل قبلا فى حانة العجوز ديبو

وقد أصبح رئيساً للجنة الشحاذين فى باريس فصافح برموش مصافحة اخوية فقال له :

كيف حال الاشغال ايها الصديق ؟

قال : يالك من رجل موفق ! . . ولا شك عندى انك ورثت مالا . . . او ربحت النمرة الكبرى

فاجابه على ما أحب وقد تم لى ما كنت اشتهيه من الحصول على محل مختص بى والحق يقال ان هذا المركز يولى الانسان شيئاً من الكبرياء ؟

أجاب بل وفقت الى الامرين معاً !

قال عافاك الله ايها الرفيق ولعمرى ان ذلك يوجب عليك ان تقدم لى كاساً من الخمر الجيدة ..

أجاب حباً وكرامة يامسيو برموش

وللحال مضى الى خزانة فجاء منها بزجاجة وثلاثة

اقداح ورجع الى مكتبه فصب من الزجاجة شرابا احمر
وهو يقول انها ذوب الياقوت !

فشرب برموش كاسه بلحظة وتناول الكاس التى قدمها
دفير للسائلة قائلا انها ليست بحاجة الى الخمر ولا تنفعها

على ان نائلة لم يخطر في بالها مطالبة بحقها من الشراب
وقد جلست فى زاوية صامتة منتظرة اوامر سجانها
مبتعدة عنه ما قدرت

فقال برموش مخاطباً دفير :

احقا ان العجوز ديبو ماتت ودفنت منذ ايام ؟

فأجاب دفير نعم واأسفاه عليها وقد اسفت كثيراً
لانني لم امش فى جنازتها كما كان يجب على ...

قال أين كنت يومئذ ؟

أجاب فى الريف ... لاشغال تتعلق بقومى هناك

قال لقد وددت الذهاب الى هناك أيضاً والتشبه بغيرى

قال دفير لماذا ؟

أجاب للاعتناء بهذه الابنة ..

وأشار الى نائلة

ثم خفض صوته وقال قل لى هل تستطيع ان تسكنها عندك

أجاب كيف لا

قال وانى اطلب السكن عندك أيضاً معها

أجاب ان الامر يسير فعندى غرف فوق ويرقد فى
بعضها بعض الشحاذين من تلامذتك يامسيو برموش

قال احسنت فانا استأجر غرفتين الواحدة لى والثانية
لها .. فكم الاجرة

اجاب اثنا عشر فرنكا ونصف فى الشهر أو سبعة
فرنكات في خمسة عشر يوماً

قال ليست الاجرة بغالية

قال دفير والدفع عاجلا فدفع اليه شارلمان سبعة فرنكات
وقال اليك الاجرة عن خمسة عشر يوم

قال دفير اذن أجرت لك الغرفتين نمرة ٢ و ٤ فى الطبقة
المجاورة للقمر والسطوح فهل يسؤك ذلك

أجاب بل، انا افضل الاماكن المرتفعة

قال يالك من دجال !

قال شارلمان ليس هذا كل ماابتغيه منك بل اودان

تكتم خبرنا كانك لم تسمع بنا ولم ترنا

أجاب فهمت

قال يوجد لذلك اسباب كما تعلم

فاجاب دفير ان للفؤاد اسباباً لا ينبغي التعرض لها وهي جملة قرأها دفير على أعلان عن أحد الملاعب

وفي ذلك المساء بعينه اوى شارلمان ونائلة الى الغرفتين بعد ان انتحلا اسمين كاذبين تقيدا في سجل المحل

وايقن زوج فيرجيني انه أصبح في امن ودعة لان ذلك المكان ممتلىء بالسكان من كل صنف وكانه في منزله وبين أهله وبين الساكنين نفر من زملائه وتلامذته الذين يرأسهم دفير في لجنته .

ودفير لم يستطع ان يجد عملا افضل ينتفع به بثلاثين الالف فرنك التي سرقها من العجوز المسكينة

وقد خطر له بعد ارتكاب تلك السرقه الشنعاء ان يفر الى الاقطار الخارجية

ولكنه قال في نفسه ان رجال الشرطة في الولايات وعلى الحدود مهرة حاذقون فخشى أن يقبضوا عليه في وقت

قريب

والرجل الذي يسافر سريعاً يكون كأنه هارب واما المقيم في مدينة حافلة بالناس كباريس فقلما يهتدى اليه ولذلك فالعاصمة خير البلاد التي يأوى اليها الاشرار

فلم يفارق العاصمة لكنه بدل موضع الاقامة فيها وانتقل الى حي آخر من احيائها من غير ان يلفت اليه الابصار

فالقى العصا في حي بعيد عن الحي الذي كانت فيه العجوز ديبو ثم تلقى نبأ موتها

وقيل له انها توفيت فجاءة وكانت وفاتها طبيعية

أما عن صابوريو فلم يتلق خبراً جديداً

وهكذا رأى ان الاتفاق خدمه اجل خدمة وانه قادر على التمتع بالسرقة كما يريد من غير رقيب

ولم يحسب اقل حساب لشريكه في الجناية وانما رأى انه انتقم لنفسه منه بسبب القسمة الصغرى التي اختصه بها يوم ضرب جعلا على المركيز دي سمروز فلم يعطه ما يستحق

ثم عنت له فكره حسنه وانتهز فرصة وجود ذلك

الفندق معروضاً للبيع وسره ان له عمـلاء وشهرة فى الحى

فاشتراه

ورأى ان كثيرين من الشحاذين يترددون على الحانة فاستأنس بهم لانه يعرفهم جميعاً من عهد اجتماعاتهم التى كان يراها منعقدة عند العجوز ديبو برئاسة الشيخ برموش امبراطورهم

وبين أولئك الشيخ سبتان وهو الخياط الشاعر مؤلف أدوار الغناء للمتسولين

وبينهم متسول آخر مشهور عندهم وهو فتى اسمه فيلوش يقضى سحابة النهار طائفاً فى البلد يجول وينادى بصوت محزن فيقول انه بكر اخوته الستة وان والديه عاجزان عن الكسب لمرض اقعدهما فى البيت فالبيت خال من القوت !

وفيهم الشيخ فيرلو وهو مقتنى صغار الاولاد يقدمها للمتسولات فتدعى من شاءت انها أم مسكينة تريد أن تقيت ابنها ولكنها لا تجد له طعاما ففتح لمثل هاتيك

النسوة أبواب المركبات الفاخرة وتنهال عليهن الصدقات منها ..

ولا يوجد للشيخ فيرلو نظير يحسن مثله تعليم الصغار الانين الجارح الذى يفطر الافئدة وبذلك يرقب قلوب المارة ثم انه ماهر فى احداث جرح على ساعد غلام ويستخدم لذلك خرقا قذرة يعصب بها الساعد بمهارة بعد ان يلطخها بالدماء

والشيخ فيرلو مستعد على الدوام لخدمة الراغبين فى الشحاذة الذين يصبون اليها وهو زميل للشيخ برموش ولكن أهم شيء يعمله هو تأجير الاولاد ويسكن غرفته بجانبه شحاذ آخر أو أستاذ آخر كان فيما مضى تلميذاً لبرموش لكنه نبغ حتى ساوى استاذه لانه كان أقدر منه فى التحرير والتحبير ولذلك حصر صناعته فى انشاء الرسائل الموجعة المبكية وكان يبيع الرسالة بخمسة فلوس للراغبين وذلك حسب بلاغة انشائها أو طولها

ولم تفته جلسة من جلسات برموش وكان يومئذ قد نزل الى قاعة الفندق وقد انهمك في وضع رسالة لامرأة

رثة الثياب تنتظر منه اتمامها واليك صورة ما كتبه فيها لتكون ايها القارئ ملما بحيل اولئك الشحاذين :

« أيتها السيدة

« أسعدك الحظ بملك تمددينـه على مهده اللطيف وهو ملك يتبسم لك ويمنحك هناء كبيراً ... أما انا ويح نفسى فانني عاملة فقيرة لا عمل لى ولا صحة لى قد الحى علىّ البؤس وفقدت قومى وخلابيتى من كل شئ ، الا طفلا صغيراً ينام على فراش حقير

« ولقد ابت بائعة اللبن ان تبيعنى شيئاً من اللبن لاغذى به ذلك الطفل المنكوب فويل له من ولد عزيز لا أدرى ما يصيبه اذا لم تتداركينى بانعطافك او لم تمدى الىّ يد المحسنة الكريمة

فلما انتهى من كتابة الرسالة باعها من تلك المرأة فانطلقت بها مسرعة الى الشيخ فيرلو تستأجر منه طفلا تّمم به حيلتها اذ ربما تّحاول المحسنة تحقيق أمرها ... ولا شك ان تلك الرسالة تصل فى ذلك المساء بعينه الى عائلة غنية تّحتفل بتنصير مولود جديد

والجواب يأتى بالعجل مصحوباً بحـوالة على البريد وقد تكون الحوالة كبيرة بفضل هذه الروايه الحاملة على الشعور . ذلك لان الامهات اذا شعرن بفرح يرون الافاضة منه على غيرهن

ودنا برموش من كاتب الرسايل فاملى عليه رسالة شرح فيها ضنكا شديداً لارملة محسن شهير قرأفى جرائد الامس خبر وفاته في الجرائد

واليك ما كتبه الـكاتب من املاء شارلمان امبراطور الشحاذين :

« لقد كان زوجك رحمه الله واجزل ثوابه كثير الاحسان الىّ يعدل احسانه كتمانه

« فانا ابكيه معك لانه كان اكرم نصير لى على الدهر واكبر مسعف لى على اعالة والدىّ العاجزين »

وقرر بوموش ارسال نائلة بعد ظهر ذلك اليوم الى منزل الميت وعلل النفس بليرة تأتى بها من هناك لان ارملة المحسن واولادها لا يضنون بمثل تلك الصـدقة المقدسة

وسره هذا الخاطر فامر باعداد طعام الغذاء

فاستعجل دفير استعجالا دل على احترامه لامبراطور الشحاذين

اما نائلة فارسلت الى المطبخ لتأكل صحفة من الحساء

وجلس دفير الى مائدة شارلمان فاكل معه

وفيما كان يصب له الخمر قال له اخبرني هل رأيت صابوريو ؟

اجاب من ؟... اى صابوريو

قال الا تعرفه

اجاب كلا

قال بل تعرفه حق المعرفة وقد كان يجيء الى حانة العجوز ديبو فى كل يوم مراراً

قال لعلك تعنى به شبيه رودين الوارد وصفه من اليهودى التائه ؟

أجاب نعم هو بعينه

قال لم اره ... فهل من حاجة لك به

فبادر دفير الى الجواب يقول كلا !.. وانما سألتك

لاعرف وليس لسؤالى ادنى اهمية

غير ان اشتغال فكر دفير بهذا الامر كان ظاهراً من تسرعه فى نفى وجود الاهمية لسؤاله لكن فات برموش الانتباه اليه لانه كان منهمكا فى طعامه

فقال دفير وددت ان أريك محلى وانت تدرى يامسيو برموش اننى ازاحمك فى الصناعة لاننى رئيس لجنة من الشحاذين

أجاب شارلمان وفمه ملآن:

ذلك خير للحرفة مهما تكثر المجتمعات والمدارس للشحاذين زادت الحاجة الى الاساتذة

قال اصبت

قال برموش وعلى كل حال فذلك لا يضرنى لان حانة ديبو قد اقفلت وسوف اجيء الى هنا فاعقد جلساتى

اجاب دفير اهلا وسهلا يا صاحب الجلالة !

وحياه كما يحيي الامبراطور

ثم قال هيا بنا نصعد ؟

اجاب هيا بنا

قال سوف ترى النظام الذى انشأته هنا!...واعرفك بالمسيو انطونين استاذ الحى

فصعدا الى الطبقة الثانية

وهناك غرفة واسعة كان المسيو انطونين يلقى فيها دروساً على اثنى عشر تلميذا محيطين به

فقطع دفير الدرس ليعرف الاستاذ بامبراطور الشحاذين ثم عاوده المسيو انطونين قائلا ان الجلسة تستمر منعقدة

والمسيو انطونين يستحق ان يوصف . فقد كان ممثلا فى الارياف ولطالما استحسن القرويون تمثيله ولكنه وجد تعليم الشحاذين للغناء وتدريسهم على الاشارات والحركات التى توافق معانى الاناشيد وانغام الادوار أوفر ربحاً له واقل عناء

وهو قد تجاوز الستين من عمره لكنه كان يلبس رداءه الاسود الخارجى متقن الهندام ويعتنى اعتناء كبيراً بشعره الطويل الابيض وربطة قميصه

فلما وصل شارلمان ودفير كان انطونين يلقى أهم ما فى محاضرته وامامه امرأة صبية شقراء حسناء على الرغم من ذبول عينيها

فقال لها اقتربى يافين

وتناول قلم رصاص ملوناً فوضع به علامات على وجهها وجبينها وجعل به لون اصداغها أزرق كما اذبل وجنتيها ورسم به على طرفى فمها فغير ملامحها واكسبها هيئة تدل على فقر مدقع وضنك شديد

وللحال صارت كأنما زاد عمرها عشرين عاما وكأنها مصدورة فى الدرجة الثالثة من درجات الداء الوبيل وعلى وجهها نقاب المنية مسدول

ثم علمها كيف تمشى منحنية الكتفين وكيف تسعل وكيف تستعطى

ثم تقدم اليه آخرون

ومنهم شاب صيره شيخاً نال منه الكبر وفتى قوى العضلات جعله اكتع اشل وحول بصيراً الى أعمى يتعثر فى مشيته

وكان يضرب لهم الامثال فى نفسه فيعلمهم كيف

ينبغى الظهور فى مظهر الذليل عند النظر الى النوافذ ويشخص لهم ادوار الكسيح والاعرج وسائر ذوى العاهات

وعنده بضاعة تصلح لكل ذلك من شعر وعصى وثياب يكريها أولئك الناس

واكثر ربحه ناجم من اجرة هذه الاشياء

واتم انطونين الدرس بتعليم غلام اضحاك الناس

فانه لقنه اغنية مشهورة عندهم وعلمه كيف ينشدها ويصحب كل دور منها بالحركات

فقال برموش فى نفسه

ان للسائلة الحسناء صوتاً رخيما فما يضرنى لو غنت في الشوارع وللحال عرض فكرته هذه على انطونين وجاءه بنائلة

ولكن الاستاذ انطونين لم يسبق له تعليم الفتيات ولم ينشىء لهن مايجب فذكر برموش ان الشيخ سبتان مقيم هناك فعهد اليه بوضع انشودة مؤثرة

وقال انطونين متى حفظتها امكنها فى يومين فقط

ان تجول فى الشوارع وتفوز بنجاح مدهش وسوف ترى اى غنيمة تنالها واذ ذاك تغتبط لان فى حلقها ثروة جسيمة . . .

الفصل السابع

مانيلون

نعود الى مانيلون وقد غادرناه طريحاً على أثر الضربة التى تلقاها من برموش فاقداً كل حراك على رصيف شارع ترافرسيير

وما لبث حتى مرّ به جماعة فرأوه واخذوه ينبهونه وينادونه

فقال أحدهم لعله نائم هنا ؟

أجاب لا شك انه شرب فوق ما يستطيع فأضاع صوابه

ودنا آخر منه فقلبه ومدت اليه الايدى تهزه ليستفيق الى ان قال بعضهم ها قد استيقظ وتحرك

فانحنى آخر عليه وقال انى أراه مجروحا . . وعلى وجهه دم ...

وقد سال الدم على جبين مانيلون حتى وصل الى حاجبيه

فقال أحدهم قاتل الله اللصوص الاشرار فكل يوم لهم قتيل أو جريح أو سليب . . لقد ظلمنا الرجل أو حسبناه سكيراً

فاجابه آخر يجب علينا أن نسرع فى اسعافه

وكانوا جماعة من الحمالين ذاهبين الى محطة ليون فحمله اثنان منهم الى القسم الاقرب

فلما وصلوا به كان قد استفاق مستشعراً ألماً شديداً فى رأسه . غير ان الرصاصة التى رماه بها برموش لم تحدث له جرحا بالغاً وانما هو جرح يسير أمره اصاب الجلد فقط ولم يصب الجمجمة بأذى

ذلك ما أوضحه الطبيب الذى جاء به احد الشرط

ثم جاء كاتب المعاون فاراد ان يحرر محضراً فاستوقفه مانيلون واطلعه على بطاقته قائلا لا تلح علىّ ايها الرصيف فى الاستنطاق فان القضية تتعلق بوظيفتى ويمتنع علىّ ان اتكلم عنها

فانحنى الكاتب امامه مذعناً . فضمدوا له الجرح في اقرب الصيدليات وركب عربة الى منزله فى شارع كوصونزى

وقد تاججت نار السخط فى فؤاده على امبراطور الشحاذين كما خامرته الرحمة ورثى لنائلة المسكينة فقال والهف نفسى عليها ماذا يجرى لها الآن ؟

لكنه لم يطل وقوفه فى موقف الرائى فان الشفقة فضيلة لكنها لاتفيد اهل العمل والاقدام فعول على الاخذ بالثار وتنجية السائلة

فقال لا بدّ من انقاذها من مخالب ذلك اللص الشرير مهما جرى ولا بدّ من تحطيم قيود العبودية التى قيدها بها ولو خاطرت بحياتى كما خاطرت بها فى سوق الشفقة لانقاذ أمها المركيزة دى سمروز وكما خاطرت بها اليوم

ووعد نفسه وعداً صادقاً وحلف يميناً معظمة عنده

ولما رأته سيجاريت عائداً اليها بجبين معصوب قلقت لكنه حملها بكلامه على الطمأنينة وحدثها بما كان من اختطاف الفتاة وحبوط مسعاه بعدما أوشك ان يفوز

وكانت لهجة الاسف الشديد لهجته عند ما تكلم على امكان فوزه ووصف لزوجته السائلة الحسناء وصفاً مسهباً الى ان قال انها ملك كريم لها عينان تجتذبان برقة نظراتهما الكئيبة بل هى زهرة بديعة الجمال اما صوتها فهو ارق الاصوات وسوف ترينها فى وقت قريب ..

قالت هل تظن ذلك ؟

أجاب بلا شك وقد آليت على نفسي ان انقذها من ذلك الجلاد العاتى وسوف نستبقيها عندنا ريثما تجىء امها فهل توافقين على ذلك

فدمعت عينا سيجاريت واجابت آه كم تسر امها اذا رأتها ولكن هل انت على يقين من انها ابنة المركيزة ؟

اجاب انى اراهن وبين الفتاة وامها مشابهة مدهشة وسوف تحكمين متى رأيتها . . . ولو لبست السائلة الحسناء مايلائم حسنها من الملابس لكانت فتنة الرائين ولم تؤثر الفاقة على جمالها . ثم اننى وجدت معها رسالة كافية للدلالة على ابنة المركيزة دى سمروز

كان مانيلون يتلفظ بهذه الكلمات بصدق وحمية واحترام وقد احس بانعطاف حقيقي على نائلة ناشيء عن شفقة واعجاب كمن يعجب بالزهرة النادرة التي يصادفها مطروحة على قارعة الطريق

وزاده رأفة بها انها لقيت الذل والمسكنة والعذاب وان عليه لوالدتها دينا يجب قضاؤه

وهو دين بعيد الاجل ينتهي عهده الى عشرين عاما ولا يزال مقيداً على صحيفة قلبه

ذلك دين انه لم يفعل شيئاً ولم يحسر على امر من شأنه ان يمنع جاك نورتون من الفتك بوالد جيلبرت . وانما تركه يقتله ...

ذلك دين مانيلون وذلك ذنبه

اما الآن فهو يبذل روحه اذا وجب ليرد الى تلك المرأة المسكينة ابنتها المحبوبة التي بكتها دهراً !...

ولاح له ان وراء ذلك سروره وكبرياءه وصيته...

واعتنت سيجاريت بزوجها فغسلت جرح جبينه ولم يكن له الا اثر خفيف قرب الصدغين

واقترب مانيلون من المرآة ينظر الى جرحه فقال لا بأس فان الشقي ابقى على وجهي اثراً ولو مالت رصاصته قليلا لاوردتني مورد الهلاك !

وبعد ان استراح شيئاً ذهب الى ديوان الضبط حيثما اتفق مع لوسيان على الاجتماع

فقال له :

انني لا ازال انتظر رسالتك

فاجابه لقد اصابني ما اصابني كما ترى

واراه الجرح ثم حدثه بما كان

فقال لوسيان آسفاً .

كان يجب عليّ ان اصحبك وقد حدثتني نفسي بذلك حينما اتبعت خطوات برموش والفتاة ولكن خشيت ان يلاحظنا اللئيم ...

قال قضى الامر وجرى ما جرى فلا معنى للتندم يجب علينا ان نصبر والفوز لنا في الآخر

وفي تلك الدقيقة استدعاهما رئيس الديوان فقال لهما اني محتاج الى رجلين حاذقين ومن اولي العزم والحزم

فاجاباه معاً بصوت واحد قائلين لبيك أيها الرئيس فماذا تطلب بنا !

قال اليكما البيان لقد اتصل بنا ان عصابة من اللصوص وهى فرع من شركة اللصوص العامة قد أخذت فى هذه الاثناء على عاتقها نهب المسافرين فى القطر المتقنة التى تسافر بين باريس ونيس

ويبلغ عدد رجال العصابة اربعة او خمسة منهما اثنان خطرهما اشر وضررهما أشد ولم يصدر عليهما حتى الساعة أحكام وليس لهما سوابق ونظن انهما يدعيان جاك نورتون وصابوريو ...

فقال مانيلون فى نفسه :

جاك نورتون !... جاك نورتون !..

فقال الرئيس أما الاول أى احد هذين اللصين فانه مريب جداً والمظنون انه من زعماء جمعية اللصوص العامة التى ترتكب المحرمات فى جهات ريفيير

وقد اهتدى الى طريقة شيطانية باستخدامه لصوصا مهرة فى نيس والمدن المجاورة لها منهم يرتكبون

السرقات العديدة . . ويقدمون على جنايات القتل . . .

فغمغم مانيلون يقول ويح اللصوص !

قال الرئيس انما تعلمان كيفية عمل اولئك اللصوص في الفنادق . ذلك ان اللص منهم يختار فندقاً كبيراً فيدخل اليه ويجتهد حتى يخفى بين جمهور المسافرين

« فاذا جاء الليل لبس ثياباً سوداء وتبرقع بنقاب من حرير اسود يحجب به وجهه واتخذ له سلاحاً اسفنجة مشربة كلوروفورم وجلد نوع من الخنكليس ملآن رملا وخرطوقامن رصاص ثم يدخل الى حجرة الشخص المراد سلبه عند ما يرقد فيثقل نومه بالمادة الافيونية ويعمد الى السرقة مطمئناً آمنا فاذا استيقظ الشخص قتله بذلك السوط ... واتم عمله بعد ذلك غير خائف ولا وجل

وبعد هنيهة قال الرئيس .

ولقد علمت ان نورتون هذا قد استخدم بعض اللصوص على هذه الطريقة فادخلهم الى الفنادق الكبرى

فى الاقطار الجنوبية واخصها مدينة نيس ومدينة مونتكرلو . ففعلو فعلتهم بمهارة وسرعة عجيبة . اما اولئك اللصوص فانهم يسلمون نورتون وسائر زعماء جمعيتهم ما يجتمع لديهم من الاموال المنهوبة

« والشكاوى وصلت الينا من كل ناحية فى هذه الايام ..

فصرف مانيلون باسنانه وقال ويل للئيم

فقال الرئيس اما الآن فان نورتون مباشر سرقاته فى السكة الحديدية وقدعدل الى طريقةاخرى فيهاسار عليها ورفاقه معه

« اما طريقتهم فهى معروفة ولكننى اشرحها لكم على سبيل التذكير في كلمات قليلة حتى تكونوا قادرين على اتخاذ الوسائل للقبض على اللصوص

فاصغى كل من مانيلون ولوسيان الى الرئيس فقال اول ما يفعله اللص من اولئك انه يتشبه بعلية القوم والاشراف فى لباسه وزيه واعماله وكلامه فلا عجب اذا مثل لى ان جاك نورتون وصابوريو يسافران مع

قوم من اصحاب الملايين . لان هذه الوسيلة ادعى الى الثقة . . او هى ابعد ما يكون عن الارتياب بأمرهما

« فاذا التقى نورتون عينه على فريسة لا يتخلى عنها ابداً ولكنه يندس فى نفس مركبة الرجل الذى ينوى سلبه ويتودد اليه كل التودد ثم يحدثه بلطف وادب ثم يقدم له لفافة من التبع

قال مانيلون وفى اللفافة شيء من المخدرات او المنومات

قال الرئيس الامر كما تقول

وقال لوسيان ولكن ماذا يفعل اذا كان الرجل لا يدخن ؟ او اذا كانت الضحية امرأة ؟

اجاب الرئيس يقدم نورتون له قطعة من الحلوى بدلا من لفافة التبغ او كأساً صغيرة من شراب

قال لوسيان وقد اراد الوقوف على منتهى ما يعرف من التفاصيل :

واذ لم يفلح ايضاً فماذا عسى يفعل

أجاب الرئيس اذا لم يفلح نورتون فى تقديم لفافة

التبغ او الحلوى او الكأس يتحين فرصة اذا امسى المساء لانه لايأتى عملا من اعماله الا فى الليل عندما يغفل الموظفون اشغالهم فيستخدم القوة او المكر ليضع قنينة صغيرة من الكلوروفورم تحت انف الفريسة التى يروم اقتناصها ...

قال مانيلون نعم واذ ذاك ترقد الفريسة حالا

أجاب الرئيس هذه الطريقة اكثر تداولا من سواها واذ ذاك يعمد اللص الى السلب مستمهلا لان المسافر المسكين يمسى عاجزاً عن كل حركة ولايعى شيئاً مما حوله بل يمسى كانه جثة

والآن قد اطلعتكما على ماعرفته وانى لآسف اسفاً شديداً لعجزى عن اعطائكما صورتى الرجلين نورتون وصابوريو ولا سيما الاول ..

قال مانيلون اننا نعرفه

قال كيف ذلك ؟

أجاب ليس الامر بذى شأن .. فاننى اعرفه معرفة شخصية

قال ذلك خير لنا ومما يسهل عليك التحرى وادراك المرام واليكما نقوداً كافية واذناً مكتوباً من شركة السكة الحديدية تتمكنان به من الارتداء بملابس سعاة القطر المفتخرة وبه يهون عليكما الحصول على تلك الملابس. وارجو ان لايوجد أمر يمنعكما الآن عن الرحيل عن باريس ؟

ففكر مانيلون فى الحساب الذى بينه وبين برموش وقال متردد

كلا يوجد مايمنعنا عن السفر

قال الرئيس فيمكنكما السفر مساء اليوم اوغداً

فاجاب نعم

قال الرئيس على انكما قادران على المجىء الى باريس فى كل يوم اوفى كل يومين مرة فتتمكنان من الاستمرار على ملاحظة القضايا التى ينبغى ان تلاحظاها هنا

وهذا حال فكر فيه مانيلون سلفاً لشدة رغبته فى مطاردة امبراطور الشحاذين بمقدار مايتسع له الوقت

فصافحهما الرئيس قائلا اودعكما ايها الصديقان

وارجو لكما كل توفيق

وفى ذلك المساء بعينه صعدا الى محطة ليون الى القطار لابسين ملابس سعاة الشركة وانفقا ليلتهما وهما يفتحان ابواب المركبات ويحملان الطرود حرفة لاح لها انها شاقة وزعم لوسيان انهما سيتعودان عليها شيئاً فشيئاً

على ان عناءهما لم ينفعهما فى هذه المرة لانهما لم يجدا اثراً لجاك نورتون ولا لشريكه صابوريو فى ذلك القطار

فلما وصل مانيلون الى نيس قال الدهر يومان فيوم توفيق وسعد ويوم فشل ونحس وارجو ان ينتهى بالفوز وبلوغ ما نتمنى فالايام تمر ولا تتشابه

قال لوسيان ضاحكا:

والليالى كذلك

الفصل الثامن

الانشودة

لم يضيع الشيخ سبتان وقته عبثاً فانشأ الانشودة التى طلبها منه برموش فى ذلك المساء وكان حاذقاً فى نظم الاناشيد حذقه فى ترقيع الثياب او احداث الثقوب فيها

فلما سمعها شارلمان قال سوف يخرج لنا بلاط الشوارع نقوداً متى تغنت السائلة بهذه الانشودة البديعة

وتولى انطونين التلحين فعلم نائلة احسن تعليم وصارت كل يوم تلقيها امامه بصوتها الرخيم وتستشعر ارتياحاً لتخلصها ساعة فى كل نهار من ضغط جلادها الظالم وجوره الاليم

واسرع انطونين الى امبراطور الشحاذين قوله ان هذه الفتاة ذات مزية وهبة عقلية لانها سريعة التعلم

وصوتها حسن الوقع مؤثر .. ولو انها تتلقى الفن فى مدرسة الفنون لكانت اجمل فتاة ولا اعنى بمدرسة الفنون ما ازاوله ههنا ولكن اريد بها المدرسة الحقيقية الكبرى !

ولم تبد نائلة عناداً في تلقى دروس استاذها الجديد وكان يصبر عليها ويتلطف معها كأنه حزر أسرار ما بها من بؤس وغم

لكنه لم يتجرأ على الاستعلام والاستفهام خيفة أن يستاء شارلمان

أما شارلمان فلم يعد يفارق الفندق الا ليلا متى امتدت أستار الظلام

فيقتاد الفتاة وقتئذ ويدور بها دورة للتسول في الشوارع الكبرى البعيدة وهو ملازم اياها ملازمة الظل متبرما بها شاتما لاعنا منذراً اياها بالضرب اذا غفلت عن مد يدها دقيقة واحدة

والمكان الذى أخذ يتجول فيه لا يصلح للشحاذة لكن زوج فرجيني لم يكن يجسر على الظهور مع الفتاة

في وسط باريس واختيار الاماكن الملائمة لانه كان يخشى مصادفة ذلك الرجل السرى الذى همّ باختطاف السائلة منه ..

ورأى برموش التجنب والانزواء حتى ينسى وتنسى الفتاة قبل أن يعود الى الاماكن المشهورة وستثمر الاغنية السحرية التى حفظتها نائلة احسن حفظ

فاقتنع اقتناعاً وقتياً بالدخل القليل معاملا نائلة بالعنف حتي يرق صوتها ويعطف قلوب السامعين عليها وتنتزع به الصدقة من أشد الناس بخلا بها

يختبىء وراء جدار وباب وينتظر مراقباً على بعد خطوات من الضحية المنحوسة فاذا رأى حركة من مار أثر عليه ما سمعه وراءه من شباب وجمال وشقاء بادر كالوحش الضارىء فاختطف الفلس من يد الفتاة

وأمر هذه الصدقات القليلة يطول جداً ولكن الانهر الكبرى تتألف من صغار الجداول كما فى المثل ..

وكانت هذه الحالة تتجدد فى كل يوم فى شارعين

مجاورين لفندق دفير وشارلمان يتناول على هذا الوجه ما يكفيه لطعامه وشرابه

لكنه ما لبث حتى شعر بكدر لأن عيشته تلك مقترنة بالوحدة والاعتزال

فقرر فى احدى الايام نقل فيرجينى اليه ليدنيها منه ..

وكان يقول اذا نال الا بسنت منه . . . وارحمتاه لفيرجينى فانها منفردة وحدها ولا شك انها ضجرت عيشتها

نعم فقد شعرت بحاجة اليها لا لحب ولكن لعادة قديمة واشتراك قديم كذلك فى المعاصى والرذائل والكسل شعر بحاجته اليها كما يشعر محب التدخين بحاجته الى القصبة التى يدخن بها أو السكير بحاجته الى الكحول أو اللص بافتقاره الى الحرية أراد أن يراها لانها زميلته وشريكته فى الآثام فارسل اليها دفير أحد عملائه لينبئها برغبة الامبراطور ويطلعها على أمره السامى

فبادرت فى ذلك المساء وهى منشرحة الصدر لأنها

اجتمعت بسيدها ومولاها

فبدرته بقولها :

ما من نباء جديد

لتحمله بذلك على الطمأنينة

فقال لها:

ألم يزرك من يريب ؟

أجابت لا

قال الامر غريب جداً على انه يسرنى فى كل حال.. وقد كنت أظن بوجود من يراقب البيت

أجابت لا يخفى عليك ياصديقى ان المراقبة قد تكون جارية على البيت فى غير أن اعلم ...

ثم قالت أين السائلة ؟

أجاب برموش انها مع استاذها تشتغل فى اعادة أغنيتها

واحتفل برموش بالعشاء مع دفير اكراما ابرموشه

وكان برموش يتحدث مع دفير عن امور ماضية. وأعمال حسنة يعملها فى المستقبل ... ودفير يكاشفه بما

من خسائر فى المراهنات التى تعرض لهـا أخيراً فى ميدان السباق وكان مولعاً بالمراهنات

وهو قد خسر قسماً كبيراً من المال الذى سرقه من العجوز ديبو فى هاتيك المراهنات ولا عجب فالمال لا يخرج حيثما خرج الا الى الباب الذى منه ولج وأحر بالمال المكتسب بالحرام ان يذهب ضياعاً

وكان دفير يشعر بذلك ويرتاع لعلمه ان كل ماوصلت اليه يداه سيضيع فى هذه الطريق

لكنه لم يكن له من الشجاعة مايكفى للرجوع عن ذلك الولع الشديد ولا يبعد ان يطرح فى هاوية المراهنات سائر مايكسبه من الفندق أيضاً

وكان يقول لامبراطور الشحاذين نعم أيها الصديق فقد خسرت يوم الاحد الماضى ثمانمائة فرنك أيضاً لاننى راهنت على الجود جريناد . . فسبقه الجواد مفيتسو وكنت على أمل كبير

قال برموش اعلم ايها الاخ العزيز انه لا يسهل الاحتفاظ بالثروة ولا سيما اذا كان مصدرها السرقة فما يأتى منها

يذهب فى غيرها

فاصفر وجه دفير وقال ماشأن السرقة هنا ؟

أجاب نعم فقد فكرت فى انك أحسنت حلب ضرع العجوز ديبو وأظن انك مددت يداً الى زجاجاتها الملأى فجمعت ماتيسر لك جمعه والا فمن أين لك ان تشترى هذا المحل ؟

فتنفس دفير الصعداء اذ علم ان شارلمان لا يعرف شيئاً ولكنه يمزح على ان قهقهته العالية أرعشته فاضطرب وقال برموش أيضاً :

ثق ايها الصديق ان ذلك المال شؤم عليك وهو علة الخسارة التى لازمتك من زمن

فأثر هـذا الفكر على دفير وقال هل تظن ذلك حقاً ؟

أجاب انى على يقين ... فان مالك المسروق تشتم منه رائحة الموتى

فلبث دفير مطرقاً ... مضطرباً وقد بلل العرق البارد صدغيه ووراءه ما أكده له شارلمان

وقد كان شديد الخوف عقيب السرقة ولا سيما عند

ما اتصل به نبأ وفاة العجوز فجاءة فلزمه الكابوس فكان
يراها كلما اغمض جفنيه ويصورها له الوهم شبحاً منذراً
اياه بالفقر الدئم والشقاء الخالد

وهو قد علم ان موتها الفجائي، لم يكن له من سبب
غير حزنها الشديد على مالها ووقوعها في وهدة الافلاس
التي دفعها اليها !

ولم يكن قادراً على طرد هذا الفكر من مخيلته فما برح
ملتصقاً بذهنه الليل والنهار

وهو منذ وقوع تلك الحادثة لم يجسر على المرور
بالشارع الذى كان فيه حانوت العجوز ... لان
الخوف ملأ ضلوعه

خوف كان يضطره احيانا الى ان يدور دورة طويلة
تجنباً للنظر الى الحانوت

ويروعه أن يمر به لئلا يصور له الرعب العجوز ديبو
واقفة وراء مكتبها فتصرخ به

يالك من لص !... ويالك من قاتل مجرم !

لانه سرق منها مالها وقتلها بتلك السرقة

وهو لا يؤمن بوجود الاشباح ورجوع الارواح
ولكنه لم يستطع ان يحول فكره عن ذلك الموضع
ولاان يقاوم ضميره فى نزوعه الى الوهم المتسلط عليه
ذلك لانه يعيش فى جثة العجوز المسكينة ..

وقد اشترى الفندق والحانة بمالها وهو مال حرام
يجر اليه نحساً وشراً كما انبأه برموش

فلم تثمر امواله ولم تفلح اعماله

وانصرف الى المقامرة او المراهنة فكان النحس
رفيقه فيها فلم يربح قط

حاول الربح مراراً وامتحن طرائف الرهان فكانت
النتيجة واحدة لا تتغير وان تغيرت الطرائف اى
خسارة مستمرة متوالية فى كل يوم

واذا بشارلمان قد نبهه من تأملاته قائلا له
فى ما تفكر ايها الرفيق

اجاب فى الجواد الذى عزمت على ان اراهن معه

وهو كسائر المقامرين ما انفك عن القمار مرة الا
مال اليه مراراً فكان يفكر فى ما يفعله فى غده

فدنا منه شارلمان وقال له بلهجة من يسر اليه سرا او يكاشفه بأمر خفى :

ارى لك ان تدع هذه المراهنات فليس فيها الا صفقات خاسرة وساعدنى فتكسب قدرا جسيما من المال . .

قال ماذا تطلب منى ان افعل ؟

قال هل تعرف السائلة الحسناء انا تعلمت الغناء وارجو من وراء استخدامها ربحاً جزيلا

اجاب اعرف ذلك ايها الامبراطور

قال فاعلم انها ليست بابنتى

اجاب لقد كنت في ريب من ذلك اذن فبنت من هى ؟ . . .

قال ان امها تبحث عنها وقد عهدت الى رجل اظنه من الشرطة بالبحث عنها ومطاردتى . . . وقد اراد اختطافها منى . . . هاجمنى فى احد الايام فكدت افتك به غير ان البحث عن الفتاة لم ينقطع ولذلك طلبت اليك ان تخفينا عندك أنا وفيرجينى والسائلة

أجاب ذلك أمر قد اتفقنا عليه وقررنا أجرته

قال لكن يوجد أمر آخر . لايخفى عليك ان الفتاة اذا تغنت فى الشوارع فالبوليس يطلب منها أوراقها . . . فانا بحاجة الى تلك الاوراق . . لا برهن على انها ابنتى . . فلا يحق لاحد غيرى ان يتولى أمرها . فهل فهمت مرادى يا دفير ؟

أجاب بلا شك . . . اذن فانت محتاج الى عقد مدنى مزور

قال وانى أعتمد عليك فى الحصول عليه . . . انت حاذق داهية ويسهل عليك ان تجد حاجتى

قال وهل تدفع الىّ أجرة حسنة

أجاب مائة فرنك

قال حقاً انها اجرة حسنة ومتى تحتاج الى ذلك العقد

أجاب فى القريب العاجل من الوقت فقد حفظت السائلة أغنيتها عن ظهر قلبها وأريد ان أدفعها الى الجمهور للانتفاع بما اتقنت من صناعتها الجديدة غير اننى أخشى عليها من الاستعلام وليس بيدى برهان على انها ابنتى

فقال حباً وكرامة وبعد أربعة أيام تنال ما تحب واذ ذاك تستطيع ان تقدم ابنتك للحكومة مع براهين تستند عليها

فصاح شارلمان عافاك الله أيها البطل ويجب ان تساعدنى أيضاً على حماية الفتاة واخفائها اذ ربما يخطر لذلك الشرطى المتنكر ان يأتى فيستخبر عنها فاحسب انك لم ترها ولم تعرفها ولم تر برموش ولا تعرفه أيضاً وتجهل مقرنا ومن نكون

أجاب فهمت أيها الامبراطور

فتصافحا واشتركا في الشرب وتبسم كل منهما للآخر لأن أحدهما سر بكسب مائة فرنك والآخر اطمأن قلبه على السائلة وصار قادراً على الكسب بواسطتها كما يشاء

أما فيرجينى فكانت صامتة لانها حصلت على الخمور التى تستطيبها

هذا وقد أظلم الليل وقلت الحركات وهدأت الاصوات لان سكان ذلك الحى اكثرهم عمال لابد من نهوضهم

باكراً فى اليوم التالى

على انه مازال فى الشوارع بعض المارة وما زال يقدم بعض العملاء على الحانة فيطلبون شراباً ودفير يروح ويجىء ملاحظاً وبرموش وبرموشة يأكلان ويشربان

أما الذين كانوا يقدمون فى تلك الساعة فصعاليك في الظاهر من نساء ورجال وهم تلامذة دفير يعودون الى مقرهم بعد انقضاء نهارهم

وجميع هؤلاء المحتالين الذين اتخذوا الفقر مهنة وتظاهروا بالشقاء يتعشون عشاء طيباً كأنهم من كرام الناس ويشربون ما قدروا

والصدقات التى تملأ جيوب أولئك الشحاذين لا تدوم فيها الا دوام الظل لانهم ينفقونها على الطعام والشراب ويدفعون منها شيئاً الى الشيخ سبتان

وأما دفير فلا يغفل أحداً منهم شأن صاحب الدسكرة الحاذق ولا يقصر فى اغتنام ما يقدر على اغتنامه يخدمهم بنفسه ويساعده خادم

فاذا أكلوا وشربوا عمدوا الى التدخين وارتفعت

سحابة كثيفة فى جو المكان واقبلوا على اللعب

هذا وبرموش وزوجته قد انتهيا من طعامهما وشربا القهوة وكانت برموشة تنظر بعينى شاة الى ورق اللعب بين ايدى اربعة من عملاء المحل وشارلمان يقرأ جريدة

واذا بجرس الباب يقرع ودخلت صبية حسناء يتبعها ضارب بالقيثارة أو الطنبور وكلاهما لابس ملابس مذهبة لامعة

فمد شارلمان يده الى برموشة ودفعها بكتفها قائلا ويحك انظرى !

قالت ماذا ؟

أجاب انظرى الى السائلة الحسناء فهل تعرفينها الآن فهى مع استاذها المسيو انطونين وقد جاء بها لتغنى هنا فثقى أن ربحنا الليلة سيكون جسيما

قالت برموشة لله در الصبا والجمال آه ما اجملها بهذا الزى الجديد!

وصدقت برموشة فى هذه المرة فان نائلة كانت

متوجة بتاج جمال طبيعى ولطف لا يغلب ثم ان فى حركاتها واشاراتها بهاء وسلطة وفى انسان عينها ضياء ورقة وسحراً

ولم تظهر محاسنها ايام كانت كاسية بتلك الاطمار الرثة البالية وممتهنة كما تمتهن الطريدة الشريدة أما الآن فقد تجلى حسنها فى ذلك الثوب اللامع الذهبى وسرت به حتى بدا سرورها بكل سذاجته على وجهها فزالت عنه أمارات الكآبة وكأنها تحولت الى شخص آخر وكبرت وكمل تكوينها وهيهات ان يعرف الناظرون اليها انها تلك عين السائلة الحسناء

فلما دخلت الى قاعة الحانة وقد انعقد فى جوها الدخان هتف لها جمهور المجتمعين اعجاباً كأنها ربة من ربات الحسن اللواتى يذكرهن التاريخ القديم ظهرت لهم بغتة فاكبروا أمرها وعظموا شأنها

فتاهت بحسنها وبما رأته من تحديق المحدقين فى وجهها وابتسمت وحيت الحضور وكانت تعرف اكثرهم تحية تلقونها بالهتاف لها وشربوا نخبها مراراً

وكان لجمالها اللطيف نفوذ عجيب في تلك الساعة فكأنها سحرت الحضور جميعاً فامتدحوها واطروا حسنها الفتان

الا ان للحسن الطبيعى صولة على القلوب مهما يذبل نضارته الدهر ومهما ينحى عليه البؤس والمسكنة

وكأنما كان يجرى من مجموع شخصها سيال كهربائى امال اليها الناس ولا يمكن وصف ذلك السيال لانه خفى على الابصار وان لم يخف على البصائر

شغلت العيون والعقول بجمالها وشبابها اما القلوب فانها اجتذبتها اليها بقوة لا تغلب

فلم يبق فى القاعة الا من انثنى اليها يتفرس فى وجهها وعينيها وقامتها الهيفاء

وكان الناس قبلا يرثون لها وتخامرهم شفقة عليها ورأفة بها اما فى ذلك المساء فان الشفقة تحولت الى اعجاب مقترن بالانعطاف ... وكأن نظراتها تبذر بذور الحب فى طريقها

فصمت المتكلمون لمرآها وطلعة محياها وعم

السكوت . وانقطع اللاعبون بالورق عن لعبهم وابث المتسولون مبهوتين مدهوشين يهيجهم الفضول وكان ذلك شأن فيرجينى ايضاً وقد سحرها ذلك المشهد البديع

وكان جمال نائلة مقترنا بالعفاف والطهر وامارات السذاجة ظاهرة على وجهها اللطيف حتى اثرت اشد تأثير على اولئك القوم الاسافل الذين لا يفرقون بين الحرام والحلال

وجاء المسيو انطونين وهو صاحب القيثارة بكرسى فجلست الفتاة عليها وقد اتجهت الابصار الى قدها المشوق وبياض لونها وشآبيب وجهها الحسنة فكانت كأنها حورية من حور الجنان غفل عنها رضوان ففرت الى ذلك المكان

واخذ انطونين يضرب بقيثارته ثم اشار اليها فاندفعت تغنى انشودة نترجمها للقراء بالحرف حتى يطلعوا على معانيها ويدركوا من ادراك كنهها وقعها على الحضور وهى

الدور الاول

فارقتنى ذات مساء بعد ما كاشفتنى بالحب
وكنت اهواك فصدقت دعواك
ولم يخامرنى ارتياب فى ذلك الافك والزور
ثم غادرتنى اليف الغم غير مكترث لشغفى بك
فاتخذت خليلا سواى
فيالك من حبيبة مائنة قاسية الفؤاد
فارجعى الىّ اصفح عنك !

***

متى عدت الىّ ضممتك الى صدرى وشفيت باللقاء غليلى !

فسر الحضور ما سمعوه وتهللت الوجوه طرباً وحبوراً

ومن اعجب الامور ان تدبّ الحياة في قلوب قوم طغام ما عرفوا فى العمر الا الكسل والخمول والغلظة والتوحش

فما الذى غير تلك الاخلاق ؟

انشودة بسيطة وان لم تخل من تفنن تغنت بها لهم فتاة حسناء بصوت يسترقّ الاسماع كما يسترق حسنها القلوب

اذن فللغناء قدرة على اصلاح الاخلاق الفاسدة وتنبيه الهمم الراقدة

وكانوا مبتهجين مستبشرين مبتهجين حين اخذت فى الدور الثانى من تلك الاغنية وقد شجعها ما لقيته من الاستحسان واسعفها مهارة انطونين في الضرب على النغم فكانت تغنى وهى مسرورة طافحة الوجه بشراً باسمة الثغر ولعل الغناء كفى حاجتها الفطرية الى الشعر وهى لذة لم يكن لها عهد بها حتى تلك الساعة

وفيما كانت تغنى جعلت تبسم . واليك الدور الثانى المشار اليه :

« انى منذ يوم هجرك اياى كالطائر الذى يرفرف بجناحيه شاعراً بدنو اجله . اموت مشتاقاً الى قبلاتك

ايتها الخائنة .

اطل كل ليلة من نافذة بيتى آملا على الدوام ان ارى هنائى مقبلا الىّ ولكننى لا أرى الا ظلاما !

* * *

متى عدت الىّ ضممتك الى صدرى وشفيت باللقاء غليلى !

* * *

فلما انتهت من هذا الدور سمعت اصوات الهاتفين لها من كل ناحية

وارتفعت تصدية الاستحسان وابتهج الاستاذ بما شاهده من فوز تلميذته

وعلا صوت نائلة بالدور الثالث وهذا تعريبه ؟

« نعم بكيت وانتحبت ولقد عذبت قلبي ايتها المرأة اشد تعذيب !

لكننى لم ايأس لان اشعة الامل مابرحت تنفذ الى صميم فؤادى ويحق لى ان آمل وارجو !

خيل لى اننى ارى خيالك وقامتك الهيفاء وانك

تنظرين الىّ واسمع وقع خطاك الخفيفة وغناءك المطرب .

خيل لى اننى لقيتك بعد ان طالت شقة نواك وجفائك فعودى الى ايتها الحبيبة

* * *

«هاقد عدت الىّ فاقتربى لاضمك الى صدرى واشفى باللقاء غليلى ! ..

ولم تتم نائلة غناءها حتى تحمس الحضور لها واخذ منهم الطرب كل مأخذ وتساقطت قطع النقود حولها من كل ناحية

ولم ينفرد المتسولون فى اظهار سرورهم وطربهم ولكن المارة وقفوا فى الطريق امام النوافذ المفتوحة وصفقوا للمغنية الحسناء

فابتهج شارلمان سروراً

ذلك لان الكسب كان فوق المأمول

فابدى ارتياحه لفيرجينى لكنها قالت له :

نعم ان السائلة الحسناء تشتغل لنا منذ الآن فصاعداً

وتنيلنا الربح الوفير لكنها بديعة الحسن وصوتها يسحر العقول .

فلا شك انها تلفت اليها الابصار فحذار ياصاح ان يختطفوها منك !

فانتفع برموش بهذا الرأى السديد

فنهض لساعته تاركا زوجته فيرجينى تجمع القطع المتبددة من الفلوس وانطلق بنائلة يكفيها مؤونة سماع الاطرآء فاقتادها الى الغرفة التى تسكنها فى الطبقة العليا

فاوصد الباب بالقفل مرتين غير مكترث لمن حضر

ثم رجع الى قرب فيرجينى فقال لها :

لقد حبست الدجاجة فى البيت فلا تستطيع الخروج منه ...

واستمر يمزح ويضحك لان وفرة الدخل اولته سروراً واذا به قد عبس بغتة وسكت لاينبس بحرف

ذلك انه رأى رجلا قد دخل وقتئذ الى القاعة وجلس الى طاولة في مكان مظلم وكان لابساً قبعة عريضة الاطراف ورداء واسعاً كانه من تجار المواشى

وله لحية وخطها الشيب

فبهت شارلمان لمرآه وقال فى نفسه .

لا ادرى اين رأيت هاتين العينين فمن يكون الرجل ...

وبعد بضع دقائق تناساه او نسيه لانه رآه لايهتم بغير الشراب ولايكترث لاحد ممن حوله

فدل بذلك على انه احد المارة جاء ليشرب كأسين ويستريح هنيهة

على ان شارلمان كان مصيباً فى ارتيابه لاول وهلة بالرجل وما ذلك الا لانه صديقنا مانيلون

فاى صدفة ساقته الى هناك ومامعنى تنكره بذلك اللباس ؟؟

لم يكن للصدفة علاقة بوصوله الى الحانة والحقيقة انه جاءها خصيصاً وقصدها ليرى برموش

وهو فى ساعات فراغه لم يغفل مراقبة المنزل فى شارع كوصونرى

وقال فى نفسه :

لقد تغلب عليّ الامبراطور اول مرة ولكن هيهات
ان يتغلب عليّ مرة ثانية

لكنه اضطر الى الحذر الشديد والدهاء الذى ماعليه
من مزيد فان لشارلمان قوة هائلة حملته على التفكير
وحسن التدبير قبل الاقدام على عمل

وعلم ان ذلك اللص الشرير لايحجم عن جناية يأتيها
اذا دفعه اليها ولئن وقع بين يديه مرة اخرى فهيهات
ان يسلم

فلا ينبغى التعرض له وانما يجب ان يحول فكره عنه
مااستطاع الى ذلك سبيلا ثم ينتهز فرصة فيختطف
الفتاة

وكان موقناً انه سيجد الوسيلة المؤدية الى غرضه
وشعر بحدة تصوره وقوة استنباطه للحيل وأسعفه عمله
لانه شرطى مدرب على الاحتيال والمخادعة محنك فى
اختلاف صنوف الخدع

فاعد كل مافى جرابه من ذلك للانتصار على جلاد
السائلة الحسناء

ولم يزده فشله الاول الا رغبة فى النجاح وقدعز عليه
ان يظفر به مثل برموش فآلى على نفسه ان ينقذ نائلة
ثم يردها الى امها

واهتم بالامر وشجعته عليه زوجته سيجاريت محذرة
اياه مع ذلك من الوقوع فى كيد الاشقياء موصية اياه
بالتنبه والاستفادة من الامثولة التى تلقاها أول مرة

فراقب بيت برموش أشد مراقبة مدة تفرغه ولاحظ
المستأجرين وذهابهم وايابهم

فكم من ساعات أنفقها منتظراً صابراً وهو متنكر
بزى غير زيه مسلح بمسدس وخنجر لانه علم بوجوب
اتخاذ مثل هذا الاحتياط مع شقى كالامبراطور

الا ان اجتهاده لم يجده نفعاً ووقفاته لم تأت بفائدة
وصبره ذهب ضياعاً

لانه لم ير شارلمان .. ولم يلق نائلة

فاستعلم عن برموش من بائع فحم هناك خاطبه مخاطبة
الرفيق للرفيق وسقاه كاساً

فلم يعلم سوى ان برموش والسائلة الحسناء رحلا عن

ذلك البيت منذ ايام الى صباح اليوم الذى فيه اراد انتشال الفتاة ثم لم يظهرا بعد ذلك لان زوجة برموش لبثت مقيمة فى البيت وحدها فلا تخرج منه الا عند المساء لتشترى ماتحتاج اليه من طعام ومؤونة اوتذهب الى حانة قريبة فتطفئ نار ظمئها بالكأس

وهذا الذى تلقاه من بائع الفحم قليل لكنه يحسب شيئاً فان مانيلون لم تهن شجاعته ولا ضعفت عزيمته

والشرطى انمايهتدى بأقل الاشياء الى المهم من الامور ويتوسل بأضعف الاسباب الى التحرى والاستقصاء واقتفاء الاثار

فقال فى نفسه :

لا بد لشارلمان من رجعة الى هذا البيت فى أحد الايام او لا بد لزوجته من اللحاق به فلا ينبغى ان نغفل المراقبة

والحاصل ان مانيلون سافر سفرة الى نيس فى خدمة حرفته ثم عاد من سفره فجاء الى شارع الكوصونرى فصبر وراقب ولكن من غير ما فائدة

وعند المساء خرجت فيرجينى من البيت

وكان ذلك فى مساء يوم من ايام الربيع صفا هواؤه . والظلام لايسرع هجومه على ضياء النهار فى ذلك الفصل والعمال يستعجلون فى الخروج من المعامل ليستنشقوا الهواء النقى قبل ان يذهبوا الى العشاء

وظنت برموشة انها تستطيع المرور بين جمهور العمال والعاملات وفى الطريق الغاص بالناس من غير ان يراها أحد وهكذا جرى . ولكن لم يرها أحد سوى مانيلون

فانه مافتىء يتبعها البصر ويرصد حركاتها وسكناتها

وكان يومئذ لابساً لباس باعة المواشى وعلى رأسه قبعة عريضة الاطراف تخفى اكثر ملامح وجهه

وكان يعرف برموشة لانه صادفها مرة عند فرنسوى دورنيه جارها يوم عمد ذلك الشهم المسكين الى الانتحار وانقذوه من الهلاك

أما هى فلم تره فانطلقت رافعة الرأس منشرحة الصدر تمشى على مهل

وسرها ان شارلمان ينتظرها فى الحانة كما نقل اليها رسول دفير اذ أنباها ان زوجها ودفير أعدّا عشاء طيباً ودعواها لمشاركتهما اهما فيه

فكانت تمد لسانها وتلمس شفتيها من شدة نهمها لانها ملت الوحدة والاعتزال والطعام التافه القليل فلم تلاحظ الرجل الذى يتبع خطاها بمهارة ويتسلل وراءها من شارع الى آخر

الى ان بلغت شارع شربونيير وهو يسير وراءها ثم دخلت الى فندق دفير

فهاج الفضول مانيلون وانتظر هناك عند عطفة الشارع محتجباً بظل جدار

ولاحظ الحانة فى الطابق الارضى من الفندق وبصر بفيرجينى تأكل مع زوجها ودفير

فقال فى نفسه :

لقد اكتشفت مقركما أيها الخبيثان ولكن أين الفتاة يا ترى

وانقضى وقت طويل وهو على تلك الحال ثم رأى

أشخاصاً عديدين يدخلون الى الحانة وكلهم رث الثياب فعلم انهم رصفاء برموش او من تلامذته أهل صناعة الكدية والاستجداء

ثم رأى الشيخ انطونين داخلا ومعه صبية فلم ينظر اليها الا عرضاً لان بصره لم يتحول عن برموش

ثم سمع غناء الفتاة فاعجبه ذلك الصوت الرخيم الندى المؤثر فلبث جامداً ينظر من خلال الزجاج

ولم ير المغنية لانها كانت مولية اياه قفاها لكنه حزر انها حسناء واثر عليه ما سمع من غنائها فاشترك مع الحضور فى الاعجاب بها

وقال فى نفسه :

لا يمكن أن تكون هى التى ابحث عنها ... ومع ذلك أرى فى أمرها سراً

وللحال عقد النية على أمر فدخل الى الحانة

وكان ذلك عند انتهاء الصبية من الدور الثالث والتصفيق والاعجاب فى ابانه

وكان يرى الفتاة . لكن الجمهور حال دونها ورأى

برموش قد اجتذبها واقتادها بعنف فاخرجها من باب يؤدى الى دهليز فى الداخل

وبصر بشارلمان يغيب عن عينيه هناك لكنه لم يعرف المرأة التى سار بها وان خامره الارتياب

فلم ير بدأ من تحقيق أمرها فجلس الى طاولة وطلب شراباً واذا بامبراطور الشحاذين قد عاد فجلس الى جانب زوجته

ولم يفت مانيلون ادراك ماشاهده من اضطراب ذلك الشقى لمرآه لكنه تظاهر بالجهل التام لذلك واتخذ هيئة رجل لايهمه غير كأسه وشرابه حتى لايبقى اثراً للريب فى نفس برموش

فافضى ذلك ببرموش الى قلة الاكتراث له

فسر مانيلون بتنكره

وقد انكشف له امر هوأن برموش وزوجته مقيمان في ذلك الفندق فلاشك ان السائلة الحسناء غير بعيدة عنهما

ولعلها تلك المغنية الحسناء التى سمع انشادها

فصبر واصغى

وكان الناس يتحدثون حوله فاشترك في الحديث

وقد انقطع الكلام عن المغنية

ذلك لان الحضور الذين اعجبوا بها انصرفوا الى التفكر فى أمر آخر يهمهم . كلّ وما توحى اليه نقائصه ومعايبه

فعمد مانيلون الى جاره يخاطبه ويستطلعه الا انه كان حديث العهد بالتردد على الحانة فلا يعرف تلك المغنية

فخطر له وقتئذ ان يسأل عنها المسيو انطونين نفسه وأن يطرى صناعته وحذقه فيها ويثنى على تلميذته اجمل ثناء ....

لكنه لم يجده هناك

اذن فكل ما عرفه مانيلون ما رآه بعينيه وهو أن برموش اقتاد الفتاة بغتة .٠. اذن فهو ذو حق له عليها وهو حق الاستثمار والانتفاع

ويحتمل أن تكون هذه الضحية فتاة أخرى غير نائلة لان شارلمان يستخدم فتيات غيرها أيضاً ويعلمهن حرفة الشحاذة

ففكر مانيلون وهو لا يهتدى الى الحقيقة فلما رفع رأسه بعد دقيقة لم يجد فيرجينى ولا شارلمان

فقال فى نفسه :

الحذر الآن! فهما يقضيان ليلتهما ههنا . مع اسيرتهما لان المرأة برموشة شربت كثيراً فلا تخاطر بالخروج من الفندق تحت جنح الظلام وكذلك زوجها فحاله من السكر كحالها . . . اذن فلنراقب المكان وما حوله

فخرج يتفقد الشارع وجوار الفندق ويرقب الاشخاص الذين يخرجون منه ولم يخرج منه الا القليل لان اكثرهم كانوا مقيمين فيه

ولم يجد اثراً لشارلمان أولزوجته ... ولا للمغنية التى رآها منذ هنيهة

فجعل يقول فى نفسه :

العلها السائلة الحسناء ؟

وجاءت الشكوك تعذب مانيلون

والصعوبة هنا تنحصر فى كيفية البحث لعلمه ان اقل

كلمة يتلفظ بها امام اولئك القوم او اقل حركة يأتيها تفضح سلوكه وتكون سبباً لبغضهم اياه ونفورهم منه

وادرك للحال من هم هؤلاء العملاء الذين يترددون على فندق دفير وعرف ما يزاوله دفير صاحب الفندق

فهو منفرد بين قوم اسافل اشرار محتالين ويجب ان يحترس لنفسه حتى لا ينكشف امره

وازفت الساعة الحادية عشرة فاخذت القاعة تخلو شيئا فشيئاً

وذهب الحضور كل الى غرفته ليستريحوا بالرقاد من العناء

فخطر لمانيلون خاطر

ذلك ان يجرب لعله يفلح فى المبيت هناك

فاذا تمكن من ذلك تيسرت له المراقبة فينهض باكراً فى اليوم التالى قبيل الفجر ويرصد ويراقب متتبعاً خصمه مستطلعاً ما شاء

فرجع الى الفندق ودنا من مكتب دفير وكان يطالع جريدة تشتمل على اسماء الخيول الرابحة فى ميدان

السباق . .

فقال له :

هل من سبيل الى غرفة ابيت فيها الليلة ؟

فاجابه مستحيل يا صديقى

قال هذه كلمة يجب حذفها من اللغة

اجاب ما من وسيلة الى ما تريد

قال لماذا ؟

اجاب ان السبب بسيط جدا وهو ان الغرف مأجورة كلها فلا يوجد عندى سرير خال ...

قال لا يهمنى وجود سرير فاننى اكتفى بفراش على الارض

اجاب لو بقى عندى فراش لما منعتك مما تريدولكن لا يوجد . .

قال دعنى انام على مقعد فى هذه القاعة . . .

اجاب ان المقاعد كلها مأجورة

ولم يكذب دفير فان كثيرين من الشحاذين ينامون عنده ومنهم من يكتفى بالرقود على مقعد

فقال مانيلون اننى اكتفى بزاوية فى دهليز او في المطبخ فقد حرت في أمرى ولا ادرى الى اين امضى فى هذا الليل

أجاب انى آسف لان كل موضع عندى مأجور فلا بدّ من ذهابك الى مكان آخر . . . ثم ان خادمى قد تركنى ومضى فلا يسعنى الاهتمام بك فاودعك ايها الرفيق .

ونهض دفير ليوصد النوافذ والباب

فعلم مانيلون ان الجدال لا يفيد وان صاحب المكان يطرده وسواء كان امتناعه عن قبوله عنده صادراً عن شكوك خامرته او عن ان المراقد مؤجرة فالنتيجة واحدة لديه

فخرج

وفيما هو يبتعد جعل يقول

أمامى في هذه المرة ثمانى واربعون ساعة ثم ان لوسيان حر ايضاً فيجب ان اسعى معه للانتهاء من هذه القضية سريعاً ،

« وليس الامر بعسير على المجتهد النبيه
فسار وهو يدبر تدبيره

***

قال له دفير فى جملة ماقال « ان خادمى تركنى ومضى فلا يسعنى الاهتمام بك »

ومفارقة الخادم لدفير مما ساءه وضيق صدره واولاه تبرماً وتسخطاً لانه قد اضطر الى ملازمة فندقه وبات غير قادر على الذهاب للمقامرة فى ميادين السباق كما علل النفس وأمل

فكان سروره بالغاً اشده فى صباح اليوم التالى اذجاءه خادم يعرض عليه ان يخدم فندقه فقال فى نفسه

هذا لعمرى لم يدخل فى حسابى. واظهر ذلك الخادم نشاطاً وخبرة واطلعه على شهادات شتى قانونية ومسجلة ومختومة بختم ديوان الضبط

فقال له دفير هل أنت خادم قهوة فقط ؟

فأجاب بل خادم قهوة وفندق فاننى ازاول الخدمتين وقد اشتغلت فى اماكن كبيرة وآخر عهدى بالخدمة فى

مونتكرلو ... اذ كنت آتياً من أوستان

قال دفير أحسنت !

فاتفق معه فى الحال وأخذ يدربه على الاعمال وهو يقول في نفسه :

هاقدوفقت الى هذا الخادم فصرت قادراً على الذهاب بعد الظهر . . . وأرجو ان اعوض خسارتى فى هذه الايام ففى الوقت متسع

وكان اسم الخادم اناطول

فأبدى منذ دخوله حماسة كبيرة وانكماشاً فى العمل وغيرة عليه حتى دهش دفير سروراً به وجعل يكرر قوله :

ان سعدى عظيم !

ويفرك كفيه ابتهاجا

هذا وأناطول يروح ويجيء ويدور فى المكان كاللولب وينزل الى الاقبية ويتعهد مواضع العلف ويكنس ويمسح ويكسح ويتفقد كل شيء وينظف الغرف التى يفارقها السكان في النهار اذ يذهبون لاعمالهم

ولكنه بقى أمامه غرفتان فى الطبقة العليا لم يتعهدهما بالتنظيف لانهما مقفلتان ولهما بابان مطلان على دهليز يكاد يخفى وراء جدار ولولا ان للخادم عينين تخترقان لما ابصرهما

ووقف اناطول مراراً ببابى الغرفتين يسترق السمع

فلم يسمع حساً ولا حسيساً من باب الغرفة نمرة ٢

اما الغرفة الاخرى وهى نمرة ٤ فقد خيل له انه يسمع منها محاورة بصوت منخفض

فعلم انه يوجد اناس هناك ...

ولكن لماذا لا يخرجون ؟ ولماذا يتكلمون بمثل هذا الاحتراس ؟

اى سر يكتمون؟

فغمغم الخادم حين جالت هذه الخواطر فى ذهنه يقول سوف نرى

وازفت الساعة العاشرة ونصف. ويحق لخادم فندق ان يسأل المقيمين عما يطلبون فى مثل تلك الساعة

فقرع اناطول الباب

فسمع صوتاً اجشّ يقول من القارع ؟

فاجاب انا خادم الفندق

فسمع اذ ذاك صوت رجل يجيبه بخشونة :

اذهب من هنا فلا حاجة لنا بك

فلم ير بداً من الانصراف عنهما لان الصوت كان نذيرا بالخصام

ولم يضيع الوقت سدى فمضى يقرع باب الغرفة نمرة ٢ المجاورة للغرفة نمرة ٤

فسمع صوت الرجل عينه يجاوبه ويقول له .

الا تنتهى يا هذا ؟... اصبر علىّ لاريك عاقبة عملك!

فلم يرع اناطول لكنه اظهر الاستياء لان الرجل المقيم فى الغرفة نمرة ٤ يجاوب عن نفسه وعن غيره ذلك لعلمه ان الغرفتين مأجورتان

وانصت بعد ما قرع الباب شيئاً فسمع صوت حركة خفيفة وانتهت بالسكوت لما ارتفع صوت الرجل المستأجر مالئاً للغرفتين

فنزل الخادم ومكنسته على ساعده فلقى دفير مشغولا بتفريغ جيوبه من النقود وهو يجمع ما لديه منها ليقامر

به في السباق

فقال له .

لم اقدر على تنظيف الغرفة نمرة ٢ ولا الغرفة نمرة ٤

قال ولماذا ؟

أجاب لان المقيمين فيهما يأبون الخروج منهما

قال اذن فدعهم يفعلون مايشاءون

أجاب ذاك مضر بنظام الشغل ياسيدى ..

قال أولئك قوم لا يهمهم نظام شغلك فدعهم وشأنهم

قال من يكون أولئك القوم ياترى ؟

أجاب انهم من العملاء الذين يدفعون اجرة حسنة فلا تزعجهم

فاظهر الارتضاء بهذا البيان على مابه من ابهام وودّ مع ذلك ان يلمّ بشؤون أولئك السكان

فاستمرّ منهمكا فى شغله منظما قاعة القهوة الى ان قال بغتة :

هل يأذن لى سيدى بالتغيب خمس دقائق ثم أعود ؟ .

قال الى اين ؟

قال الى شارع دور وهو قريب من هنا فاذهب واعود فى خمس دقائق اذا اذنت لى

قال امض وعد سريعاً فاننى عازم على الخروج بعد هنيهة لعمل لى .

أجاب سمعاً وطاعة

وانطلق اناطول يعدو عدواً

فوصل الى شارع دور كما قال وزار آحد مكاتب البريد فكتب بطاقة سلمها الى الجابى اذ رآه آتياً ليستلم الرسائل من صندوق الخطابات

ثم عاد وهو متهلل الوجه

وعند الظهر اخبره دفير بعزمه على التغيب بضع ساعات قائلا له :

تنبه جيداً الى المحل على ان العملاء الذين يأتون الى هنا بعد الظهر قليلون فليس فى التنبه كبير عناء

فاجابه سمعاً وطاعة ياسيدى

وقدسر سروراً عظيما بهذه الثقة التى اظهرها صاحب

فقال دفير اذن انا اعتمد عليك

فاجابه بلهجة المستاء من هذا التردد قال كيف لا

فقال دفير لا بأس فانا ذاهب

قال ادعو لك بالسلامة

فمضى دفير واناطول يتبعه النظر والابتسام

فما كاد يبتعد دفير حتى صعد الخادم يخطو خطوات الذئب الى السلم المؤدى الى الغرفتين نمرة ٢ و٤

واراد الانصات واستراق السمع لعله يستطلع سر المستأجرين

فالصق اذنه بالباب ... واذا به يسمع دورة المفتاح فى القفل من داخل فعلم ان المقيمين عازمون على الخروج فتظاهر بالنزول على درج السلم

وبعد هنيهة خرج شارلمان من الغرفة نمرة ٤

فتلقاه اناطول باهتمام قائلا هل تطلب شيئاً ؟ ان سيدى خرج الساعة لحاجة له فاوصانى بخدمتك

قال اذن جئنا بشىء من الطعام

وظهرت فيرجينى على العتبة فقالت نعم وانا جائعة أيضاً ؛

فاجال اناطول نظرة سريعة من خلال الباب فابصر باباً يفصل بين الغرفتين

ولعل هذا الاكتشاف كان مهما عند اناطول لانه تبسم تبسما يدل على ارتياح لا مزيد عليه

على ان ذلك الباب كان مقفلا كانه لا يوجد ساكن فى تلك الغرفة

ولكن لا ينس القراء ان اناطول سمع حركة خفيفة صادرة من الغرفة المقفلة

فقال انى أجىء اليكما الآن بغذاء يكفى اثنين ؟

أجابت بلا شك وليكن ذلك كثيراً

قال امبراطور الشحاذين بل جئنا بطعام يكفى ثلاثة

فنظرت اليه زوجته نظرة خصام وتهديد وقد فهم مرادها فعلم انه أخطأ فأراد استدراك خطائه فقال انما قلت ثلاثة لاننى أتناول وحدى ما يكفى اثنين وهذه عادتى لأن لى شهية قوية ... وانت ترانا اثنين فارسل

الآن مايكفى وزجاجتين

فانطلق اناطول قائلا سوف أجيء اليكما بما طلبتما

فناداه شارلمان وهو نازل قائلا لا تنس القهوة وصب عليها شيئاً من الكونياك فان فيه نفعاً للمعدة

فاجابه سمعاً وطاعة

ومضى وهو صامت مبادر

وبعد هنيهة رجع يحمل الطعام والشراب فوضع ذلك كله على الطاولة التى فى الغرفة ثم ابتعد

وجلس شارلمان للاكل والشرب

وبعد ماسار الخادم خطوتين عاد على عقبيه فانتصب مرهفاً اذنيه للسمع فسمع المرأة تقول لزوجها :

يالك من غبي مغفل كيف تطلب طعاماً لثلاثة بل كيف تنسى ان ذلك الحيوان خادم القهوة مدرك من طلبك اننا ثلاثة أشخاص مقيمون هنا

أجاب كلا ... ليس ذلك فى الامكان بعد ما افهمته ان لى شهية قوية وهبي انه فهم الا تحسبينه يرى السائلة مرة عندنا

قالت صدقت ولكن ماذا عسى اصنع وفكرى يحدثنى ان ابنة اللئام تتجمل وتتحسن وفى نيتها ان تجد من يأخذها ويربحها منا ولذلك لا يجب ان تدعها تغنى للجمهور فهل رأيت كيف بهر حسنها الناس

أجاب هؤلاء الذين كانوا مجتمعين في الحانة جميعهم رفاقنا فلا خوف منهم ولا حذر ولئن أردت ان يأتينا الربح الجزيل فلا بد من ترك الفتاة تتغنى فى الشارع ...

قالت لست اعترض على هذا الكلام ولكن يجب الاحتراس والتحذر ياشارلمان فليس هذا وقت التغافل

أجاب كونى مطمئنة من هذا القبيل فلست بغافل طرفة عين ولى ساعد كالحديد وويل لمن يتعرض لى

وكانت هذه المحادثة دائرة بصوت منخفض جداً غير ان اناطول كان شديد الاصغاء فلم تفته منها كلمة

وكأنه اكتفى بما سمع فانطلق يتدحرج على السلم وثباً فوجد بعض العملاء قد دخلوا فبادر الى خدمتهم وقدم لهم ماطلبوا بتدقيق وهو يعمل مايجب من صف الكووس والزجاجات ومسح الادوات والاوانى وقبض

النقود

والحق يقال انه ابدى من الخدمة ما يوجبه الضمير والنية الصادقة

وفيما كان منهمكا فى عمله اذ وفد ساع يحمل اليه رسالة عليها هذا العنوان

الى المسيو انا طول

خادم فندق « الى الملتقى »

فتناول منه الرسالة شاكراً وقدم له كاساً من الجعة .

وفى اثناء ذلك فتح الرسالة بسرعة وقرأ فيها ما صورته

« عزيزى لوسيان

« وصل كتابك لى

« عافاك الله فقد احسنت وعافى الله خادم القهوة النشيط النزيه

وقد وصلنا الى غرضنا فى هـذه المرة بفضل غيرتك وقد اعددت اثنين من رفاقنا للهجوم فى هذه الليلة فنحن نأتى فى نحو الساعة التاسعة

« ولئن لم نفلح ونحن اربعة فلا خير فينا ولا صلاح

« وأصبت فى تحذيرك فقر عينا سوف نتخذ الفطنة

« واتفقنا على ان لا نعرفك فأنت خادم حانة ونحن من شاربى الكؤوس ومتى قدمتها الينا أسعفتنا بما لديك من الايضاحات المفيدة

« وخير وسيلة ان لا نقول شيئاً لئلا يسمعنا سامع فيهرب الفتاة المسكينة اذا كانت موجودة هناك كما تظن

وعلى كل حال سوف تقف على الحقيقة من الآن الى المساء فاذا وقفت عليها أطرح كاساً على الارض عند ما تأتينا بالشراب

ونحن نفهم المعنى المقصود من وقوع الكاس

« واذ ذاك نبادر الى العمل ونحن على يقين

« اذن فالملتقى فى هذا المساء

« مانيلون »

وانقضى ذلك اليوم بعد الظهر ولوسيان طلق المحيا بشوش

فكان يخدم العملاء وهو يترنم ويغنى وقد أطربهم مرآه وابتهجوا بطلاقة وجـهه ولسانه وكثرة بشاشته

وفكاهة خلقه

لم يمنعه ذلك من مراقبة مايجرى فوق

وفى نحو الساعة الخامسة بصر شارلمان قد نزل وطلب كأساً من الابسنت

فلبى لوسيان الطلب وأراد مخاطبته والاخذ بأطراف حديث طويل لكن برموش لم يتأخر وامتنع عن الثرثرة .

ورجع الى الطبقة العليا ثم خرج للمرة الثانية ومعه فيرجينى وصبية بديعة الجمال لكنها لابسة ثياباً مرقعة فكاد ينكر لوسيان انها السائلة

لكنه غمغم يقول هذه هى تسكن معهما وسوف يرجعون ليلا ويكون قدوم مانيلون في وقت ملائم

وجعل يرقب الباب ويقول ينبغى الحذر فلا يجب ان يفلت من ايدينا النصر بعد ان قبضنا عليه

هذا ودفير المنحوس كان يخسر خسارة متوالية فى ميدان السباق فى هذه الاثناء

الفصل الثامن

النجاة

فى الساعة التاسعة من مساء ذلك اليوم دخل ثلاثة رجال الى حانة الفندق

فجلسوا فى زاوية قريبة الى الباب الداخلى الذى يصعد منه على السلم الى الطبقات العالية من الفندق

وكان الدخان منبعثاً في جو المكان ممتزجاً بهوائه ودفير جالس الى مركبته كأنه جوبتير رب الارباب متبوىء عرشه تحيط به السحائب

ولقد ساء خلقه فى تلك الليلة وتوعر وجفا طبعه وخشن وعلا وجهه القطوب لانه رجع من ميدان السباق بعد ماترك فيه مئات من الفرنكات خسارة آلمته وعظمت اعتقاده فى النحس الذى جرته عليه سرقته

للعجوز ديبو

فكبر وسواسه وصدق فيه المثل الفرنساوى القائل ما يجىء به المزمار يذهب به الطمبور .

فلما عاد أقبل على مابقى له من مال

فاشتدت حسرته لما وجد ثلاثين الالف فرنك المسروقة قد انخفضت فصارت خمسة آلاف فرنك وفلوسا قليلة

فشتم ولعن وندب سوء حظه وكاد يبكى

ودفير نقم ظلما على بخته لأن من يلذ له أمر لايحق له ان يشكو اذا انصرف اليه وتمتع بلذته

لذت له المراهنات وتمتع بهذه اللذة وكفى انه حقق أمنيته وقدر على مااشتهى

لكنه علل النفس برجوع البخت والاخذ بالثار منه فى اليوم التالى

الا انه لبث صامتاً فلم يحفل بالثلاثة الذين دخلوا الى حانته

على انه لوحقق النظر فيهم لما اكتشف بينهم ذلك

الشيخ الذى وخط الشيب لحيته وطلب منه بالامس ان يأويه الى فندق

فان مانيلون غدا حاذقا فى فن التنكر حتى يمكنه ان يضارع فيه المسيو انطونين نفسه

فانتظر الثلاثة حتى يتمكن خادم القهوة من خدمتهم وتقديم الشراب الذى يطلبونه

ولعلهم لم يكونوا من أمرهم على عجل

فلما اقبل لوسيان وفوطته على ساعده طلب منه مانيلون زجاجة خمر

فبادر له نظرة سريعة تفاهما بها وأجابه حباً وكرامة يا سيدى

واتجه الى ناحية المخزن ورآه مانيلون يبتعد ويروح ويجىء فاعلا مايجب فعله على كل خادم من غير ان يفهم مانيلون الجواب عن سؤال يلوح فى نظراته اليه وهو هل السائلة الحسناء موجودة هنا ؟

سؤال هاج أعصابه ودماغه وأرعش جسمه وان لم يبد عليه ارتعاش

فاستمر ينظر الى لوسيان وهو يخدم الناس ويقضى عمله منتقلا من طاولة الى اخرى ثم رآه قد رجع الى المخزن فتناول من يد دفير زجاجة الخمر ووضعها على جبينه مع ثلاثة أقداح ثم جاء اليهم

فخفق فؤاد مانيلون سريعاً لانه يوشك ان يعرف ما يتوق الى معرفته ...

فدنا لوسيان او أناطول ممسكا تلك الصينية باطراف اليد فوضعها على الطاولة

وللحال، ارتجفت يده وسقط أحد الأقداح على الأرض فتحطم

فتنبه دفير الى صوت الزجاج وصاح به :

يالك من غبى أخرق ! ويك ماذا فعلت

فاتخذ اناطول هيئة الوجل والخجل

واجاب وهو منحنى على قطع الزجاج قال انى أجمع القطع المكسرة

أما مانيلون فارتعد ارتعاداً واضحاً

ذلك لأن خرق أناطول سره بمقدار ما ساء صاحب

الفندق

لان القدح المكسور كان العلامة المتفق عليها ومعنى هذه العلامة التى لا يمكن ان يفهم المراد منها أحد « ان السائلة الحسناء موجودة هنا »

ودفعت مانيلون حماسته ومسرته الى مبادرة رفيقه بسؤاله

الا ان أناطول وقف للحال وبادر الى المخزن سريعاً آخذاً فى مراضاة دفير وكان غضوباً محتدماً من تكسر القدح

ذلك لان ثمن القدح القليل أثر عليه تأثير خسارته الكبرى فى المراهنات

فانفجر بركان استيائه بعد الانحسار

ثم اقبل اناطول على رفيقيه مانيلون والشرطي الآخر المتنكر فهمس يقول ان الطائر فى قفصه فلنتأهب لاقتناصه والفرصة سانحة

وبعد نحو دقيقه عاد اليهما وفى يده قدح جديد فانحنى على الطاولة وغمغم يقول نمرة الغرفة ٢ في الطبقة

العليا

فاجابه مانيلون لكن متى ؟

قال صبراً

ونظر نظرة ذات معنى الى الباب الداخلي يشير الى السلم الذى ينبغى الصعود فيه للوصول الى تلك الغرفة

وقد دخل شارلمان بذلك الباب وفيرجينى تتبعه فاتخذ لهما مكاناً غير بعيد عن المخزن

ولم يلاحظ برموش ولا فيرجينى مانيلون وزميليه فطلبا شراباً قدمه دفير بنفسه

فانتهز اناطول فرصة بمحادثتها وناول مانيلون مفتاحاً وقال بصوته المنخفض

انه مفتاح الغرفة نمرة ٢

وكان شارلمان يحمل اثنين مثله فى جيبه

ثم قال اذهب الآن فهذا وقت العمل أما أنا فلا ينبغى ان افارق مكانى

وناداه العملاء فلبي النداء لكنه بقي بقرب مانيلون اذ قال له

البث هنا انت ورفيقنا وأما انا فاصعد وحدى وراقبا مايجرى، فاذا لاح لكما مايريب اصفرا لى فاتدبر

وانحرف قليلا فاختفى للحال وطلع من ذلك الباب فاذا به يرى نفسه فى اسفل سلم ضيق مظلم

وكان يحمل مصباحاً صغيراً كهربائياً فأنار به طريقه واخذ فى الصعود سريعاً

فوصل الى باب الغرفة نمرة ٢

وقبل ان يفتح الباب تردد شيئاً يشاور نفسه في الاستئذان من الفتاة قبل ان يدخل خيفة ان ترتاع لكنه لم يطل تردده فقال اننى اعرف كيف احملها على الطمأنينة

والوقت لايتسع للتأمل فقرع الباب بلطف فسمع صوت الفتاة تجيب وهى منزعجة قائلة من انت؟

فعرف، صوت نائلة وأجابها صديق... فلا تخافى اننى جئت لانقاذك

وفتح الباب

وكانت، نائلة واقفة بقربه تنظر وهى منفعلة الى ذلك

الرجل المجهول ومصباحه الكهربائى فى يده

فقالت له وهى ترتعد!

ماذا تريد؟

أجاب أريد انقاذك مما انت فيه ... فاعرفينى الآن انا ذلك الشيخ المتسول الذى لقيته على باب كنيسة نوتردام وحاول تنجيتك منذ ايام عند ماصادفك صباحاً بقرب محطة ليون على باب الكنيسة

فصاحت آه شكراً لك!

وعرفته من صوته ونظراته

فبادرت اليه مستأمنة

وزال يأسها المعتاد حينما وجدت ذلك الرجل الكريم الذى سعى فى انقاذها مرتين ولم يفلح وكاد يسفك دمه لأجلها

فتبسمت له ولمعت عيناها فرحاً

فتناولها من يدها قائلا تعالى

فاجابته سمعاً وطاعة

وكان صوتها مرتجفاً لامن ارتياع بل من أمل فاجأها

مفاجأة بعد اليأس والقنوط

عادت الى الحياة بعد الموت وستلقى امها وتضمها الى صدرها وتعرفها وتنال الحرية وتعيش فى دعة وسلام!

فالسعادة أمامها!..

فتبعت مانيلون وهو يقودها

فنزلا بضع درجات فلما وصلا الى سطح الدرج الفاصل بين الطبقة العليا وما تحتها خبأ مانيلون مصباحه وامتنع عن الانارة به

فقد كان يهمه الوصول الى الطابق الارضى من غير ان يلفت الابصار اليه والمرور امام المطبخ لبلوغ الدهليز الذى يفضى منه الى محل القهوة

ففعل الاصعب ولم يبق الا اليسير فلا تمضى دقيقة حتى يكون في الخارج

واذا به يسمع صفيراً لقد فسد التدبير

* * *

ماذا حدث؟

أمر يسير جداً ولكنه قد يتحول الى خطر ومن

الصغائر تتولد الكبائر

ذلك ان شارلمان قال لزوجته

لقد نسيت قصبة التدخين فى الغرفة فانا ذاهب لاجىء بها

ونهض للحال

فمر بالشرطيين زميلى مانيلون وخرج من القاعة

وسمعا وقع خطواته الثقيلة على الدرج الخشبي

فصفر احداهما صفيراً رناناً

فاستمر برموش فى صعوده على السلم وكاد يصادف مانيلون ونائله . . .

هذا والشرطيان فى القاعة الكبرى ينتظران غير عالمين بمكان رفيقهما ولكنهما متأهبان لمساعدته

ولكنهما لم يسمعا غير وقع قدمى شارلمان ولم يريا الا ظلاما دامساً فى السلم

وشعر مانيلون بقدوم الشقى ولم يستطع ان يراه لكنه ارتعد خوفا على الفتاة

واقتربت خطوات امبراطور الشحاذين

وكاد يصل الى سطح الدرج

حيث كان مانيلون واقفاً مع السائلة الحسناء

فهمس فى أذنها يقول حذار ان تتحركى أو تتكلمى !

ودفعها الى زاوية السطح الصغير

فوصل شارلمان وهو ينفخ تعباً لانه أفرط فى الشراب كعادته شيئاً ليستريح

وكان بقرب مانيلون ونائلة فلو مد زراعيه للمسهما

فامسكا تنفسهما وتصاغرا ولزما الجدار

فقال برموش يا للداهية ما هذا الظلام فقد يشج المرء رأسه في هذا السلم المنحوس !

وسمعه مانيلون وشعر والرعب آخذ منه انه يفتح علبة تقاب

وهو لا يرهب برموش لأنه قادر عليه ولكنه أشفق على نائلة لانه قد يصيبها بلطمة فيقضى عليها

وعاوده تذكر ما جرى له معه قرب محطة ليون ورأى العظمة بيده والرصاصة والخيط . . . وسمع صفير الرصاصة التي جرحته في جبينه وكادت تشج جمجمته

فقال فى نفسه .

تالله لان نزل بمثل تلك الضربة على نائلة فموتها محقق

وفكر فى الاستغاثة برفيقية غير انه سمع برموش يقول

ليس فى العلبة الا عود واحد من الثقاب

وحكه على الجدار فلم يشتعل وزالت مادته

فشتم الامبراطور وزمجر ورمى العلبة على الارض

واستمر يصعد ويستند على الدرابزون

فنزل مانيلون ونائلة بسرعة

فوجدا الشرطيين ينتظرانهما فقالا بادرا الى الفرار فالممر أمامكما ولسوف يتبعونكما

فركضا الى الباب وما كاد يتجاوزانه الى الخارج حتى سمعا صيحة هائلة ملأت البيت

ذلك ان شارلمان وصل الى الغرفة وعلم ان السائلة الحسناء قد اختفت

واستوقف مانيلون عربة فى الشارع فوثب اليها ونائلة فسارت بهما سيراً حثيثاً واحتجبت للحال وشارلمان ينزل السلم وثباً ولسانه يقذف الشتائم والسباب

ورآه الشرطيان فهمسا يقولان هيهات ان تدركهما فقد فات الوقت ايها الصديق

أما مانيلون فقال لنائلة:

لقد نجوت فى هذه المرة

وضعفها الخوف فلزمت زاوية العربة وهى ترتعش

والتبس عليها الامر فلم تدر اذا كانت نجاتها من تلك الهاوية حقاً وخلاصها من الجلادين الذين الفا تعذيبها ليس بحلم كاذب ولم تدر اذا كان ينبغى لها ان ترجو لقاء أمها

وهل يمكن أن يكون مثل هذا الهناء الكبير الا حلماً

أما مانيلون فكان يكرر لها قوله ان والدتها تنتظرها وتبكيها وتحبها . . .

فتشعر بفؤادها يخفق وتغرورق عيناها بالدموع عند التفكر فى قرب موعد لثمها والدتها وضمها الى صدرها والتمتع بانعطافها بعد ما حرمه الدهر عليها فى أعوام طفوليتها وحداثتها المنحوسة

فكانت تصغى الى الشرطى متوسلة اليه ان يزيدها كلاماً عن

أمها وان يصفها لها لأنه يعرفها . . . وقد كلها قبلا . . .

واستشعرت منة لمنقذها لا تفوقها منة وأخذت تلثمه وتشكره شكراً تمازجه الدموع

أما زميلا ما نيلون فقد لبثا فى فندق دفير منتظرين صابرين لما يمكن ان يجرى هناك ليأخذا بناصر لوسيان وليساعداه عند الحاجة

الفصل التاسع

(عند القوم الاخيار)

جاء مانيلون بالسائلة الحسناء الى منزله كما أنبأ زوجته سيجاريت قبل ذلك

وهو منزل وضيع لكنه نظيف مرتب فعلمت نائلة أنها وصلت الى الشاطىء الامين . . .

وشعرت بان ذلك البيت لقوم أخيار كرام تسود عندهم الدعة والأمن وينعمون بالسكينة والسلامة وشتان بينه وبين الهوة الجهنمية التي كانت واقعة فيها

فارتاحت الى ما رأت من زينة زين بها ذلك البيت ونعنى بها المصنوعات اليدوية التى لم يكد مانيلون ينفق

شيئاً على اقتنائها لانها مما صنعت انامل سيجاريت

وكانت عالمة بالخطر الذى تصدى له زوجها في هذا اليوم فانتظرت النتيجة بقلق

فلما رأته داخلا يقتاد الفتاة وثبت طرباً وحبوراً ولا يخلو حبورها من كبر ومفاخرة مما امتاز به زوجها العزيز من الذكاء والنشاط

وأحست نائلة بحياة جديدة كانها خلقت لها فى تلك الساعة ساعة تلقتها سيجاريت ببشاشتها ولطفها واظهرت مشاركتها لها فى غابر بؤسها وحزنها . ومافتىء مانيلون يلاحظها بعين والد شفوق

لاشىء أشد تأثيراً على القلب من انعطاف الصديق الودود فكيف اذا كان ذلك القلب كقلب نائلة قد حرم الموالاة والمصافاة ودهى بالشجن والضنك والغم منذ شأنه وبداءة شعوره

واطرب نائلة المسكينة انها ابتعدت عن الرذائل التي كانت على الدوام نابذة اياها فباتت شاعرة بنوع من الخفة الناجمة عن انطلاق اسرها وعتق رقها

وعاودها الرجاء الآن وابتسم لها ثغر الآمال وبسم الدهر فى وجهها بعد ما عبس وامتلأت نفسها عزاء ورجاء فى وقت معاً فصارت الى الاعتقاد بان الهناء خاتمة طبيعية لما لحق بها من الويل الماضى وما نزل بها من الاهوال

فكانما ارتفع حجاب لها عن زاوية من زوايا فردوس النعيم ورأتها كما ترى فى الحلم

فاعتصمت بالصبر على امل من قرب ذلك اليوم العظيم . . . يوم الفرج الكبير والغبطة التى لايحيط بها وصف

يوم اجتماعها بامها ! . .

وعدها بذلك مانيلون واكد انه عما قريب سيلقيها بين ذراعى تلك الوالدة الحنون ... ووثقت وثوقا عمى بمانيلون لانه منجيها الوحيد وملكها الحارس

وانتشرت فى نفسها قوة عجيبة لم تكن تشعر بها قبلا هى قوة الشباب التى تنتصر على كل شىء وتصلح الاعمال وتضمد الجراح وتشدد العزائم وتأتى بالعظائم

ولا جرم ان الفتاة المسكينة تشفى من تلك الجراح الاليمة التى اصابها بها الدهر متى انست بلقاء امها الحنون وقد تمحو قبلاتها وعبراتها المتساقطة فرحاً وحباً ذكرى آلام حداثتها ولا رحم الله عهد شقاء مضى

وفى اليوم التالى قصد مانيلون الى قصر المركيز دى سمروز فى شارع ويليه عند الصباح وهو متأثر سرورا يوسع الخطى تائقاً الى نقل البشرى متصورا غبطة المركيزة سلفاً وما سوف يطفح عليها من ابتهاج وفرح حين يقول لها

لقد وجدت الابنة ايتها السيدة فلك البشرى انها تنتظر عندى وصولك اليها

لان مانيلون كان موقناً ان الفتاة نائلة هى ابنة جليبرت ثبت له ذلك من تشابه الخط فى الرسالتين يعنى بهما التى تلقاها من المركيزة . والتى وردت على الفتاة فى صغرها فاليد التى سطرتهما واحدة بلا ادنى ريب ففكر قائلا لعلها هفوة شباب هفتها . . .

وقد اتيح له أى لمانيلون ان يفخر بانه تدارك مافرط

من اهمال المركيزة لتلك البنت الصغيرة المحبوبة فاصبح يجر ذيولا من التيه لفوزه واستمراره على اصلاح شانه والارتقاء فى مدارج الفضل والتكفير عن سيئاته الماضية فاستراح ضميره من التبكيت وصفت سريرته من الكدر

فلما قرع جرس الباب الخارجى تلقاه خادم فتحه له وقال له ماذا تريد

أجاب اريد مقابلة المركيزة دى سمروز

قال انها متغيبة

قال مانيلون أين هى ؟

فاراد الخادم اختصار المحادثة فاجاب ليس لدى أمر لاخبرك بمكانها

قال لدى نبأ جليل الشأن اود اخبارها به

اجاب عد عند ايابها من سفرها

قال ولكننى مستعجل

اجاب اذن فاكتب اليها رسالة وانا اوصلها اليها

فقال مانيلون لست قادراً على ذلك ولكننى اود مقابلتها طلباً للاسراع

اجاب لا فائدة من الحاحك

واقفل الباب وعاد الى مطالعة جريدة كانت بيده

فتميز مانيلون غيظاً وقال يالك من حيوان بهيم !

وانصرف وهو محتدم ساخط

لكنه اطرق يفكر ثم قال فى نفسه لا بأس من كتابة كلمتين للمركيزة تفهم منها المراد ثم اقود اليها ابنتها متى علمت بها وضربت موعدا

ولم يشأ مانيلون ان يأتى بنائلة معه لشعوره بامر مهم يجب اجتنابه وفكر فى انه يحسن عملا اذا انبأ البنت والام بقرب اللقاء سلفاً اذ ربما كان هناك سر يوجب الحذر من اشتهار امرهما . فلم ير ان يقتاد نائلة الى القصر فلما رجع الى منزله وجد السائلة مراقبة اوبته بقلق لا مزيد عليه وغبطة لا توصف...

ملت الصبر بعد ما كادت تصل الى غرضها فكان مللا غير معقول

فركضت واستقبلت مانيلون بكلمتين تدلان على رجائها اللذيذ الجديد

قالت . ماذا جرى

فاجابها ان والدتك متغيبة عن باريس ... فلابد من الانتظار اياماً ريثما تأوب

قالت ويلاه من الانتظار ...

فلقد طالما انتظرت !...

قال اطمئنى فذلك لا يطول ... وسوف اكتب الليلة الى امك

قالت ولكن من هى امى ؟ .. انك لم تخبرنى حتى الساعة من تكون ؟...

اجاب لست قادراً على اخبارك حتى الآن وهى التى تعلمك بامرها يابنية فصبراً حتى تلتقى بها وعليك بالاناءة واعلمى ان لامك وحدها الحق فى أخبارك عن اسمها وثقى ان السعادة قريبة منك ان شاء الله

قالت ويلاه من اين تأتينى السعادة !

ولبثت صامتة سحابة النهار كئيبة مطرقة

فقد أروها مرآة ... ثم ابعدت عن عينها فكانها أبصرت رؤيا ثم جاءت الحقيقة والخيبة

ذلك ان قلبها كان دامياً جريحا وقد نشأت بسعدها امل وحيد ومحبة بنوية فلما اشرق لها نور جديد هبطت الى ظلمات الياس فسال دم جرحها

وعمدت سيجاريت الى تسليتها ومؤاساتها والاعتناء بها وبعد طول التلطف والمجاملة اعادت الابتسام الى ثغرها وشفتيها الصفراويين

على ان اقامتها فى ذلك البيت انعش قواها وجدد عزيمتها انها رأت اناساً ينتمون حقاً الى الانسانية

افلتت من حمأة قزرة ذبلت فيها نضارتها حيناً من الدهر

فكان وصولها الى بيت مانيلون جبراً لكسرها وانطلاقا من اسرها وكفى بذلك داعياً الى السرور

فحاولت زوجة مانيلون ان تنسيها كل ما يذكرها بهمومها الحاضرة واستبعادها الماضى

وهو فكر والدى خليق ان يجول فى زهرة والدة

فانتزعت من السائلة اطمارها الممزقة البالية والبستها ثياباً جديدة نظيفة فظهر ما كان خافياً من رشاقه قدها

وظرفها

واختفت الطفلة التى ضحيت على مذابح اللصوصية والسؤآل وزال ثوبها الخلق القصير وتغير حالها واستحال

فصارت الابنة صبية فتانة المحاسن وامحى أثر التعس الطويل الذيول وظهر حسنها

فجعلت سيجاريت تنظر اليها معجبة ببهاء طلعتها وصفاء بصرها وتبدل شانها

هذا ومانيلون قد أخذ في اثناء ذلك بالكتابة الى المركيزة دى سمروز يخبرها انه وجد الابنة التى اهتمت بها فكتب اليها ما ياتى .

« انها عندى فى أمان ودعة وها أنا انتظر أمرك حتى أحضرها اليك »

وهى رسالة عزم على تسليمها فى ذلك اليوم الى خادم القصر وغداً تصل الى المركيزة

وبعد يومين اوثلاثة تقدم المركيزة فينتهى عذاب نائلة وتبدو لها تباشير السعادة الحقيقية

﴿ الفصل التاسع ﴾

الحب الاثيم

كان روبر دى سمروز يتمشى فى حديقة المنزل الذى يقيم فيه مع والدته في نيس صباح اليوم التالى لليلة الحفلة التى أقامتها غادة الشعر الذهبي فى قصر سان ستفانو

فوقف قليلا ينظر الى تلك البدائع الطبيعية التى يشرف عليها المنزل وهو كثير التفكير ثم عاود التمشى فى الحديقة

فانفتح بابها وقتئذ ودخل منه صديقه جورج دى كانتابل فأسرع اليه وقال له وصوته يرتجف :

كيف حالها ؟

أجاب أحسن . ويمكن القول انها جيدة فان جرحها ليس بذى خطر على انه كان يمكن ان يكون مميتاً

قال وكيف ذلك ؟

أجاب نعم بالنظر الى المكان الذى اصابته الضربة فهو مقتل لكن السلاح انحرف عنه شيئاً لانه صادم شريط المشد فكان ذلك المشد سبباً لنجاتها وهو اتفاق عجيب لولاه لقضت غادة الشعر الذهبي . . . والحياة كخيط العنكبوت فى سهولة انقطاعها اوهى اوهى !

قال اذن فانت ترى انها قريبة الى الشفاء ؟

أجاب نعم وأعيد لك القول ايها العزيز ان جرحها يكاد يكون خدشاً .. ويمكن ان يندمل اليوم

فتنهد روبر تنهداً يدل على شدة تعلقه بالبارونة بولنسكا وقال لقد اطمأن قلبي الآن ... فهل استطيع ان أراها ياترى

أجاب نعم متى شئت . . . ولكن اى حاجة بك الى هذه العجلة!

قال نعم اننى مستعجل تتوق نفسى الى اخبار ينبينا بما خامرنى من اضطراب حين سمعت صرختها فى الليل !.. وكيف بادرنا كلانا الى المستنبت وانهضناها وهى مغمى عليها وثوبها الابيض مخضب بالدم . . . فيالله اية

عاطفة شعرت بها وقتئذ واى ارتياح !..

اما الآن فالحمدلله انى فى طمأنينة

قال جورج لك ذلك ايها الصديق فاطمئن ولاتحزن

قال ماذا عسى يقولون في البلدة عن هذه الحادثة التي كانت بئس الختام للحفلة؟

أجاب انهم يطلقون الالسنة بالحق والباطل والحكومة تستطلع وتتحرى لكنها لم تهتد الى اثر حتى الساعة

قال ألم تهتد الى أثر للقاتل؟

أجاب كلا ... ولكن كان يمكن ان يهتدوا لو ارادت المرأة الجريح كلاماً

قال روبر وكيف ذلك ؟

أجاب قد علمت ان خادمة البارونة بولنسكا عثرت على كتاب ملطخ بالدماء مخبوء في مشدها وذلك عند ما انتزعت الخادمة ملابسها ساعة ارتفع الضجيج فى القاعة وساد الارتباك وانصرف المدعوون مستائين

فدهش روبر وقال ماشأن ذلك الكتاب ؟

أجاب جورج ان الخادمة ناولتنى اياه لاننى كما تعلم

كنت طبيب البارونة عند بدء المعالجة ...

قال روبر لقد كان ذلك حين انصرافى عملا بما توجبه اللياقة فى مثل تلك الحالة كنت منزعجاً كل الانزعاج فحملتنى على الطمأنينة

قال جورج نعم اما ذلك الكتاب فلم يدر فى خلدي مطالعته الا انه كان مطوياً لا يظهر منه الا اسم « كاتبه جاك نورتون ... فوقع بصرى على ذلك الاسم عرضاً واذا بالبارونة قد استفاقت من اغمائها ووجهت بصرها الىّ ورأت الكتاب فى يدى فطلبته منى بلهجة الامر

قال روبر فماذا كان بعد ذلك ؟

أجاب ارجعته اليها ... فمزقته قطعاً صغيرة جداً حتى يستحيل جمعها فيما لو وجدت ... على اننى أحسبها قد حرقتها. واظن الكتاب هو الذى رأيته تستلمه وتقرأه فى منتصف وقت الحفلة

فاطرق روبر يفكر ثم قال ان الامر غريب

اجاب نعم وهذا رأيي أيضاً

قال اية علاقة بين ذلك الرجل المدعو جاك نورتون

صاحب التوقيع السرى والجريمة المدبرة فى تلك الليلة انى لا اجهل ذلك ولكن لا بد ان يكون هنالك سر او شىء آخر

قال لعلك اذا تفكرت ملياً ...

اجاب روبر سوف امضى الى هناك فاعرف الحقيقة

قال الى اين ؛ الى قصر سان ستفانو ؟

اجاب نعم

قال يالك من مجنون مسكين ! فهى تخفى عليك ما اخفيته علىَّ ... اما انا فقد فطنت لقسم من المأساة ...

قال اذن فانبئنى بما تعرف وقل لى ما معنى كلامك « اذا تفكرت ملياً ... »

أجاب هل تود حقيقة معرفة مرادى

أجاب نعم !

قال فاعلم اذاً ان جاك نورتون كاتب ذلك الكتاب الى البارونة ينينا هو عين الرجل الذى سمعته منذ ايام فى الكازينو يهدد غادة الشعر الذهبي تهديداً مخيفاً ... فاذكر ذلك ياروبر انى انبأتك عنه في وقته

أجاب روبر الا تزال على ذلك الرأى الفائل والاعتقاد الباطل

قال ان اعتقادى غير باطل لاننى سمعت ما قيل عنها باذنى وأرى الآن ان ذلك الرجل جاءها منتقما لانهـا غدرت به وانصرفت عن مودته بعد ما كانت عشيقته وخليلته . هذه هى الحكاية من الاول الى الآخر

قال روبر لا تصدق كل ما تسمع وان هى الا أحاديث ملفقة ومن الجنون ان تعتقد صحتها

أجاب جورج بل هى الصواب والحق

قال آه ياجورج ما أكبر اساءتك الىّ لو تدرى انك تؤاذينى بأصرارك على رأيك

أجاب انما أريد لك النجاة من الخطر المحيق بك ياصديقى المسكين ! فتبصر واناشدك الولاء أن تتبصر وتتدبر جيداً ... دع الافتتان الذى غشى على بصيرتك وأرفع العصابة التى انسدلت على بصرك وانبذ الصبابة التى نالت منك وكان فيها جمال البارونة متسلطا عليك وارجع الى عقلك وهداك وليكن حكمك على هـذه

المرأة حكماً مبيناً على دعائم الحقيقة مجرداً عن الهوى وانفعالاته يتبين لك جلياً انها ضالة مضللة هجرت عاشقاً لها حين صفر وطابه وخلت جيبه وظهر لها افلاسه ونصبت لك الاشراك حتى أوقعتك فى حبائلها

أجاب روبر ولكنها تهوانى ! ..

قال بل تهوى اسمك ولقبك وتصبو الى شرف قومك وتريد أن تغدو مركيزة باقترانها بك .. رأتك مستقيم الباطن طيب القلب فعبثت باستقامتك وخادعتك وجازت حيلتها عليك . وايقنت بانها تفوز عليك حتى تجرك اليها وتنال غرضها منك . ولكن لم يفت الوقت ولا انقطع الأمل من نجاتك فارجع عن عزمك وازدجر ولا تأت حماقة تندم عليها واى ندم . ان البارونة بولنكا لا تصلح لان تكون زوجة لك ... فاهرب منها كما تهرب من افعى ... واصغ الى صوت الصديق الذى يخاطبك فان صداقتى اصدق نظراً من صبابتك وولهك!

فصمت الاثنان بعد هذه الكلمات وسمعا وقع

خطوات تدنو منهما

واذا بالمركيزة دى سمروز قد أقبلت من عطفة فى الحديقة

فمدت يدها الى ابن صديقتها جورج ولاحظت اهتمامه البادى عليه واضطراب روبر

فقالت وهى باسمة :

لعلى قطعت حديثكما ياولدى والا فما بالكما ؟ ..

أجاب جورج لقد نقلت الى روبر نبأ عن البارونة بولنكا

قالت وما شأن هذه المرأة التى تتعرض للقتل فى وسط حفلتها فهل هى احسن حالا ؟ ..

اجاب جورج نعم وقد زال كل خطر عنها فقدرت على النهوض والتزيى بملابسها التى تعجب والظهور بالمظهر الذى يرضى دلالها

قالت ما اصدق نظرك ياجورج فلماذا لا يراها روبر بعينيك ولماذا لا يكون مثلك

قال روبر اماه ! ..

فجلست المركيزه على مقعد فى الحديقة بجانب ولدها وتناولت بيديها رأسه وقالت له

يعز علىّ ان اكون سبباً فى ايلامك ... وان انتزع من فؤادك هوى يفضى بك الى اسوإ عاقبة... ولكن كن واثقاً بافضل اصدقائك فصدقه وصدق والدتك واعلم يقيناً ان المرأة المقيمة فى قصر سان ستفانو ليست كفؤاً لك وهيهات ان تتحد روحك بروحها فهما لم تخلقا للتواد . . .

قال جورج ذلك ما كنت اقوله منذ هنيهة ولعل نفوذك على روبر يكون اعظم من نفوذى انا

اجابت لست اود استخدام نفوذى هنا ولا اريد فانت تعرف يا جورج ان فى شعور الامهات ما يبغض اليهن كل هوى تعلق به قلوب ابنائهن وما ذلك الا حرصاً على حب الابناء لهن ان يتناقص بحب آخر

قال جورج هذا صواب

قالت جيلبرت وقد رأيت امهات يبكين ويتلهفن يأساً عند ما يخامر فؤاد الابن هوى فتاة او امرأة

صبية وهو حب ذات لكنه معهود فى الانسان ولا فى النساء لانه ناجم عن ضعف ... اما انا فاقسم لك على اننى لم اشعر به قط ..

اجاب روبر انى اعرف ياأماه مقدار حبك لى وانك لاتريدين لى الا السعاده

قالت ويسعدنى ان تهوى هوى صادقاً خالياً من كل شين هوى يرفع النفوس ويشرفها ويسمو بها . فذلك ما اتمناه لك من صميم فؤادى . . . وبه يتم سرورى الوحيد فى هذه الدنيا ... بل الذى لأجله احب الحياة

وهنا كان صوتها مفعما كآبة وغما وذكرتها هذه الكلمات بما يسؤها ويحزنها ويسرها ويفرحها فى وقت معاً لكنها تجلدت وقالت نعم اننى اتمنى لك السعادة بالحب الحقيقى الطاهر غير ان البارونة بولنسكا لاتصلح لك ولا يمكن ان يختارها فؤادك . وانما اقتنصتك بحبائل فتنتها وحسنها الغريب لكنها لايمكن ان تكون رفيقة حياتك وشريكة امالك ووالدة اولادك ! . .

فأخذ روبر يبكى وينتحب ورأسه على صدر والدته

ذلك لأن ينينا سحرت فؤاده واقتنصته حقاً فليس في امكانه ان يطرد هواها من قلبه . ان فى ذلك عذاباً له لا يطاق ... وهو من جهة أخرى لايستطيع ان يجلب غماً الى والدته ويأتيها بامرأة لاتحترمها ولاتكرمها ولايمكن ان تحبها أبداً

فقام فى نفسه عراك هائل . عراك عنيف بين هواه وحبه البنوى بين صبوة الشباب وقوة اندفاعه واحترامه لوالدته وبيته فتفطر فؤاده من ذلك العراك

فقالت جيلبرت وارحمتاه لك يا ولدى المسكين فهل قضى عليك ايضاً ان تبدل هناك ضحية فى سبيل هوى مشؤوم

وقال جورج انى ارثى لك ايها الصديق المسكين... ولكن صبراً وجلدا وشجاعة كن قوياً باسلا وقاوم مكر تلك الماكرة !

ولبث روبر مضعضعاً امام تلك الوالدة الحنون فاقد القوى بصوت ذلك الصديق الامين وقد ابرزا له هوى ينينا لجة هائلة مخيفة قد تبتلع حياته ومستقبله

فقال واللهف آخذ منه :

ويلاه ماذا اصنع ؟ ... ماذا اصنع ؟ ...

قالت والدته عليك بالسفر يا بنىّ فخير لك ان تكسر فؤادك من ان تهلك حياتك لان كسر القلوب يجبر فيما بعد ... فانت فتى مقتبل الشباب يا روبر.. وسوف يعرض لك هوى اخر شريف وتنفتح امامك طريق زاهرة خالية من الاشواك فتسير فيها مطمئنا

اجاب الى اين اسافر ؟.. ان صورتها ممثلة فى ذهنى حيث كنت...

قالت ابتعد عنها الى اقصى مكان . سافر سفرا بعيدا ... فانك متى ترحل الى بلاد اخرى ويقع بصرك على قوم آخرين تسل ما بك من هوى البارونة بولنكا سوف تنسى تلك المرأة المشؤومة لانك طيب القلب ودوده فهو يستحق افضل من قلبها . . . تزوج فتاة فقيرة مظلمة النسب اذا شئت ولكن لا تلق بنفسك الى تهلكة . . .

وقال جورج سوف تباركنا يا روبر فى المستقبل

لاننا كنا السبب فى عذابك اليوم

قالت مدام دى سمرور نعم فان هذا العذاب فداء المستقبل

وهنا سكتوا جميعا سكوتاً طويلا عميقاً

ثم رفع روبر رأسه ومسح دمعه وقال بلهجة غير لهجته الاولى:

لقد صدقتكما ولكننى اتألم ! . . . اتألم من هوى يفنينا ! ...

ثم بكى أيضاً بين ذراعى والدته كانه طفل صغير

فقالت له

اصغ الىّ ... فهل تود ان نرحل الى مكان بعيد ... جداً ؟... انى اتبعك الى حيث شئت اسعافا لك على السلوان ولعلى اتمكن من حملك على النسيان والالتجاء الى غير ما أنت فيه

اجاب كلا يا أماه فلا اود ان اجشمك تعباً لاجلى.. ولكننى أسافر وحدى فاستريحى هنا ولا تهتمى بغير صحتك ...

فقال جورج اذن انا أسافر معك ياروبر فانا ذاهب لانبئ والدتى واتاهب والافضل السفر الى القطر المصرى فنزور الاسكندرية والقاهرة والنيل والاهرام. فالقطر المصرى بلد تاريخى جميل وسوف ترى فيه ما ينسيك ويسليك

فمد روبر يده الى صديقه وقال رضيت بصحبتك ايها الصديق وانعم بك من صاحب

فقالت المركيزة انى اشكر لك ياجورج ما أنت فاعل وأعهد اليك بولدى . . . واسأل لك التوفيق فى كل شىء ...

وفي مساء ذلك اليوم جاء جورج ووالدته فقضا السهرة عند المركيزة دى سمروز

وتقرر سفر الصديقين في اليوم التالى بالنظر الى الاستعداد الذى لا بد منه لذلك

وتواعد روبر دى سمروز وصديقه على الملتقى فى محطة نيس عند الساعة الثالثة بعد الظهر

فيذهبان الى مرسليا ومنها يركبان باخرة الى

الاسكندرية

وادمى فؤاد جيلبرت تفكرها فى سفر ابنها ولكن من الاحزان مالابد منه لدرء المصائب والحكمة تقضى بالنظر فى العواقب واتخاذ التدابير سلفاً

فودع روبر والدته وعزم على ركوب القطار الى مرسيليا وفؤاده يذوب حزناً لكنه عاقد نيته على ذلك السفر

وكان الخدم يجهزون له امتعته فاحب ان يسير على قدميه تنزيهاً للنفس لآخر مرة بمناظر تلك البقع الجميلة وتمتعاً بهوائها العليل وشذاها الطيب المنبعث فى كل مكان منها قرة للعيون وبهجة للقلوب

فكان يمشى وهو مطرق مفكر فى كل من يحبه وكل ما عزم على مفارقته

فكانت نفسه ملاى بالتذكرات والتأسفات

واذا به يرى قصر سان ستفانو على مقربة منه وقد لاح له كالعلم وتحته الحديقة الحافلة بالاشجار الناضرة والازهار البهيجة والماشى المحفوفة بالخضرة الباعثة هوى النفوس وصبابتها الكامنة ...

وكان مسترسلا في تأملاته على انه شعر وهو فى تلك الحال انه منقاد بازمة الشوق الخفى الى ذلك المغنى الجميل بعد ماوطن النفس على مفارقته الى الابد

فتباطأ فى مشيته وتماهل دقيقة يستنشق روايح الليمون والياسمين والورد والرياحين وقد طفحت فى هواء المكان . ولسان حاله ينادى تلك الربوع التى تخيلها نعمة زائلة وامنية راحلة بقول أبى الطيب

قفا قليلا بها علىّ فلا أقلّ من نظرة ازوّدها
ففى فؤاد المحب نار جوى احر نار الجحيم ابردها

ولا شيء ادعى الى الذكرى والانفعال النفسانى من الازهار المتضوعة بحرارة الجو فان النسيم يتعهد بحملها فهيج العواطف وتضرم نار الوجد

فى ذلك القصر تقيم المرأة التى ما برح روبر مفتونا بها على الرغم من كل شيء ... وخيل له ان سحرها يحيط بالحدائق ويجتذبه اليها ويخضعه لسلطانها

فتولاه الجبن بغتة واحجم عن مفارقة ذلك الجنان او الابتعاد عن تلك الساحرة

وفكر قائلا لا شك انها تجد انصرافى عنها بغتة امراً مخلا بالاداب او مشبها للفرار

ولا يجدر بشهم مثله قد لقى مالقى من مجاملتها وتوددها ان يرحل ولا يودعها بكلمة شكر على ما رأى منها فى حفلتها بالامس ... او لا يستعلم عن صحتها بعد الحادثه التى وقعت لها فى المستنبت ...

ومثله لا ياتى ما يعاب به او يخالف اللياقة ...

فالواجب يقضى عليه بان يقول لينينا كلمة وداع فهو اذا فعل لا يعصى والدته ولا يخون صديقه ولكنه يكون قد تشبه بكرام الرجال وحافظ على واجب ادبى

ونظر فى ساعته فقال فى نفسه :

ليس امامى من الوقت الا ربع ساعة فقط تتقدم سفر القطار ... فزيارتى تكون قصيرة جداً وبها يظل المركيز دى سمروز شهماً نبيلا في عينى البارونة بولنكا فتذكره ذكر كرام الرجال وعلية الناس . واقتنع بذلك

فمد يده الى الجرس المعلق على الباب فقرعه قليلا كانه خائف ان تكون احساساته حاملة له على مايريد او

على الرجوع عن عزمه

واذا بالباب قد انفتح فدخل ...

وبعد دقائق كان فى مخدع ينينا من غير ان يشعروا بفهم معنى ماتمليه عواطفه عليه وانما ساقه قدماه الى ذلك المخدع وفؤاده لا عقله ولا رشاده

وقد امرت ينينا وصيفتها بأن تدخله الى هناك

وشعر بلذة عجيبة لأنه رأى ذلك الوجه الفتان وتلك القامة الرشيقة وسمع صوتها الرخيم الرنان وتمتع بنظراتها الممتزجة بفتور ساحر

جلست او تمددت قليلا على كرسيها الطويلة وهى تفكر

وقد كان على جبينها اصفرار قليل هو الأثر الوحيد لانفعالها الشديد . لكنه اصفرار زادها جمالا وانسان عينيها يحدقان تحديقاً عميقاً

هذا وكانت لابسة ثيابا خفيفة لكنها كثيرة الوشى تشف عن بشرة بيضاء ومعاطف لينة وشعرها الذهبى محيط برأسها كالتاج تتدلى منه خصل على عنقها الذى يشبه العاج

فكانت يومئذ اجمل منها فى كل وقت فاحس روبر

بانه قد وقع مرة ثانية في أسرها ... ونسى والدته وجورج دى كانتابل ونصائحهما ومخاوفهما ....

أما الرسالة الخفية التى كلمه عنها صديقه جورج فلم يبق لها في نفسه الا اثر مبهم غامض

وزال من ذهنه ذكر من يدعى جاك نورتون وغفل عن انه كاتب تلك الرسالة وعن انه قد يكون المتعمد لقتل تلك الحبيبة البديعة ... وقد يكون كذلك عاشقاً لها وصاحباً قديماً .. زال كل ذلك من مخيلته .. ولم يبق فيها الا سلطة الساحرة عليه وانقياده اليها وخضوعه لهواها على ان جورج لم يعرف عن تلك الرسالة معرفة يعول عليها وهو قد ظن او اعتقد قبلا انها ربما لا تكون لها ادنى علاقة بالحادثة التى جرت لغادة الشعر الذهبي

ثم انه كان عازماً على محادثتها عنها .. قائلا فى نفسه انها قادرة ايضاح الغامض من امرها واظهار براءتها من كل تهمة وتنصلها من كل ريبة فهى تمحو بكلمة واحدة جميع هاتيك الشكوك الفظعة الباطلة ...

واثر عليه سحرها حتى غدا كل عزم يصرف على

ابتعاده عنها ضائعا وحتى صارت كل كلمة تقال طعناً على طهارتها وعفافها مؤججة جمر الهوى فى فؤادها

ذلك شأن كل محب متيم غشى الهوى على بصيرته وبصره فهو يهوى كل ما فى الحبيب حتى عيوبه ونقائصه

وعين الرضى عن كل عيب كليله
كما إن عين السخط تبدى المساويا

فمدت اليه يدها وقالت له .

اسعدت صباحاً ايها الصديق ...

وكان صوتها عذباً حنوناً يشعر بشىء من التألم والشكوى

فاضطربت اضطراباً ظاهراً

ولا شك في ان تلك الساحرة كانت تنتظر زيارته تلك وقد شعرت بها سلفاً فكانت كالصياد الذى يرقب طريدته ..

فلم تأت عملا الا وهى متأهبة له مفكرة فيه مدبرة اياه مهيئة تأثيره على قلب الشاب ودماغه وحواسه

واستعدت لزيارته في خير ميدان يبرز فيه جمالها اى فى مخدعها المحاط بالازهار المطل على النخيل والعناب والزيتون المحفوف بالخضرة والمناظر الطبيعيه الشائقة

فكان ذلك المخدع المعد لنيل غرضها جنة حالم او مخبأ عاشق ولهان يتضوع منه الطيب وينتشر فيه سيال من السحر والكهرباء

فجلس بقربها واخذ يلثم راحتيها وهى لا تمانعه الى ان نظر اليها معجباً بها وقال قد علمت انك تعافيت ..

اجابت نعم فقد نجوت من خطر كبير .. ولكن من حسن حظى اننى لم اعد اشعر بشىء من الالم ... فمن اخبرك عنى ؟..

قال هو صديقى جورج دى كانتابل وقد عالجك

فقطبت وجهها حينما سمعت اسم جورج وجعلت تضرب الوسادة بقدمها

فقد تذكرت ان ذلك الشاب قد شهد ما جرى ساعة اكتشاف الرسالة التى وردت عليها فى اثناء حفلتها وانه عثر عليها اذ كان يعالجها نخامرها انزعاج

مبهم .

فقال روبر لو تعلمين اى اضطراب اصابنى حينما سمعت صرختك وحينما جرحك ذلك النذل الشقى .. وحينما انهضتك وانت فاقدة الرشد صفراء اللون وساعدنى جورج ! .. آه لست انسى تلك الساعة الهائلة ابدا ...

فتبسمت يذنينا وقالت هل كنت تحزن لو اننى قتلت ؟

وعطفت عليه

فكان جوابه قبلة على شفتيها اختلسها اختلاساً

فارادت ان تطيل عليه ذلك الانسلاب وتلثم كذلك الا انه تقهقر راجعاً عنها بغتة وقد غض الطرف عن نظرتها واعرض عن قبلتها

فغمغمت تقول العلك خائف من الهوى ايها الغلام ؟

هذا وصدرها يعلو ويهبط كأنه رخام قد دبت فيه الحياه

فسكت لايحير جواباً لكنه احمر وجهه خجلا وفكر

قائلا

ربما كانت تلك الرسالة من جاك نورتون فى طلب ملتقى غرامى ؟ .. فقد جادت بينينا كثيراً بقبلاتها وعطفاتها

فانكمش فؤاده عند هذا الخاطر

غير ان اللعينة ابتسمت له وقالت ايضاً

مااشهى الحب ! .. مااشهى حباً دائماً يجمع قلبين ويوحدهما وينسى المحبين العالم ومن فيه !..

وكان صوتها عميقاً رخيماً مملؤاً بالدلال حتى سكر روبر بكلماتها ونسى شكوكه بها وبابتساماتها

فقال فى نفسه :

ايمكن ان تكذب هذه المخلوقة التي صاغها الخالق أجمل صيغة وصورها ابدع تصوير ؟ ..

ايمكن ان يكون هواها الذى يرضعها بعوامل الشوق والصبابة تكلفاً وتصنعاً

وهل تكون لهذه الحركات والهيئة البادية عليها مثل هذا التأثير والقوة لولم تكن صادقة

فضم يديها الى يديه بقوة وعكف عليهما يلثمهما بوجد وافتتان ويكرر لها قوله :

أنا اهواك !.. انا اهواك !..

فاجابته وانا ايضاً سأعبدك عبادة متى حق لى ذلك واتحدنا بالزواج ..

فتنبه الشاب بهذه الكلمات الى الحقيقة وتماسك ..

فان هذه الكلمة أى الزواج ذكرته كلمات والدته ونصائح صديقه

فقد انبأه كلاهما ان هذا الزواج سيحل به حلول المصيبة وان البارونة لا غرض لها من التظاهر بالحب الاه..

فقد بات مفتوناً ببينينا ولكنها لما تلفظت بما يشف عن رغبتها فى نيل اسمه وثروته لاح له انها تبتذلهما وتعرضهما للهوان

خطرله ذلك الخاطر وشعر بلهجة فى صوتها تدل على الفوز والانتصار ..: وطالع فى عينيها وفي بصرها المتقد كبرياء غالبة على الغرام

فبردت حرارة قلبه ..

فقال في نفسه :

كلا ما هذا الذى بى من هياج واضطراب بالعاطفة النبيلة السامية التى يجب أن تعطف فؤادى على المرأة التى يقع اختيارى عليها لتكون لى زوجة وشريكة فى هذه الحياة

فقد تكون المصلحة او الطمع مما خفى تحت كلماتها السحرية وابتساماتها الخلابة

فادرك طرفا من خداعها ... وعاوده الشك فذهب بحرارة هواه واستشعر خيفة منها . . . بل خاف من نفسه ومن ضعفه فتقهقر عنها مذعوراً

وفهمت ما يجول فى ضميره فلاحت امارات الغضب على ملامحها لكنها تجلدت لئلا يظهر ضعفها وتغلب على أمنيتها فقالت له .

اراك تبتعد عنى ياروبر ... ولماذا ؟ فلم يجب

قالت فهمت فقد منعوك حبى وحرموه عليك اليس الامر كذلك ؟ فاضطرب وقال ما هذا الكلام ؟

قال الا يريدون لك الهناء والسرور ؟

فاجابها هل انت على يقين من ان الهناء والسرور بالاقتراب منك ؟ فلمعت عيناها حنقاً

شعرت بانها لم تتم وسائل الاقتناص اوهى تحتاج الى جهد جديد تبذله فى هذا السبيل .. قائلة فى نفسها لقد وهمت اذا حسبته ساذجا قد استسلم خاضعا ذليلا

وعلمت أن النضال الذى يأول بها الى الفوز وادراك مطامعها البعيدة انما هو عراك عنيف ووغى تحتدم نهارها وتضطرم

لكنها لم ترع ولم تجبن بل تجلدت وعدت الاحجام عارا وايقنت من نفسها بقوة تناضل بها وكفاءة تسخر لها الظفر والانتصار

فقالت بصوتها العذب ودلالها اللطيف

الا انبئنى ياروبر الم تكن امك الراغبة عنى الناصحة لك بالابتعاد ؟ .. انى أشعر بذلك فهى تفضل ان تسحق فؤادك ...وفؤادى قال فؤادك ؟ ..أحقاما تقولينه يانينا؟ أجابت أن هلاكى فى حبك محقق ياروبر. فاننى أهواك!

واتسعت حدقتاها وطفح منها ذلك السيال الجاذب وكأنها شهرت أمضى أسلحتها

فهل يقع روبر أسيرا بين يديها ويستسلم الى سلطانها؟ أم يسترشد بالعقل ويهتدى بالحكمة فيغالب هواه الذى يمزق فؤاده ؟ فقد كان عذابه وهو مقسم بين عاطفتين متناقضتين شديدا جدا حتى شعر بضعف وجبن

واذا بزيارة قد عرضت ساعتئذ فانقذته من ارتباكه واعادت اليه شيئاً من جلده وصبره

وكان الزائر نائب الجمهورية الفرنساوية وقد جاء يسأل البارونة عن بعض ايضاحات لا بد منها لاتمام التحقيق في حادثة الامس

وسر نائب الجمهورية حضور روبر دى سمروز بل عده توفيقا لانه كان عازماً على الذهاب فى طلب شهادته الى منزله فطلب اليه ان يلبث قليلا واخذ فى القاء الاسئلة على البارونة بولنسكا فقال لها :

الم تكونى ايتها السيدة متوقعة حدوث الحادثة التى اسعدك الحظ بالنجاة من شرها ؟

فاجابته من غير تردد قائلة كلا لم اكن اتوقع

قال الا تعرفين عدواً لك !

اجاب كلا . . . .

قال الم تصل اليك فى تلك الليلة رسالة من احد ؟

فتظاهرت بأنها تكد ذهنها لتتذكر ثم قالت رسالة

فاجابها النائب لقد تبين من التحقيق ان رجلا جاء بالامس الى هنا فى نحو الساعة العاشرة ونصف مساء حاملا اليك رسالة . واكد احد خدمك انه تناولها من الرجل وسلمك اياها

فلم يتغير شيء من ملامح ينينا واجابت ربما كان ذلك فقد وردت علىّ رسائل عديدة من بعض المدعوين يعتذرون بها الىّ عن تخلفهم عن الدعوة فى آخر ساعة لاسباب مختلفة

وسمع روبر هذا الجواب وهو منذهل فقال فى نفسه :

الم تكن تلك الرسالة التى تلقتها ينينا مشتملة على غير الاعتذار ؟

وعاد الى ذهنه مارواه له صديقة جورج دى كانتابل
فظن ان اذنيه اخطأتا السمع او خانتاه . . .

اذن فما شأن السطور المذيلة بتوقيع جاك نورتون ؟
اى سر تحتويه

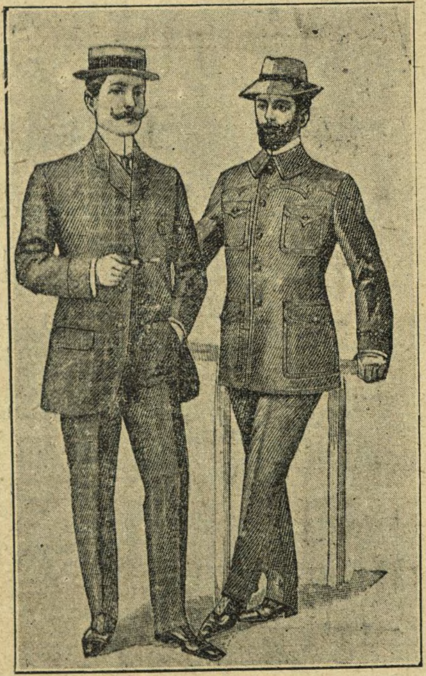
بل اى كذب يخفى وراء تلك الورقة التى لاشتها
يدنينا بعد كانها ورقة فاضحة

ولو امكنه ان يطالع سريرة البارونة لعلم شدة اهتمامها
فى كتمان خبر الرسالة وانصراف عزمها الى التجاهـل
بجاك نورتون

ولا غرو فهى اذا فضحته او غادرت الشكوك تحيق
به تتعرض للسقوط من عينى روبر دى سمروز ويخيب
رجاؤها الى الابد

فان جاك نورتون يفضحها يومئذ ويتكلم عنها ويعلن
امرها وذلك مالا ريب فيه

ومايقوله عن اصلها وعن ماضيها كاف لفشلها وانخذال
مساعيها ورجوعها الى الحمـأة التى حسبت نفسها ناجية
منها بعد ماعرفت الفتى روبر دى سمروز



« مانيلون ولوسيان »

ذلك السبب الذى من اجله وضعت كمامة على فمها وكتمت خبرها مع جاك نورتون

وهو السبب الذى حملها ايضاً على تضليل الحكومة حتى ترجع عن التحرى والتحقيق وتكتفى بمعرفتها الناقصة فتطمس القضية وينتهى امرها على ماتوده ينينا وما يلائم مصلحة جاك نورتون

ولم يطلع أحد على مكرها لا روبر دى سمروز ولا نائب الجمهورية

فلما رأى الاخير انه لم يفلح فى استنطاقها انثنى الى روبر فسأله كيف وجد وجورج دى كانتابل ينينا مغمى عليها وجريحاً

فأخبره روبر قائلا :

لقد كنا انا وصديقى جورج دى كانتابل نتنزه فى الحديقة قرب المستنبت فسمعنا صرخة عالية . فوثبنا مسرعين الى ناحية الصوت . فوجدنا هذه السيدة منطرحة على الارض فاقدة كل حراك

قال النائب فى أية ساعة وقع ذلك

أجاب فى منتصف الليل قال ألم تبصرا أحداً هارباً

أجاب روبر كلا . لكن خيل لنا اننا نسمع وقع خطى تبتعد فى الجهة المقابلة للقصر فلم يخطر فى بالنا المبادرة الى هناك لأن الواجب الأهم كان يقضى علينا بالاعتناء بالسيدة واسعافها بالعلاج على اننا لو لحقنا بالرجل صاحب الجناية لامكنه الفرار لوقوع الحادثة فى منتصف الليل وكثرة الاشجار الغضة فى الحديقة

قال النائب الم تر قبل ذلك ما يحمل على الارتياب

اجاب نعم . ولا . قال اوضح مرادك . اجاب كأننا رأينا شبحاً يتسلل بين اشجار المستنبت ولكن ماظننا الا واهمين تصورنا ذلك تصوراً بعيداً عن الحقيقة

وهنا تبسمت ينينا تبسماً لطيفاً لا يخلو من عظمة وكبر وقالت بلا شك لقد كان ذلك تصوراً

فقال النائب شكراً لك ايها المركيز . . وانما يجب النظر فى كل ما يتعلق بهذه القضية والالتفات الى اقل التفاصيل اهمية حتى يكون التحقيق مستوفياً شروط الدقة وماذلك الا لان بعضهم رأى ليلة امس قبيل وقوع الحادثة

رجلا يطوف حول هـذا القصر ثم دخل الى قاعاته وشهد الحفله والمظنون انهم عرفوه . قالت ينينا بحدة من يكون ذلك الرجل؟ فاجابها النائب هو شخص مريب اسمه جاك نورتون . فغمغم روبر دى سمروز يقول في سره اسمه جاك نورتون ! وحملق البصر الى البارونة فاجتنبت نظرته . فقال النائب ايضاً : ان نورتون هـذا معروف عند بعض الناس بلقب ميلورد الذهب وقضى فى نيس مدة في هذه الاثناء وكان ينفق عن سعة . وهو مبذر لكنه لا وسيلة له للكسب ولا وظيفة معروفة .

فتظاهرت ينينا بقلة الاكتراث وقالت هل يراقبه رجال الشرط؟ اجاب بلا شك . وهم يبحثون عنه الآن ليسألوه اين انفق وقته فى ليلة امس ولاح لروبر عند هذه الكلمات ان ينينا اطمأنت قليلا . فقال فى نفسه . الراجح ان بينها وبين ذلك الرجل المدعو جاك نورتون علاقة خفية . وهو الذى أنبأنى عنه صديقى جورج وسمعه مفاخرا بان ينينا كانت عشيقته فكان هذا الخاطر كجرة ماء بارد صبت على حجر صبابته وذهبت بحميته فى

هواها وحماسته

ونهض نائب الجمهورية فانتهز روبر تلك الفرصة فاستأذن من البارونة فامسكت يده طويلا وقالت الى الملتقى القريب اليس الامر كذلك؟ غدا تأتى لتستعلم عنى ؟. واصحبت هذه الكلمات بنظرة فاترة وابتسامة متناهية فى اللطف والظرف والتودد حتى حار روبر ولم يعرف ماذا يظن .. وماذا يفكر لكنه كان مضعضعا

فانثنى بغتة عنها وراح كأنه هاربا منها وهو يقول الوداع ! الوداع !

وفارق القصر وهو فى تلك الحال من الاضطراب مزعج مرتاب مشمئز النفس من الكذب والنفاق والخبث والرياء

أصابت تلك الصدمة هواه فكانت شديدة قاسية

وشعر بحاجة شديدة الى الحب فى ذلك الوقت شعر بحاجة الى حب طاهر ونصائح سديدة رشيدة

فكانما غرقت ارادته وسريرته فى بحر خضم فبات يلتمس النجاة وضعف عزمه وانكسر فؤاده أما السفر فنسيه وغادر جورج دى كاتابل ينتظره فى المحطة من غير جدوى

لم يعد يحفل بشيء ولا يشعر بغير ما يكابد

فكان فؤاده دامياً . لان ذلك الهوى الاول الشديد
آلم نفسه انتزاعه وضعضعه وأورثه لوعة وحسرة

فلم تبق فى نفسه الا امنية واحدة هى ان يعود فيلقى
والدته ويجد ذلك الملجأ الذى يلجأ اليه الاولاد عندما
يمسهم الضر ويفتقرون الى التعزية والمؤاساة

هنالك بقرب والدته يجد الانعطاف الحقيقى الذى
يفرج كربته وربما أزال أشجانه

فقصد الى طريق البيت وهو ناكس البصر ضيق
الصدر مكروب النفس لانه عدم الثقة بمن يهواها وفقد
الامانة التى كان يعتقد وجودها فيها

انتهى الجزء الرابع

يصدر الجزء الخامس والختامى لهذه الرواية وهو
العدد ١٠٧ من مجلة مسامرات الشعب فى شهر مايو
سنة ٩٠٩ ويحتوى على أربع صور فنلفت اليه الانظار

مسامرات الشعب

اكبر مجلة روائية تصويرية اجتماعية تصدر ثلاث مرات فى الشهر
« لاشهر الكتاب العصريين »

سنتها عشرون عدداً

لصاحبها

خليل صادق

السنة الخامسة — العدد ١٠٧
السائلة الحسناء « الجزء الخامس »

« قيمة الاشتراك »

٥٠ غرشاً صاغا فى القطر المصرى والسودان
وثمانية عشر شلناً فى الخارج
وكل طلب اشتراك غير مصحوب بقيمته فهو غير مقبول

« ثمن العدد الواحد ٣ قروش صاغاً »

مطبعة الشعب بشارع درب الجماميز بمصر

السائلة الحسناء

لواضعها

الكاتب القصصي الفرنساوي الشهير

م. روبير

ومعربها

الكاتب الناثر البليغ

نقولا رزق الله

مدير ادارة جريدتي الاهرام والبيراميد

ما كل من تلقاه يبسط كفه
مستجديا هو في الحقيقة معدم
كم خامل كسل يمد يداً وكم
من بائس يقضي ولا يتظلم

« المعرب »



الفريق محمود شوكت باشا

عطوفة القائد المقدام محمود شوكت باشا

ظهر على مرسح السياسة في هذه الايام بطل سيخلد التاريخ ذكره وتفتخر به البلاد الاسلامية عامة والاقطار العربية خاصة ألا وهو القائد الهمام محمود شوكت باشا فاتح الاستانة ذلك الفتح السلمى الجليل والقاضى على اركان الاستبداد بعد ان طال عليها القدم والموطد لأسس الدستور حتى لا تزعزعها الحوادث وتقلبات الدول

ولد محمود شوكت باشا ببغداد وعمره الآن ٤٩ سنة ورتبته فريق فى العسكرية . ومرجع الفضل فى ترقيته السريعة الى صفاته الخصوصيه التى امتاز بها فى جميع ادوار حياته فقد عرف بالذكاء ودقة النظر وقوة الارادة وهى مميزات الابطال من رجال الحرب

وقد تلقى شوكت باشا دروسه الحربية بألمانيا فنبغ فيها

وهو يتكلم عدا العربية لغة قومه والتركية لغة وطنه اللغتين الالمانية والفرنسية وقد خصه الله بفضيلتى الكرم والتواضع وهما عظيمتان فى أعاظم الرجال فلا يكاد يقابله زائره حتى يطمئن لجانبه لحسن استقباله وبشاشته

ولما عاد شوكت باشا الى الآستانة قادما من المانيا نفرت نفسه من دولة الاستبداد القائمة فيها على أسس التجسس الاول ففضل العمل بعيداً عن تلك العاصمة المختلة وعين ضابط فى جيوش الولايات ولكنه مالبث ان زفت اليه الرتب واحدة بعد اخرى اعترافا بفضله وغزاره عمله

وكان محمود شوكت باشا واليا لقوصوه فعين قومندانا للفيلق الثالث فى الازمة الدستورية الاخيرة

ولما اشتعلت نار الفتنة الاخيرة فى الآستانه وهى فتنة ١٣ ابريل التى اثارها الرجعيون زحف شوكت باشا بجنوده المظفرة على العاصمة فاستولى على معاقلها وقلاعها بعد ان أمن ساكنيها على انفسهم وأموالهم

وطمن الاجانب النازلين بها وما زال يستولى على الشكنات فى طريقه وهى تسلم له طائعة او مكرهة حتى أتم الاستيلاء على المدينة ثم حاصر بجيوشه قصر يلديز فسلمت له حاميته السلاح

وقد تم للجنود الاتحادية الظفر على يديه ولم تهرق دماء الا من عصى وقاوم حتى اعجب اهل الغرب به وبعساكره وقرر النادى الحربى بسلانيك باهدائه سيفاً ثميناً كما ينتظر أن تهدى له أوروبا جائزة نوبل الشهيدة التى لا تهدى الا لمن يمتاز فى العالم بخدمة الانسانية

العدد الختامى

للسنة الخامسة

من مجلة مسامرات الشعب

رواية

جهاد القلوب

يصدر العدد الثامن بعد المئة من المسامرات يوم ١٥ يونيو القادم مشتملا على رواية مستقلة بذاتها

وهى رواية جهاد القلوب تعريب الاديب الالمعى صالح افندى جودت وبهذه الدرة اليتيمة تختم السنة الخامسة من سنى المسامرات وفيها نبشر القراء بموعد صدور العدد الاول من السنة السادسة التى نبذل جهد الاستطاعة فى جعل مسامراتها روضة أدب وفكاهة فتمتاز عن السنوات السابقة فى ان اعدادها ستكون اسبوعية ويكتب كل رواية كاتب من أشهر كتاب العصر وتذيل بأحاسن الفكاهات والشذور والملح والنبذ الرائقة مزينة بالصور والرسوم

وسنقدم لكل مشترك فى السنة السادسة يدفع قيمة الاشتراك مقدماً رواية كيد الغانيات وهى رواية كبيرة الحجم غزيرة الوقائع سلسلة الانشاء شهد لها كل من طالعها انها من أجل ما ترجم من الروايات فى العهد الاخير

ونحن على تمام الثقة فى اقبال القراء على تنشيطنا مساعدة لنا على القيام بعملنا الادبى والله الموفق الى سواء السبيل

﴿ الفصل الاول ﴾

كان ضالا فوجد

لما خلت غادة الشعر الذهبي الى نفسها استشعرت خيبة ملأت نفسها حزناً وفطرت فؤادها أسفا

فقد رأت روبر هارباً منها ... ولم تخف عليها خافية من أمره

وانما فر منها ساعة أيقنت بالنصر واستبشرت ببلوغ الارب ووثقت بوقوعه فى أسرها

وانما تصرم حبل رجائها حينما كادت تبلغ الغاية وصدق فيها قول الشاعر العربى

اذا تم أمر بدا نقصه
ترقب زوالا اذا قيل تم

وهى لم تنخدع برجوعه اليها لانها شاهدت تردده فى الاستسلام والخضوع ثم رأته يفارقها بغتة فقلقت

فلما تبين لها الحق جزعت

فقالت فى نفسها :

لاجرم ان هناك نفوذا آخر تغلب عليه فماذا عسى يكون ؟... فقد أحبط تدبيرى وعجزت عنه سلطتى لا جدال فى انها لا تقاوم ...

ولا شك ان ذلك النفوذ الذى أوقعنى في الخيبة والفشل قدير كبير لأنه أعاد الفتى الى رشده بعد أن ذهب به هواه

فهل عرف شيئاً عن الماضى ؟

وهنا ضاقت بها المذاهب واستشعرت لوعة أليمة

ولم تخل لوعتها من أسف ولهف

جعلت تسائل نفسها قائلة أى نفع جنيته من كثرة الانفاق ولماذا تظاهرت بالثراء واليسر وذررت الرماد فى العيون حتى تعمى عما أنا فيه من الضنك والعسر

ها قد حان وقت الرحيل عن سان ستفانو عن ذلك القصر البازخ الذى لا قبل لها بنفقاته واجرته

فأولاها هذا الخاطر امتعاضاً

وقالت هل قضى علىَّ بأن أعيش وحدى وأقاسى شظف العيش و اكظم الغيظ وابيت باكية على اندحارى فى النضال وتقهقرى في ميدان اليسار والتمتع بالاموال ؟

فاصفرت شفتاها واكفهر وجهها ثم هطلت مدامعها كمدا وحنقاً ...

ولم تطل مدة هذا الانفعال والغيظ الا دوام لحظة فان عينيها لمعتا وكانها افترستا هاتيك الدموع لمعتا حقدا وسخطا على جاك نورتون لانه كان علة الفشل الذى اصابها

فقد لاحظت انذهال روبر دى سمروز حين اشار النائب العمومى فى استنطاقه اياها الى ميلورد الذهب ورأت فى نظره شيئاً من القسوة والاستفهام

وقالت فى نفسها ايضاً :

لا شك فى ان ذلك الشاب الطبيب قد وجد رسالة جاك نورتون معى قد كلم صديقه روبر عنها

ولا ريب فى ان اطلاعه على نبأ الرسالة كان شاغلا فكره وسببا لما بدا من اضطرابه

والآن فماذا عسى يحدث

فاذا قبضوا على جاك نورتون بان كذبها وعرفه الناس جميعاً لان نورتون يتكلم ويفضحها

واذ ذاك لا يبقى لها من امل !...

فلبثت وقتا طويلا شاخصة البصر ساهية كانها تنظر الى الفضاء البعيد

* * *

اما روبر فقد ابتعد عن سان ستفانو ووصل حديقة البيت شاعرا بتجدد قواه كانه خلق فى تلك الساعة

وكانه رأى حلماً رائعاً فظيعاً تجلت له فيه النقائص والعيوب والمخازى ثم استفاق فلم يبق فى ذهنه الا ذكراها

ذلك لانه ابتعد عن ينينا ولم يعد لبهاء طلعتها تأثير عليه فتمزق عصابة عن عينيه وشعر بما يحيط بذلك القصر من العار الخفى والكذب الشائن

ولاحت له تلك المرأة التى عبدها بكل قوى الصبابة والهيام شخصاً فى الدنو منه كل الخطر والشؤم

وروبر دى سمروز مستقيم الباطن لم يألف غير الصدق فكان يشمئز من كل ما يخالف نزاهة الضمير وحرية الفكر

فهبط ذلك الاله الذى كان يتصوره فى شخص ينينا من عرش العظمة الى هاوية الصفار والذل بعد ما مس بيده وتراً من أوتار احتيالها وخداعها وزال احترامه لها كل الزوال

وكانت والدته جيلبرت جالسة على مقعد فى الحديقة وعيناها تائهتان في افق البحر البعيد مفكرة فى كل ما سحق فؤادها الوالدى . .

تفكر فى اختفاء ابنتها نائلة التى ذهبت ضحية . . .

وفى ما أصاب ولدها روبر من آلام وهو الفتى النبيل الذى لجأ الى الرحيل لعل جرحه يندمل بالسفر ...

وتقول الا يكفينى مالقيت من العذاب حتى تفاجئنى بلية فوق ما داهمنى من البلايا والارزاء ؟ ... فهل قدر على والدىّ ان يذوقا تلك الكاس المرة ؟..

وودت ان يتحول عذاب الوالدين اليها حتى تلقى عنهما المتاعب والاشجان

وفيما هى كذلك فتح باب الحديقة واقبل روبر

فلم تشأ ان تصدق عينيها لانها تحسبه قد سافر فى قطار مرسيليا مع صديقه جورج

لكنه بادر اليها وهو باسم الثغر متهلل الوجة وارتمى على صدرها فضمته اليها

وهو لما رأى والدته والمهابة طافحة من وجهها وملابسها السوداء والبر والاخلاص متجسمان فى شخصها لم يسعه الا ان يوازن موازنة سريعة بين هذه السيدة الجليلة وتلك المرأة المحتالة التى فارقها..

فقال فى نفسه :

ويحى، كيف خطر لى ان اساوى بين ابنة فاجرة ساقطة ووالدتى التى هى أرأف الناس بى واعطفهم علىّ واكرمهم اخلاقا ؟..

وخيل له انه بقربه من والدته قد اغتسل من العيب وهرب من الشر والضر

والمريض اذا خفت وطأة آلامه شعر بفرح وارتياح وكذلك كان شأن روبر

فقد كان مريضاً وشفاه الله !...

ورأى فى نفسه حاجة الى اعلان شفائه واخبار أمه به وهى التى اشفقت ان تحل به النوائب عقيب ذلك القران المعيب

وادركت جيلبرت من نظرها مليًا الى ولدها انه قد طرأ عليه طارىء هائل لكنها لم تشأ ان تسأله وانتظرت ريثما ينبئها بخبره

فاخذت تلثمه

فجثا امامها باسما ففهمت ما يجول في ضميره

فقال لها .

أما الآن وقد رجع اليك ابنك فلا تخافى ايتها الام العزيزة ... رجع اليك صحيحاً معافى ...

فقبلته وقالت لقد كنت على صواب لاننى لم يخامرنى منك ارتياب

وهنا طفق روبر يحدثها بما جرى له مع ينينا فى مخدعها

ولما سمعت جيلبرت اسم جاك نورتون أخذتها رعدة

وقالت يالله !... تقول نورتون ؟... جاك نورتون ؟..

أجاب نعم فماذا ؟

قالت ذلك اسم الرجل الذى قتل ابى ...

وعقب هذه الكلمات سكوت مؤلم

ونظر كل منهما الى الآخر وقد علا وجهيهما الاصفرار

فلما زال تأثير جيلبرت قالت والدمع يترقرق فى عينيها ...

اصغ الىّ يا ولدى قم فاشكر الله على نجاتك من غدر تلك المرأة وخلاصك من حبائلها

فلبث روبر مبهوتاً لانه كان يعرف الحادثة التى وقعت لجده وكست والدته لباس الحداد

غير ان تلك الفاجعة دفنت فى زوايا السكوت قبل ان تدفن فى زوايا النسيان ...

ولم يسمع من قبل كلمة عن قاتل المسيو برتلمى فتجلد وغمغم يقول ...

ليتنى عرفت اسم ذلك النذل الشرير القاتل ! ..

آه لو عرفته لقذفت به على وجه تلك المرأة الساقطة التى ودت ان تجعلنى خلفاً فى هواها وبئس الخلافة الفظيعة للرجل الذى قتل اباك يا اماه ! .. والآن فقد برح الخفاء وفهمت كل شيء ! كان نورتون هذا عشيقها كما اخبرنى جورج وانما ضربها بمديته تلك الضربة انتقاماً لنفسه منها واراد ان يفعل بها كما فعل بجدى

وهنا بكى وزفر زفرات حرّى وارتمى مرة ثانية على صدر والدته وهو يقول اماه ! ... اماه ! ...

الفصل الثانى

كانت ضالة فوجدت

مرت هذه الازمة وانقضى النهار بعدها على صفاء وسلام

وانطلق روبر فلقى مدام دى كانتابل والدة جورج فاعتذر لها ولجورج عن اخلاف وعده بالذهاب الى محطة نيس

فلما علم جورج بالسبب سر وانشرح صدره وقال له: أرأيت أيها الصديق فقد سررت الآن برجوعك عن هوى تلك المرأة كما لو نجوت من خطر...

اجاب آه ما كان اصدق رأيك فيها يا عزيزى جورج

ولما رجع روبر الى البيت كانت والدته منفردة في مخدعها تقرأ رسالة اوصلها الساعى اليها والورقة ترتجف

بين يديها

فماذا حوت تلك الرسالة حتى اثرت قرآتها على المركيزة هذا التأثير الشديد

فقد طفح السرور العظيم على جيلبرت واليك صورة الرسالة الآنف ذكرها وقد وردت من باريس

« ايتها المركيزة

« لدىَّ بشرى جليلة الشأن جئت انقلها اليك بكتابى هذا...

« وجدت الابنة التى يهمك امرها

« فهى عندى فى بيتى وزوجتى تعتنى بها وتحنو عليها بمقدار ما وهبها الله من قوة واخلاص

« وانما اسرعت فى نقل هذه البشرى اليك لان الفتاة المحبوبة تكاد تطير فرحاً لمجرد تفكرها فى قرب اجتماعها بأمها...

« ولا اريد تأخير وقت سرورها العظيم

« فانا انتظر منك ايتها السيدة ايضاحاً وبياناً لاعلم ما افعل بالفتاة...

خادمك المخلص

مانيلون

فى شارع بريشور نمرة ٢٢

فلما انتهت من تلاوة هذه الرسالة جعل فؤادها فى خفوقة وأغرورقت عيناها بالدموع وغمغمت تقول الحمد لله تبارك وتعالى انه رد علىّ ابنتى ورحمنى فهى حية ترزق وقد آن أوان اجتماعى بها وسوف أصلح اساءة الاقدار الظالمة اليها . وارحمتاه لها يخيل لى ان الله عفا عنى وغفر لى خطيئتى لأنه ردها الىّ

واستمرت تذرف عيناها العبرات وقد أحست بانفراج كربها وزوال محنتها

ولما كان المساء وجلس ابنها روبر الى المائدة بجانبها تعجب من تهلل وجهها وتدفق البشر من محياها ودهش من لمعان بصرها ولطف ابتسامها وشاهد امارات الغبطة الحقيقية بادية على مجموع شخصها

وهو لم يرها قبلا كذلك وانما كان عهده بها ان لا تبسم الا مكرهة نفسها ولا تنظر الا والكآبة متجسمة

فى بصرها

الف منها اشتغال الفكر وكرب النفس وضيق الصدر

أما الآن فقد رآها كانما استعادت مامضى من سنى الشباب وبرز جمالها من وراء حجب الخفاء

والحاصل ان جيلبرت كانت وقتئذ فى أتم هناء

كيف لا وقد عزمت على التكفير عن زلتها والقيام بالواجبات الوالدية

وقد ثقلت عليها وطأة التندم واستعظمت جنايتها على طفلتها

وأشرف فى أفق هنائها كوكب ساطع تسرب منه النور اليها ونفذ الى صميم قلبها

فلشد ما كبر انعطافها على تلك الابنة وكانت ضالة فوجدتها

أما ابنها روبر فقد ظن فرحها ناجماً عن انه قطع صلاته مع غادة الشعر الذهبى

وارادت جيلبرت السفر الى باريس فى اليوم التالى لانها لم تعد قادرة على الصبر والبعد عن نائلة

عظم شوقها الى تقبيلها وذكرت حاجة تلك الابنة الى محبتها التى حرمت عليها من عهد بعيد وافتقارها الى العطف والحنان الوالدى منذ اول نشأتها

غير ان روبر أشفق على والدته من مشقة السفر وأشار عليها بالصبر قليلا ريثما تتقوى شيئاً وتنتفع بالهواء النقى والنسيم العليل

فلم تر بداً من موافقته على الانتظار قليلا لكنها كتبت في ذلك المساء بعينه رسالة الى مانيلون تشكره بها وأى شكر !

وكتبت رسالة أخرى الى المسيو برترو نائب الجمهورية فى ويسول قبلا وقاضى التحقيق فى باريس فانبأته بما جرى من اكتشاف الفتاة

ثم كتبت أيضاً الى المسيو أمورى درتبل ماصورته

« عزيزى أمورى

« أريد أن أشاطرك مسرة عظيمة ويقينى ان حصتك منها وافية

« وجدنا نائلة بعد طول البحث عنها

« انى عائدة الى باريس ونفسى تتوق الى ضم ابنتى الى صدرى

« سوف أراك ياأمورى لننظر في مستقبل ابنتنا وحاضرها ونمكنها من أن تعيش رغداً وتنال نصيبها من الرفاهية والهناء

« فهل انت موافق على ذلك ؟

ووقعت على هذه الرسالة باسمها « جيلبرت » كما كانت تفعل فى عهد الولاء القديم والاستسلام السابق

﴿الفصل الثالث﴾

الى ناحية الغرام

بعد انقضاء يومين وردت رسالة عند الصباح على منزل صديقنا مانيلون فى شارع بريشور

وكان متغيباً عن البيت لاسباب تتعلق بمنصبه

سافر مصحوبا بوصيفه لوسيان على قطار السكة الحديدية الى ريفييرا وغرضهما مراقبة جاك نورتون ورجال عصابته

ففتحت سيجاريت الرسالة وصاحت تنادى قائلة لها نائلة بلهجة الطرب .

تعالى يانائلة تعالى !

فخرجت السائلة الحسناء من غرفة مجاورة

فقالت لها سيجاريت

بشراك ايتها الحبيبة بشراك !

فاصفر وجه نائلة ثم تصاعد اليه الاحمرار ومدت يدها لتأخذ الرسالة من سيجاريت وهى تقول واطرباه هذه رسالة أمى ! ...

فقالت سيجاريت أصبت يانائلة وليس الوقوف على الحقيقة بالامر العسير بعد ماتلقينا رسالة من مدينة نيس . واليوم كتبت أمك تخبرنا بانها تصل فى صباح هذا اليوم فهل سرك الخبر ؟

فلمعت عينا الفتاة وقالت اماه أماه ها قد أذن الله لى بان آراك ! . . هل تدرين يا سيجاريت ؟ ان هـذه البشرى تخيفنى شيئاً لان قلبي لم يتعود مثل هذا الفرح الشديد فاخشى ان يقتلنى ! غير اننى مع ذلك كله صابرة

قالت سيجاريت وكيف لا تصبرين والعاقبة غير العواقب لك ؟ ولسوف تنسين أشجانك الماضية متى ضمتك والدتك الى صدرها . تلك دقيقة تعدل أعوام البؤس والضنك التي مرت بك ولسوف ترين

وتبسمت لها سيجاريت

فقالت الفتاة متى تأتى امى الى هنا

فاجابتها عند الظهر تماما وسوف يأتى مانيلون اذ ذاك ونعم الاتفاق بين قدومه وقدوم والدتك فقد راى غمها ويجب ان يرى سرورها

قالت الفتاة نعم فقد أحسن زوجك الىّ كما احسنت أنت ولست انسى صنيعكما معى أبداً

قالت سيجاريت دعى الكلام عن هذا الموضوع ولنفكر أولا فى زينتك ولباسك اذ ينبغى أن تراك والدتك ذات جمال وكمال

فقالت السائلة الحسناء رباه هل أنا في حلم ام فى يقظة

فضحكت سيجاريت وأجابتها بل انت فى يقظة تامة تعالى معى لامشط شعرك ثم ترين كيف يكون حسنك بعد ذلك

يجب ان يراك أمك جميله كضوء الصباح

وعمدت سيجاريت الى الباس نائلة ثياباً لطيفة واعتنت بها كل اعتناء

وهى فى أثناء ذلك مافتئت تتكلم وتثرثر كما تشاء كل ذلك تسلية للفتاة وتلهية عما أصابها من الانفعال

وفى الساعة الحادية عشرة ونصف أقبل مانيلون عائداً من سفره

فاطلعتاه على الرسالة فابتهج بها ثم جلس يأكل ويحدث زوجته عما يرجوه من الفوز فى المهمة التى عهد بها اليه ديوان الضبط وما يأمل من مستقبل باهر اذا تحققت أمانيه ونجحت مقاصده

وقال ايضاً :

ان المراقبة جارية بشدة على برموش وزوجته من قبل البوليس السرى ولا بدلى من مناقشتهما الحساب ولا نعدم وسيلة للقبض عليهما بعد ان نثبت ان برموش يستخدم صغار الاولاد فى الشحاذة ويعذبهم ويشغلهم وقد دعا نفسه أمبراطور الشحاذين ومثله زوجته

ثم التفت الى نائلة وقال هل سرك هذا الخبر ايتها الآنسة ؟

أجابت انى صافحة عنهما فلا أريد أن يعاقبا على عملهما

فصاحت سيجاريت موبخة قائلة انها طيبة قلب كثيرة يابنية وان قوماً مثل هؤلاء يجب ان يقضوا حياتهم فى

السجون

ثم تكلم مانيلون عن عصابة اللصوص الذين يهاجمون القطر بين باريس والبحر الابيض

وكان يرجو ولوسيان معه ان لايطول الامر فيقبضا عليهم لأنهما وقفا على الطريقة التى انتهجوها في لصوصيتهم وعرفا الاجال التى ضربوها لاجتماعاتهم كما عرفا أوقات افتراقهم والأماكن التى يذهبون اليها

وكذلك عرفا صفاتهم الشخصية لانهما شاهداهم على الخطوط وكان الفضل في ما وصلا اليه مس الاستقصاء الدقيق الى ملابس السعاة التى حصلا عليها من مصلحة السكة الحديدية فلم يعرفهما أحـد لكنهما تمكنا من مشاهدة اللصوص ومراقبتهم عن كثيب فاحاطا بهم من كل ناحية من غير ان يشعروا

ووقعت فى تلك الايام سرقات عديدة فى السكة الحديدية تمت بمهارة عجيبة . وكان جاك نورتون وزميله صابوريو فى مركبة القطار السريع فلم يبق فى نفسى مانيلون ولوسيان ريبا بان ذينك اللصين هما اللذان

سلبا المسافرين

فهما بالقبض عليهما وكان مانيلون يقول سوف تقبض على اعضاء الجمعية ونودعهم غيابات السجون

وفيما كان يتكلم بهذا جعل ينظر الى نائلة وقد شرح صدره ما رأى من ضياء السرور فى عينيها وبدا له انهما زادتا جمالا ولا غرو فالفرح الذى تولاها كان كبيراً وجديدا

فلم تأكل الا قليلا على الرغم من الحاح سيجاريت وكانت تقول لها .

ان الانفعال يمنع الشهية فحسبك يا نائلة وكفى ! ...

وانتصف النهار

وفى تلك الدقيقة سمعوا الباب يقرع بيد لا شك انها كانت ترتعش

فبادرت اليه سيجاريت ففتحته فدخلت سيدة لابسة ثياب الحداد لكنها على تمام الظرف والرونق وكان يظهر فى عينيها نوع من اللمعان كالناشىء عن الحمى وهى حمى السرور . وكأن فؤادها حدثها ساعتئذ

ان تلك السعادة ليست الا حلماً

فقال مانيلون بصوت منخفض لما رآها :

هذه المركيزة دى سمروز

وللحال اتجهت عينا جيلبرت الى شخصى السائلة الحسناء . . .

وقد رأتها وقفت صفراء ترتعد

فبسطت اليها ساعديها وصاحت تناديها :

نائلة يا نائلة ! يا ابنتى !

وقد خانها صبرها وانكشف سـرها على مشهد من مانيلون وسيجاريت

فلم تستطع كتمان ما فى فؤادها

اما الفتاة فانها ما سمعت نداء امها حتى استفزها الطرب والحبور وظنت ان قواها خذلتها لكنها تجلدت بغتة وتغلبت على ضعفها تجاه تلك السعادة التى سحقتها

فوثبت الى امها فضمتها الى صدرها والتصقتا حتى تمازجتا واحتبس اللسان عن الكلام فكان بينهما سكوت عميق

هذا ومانيلون وسيجاريت قد اثر عليهما ذلك المشهد فكانا كانهما اصيبا بالخرس

ثم انفصلت الام عن ابنتها لتتأمل وجهها بعينيها المغروقتين بالدموع الى ان تمتمت تقول بالله ما اعظم المشابهة بينى وبينها

فقد رأت على وجه نائلة ملامح وجهها وكانها كانت تنظر الى مرآتها فجعلت تطالع فى عينيها النجلاوين كما تطالع فى كتاب مفتوح

ثم قالت لها بصوت يرن محبة وحنانا

لقد وجدتك يا ولدى فما اسعدنى بهذا اللقاء بعد طول البعاد

فلم تتلفظ الفتاة بغير قولها :....

يا اماه ! ... يا امى العزيزة !

وجيلبرت تجيبها : ..

يا ولدى ! .... يا ابنتى !...

فقالت نائلة ما عدنا نفترق بعد اليوم ابداً . أليس الامر كذلك يا اماه ؟

وهو سؤال نبه المركيزة الى موقفها الحقيقى بازاء ابنتها فهى لا تستطيع معايشتها ومساكنتها .. اذن فلا بد من ضحية جديدة تبذلها

واذا بنائلة تقول ايضا

لقد كبر سرور نالنى بلقائك حتى اخاف ان اموت به ! ... وكاننى عرفتك على الدوام ولم افترق عنك قط فلماذا لبثت بعيدة عنك ... غارقة فى بحر من التعاسة والاشجان ؟ . لكننى سأنسى ذلك كله ... وما اعظم حبي اياك يا اماه !

فاجابتها جيلبرت باهتمام

اعلمى ايتها العزيزة ان الاقدار تأبى علينا حتى الساعة ان نعيش متلازمتين غير مفترقتين .. ولكننا صرنا نلتقى يا روحى مراراً وقرى عيناً وطيبي نفساً ان زمن الشقاء قد مضى وانقضى !

وقبلتها كثيراً بحنان لا يفوقه حنان

ولم تندهل نائلة من هذه اللهجة لان نفسها حدثتها بوجود حائل يفرق بينها وبين والدتها وقد كانت تعتقد

وجوده من زمن بعيد وان لم تدر ما هو

أما وقد وعدتها والدتها بان تلتقيا مراراً فلم يحسن لديها ان تكدر صفو ذلك اللقاء بالاسف الذى لا يجدى نفعاً

ومهما يحدث بعد الآن فهو هناء مقيم للسائلة يتجدد فى كل يوم وليلة

واذ ذاك تنبهت جيلبرت الى شكر مانيلون وسيجاريت فالاول لما صنع اليها بانقاذ ابنتها والثانية للعناية التى أحاطتها بها واعادتها بديعة الحسن بعد ما نهك قواها العذاب فى أعوام طوال

فقالت جيلبرت ان ابنتى نائلة حسناء ..

وسرت فؤادها الوالدى تلك العاطفة التى لا تخلو من كبر

وهى قد كانت تجهل هذه العاطفة لان الابن لا يقوم مقام الابنة فى نظر الوالدة عند ما يتجه الى الحسن والجمال مهما يكن الابن جميل المنظر كريم الخلق

ثم ان الام والابنة تتآلفان وتتعودان المكاشفة بما

عندهما وتتوادان فى كل ساعة وتتعطف كل منهما على الاخرى انعطافاً لا يكون بين الام وابنها . وان النفوذ الوالدى يكون أشد على الابنة واكثر دواماً منه على الابن لان نفس الفتاة الين وأرق فينطبع عليها نفوذ الام أشد وارسخ

وقد تعرض للغلام الشواغل فى درسه ومدرسته وامتحاناته وعشرة رفاقه ثم ينصرف الى ملذات الشباب او الى الاعمال التى تشغله خارج البيت فتحدث حوائل بينه وبين والدته ومهما يكن انعطافهما عليه عظيما واحترامه اياها كذلك فهو ينسى تعاليمها وينفلت من نفوذها الادبى

والام فى الغالب مباهية بابنها تفخر بنجاحه وتتيه كبراً بخلاله ولكنه لا يكون لها كما تكون لها بنتها

فالفتى أقوى من الفتاة وامضى سلاحاً فهو يميل من طبعه الى الاستقلال فى الرأى وسلوك المسلك الذى يعجبه

أما الفتاة فانها ضعيفة خجول ولذلك تنتظر ما يأتيها

به القدر وتظل ذات ميل الى كرامة قومها وعناية اسرتها فهى احوج من أخيها الى الام واكثر مشاركة منه فيها

ويستمر ذلك التقرب بين الام وبنتها الى ما بعد فاذا كبرت اتخذت من امها التى ربتها أمينة لاسرارها ومستودعاً لشكوها وأمانيها وآمالها

أما الشاب فهو على عكس ذلك لانه يبتعد عن والدته متى شغل الهوى فؤاده

وجيلبرت شعرت بهذه الامور شعوراً لا يخلو من خجل . فقد كانت ولا ريب تحب ولدها روبر بكل قوى نفسها ويحق لها ان تفخر به لما اتصف به من الصفات الحميدة ولانه سليم الطوية رقيق العواطف ذكى الفهم

غير انه لابد له من الانطلاق في مدى الحياة الفسيح والسير وحده فى طريقه حتى يستقر فى مركزه السامى

فهو لو شاء فى غنى عن والدته وان ارتاح الى انعطافها عليه

وقلوب النساء مفطورة على البر بمن يحتاج اخلاصها

ولهن رغبة تتجاوز كل حد فى ان يكفلن صغيراً يتعهدنه بالحب والانعطاف فلا غرو ان كان حب الامهات لصغار أولادهن اعظم تأثيراً

أما الكبار فانهم متى ادركوا الحلم وبلغوا سن الشباب افلتوا من سلطة امهاتهم واذ ذاك تفيض الامهات كنوز الحب على الصغار ويشعرن بسرور كبير لتعلق الصغار بهن الى سنين أيضاً . . .

تلك هي العاطفة التى تنبهت فى جيلبرت حينما وجدت نائلة . ونائلة مازالت طفلة تحتاج الى التربية والوصاية ويجب على امها ان تصلح ماجره اليها البؤوس فى الاعوام السالفة

وهو واجب أولاها اضطراباً لذيذاً . . .

فما أشهى حباً تمنحه جيلبرت تلك المخلوقة الصغيرة البديعة وتعوضها اياه عما كابدته وكم يطرب جيلبرت أن تربى تلك الروح الطاهرة وترعرع ذلك الملك الكريم البرىء من العيوب وقد تمرغ فى حمأة النقائص من غير ان يتوسخ جناحاه !

وعظم فرح المركيزة حين فكرت فى ما سيكون من حب متبادل بينها وبين ابنتها

فقد يملأ كل ذلك فراغاً في حياتها وخيل لها انها أخذت منذ ذلك الوقت تعيش عيشا جديداً رغيداً

اطربها انها وجدت ابنتها . . . ولذ لها ان تتخذ من تلك الابنة فى ما يأتى من الايام صديقة حميمة ورفيقة رقيقة . تمزج المحبة بينهما فلا تتسرب الى قلبيهما ما يتسرب الى قلوب الاصدقاء من فتور وبرود

ذلك لانها كانت ترجو زوال العقبات التى تحول دون ملازمتها اياها والمعيشة معها وان يتسنى لها قريباً ان تظل واياها تحت سقف واحد فلا تفترق ابداً

فجعلت تضمها الى صدرها وتطيل النظر اليها ثم تعاود تقبيلها ...

﴿ الفصل الرابع ﴾

الوالد

وقفت مركبة جيلبرت بعد ذلك بنحو نصف ساعة في شارع الابسرفاتوار حيث تقيم اموري درتيل

فنزلت منها ومدت يدها الى نائلة وكانت تصحبها فقالت لها .

هل وصلنا يا اماه ؟

أجابت نعم أبنتها العزيزة . هنا منزل ابيك

فاهتزت نائلة انفعالا واصفر وجهها . .

واكسبها ذلك التأثير حسناً فوق حسنها

فقد سمعت بوالدها لاول مرة في حياتها وقالت في نفسها هل يمكن ان تفاجئني الافراح كلها دفعة واحدة

فقد انتقلت من اشقى حال الى اسعد حال في يوم واحد

وجدت اماً واباً اى اسرة تنتمي اليها وتعيش في كنفها وتحت ظلها بعد ما كانت اكثر البائسات بؤساً واكبرهن تعساً ونحساً

ذلك حلم لا حقيقة !..

فتولاها الخوف الذى تعودته من سعادة لم تتعودها فلصقت بوالدتها وقد تصورت انها سترى وجه فيرجيني القبيح او قبضة امبراطور الشحاذين تلك القبضة الهائلة التي لقيت منها شر ما يلقاه الاسير المعذب

وجاء خادم اموري فادخل جيلبرت وابنتها الى قاعة الانتظار ومضى ليخبر مولاه لقدومهما

فقالت جيلبرت لنائلة البثي ههنا يا ولدي ريثما اعود اليك ولا ابتعد عنك الا بضع دقائق فقط.. وابشري باجتماعك على ابيك

ودخلت وحدها الى مكتب الاستاذ اموري درتيل فاضطربت واستقبلها باسطاً لها ذراعيه وقال لقد كنت انتظرك يا عزيزتي جيلبرت .. فقد كان كتابك الذي ورد على من نيس سبباً في اضطراب عظيم اصابني

وفرح كبير بابنتنا ....

فاجابته ان ابنتنا هنا فى قاعة الاستقبال .. وقد نجت من مخالب البؤس وخلصت من البلايا والارزاء . . . وانني لمسرورة بها واى سرور!

قال انى افهم معنى سرورك .. اما انا ولم اعرف هذه الفتاة فقد ضعضعنى الفرح .. واظننى ساحبها حباً شديداً

اجابت بل يجب علينا ان نحبها كثيرا لنعوض عليها خسارة العمر الماضى ... فقد تألمت المسكينة وكابدت العذاب والذنب ذنبنا لاننا كنا علة وجودها في هذه الدنيا . . . القيناها الى دار الشقاء ولم يكن لهـا مكان فيها فكاننا حكمنا عليها بان تعيش شريدة طريدة بعيدة عن الهيئة الاجتماعية الصالحة

قال أصبت فان علينا واجباً مقدساً لا بد من قضائه وهو واجب يلذ قضاؤه كانه دواء العليل اذا كان يشتهيه

أجابت ولكن يكاد يمتنع عليّ القيام بهذا الواجب.. والسبب تدريه أنت ياموري فان لى ولداً آخر يجب ان يجهل... تفادياً من خجل يعتريه بوالدته التي يحبها وربما

قتلنى لومه أو احتقاره ...

قال ما أقساك على نفسك يا جيلبرت !

اجابت انني مستوجبة اكثر من هـذه القساوة ؟ صديقي . ولولا خوفى من الخجل والالم لاعترفت لروبر بكل شيء حتى أتمكن من أخذ نائلة الى بيتي واسكانها معي بين عائلة ... ولكنني ذات جبن لانني لا اجسر على التعرض لحكم ابنى . . .

قال وارحمتاه لك أيتها الام المسكينة ! . . ألا عفواً ياجيلبرت فقد كنت علة أشجانك !

قالت لاتشك نفسك !... ولا تشك احداًياموري بل لم الغرام فانه كان جنوناً وضلالا .. لكنني جئت الساعة لاعقد النية معك على أمر بشأن نائلة. انى فكرت في ادخالها الى مدرسة داخلية اذ يستحيل عليّ ان اساكنها واعايشها فما رأيك ؟

أجاب رأيي ان هـذه الفتاة حرمت الحب والحنان حقبة من الدهر فلا ينبغى ان تسلم الآن الى ايدى قوم غرباء وكفاها مالقيت .وانما يجب ان تظل بقربنا ومعنا

وما دمت غير قادرة على ان تضميها الى عائلتك فانا قادر على ان أمنحها منزلى واؤلف بها عيلة لى

قالت انت تفعل ذلك يا امورى ؟

اجاب نعم ... فان نائلة تبقى عندى فأعطف عليها واغدق عليها برى وحنانى وامكنها من العيش الرغيد فثقى بى يا جيلبرت كل الثقة وكونى مطمئنة القلب

فتناولت يديه وصاحت شكراً لك والف شكر لقد انجيتنى من هم شغل فكرى يا امورى وازعجنى كل ازعاج !. نعم ان قلبى يطمئن الى اقتراحك ولا شيء يسره مثل التفكر في ان نائلة فى كنفك وسترك وتحت ظلال رحمتك وحرزك ! ... ولعمرى سوف تلقى من حبها ما يسعدك . فهى ساذجة طيبة القلب كريمة الخلق صافية الروح ولم تدنسها النقائص التى احاقت بها فى اعوام شقائها الغابر ... وانما تحتاج الى تربية ... وتعليم ...

اجاب اننى اكفل لها ذلك كله وساقيم لها الاساتذة يدرسونها وارقب تلقيها العلم وارصد نمو فهمها واتقاد فؤادها وفي اعتقادى انها تتشوق الى التعلم والاستفادة

وجملة القول وخلاصته ان ابنتك ستغدو اهلا للانتساب اليك يا جيلبرت .. وهذا غرض ساجعله نصب عينى.

فاغرورقت عيناها بالدموع وقالت لم تزل ذلك المخلوق الكريم النبيل الرقيق العواطف الذى عرفته واحبته .

واضطرمت روحاهما شوقاً بعد ما انضجهما السنون وقوى هواهما البعد وقضاء الزمن

على انهما ما برحا شابين واعينهما صافية وملامحهما تدل على نضارة وغضاضة

فاجابها درتيل بصوت يرتجف .

قال كان ينبغى ان تكونى زوجتى يا جيلبرت اوالملك الذى يحرس بيتى ولكن الله ابى ذلك . وانما ردّ الى ابنتى هى بعضك ... فانا اشكر الله على هذه النعمة !.

ولثم يدى المركيزة بحرارة وشف ذلك فيه عن وداد صادق وجوى شديد حتى انها استشعرت لذة لا تفوقها لذة وميلا اليه يفوق كل ميل

فقالت فى نفسها :

ويلاه ايرجع الى الحياة ذلك الهوى القديم وهل

يبرىء الجراحات الماضية بلسم جديد

فنظرت اليه نظرة اودعتها كل ما فى فؤادها من حنو ووجد ونظر اليها مثل تلك النظرة وكانما رفع الحجاب بينهما بالنظرتين

فطالع كل منهما ما فى سريرة الآخر مطالعة دقيقة جداً وكانهما ينظران من خلال مياه صافية الى ينبوع وراءهما صفا من كل شائبة

فهل كان ذلك غراماً ؟...

كلا لم يكن بينهما غرام بعد ما تتابعت عليهما الهموم اكثر من تتابع الاعوام

وانما تسلطت عليهما الصداقة وهى اقوى واجمل من العاطفة السابقة الثائرة لان حب الذات فيها اقل ونبالة النفس اكثر

اما الغرام فقد احتملته جيلبرت قبلا بين ثنايا ثوبها..

والآن قد جمعهما رباط لا يحل هو ولدهما فلا يمكن افتراقهما الا الى موعد قريب ..

اما وقد تخلصا من العراقيل الماضية فانهما يسترجعان

بالاحترام والاجلال والمصافاة والموالاة ما فقداه قبلا بالغرام

فكانهما بعثا خلقا جديدا فى عالم جديد بعد ما ضربا بسهم من عذاب العالم القديم

نعم فقد وشجت بينهما اغصان الصداقة فكانت الملجأ المقدس الذى تفيأ اظلاله ظلاله فى امن ودعة بعد ما سحقتهما الزوابع وقذفت بهما العواطف

فاستعذبا هناءها المحتم عليهما ووجدا فيه عاطفة رقيقة مقدسة سكبت عبرة من عينى كل منهما

فقالت المركيزة :

اذن فلا استطيع مناداة نائلة بابنتى .. وهذه لعمرى ضحية يشق على احتمالها :.. فعليك يا امورى ان تبين لها السبب ...

اجاب نعم سوف ابين لها ما ينبغى حتى تستمر على القيام بواجب احترامها لك وحبها اياك .. سوف افهمها انك لا تكونين امها على مرأى من الناس اجمعين وذلك الى حين ...

قالت ولكننى سوف اراها فى اكثر الاوقات ؟ ..

اجاب نعم وسوف اجيئك بها يا جيلبرت . . وتأتين الى هنا ؟ هنا وقد عزمت على ان الحقها بنسبي واعترف بها ابنتى . فلا يحق لاحد ان يعترض على الشيخ درتيل اذا عقد صداقته بينك وبينه وزارك مصحوباً بابنته . . ثم أن روبر نفسه . . .

فقطعت عليه الكلام قائلة شكراً لك على هذا ايضاً . . فقد اطمأن قلبي على مستقبل ابنتنا المسكينة كل الاطمئنان فتعال معى وقبلها الآن

وفتحت باب القاعة المجاورة

فلما وقع بصر المسيو درتيل على نائلة استشعر اضطرابا عميقاً . . .

رأى ملامح جيلبرت في اوائل صباها يوم صادفها وافتتن بها فى زمن الشباب ونضارته وكان ذلك الهوى راسخاً رسوخ النقش فى الصخر لانه اول

وخيل له ان تأثير نظراته اليها قد عاد كما كان فكانه يرى نفسه في مرآة تنقل اليه صورة له قديمة

وحن اليها فؤاده حناناً فائقاً

ثم انه وجدها حسناء يتجسم الحسن والطهارة والحياء والكآبة جميعاً فى عينيها الصافيتين

وجاءت جيلبرت فامسكت يدها واقتادتها الى ابيها فقدمت له جبينها الابيض النقى

فحاول الابتسام ليخفى دمعاً كاد ينهطل من عينيه

فقالت جيلبرت اعلمى ايتها الحبيبة ان اباك المسيو درتيل يستبقيك عنده لتعيشى معه فى اتم رغد ودلال وسوف تحبينه بكل قوى فؤادك اليس الامر كذلك؟

فارتمت نائلة على عنق ابيها وقد عطفها اليه ما توسمت فيه من الجود والصلاح والحب وصاحت نعم بكل قوى فؤادى !

فبكى اموری سروراً . . وقد انكشف له افق جديد وحياة بعيدة عن الاعتزال الماضى وشعر بانه انتقل الى حالة كان يشتهيها من قبل فوافته بها الاقدار على غير انتظار . . .

كيف لا وقد كان منفردا لا يأنس بغير الدواة واليراع

وكان ينظر الى الغلمان والبنات ويحسد الوالدين والوالدات ويستشعر كآبة لا يعرفها الا من حرم الاهلين ولم يتخذ له اهلا

اما الآن فقد رزق ابنة يخفق قلبها حباً به وتملأ فراغ حياته وتستدر ضرع محبته وتهز فى قلبه وتراً جديداً من اوتار الشفقة والحنو

ولاحظ الذين رأوا اموري بعد ظهر ذلك اليوم في الكلية الفرنساوية انه كان على خلاف عادته متهلل الوجه يلمع البشر فى عينيه وتبرق ثناياه كأنه فتى لم يتجاوز العشرين

﴿ الفصل الخامس ﴾

(فقراء شرفاء)

نعود الآن الى فرنسوى دورينه وابنه كيكو وقد غادرناهما فى المستشفى وهما بين الموت والحياة

ولم يتمكن الاطباء الذين شاهدوهما من اثبات عودهما الى الحياة الا بعد انقضاء أسبوع كامل

ولقد كانت اصابة الوالد أشد من اصابة الولد فان كربون الفحم المشؤوم كاد يودى به وقد تسمم به فاسود دم شرايينه وأصيب دماغه وفقد فهمه ورشده واعترته تشنجات حادة

ظهرت هذه الاعراض عليه لكن قوة البنية اسعفته على مقاومتها وبثت جسمه ودافع مدافعة الابطال فلم تؤثر عليه البلايا والهموم

أما الولد كيكو فلم يكن تأثير السم عليه شديداً ولو

أنه ممتع بالعافية التامة كابيه لتماثل سريعاً

غير ان الغلام المسكين كان عليلا فطال زمن شفائه

وما برحا يتعالجان فى المستشفى حتى شفيا لكن بنية الغلام الضعيفة قد ازدادت ضعفاً

وكانا فى ذلك المستشفى راقدين على سريرين متجاورين

فانقضت الايام الاولى وفرنسوى دورنيه غير حافل بالحياة الا لاجل ولده

فكان يسأل الممرضة عشرين مرة فى النهار عن حالة ولده

ولقد أثر حزنه الشديد على جميع موظفى المستشفى فمالوا اليه كما مالوا الى ولده

فلما رآه كيكو تبسم فرحا وقال آه ياابتى !.. ما اعظم سرورى بشفائك ... فهل تتركنى بعد اليوم ؟

أجاب كلا ياولدى وقد أذنوا لى بملازمتك فهل يسرك ذلك ؟

قال نعم وسنتكلم عن أمى المسكينة ...

وكان الغلام يقاوم اوجاعه ويحاول تعزيته ابيه

وكذلك كان الوالد أيضاً فانه مابرح يفكر فى زوجته ويلذ له ان يحدث ابنه عنها ... وادرك الغلام ذلك

فلما تلفظ كيكو بهذه الكلمات تبادرت الدموع الى عينى أبيه ولم يتمكن من امساكها الا بجهد

فقال مابالك تبكى يا ابتاه ؟

أجاب لايزعجك بكائى يابنىّ .. ! انها دموع الفرح لانك احسن حالا

قال نعم أنا أحسن ... اذن هل نستطيع الخروج من المستشفى فى وقت قريب ؟

أجاب نعم يا بنىّ

قال ألا نمضى فنصلى على ضريح امى ؟

فلم يتمالك فرنسوى دورنيه ان زفر زفرة شديدة وأخفى وجهه بغطاء السرير واخذ ينتحب من غير أن يسمع له صوت

ذلك لأن الغلام نبه حزناً راقداً فاقبل على أبيه يعانقه ويقول له :

لاتبك يا أبتى ... لاتبك فانى لا أريد ان تحزن...

فكفكف دموعه وتنهد

فقال الغلام

لماذا نلبث ههنا ؟

فأجابه لاننا كنا فى خطر شديد انا وأنت وحتى الساعة لم يعد اليك كمال عافيتك

قال وهل اشفى فى زمن طويل ؟

أجاب ارجو أن لا يكون الامر كذلك ...

قال ولماذا كنت مريضاً يا ابى والمعهود اننى انا وحدى المريض ؟

أجاب ان المرض يعترى الانسان فى كل وقت حتى لينقلب من الصحة الى المرض فى يوم أو في ساعة

قال أما الآن فقد تحسنت حالك وتعافيت يدل على ذلك وجهك وأنت الآن شبيه بك يوم كنت متمتعاً بالصحة وكانت والدتى مثلك ولم نكن فقراء بؤساء

والعناية التى بذلها المستشفى فى معالجة فرانسوى دورنيه ردت الى وجهه لونه وازالت غضونه

واتم الغلام فكرته فقال له لقد كانت والدتى يومئذ جميلة المنظر وردية الخدود

وعند هذه الكلمات تمثلت فى ذهن فرنسوى دورنيه صورة زوجته واعارته كلمات ابنه الى اعوام فائتة هى عهد الصحة والهناء

أجل فقد كانت زوجته يومئذ ذات حسن وبهاء وصحة . وذلك قبل ان يحل بدنها الداء ويذهب بعافيتها ولونها الزاهر

وتذكرها فرانسوى كل التذكر لأنه كان يحبها محبة صادقة يمازجها الكبر ويفاخر بها وينافس

ولكن وا أسفاه لقد مضى ذلك الزمن المبارك ..

وما أقسى الزمن الحاضر اذا وازنا بينه وبين ذاك !

وما ذا عسى تخبأ الاقدار فى المستقبل لذلك الزوج والوالد المنكوب !

فتنهد

فقال الغلام بحقك اخبرنى يا ابتى الا نرجع للسكن فى منزلنا فى شارع الكوصونرى ؟

أجاب لا ياولدى فهل تأسف على ذلك البيت ؟

وأخذ الغلام سعال شديد طويل المدة فلما هدأ ثاره قال انى اذا اسفت على ذلك البيت فلاننى أشاهد فيه والدتى .. ويوجد أمر آخر ايضاً ...

قال ما هو ياولدى !

فتردد الغلام شيئاً ثم كانه عزم على أمر فقال الا تذكر يا ابتى جيراناً كانوا مقيمين في الطابق العلوى المجاور لبيتنا؟

أجاب نعم كان يقيم هناك برموش وزوجته ... فما مرادك ؟

قال وكانت عندهما فتاة تقيم معهما ... آه ما اجملها

فتبسم فرانسوى وقال له بلهجة صديق لائم :

هل تفكر الآن فى الفتيات ؟

أجاب بل أفكر فى تلك الفتاة ... لانها أحسنت الىّ

فتعجب دورنيه وقال كيف ذلك ؟

وهو يجهل قصة ابنته معها

فحدثه كيكو كيف عرف السائلة الحسناء وشقيقته فى

الشقاء والبلاء وانباه بمصادفته اياها الأول مرة ومحاوراتهما ومساعدتها وتعزيتها اياه

وكان حديثه ممتلئاً بالاعجاب المؤثر

فقال دورنيه نعم اذكر اننى رأيتها شفوقاً كثيرة الانعطاف علينا يوم وفاة والدتك المسكينة

قال الغلام وحدث بعد ذلك بايام يوم كنت فى حالة شديدة من المرض انها ذهبت فتسولت لاجلنا.

قال كيف تسولت لاجلنا ؟...

أجاب نعم ... فان برموشة وبرموش كانا يشغلانها فى التسول كل يوم ... فتستجدى ابواب الكنائس وسمعتنى في ذات صباح أطلب منك الاستدفاء بالنار ولم يكن عندنا حطب ولا فحم فذهبت وتسولت لاجلنا. ثم رجعت الىَّ بخمسة وعشرين فلساً .. آه وا رحمتاه للمسكينة ما اطيب قلبها !

قال فرنسوى حقاً انها طيبة القلب فهل شكرتها على صنيعها ؟

أجاب نعم ياابتى ... ولكننى حزنت حزناً شديداً

لاننا اضطررنا الى ترك ذلك البيت وامتنع على ان أراها أيضاً .

ثم تنهد الغلام وقال نعم لو كنت أحبها . . . وكان صوتها الرخيم العذب تعزيتي وكنت اشعر بقلبي ينجبر كسره كلما نظرت الىّ وكلمتني ؟ . .

قال هل كنت تحبها يا ولدى العزيز ؟

اجاب نعم . . . وقد يظهر انها منحوسة . . . واود ان اعرف الآن ماذا جرى لها . . . وهل تفكر فى كيكو . . .

ولم يسمع فرانسوى الجملة الاخيرة لان الغلام تلفظ بها بصوت منخفض فقال سوف استعلم واخبرك

قال احقاً ما تقول يا أبتاه ؟ . . ومتى ؟ . .

أجاب في اقرب وقت . . غداً . . واظن انهم يأذنون لى بالخروج غداً . فامضى الى شارع الكوصونرى واستعلم عن تلك الحبيبة . فهل سررت الآن ؟

فتهلل وجه الغلام وأدنى جبينه من شفتى والده

* * *

وفي صباح اليوم التالى حصل فرانسوى دورنيه على اذن بالخروج من المستشفى الى ساعات

فمضى الى بيته القديم

واستقبله البواب بسرور لأن دورنيه كان حسن الصيت فى ذلك الحى وكل الساكنين يعرفون استقامته وشرف نفسه

فاستعلم عن السائلة الحسناء فقيل له انها تركت برموش وبرموشة واختفت بعد ان تغيبا زمناً عن منزلهما

لكن دورنيه لم يأت لهذا الغرض وحده

وانما كان له غرض آخر يرمى اليه هو ان يعرف ماذا جرى لعقد اللآلىء

فقد بقى الوصل الذى تناوله به في الغرفة يوم حملوه وابنه الى المستشفى

ولم يكن خادم الباب يعرف شيئاً بهذا المعنى لكنه قال له :

يوجد رجل يهديك الى ما تريد هو الشرطى الذى

تعرفه مقيما فى شارع بريشور ..

قال أتعنى به مانيلون !

أجاب نعم هو بعينه . فقد كان حاضراً يوم انقذوك ولقد تحدث مع زوجته والسائلة الحسناء طويلا

قال فرانسوى نعم وقد جاء مراراً الى مستشفى سان انطوان فسأل عنى فيجب علىّ ان اشكره

أجاب اذن فاذهب اليه وهو وحده قادر على ايضاح ما ترغبه

فانطلق دورنيه الى شارع بريشور وعلم من مانيلون ما أراد ...

علم ان السائلة الحسناء تدعى الآن الآنسة نائلة درتيل وتسكن مع أبيها فى شارع الابسرفاتوار

وأما عقد اللالى فان مانيلون سلمه الى صاحبته المركيزة دى سمروز

وكانت المركيزة قد اظهرت رغبتها فى مقابلة فرنسوا دورنيه وابنه لان نائلة اخبرتها عنهما فقال له مانيلون انها فى ذلك اليوم بعينه تذهب الى المستشفى لهذا الغرض

فبادر مستعجلا فى رجوعه وهو طروب بما علم وقد توسم خيراً من تلك العيادة

ذلك لان شعلة الرجاء لاتطفىء فى قلب الانسان

الفصل السادس

صديقة كريمة

وفى اثناء ذلك كان الصبي كيكو متراقداً على سريره والسعال يأخذه من حين الى آخر وعيناه مفتوحتان يفكر فى ما مضى من حياته

فكان يرى الماضى وفيه والدته وبجانبها فتاة هى السائلة الحسناء

ولم يعرف تلك الفتاة الا ساعات قلائل . . . لكنها ساعات كالاعوام لان أثرها بقى راسخاً فى ذهنه

فقد تصدقت عليه بحب وانعطاف حتى صار يحبها كأنها اخت له كبرى ويعجب بها ايما اعجاب

ثم يجدها ذات بهاء بديع ويخيل له انه يسمع صوتها ويمتع روحه بعذوبته وكأنه تغريد طائر

ويفكر قائلاً أين هى الآن ؟ لعلها مستمرة على تلك

العيشة السافلة التى يحيط بها التعس والالم . . .

وود ان يكون نصيبه كل مااصاب الفتاة من ضنك وكدر

لو تسنى له ذلك لحمل نفسه ذلك الحمل فوق ماينهك قواه

ولو امكن ذلك لاستعذب العذاب الدائم لاجل تلك الشقيقة الصالحة

وجعل يقول هل تفكر فىَّ ياترى كما افكر فيها ؟

ولماذا لايكون الامر كذلك بعد ماظهرت لى ذلك التودد والاهتمام

« ولكن اين هى فتقول لى هذا القول واأسفاه من يدرى ولم يستطع ان يتحمل طول غيابها عن نظره على انه لم يكن بد من تعود غيابهاعنه فانه لايوجد سبب يحمل نائلة على المجيء اليه وقدبحث كثيراً عن سبب يدعو الى ذلك الامل أوعلاقة تتوسل بها الى لقائه ولكنه لم يكتشف شيئاً من هذا القبيل

فانكمش فؤاده حزناً . . .

أما الآن فقد ابتعدت نائلة ... ولا شك انه بعد لا يعقبه لقاء الى الابد

انما هى كوكب اشرق فى سماء وجوده ثم ادركه الافول

لكنها تركت وراءها خطاً من شعاع نورها

ولقد اتى على كيكو حين من الدهر وهو يفكر فى نائلة مرارا

بل الحقيقة انه مافتىء يفكر فيها دائما فلا تمر به دقيقة اثناء سكوته او اثناء تحدثه مع ابيه الا ووجه نائلة البديع باد لعينيه يبسم له ويوليه تعزية ويؤاسيه فى بلائه

ولم يرها قط الا وهى باسمة

والابتسام لمنكوب مثله صغير حقير عليل طريح بين بقايا البؤس والبؤساء نعمة ربانية

ثم ان كلامها كان بلسما لجراحه وتسكينا لاوجاعه

فما اشد احترامه وحبه واكرامه للسائلة الحسناء لنائلة ! ...

وكان وجهه يتدفق بشراً كما غمغم ذاكراً اسمها ويطربه

الاسترسال في التأمل لانه يكون كانه اجتمع بها ورآها تتوجع له فيشعر بلذة فائقة

ويعيد الشكر لها على شفقتها وعطفها

فمتى يراها ؟

ربما كان ذلك مستحيلا

واطرب شىء عنده مع ذلك صوتها يسمعه وفيه غنة يخفق لها فؤاده خفوقا لذيذا على مهل

تلك امنية كان يصوغها فكره وقتئذ وفيما هو كذلك فتح الباب ..

فنظر فوقع بصره على قامة هيفاء قد انتصبت واقفة على العتبة وبين ذراعيها طاقة زهر من شقائق النعمان

فعرفها نائلة .. صديقته الكريمة

فخفض رأسه خجولا واغمض عينيه

وقد تولاه فرح لا يوصف وهو صبيانى تمازجه عاطفة اشد وازكى حرارة

واذا بيد لطيفة قد امسكت يده ففتح عينيه

وانحنت نائلة فوقه وكأن ابتسامتها شعاع من نور

الشمس فخاطبته بصوتها الرقيق قائلة :

ها انا قد جئت ياكيكو .. جئت كما وعدتك فهل تذكر ؟ انني انجزت وعدى

قال الغلام اشكرك لانك اهتديت الى مكانى ! ..

أجابت لقد علمت انهم جاؤا بك الى هنا مع ابيك فاتيت ...فكيف نجدك ...

فتبسم تبسما يفطر القلوب

فانثنت نائلة الى من تصحبها وقالت لها .

انظرى أيتها المركيزة فهذا هو صديق السائلة الحسناء الذى انبأتك بخبره ... فصافحيه أيتها ..

وهنا توقفت لانها لم تجاسر على مناداة امها امام أجانب

فقالت أيتها المحسنة العزيزة

لكن تلك المناداة كانت فصيحة بليغة فى ابتسامتها ونظرتها

ثم انثنت الى كيكو فقالت له :

أين ابوك ؟ ... فان المركيزة دى سمروز تودلقاءه

واذ ذاك رجع فرنسوى دورنيه فلما رأى المركيزة والفتاة عند ابنه تقدم فانحنى امام المركيزة

فقالت له بصوتها الرخيم :

لقد انبئت بما انتابك من ضنك وعسر كما علمت باستقامتك وشرفك ... ومنذ الآن قد انتهى زمن عسرك لان الحلية التى وجدتها ..

قال اتعنين بها عقد اللآلىء ...

اجابت نعم ... فهو لى وقد وهبته لك ..

قال كيف تهبين لى مثل هذه الثروة ؟ ..

أجابت أنت خير من يستحقه فخذه مباركا لك فيه

والقت بين يديه العلبة فارتعش عند استلامها

فقالت أيضاً:

أما غلامك هذا ..

فقطعت عليها الكلام نائلة وهمست في أذنها قائلة :

يجب أن تكلمى عنه ذلك الطبيب الشاب الذى انقذنى واحسب انه يتمكن من شفائه باذن الله

أجابت المركيزة اصبت فان جورج دى كانتابل

قد انصرف الى درس علل الصدر وهو قادر على استخدام جميع وسائل المعالجة وسوف اكلمه عنه حالما ارجع الى نيس

ولما تلفظت المركيزة باسم جورج دى كانتابل تصاعد الاحمرار الى وجه نائلة وأخذ فؤادها يخفق خفوقا سريعاً

لكنه لم ير أحد منها تلك الحركة الفجائية السريعة لان جيلبرت خاطبت فرانسوى دورنيه فقالت له :

اننا نكفل ولدك ونعنى به حتى يبرأ من علته . . . وأعدك بذلك وعداً صادقا

فغمغم فرانسوى يقول سيدتى !.. سيدتى !..

ولم يجد كلاماً يقوله ويكون وافياً بحسن شكره لها فترامى على قدميه امام المركيزه والدموع ملء عينيه واخذ يلثم طرف ثوبها بوقار وخشوع أما الغلام كيكو فانه اطبق اجفانه ليمتع بهنائه احسن تمتع

﴿ الفصل السابع ﴾

عاشق ولص

واستمر اعضاء جمعية اللصوص العامة فى اعمالهم لا يعوقهم عنها عائق ولا يصدهم عن اتمامها حائل

فتوالت السرقات على ما يشتهون وميلورد الذهب يتولى ادارتها

وقد بحث عنه البوليس كثيراً عقيب حادثته مع البارونة بولنسكا ولكنه تمكن من النجاة

لكنه قال لقد أخطأت مرماى فى هذه المرة ولكن صبراً يا نينا فلك معى شأن في يوم آخر :

وهكذا شأن من يتهيأ للانتقام ويعلل به النفس ويتربص الفرص فانه يقول صبراً

فعمد بكليته الى السرقات مخاطراً بروحه أحياناً كثيرة لعله ينسى هوى تلك الغادة

فانقضى زمن والقطر ما بين باريس وريفييرا تسلب وتنهب بمهارة وانتظام غريب

فلم يفت اعضاء العصابة أو الجمعية التى يشتغل معها صابوريو عضوا من أهم أعضائها شأناً واكثرهم جرأة ان يسلبوا المسافرين اكياس الحلى والامتعه

وكان اكثر شغله فى الليل اذ تغفل العيون وتسكن الاصوات فيعد المسروقات فى رزم ثم يخاطر بنفسه فيقف على درج المركبة وينزل منها سريعاً والقطار سائر وانما يفعل ذلك عند قرب القطار الى احدى المحطات وتماهله فى السير

أما نورتون فانه كان يلبس لباس المسافر ويجعل عينه على كيس من اكياس السفر التى تروق له فيركب المركبة التى يوضع فيها ذلك الكيس ويلبث ساهراً فى الليل حين ينام الجميع وقد يستعين على تنويم المسافر بالكلوروفورم حتى يطفىء النور ويختلس الكيس اختلاساً خفياً جداً ثم يطرحه الى الخارج من باب المركبة في مكان متفق عليه بينه وبين زملائه اللصوص

وفى صباح اليوم التالى يفتقد المسافر كيسه ويعلم انه سرق منه فلا يجد حيلة بغير الشكوى الى شرطة القطار

اما نورتون فيكون فى اثناء ذلك منزوياً فى زاوية مطبق اليدين مغمض العينين . . . ولكن فى الظاهر فقط لانه كان يسمع ما يدور بين صاحب الكيس والشرطى

ويضحك فى سره من رفيقة المسافر وما فعل به

وهكذا كانت اعمال جمعية اللصوص العامة جارية على ما يرام . والمسافرون الاغنياء يتكاثرون جداً فى ذلك الفصل من كل سنة فكانت ارباحها باهرة

وهكذا تغيرت خطة اعضائها فى السرقات فكأنهم انتقلوا الى ميدان جديد يتسابقون فيه

وبعضهم أى المنخرطون حديثاً فى سلك الجمعية كانوا يلجئون الى مخالطة الناس ومزاحمتهم وانتشال ما يحملون

وبعضهم قصدوا الى الفنادق التى على شواطىء البحار والاماكن التى يقيم فيها المصيفون

وبعضهم اقتدوا بجاك نورتون فساروا سيره وانتهجوا خطته

أما جاك نورتون فاختار ثلاثة كان رابعهم . وتولى بنفسه استلام الاشياء المسروقة ومكث الثلاثة نقل تلك الاشياء . ولهم رابع يهتم بتصريفها واشترك معهم صابوريو فى ذلك العمل

وعمد جاك وصابوريو الى طريقة أخرى هى السرقة بواسطة لعب الورق فكان يستعين بصابوريو لانه طلق اللسان فيكلفه اغراء المسافر بالمقامرة على سبيل اللهو والتسلية ويجلسون معاً فلا ينتهى اللعب الا بخسارة الثالث كل مايمتلكه

وتبين للقراء من ذلك كله ان جاك نورتون لم يكن يفاخر سدى حتى عرض على السائلة الحسناء ان يدفع اليها ما تحتاجه من النقوذ لترجع اليه

ولقد عظمت الغنائم التى غنمها وكان في وسعه ان يعرض عن السرقة غير أن ميله الى المعاصى ذهب به كل مذهب

ولم تطب نفسه بالعيش كالذين يكتفون بموارد ثروتهم فان الراحة لا تلائم من كان مثله متعودا على حالات شتى من الاخطار والافراح والاحزان والخداع والمكر والظفر والفشل

قلنا انه انهمك فى السرقات لعله ينسى هوى ينينا وقد ساءه وقهره انه لم يفلح في الانتقام منها فكان يعلل النفس بالحصول على حظ اوفر في مقتبل الايام حتى ينتقم من تلك الخائنة ..

ويقول فى نفسه ان انتقامه سيكون اشفى للغليل واشد صرامة لان نتيجته اناة وتدبير وصبر طويل ..

الا اذا شاءت تلك المخلوقة البديعة ان تعود اليه ..

وكان يرتعش جسمه لمجرد هذا الفكر ... لان البغضاء الكامنة فى فؤاده لم تكن الا اثراً من آثار كلفه بها وهيامه ...

وكان فى اثناء روحاته ورجعاته يراقب قصر سان ستفانو ويرصد المقيمة فيه

وقد افضى تلاعب ينينا وتضليلها للمحققين فى

حادثتها ان اغفلوا تلك القضية تعباً وضجراً وفضلا عن ذلك فان جاك نورتون كان موقنا بان لا خوف عليه من هذا القبيل، فازداد جرءة واقداما شأن المجرم اذا امن العقوبة ...

وانما كان يشتد حنقه واحتدامه كلما وصل الى حديقة القصر وفكر فى خيبته وفشله على انه غبط نفسه مراراً لانه لم يصب تلك الحبيبة الجافية باذية وفى هذه الحالة يكون غرامه القديم متسلطا عليه او يكون قد صادفها فيثور ثائر وجده

وكان يصادفها فى بعض الاحيان جالسة فى مركبتها الفاخرة

فتتظاهر كأنها لم تره وتثنى رأسها وتمر محتقرة مزدرية كأنها لم تعرفه قبلا

الا ان حسنها يتجلى له فتانا فتزيده جنونا

فيهيجه شوق شديد الى الاقتراب منها ومخاطبتها ...

لكنها تبتعد سريعاً بين الجماهير وتختلط بالقوم السائحين والمتنزهين

فينصرف مستمهلا فى سيره مفكراً الا ان العاصفة تعصف فى نفسه فيعود عند المساء الى جوار منزلها

ولطالما رأى شخصها من خلال النوافذ ولبث راصداً اياها هناك مختفياً وراء شجرة مرتعشاً كارتعاش العشاق واللصوص اذا وقفوا فى ذلك الموقف

وفي ذات مساء فتحت نافذتها واطلت منها وهى لابسة ثيابا بيضاء زادتها حسناً

فدنا يسوقه اليها سائق الشوق ويدفعه دافع الصبابة فناداها .

ينينا !... ينينا !...

فما كادت تسمع الصوت حتى دخلت الى القصر مرتاعة كأنها سمعت صوت شيطان رجيم

وانطبقت النافذة للحال وانزلت عليها الاستار فكانت حائلا بين جاك نورتون والمخلوقة التى يعبدها لا تخترقه الابصار

فصرخ صرخة مجنون واضطرمت نيرانه

وكان عيد فى ذلك المساء فى مدينة نيس والناس

يتجولون فيها والاناشيد تقرع الاسماع فى كل مكان منها والجو يتألق بالانوار الصناعية والاسهم النارية يخترق الفضاء فتلقى التحية على الكواكب ثم تهبط الى البحر

وأمواجه تترنم على الشاطىء وتنكفىء راجعة منكسرة

غير ان ينينا لم تكترث لشىء من تلك الاحتفالات الباهرة بل ظلت نوافذها مغلقة

هذا وجاك نورتون مابرح يحملق اليها البصر كأنه بمجرد الارادة الحارة يتمكن من فتحها

ولكن لم يبدأ أثر حياة على ظاهر القصر

كانت الحياة تلوح فى داخله بانوار مضيئة فى قاعاته ودهاليزه وعطفاته

وأما الحديقة فليس فيها الا سكينة وسكوت والاشجار تمد ظلالها الخفية ولا يخترقها الا نور الكواكب

فالمشهد يكاد يكون مشهد رؤيا ... وكانى بذلك القصر مما يسكنه الحور وقد احتجبن عن العيون

فترامى جاك نورتون على ضفة مستنقع أمام باب

الحديقة ثم اعتمد رأسه بين يديه

وهو لم يبك قط ولا جرت دمعة من عينيه حتى فى يوم وفاة والدته التى قضت بسببه ! .. الا انه فى تلك الساعة بكى غراماً !

فلله درك أيها الغرام ! أية قوة سحرية تحارب بها العاشقين !

ما اعظمك أيها الغرام

فقد يكون العاشق دنيئاً ساقطاً وعشقه أثيما لكنه صادق فترفعه وتسمو به انك ايها الغرام تعلى العواطف الانسانية على الدوام

ولقد مزق احتقار الخائنة فؤاد ذلك الشقى تمزيقاً وهو الرجل الذى لم تعطفه عاطفة من قبل

وربما كان هواه الحاسة الوحيدة التى أمكن أن تؤثر على فؤاده الذى قسته الجرائم والذنوب لكنها ملأته ولم تبق فيه موضعاً لسواها

فاشتد به الجوى حتى كاد يفقد الرشد وفى تلك الدقيقة لم يكن يحجم عن أمر

فقضى يومه ذاك يتقسمه الالم والغضب على أثر مالقى من جفاء ينينا وما رآه دله على جفاء لا وصل بعده ولا لقاء

فتميز حنقا واستشعر شوقاً الى الجريمة واجتذاباً اليها غير مكترث لهاوية يسقط فيها

فانذر القصر بقبضة يده وابتعد وهو يرتجف ويقول :

على اى حال كنت يا ينينا فلا بد لى منك ! ...

والا فانني اقتلك في هذه المرة بلا أسف ! .

***

وهى كلمات كتبها وارسلها اليها اذ وصل الى شرفة قهوة وزاد عليها ما املاه وجده وحنقه

وفيما هو يكتب لم يشعر برجل يراقبه من زاوية الشرفة ...

وكان يطالع او تظاهر بمطالعة جريدة مصورة لكن بصره كان يرتفع الى جاك نورتون من وقت الى آخر وهذا منكمش فى الكتابة منصرف الى تأثراته

حتى انتهى من رسالته فقرأها وطواها من غير ان يوقع عليها لان حادثة المستنبت اولته فطنة ثم جعلها فى

غلاف ...

فكتب عنوانه وكأنه تذكر امراً فمزق الغلاف ورماه قطعاً صغيرة تحت قدميه ثم اضاف كلمة الى الرسالة وختمها

ثم نهض وفارق مكانه

فما كاد يخرج حتى نهض الرجل الرقيب ايضاً فمر بالطاولة التى كان جاك نورتون جالساً اليها وانحنى فجمع قطع الغلاف فوضعها فى جيبه غير مكترث

ثم خرج ايضاً ولحق بجاك نورتون من بعيد يتتبع آثاره ويقتفى خطواته وهو في اثناء السير يخرج القطع الصغيرة من ورق الغلاف ويضعها على يده ويوفق بينها ويلائم

ولم يكن ذلك بالامر اليسير لانه وجدها ناقصة قطعتين صغيرتين جداً

لكن ذلك الرجل تمكن بحذقه من الحصول على النتيجة المرغوبة لانه تبسم حين قرأ ما صورته

حضرة ..... رونة بولنسكا

قصة ... . ستفانو

نيس

فقال الرجل فى نفسه

صدق ظنى فالرسالة مرسلة الى حضرة البارونة بولنسكا فى قصر سن ستفانو فى نيس . ذلك ما كتبه الكاتب عنوانا كاملا لرسالته . . . فهى تلك السيدة الحسناء التى كادت تقتل منذ أيام ولبث القاتل غير معروف ...

وظل الرجل يمشى تابعاً جاك نورتون بمهارة غريبة

فغمغم يقول اترانى وصلت الى الدليل واتبعت الخطة الصالحة فلنحفظ هذا الغلاف انه ذو قيمة وقد ينفعنا نفعاً جزيلا

واتجه ميلورد الذهب الى مكتب البريد

فلما وصل اليه القى رسالته فى الصندوق

ونظر الى ساعته وكانه يستجمع تذكراته فقال فى نفسه لنذهب الآن ولا ندع هذه المرأة تتسلط علينا الى هذا الحد .. ولا ينبغى ان ينسينى الهوى اشغالى!

وقصد الى شارع المحطة بقدم ثابتة وعزم وطيد!»

وكان ذلك قبيل وصول قطار باريس

اما الرقيب الذى تبعه فسار فى شارع آخر مكتفيا بما علم . . . .

وفي صباح اليوم التالى اقبل وكيل الجمهورية على قصر سان ستفانو يقرع جرس الباب

فأنبأوا البارونة بولنسكا بقدومه

ومهما يكن من استقباحها لتلك الزيارة فانها لم تستطع التخلص منها او من صاحبها

وبعد هنيهة دخلت الى ردهة القصر وكان نائب الجمهورية فيها ينتظر مقابلتها

فحياها تحية تصنع وقال ارجو منك ايتها السيدة عفوا فقد جئت فى هذه المرة ايضاً لامر لا يسرك ..

قالت بجفاء .

العل المراد به حادثة المستنبت ؟

اجاب نعم

قالت كنت احسب ان اوراق هذه القضية قد حفظت

اجاب كلا فانها لم تحفظ بعد

قالت وكيف ذلك ؟ هل عدتم الى التحقيق؟ولكنها حادثة مضحكة ولا اهمية لها ايها النائب ! ولم يكن لها اثر عندى ثم اننى اغضيت عنها ...

اجاب ان الحكومة لا تغضى عنها ...

قالت ولكننى لم احترم بلاغاً أو شكوى

قال ذلك لا يمنعنا من متابعة القضية الى النهاية

قالت لماذا ؟

اجاب لست اكتم عنك السبب ... فاعلمى انه قد ظهرت فى مقاطعة نيس عصابة من الاشرار تعبث فيها فساداً ولا يدهشنى ان يكون واحد منها قد حاول قتلك. . . .

قالت عجبا !

ولم تزد

قال ونحن نقتفى اثار اولئك الاشرار فلا نألو جهداً فى ايضاح كل ما يتعلق بهم من قبيح الاعمال

فكان سكوت قليل واستاءت ينينا لانها ادركت

ان المعنى بكلمات النائب انما هو جاك نورتون

وجاك نورتون اذا قضوا عليه سلمهم سرها وكاشفهم بقصتها وافضى ذلك الى انتشار خبرها واعلانه الناس

ويا لها اذ ذاك من سقطة للبارونة بولنسكا لا تنهض منها بعد ما عرفت كيف تمازج علية الناس فى نيس

لكن حقيقة الامر انها لم تكترث كثيرا لسقوط شرفها الموهوم بعد ما يئست من تصبي الدوق دى سمروز والاستيلاء على اسمه ولقبه وثروته

على انها تود مع ذلك التظاهر بالجاه والغنى وتضليل من تعاشرهم من اصحاب الاموال لعلها تهتدى الى عاشق يمتلك الملايين فاذا ادركت هذه الامنية لم تحفل بأن ترفع النقاب عن حقيقتها وماذا يهمها بعد نجاحها ان يقال انها لم تكن الا بارونة كاذبة

ومهما يكن من الامر فهى راغبة فى الدفاع عن غرض تخذته سبيلا لفوزها اى انها تروم الدفاع عن تنكرها بثوب المرأة النبيلة ريثما يتم لها ما ترتجيه

والحاح الحكومة في كشف الحقيقة يخالف مقصدها

فكان يهمها ان لا تفتضح اكثر مما يهمها ان تحافظ على نيل مستعار . . .

فقال نائب الجمهورية :

لقد مضى ايتها السيدة ثمانية ايام على الحادثة التى جرت لك فى مستنبت الحديقة اذ طعنت فى صدرك بمدية . اليس الامر كذلك ؟

اجابت نعم

قال اليس لديك من بيان توردنيه لنا عن حالة ذلك الرجل الذى اراد اغتيالك ؟

اجابت كلا . وقد اخبرتك عن ذلك ايها النائب . فقد هجم عليّ الرجل من ورائى وداهمنى مداهمة على حين غرة اذ كنت خارجة من المستنبت فلم اتمكن من رؤية وجهه . . .

قال الا يخامرك ريب في احد

اجابت لا

قال الم تعثرى على دليل او اثر يهدى اليه فى مدى هذا الاسبوع الذى انقضى ؟

اجابت لا

قال الم يتوعدك الرجل القاتل مرة ثانيه ؟

وقبل ان تجيب على هـذا السؤال أقبل غلام يحمل رسالة وضعها على صحن من الفضة

فالقت نظرة على الغلاف فاصفر لونها للحال

فقالت للخادم متبرمة به :

دع الرسالة هنا ... ولم يكن أمرها مستعجلا

فوضع الصحن على طاولة صغيرة وانصرف

ولم يفت نائب الجمهورية ذلك الاضطراب الذى اعتراها فجاءة

وانكر ارتجاف صوتها حين أمرت الغلام بالانصراف

فقال فى نفسه

لاشك ان هذه الرسالة علة هذا التأثير الذى ظهر عليها

فمن أين هذه الرسالة ؟ .. وممن ؟..

وهل يمكن ان تكون ذات علاقة بالحادثة ؟

أسئلة القاها النائب على نفسه بفضول لا مزيد عليه

أما البارونة فكانت قد تمالكت واستعادت رباطة

جأشها شأن امرأة رأت كثيراً من أمثال هاتيك الامور

الا انها كانت واهمة أو خادعة نفسها وهى على الرغم منها مابرحت تنظر الى الرسالة فدلت هيئتها على شدة اهتمامها بها

فقال نائب الجمهورية أرجو منك ايتها السيدة ان لا يؤخرك وجودى هنا عن مطالعة رسالتك

فاجبته لايوجد فيها مايجب الاسراع فيه . . . وانى لعالمة بمضمونها سلفاً

قال أحقاً انك تعلمين ؛

أجابت أظن ذلك ظناً

قال وهل يسوٴك ان أسألك عن مضمون مافيها ؟

وهنا اختفى الرجل الشهم الذى يستخدم اساليب أهل الذوق فى المخاطبة وحل محله رجل الحكومة أو وكيل النيابة

فكان صوته صارماً تحول صرامته دون كل جدال ومماحكة

وظهر الاهتمام على لهجته

فتوقعت الخطر

لكنها حاولت تلافيه بابتسامة فقالت لا شك انك تمزح أيها النائب ... فلنعد الى ماكنا فيه ...

قال كلا ايتها السيدة فلست أمزح بل الجد ماأقوله لك... تفضلى فافتحى هذه الرسالة واطلعينى على مضمونها

قالت باى حق تطلب منى ذلك؟

أجاب ان القانون يخولنى هذا الحق

قالت هل يخول القانون حق الاطلاع على أسرار الناس ؟

أجاب بل يأمر القانون بالبحث عن كل رسالة من شأنها ان تفيد في تحقيق الجنايات . وكان فى وسعى ان أحجز على رسائلك فى البريد ولعلها خير وسيلة لمعرفة ما تصرين على اخفائه على الحكومة

وهنا فقدت جرأتها فصاحت انا أخفى على الحكومة ؟

أجاب نعم انت . واعلمى اننى لم أصدق مالفقته علىّ اذقلت انك لاتعرفين الرجل الذى هم بقتلك وانما أعتقد انه يهمك انقاذه ؛ أية مصلحة لك فى انقاذه ؟ لاأدرى

ولكننى تحققت ذلك واسمحى لى فأقول ان حالتك الآن تؤكد كلامى هذا وتؤيده

فقالت بربك ياسيدى كفى !

وهكذا اخطأت فى تمثيل دورها لان ارتباكها كان ظاهراً فزلت بها القدم

أما نائب الجمهورية فلم يحفل بها بل قال هيا فاخبرينى من هو مرسل هذه الرسالة التى كان تأثيرها شديد الوقع عليك

أجابت أنت واهم فليس لها أقل تأثير علىّ ...

قال لاتجادلى فى أمر تحققته فانت تعرفين الكاتب لان الخط وحده أوقعك فى اضطراب لا يخفى على أحد . ويخيل لى ان هناك صلة بين هذه الرسالة والحادثة التى جرت لك . فأروم الايضاح . . .

قالت وما تفعل اذا أبيت ؟...

أجابت لايخفى عليك ان الرجل الذى يكلمك الآن انما هو نائب الجمهورية فهو يستخدم سلطة الحكومة .. فاذا أبيت اضطررت الى ...

فلم تدعه يتم جملته بل قالت له افعل ما بدا لك فلا امانع

وقد طالعت فى عينيه كما استشفت من صوته عزيمة لا تقاوم

فاعترف بالغلبة ومدت يدها بالرسالة اليه وهى تقول فى نفسها

اى خطر يقع على ؟

فلا يحتمل ان يودع جاك نورتون تلك الرسالة ما تخاف ظهوره للناس

فقال النائب كلا بل اقرئيها انت ايتها السيدة واخبرينى بحريه فكرك عما تحويه

ففضت ختم الرسالة ونشرتها بين يديها

فكانت مشتملة على بضعة سطور غير مذيلة بتوقيع

ففكرت قائلة ما دام انها غفل من غير توقيع فلا بأس ..

وضحكت للحال من الحاح النائب

ثم قالت بكبر:

لا ازال مهدده على ما يظهر ! فليس في الامر ما يهم ودفعت الرسالة الى النائب

فقرأ السطور التى خطها بنان اللص وهو صامت ووعى ما فيها من دعوى الوجد والهيام والانذار والوعيد ..

الى ان قال هل تعرفين هذا الرجل !

اجابت انا ؟

قال لا تنكريه فان العبارات الواردة فى رسالته لا تدع للارتياب مجالا

اجابت يباح لكل انسان ان يكتب ما شاء الى كل امرأة متى كان مراده اخافتها . اما أنا فلا أعرف هذا الرجل ولا أدرى من يكون

قال نائب الجمهورية احذرى ايتها السيدة فانت معرضة لخطر كبير ... وقد تنفعك مساعدة الحكومة لك على ذلك الرجل الشرير فيجب عليك ان تلجئي اليها لا ان تنبذيها ..

فلم تجب

ولاحظها النائب فعلم من نظراتها وانقلاب شفتيها ان لا سبيل الى استطلاع شىء منها

وايقن انه يستحيل عليه التغلب على عنادها السرى فنهض وقال لا بأس سوف ندفع عنك اذية ذلك الشرير على الرغم منك .. اما هذه الرسالة فانا ابقيها معى لانى لا احسبك محتاجة اليها اليس الامر كذلك ؟...

وحياها وانصرف وقد تركها شاعرة بانحطاطها لكنها مرتضية بما جرى لعلمها بأن تحقيق النائب لم يسفر عن النتيجة التى يسعى وراءها

ذلك لان الرسالة التى اخذها لا تأتيه بفائدة وهو ما ترجوه يذينا

اما جاك نورتون فليست تبالى بوعيده

وهى منذ ما وقعت لها تلك الحادثة ما برحت تحمل مسدساً صغيراً ذا قبضة من العاج تحسن استخدامه عند الحاجة اليه للدفاع عن حياتها

ثم ان اقامتها فى تلك الناحية لا تطول مدتها الا بمقدار ما تهتدى الى سائح متمول من الاميركيين

فتنتقل معه الى عالم آخر

وعللت النفس بأن تلك المدة قريبة

والا فتذهب وحيدة باحثة عن الثروة في مكان لا تطأه قدما جاك نورتون

وجعلت تبسم لآمالها وامانيها

ولفحت نار الكبرياء ذلك الأثر الذى بقى من فشلها وخيبتها اذ جفاها روبر دى سمروز وانقطع املها منه لان تلك المرأة الحسناء لم تيأس من سلطان جمالها تسطو به على عاشق من ذوى الاموال يمنحها الغنى الجزيل الذى تشتهيه ويحق لها الحصول عليه لان جمالها يخولها ذلك الحق . . . .

وكان نائب الجمهورية فى اثناء ذلك يسير وهو مرتبك حائر وفي يده رسالة جاك نورتون

واذا به قد وقف تحت ظل نخله وصاح كانه يجاوب نفسه على سؤال خفى قال يرجح فى ظنى ان المتعدى على تلك المرأة وكاتب هذه الرسالة انما هما شخص واحد ولكن من يكون ؟

فاجابه قايل بجانبه :

انا اخبرك

فاجعل النايب الملكى وانثنى فرأى رجلا لم يكن رآه قبلا وقد اقبل عليه فحياه باحترام

فانذهل وقال له

من انت

فتبسم ذلك الرجل لانه تعرض لمخاطبة النايب بذلك الشكل الغريب ثم اخرج من جيبه بطاقة فناوله اياها وكان مكتوبا عليها ما يأتى

مانيلون

مفتش البوليس

فقال النائب اذن نحن معارف . . . اذن انت تظن انك تعرف الرجل . . .

اجاب بل انا على يقين ايها النائب اذا كان خطر الرسالة التى معك تشبه خط هذا العنوان

وأراه الغلاف الذى التقطه بالاس فى شرفة القهوة فقابلا بين الخطين فاذا همـا واحد حتى لا يخفى على

أحد تشابههما

فقال نائب الجمهورية ان اليد التي سطرت المكتوبين واحدة ولا شك

قال مانيلون وانا أعرف تلك اليد

قال تكلم

أجاب انها يد رجل اسمه جاك نورتون أو ميلورد الذهب

فقال النائب لقد كنت فى ريب من ذلك

قال مانيلون انه شقى اريد مناقشته حسابا قديماً جداً بينى وبينه

قال النائب يجب القبض عليه سريعاً

أجاب مانيلون لدى اوامر بهذا الشأن من نظارة الضبط العمومية ... ولا يمكنى القبض عليه مالم يكن موجوداً فى نيس وهو غير موجود فيها

قال أين هو ؟

أجاب انه سافر فى صباح هذا اليوم الى باريس مع القطار السريع

قال اذن فكيف العمل ؟

أجاب انه يعود

قال كيف تعرف ذلك

فاجاب ما نيلون بقوله اعرف ذلك

قال النائب اذن فنقبض عليه عند ايابه

قال مانيلون نعم اذا لم يكن قد تم القبض عليه قبل ذلك

قال النائب ما معنى كلامك أيها الصديق ؟

فاطلعه مانيلون على خبر جاك نورتون وعصابته وابان له الوسائل التى اتخذت لهذا الشأن

فقال النائب لا بأس وانى اراك حاصلا على الاذن الكافى فلا حاجة بك الى المزيد

اجاب مانيلون بل ذلك فوق الكفاية وقبلا لم اكن قادراً على القبض على جاك نورتون الا اذا وجدته متلبساً بجناية اما الآن فاستطيع ان اقبض بساعدى على عنقه بملء الحرية

قال النائب اصبت لان لدينا برهانا يدل على تعمده



المركيزة دى سمروز

جناية القتل ... فمتى يعود ياترى ؟

أجاب غداً مساء ولا ريب مع القطار السريع

قال غداً مساء اكون فى المحطة مع اربعة من رجال البوليس وتكون انت المقدم عليهم

أجاب كنت عازما على أن أطلب ذلك منك

قال اذن فاذهب الآن وتعال بعد الظهر الى النيابة حتى نتحدث بشأن التدابير الاخيرة الواجب اتخاذها

أجاب حباً وكرامة

ثم صافح النائب وهو متهلل الوجه باسم

وكان يبسم لحلول موعد الانتقام من ذلك الشقى الذى حاول قتله منذ عشرين عاما

الفصل السادس

« جواب ينينا »

غير ان الاقدار احبطت فى هذه المرة ايضاً مساعى مانيلون وأفسدت تدبيره فلم يفلح في ما كان يرجو ويأمل

ان جاك نورتون لم يرجع فى مساء اليوم التالى الى مدينة نيس

ويزعم بعضهم ان للمجرمين احساساً خفياً ينبههم الى الاخطار التى تحدق بهم قبل ان يقعوا فيها على ان الحقيقة فى امر جاك نورتون كانت غير ذلك فلا نبوةً عنده ولا احساس كالذى اشرنا اليه

وانما بقى فى باريس لحلول الموعد السنوى لانعقاد جمعية اللصوص العامة وقد غيرت محلها

وقد نقلوا المحل من شارع مازاجران الى ماوراء

القهوة الكبرى التى فى شارع ماجانتا

وكانت تلك الجلسة الاولى في الموضع الجديد

ولا يمكن مانيلون ولا رفيقه لوسيان ان يقفا على ذلك ...

فلما رأى صديقنا مانيلون ان مركبات القطار السريع خالية من ميلورد الذهب عض البنان اسفاً وبلغ منه الاستياء مبلغاً عظيما

اما لوسيان زميله فقد وقف في الطريق الى القاء القبض على صابوريو فاجاه وهو يفرغ كيسا لاحد المسافرين قد اختلسه وكان معه اربعة من رفاقة اللصوص

فلما وقف القطار فى نيس التى القبض على اللصوص الخمسة واودعهم سجن نيس

فقال مانيلون فى نفسه .

انها لمكافأة حسنة على كل حال ريثما نقبض على اللص الاكبر

اما جاك نورتون فكان وقتئذ يتضرم غيظاً ويحتدم ذلك انه عهد الى احد رفاقه بمراقبة غادة الشعر الذهبي

وامره أن يرسل اليه فى كل يوم لائحة تشتمل على بيان اعمالها وحركاتها او تقريراً مسهباً عن كل ما تفعله تلك المرأة حتى لا يفوته شأن من شؤونها

الا انه فى يوم القبض على صابوريو تلقى رسالة برقية تتضمن خبر القبض على اللصوص الخمسة وخبر حادثة اخرى كان وقعها عليه اشد وهى اختفاء ينينا

والرسالة التلغرافية مكتوبة بشكل مصطلح عليه بين اولئك اللصوص وكان ذلك الجاسوس يراقب القصر من الصباح الى المساء ففى ذات صباح كان ذاهباً كعادته الى ناحية القصر فوجد النوافذ موصدة والحديقة خالية

فاستعلم فقيل له ان صاحبة القصر قد تركته وعادت الى باريس ولا ترجع اليه

فلما تلقى جاك نورتون ذلك النبأ ضم اصابعه متهدداً وقال في نفسه اتراها افلتت منى في هذه المرة فلن التقى بها ؟

وبادر مسرعاً الى منزلها القديم في شارع ريبو فوجده خالياً وقيل له انه خلا من زمن طويل ونقل

اليه خادم الباب ان الطبيب بلتيمور قد استأجر منزلا فى بلاد نورمانديا واقام فيه مع البارونة بولنسكا

فلبث جاك نورتون مبهوتاً

وجعل يسائل نفسه قائلا يا للعجب اتسافر ينينا مع بلتيمور ؟ وتسافر بهذه السرعة من غير ان اشعر بها ؟

« اتختار بلتيمور وتفضله عليّ ؟ ... وهو السكير الشريد الذى ضممته اليّ ! وهو ذلك الابله الذى كنا نضحك منه ونهزأ به !

ولكن جاك نورتون مخطيء في ما يقول عن الطبيب بلتيمور اذ يكفيه انه حاصل مثله على النقود ... وهى مسروقة كنقود جاك لانها حصته ونصيبه من غنائم جمعية اللصوص

وذلك كل ما تحتاجه الارمنية الحسناء

فهو قادر على الانفاق عليها عن سعة مدة اشهر ...

وحسب ينينا ان تتمتع بذلك ريثما تجد ما يفضله او من يفضل بلتيمور

فهى لما خاب املها من الاقتران بالمركيز دى سمروز

لم تجد افضل من وضع يدها على رجل ذى مال يتقدم اليها ... او اول فريسة تعرض لها !

وهى قد ابعدت جاك نورتون من سبيلها الى الابد فلاتود ان تراه ... مع انه احبها محبة شديدة وما زال يرجو ان تعود اليه وتصفو بعد الكدر وتلين بعد الصد والجفاء

غير ان هـذا الرجاء اخيراً تصرمت حباله وانطفأ ذلك النور الذى كان يأمل ان يشرف عليه مرة ثانية

فقد سافرت راحلة عنه ...

وسفرها كان جواباً على رسالته الاخيرة التى كتبها اليها فى نيس

فيئس منها يأساً وراءه حنق لا يوصف

ولاح له انها هزأت به هزؤاً جارحاً لانها اتخذت غريمه ذلك الرجل الجافى المظلم بلتيمور

فلقى عذاباً اليما زاده الغيظة شدة

ايكون غريمه فى ذلك الغرام بلتيمور !.. بلتيمور خير اصدقائه !...

فقال آه ما اشهى الانتقام من الاثنين وسحقهما معاً ذلك يوم قريب الموعد

فوجه قواه الى هذه الناحيـة وجعل نصب عينيه ذلك الغرض اى الانتقام من الخائنين

فأخذ يدبر فى فكره ما يكون تدبير حاذق شأن القائد الذى يرسم خطة الهجوم

* * *

وبعد ذلك بيوم واحد كان راقداً فى غرفته فى الفندق الذى تعود النزول فيه وهو كائن فى شارع ليون

وقد نام تلك الليـلة غير مستريح من تلك المتاعب فكان نومه ملآن بالهواجس

واذا بالباب يقرع بعنف فاستيقظ مذعوراً وهو يقول لعنة الابالسة على هذا الثقيل .

وانثنى الى الباب بوجه متغير وعينين مغمضتين الا قليلا فقال بخشونة

من هناك ؟

فاجابه القادم افتح ... فالامر مهم جداً

فدهش جاك نورتون وقال فى نفسه :

كأننى اعرف هذا الصوت

ونهض والفضول يدفعه لكنه ما برح مستاء فدنا من الباب وقال بصوت من رابه مريب مزعج

ماذا تريد

فاجابه انما جئت لابتاع جلد السمور

قال من عند من ؟

أجاب من عند الشيخ سام

فتهلل وجه نورتون وزال قلقه لان القادم يعرف الكلمة التى اتخذوها مفتاحا للمقابلة والاجتماع فلا خوف من ناحيته ولا حذر

ولم يتردد بل فتح الباب

لكنه تقهقر راجعاً للحال وكاد يصرخ من الارتياع

ذلك لانه رأى بالباب رجلا كأنه خرج من عالم الاموات

رأى مانيلون بصورته التى كانت له منذ عشرين عاما

ولباسه الذى كان يلبسه يوم قزف به من القطار الى نفق لابومراى !

غير ان وجهه كان ممتقع اللون كانه وجه شبح وعلى جبينه شق طويل دام وفى اكفهرار وجهه ومحاجره ما يشير الى انه مشرف على التلف

فارتعدت فرائص جاك نورتون ووضع يده على عينيه المحملقتين ليتحقق ان ما يراه ليس بحلم فظيع

وقد راعه مرأى ذلك الشبح

ومن أين له ان يخطر فى باله ان مانيلون تزيا بذلك الزى وتردى بتلك الهيئة محاولا بدهائه ان يظهر بشكله يوم كان من باعة الجرائد ومستعينا بما يعرفه من ادوات الاحتيال

ومن أين لجاك نورتون ان يدرك فى تلك الساعة ان ذلك الجرح الدامى لم يكن الا اثرا انشأه مانيلون بقلم الرصاص فبان جرحا بالغا

ثم ان جاك نورتون كان يومئذ بعيداً كل البعد عن التفكر فى شريكه القديم وهو لم يسمع به منذ عشرين

عاما مضت ... ولم يهتم به قط

فلما رآه لم يفكر فى شىء ...

وانما رأي امامـه تلك الضحية قد انتصبت تطلب الانتقام منه

فاخذته الرعدة من خوف وارتياع ورأى ذلك الشبح يدنو منه

فتقهقر جاك نورتون والهلع آخذ منه الى ان ترامى على مقعد فى آخر الغرفة

فقال مانيلون اراك قد عرفتنى ...

وجلس على المقعد وهو يتبسم

وكان نورتون ينظر اليه وهو حائر مبهوت من غير ان يتكلم

فبالغ فى التجلد حتى يتظاهر برباطة الجأش ولكنه لم يفلح

فقال مانيلون اعلم يا مستر جاك ان الذين قتلتهم مازالوا احياء ممتعين بالعافية وبعد عشرين عاما تلتقى بهم !

فلما انتهى من تهكمه نهض فدنا منه وقال تباً لك من

لص سفاح !...

فاستهدف للقصاص

فزال اضطراب جاك نورتون وقال هيهات ! ......

ووثب الى ناحية فامسك قائمة مقعد ثقيلة وحملها وهم بان يضرب مانيلون بها قائلا بصوت كأنه عواء الذئب: اننى قاتلك الساعة !

فاجابه مانيلون فى هذه المرة قائلا هيهات ! فان القوة بيدى والقانون . اننى شرطى منتدب من ديوان الضبط للقبض عليك فباسم القانون اقبض عليك أيها اللص !

وللحال صفر شديداً

وفى أقل من ثانية فتح الباب ودخل رجلان هما لوسيان وشرطى ثالث فتوسطا الغرفة

فصاح مانيلون هيا أيها الصديقان !

ووثب الثلاثة على اللص

فعلم ان كل دفاع لايجدى

فصرخ صرخة خشنة والقى قائمة المقعد الى الارض

ودخل معاون البوليس فوضع يده على كتفيه واتى

بحركة تدل على ان ذلك الشقى وقع أسيراً فى يده فلا ينجو منه فصفدوا يديه وانزلوه من غير ان ينبس بكلمة واحـدة أو يفكر فى الاستفهام عن السبب الذى من أجله قبضوا عليه

وكانت هناك مركبة خاصة بالمجرمين تنتظر

فالتفت قبل أن يصـعد اليها مخاطباً مانيلون وعيناه تتقدان بغضة وحقداً فقال له

من الذى ورطنى ؟ ومن الذى اعطاك عنوان محلى

فاجابه هو صديقك صابوريو

قال قاتله الله !... ان بلتيمور كان السبب فى دخوله الى صفنا وكان يجب على ان اتحذر منه واحترس .

ولعمرى انهما لصان متساويان فى الخيانة !

وكان مانيـلون مرهفاً اذنيه للسمع فقال من هو بلتيمور

فاجابه جاك نورتون بعظمة وكبر :

لا تحاول ان تدرى شيئاً وهيهات ان اطلعك على ما تجهل ... على انى سوف ادبر ذلك الشقى . وفى وقت قريب !

وهكذا يظهر ان جاك نورتون لم يرعه ما هو فيه بل كان يرجو سرعة الخلاص

فصعد الى المركبة الآنف ذكرها واقفل بابها وراءه وقعد الشرطى الذى اسعف مانيلون بجانب الحوذى

أما معاون البوليس ولوسيان ومانيلون فقد جلسوا فى مركبة تقدمت مركبة السجين

فوصلت مركبة السجين بعد نصف ساعة الى السجن

فلما فتحوها كان اندهالهم عظيما لانهم لم يجدوا فيها احدا وتبين لهم ان قفلها مكسور كما ابصروا الاصفاد مطروحة على الارض

الفصل الثامن

« دولة تدول »

صحب الافلاس امبراطور الشحاذين وزوجته بعد ما افلتت السائلة الحسناء من حبسها

فقد خسر بفرارها كل ربحه ولا غرو فقد كانت بقرته الحلوب التى تدر له لبناً وعسلا وخمراً

غير ان ذلك لم يكن ليمنعه من ادمان الشراب بل الامر بالعكس فانه اخذ يشرب بالدين ليتعزى عما ألم به من الخسارة

وحذت فيرجينى حذوه

وكثر التشاجر والخصام بينهما فان برموشة عدت فرار تلك الضحية جريمة لزوجها لا تغتفر فكانت تؤنبه فى كل يوم امر تأنيب لانه تركها تفر وتعيد على سمعه في كل وقت قولها :

أنت الذى غفلت عنها ولم تحسن الاحتفاظ بها أيها الكسول . فقد سرقوها منك واختطفوها وأنت لاه سكران !

ذلك كان موضوع حديثهما فى النهار والليل من غير انقطاع

اما شارلمان فيجيبها بقوله كفى يا فيرجينى فانت تحزنيني بلومك ! على انك كنت تشربين معى يوم اختطفوها منا

وكان ذلك موضوع محادثتهما ايضاً يوم ظن مانيلون انه قبض على ميلورد الذهب

جرى الخصام بين الزوجين الشقيين في حانة دفير اذ تذكرا فرار نائلة كعادتهما

وسمع دفير صياحهما فصعد ليسكن هياجهما

الا انه كان احوج منهما الى من يسكن هياجه ويزيل اكتئابه

فهدر وزمجر وصاح بهما ويحكما ما هذا اللجب كفا عنه والا طردتكما من الفندق فانني لا اسمع صوتاً

غير صوتكما!

فقال شارلمان لاتتعرض لنا بل اذهب فارسل الينا زجاجة

قال تعال فخذها بنفسك . انت تدرى انى ليس عندى خادم ولا اريد استخدام احد بعدما غادرنى ذلك المشؤوم اناطول !

واناطول كما يذكر القراء اسم لوسيان الذى انتحله حين دخل الى فندق دفير خادماً واختفى بعد رحيل السائلة الحسناء كانه مارد من مردة الجان

فنزل برموش الى قاعة الحانة مصحوباً بدفير

فقال له وهو يشرب كأسه .

ماذا دهاك ايها الصديق انى ارى لك طلعة منكرة

فاجابه دهانى ... دهانى الافلاس !

قال احق ما تقول؛

اجاب نعم فلم يبق لى شىء ! ... خسرت كل مالى فى المراهنات

قال كل مالك ؟

اجاب نعم وقد وصلت الى العوز الحقيقى فكل ما تراه هنا دين علىّ يجب قضاؤه ولم يبق عندى ثمن سلاح لاقضى به على نفسى

قال شارلمان ليس هذا الغرض مما ينفع الصحة

اجاب لم يبق معى فلس واحد

قال ماذا جرى لرأس المال؟

اجاب لقد اكله القمار

قال خيرا لك لو شربته انت . اما الآن فلا تيأس . لك اسوة بى وبسائر الشحاذين . . وانى شارب نخبك فوق . . . .

وصعد برموش حاملا زجاجة

فلم يكد يصل الى اعلى الطابق الاول حتى سمع دوى طلق فذعر زعراً شديداً

فرجع سريعاً

فشهد فى قاعة الحانة منظراً مخيفاً

كان دفير طريحاً على الارض ووجهه على التراب ويده اليمنى ممدودة الى ما فوق رأسه وبين اصابعة

المتشنجة مسدس تبين انه اطلق الرصاص منه على دماغه ورأى فى صدغه ثقباً مفتوحاً قد سوده البارود وتدفق منه الدم وشيء من النخاع

فوقف برموش مرتاعاً وقد سقطت الزجاجة من يده الى الارض وتحطمت

وقال رباه لقد هلك دفير !

ووثب الى السلم فنادى زوجته

فقالت لبيك ماذا تريد ؟

قال الم تسمعى طلق الرصاص ؟

اجاب لا

قال ان دفير قد انتحر

قالت ويلاه ! . . . . . .

وتساقطت على الدرج

فلما رأت الجثة رفعت كتفيها وثنت رأسها قائلة لا قوة لى على مشاهدة هذا المنظر لانه يفقدنى رشدى

وبادرت الى كأس تشربها

ثم قالت لماذا قتل نفسه ؟

فاجابها برموش انه خسر كل أمواله في المراهنات

فاطرقت ولم تجب

ثم مسكت كأساً ثانية فشربتها

واذ ذاك توافد الناس فانبأهم برموش بما جرى ومضى قوم ليخبروا معاون البوليس

ثم تزاحم الفضوليون من كل ناحية وفج وكانوا ينظرون المنتحر وقد غدا سيل الدم من دماغه خطاً دقيقاً أسود

وهكذا تحققت فى دفير نبوءة برموش اذ قال له ان المال المسروق يكون شؤما على صاحبه

وأقبل برموش على زوجته يدفعها وهمس فى اذنها قوله هيا بنا واسرعى فليس فى الاقامة هنا بعد اليوم خير

فاجابته أصبت يازوجى العزيز وآنا لا أحب هذا المنظر ثم أن البيت لم يعد يصلح لنا فلنذهب

فخرجا ولم يرهما أحد وبعد هنيهة كانا فى وسط الشارع والظلام محدق بهما

فقالت فيرجينى الى اين نمضى ؟

فاجابها الى بيتنا فى شارع السكوصونرى ! .. وماذا عسى نخشى بعد الآن ؟

وسلكا طريق البيت وبعد ساعتين وصلا الى هناك

وكانا يتمشيان وكل منهما متأبط ذراع الآخر كأنهما فتيان عاشقان

الا ان تقربهما لم يكن عن وداد وانما كان كل منهما سكران لايقوى على السير وحده فتوكأ كل منهما على صاحبه

وكان امبراطور الشحاذين ثملا نال منه الشراب فلم يجد بدأ من الاعتماد على شريكته لانها كانت وقتئذ أقل منه سكراً

فلما وصلا الى باب البيت بعد صعودهما السلم بعناء وجهد فتحت فيرجينى الباب فدخلا وتساقطا متهالكين سكرا وتعباً على مقعد

وجاء قط كانت برموشة تربيه يحييها متمرغا على قدميها كأنه عرف صاحبيه فاظهر سروره برجوعهما على أن ذلك الحيوان المسكين كان مهزولا ليس

عليه الا الجلد والعظام لانه صام صوما طويلا فلم يأكل منذ أيام . وجاء يلاطف برموش فرفسه برجله شاتما

فغضبت زوجته وصاحت ويلك دع الحيوان ....
لست تدرى اذا دهتك الرزايا مايكون مصيرك

وبعد هنيهة علا غطيط برموش وقد نام مستندا الى الطاولة

أما فيرجينى فارادت ان توقد نارا لتغلى بها قهوة فلما لم يشتعل الفحم صبت عليه قليلامن البترول ثم اضرمت النار

فطارت شرارة الى وجه فيرجينى فصاحت صيحة وانقلبت الى الوراء

فعلقت النار بثيابها ودب دبيب الحريق الى بدنها

فانطرحت على الارض وهى تصرخ بصوتها الابح
شارلمان ! .. شارلمان !..

فلم يسمع السكران صوتها ولم ير شيئا فنادته مرارا

غير انه كان يغط فى نومه

وجعلت تصيح النار !.. النار !.. بصوت جاف هائل

فرفع شارلمان رأسه ومسح أجفانه

ثم وثب الى زوجته وقد رآها تشتعل كأنها حزمة من يبيس النبات وجعل يصيح معها مستنجداً

ولكنه مالبث أن أصيب بالنار مثلها أيضا فاخذ يزعق ويستصرخ ويئن من لذع النار المضطرمة الى ان انقطع صوته وصوت زوجته ... بلى كان يسمع لها شبه عواء من الالم لكنه ضعيف

وبقى القط شاخصا الى صاحبيه ببصره التائه مذعورا منتفش الوبر مختبئا تحت كرسى

وسمع بعض الجيران الصياح فبادروا اليهما فاطفأوا النار ومنعوا الحريق

وقد استمر نحو ثلاث دقائق غير أن الزوجين أصيبا فى ذلك الوقت القصير اصابات ذات خطر

أما فيرجينى فان حروقها البالغة كانت فى وجهها وقال الطبيب انها تعيش بوجه مشوه ولكنها فقدت عينيها

وأمر بنقل الشقيين الى المستشفى ليقطع هناك ساعد برموش الايمن لانه احترق بالفحم

فلبث الزوجان شهرين فى المستشفى يتعالجان ويقاسيان آلاما لا تطاق

فلما خرجا كان امبراطور الشحاذين مقطوع اليد كسيحا ضعيفا وأما فيرجينى فكانت مشوهة الوجه عمياء

ومابعد الصعود الا النزول !.. مرت أعوام فيما مضى كان فيها امبراطور الشحاذين ذا سلطان على أمثاله وأحرز ذلك السلطان بقوة عضلاته وبطشه وغلظته

أما الآن فقد خلعه الشحاذون وانزلوه عن اريكته وتحكم فيه الذين كان يستخدمهم فى الاستجداء

غلبه القضاء على امره فبات عاجزا ضعيفاً لا يقوى على شىء ... وهوى الى احط الدركات ولقى من رفاقه كل ازدراء وامتهان

ثم ان رعاياه وتلامذته استبدلوه بآخر وطرحوه كما يطرح كيس عتيق ممزق

جرى ذلك من غير ثورة او انقلاب ..

فلو مررت يوماً بسوق الخضار لأبصرت عيناك زوجين احدهما امرأة عمياء والآخر كسيح افطع هما الزوجان برموش وبرموشه وقد لقيا ما يستحقان من العقوبة وذهبا ضحية السكر

ولم يعد برموش فى حاجة الى التنكر ليظهر فى مظهر يعطف القلوب

وامتنع عليه ان يلقى دروساً فى الشحاذة لأن الجمعية انتقلت الى مكان آخر واتخذت لها مديرا سواه فان تلك الحرفة لا تموت ولا تهرم ولا تصاب بضر او أذى .

فاغتنى شارلمان بما هو فيه عن التنكر والتلبس بلباس اهل السقم والفاقة والبؤس لان لباسه الجديد كان طبيعياً لا تصنع فيه . ولئن كانت ثيابه ممزقة فما ذلك الا لحاجة حقيقة ولئن رأيته طريحاً فى الطرق فلانه لا يستطيع النهوض

واشد ما لقى وادهى ما نكب به انه اضطر الى

التسول بنفسه لانه حرم استثمار مساعي غيره . فقد كان ذلك اشد عقوبة ونكال عليه

وهكذا سقطت امبراطوريته ودالت دولته

الفصل التاسع

« ابو النحل »

ننتقل بالقارىء الى نورمانديا حيث تقيم الآن ينينا وصاحبها الجديد بلتيمور

فقد اتخذ لها قصرا بديعا على مقربة من روان تحيط به حديقة من الطف الحدائق

وكان ذلك فى شهر ايلول (سبتمبر) والنسمات تهب عليلة حاملة أطيب الشذا والظلال ممدودة فى الحديقة كانها بسط مخملية

وبلتمور وينينا جالسان على شرفة القصر

أما ينينا فكانت مطرقة مصغية غائبة الفكر تسمع كلمات صاحبها وهى جالسة على كرسى هزازة سارحة في عالم الخيال

يقول لها

ما بالك يا بنينا وما هذه الطباع التى تخلقت بها . انك كثيرة التأفف والملل والسكوت . اكلمك فلا تجيبين حتى يتبادر الى ذهنى انك سئمت الاقامة فى هذا الفردوس البديع ولئن صح ذلك كان منك غاية العجب

فقالت له :

صدقت انى سئمت الاقامة هنا وضاق صدرى . . . اصبت يا صديقي . . انى لم اخلق لاعيش فى البريه . وليست الطبيعة لى بصاحبة لانى لا افهمها ولا تفهمنى

قال ان الطبيعة على غاية البساطة اما انت فشؤونك كثيرة واحوالك متناقضة . . .

اجابت ربما كان ذلك . . . واكاد ابكى كلما تأملت هذه السكينة السائدة حولى . . ان الهدء الشامل يؤثر فى اعصابى . وهذا يدل على اننى لم اخلق لغير المسرات العالمية واللجب والحياة الباهرة والحفلات والاعياد والملاهى . . . انى لفى حاجة الى الظهور واستلفات الابصار واعجاب الناس بى . . .

اجاب انى اراك وحيثما كنت يلتفت اليك بصرى

واعجب بك فماذا تريدين ايضاً

قالت ان اعجابك بى على نمط واحد . . وثرثرتك تزهق روحى ... وتهيج اعصابى . . ثم انك كثير التدخين !

اجاب هذه تحيتك لى وتسرنى لاننى الرجل الوحيد الذى ترينه .

قالت اعلم يا بلتيمور اننى سوف اصبح بعد ثمانية ايام وبى عارض جنون اذا دام هذا الانفراد بك !

اجاب ما الطف هذه النبوءة يا عزيزتى !

قالت انك صديق قديم ورفيق كريم . . . وانا احبك يا بلتيمور

اجاب شكرا لك !

قالت يسرنى منك ان اراك متولياً شؤونى الخاصة مجتهداً فى تسليتي ومبعداً عنى الهموم والاشجان . . لكن اذا شئت ان تظل بجانبي وتبقى عشيرى وسميرى فما عليك الا ان تفر بى من هذا المكان الموحش.. وانما احتاج الى باريس ... وما فيها من جنون وفنون . . .

احتاج الى مراسحها وملاعبها وحفلاتها وميادينها . . فهى حياتى والسلام ...

قال يالك من غامطة للمعروف !.. فانت التى حملتنى على القدوم الى هنا تخلصا من نورتون

فامتعضت واكفهر وجهها وقالت بصوت منخفض انما حاولت نسيان مامضى .·. نسيان ذلك المركيز الشاب الذى ردنى واقسم لك على انى كدت اهواه

ثم رفعت صوتها وقالت لست اخاف نورتون ولئن عرف انى معك الآن ليموتن غيظاً

أجاب من أين له معرفة ذلك ... ولا يوجد أحد يعرف مقرنا ... اننا مختبئان ياعزيزتى فى حميم نورمانديا

قالت اننى اكره ميلورد الذهب .... ولا أحب ان اراه على طريقى الا اذا تمكنت من اهلاكه .... لكن يجب ان نسافر يابلتيمور ... ونسافر غدا فما قولك ؟

أجاب انا هنا لفى احسن حال والبحث جار فى باريس عن أعضاء الجمعية العمومية ... فالوقت لا يلائمنى للسفر. لئلا أقع ثم لا أقوم ...

قالت افعل مابدالك اما انا فاسافر وحدى ... وانت تدرى أيها الصديق اننى لا احب المعا كسات. وسأفعل مايروق بى .. فاودعك لآن

ونهضت لتدخل الى القصر

فتنهد بلتيمور وقال سوف اصحبك يا ينينا

وفى تلك الدقيقة بان شبح ملتصق بالجدار المحيط بالحديقة واخذ يتسلق الى ناحية الباب

وكأنه يزحف زحفاً

فالقى نظرة على القصر ورأى الصبية الحسناء قددخلت اليه من باب الشرفة .. ثم رأى قامة بلتيمور الطويلة وقد نهض فلحق بالمرأه

فلم يتمالك ان ضحك مقهوراضحكا في فتور كالمستهزئ

فلبث يسترق السمع والنور ينبعث من المنزل الى الحديقة وسمع نغمات العود وكانت ينينا تضرب عليه فسحر بتلك النغمات الشائقة وذكرته أيام الوصال فاتقدت النار فى فؤاده

وظل فى مكانه جامداً خافيا ورأى ورقة دالية

متعلقة على الباب

وقد غابت الشمس منذ نحو نصف ساعة واظلم المكان شيئا غير ان القمر طلع بعد هنيهة يلقى انواره الذهبية على هاتيك الربوع

فاشرق نوره على وجه الرجل فاذا هو جاك نورتون جاء بعد ما اكتشف مقر بلتيمور وينينا لينتقم منهما انتقامه الهائل

أراد ان يرى الشريكين فى الخيانة والاساءة ويدرس شؤونهما وذهابهما وايابهما وعاداتهما حتى يهتدى الى خير وسيلة تبلغه غرضه فتكون ضربته صائبة قاتلة ...

جاء منذ صباح ذلك اليوم الى القرية فطاف فيها وفى جوارها .. ثم لما أشرفت الشمس على الزوال دنا من القصر مراقباً فرصة ملائمة تسنح له فيدخل ويقتل ..

فلما سمع نغمات العود وصوت ينينا لبث كالمسحور وقد تقوصت عزيمته وضعف عزمه وخمدت نار بغضائه فقضى وقتا طويلا وهو مضعضع الى ان رأى الانوار قد انطفأت وساد السكون فتنبه من ذهوله

وتمالك جأشه وسكن اضطرابه

فصرف باسنانه وقال ويل لذلك الحيوان بلتيمور فانه عندها ومقيم معها !.. والله لاقتلنهما شر قتلة !..

وأخذ يطوف في الحديقة ويخترق خمائلها وأشجارها من مثمرة وغير مثمرة وهو غير مكترث

وقد وصل الى هناك وعلل النفس بوجود وسيلة تمكنه من دخول القصر ومن كان لصاً مشهوراً مثله لا يبالى بعقبة يسيرة ولا يصده حائل صغير

وقد عقد النية على الوصول الى غادة الشعر الذهبي وشريكها فى الاثم والوقوف لها وقفة مارد منتقم جبار تخشى سطوته وترهب شرته

لكنه تقهقر بغتة وهو مرتاع

وقد بصر بشخص جاء من ناحية القصر : ولاح القصر أبيض يشرق عليه نور القمر

وكان ذلك الشخص البستانى وافى يدور دورته فى الحديقة كعادته فى كل يوم

وكان يحمل مصباحا فى يده يوجه نوره الى ماأمامه

وفي زناده غدارة يستخدمها عند الهجوم على اللصوص عندما يضطر الى ذلك

ولا ندرى اذا كان قد سمع صوتا غير عادى فى الحديقة لكنه وقف ورفع مصباحه بيده موجه النور الى المكان الذى دخل اليه

فوجد النبات مدوسا بالاقدام فقال فى نفسه

لاشك ان بعضهم مر من هنا

ففحص غدارته وأخذ يتأمل اثارالخطوات وهوعلى غاية مايكون من الاحتراس والحذر

فوجدالاثار واضحة واتبعها فافضى به ذلك الى ممشى تحت الاشجار من الجهة الثانيةمن الحديقة

والفى الارض خالية من آثار الاقدام وقد انقطعت هناك واختفت فاستمر على الفحص لكنه لم يهتد الى شيء

فعزم على الاقتراب الى القصر اذ يجب عليه قبل كل شيء ان يدافع عن سكانه

فاختفى وراء شجرة وارهف اذنيه للسمع

واذا به يسمع صوتاً خفيفاً فارتعد وعظم انتباهه

واذا به يرى رجلا قد تقدم من ملحقات القصر بجوار خلايا للنحل وللنحل هناك دوى وطنين وقد اوى الى خلاياه بعد شغله المتعب فى افراز العسل .

وبصر البستانى بذلك الرجل يستقبل الريح بوجه كانه نمر يرصد فريسته فكان ينظر وينصت ثم يدنو على مهل متردداً

وكانما وطد عزيمته بغتة فانطلق الى ناحية البيت من جهة باب الخدم

لكنه لم يخطو ثلاث خطى حتي وقف البستانى امامه فوثب وثبة الى الوراء ووقف كالمدافع عن نفسه

لكن البستانى كان اسرع منه فخف اليه وقبض على عنقه وقام بينهما عراك عنيف وكلاهما قوى متين العضلات

الا ان جاك نورتون كان اشد وامتن الواحاً من البستانى فمنعه من كل حركة

وشعر البستانى بضعفه لكنه اتى بحركة تفوق جهده

وامكنه التخلص فانكفأ راجعاً الى الوراء قليلا ثم اخرج غدارته من زناده وهم بتصويبها الى اللص

غير ان نورتون كان اسرع من البرق فضربه على يده ضربة شديدة اطارت الغدارة منها الى بعد عشرين خطوة ثم لطم البستانى لطمة اشد ايضاً فخر على الارض مغمى عليه

وجرى ذلك كله فى نحو عشر ثوان فقط

ولم يسمع أحد فى القصر صوتاً

فقال نورتون كعادته

الامور حسنة !

ثم تخطى جسد البستانى ودنا من البيت لكنه سمع صوت طنين وزفزفة اجنحة بعيدة جداً يشبه الصوت الذى يسمع من صغار الحجلان . .

فرفع رأسه

فدهش مما رأى وظل كانه مسمر فى مكانه

رأى سحابة من النحل محومة فوقه على بعد امتار عنه . . ولكنها تدنو منه

وقد خرجت النحل من خلاياها لان تلك الخلايا تخربت اثناء مصادمة جاك نورتون للبستانى . فتألفت النحل واجتمعت كانها ستر اسود يهتز اهتزازاً غير متساو ويدنو من جاك نورتون على مهل

فغمغم يقول ياللداهية ان هذه النحل لا ترتد عنى

واقتربت اسرابها وعلا طنينها

فاستشعر سيالا كهربائياً يفيض حوله بغضة وكراهة وعلم ان هذه النحل قد هاجمته ألوفها المؤلفة فلم يجد بداً من الهرب

فطار يركض بملء قوته الى خارج الحديقة

لكن تلك الخشارم أى جماعات النحل لحقت به كانها ظله .

ففكر قائلا الجأ الى الغابة المجاورة ولا سبيل للنجاة الا ذلك السبيل

وكانت الغابة المجاورة تبعد نحو خمسين متراً وفى وسطها أرض براح عقد النية على ان يلجأ اليها

فأخذ يعدو بسرعة مجنون ويقفز قفزاً واسعاً ويثب

كانه ايل تتبعه كلاب الصيد

ولكن مهما يكن من اسراعه فى سيره فان اسراب النحل ما برحت محومة فوق رأسه

وعظم دويها وكانها سخطت على الرجل الذى دمر مسا كنها فارادت الانتقام منه

فتجلد نورتون وقال صبراً

يقوى عزمه بهذه الكلمة

ورفع قبعته يحركها فى الهواء ليطرد النحل ويصيح صيحات هائلة لعله يثنيها عنه

ولكن خاب فأله

وبقى بينه وبين الارض البراح نحو عشر خطوات

واذا بجماعات النحل قد تألفت شبه عمود كانها تلقت امراً سحرياً واحاطت به من كل ناحية حتى سدت عليه المسالك والمذاهب وانقضت عليه بغتة مدفوعة كلها دفعاً واحداً بقوة لا توصف

وفى تلك الثانية دخلت مئات بل الوف من ابرها في جسده

فاطار صوابه الالم والرعب وصاح صيحة شديدة

غير ان النحل ولجت فاه وقرصته بلا رحمة فى لسانه وحلقه وشفتيه ولم تدع مكاناً ظاهرا من جسمه ورأسه الا غرزت فيه ابرها فدخلت انفه واذنيه ويديه حتى ساعديه

وهى ابر لا تحصى نشبت فيه ومزقته تمزيقاً وافترسته افتراساً

فكان ما قاساه عذاباً هائلا وقصاصاً رائعاً لا نظن انه يوجد قصاص اشد منه !

واى عذاب انكى من دخول الآف من الابر احس بها كلذع النار فى جسمه

فكان صراخه مخيفاً بل كان همهمة وانيناً وزئيراً

ولقد اراد ان يبعد عنه النحل او يسحقها فانطرح على الارض واخذ يتقلب فوقها

ولكنها كانت قد نشبت فيه وهى كثيرة العدد وسالت جراحاته منها وغطته حتى خفى وجهه وعيناه ويداه وتحكمت فيه اوجاع تقشعر الابدان من مجرد

تصورها ثم شعره بانه يختنق

ذلك لان عددا كبيرا من النحل علق لسانه وحلقه وسد فاه بعد ما هشمه تهشيما وحال وصول الهواء الى رئتيه

فخر على ركبتيه

وقد غلبه جماعات النحل الضعيفة

فبات يتنفس بصعوبة شديدة ويبذل قواه لاستنشاق الهواء .

فلم يفلح !..

بل خر على الارض صريعاً وان انيناً خشناً ضعيفاً وشهق شهقة عالية ...

ثم نهض قليلا فما لبث ان سقط وجحظت عيناه وتدفق الدم من انفه واذنيه وزهقت روحه

فلما كف عن الحركة وانتقمت النحل منه غادرته وسارت الى خلاياها المتهدمة

﴿ الفصل العاشر ﴾

الى السعادة

بعد انقضاء بضعة شهور على هذه الحوادث وكان ذلك في اوائل شهر نيسان (ابريل) من السنة التالية التي هي ١٩٠٧ كان احد الزوارق يسير ما بين مدينة نيس وفيلفرانش على شاطىء البحر الابيض الجميل فى تلك النواحى

وقد نبتت الورود على ذلك الشاطىء فتضوعت منها أزكى رائحة أما الوانها فكانت جامعة الالوان كانها بساط مما ينسج في أزمير وطلع فى أعلى من ذلك المكان أنواع مختلفة من الازهار البرية

هذا والشمس حارة والسماء صافية والربيع فى ابانه وزرقة المياه شديدة وأمواج البحر كانها امواج بركة تتكسر على الزورق فيخرج منها زبد كالدر فى بياضه

ولمعانه

وكأن الزورق خال من الناس وقد أقيمت على مؤخره خيمة صغيرة ترد الشمس عنه والبحار صاحبه يجذف ويسيره الى الامام وهو صامت

الا انه لم يكن خال وان بدا كذلك فقد كانت فتاة نائمة على مقعد تحت تلك الخيمة الصغيرة وبقربها شاب يلاحظها معتنياً بها مراقباً نومها

أما الفتاة فهى نائلة . . . وأما الشاب فهو جورج دى كانتابل

كان يتأمل الفتاة بعينين يلوح فيهما القلق والانعطاف فى وقت معاً

ذلك لان نائلة اعتلت صحتها واختل نظامها على أثر الحوادث التى مرت بها وبعد ما وجدت بيتاً واسره تنتمى اليها وتعيش فى ظلها فقد انتابتها الانفعالات النفسانية حتى زعزعت أركان عافيتها

وعيش السعة والرخاء على أثر ذلك العسر والضنك والحرمان والبؤس أضرّ بمعدتها وبنيتها

وهى نحيفة المزاج فأثر عليها الانقلاب كل التأثير وكان وقع الفرح الشديد عليها سيئاً

وقد بدأ فقر الدم يهاجم بدنها الضئيل منذ ما كانت تعايش برموش وتتحمل جوره واستبداده فاستعز بها ذلك الداء

فلما رأى اموري درتيل ضعفها تولاه يأس شديد فجعل يتأملها ويسائل نفسه عما اذا كانت قد اصيبت بتلك العلة التي تقضى فى كل عام على الوف من الناس

وذكر ما قاله احد الفلاسفة القدماء وهو ان من رضيت عنه الالهة مات فى سن الشباب

فهل يمكن ان تقضى نائلة نحبها بعد ما وجدها ؟

فارتعدت فرائصه عند هذا الخاطر ولبث الايام والليالى قلقاً كثير التفكر

وقد احب نائلة حبا ملك فؤاده كأنه اراد ان يذيلها فى وقت قصير ما فقدته من الحب منذ ما طرحت الى عالم الشقاء

على انه يفقد الامل فكان يقول احياناً كثيرة ان

الله عادل فلا ينكبه بموت المخلوقة الوحيدة التى قصر عليها حبه ولا يأذن بفراق بينه وبينها طويل لان ذلك يخالف ما اتصف به سبحانه وتعالى من الرحمة والرأفة بعباده الصالحين

فيطرد القلق من ذهنه ويبتسم واثقا مؤمناً وهو مع ذلك متردد بين الارتياب واليأس والامل

وقد سره انه كان العامل الوحيد على انفتاح تلك الزهرة وتضوع شذاها بعد ما رمى بها فى حمأة الاقذار فود لو بذل حياته فداء عنها

ومن المشاهد المؤثرة ان ترى رجلا شهيرا وعالماً كبيراً يحنو ويغدو ساذجاً رفيقاً بفتاة سقيمة يقول بكبر انها ابنته المحبوبة

فكانت شمس حياته وسرورها ونوراً طلع على قريحته وملكا يرفرف باجنحته فى بيته

ونشأ بين هذين المخلوقين وداد خالص ومحبة عميقة صافية فكان كل منهما للآخر يحسب انه خلق لاجله

وانشأ اموري لها غرفة بجانب مكتبه بيضاء يدخلها

الهواء والشمس فهى خدر عذراء تصلح لامانيها الطاهرة
واحلامها اللطيفة . . .

لكنه لما رأى اصفرارها يتزايد على التوالى وضعفها
كذلك وشاهد قامتها الهيفاء تنحنى هزالا كاد يجن
خوفاً عليها

وقد استمرت مع السقم الذى انتابها متهللة فرحاً
كثيرة الانعطاف على أبيها منصرفة الى تلقى العلم عن
أساتذة منتخبين بمعرفته لانها عقدت النية على ان تكون
فى طبقة المتعلمات حتى لا تقع غضاضة على أبيها من
معاشرتها وحتى تصلح له رفيقة

فكانت تقول له

لست مريضة يا أبتى ولكننى مسرورة جداً بقربك
وحبك وهو سرور يسحق جسمى . . . ويخيل لى
أحياناً اننى أرى رؤيا بديعة لا تلبث حتى تزول فاضطرب
واخشى . . . الا اننى تعذبت كثيرا !

فلا يجادلها ولكنه يتناول يديها ورأسها ويلثم جبينها
النقى ثم يتنهد ويكتم عنها ما يخامر فؤاده من الجزع

الى ان قال لها فى أحد الايام :

أراك تسقمين يا حبيبتى وتهزلين فيجب ان يراك
طبيب ويعالجك معالجة شافية

فدنت من ابيها وخاطبته بدلال وقد احمرّ وجهها
فخبأت رأسها وراء كتفه وقالت اذن اصغ الىّ يا أبتى
أريد ان تدعو لى الطبيب دى كانتابل ومنزله في شارع
دوفمون نمرة ١٦

قال هل تعرفينه ؟

اجابت انه انقذنى قبلا من خطر كاد يودى بحياتى
وقد انبأتك بذلك

قال اذن سوف يعودك

قالت متى ؟

اجاب غدا

قالت شكرا لك يا ابتى !

وفي اليوم التالى أقبل جورج دى كانتابل وبذل جهده
فى معالجة نائلة

وكان التوقى والحذر من الامور الواجب اتخاذها

بمزيد الحرص فى معالجتها لرقة شعورها ولما لقيته من الشقاء والذل

فوجب ان تختص بقدر من الانفعالات الحسنة وكان شأنها فى ذلك كشأنها فى تناول الطعام الذى يقوى معدتها الضعيفة

فأخذ جورج يعنى بها عناية فائقة ويصرف كل مالديه من اخلاص ومعرفة ونخوة في سبيل شفاء الفتاة من داء ين تمكنا منها احدهما ذو علاقة بعواطفها وكيفية معالجته تعزية وتسلية والآخر بنيتها النحيفة ولا بد من حكمة فى مداواتها

ولعله كان فى ذلك اشد حمية مما ينبغى ان يكون ؟ او لعله كان يطيل وقت عياداته اكثر مما يجب ؟ ...

ذلك لانه شعر بحماسة عميقة نشأت فى نفسه فان الشفقة ملأت فؤاده قبلا اما الآن فبات معجبا بجمال الفتاة وقد عاد اليها بهاؤها مذ عادت الى الطبقة الحقيقية التى خلقت لها وسار يرى طهارة روحها وجمال نفسها وصفاء سريرتها ولم تؤثر عليها اقذار الحمأة التى يتخبط

فيها برموش فعظمت تلك الحاسة وشغلت عواطفه

وسر جورج تحسن صحتها فكان ينظر اليها بكبر وقد داخله العجب لان شفاؤها تم على يديه

اما هى فقد رسخت فى ذهنها صورته منذ ما رأته لاول مرة واقتادها الى شارع الكوصونرى

واعتدت مصادفته اياها اول نور اشرق على ظلمات وجودها ومنه علمت انه يوجد فى هـذه الدنيا شىء ليس بكدر وكآبة

فلما اقبل يعودها فى منزل ابيها ظنت قواها خذلتها ثم تعودت شيئاً فشيئاً على حضوره ولذ لها ان ترى منه تلك العناية اللطيفة فكانت تصغى الى مشورته وتتبع نصائحه

وانما عظمت رغبتها فى الشفاء لانه يسر والدها المحبوب وصديقها جورج فوافقت على كل علاج وعملت بنصحه بكل دقة ...

الى ان كان ذات صباح فاقبل جورج وقال لها ما اخجلك فى هذا الصباح ايتها الآنسة فاننى أرى

في عينيك لمعاناً سماوياً ونوراً طاهراً ..

فعلا الاحمرار وجهها وخفق فؤادها خفوقاً سريعاً حتى ظنت انه سيخرج من صدرها

فقالت في نفسها :

انه يراني حسناء ويعجب بي فهل نسي انني كنت السائلة بالامس ! وهل يمكن ان يكون ذلك ؟

وكان البهاء يطفح منها وجعلت تجيل بصرها في والدها وجورج وعيناها تنطقان بالشكر العظيم

وبعد ايام ذهبت نائلة الى مكتب ابيها وهي طروب لمجرد تفكرها في انها تفاجئه بقبلة وهو منكمش في عمله وكانت لابسة ملابس بيضا، ناصعة وشعرها الجميل مسترسل على كتفيها وهي صفراء لكن اصفرارها ندي يزيدها حسنا

فهمت برفع ستر الباب لكنها سمعت صوتاً فعلمت منه ان والدها لم يكن منفرداً هناك بل عنده رجل يخاطبه ولما تميزت صوت ذلك الرجل احمر جبينها بغتة وتهلل وجهها

ذلك لانها عرفته جورج دي كانتابل فاشتد خفوق قلبها فوقفت لكي تسكن اضطرابه ثم سمعت اسمها فعلمت انهما يتكلمان عنها فلم تجسر على الدخول على انها سمعت اباها يقول انك فاجأتني بهذا الطلب ايها العزيز فان نائلة صغيرة في السن ولا تزال ضعيفة

فقال انها احسن حالا ولسوف يزيدها الهناء عافية . واني راغب فيها لامكنها من السعادة التي تستحقها !

قال هل تحبها من زمن طويل ؟

اجاب نعم منذ ما رأيتها لاول مرة في بيت اولئك اللصوص وقد لاح لي يومئذ انها غريبة الدار هناك او هي زهرة بديعة نبتت في حمأة قذرة

قال وهل تحبك هي ؟...

اجاب لا ادري سوى انني اراها تميل الى شيئاً .. ولا اجسر على ادعاء حبها لئلا اكون واهماً ...

قال اموري الارجح انها شاكرة لك احسانك اليها فقد انقذتها مرتين

قال اناشدك الله لا تردني فايأس !.

فصمت اموری ولبث مطرقاً مظلم الوجه حزيناً لانه لم يخطر في باله قبلا ان يزوج نائلة ويفترق عنها

وقد اثر عليه هذا الطلب بل اولاه شجناً..

وقد تعود معايشتها والتمتع منها بذلك الانعطاف البنوى اللطيف والاخلاص الجميل

اما فكرة الابتعاد عنها وتسليمها لرجل آخر ولم يأت زمن طويل على وجدانه اياها مع فرط تعلقه بها فى هذه المدة القصيرة فقد ضعضعته وآلمته ايلاماً شديداً

لكنه فكر قائلا ليس يحق لى ان احرمها نصيبها فى المستقبل ولا يجب ان يثنينى حب الذات عن طلب السعادة لها؟

وجملة القول ان خطاءه كان علة شقاء الفتاة فى اعوام طوال ... فهل يسوغ له الآن ان يمنعها حقها من الحب والاقتران السعيد ؟

كلا . ذلك أمر لا يستطيعه

وقد تكون محبة لجورج ؟ .. فهل يجسر على ملاشاة حب تمكن من قلبين ؟ وهو الذى كابد من لوعة

الحب ما كابد ولقى ما لقى من المعاكسات حتى نغص البين عيشه وحياته

والشاب جورج ذو قلب طيب وخلق كريم وقد طلب الاقتران بنائلة .. فلا بد من اجابته الى طلبه

غير ان شهامة اموری درتيل اوجبت عليه أيضاً ان يطلع الشاب على اصل الفتاة ونسبها وقصتها

فقال له :

اصغ الى ياصديقى ولئن كنت عاقداً نيتك على الاقتران بنائلة فلا بد من الاعتراف لك بسر يزيل كل خلاف او ابهام يقع فى مستقبل الايام.. فاعلم ان نائلة ابنتى حقا

اجاب اعلم انك تبنيتها . .

قال كلا بل هى ابنتى واما التبنى فلم يكن الا على سبيل المصادقة القانونية .. لتعرف نائلة باسمى

فصمت جورج ينتظر بذاهب الصبر ما يفوه به أمورى

الى ان قال له بلهجة المكتئب :

ان نائلة ثمرة الاثم . . . على ان والدتها اشرف واكمل

المخلوقات كنت خاطباً والدتها فى ما مضى من الزمن وكان الحب الشديد متبادلا بيننا . لكن اباها وقع فى ورطة فأرادت انقاذه منها ولم يكن من سبيل الى انقاذه الا باقترانهـا برجل لا تهواه فمزق هذا الغرام قلبينا وذهب هوانا ضحية حبها البنوى

ثم ان القضاء جمعنا فى ما بعد . فكانت بيننا دقيقة فقدنا فيها الصواب وغلبنا الوجد . . فولدت نائلة بعد حين . . ولم نكن قادرين على الاعتراف بها لان زوج امها كان فى ذلك الوقت حياً . . .

« فاضطرت المسكينة الى اخفاء ابنتها وتسليمها الى قوم اركنت الى اخلاصهم لكنهم خانوها وكانوا سبباً في تعذيب طفلتها . . . أما انا فلست اصفح عن نفسى ولا أعذرها عما فعلت ! . .

قال جورج ومع ذلك اراك قد قمت بما يجب عليك . . .

أجاب مامن عذر يبررنى فى عينى نفسى والذى اعلمه ان الوالد يجب عليه وجوباً لا تساهل فيـه ان يسعى

جهده فى سعادة مولوده وان يمنحه ما يحق له الحصول عليـه من العيشة الراضية . . . فان الولد لم يقترح على والديه ان يوجداه فى هذه الدنيا ولئن قضى عليـه بان يعيش او طرحاه فى مكان بعيـد عن الطريق السوى فهما قد عرضاه للبؤس والعار والقيا به الى تهلكة . . . فيكون عملهما جريمة . .

وهنا صمت امورى قليلا كانما راعه ذلك اللوم العنيف الذى وجهه الى نفسه

ثم قال وهكذا يتبين لك ان الندم على مافعلناه بالطفلة المنكوبة كان قصاصاً لنا على هوى اثيم . . الا ان الانسان يستسلم احياناً الى عواطفه ولا يسترشد بهدى العقل فلا يشعر الا وهو فى عداد المجرمين

قال جورج وماذا جرى لوالدة نائلة ؟

اجاب انها رأتها واحبتها . . . وكلتاهما لقيتا العذاب الشديد من افتراقهما . . غير ان الام قد اصبحت ارملة مطلقة السراح ولها ابن ... يجب أن لا تخجل امامه بكشف سرها له . . ان ابنها ذو مركز فى الهيئة الاجتماعية

والناس يجلون مكانه فهى لا تستطيع ان تعرضه
لاحتقار .. فلا يمكنها ان تعايش ابنتها كما تحب فهى لا
تراها الا فى ما ندر .. وهذا غم كبير يضنيها ويشقيها .
ولكنك لا تجهل ما توجبه اللياقة والاداب الاجتماعية

قال جورج واحمتاه الابنة المسكينة فهى بريئة من
كل اثم ولكنها تعاقب بلا ذنب

اجاب ان نائلة لاتعرف من ذلك شيئاً.وتأسف لانها
لا ترى نفسها مع والدتها ومعى ويشكل عليها فهم معنى
قضاء الاقدار الظالمة التى جعلتها مستثناة ووضعتها الى
جانب الطريق العادية . فهى تجهل ان مولدها غير
شرعى

قال جورج وأى فائدة من اخبارها بذلك ؟ .. لماذا
نكدر صفاء تلك الروح الخفيفة النقية كالبلور ؟

قال امورى نعم ولكن يجب علينا ان نفهمك الحقيقة
بصدق ونزاهة ضمير لانك تحب الفتاة .. ويمكنك ان
تختار زوجة لك من بنات الكبراء ذوى المقامات السامية
زوجة ليس فى سيرة قومها ما يعاب . ففكر وتبصر ملياً

اجاب لست اجد نفساً انقى ولا قلباً اطهر . وماذا
يهمنى مولدها ؟ فانت ايها الاستاذ العزيز اسرة نائلة
وقومها واكرم بك من رجل احرز غاية الشرف والفخار
واحمد الله على ذلك ! ولا يحق لى ان انظر فى سلوكك
الماضى ولا ان استطلع شؤونك الخاصة وحسبى ان
اسعد بالاقتران من نائلة دزتيل !

قال حقا انك فتى كريم شهم

قال جورج ثم انى ارثى لك بل ارثى لتلك المرأة
المسكينة التى كانت ولادة ابنتها عذاباً لها لكننى احسب
سرها مقدساً

قال أمورى سوف اخبرك من هى والدة نائلة اذا
أذنت لى وذلك متى أطلعتها على طلبك

قال اذن استطيع أن أرجو ؟

اجاب نعم .. ولكن قبل كل شىء آمل ان تستشير
والدتك البارونة دى كانتابل فاننى لا اود ان يبقى أمر
خفى فى الاسرة التى ستنضم اليها نائلة .. فاذا قبلت
والدتك حق لى يومئذ ان افاخر بك وادعوك ولدى !

فاستفز السرور جورج وصاح شكراً لك أيها الاستاذ المحبوب

وصافحه مصافحة الصهر للحمو ووجهه يتهلل فرحاً وحبوراً

واذ ذاك تبسم أمورى وقال اما الا ن فتعال معى للسلام على العليلة

وهمّ أمورى بالدخول الى غرفة الفتاة ثم وقف ووضع اصبعه على شفتيه وقال اياك واخبارها بما دار بيننا لا تقل لها كلمة الابعدان تخاطب والدتك بهذا الشان

اجاب سمعاً وطاعة

فرفع أمورى ستر الباب ووقف صارخا صراخ اليائس المفجوع

ذلك لانه رأى ابنته نائلة منطرحة على الارض صفراء اللون مغمضة العينين بلا حراك كأنها فارقت الحياة

فقد سمعت محاورة الرجلين الى آخرها . . . وكان وقع اقرار ابيها أليما عليها جدا

فوثب اليها درتيل وتبعه جورج وهو مضطرب أشد اضطراب

فأنهضا الفتاة بحذر واحتراس ووضعاها على السرير

واخذ جورج يبذل عنايته في معالجتها وأمورى راكع الى جانب سريرها وهو تائه البصر ينتحب ويقول نائلة يا حبيبتى نائلة أفيقى بحق السماء ! . أفيقى فقد ملأت فؤادى رعبا ! . . رباه ! . . رباه ! . .

ثم خاطب جورج متوسلا فقال له بربك انقذها ايها الصديق !

وبعد وقت قصير أمكن الطبيب أن يعالجها فعاد الاحمرار القليل الى وجنتيها وفتحت عينيها وللكآبة عليهما ظواهر ودلائل

فجعلت تتأمل أباها وجورج . . . ثم قالت بصوت متغير جارح .

قد علمت اننى ابنة غير شرعية . . فلا تستطيع ان تحبنى يا جورج . . . ولا يحق لى ان اوجد فى هذه الدنيا !

وشهقت شهقات متوالية مصحوبة ببكاء حار فأخذ كل منهما يسكن ما بها وهى لا تبرد لوعتها بل تزداد انفعالا وهياجا . . .

واصابها على ذلك الهياج والانفعال حمى شديدة فامسكت يدى ابيها وجعلت تصيح قائلة بربك ياابتى لاتبعدنى عنك . . ولا تدع احداً يرانى . . . ولاتدع أحداً يعرفنى !...

قال بحقك ياعزيزتى خفضى عليك ! . . . اولست ناعمة البال وتعيشين قريرة العين !

أجابت كلا لست على اتم ما اروم لان بينى وبين والدتى حجابا . . . آه يا اماه !... نعم فهى لا تستطيع ان تعترف لى أمام النـاس . . . ولا أستطيع مناداتها ولا تقبيلها كما اشتهى الا اذا كنا منفردين ... اذن انا عـلة خجل لها .. آه ليتنى اموت فاستريح واريح !

واشتد بها الاضطراب وكثر كلامها فكانت تتلفظ به سريعاً جارحاً ممتلئاً كآبة وامتعاضا

ثم اخذت تتكلم كانها مستغرقة فى رؤيا وصوتها

ينخفض شيئا فشيئا حتى خفت ثم غلبتها الحمى فانقطع صوتها ....

ولم يكن ما اصابها هجوعا فيقويها ويسكن الامها وينجيها ولـكنه ضعف القاها اياما فى تلك الحالة واصابتها حمى دماغية عليها

وكان جسمها ضعيفاً كما قلنا فأتت تلك المحاورة التى سمعتها من غير قصد ضغثاً على ابالة فلم تطق تلك الصدمة الجديدة بعد ان نالتها صدمات عنيفة

فلم يفارقها امورى درتيل ولا جورج دى كانتابل فكانا يتباريان فى الاخلاص اياماً وليالى وبعد معالجة يطول شرحها تمكن الشاب من التغلب على الضر والظفر بتلك الحمى الخبيثة

فنجت نائلة .. ولكن لم يكن بد من التوقى الـكثير والاحتراس الذى لا يفوقه احتراس خيفة ان تداهمها صدمة اخرى فتذهب بحياتها

وحالتها توجب الملاطفة والرعاية والحب وهو دواء ادبى ناجع لا يمكن ان يذهب سدى

فعادت نائلة الى الحياة . وبلغ خبرها الدوقة دى
سمروز فاقبلت ايضاً وتمتعت بتعزية الفتاة العليلة ومعانقتها
واغدقت عليها برها وانعطافها

واستسلمت نائلة الى هاتيك الملاطفات المتوالية
فانشرح صدرها وصلح امرها

اما جورج دى كانتابل فانه ادرك الحقيقة كاملة
وانكشف له سر المركيزة دى سمروز من نظره الى
انزعاجها عندما كانت ابنتها معرضة لخطر الموت
وخامرته شفقة على والدة صديقة روبر وقدر عذابها
حق قدره وما لقيته من شر التندم

وحدث والدته البارونة دى كانتابل تلك القصة
فتبسمت لما عرفت بمقدار كلف ولدها بالفتاة وتعلق
الفتاة به وللحال انضمت الى الباقين وكانت قد حزرت
قسما من سر المركيزة دى سمروز صديقتها المحبوبة

وفى ذات صباح اقبلت الى منزل امورى درتيل
حاملة ازهاراً بديعة الشكل فقدمتها للفتاة نائلة ولثمتها
بحنان كثير وقالت ليهنأ ولدى جورج ونائلة بالقران



السائلة الحسناء

المبارك السعيد !

فعانقتها نائلة وقالت ان حبي اياك سيكون شديداً ايضاً لانك والدة حبيبي جورج ! لله ما هذا الذى انا فيه لعمرى انه الفردوس الذى لا يكون مثله الا فى السماء ! ....

واصفر وجهها عند هذه الكلمات فاقبلوا عليها يسعفونها الا ان انخذال قواها لم يدم الا وقتاً قصيرا جداً فانها تماسكت وتجلدت

وبعد وقت قصير اخذوها الى الجهات الجنوبية ترويحاً للنفس والتماساً للشفاء

فاستأجر امورى درتيل منزلا قريباً من منزل الدوقة دى سمروز وبيت جورج دى كانتابل وهذا لم يشأ مفارقة خطيبته العليلة

وهناك احتفلوا بعقد الخطبة

واخذت الفتاة تسترد قواها ولا غرو فالسعادة كانت محيقة بها من كل ناحية وقرب الحبيب خير علاج لقلب المحب الصادق

وكانت تنام فى الزورق عند ما يسير بها ابوها او خطيبها فتظن انها ترقى الى السماء وترى أحلاماً لذيذة شائقة

وفى ذات يوم كانت مع خطيبها جورج فى زورق يشق عباب البحر الابيض الهادىء بين السكون والجلال فأخذ النوتى يتغنى

فنهض جورج وأمره بالسكوت غير ان نائلة استيقظت ساعتئذ وتنهدت وابتسمت ورنت الى خطيبها بفتور وغمغمت تقول له

لقد رأيت حلما جميلا . . . خيل لى اننى اسمع غناء

قال ليس ذلك بحلم يا نائلة

قالت وكيف ذلك ؟ . . هل غنى احد هنا ولماذا كف عن الغناء ؟

فأمر جورج النوتى بالتغنى ففعل فأصغت اليه نائلة وهى باسمة فلما سكت قالت اننى أحب الغناء فى البحر فما اجمل البحر وما ألطف المعيشة عند امواجه المترقرقة

ونهضت قليلا لتنظر الى ذلك البساط الازرق الجميل

المذهب بنور الشمس

فعطف عليها جورج يقول لها

عزيزتي نائلة !

فنظرت اليه نظرة يتجسم فيها عرفان الجميل والحبور وعلا الاحمرار وجنتيها وقالت انت كريم الخلق طيب القلب

أجاب بل انا اهواك وهذا كل ما في الامر آه ما ألطف الحب فكأن الخليقة تشاركنا فيه ألا ترينها باسمة مبتهجة انظري الى هذا البحر الازرق والسماء الصافية فكلاهما متشابه وانظري الى هاتيك الاوراق الخضراء كأنها تستنزل الحب من السماء بقطرات الندى وشذا زهر الربى واستنشقي اريج النسيم فهي تحاكي انفاس المحبين بل كأنها أودعت ارواحهم للطافتها وهاهي تمر بوجوهنا فتنعش منا القلب والروح

قالت نعم كل ما نرى جميل بديع وانا اهواك ايضاً يا جورج ولا عجب فانك كنت آية الاحسان لي وكنت لي نعمة من الله وبركة سامية

قال اما انت فكنت لي سعادة وغبطة لا يرجو انسان افضل ولا اعظم منهما في هذه الدنيا . . . .

هل تعلمين انني لم انسك قط منذ ما رأيتك لاول مرة ؟

اجابت هل تعني بذلك اليوم يوم كنت ادعى السائلة ؟ ..

قال نعم ... يوم عالجت جبينك النقي الجميل ولا يزال عليه أثر عزيز

ولثم جورج ذلك الاثر على جبينها وهو باسم

فقالت تبارك الله انه عز وجل نظر الى عذابي فاعاضني عنه سروراً والى خوفي فبدله امناً فانا أشكره ما حييت ! .. ثم أشكرك أنت ... لانك أحببت الفتاة المسكينه واذنت لها بأن تأخذ بنصيب من الحياة الحقيقيه ؟ ..

فوضع جورج يده على فمها ليمنعها من اتمام كلامها لئلا يفضي بها الى التفكر في ماضيها وكانت تذكره فتمتعض وتتألم ....

فقال لها وهو متهلل الوجه طروب : ها نحن الا ن خطيبان .. فلا ينبغى أن تفكر فى أمر آخر فخفضت بصرها لتتمتع كما تحب بتلك اللذة التى شعرت بها روحها وجعلت تقول فى نفسها أحقاً انه يوجد من أحب السائلة طريدة الامس المنكوبة المتروكة من جميع الناس ؟.. تلك التى خاضت غمار الحياة السافلة والتصقت بمخازى العيشة الدنيئة وكان ينبغى أن تتدحرج الى الهاوية فلا تنهض منها أبداً ؟ وهل يمكن أن يوجد من يقترن بها ويشاركها فى الوجود؟ نعم ؟ وهذا جورج حاضر لا يقترح على دهره ولا يشتهى مثل قربها ؟. اذن فهى كغيرها تستطيع أن تكون محبة محبوبة!. فسكرت واهتز فؤادها طرباً وعلمت انها بلغت اقصى ماتتوق اليه النفس. فبكت. سروراً فكفكف جورج عبراتها بلطف ويا لله مما رأى فى وجهها فقد اشرق عليه نور الشكر ونطقت نظراتها بما خامرها من الانشراح فكان بهجة الربيع تجسمت فيها. فتتجلى جمالها الفتان. فجعل يتأملها مدهوشا مسحوراً وهى تنظر اليه نظرات اودعت كل حنان وحب. فقالت

فى نفسها : ما اعظم حبى لخطيبى ولسوف يعظم هذا متى صرت زوجته !. واذا بجورج يقول لها : سرى واطربى ايتها الحبيبة . فلدى بشرى ابقيتها لادهشك بها ولكننى لا يسعنى كتمانها عنك ايضاً. ان المركيزة دى سمروز تصل الليلة الى نيس . اذن فابشرى بلثم والدتك فتدفق البشر من وجهها وقالت ماهذه السعادة !. آه ما اعظم شوقى الى والدتى !. قال جورج وكذلك عندى بشرى حسنة ايضاً نعم فهذا اليوم يوم المسرات لقد تلقيت كتاباً من فرانسوى دورنيه وفيه ان الغلام كيكو صديقك الصغير احسن حالا وهو يتقدم الى العافية تقدماً سريعاً . والظاهر ان العلاج الذى وصفته له كان ناجعا وحقق الرجاء فيه فلم يبق من خطر على حياة الغلام . قالت اذن فهو يعيش ؟ . اجاب كيف لا والحياة تبسم له كما يبسم لها . نعم فثقى انه يعيش اما ابوه فيكاد يجن سروراً . قالت انك كنت المنقذ له ايها الحبيب . فشكراً لك على ذلك . وانعم بك من طبيب حاذق كريم

قال انى فعلت ماقدرت عليه . قالت وكيف حال مانيلون ؟
اجاب انه احرز وساماً ورتبة ورقى الى وظيفة عالية على
ان امك كفلت له المستقبل اقراراً له بالشكر على صنيعه
فانها لم تنس أحداً من الذين ساعدوها . فابتسمت نائلة
لانها لم تجد حولها الا افراحاً . وهكذا لذ لها الوجود
وكانت مضطجعة على الزورق ويدها ممدودة الى الماء
تخط فيه خطاً من فضة هـذا وقد جلس النوتى تاركا
زورقه يسير على مهل كانه يخترق بركة من الزيت

ولبث جورج يطالع على جبين نائلة غبطتها الفائقة ثم
ضمها الى صدره ولبثا كذلك متعانقين مستغرقين فى لذة
الحب الطاهر

وفى مساء اليوم التالى انعقد اجتماع بين جمهور من
الاصدقاء الاصفياء فى منزل آل سمروز في نيس . قدمت
جيلبرت منـذ أمس مصحوبة بولدها روبر فأوجب
قدومها ان يزورها اصدقاؤها جورج دى كانتابل ووالدته
واموري درتيل وابنته . ولقد فكرت وأطالت التفكير
فظهر لها انه يستحيل عليها ان تستمر على اخفاء الروابط

التى تربط ابنها روبر بخطيبة صديقه جورج قالت فى نفسها
لئن دام جهل ولدى لهذه القرابة واسبابها فاننى أظل
محرومة قرب نائلة الى الابد واضطر على الدوام الى كتمان
حبي اياها وانعطافى عليها فخير لى ان أتحمل خجل الاقرار
وحدى منفردة بولدى . وقام فى نفسها عراك عنيف
فكان العذر فيه لاستقامة سريرتها ونزاهة ضميرها .

فأهابت بولدها روبر فوافاها الى القاعة فقالت له
اصغ الى يابنى واعلم ان صديقك دى كانتابل عازم
على الزواج .. أجاب ادرى ذلك وهو قادم الينا الساعة
ليعرفنا بخطيبته . وانى لمبتهج مغتبط لاغتباطه وابتهاجه
لانه يحبها حباً صادقاً كما تحبه ويقول انها بديعة المحاسن

قالت ان هذه الفتاة ياروبر .. فقال ماشأنها ...
قالت انها شقيقتك . فصاح مدهوشاً وقال شقيقتي؟
وكيف ذلك؟ .. فلم تجب جيلبرت وجعلت تسأل نفسها
عما اذا كانت قادرة على استيفاء اقرارها المحزن الى نهايته

أما روبر فجعل يسألها بالنظر . فقالت أنى مطلعتك
على كل شيء .. لما تزوجت أباك كنت أهوى رجلا

آخر وكان خطيبي فرددته لاسباب معلومة واطفأت جمر الهوى المتقد فى فؤادى وانصرفت الى العناية بزوجى المركيز دى سمروز فبذلت له اخلاصى . قال أعرف ذلك يا أماه فقد كنت على الدوام زوجة أمينة و ..

فقطعت عليه الكلام وقالت كفى يابنى .. أنى لم أكن على الدوام زوجته الامينة .. بل أتيت ذنباً ! . ذلك اننى كتمت الهوى دهراً الى أن حان وقت ضعف واستسلام فنسيت الواجب المفروض وهى زلة صيرت حياتى عذاباً وشقاء . « فلما وضعت نائلة اضطررت الى تركها فكان تركى اياها سبباً لوقوع الارزاء والنكبات عليها وحلول البؤس والشقاء بساحتها وانما حملنى الجبن على ذلك كاننى طرحت عن ثقل جريمتى ورميت تبعة زلتى . « اما الآن فاننى انا المجرمة لاطاقة لى على معاملة نائلة بتلك القسوة الفظيعة وحرمانها المقام الذى تستحقه والمروءة تأبى علىّ ان استمر على نبذها كما فعلت قبلا . فالجأنى هذا الحال الى الاقرار لك بذنبي وتحمل الخجل امامك يا ولدى الحبيب . قال اسكتى يا اماه. فليس فى

عملك ما يوجب الخجل . وانما تفعلين امراً يدعو الى الاعجاب بك ولا يحق لى ان اقضى عليك لست اجهل ما يسوق اليه الغرام وقد عرفت ذلك بنفسى

فاغرورقت عينا جيلبرت بالدموع وصاحت اذن لست تحتقرنى ؟ . ولا تبذلنى ؟ . آه يا ولدى العزيز . فترامى جاثيا امامها وقال انى احبك يا اماه حبا جما وقد علمت مقدار عذابك الماضى واتضح لى الآن سبب اكتئابك الدائم . فيجب على ان اعزيك واواسيك يااماه فرفعت بصرها الى السماء وقالت شكراً لك يا رب لانك رزقتنى هذا الولد ! . . قال لقد كفرت عن الماضى يا اماه بما لقيته من آلام اما الآن فخفضى عنك ولتزل آلامك وتعالى فتوكئى على ولدك واعتمدى على ساعدى وهيا بنا نمشى الى السعادة ونقدم على مستقبل حافل بالهناء

فصمتت المركيزة وانقطع بكاؤها وبان السرور فى عينيها الصافيتين. وانقضى عهد التكتم والتستر والكذب. فاصبحت قادرة على ان تحب نائلة علنا.

فنظرت الى ولدها نظرة تنطق بالشكر الدائم والاعجاب

والـكبر . فقبلها وقبلته وكان فرحهما عظيما

فلما أقبل المدعوون الى المنزل تلقتهم المركيزة وابنها فقالت جيلبرت ان روبر يعرف كل شيء ولا يتمنى الا أن يحب شقيقته نائلة . فوثب المركيز فامسك يدى نائلة وقد انزوت الى جانب أبيها خجلا وصاح بل أنا أحبها من صميم قلبي ! . فاجتذبه جورج اليه وقال وافرحاه ! نعم لقد كنت عالما يقيناً انك كريم العنصر سامى النفس

فرق فؤاد والدة جورج لهذا المشهد أما روبر فامسك يد أمورى درتيل ويد والدته معا وقال لقد لقيتما الاهوال من افتراقكما في ما مضى ! . اما الان فقد وجب على الاقدار على أن تصلح مافات وتجمعكما . وهكذا يتيسر لنائلة أن تفرح باسرتها الحقيقية . فكانت ليلة من الطف الليالى تعاطوا فيها كؤوس الحب والولاء مترعة صافية حتى مر بهم الوقت سريعا . وأخذ جورج يتمشى مع روبر على الشرفة فقال له عما قريب يجىء دورك ولسوف أكتشف لك جوهرة بديعة تشبه نائلة فى الجمال والطهر فتقترن بها اقترانا يحف به السعادة والاقبال

فاجابه خاضعاً . انني لا أتردد فى ذلك . قال الشيء بالشيء يذكر هل قرأت ماروت الجرائد . . قال فى اى موضوع ؟ أجاب عن البارونة . . بولنسكا . .

فضحك المركيز ايضا وقال تكلم ولا تسرع . فان قلبي لايهتز ولا يخفق أكثر من عادته اذا سمعت بغادة الشعر الذهبي . فقد شفيت من داء هواها كل الشفاء !

قال اذن فاسمع لاتلو عليك مالم تعلم . واخرج من جيبه جريدة فقرأ فيها ماصورته . « لقد عزمت البارونة بولنسكا وهى الرقاصة المغنية المشهوره على الاقتران بالطبيب بلتيمور » . قال روبر وكيف ذلك ؟ ومتى كانت رقاصة ؟

اجاب انها عادت الى صناعتها تزوالها كما عادت الى هواها القديم . : فهى ابنة الرقص والغناء . قال نعم فهى تصلح للملاعب وهناك منزلها الحقيقية ومن هو الطبيب بليتمور ؟ . احاب جورج واعجب هل نسيته فقد كان فى باريس ويقال ان له حكايات سافلة واخبرنى مانيلون انه لص وينتظر القبض عليه من وقت الى آخر

قال اما وقد قبضت عليه خليلته فما اظنه ينجو منها الا وهو افقر من كل صعلوك . قال جورج اذ ذاك تجد سواه فتتعزى عن الاول بالثانى وعن الثالث بالرابع وهلم جرى . قال روبر الى أن يقضى عليها بالافلاس وتدول دولة حسنها الخداع . ثم عادا الى القاعة وهما يضحكان

***

وبعد ايام تم الاحتفال بعرسين فى وقت معا فزفت نائلة الى جورج كما زفت والدتها جيلبرت الى امورى درتيل وكان الاحتفال قاصراً على اخص الاصدقاء والاقارب وشهده مانيلون وزوجته سيجاريت ولوسيان وفرانسوى دورنيه وولده كيكو وقد شفى اتم شفاء من علته وعاش الجميع على صفاء وهناء ورخاء وبذلك كان ختام رواية السائلة الحسناء

﴿ انتهت رواية السائلة الحسناء ﴾

رواية

شهيدة الهيام

تأليف

القصصى الفرنسى الشهير

﴿ البيرت بواسيير ﴾

تعريب

الكاتب البليغ والشاعر العصرى

احمد رفعت

١

حالة مادلين هو بورج الخفية

كان المسيو بييد صاحب فندق « النوتى السكسونى » رجلا قصير القامة ملتف الجسم . وكان فندقه الصغير نظيفاً مستكمل الترتيب يسر ضيوفه بحسن مقابلة صاحبه ومعاملته لهم . وهذا الفندق مشرف على ميناء دييب حتى يرى منه الرائى كل حركة فى الميناء كما يشاهد منه حى بوليه البديع .

وكان هذا اليوم الذى يبتدىء فيه حوادث هذه الرواية هو يوم الاثنين ١٣ اكتوبر فخرج المسيو بييد من فندقه فى منتصف الساعة التاسعة صباحاً قاصداً المحطة البحرية وهى لا تنفصل عن الفندق الا بطرقة قصيرة الطول . وكان يقصد من خروجه الى المحطة ان يتناول الصبوح مع عامل السكردان (البوفيه) كدأبه كل صباح . وهذه هى المرة الوحيدة التى يخرج فيها من فندقه فى بحر الاربع والعشرين ساعة لانه كان وحيداً منقطعاً لعمله بهمة لا تفتر غير مرتكن فى ادارة محله على احد ولم يكن له من معين فى خدمة ضيوفه سوى شاب وفتاة

استخدمهما لهذا الغرض . وكان قليل النوم موصول العمل سريع الحراك . وكثيرا ما كانت تمر به الليالى بطولها وهو لا يهمد له عضو ولا تغمض له جفن .

فلما دخل فى هذا الصباح على عامل السكردان ابتدره هذا الاخير بقوله : ما وراءك من الانباء الحديثة يا مسيو بييد ؟. . . .

فاجاب بييد : ليس فى الامر ما يدعو الى الاهتمام يا مسيو بطرس . . . .

فملأ المسيو بطرس قدحين من الشراب واجترع احدهما بسرعة ليعاود الحديث ثم قال : انى لاجد سائحيك قد نقصهم اثنان يا مسيو بييد فما السبب فى ذلك ؟

فاجاب المسيو بييد بعد تفكير قليل : اجل لقد نقص منهم ذانك الفتيان !

فقال بطرس : افكانا من ذوى الفنون ! لقد حدثتنى نفسى بانهما كذلك حينما شاهدت وجهيهما العجيبين ! وافيدك انهما جاء الى وتناولا من سكرداتى شيئا من الطعام والشراب ثم سألانى عن الساعة التى يتحرك فيها القطر السريع الى باريس . . .

فقال بييد اجل لقد كان وجهاهما غريبى الشكل ! وانك لمحق فى ما قلت يا مسيو بطرس . ولكن اذا كنا سنهتم بكل

الاناس الذين ينزلون فى الفندق . . . ولم ولم يتم حديثه إبل افرغ قدحه فى فمه ومسح شفتيه بيده المغطاة بالشعر . ووصل بعد ذلك حديثه قائلا :

جاءنى هذان السائحان يوم السبت وطلبا منى غرفتين منعزلتين عن بعضهما و . . . .

ولم يتم حديثه لاز شخصين دخلا السكردان فاضطر المسيو بطرس الى مفارقة صاحبه وقال له بييد وهو يتهياء للانصراف

بعد قليل ساسرد على سمعك باقى الحديث يا مسيو بطرس . . .

ثم أسرع فى مشيته قاطعاً الطرقة القصيرة حتى بلغ فندقه واراد ان يبث روح العمل فى الخادم والخادمة . فالفى الاول جالساً فى الدرجة الاخيرة من السلم ولا هم له الا ان يدخل اصابعه واحدا فواحدا فى انفه حتى ان هذا العمل التافه استغرق فكره وشغله عن الانتباه لمقدم رئيسه ووجد الثانية متبوأة مقعد الرئاسة ومنهمكة فى مطالعة انباء متفرقة فى الصفحة الثالثة من جريدة محلية مضى عليها أربعة أيام ففاجأها المسيو بييد وهى على هذه الحالة فقال للخادمين

وامصيبتى فيكما ! أهكذا يؤدى الناس أعمالهم .. أفلا تريد ان تعجل انت بترتيب غرف الطابق الثانى ..

ثم أشار الى الخادمة قائلا .

وأما انت يابنيتى فهل لك ان تنطلقى قفزا الى السوق .

فتناول الشاب مهفة الريش واندفع كالسهم الى حيث أمره رئيسه لتأدية واجبه وخفت الفتاة الى المطبخ فتناولت منه السلة وهمت بالمضى الى السوق .

وبعد ان انتهى المسيو بييد من حث الخادمين على العمل تبوأ مقعد الرئاسة واكب على الجريدة المحلية يستطلع اخبارها الشتى .

وفيما هو سابح الفكر فى تيار المطالعة والفتاة متحفزة للخروج اذ بحادث فجائى لم يكن ليخطر على البال . وذلك انهما سمعا ضجة هائلة واحسا باهتزاز سياج السلم وارتجاج درجاته كانما زلزال عنيف أصاب الفندق او حملة من الفرسان داهمته واجتازت حماه بسنابك جيادها . وتلا هذه الجلبة المزعجة ظهور الخادم فى حالة يرثى لها من الاصفرار واللهث والارتعاد. وكان هو الذى سبب هذه الهزة الشديدة بانحداره متدحرجا على درجات السلم ومهفة الريش فى يده حتى وصل جثمانه الى صاحب الفندق والخادمة فهرع المسيو بييد الى الفتاة يستطلع خبره فرآه باهت النظر مضطرب الفرائص لايكاد يقوى على النهوض من سقطة وأخذ بيده واجلسه على كرسى وسأله جلية الامر فلم يستطع ان يحرك لسانه بأكثر من قوله

فوق . . . فوق

فأخذ المسيو بييد يلاطفه ويهدأ بلباله قائلا .

هون عليك ياجوستاف ... هون عليك ياصديقى ...فانه من العار على مثلك فى مثل هذا الشباب الغض ان يعقل الجزع اسانه .. ولست بحمد الله انثى القلب . ياللمصيبة ! فلما رأت الفتاة حالة الشاب دفع بها الفضول الى المجازفة بنفسها فاسرعت بالصعود الى حيث كان الخادم لترى ما الذى حدث هنالك . ولكنها لم تكد تبلغ الطابق الثانى حتى هبطت على الاثر متدحرجة شأن زميلها فتخلى المسيو بييد عن الفتى واهتم بالفتاة التى كانت حالتها ادعى الى الاسعاف من حالته لانها ارتمت على مقعد الرئاسة كجثة فاقدة الحياة واسبلت جفونها واطبقت شفتيها . فعالجها صاحب الفندق بما استطاع ليقوى فيها رمق الحياة قبل ان يتلاشى منها ولما علم ان الحياة دبت فيها قال لها .

هونى عليك ياشرلوت .. هونى عليك ياحبيبتى فان هذا الجزع لا يليق بمثل شبابك النضير .. ولست بحمد الله انثى القلب كجوستاف . ياللمصيبة ! وماذا عسى ان يكون هنالك يارباه ؟

الا ان شرلوت لم تنبس ببنت شفة لانها كانت أقل تماسكا وقوة من جوستاف

وحينئذ رأى المسيو بييد من الواجب عليه ان يتدرع بالشجاعة التى اكتسبها بطول العمر وان كانت قوته البدنية فى

الحقيقة اقل من قوة جوستاف . وان يصعد الى الطابق الثانى ليشاهد بعينيه ما ازعج الخادمين وكاد يوءدى بهما .

وفعلا اخذ يتدرج السلم بثبات حتى اشرف على الطابق الاول واذ ذاك سمع المسيو بطرس يقول .

ها انا ذا يامسيو بييد فهل لك ان تتم الحديث !

غير ان المسيو بييد لم يكن فى مكانه فوقف القادم بين الخادمين مدهوشاً لانه لم يفقه السبب فى ذهولهما وجلوسهما فى سكون تام .

ولم يطل عليه الوقوف حتى هبط المسيو بييد فى دوره منزعجاً يثب الدرجات مثنى وثلاث ولكنه بالطبع كان اربط جأشاً من عامليه الصغيرين وما كاد يلتقى بصره بالمسيو بطرس حتى قال له .

لقد حدثت جريمة . جريمة هائلة اقترفت فى نزلى .... آه يامسيو بطرس انك قد حضرت فى وقت الحاجة الشديدة اليك . . . فقل لى بالله اية سمعة سيئة ستمحو مجد فندقى وشرفه .

فاجابه المسيو بطرس وهو رابط الجأش وغير حافل بما يصيب بما سيقال عن فندق « النوتى السكسونى » ذى السمعة الشريفة :

أجريمة هنا ! اذاً فلتبادر باستدعاء الشرط فى الحال .

فقال المسيو بييد : أجل وهذا ما سنفعله على الفور فهلمَّ ياولدى باستدعاء الشرط فى الحال .

وكان كلامه موجهاً للفتى اكثر منه للفتاة فنهض هذا من كرسيه وقال « ها اناذا منطلق لاستحضار الشرط » فاستوقفه المسيو بييد وسأله :

وهل تعلم شيئاً عن هذه الفاجعة ؟

فاجاب الفتى : لا علم لى بشىء من اسرارها يارئيسى .

فقال المسيو بييد : وذلك لانك رأيتهما وقد سافرامعاً .. كلاهما ... ولم يمض على سفرهما اكثر من ساعة . اليس كذلك ؟

فاجاب الفتى : هو ما تقول ،

قال المسيو بييد : وانت كذلك ياشارلوت ؟

فاجابت : لا شك فى ذلك .

ثم وجه الخطاب الى المسيو بطرس قائلا :

ولقد شربا لديك قدحين من الشراب ... سوية ... ليس فى الامر ما يحملك على ان تقول كلا اليس كذلك ؟

فسأل المسيو بطرس : ومن هما ؟

قال المسيو بييد : الفتيان . يالله العجب !

فاجاب بطرس وقد تقبض وجهه : بدون شك .

قال المسيو بييد : انت تقول بدون شك ! ولكن ماعساك تصنع اذا علمت ان المرأة موجودة الآن فى اعــلا المنزل ! منطرحة فى سريرها ... مذبوحة ... ورأسها مقطوع ...

وما أتم حديثه حتى بدأ فى العويل ارتياعاً من هــذه الفظيعة وجزعاً مما يتوقعة من الحوادث التى ستطرأ .

ثم قال : يارباه ! ان هــذا لفوق الطاقة !... وما عساك تقدرلى بعد هذه الكارثة ؟ واية اشاعةستلحق بفندق «النوتى السكسونى » !

فقال له المسيو بطرس : سكن روعك فما عليك من باس لانك لست القاتل .

وعاد جوستاف مصحوبا بشرطى فبعد ان خاطبه المسيو بييد بالفاظ متفرقة غير مفهومة اخذ جوستاف بيده الى محــل الحادثة وبعد روءيته الجثة نزل وقال لقد شاهدنا الجريمة ... ولكن أين ذهب الرأس ؟ فسأله المسيو بييد : اى رأس ؟

فقال الشرطى : رأس القتيل !

فتمتم المسيو بييد وهو ذاهل :

الرأس !... الرأس !... وهل اعــلم انا اينهو الرأس ! واخذ الشرطى يقسو فى الخطاب شيئاً فشيئاً فقال :

يامسيو بييد ان قاضى التحقيق سيكون بعد عشر دقائق فى فندق « النوتى السكسونى » ... فحذار من ان يدخلهاحد

او يخرج منه انسان ! واياك تنقل شيئاً من مكانه او تنظم شيئاً مشوشاً بل احذر من مس احقر شيء فى هذا الفندق .

فقاطعه عامل السكردان قائلا :

اسمح لى ياسيدى الشرطى ان اقول لك انى بعيد عن هذه الجناية ولا علم لى بها وانما جئت الساعة لاتناول ضبوحى هنا كدأبى كل صباح . وعلى ما اظن انى استطيع مبارحة الفندق .

فاجاب الشرطى : اما انت فلا شأن لك فى الحادثة ولك ان تبرح المكان

فتشكر عامل السكردان واختفى عن الاعين فى الحال ومضى الشرطى الى رئيس النيابه . واما المسيو بيد فجلس بين جوستاف وشارلوت دامع الجفون شاكياً همه قائلا:

آه وا رأساه !.. وا رأساه !... فما ضاع الا رأسى .

* * *

من المعلوم انه اذا حدثت جناية فى بلدة صغيرة تكون الجرائم فيها نادرة الحدوث لا يمضى أكثر من عشر دقائق حتى يكون خبرها قد عم البلدة ولاكته جميع الالسنة . وهذا ما حدث بعد خروج عامل السكردان والشرطى فان القصة جرت بين الافواه متنقلة من السكردان الى المحطة حتى طافت البلدة باسرها . وبعد انقضاء عشر دقائق تماما كان جميع سكان

هذه البلدة الصغيرة امام هذا الفندق الصغير متسائلين متزاحمين واخذت الفكر تتوارد والآراء تتعارض . وفى المقام الذى لا تكشف فيه يفد التحقيق الرسمى عن وجه الحقيقة تكثر الظنون وتتباين الاقوال وتتفرع المسائل حتى يصبح الحل من اعسر الامور على الجمهور . وهذا ما جرى فى هذه الآونة بين المتجمعين حول « النوتى السكسونى » فقد يقول الواحد لقد وجدت امرأة مذبوحة في الفندق . فيسأل الآخر :

ومن ذا الذى اذاع مقتلها . فيجيب الثالث : ان الذى اكتشف مقتلها هو المسيو بطرس . فيقول الرابع : ان المسيو بطرس يوءكد انه لم ير شيئاً . ثم قال آخر : بل الجريمة تشمل امرأتين مذبوحتين . فاخذت النساء تتهامس وادركتهن الشفقة على القتيلة أو القتيلتين وفى المدينة الصغيرة التى لا تقع فيها الجريمة الا مصادفة وتدخل فى باب الاستثناء يكون فيها القضاء سريعاً وهكذا كان فانه لم تمض مدة تتجاوز الخمس عشرة دقيقة حتى كان رئيس النيابة وقاضى التحقيق والطبيب الشرعى قد حضروا فافسح الناس لهم الطريق وحيوا فى أشخاصهم الثلاثة النور والاستقراء والحقيقة .

وكان رئيس النيابة رجلا تقياً طاهر القلب حتى انه حين بلغ اسكفة الباب اخذ يتلو الصلاة واسمه المسيو بيرسيفان . أما قاضى التحقيق واسمه ماراتون فكان فرحا بهذا الحادث

ليظهر فيه كفاءته واقتداره لان وقوع هذه الجريمة فى هذا الاقليم كان نادراً واما المسيو بوسان الطبيب فقد كان رجلا مستقيما ولا ينتظر الا ان يقوم بعمله وفوق ما تقضى به ذمته . وكان الشروع فى درس الجناية متوقفاً على افتتاح رئيس النيابة المحضر

الا ان التحقيق كان غامضاً لان القاتل كان أخذ معه قبل اختفائه مفتاح السر

ودخل رئيس النيابة وقاضى التحقيق والطبيب وخلفهم بقليل المسيو بييد وخادماه ثم قال احد موظفى المحكمة فى الغرفة الموجودة بها الجثة الهادمة . وهى غرفة مشرفة على افريز الشاطىء مربعة الشكل رحبية مرقوم على بابها العدد ١٣ . واراد المسيو مارتون ان يبدأ بالكلمة الاولى فعد الحاضرين وقال :

اننا بحمد الله لم نتجاوز السبعة عداً

وكانت الغرفة مشتملة من الاثاث على سرير كالزورق غير مغطى بالاستار وعلى منضدة من الخشب الابيض ومائدة تزين وكرسى من القش وعلاقتين للملابس مثبتين فى الحائط عليها ثوب من الجوخ الازرق ومشد وقبعة . وفى جيب الثوب كيس نقود ومحفظة اوراق . وفى الكيس ثلاثة وخمسون فرنكا وخمسة وعشرين سنتيما ومدالية من النحاس المفضض وفى

المحفظة غلاف داخله خطاب ذو خط رقيق وممضى بلفظة « اميلى » وعلى الغلاف عنوان المرسل اليها الخطاب وهو :

الآنسة مادلين هوبورغ بفندق النوتى السكسونى — بدييب (س ٠ ل) وفى اسفل الغلاف طابع بريد انكليزى وختم دار البريد فى بيكاديلى بلورنده وتاريخه ١١ أكتوبر وهذا نص الخطاب .

« صديقتى العزيزة

اكتب اليك كلمتين وانا مسرعة فقد علمت انك ستبحرين على ظهر الباخرة فى يوم الاثنين . وانى لفى غاية الحبور لتصميمك هذا لانى كنت خائفة ان تسلمى قيادك الى هذه الحادثة التى قضت عليك بالاغتراب ... وقد رسمت الخطة اللازمة فاعددت يوماً اتفرغ فيه من العمل فاسرع الى نيوهامن حيث تستقر الباخرة التى ستنقلك فالقاك هناك .

« اميلى »

وما اتم قاضى التحقيق تلاوة هذا الخطاب حتى قال متململاً .

افترسل كاتبة الخطاب خطابها بدون ان تذيله بعنوانها !

فلو كان العنوان موجوداً لسهل علينا طريق الاستعلام !

فاجابه الطبيب الذى كان يفحص الجثة الهادمة المقطوع رأسها والتى اصبحت ككتلة من الثلج .

بل لو كان الرأس موجوداً لتمكنا من درس الجناية !

واكب الطبيب على القتيلة يستقرىء طريقة قتلها بالطرق العلمية التى درس قواعدها وطبقها بالطبع عدة مرات على الوقائع التى شاهدها فى اماكن مختلفة . فوجد الرأس مفصولا عن الجسد من التريب وتبين ان المقتولة امرأة صبية وان قتلها مضى عليه نحو الاثنتى عشرة ساعه . وان الرأس عند اجتث من التريب سالت الدماء بغزارة حتى غطت السرير باجمعه .

وبدأ موظف المحكمة يحرر المحضر حسب ما يملى عليه قاضى التحقيق فذكر صفات الجثة وكل ما اشتملت عليه الغرفة وبين انه لم يوجد دلالات تثبت حدوث جدال عنيف أو خفيف بين المجنى عليها والجانى .

فقال الطبيب بوسان . ان القتل حدث بآلة ورأى رئيس النيابه ان ينطق بكلمة فى الموضوع فقال .

وان القتل لم يحدث لاجل السرقة بدليل انه وجد فى كيس المقتول ثلاثة وخمسون فرنكا وخمسة وعشرين سنتيما .

فقاطعهما قاضى التحقيق قائلا للحاضرين .

ايها السادة ان اهم ما يجب صرف العناية اليه هو الاسراع فى ايجاد القاتل بكل الطرق الممكنة .

وهنا تعرض المسيو بييد للكلام فقال . ياسيدى القاضى ان القاتل قد اعتلى فى الساعة الثامنة ونصف القطار السريع

ذاهبا الى باريس .

فصاح رئيس النيابه بقسوة فى وجه المسيو بييد .

ولماذا لم تقل لنا هذا من اول الاومر ؟

فقال لانك لم توجه الى سوءالا بهذا الصدد قبل الآن

فاسرع قاضى التحقيق قائلا .

ايها السادة ان الامر يستدعى شيئاً اهم من المناقشة فهل لك ان تصف لنا بالتدقيق و بغاية الاسراع ذلك القاتل ؟

ثم اخرج ساعته و بعد ان نظرها قال .

الساعه الآن ٩ و٢٥ دقيقة فنحن نستطيع اذن ان نخاطب بالتليفون محطة روان التى يقف بها القطار الساعه ٩ و ٤٠ دقيقه ومحطة باريس التى يصل اليها القطار بدون ان يقف لدى اية محطة اخرى فى الساعه ١١ ونصف تماماً .. فيكون لنا نصيب من الحظ بالقاء القبض عليه فى احدى هتين المحطتين . واما انت يامسيو بييد قل كل ما تعلم عن القاتل بصراحة تامه . وانت أيها الكاتب دون كل هذه الاجراءات فى محضر التحقيق

فبعد ان سكت المسيو بييد قليلا مسح العرق الذى كان يغطى جبهته وقال .

اعلم ياسيدى القاضى ان القاتل من ذوى الفنون واسمه پروپرس ومهنته ممثل مضحك كما هو واضح فى دفتر اسماء

ضيوف الفندق . وهو شاب كبير الجسم ذو وجـه عجيب ومشية وئيدة ومنظر وجيه مرتد بحلة ضاربة الى الاخضر وعلى رأسه قبعة لينة وهو حليق اليوم . وشاحب اللون ... وفى عنقه ربطة حمراء (كرافاته) ..

فقاطعه القاضى مارتوان قائلا . كفى !

فقال المسيو بييد . اسمح لى بهذه الكلمة .. وفى يده صندوق من النحاس الاصفر ...

فاعاد المحقق قوله . كفى !

ثم تبسم للمسيو بييد ووجه بعد ذلك نظره لرئيس النيابة قائلا . هل لك ياحضرة الرئيس ان تبادر بالذهاب الى التليفون لاعطاء الامر بالقبض على الشخص المتصف بهـذه الصفات بينما اكون انا مهتما باخذ أقوال الشهود ؟ وذلك لان نجاحنا وتوفيقنا فى هذه الحادثة يتوقفان على انتهاز الفرص باسرع ما يمكن .

فقال رئيس النيابة سأودى هذا الامر كما يجب.

واخرج ساعته ونظرها قال . ولـكن الساعة الآن ٩ و ٥٠ دقيقة فاذا كان القاتل نزل فى روان يكون بلا شك قـد افلت من ايدينا .

فقال له المحقق . انك لتريعنى وعلى كل حال يلزمك ان تبادر بالذهاب الى التليفون ولا تنسى الصندوق النحاس الاصفر

فان له علاقة هامة .. علاقة كبرى بالرأس المختفية .. أسرع ياسيدى الرئيس .

فاستوقف المسيو بييد رئيس النيابة باشارة وقال للمحقق . اسمح لى ياسيدى ان اتمم معلوماتى .

فقال قاضى التحقيق . اذن فعجل بتتميم هذه المعلومات

قال المسيو بييد . ولم يسافر القاتل منفردا .. وهذا هو الذى يدهشنى . بل هذا هو الذى سيدهشنا جميعاً ويوقعنا فى الارتباك الشديد ، ولا أدرى اذا كنت ستستطيع انت وحدك بمهارتك الفائقة ان تفقه من هذا الاشكال العجيب شيئا كبيراً

فقال المحققون — اذن كان مصحوبا بشريك له

فقال صاحب النوتى السكسونى . كلا أيها السادة . انه سافر لا استطيع ان أقول لـكم ومع ذلك فما سأقوله هو هو الحقيقة . واننى لمتأكد مما سأقول وضميرى مرتاح اليـه وكذلك المسيو بطرس يصادق على ما سأقول .. فانه سافر .. آه أيها السادة بحقكم لا تعتبرونى ابله او سليب العقل ولا كانسان يحاول ان يهزأ بكم . فانه سافر .

ثم ألقى نظرة الى السرير المطروحة فوقه تلك الجثة الهامدة والملطخ بالدماء الباردة وقال .

انه سافر مع القتيلة .

فصاح فيه رئيس النيابة المسيو برسيفان .

انك لمجنون

فاجاب المسيو بيبد . كلا بل انا حائز لكل صفات العاقل ياسيدى الرئيس . انه سافر مع القتيلة • وهى حية ذات لحم وعظم مثلكم ومثلى أيها السادة الا كرمون . وانى لعارض بين أيديكم الدليل المؤكد اذا سمحتم بذلك •

فلم يستطع المحقق ماراتون ان يتمسك بالصبر بل قال . لا يسمح لنا الوقت بالسماح لك بذلك :

ثم التفت الى رئيس النيابة وقال له •

ان هذا الرجل المسكين قد ادركه الخبال • فعجل بالركوض الى التليفون لندرك القطار بعد ان افلت من ايدينا فى روان

فخف الرئيس الى التليفون ليبلغ امر قاضى التحقيق القاضى بالقبض على المشخص المضحك قاتل المسماة مادلين هو بورج والتفت المحقق الى الطبيب الشرعى الذى كان مستغرقا فى التفكير المجهد فوجه اليه الخطاب سائلا •

افتفكر فى كيفية القتل وبحد أية آلة كان ؟ ولكن انى لك الاهتداء الى ذلك وقد غاب القسم الذى عليه المدار فى لبحث

فاجاب الطبيب بوسان • اجل انى لافكر كما تقول ياسيدى القاضى ولكن لا فى كيمية القتل ولا فى حد الآلة القاتلة لانى لا أرى فى هذين الامرين نفعاً فى الوقت الحاضر لان الموت قد أدرك هذه الجثة من برهة طويلة والسبب ليس بخاف فان

العنق قد فصل بالة

فقاطعه مارتون قائلا • هذا شىء مفهوم ايها الطبيب ••

فاستمر الطبيب فى حديثه قائلا • وانما افكر فى اسم القتيلة فى الاسم الذى اطلقته عليها • وعلى الاقل فى شأن خطاب بسيط وجد فى جيب بسيط لثوب بسيط •

فقال المحقق • اتفكر فى اسم مادلين هو بورج ؟

فقال الطبيب نعم افكر فى مادلين هو بورج ! • فانى أعرف فى روان، صديق لى يسمى هو بورج • وهو ذو حس رقيق وشعور شريف • وهو كثير الشغف والعناية بفن التمثيل الذى يشتغل به ليعيش منه . فقال قاضى التحقيق ! وماذا ترى فى صاحبك هو بورج

فقال الطبيب ولصديقى هو بورج أخت فتية ذات وقار ولست أدرى اذا كان اسمها مادلين ام لا . ولكن فقاطعه المحقق قائلا . وهل رأيتها

فقال الطبيب • نعم

فقال المحقق اذن ؟

قال الطبيب . اذن انت ترى انه من المستحيل على ان اعرفها وهى عزلاء من رأسها ؟

ففرك المحقق مارن انفه وقال سائلا. اتعرف عنوان صاحبك هو بورج ؟

أجاب الطبيب . كلا

قال المحقق . ماهذه الاسرار والعقبات التى تتمثل لناوالتى تنهض فى طريقنا ! فما كفانا ان عرضت لنا أميلى التى لا يعلم عنوانها والتى أرسلت من بيكاديلى رسالة خفية المغزى حتى نهض فى وجهنا هو بورج فى روان يحاول ان يمثل دوراً شديد الالغاز .. لا لا .. ثم عاودته السكينة والرصانة وقال للطبيب مر أيها الحكيم بنقل الجثة الى المستشفى وتحنيطها .

فقال الطبيب . اترى من الضرورى ان نفعل هذا ؟

فاجاب المحقق . نعم لانى لا أرى أثراً للجناية فى دييب . وانت لا تستطيع ان تصل بعلمك الى استكشاف غوامضها ولكن هل تظن انى لم انقد الى اليد التى اقترفت هذه الجريمة انظر الى اهتمامى بهذه المسألة هل لك ان تكون مثلى ؟

قال الطبيب . وانك لتريد ان نبادر باكتشاف مايصل اليه علمنا . وهاأناذا ابذل جهدى فى هذا الصدد وبعد ذلك سلم الحكيم وانصرف .

وأما المحقق فنزل وخلفه الكاتب الى الطابق الاسفل حيث جلس فى مكان المدبر ليبدأ باستنطاق مدير الفندق وخادميه . وفتح الكاتب جعبة القتيلة لاستطلاع مابها فلم ير بها الا بعض ثياب وادوات التزين الى غير ذلك مما لا يفيد فى التحقيق ولكنه يهم النساء . ووجد مع هذه الاشياء خطاب

كالذى وجد فى جيبها مكتوب وممضى بخط واسم مادلين هو بورج الا ان عنوانه كان فى هذه المرة هكذا « الى الآنسة مادلين هو بورج لدى المسيو ما كسيم هو بورج بمونتومالاد بالقرب من روان .. فقال المسيو ماراتون عند وقوفه على هذا العنوان ..

مونتومالاد ! ولكن ياللعجب العجاب! ان هذا الشخص لا بد من أن يكون هو بعينه هو بورج الطبيب بوستان ! . . . ومع ذلك فسنرى فى هـذا الامر بعد الاستنطاق . ولتكن الحكمة رائدنا فى اعمـالنا فاننا لا نستطيع ان نصطاد ارنبين برين فى آن واحد .

ثم عمد الى ستار النافذة فرفعه ونظر منه الى الجمهور المزدحم امام الفندق فوجده محافظاً على النظام وغير محرج للشرطى الفرد الذى كان يدعوهم الى السكينة . فبدأ حينئذ بالتحقيق على النمط الآتى .

ياحضرة المـدبر لعلك لا تدرى هول موقفك وعظم مسئوليتك فلتتفضل بالاجابة على الاسئلة التى سألقيها عليك غير متهيب ولا محاب ولا موارب اجابة صريحة صادرة عن ذمة طاهرة فاضطرب المسيو بييد التعس وشحب وجهه واخضارلونه وجخطت عيناه وتلعثم لسانه الذى اداره فى فمه مرات ليمرنه على التحرك والنطق ثم هتف اخيراً مجيباً على ماقاله المحقق وقد

تقدم اليه وفى يده اوراق غير حسنة الترتيب فى جلد وسخ .

هاك ياحضرة القاضى دفترى الذى اقيد فيه اسماء النازلين فى الفندق وهو الشاهد التاريخى على ما سأقصه عليك . ولكن قبل ان ابدأ فى سرد المقال لى ملتمس أعرضه على حضرتك

فقال المحقق . اعرض ملتمسك

قال المسيو بييد لا اخفى عليك انى لم اتعلم تعلماً سهلا وافيا بالمرام واذا كنت كلما تحركت نفسى بالتأثر الطبيعى الذى يهيجه فى هول هذه الحادثة المفزعة تباغتنى بالاسئلة التى تخرجنى والتى تقطع علىّ سلسلة خطابتى التى سألقيها بين يديك الآن والتى ترأى لك من قبل ان ما ذكرته لك منها محوج و بعيد عن التصديق فاعلم اننى لا اجيبك بعد ذلك بتاتا لان الحقيقة فى منتهى الغموض ياحضرة المحقق .

فقال المحقق انما يجب علينا ان نرفع الشك عن وجه الحقيقة ايها الشاهد وليس من شأنك انت ان تفعل ذلك . قال مدير الفندق . هذا حق ياحضرة القاضى ولاجل مساعدتك على التوصل الى هذا بكل مااستطيع من قول او فعل ارجوك ان لا تكثر من المقاطعة علىّ فى الحديث لكى لا يصير كل مااقصه من قبيل الوهم الكاذب او التخيل المستحيل

فقال المحقق وقد تولاه الضجر . تكلم وسنرى ماذا يجب علينا ان نصنع . ولكن لا تمنع عن الوقائع ذرة من شعاع الحقيقة

فبدأ المسيو بييد قائلا . هاك تفاصيل ما اعلمه .

فى يوم السبت الماضى قبل امس الموافق ١١ الجارى فى الساعة الثانية صباحا حضرت الىّ الآنسة هو بورج وسألتنى ان اقدم لها غرفة . فلاح لى من اول نظرة وجهتها اليها انها سيدة ذات اخلاق فاضلة فتقدمت بها الى الغرفة رقم ١٤

فقال القاضى ١٤ ألعلك تريد ان تقول ١٣

فأجاب مدير الفندق . كلا بل ١٤ انى اقول تماماً ...
وانك ستعلم فيما بعد .. ربما انها لم تكن مصحوبة بغير جعبة واحدة — وهى هذه ياحضرة المحقق — فقد الزمتها بدفع الكراء مقدماً وسألتها اذا كانت ستطيل مكثها فى «النوتى السكسونى» فقالت لى انها ربما أبحرت فى الغد أو فى يوم الاثنين على ظهر الباخرة التى تقصد نيوهافن . وبما أنها كانت وحيدة فقد سألتنى أن اصعد اليها مأكلها فى غرفتها . فاجبت سؤلها وعددت ذلك كفائدة لدارى واستدللت منه على حسن سلوكها وقيدت اسمها فى الدفتر كما تراه فيه باسم مادلين هو بورج مدرسة قادمة من روان وذاهبة الى لوندرة

ثم أمسك المسيو بييد قليلا ليستريح وعاد بعد ذلك الى حديثه . وفى نفس اليوم قدم الى الفندق فى الساعة الخامسة من الصباح رجل يحمل جعبة واحدة تروى تلك وسألنى اذا كانت قد استوطنت فى فندق آنسة تلقب هو بورج .. واذا

كنت فطرت على الصدق فلم يسعنى الا ان اجيبه بنعم ...
فرجانى حينذاك ان اقدم له غرفة — وما هنالك هنالك اليس كذلك ياجناب المحقق - وحين عرضت عليه الدفتر قيد فيه تحت اسم سابقته بروبرش ممثل مضحك قادم من روان وماضى الى باريس . واتبع ذلك بالجملة التالية مع زوجه .. فانكشف لى غامض الامر يالله ! لقد اضحكنى مسألة عن موعد سفره فاجابنى بانه رهين الظروف . » وقوله هذا يعود الى فكرى الآم تجاه هذه الفاجعة فافقه ماذا كان يعنى بتعليقه سفره على الفرص . ولقد قدمت اليه الغرفة رقم ١٣ بجانب الآخر من غير ان يطلب منى ذلك . وانما من باب التلطف والذوق والتحبب الى الزبائن ياحضرة القاضى !.. وآه لوكنت اعلم !.. ولكن فى حرفتنا هذه ايمكن العلم ابداً بما يمكن توقعه وما راعنى ياسيدى الا ان خرج المسيو بروبرس ثم عاد صحبة الانسة هوبورج وهذا ماحدأ بى الى تغيير فكرى فى سلوكها ولكن ليس من شأنى ان اتداخل فى مالا يعنينى. وكانا يخرجان فى اليومين اللذين اقاماهما فى نزلى تارة منعزلين عن بعض وتارة مجتمعين والذى آسف عليه هو انى نسيت ان كانت قد خرجت بعض مرار لابسة ازرق ومرارا اخرى لابسة احمر ام لا
فقال المحقق .افتريد ان تهزأ بالقضاء ؟
قال المسيو بييد . ان موظفى الاثنين حاضران هنا الان

وهما يستطيعان ان يؤيدا لك ما اقوله
فاشار جوستاف وشارلوت بالرأس دلالة على المصادقة .
ثم عاد الى الحديث فقال . انى اعرف ان هذا ربما لا يكون من الاهمية فى شىء ولكنى اريد ان اعرض عليك معلوماتى كما يجب أن تكون . فلقد كانت الآنسة هوبورج ترتدى آونة ثوبا من الجوخ الازرق وتارة ثوبا احمر اللون ... ومن جهة أخرى فان الثوب الازرق موجود فى الغرفه ، فسأله المحقق ! وماذا جرى للاحمر ؟
فاجاب . آه الاحمر سنرى فى شأنه بعد قليل . . ولاتقاطع على بحقك ـ انك وعدتنى ذلك ـ لكى لاتجعلنى افقد سياق الخطابة
فقال له المحقق . امض فى حديثك .
قال وفى صباح الغد حينما صعد جوستاف بالغذاء للآنسة هوبورج قالت له انها ستتعشى خارج الفندق فقال المحقق لجوستاف . اتؤيد هذا المقال ؟
فاجاب جوستاف . أؤيده وقد كانت مرتدية بحلة زرقاء ثم قال المسيو بييد .وفى مساء أمس عاد المسيو بروبرس ومعه الآنسه هوبورج . وكانت الآنسة هوبورج تنافر المسيو بروبرس الذى كان فى منتهى الشحوب وقد فاتنى ان اذكر لك ان المسيو بروبرس كان يتناول الطعام دائما خارج الفندق وان الآنسة هوبورج حينما كانت تخرج وحيدة كانت تلوح

عليها آثار الكآبة والانقباض . وكلما خرجت مع المسيو پروپرس كانت تنتعش وتبتهج. وها هى دى شارلوت تؤكد ما اقول .

فسألها المحقق اتؤكدين ما يقول ؟

فاجابت . أؤكد ان الآنسة هوبورج عادت فى الساعة العاشرة من مساء أمس مع المسيو پروپرس . وكانت مرتدية ثوبا احمر .

فقال المحقق . دون هذا جميعه ايها الكاتب . ياللعجب تارة ازرق ! وتارة احمر ! ما هذا المزج وماهذا الابهام !

ثم عاد المسيو بيبد الحديث فقال . والآن اراني قدبلغت أهم نقطة فى ما اقصه عليك فلنتخط ليلة الجريمة فان ما وقع فيها غامض على فهمى . ولنتكلم عن سفر المسيو پروپرش والآنسة هوبورج فى هذا الصباح . .

فقاطعه المحقق قائلا . افتريد العودة الى سفر القتيلة . . اتريد ان تتكلم عن سفر هذه الجثة الهامدة التى لا تزال تحت انظارنا ! اتحاول ان تثبت ما يجسمه لك الوهم !

فقال المسيو بيبد وهو هادىء : وشارلوت ! وجوستاف ! والمسيو بطرش عامل سكردان المحطة البحرية الذى تناول لديه قبل اكتشاف الجثة المفقود راسها بنصف ساعة المسيو پروپرس قليلا من القهوة الممزوجة باللبن . والآنسة هوبورج

قدحاً من الابسنت !

فصاح المحقق . كفى ! كفى ! فاننا لا نريد ان نشغل الافكار بوساوسك . ولقد انتهى استنطاقك

* * *

فاستجمع المحقق فكره واخذت الخواطر تتوارد تباعا عليه وهو حاصر رأسه بين يديه ومجهد عقله فى التأمل والاستنباط واخيرا قال للكاتب

لقد بدأت تنتشر فى فكرى اشعة الاهتداء .فپروپرش ممثل وأخ للقتيلة ممثل . حسن ! فهذان الاثنان لا يكونان الا واحداً — هو القاتل ! . وواحدة مجهولة خفية . ذات ثوب احمر . ومن تسمى أميلى فى بيكاديلى. هذاشىء مفهوم !فليست هتان الاثنتان سوى امرأة واحدة — وهى الشريكة فى الجناية

وفيما هو يجهد فكره وخواطر الفكر تتضارب فى رأسه اذا بلغب وجلبة مركبة فى الخارج فصحا من شرود فكره وعلم ان الجم المتكاتف فى الخارج يفسح لمركبة قادمة الى الفندق فوجه نظره واذا بالحكيم پوسان داخل وهو يقول .

انى لا اجرى أى شىء فى الجثة قبل العصر ولعلنانهتدى الى شعاع من نور الحقيقة فى هذة الفترة .

فقال المحقق وقد بهت . افتظن ذلك

قال الحكيم . اجل لان الانباء البرقية التى طيرت الى

صحف روان ناقلة خبر الجريمة أدت الى ان يرسل الى المسيو ما كسيم هو بورج رسالة برقية مستفهما فيها عن تفاصيل الحادثة ولقد عرضتها على رئيس الشرط فلم يشأ ان يوضح الحقيقة له وعلى ذلك فسيصل هذا التعس الى هذه البلدة فى قطارالساعة ٢ و١٧ دقيقة

فقال المحقق مندهشا . هنا . هنا . سيصل هنا الساعة ٢ و ١٧ دقيقة ؟

وفى هذه اللحظة بدأ شعاع الاهتداء يتقلص من فكره واخذت سجف الظلام تعود الى انسدالها . ثم قال .

اذن ليس هو القاتل ؟

واراد الطبيب الشرعى ان يجيب على هذا السؤال غير ان رئيس النيابة دخل فجأة وهو متهلل وقال .

لقد استولينا عليه !.. فان رئيس عموم الشرطةفى باريس قبض عليه فى محطة سان لازار و بعد استنطاقه عهد الى احد مفتشى الشرطة ان يسافر به فى اكسبريس الساعه ١ و ٢٥ دقيقة فيصلان هنا الساعة ٤ و ٤٥ دقيقة !

فقال المحقق مذهولا . هنا . هنا . يصلان الى هنا الساعه ٤ و٤٥ دقيقه ! آه ياحضرة الرئيس ما اشق هذه الانباء على سمعى لتزيد الحادثة غموضا وتعقيدا !

قال الرئيس . ومن الاسف ان پروپرس لم يكن ســ

جعبة .

فاجاب المحقق. ليس هذا بالشىء الجوهرى .

وانما قال ذلك وهو لم يفكر فى الرأس . ثم قال

وانما النقطة الهامة لدى هى القبض على القاتل .

ثم أخذ يفرك احدى يديه فى الاخرى وهو يجيل فكره فى ثنايا ماجد من الانباء فلاح له شعاع جديد من الحقيقة .

واذا كان الظهر قد حل ولا بد لهولاء الحكام ان ينصرفوا الى منازلهم ولولم تكن لهم رغبة فى تناول الطعام فقد خرجوا من الفندق . وحين رآهم الجمع الملتف بالفندق انصرفوا انصرف هو أيضا من تلقاء نفسه وكل فرد منه يسائل نفسه و يسأل الآخرين عن نتيجة التحقيق وهل ظفر المحققون بالمجرم .

وصار قاضى التحقيق الى بيته الكائن على الرصيف وهو يضرب اخماساً فى اسداس و يدرس كل نقطة على حدة . وكان الذى يشغل فكره على الاخص ذلك الثوب الاحمر وتلك المسماة اميلى والقاطنة بيكاديلى .

٢

كان القطار يخترق الوديان بين مناظر شائقة كانها بسمات فى فم الطبيعة ومناظر صخرية جافة كانها غضون فى جبين غاضب . وكانت افاعى الانهار الفضية آونة تنساب فى الوديان

وشيب الجليد الناصع يجلل تارة هامات القلل والذرى الشاهقات وفى اثناء ذلك كانت احدى مركبات القطار تقل زوجاً من البشر منفردين فيها وقد شغل التأمل العميق الرجل منهما حتى صار كجثة لا حراك بها . اما المرأة فكانت فى اشد مايمكن من القلق والغيظ وكانت توجه الخطاب أثر الخطاب الى زوجها دون ان ينتبه اليها او يعطف عليها واخيرا قالت له .

ويك ماذا دهاك فصيرك غريقا فى لجة التفكير ! امامن جواب ولو تافه على ما اسوقه اليك من الخطاب ! اما من ذرة من الرحمة فى قلبك ! ويلى منك وأين كان عقلى حينما اقترنت بك ؟ أين عقلى حينما ارتضيتك قرينا لحياتى ؟ امالى نصيب من محبتك سوى السكوت والاغضاء وسوى سحبى من مكان الى آخر كأنى طرد من العفش ! كانى عبء ثقيل على الكاهل اهكذا تكون معاملة البعول لزوجاتهن ؟

فماذا دها الا سكوتاً . ولكنها لم تستطع صبراً واخذت تكيل له الكلام جزافاً قائلة .

امامن كلمة واحدة أيها الوغد ؟ قل كلمة ولو سباً . ولو لعناً . قل ماشئت على شرط ان تحرك شفتيك وان تخاطبنى فاننا منذ ذهبنا الى دييب وانت منصرف الفكر عنى وكم حاولت ان استفسرك عن هذه الخطة الجديدة وعن هذا السر الغامض فالآن اطلب منك الجواب الشافى .

فتحرك الشاب من جموده وقال لها بصوت هادىء خافت أى مادلين لا تكثرى من الجدال، افتريدين ان تعودى الى هياجك العصبى ؟ اقسمت عليك الا ما ارحت نفسك وارحتينى معك فانى مضطرب الفكر ضائع الحواس .

ولبث القطار ينهب الارض نهباً ويذهب فى طريقه شرقا وغربا حتى بلغ باريس فقالت السيدة لزوجها انى سأخذ هذه الجعبة واسرع بالذهاب الى شارع استردام حيث تجدنى هنا فى انتظارك .

فقال لها . انك لتحسنين صنعاً فان فى هذه الجعبة زجاجة ملاى بالعرق وأنت تدرين ان رجال الجمرك يكونون مع مثالك من السيدات الطف واسهل مما يكونون مع مثلى من الرجال .

ثم ناولها تذكرتها وانزلها من المركبة فذهبت تخترق الجموع وتتسلل من بين المزدحمين . اما هو فلبث شاخصاً اليها ولكنه تائه الفكر وكانه ما كان يريد ان يغادر القطار . وأخيراً انحدر من المركبة واراد ان يسير نحو الباب مقتفياً عن بعد أثر زوجته واذ به يرى رجلين احدهما عن يمينه وثانيهما عن شماله كلما رفع قدماً رفعا مثلها وكلما تقدم خطوة الى الامام تقدما ايضاً فلحظهما شزراً وأراد ان يسألهما عن شأنهما ومرادهما من ملازمته هذه الملازمة فهمس احدهما فى اذنه . الست بروبرس ؟

فاشار برأسه ايجابا.

فقال له الآخر . اذن اتبعنا ولا تحاول المقاومة فان فى تسليمك راحة لك ولنا وتخلصاً من ازدحام الجمهور علينا.

فبهت وذهل ثم انصرف عنهما بنظره الى زوجته التى كانت قد وصلت الى باب الخروج وسلمت تذكرتها ولم يتعرض رجال الجمرك للجعبة التى فى يدها . فظلت سائرة حتى اختفى ثوبها الاحمر بين الافواج المتدافعة .

وحينما رأى الشرطين توقفه ظنا انه يحاول الامتناع عن السير فالتصقا به وتناول كلاهما احد زراعيه تحت ابطه .

فقال لهما . هونا عليكما فما انا بعاص عن السير ولا بوجل من المسير معكما .

ثم تقدم معهما الى الافريز حيث كانت تنتظرهم مركبة ذات جواد واحد : فقال احد المفتشين الشرطين :

واين صندوقك النحاس الاصفر ؟

فقال : هذه تذكرة الطرود الواصلة معى من روان ولها اربعة ايام محفوظة فى مخزن العفش . اما يدى فانتما تريانها ليس فيهما شىء على الاطلاق .

قال المفتش الثانى : لا بأس هذا شىء يظهر فيما بعد اما الآن فالاصوب يا ديمولان ان تشعر تلفونياً بالقبض عليه وبالعودة فى القطار القائم قريبا وحتى تنتهى من تناول الطعام

واستنطاقه يجب الاهتمام بطرود العفش .

فقال ديمولان للحودى الى المخزن

وذهب الآخر بالمقبوض عليه الى المطعم فتناول پروپرس شيئاً طفيفاً من الطعام ثم سئل عن اسمه وعما يحترف به وعن كل ماله علاقة بسيره ومنزلته فى الهيئة الاجتماعية فاجاب اجابة حسنة . الا انه عند ما قال له المحقق انه مقبوض عليه لاتهامه فى الليلة الماضية بقتل لمرأة التى نزل معها بفندق (النوتى السكسونى) والتى قيدت اسمها فى الدفتر « مادلين هوبورح » رفع هذا الفتى الخائر يده الى ربطة الرقبة فعدلها وقال بصوت صادق اللهجة -- او بلهجة دقيقة التصنع والاحكام :

انى ياسيدى لست ادرى كيف قتلت المرأة التى نزلت معى فى فندق « النوتى السكسونى . مساء السبت الماضى والتى سافرت معى فى قطار الساعه ٨ و ٢٨ دقيقه والتى نزلت معى محطة سان لازار . والتى لولا انهم القوا القبض على بمنتهى السرعة والتحفظ لجاءت على اثرى هذه السيدة التى هى امرأتى والتى سبقتنى ببضع خطوات ولكان لهذا الطارىء الفجائى تأثير عجيب فى نفسها . فحدق الحاكم فى وجه الشرطى وحدق هذا فى وجه الحاكم فقال المحقق . ان جوابك هذ لا ينطبق على الحقيقة وعلى ما حدث فى المحطة نفسها . واذا كان الامر كذلك فلماذا لم تشر اليه بل لماذا لم تذكره صرحة وانت فى

رصف المحطة ؟ فقال پروپرس . اذا كانت فى الامر تبعة ناجمة عن عدم الافصاح بهذه الحقيقة فهى واقعة على الشرطى الذى كان مع هذا السيد والذى قال لى هـذه الجملة . . . لا تحاول المقاومة فان فى تسليمك فائدة لك ولنا . . ،

فتبادل المحقق والشرطى من حيث نظرات الاستفهام ثم قال المحقق : دعك من هذا فلو ان لك مثل هذا الدليل القاطع لاظهرت على الفور بدون تمحل او اعتذار . فقال پروپرس . هل لك ياسيدى أن تفتح المحفظة التى امامك لترى فيها صورتين لزوجتى أخذتا فى برسكونه والحمراء اللتين قضينا زوجتى وانا فيهما شهرين نزاول التمثيل .قال المحقق : صورتين لمادلين هوبرج ؟ قال پروپرس : كلا بل صورتين لمادلين پروپرس التى اقترنت بها اقترانا شرعياً فى بلدية القسم العشرين وانك لتجد العقد بين اوراقى الكائنة فى أحد الثلاثة طرود . . . فقاطع المحقق عليه الحديث قائلا : لا تزد فى هذا الصدد فان القانون لا يجيز لى ان آتى شيئاً من ذلك بدون ان يوجد معك المدافع عنك ولا أن أزيد فى السوءال عن الصيغة المقررة لمثل هذه الحال . وانما امام محقق دييب تستطيع ان توضح كل ادلتك وتبرز جميع مستنداتك .

ثم سلم المحقق الصورتين لمفتش الشرطة ودعا پروپرس الى التوقيع على محضر الاستجواب الشفهى . ثم اصدر أمره

باخذ السجين الى محطة سان لزار ومن هناك يصير تسفيره فى الحال الى محل الجنايه فى اكسبريس الساعه ١ والدقيقه ٢٥

***

ركب مفتش الشرطة وپروپرس مركبة قصدت بهما المحطة وفى اثناء الطريق كان المفتش يستقرأ خفايا المتهم من ملامح وجهه ومن جلسته وحركاته . فلم يتبين منه شيئاً يدل على الاجرام بل رأى فيه شابا مهذبا بعيداً عن اقتراف أى اثام فدارت بينهما محادثة طويلة كان مفتش الشرطة فى خلالها تتلاعب به الهواجس فتارة يعتقد فى المتهم البراءة وآونة يتخيله ماهراً فى تمثيل دور البرىء . ولما بلغت المركبة المحطة ونزل منها هذان الشخصان لاحظ مفتش الشرطة ان حالة المتهم تغيرت تغيراً تاماً فبعد سكونه وعدم مبالاته اضطرب واصفر وجهه واخذ يتلفت يمنة و يسرة فزالت من قلب الشرطى كل خلجة من حسن الظن فيه وأيقن أنه جان بدون ريب . وفيما هما كذلك قدم الشرطى الثانى المسمى ديمولان وهو الذى كان مكلفا بحراسة الطرود واعادة تصديرها الى دييب فسأله زميله فليرى . ماذا صنعت ؟ وهل من شىء جديد ؟ فقال ديمولان لقد وجدت هذا السيد صادقا فى مقاله لان طروده وصلت من روان من أربعة أيام . على أنى لم اعبأ بذلك وصدرتها الى دييب . ولكن عندى نبأ جديد . قال فليرى وما ذاك ؟ قال

ديمولان . أمر آخر بالقبض . قال فليرى . على امرأة لابسة ثوبا أحمر وفى يدها صندوق من النحاس الاصفر واسمها مادلين پروپرس ومهنتها ممثلة مضحكة . أليس كذلك ؛ قال ديمولان لقد اصبت الصدر واخطأت العجز لان المتهمة اسمها مادلين هو بورج ومهنتها معلمة . قال فليرى . قد يخطىء الشرطى فى بعض النقط العرضية اما فى النقط الجوهرية فان طول تجاربه وميزته الخصوصية تمنعانه من الخطأ فى واحدة منها . والمهم فى هذا النبأ الجديد ان نقبض على امرأة تلبس ثوبا احمر وفى يدها صندوق من النحاس الاصفر فليت الامرين صدرا فى آن واحد حتى كنا لا نفارق بعضنا فى هذه السفرة . فقال ديمولان لپروپرس هل لك أيها السيد ان تدلنا على مسكن حليلتك لنستطيع ان نهتدى اليها بسهولة ؟ فاجاب پروپرس . هيهات فانكما بقبضكما علىّ دون ان اتمكن من رؤيتها ودون ان تلم بشىء مما حدث لى اصبح من المستحيل علىّ ان اعلم أين هى الآن . فقال فليرى لا يهمنا ارشادك او انكارك فان الاهتداء على زوجتك من شؤوننا وستعرف كيف نتوفق الى القبض عليها ثم قال لديمولان . اذن انت ستقوم بهذا الامر ايها الزميل بينما أوصل انا هذا الجانى ثم اخرج من جيبه صورة مادلين پروپرس وأراها زميله فتفرس فيها ديمولان وقال لزميله . لا تحمل هما لهذه المسألة والان فالى الملتقى القريب

وفيما كان الشرطى فليرى مشغولا باصعاد پروپرس الى احدى مركبات القطار قال له پروپرس اذا كنت رجلا اعتياديا ولم تسكن من الشرط . واذا كنت تنظر الى الاشياء بعين البصيرة وتعللها تعليل الحكيم كما يفعل الانسان لا كما يفعل الشرطى اما كنت تحكم ببراءتى لاول وهلة وكنت تطلق سراحى فصاح الشرطى . وعلى أية قاعدة افعل ذلك

فقال پروپرس الست ترى هذا التخبط المضحك بل هذا التناقض الهائل . ولو كنت لا احترم او على الاقل لا اخاف القضاء لكنت اقول بل العبث المخجل الفاضح . اذ كيف يتفق ان يصدر امران متناقضان تناقضاً تاماً احدهما بالقاء القبض علىّ بصفتى قاتلا مادلين هو بورج . والثانى بالقبض على مادلين هو بورج بنفسها ومن العبث ان لايكون الانسان منطيقا فيزن كل شىء يقع تحت تصوره بميزان العقل . وانت ترى اننى لو كنت قتلت مادلين هو بورج . لما وسعك ان تقبض عليها . واذا استطعت ان تقبض عليها لما صرت قاتلا لها !.

فحرك الشرطى حاجبيه وهز كتفيه ثم اغلق باب المركبة . وصفر احد عمال المصلحة بصفارة من النيكل كانت فى يده فتحرك القطار وحينئذ رفع الشرطى ساعده فى الهواء وقال . المنطق !. المنطق !. يالها من كلمة غريبة ! ومادخل هذا المنطق يا ترى بل مادخل وزن الاشياء او قياسها او عدها فى شؤون

الامن العام !. فلو كان من الواجب على أمثالنا ان يكونوامناطقة مثل حضرتكم ياسيدى المتهم المنطبق لما نفذوا الاوامر التى تصدر اليهم ولا استطاع كل سجين وزان قوال مثل حضرتكم ان يقرعنا على أمهات نواصينا بحججه البليغة ويفلت بفضل زلاقة لسانه وقوة جنانه من ايدينا !.

٣

اتفاق موجهى التهم مع الدفاع فى بعض النقط

كان ميدان بوى سالية الصغير الضيق ملتقى تقاطع شوارع اربعة وهو الميدان الوحيد الذى كان يوجد فيه كل ما يسر الناظر ويدعو الى الاهتمام بما فى هذه البلدة الصغيرة من الاشياء التافهة . وكان فى هذا الميدان منتدى يدعى « قهوة المحاكم » وفى هذه القهوة كان رئيس النيابة برسيفان يتناول قهوته كل يوم وفى هذا اليوم نفسه ذهب كعادته اليها . وما كاد يجلس لتناول القهوة حتى غص المكان برجال لابسى الردنجوت احتاطوا به . وهؤلاء الرجال هم طائفة المحامين . وانما اجتمعوا حول رئيس النيابه ليشتركوا معه فى انتظار المتهم لان كلا منهم كان يحاول ان يتولى الدفاع عنه ليظهر براعته فى المحاماة وتمكنه من حل المشكلات وتطلعه فى القوانين وذلاقة لسانه وحسن بيانه. ولا يخفى ما وراء انتصار احد المحامين فى مثل هذه القضية المعضلة من الاشتهار واجتذاب الانظار . وأما قاضى التحقيق

فاذا لم تكن له عادة فى الجلوس بالمنتديات العمومية لبث فى مكتبه ينتظر قدوم الجانى على احر من الجمر . ورأى الكاتب ان لا يضيع الوقت سدى فخف الى حيث يجلس رئيس النيابة ليساعده فى عمله الشاق وهو الانتظار . وبعد الساعة الثانية خف رئيس النيابة الى مكتب المحقق وما كاد يتجاوز اسكفة الباب حتى قال له المحقق : افتدرى ماذا صنعت فى هذه الاثناء

قال الرئيس : وما عساك صنعت ؟ قال القاضى : لقد اختمرت في رأسى فكرة ولدها اتفاق مدير الفندق وخادماه وعامل السكردان على شعر تلك المرأة ذات الثوب الاحمر فاصدرت امراً تلفونياً الى باريس بالقبض على هذه المرأة

قال الرئيس : وهل نهضت ازاء بصرك ادلة حديثة على اشتراك هذه المرأة فى الجناية ؟ . قال القاضى : لم يتحقق لى شىء من ذلك ولكنى رأيت ان افعل هذا من باب الاحتياط وليس فيه من ضرر اذا لم تثبت عليها التهمة قال الرئيس لست من رأيك فى هذا الموضوع . قال القاضى فليكن ولكنى فعلت ما لاح لى انه مفيد . وفيما هما يتحاوران دخل الحاجب قائلا ان الحكيم بوسان قد حضر وفى صحبته .. فقاطعه القاضى قائلا ليدخلا على عجل

ودخل الطبيب الشرعى ومعه رجل مكتس ثيابا سودا وعلى وجهه سيما الابهة . فسلم على الحكام بصوت مختنق يشف عن حزن عميق وعن دموع تحدرت من مقلتيه قبل مثوله بين

أيديهم

فقدم المسيو ماراتون كرسيا اليه والقى عليه عدة اسئلة فجلس الرجل واجاب على الاسئلة الموجهة اليه وهو يمسح بقايا الدموع من محجريه بمنديله

وحينما اخذوه الى محل الجثة ورأى الثوب وكيس النقود والمحفظة ولمس يديها تبين انها أخته لان كل هذه الاشياء تدل عليها دلالة واضحة غير انه كان يعرفها اكثر لو ان الرأس كان موجوداً .

فقد كان فى خدها الايسر تحت العين بقليل خال بديع يزيد سماء وجهها بهجة وجمالا .

و بعد ان قرر انها هى اخته اخذ يسرد على قاضى التحقيق تاريخ حياتهما ذاكرا انهما عاشا عيشة مرضية فى ضاحية مونتومالاد بمدينة روان بعد وفاة والديهما وان اخته كانت تزاول تعليم اللغتين الفرنسية والانجليزية .

وانه كان يوقع النغمات المؤثرة على الكمنجا

وانه قد مضى مدة فى دار التمثيل « ليريك » ولكنه حينما آنس من الناس انصرافا عن الموسيقى الحقيقية الفنية الموروثة عن أساتذة الفن فى سائر بلاد العالم الى الموسيقى المشوشة المجونية غادر دار التمثيل وانقطع مع أخته فى تلك الضاحية ولم يعد بعدها الى التوقيع على الكمنجا الا لنفسه خاصة والا لاخته

العزيزة التى كان يحبها حبه الموسيقى أو أكثر بل التى كان يتعبدها تعبد الناسك الورع لله وللتقوى . وأخيراً طرأ على أخلاقها الهادئة الجميلة شيء من الانفعال النفسانى فكانت تضيق صدراً وتغضب وتهتاج وتأتى بأمور واقوال لم تكن تصدر من قبل عنها . حتى انها فى نهاية الامر عمدت الى شيء لا يرضيه ولم يوافق عليه البتة وهو السفر الى انجلترا لقبول وظيفة تعليمية فى وسط اسرة كبيرة . ومع انه لم يدخله ادنى ريب فى طهارتها وفى امكانها حفظ نفسها من كل عبث وتضليل فقد خشى عليها الوحدة فى الغربة وصار يتوقع من جهتها ما بين آن وآخر مالا يود ومالا يتحمل سماعه . وقبل سفرها استشرت طبيب الضاحية فى علتها فقال انها مصابة بمرض عصبى شديد الوطأة وان الرياضة الخلوية والملاهى المسرية عن النفس قد تفيدها فائده محمودة . فكنا نخرج كل يوم فنطوف الحقول والربوات ونجتاز الانهر والغدران وحيدين نتنسم الهواء العليل ونستاف شذى الازاهر ونجنى الورود من فروعها ونلهو ونلعب ونتغنى ونطرب . ولكن العلة لم تكن الا لتزيد على توالى الايام والليالى . وانها فى الاسبوع المتقدم على يوم سفرها بلغت العلة منها مبلغاً هائلا وكانت تنطلق كل يوم الى المدينة ولا تعود الا قبيل الغروب وهى فى أشد مايكون من المرض . ثم ذكرت له أمر الوظيفة فأخذ ينصحها بالعدول ويريها مايعترضها من الاخطار والمخاوف

فما انتصحت له وحاول ان يمنعها عنوة ولكنه حين آنس منها الجموح المتناهي خاف ان تؤدى المقاومة الى مالاتحمد عقباه فسلم لها بالسفر مكرها وأوصاها بنفسها خيراً • ثم قال • ولقد تجرى علىّ التهمة بانى عرضتها للمخاطر ولكن التبعة واقعة فى الحقيقة على صاحبتها •

فقال المحقق • اتريد بهذه الصاحبة اميلى ؟

قال هو بورج • أجل اميلى ياسيدى

قال المحقق اميلى التى تقطن بيكاديلى ؟

قال هو بورج • لست ادرى اين تقطن بل ولا ادرى فى اية اسرة تقيم اختى • وكان يجب عليها ان تشعرنى بذلك حال وصولها لوندرة قال المحقق • ماهذا الذى تزعم ؟ افكنت تريد من سرد تاريخ حياتك كله استدراجى الى هذه النقطة الى هذه المحاولة ؟ ثم غير لهجة صوته فمزجه بالحدة وقال مرض عصبى ! مرض عصبى ! ان هذا المرض لادخل له بالمرة فى التحقيق وان استدعاء اميلى يجعل المسألة سهلة الحل • وهل يعرف اميلى ؟

قال هو بورج . لى الآن نحو عشر سنوات لم ارها . ولقد كانت اذ ذاك طفلة لعوب . واست ادرى اذا قابلتها اليوم استطع ان اعرفها من اول وهلة ام لا . على ان اسم اسرتها شهير •

فقال المحقق . وهل لك ان تذكر لنا اسم اسرتها ؟

فقال مكسيم . نعم فاسمها . دى . ديبوا . ديراند . كلا . ديبون • ثم اخذ يجهد قريحته فى تذكر الاسم واخيراً قال . لست ادرى كيف ان هذا الاسم ضاع من ذاكرتى !

فقال المحقق . كنا نعول عليك ولكننى لست ارى منك الآن ما يزيد التحقيق وضوحا ثم سكت القاضى هنيهة وعاد بعدها الى سوءال مكسيم هو بورج قائلا . اسمح لى ان اسألك ان كنت تعرف شيئاً عن علاقات اختك . قال مكسيم . ارجوك ياسيدى القاضى ان تكف عن هذا السوءال فان اختى كانت شريفة طاهرة

قال المحقق . لست اقدح فى طهارة اختك ولست اجهل حقك فى الغيرة عليها ولكن الظروف تقضى على بعرض مثل هذا السوءال عليك

ثم اخذ المحقق يشرح له كيف جاءت اخته الى الفندق وكيف قدم على اثارها رجل غريب ونزل فى الغرفة المجاورة وكافة التفاصيل الاخرى الى منتهى الجناية . وسأله بعد ذلك اذا كان يعرف شخصاً يدعى برو برس ووظيفته ممثل مضحك

فاجاب مكسيم . بالنفى المطلق الا انه تذكر ان اخته كانت قبل سفرها بايام قلائل تسائله عن التمثيل المضحك وعن مقدرة الممثلين المضحكين بالحاف شديد .

و بعد ان استوفى المحقق المعلومات اللازمة من مكسيم نظر الى الساعة فوجدها الرابعة فقال له .

ان القاتل سيكون فى مكتبى الساعة ٤ و ٤٥ دقيقة فلم يبق على ميعاده الا القليل فهل لك ان تنصرف الآن ريثما اجرى شوءونى مع المتهم ثم تعود الى بعد ذلك .

* * *

وفى الميعاد المحدد كان سكان دييب جميعهم تقريباً متكاثفين امام المحطة .

اما المتهم فقد اخذ به من جهة مخزن العفش ونقل على مركبة نقل يحرسها فارسان الى دار المحكمة .

وعند ماوقع نظر المحقق على المتهم بكى من شدة السرور بعثوره بالقاتل فى نفس يوم الجناية .

وان كانت الطرود التى اعيدت من باريس وصلت مع صاحبها فى قطار واحد فقد امر المحقق بفتحها فى جلسة سرية ولم يجد بها سوى ملابس رجال ونساء وصورة شاب وضع يده فى يد فتاة وهما برو برس وزوجته . فقال المحقق .

قبل ان نفتتح التحقيق اترك اليك الخيار فى انتخابك محام يدافع عنك فاظهر مكسيم عدم الرغبة فى ذلك. فالح عليه المحقق وعرض على نظره جدول اسماء المحامين فاشار مكسيم على اول اسم فى الجدول وهو المسيو اوبان الذى انما انتخبه

المصادفة فى الحقيقة لا المتهم .

فلم يمض سوى قليـل حتى كان الخبر قدنمى الى المحامى فخف طروبا مسرورا . فلما اصبح امام المحقق والمتهـم قال له القاضى . هل لك ان تخلو بموكلك ؟

فقال برو برس موجها قوله للمحامى . انى اشكرك ياسيدى على تصديك للدفاع عنى ولـكنى لا ارى من حاجـة الى قوة عارضتك .

ثم وجه الخطاب الى المحقق قائلا . واخـيراً اقول لك ياسيدى القاضى انى برىء براءة تامة وضميرى مرتاح لما اقول ولا يهمنى بعد ذلك ماسيصيبنى من خير او شر وكن على علم انى سألزم الصمت المطلق فلا احد ولا شىء فى العالم يستطيع ان يحرك لسانى بعد الآن بغير اختيارى

ثم القى نفسه فى كرسى امامه ولزم السـكون التام وطبق جفونه . فأمر القاضى بتلاوة محضر التحقيق عليه فتلاه الكاتب دون ان يفتح برو برس جفونه . ثم قال له المحقق .

ماعساك تقول بعد كل هذه الشهادات ؟

فبدلا من ان يلزم الصمت كما وعد قال . الرغم عن وعدى السابق اتكلم فأقول اننى وحدى اعلم بالحقيقة ولكنى لا اريد افضى بها الى احد .

قال المحقق سنواجهك باخ القتيلة المسيو مكسيم هو بورج

لنرى كيف يكون تأثير تقابلكما على التحقيق .

فقال بروبرس . لاتفعل ذلك ايها القاضى .

فأمر القاضى الحاجب ان يستقدم مكسيم

فلما التقى بروبرس بمكسيم اكتأب كلاهما ولم يدر ماذا يقول غير ان مكسيم تجرأ اخيراً وقال لبروبرس .

الا تريد ياسيدى ان تقول الحقيقة عن مقتل اختى ؟

فلم يجبه بروبرس الا بأن اخرج صورة من محضر القضية وقدمها لاخ القتيلة مستفهما منه ان كان يعرف صاحبتها

فصاح مكسيم قائلا ، هذه ايها القاضى اختى ماديلين وهذا خالها القريب من عينها

فقال بروبرس . اذن فادر الصورة واقرأ مافى الوجه الاخر . فأدار مكسيم الصورة واذابها مأخوذه فى برشلونه عند المصور ميجيل ... فصاح . ان اختى لم تذهب قط الى برشلونه

فقال بروبرس وهل ذهبت اختك مرة ما الى بوردو ؟ فاجاب بالنفى . فأراه اعلاناً مطبوعاً فى بوردو وعليه صورة فصاح مكسيم انها اختى . ومع ذلك فربما لاتكون هى . فقال حينئذ بروبرس انما هذه زوجتى الشرعية ماديلين بروبرس وقد تزوجتها فى بلدية القسم العشرين من مدينة باريس فتدفق فى هذه الاونة عرق المحقق وقال .

ان هذه القضية وصلت الى نقطة الاشكال فلنسر فيها

بتؤدة وفى الغد نرى ماسيجد من الامور .

ثم امر بأخذ بروبرس الى الحبس فقال هذا .

اقسم انى برىء مما تتهمون .

فتلاقى نظره بنظر مكسيم واظهر كلاهما حنواً وانعطافا على الاخر وقال مكسيم وهو يمد يده لبروبرس

انى اصدقك واوافق على قولك

فقال القاضى منتهرا : قفا عند حدكما فقد تجاوزتما الواجب فما اخالكما الا ستتعانقان امامى !

وخرج بروبرس محفوظاً بجنديين . وكذلك خرج مكسيم مع الطبيب بوسان .

وبعد خروجهما اخذ المحقق يسائل رئيس النيابة رأيه فى هذا الاشكال الحديث . فلم يحر الرئيس جوابا . فتقدم فى هذه الآونة الشرطى فليرى الذى كان مهملا الى هذه الساعة وقال : اذا سمح لى سيدى القاضى قلت كلمة .

فاذن له المحقق بالكلام فقال الشرطى :

ارى ياسيدى ان هذه القضية تحتوى على امرأتين متماثلتين وهذه هى النقطة المعضلة . فاذا لم يجر التحقيق فى مجرى التدقيق ربما اخذ البرىء بجريرة المجرم .

فشكره القاضى وصرفه بلطف وسقط فى حيرة شديدة .

٥

مادلين

خرج الشرطى ديمولان من محطة سان لازار وفى احدى يديه صورة مادلين وفى الاخرى الامر التليفونى الصادر من محقق دييب و بدأ يخترق الشوارع لا يدرى ايها يقصد ولا ما الذى سيصنع فيها .

وفى الحقيقة ماذا يصنع شرطى امر بالقبض على امراة تلبس ثوبا احمر وتدعى مادلين هو بورج ؟ وفى اية جهة يمكنه العثور بها وممن يمكنه السوءال عنها ؟ باريس مدينة واسعة الارجاء فيها مئات الالوف ممن يسمين مادلين وفيها مثل هذا العدد ممن يلبس الثياب الحمر . في مثل هذه الحالة لا يتأتى للشرطى ان يرتكن كثيراً على ذكائه وهمته وانما ينتظر المصادفات التى قد تهديه فى اقرب وقت الى طلبته وقد تقف بينه وبين طلابه وقوفا ابديا

سار ديمولان يضرب فى الشوارع والاحياء على غير هدى حتى عرض له اخيراً خاطر رأى ان يعمد اليه وان لم يكن من ورائه طائل . تذكر ديمولان انه بين بوابة سان دينيز

و بوابة سان مارتان توجد قهوة شهيرة تسمى « العنابه » وفى هذه القهوة يجتمع ارباب الحرف التمثيلية من ممثلين ومطربين وعازفين على الآلات واليها يهرع ارباب هذه الحرف من أقاصى البلاد للبحث عن اشغال يتعيشون منها

فرأى ديمولان ان يقصد هذه القهوة لعله يجد فيها زوجة الممثل المضحك برو برس .

*

اما مادلين برو برس فانها قصدت بعد الانتظار الطويل فى شارع امستردام بعض صويحباتها وقصت عليهن سيرتها وما لاقته هى وزوجها اثناء اسفارهما وما عاملها به فى آخر الامر من الفتور حتى انه عند بلوغهما باريس كلفها بالتقدم بالصندوق ثم اختفى عن نظرها وهى تظنه مقتفياً أثرها وتوعدته بالعراك بل بالانفصال منه اذا لم يقدم حسابه بالتدقيق ولم يتنصل من تبعة هذه المعاملة الجائرة . ثم عرضت على صويحباتها ان يذهبن معها الى قهوة « العنابة » وهى التى تتعهد بكافة النفقات التى تتقاضاها هذه النزهة البسيطة فقبلن وقمن معها . وما كادت مادلين تضع قدمها فى قهوة العنابة حتى تهافت عليه كل من يعرفها من رجل وامرأة واخذت هذه توسعها تقبيلا وذلك يقبض على يدها مسلما سلاماً طويلا وتلك تضرب بقبضة اليد فى كتفها مداعبة وذلك يجتذبها من ساعدها مازحا . وما استقر

قرارها بعد التسليم وتقبل عبارات الترحيب حتى اخترقت صماخ سمعها اصوات باعة الصحف منادين « جريدة الوطن الطبعة الثالثة . حادث هائل . جناية مزعجة فى دييب . القبض على القاتل ! » فارتجفت مادلين على غير ارادتها وراحلتها الهواجس والظنون بالظن لتأخر زوجها وعمدت الى نسخة من الصحف المنادى عليها لتقف على نبأ هذه الحادثة .

وكان الى جانب المائدة الجالسة حولها مادلين ورفيقاتها مائدة أخرى جالس أمامها شرطى ملكى يقرأ فى صحيفة مصورة والقراء لا يخفى عليهم ان هذا الشرطى انما كان ديمولان الذى ساقته المصادفات والامل الضعيف الى هذه القهوة . فلما شعر ديمولان بحركة الاضطراب التى حدثت حول المائدة المجاورة له رفع بصره ليرى مادا حدث فرأى مادلين مضطربة ذاهلة فاسرع باخراج الصورة التى فى جيبه ونظرها ثم تأمل مادلين فتحقق انه قد وفق الى ما ينشده ولكنه رأى ان ينتظر مبارحتها القهوة ليجرى شؤونه وظل لابثاً فى مكانه حتى انمت مادلين تعاطى ثلاثة اكواب من الابسنت ثم همت بالمسير الى ضاحية سان فينيز فتبعها ديمولان حتى رأى مركبة مقبلة بالقرب من الرصيف الذى تسير عليه ماديلين فاشار الى الحوذى بالوقوف فوقف ازاء ماديلين تماماً ووثب الشرطى الى الفتاة رافعاً قبعته وقائلا .

لتتفضل السيدة بتبوء هذه المركبة معى لتوصيلها الى محطة سان لازار حيث ينتظرنا هناك المضحك بروبرس . وكان تأثير الابسنت قد بدأ يستولى على عقلها فلم تجب بسوى الركوب .

ولما وصلت المحطة سألها شرطى آخر كان هنالك عن الصندوق وافهمها ان زوجها الآن فى دييب امام قاضى التحقيق وانها ستلحق به عن قريب فخير لها ان تظهر الصندوق النحاس الاصفر .

فقالت له وهى ثملة . ويل لهم ايقاضونه على لترمن العرق فكيف به اذا كان من الكونياك انهم اذن كانوا يقطعون رأسه ويطوفون به عبرة لسواه .

ولما علم الشرطيان انها لاتبوح بموضع الصندوق رأيا ان لا يعلماها بجريمة زوجها واوصى ديمولان زميله الجديد دييدونيه بالبحث عن الصندوق واحضاره فى الحال الى دييب

*

ولنرجع الى مركز التحقيق فى دييب حيث نرى ان المحقق لم يبت ليلته ساهراً مفكراً ينتابه الغيظ ويساوره الخجل لعجزه عن اظهار القاتل ولنهوض الادلة التى كان يرجح بها ايجاد الفاعل الحقيقى ضده واذ كان لابد لكل عامل او ذى يد فى هذه القضية ان يمضى شطراً كبيراً من ليله فى البحث والتفكير فقد كان نصيب الشرطى فليرى من هذا الامر اكثر

من غيره لانه رأى ان المحقق قليل الخبرة وانه يعوم فى بحر الوهم ولا يمكنه ان يصل الى شاطىء الحقيقة فأخذ هو من جهته يقابل المسيو بييد صاحب فندق « الهوتى السكسونى » وخادماه وعامل سكردان المحطة وصاحب الصيدلية الموجودة فى ساحة البلدة و يستطلع افكارهم و يلقى عليهم الاسئلة تلو الاسئلة . وانضم اليه الحكيم بوسان ومكسيم هو بورج . وكان هذا الاخير يرى ان اخته ربما كانت قد جاءت هذه البلدة لعلها بوجود المصحات برو برس فيها وانها كانت تحبه وانها ربما كان لها يد فى مقتلها فافهمه الحكيم بوسان ان هذه الفكرة ربما تكون سبباً فى توجيه التهمة اليه نفسه ورجاه ان يعدل عنها بالمرة

*

ما كادت تصل الاشارة التلفونية المؤذنة بالقبض على مادلين الى دييب حتى كان لها تأثير على الجميع . فالقاضى مانور كان يؤمل فى حضورها الاهتداء على مقترف او مقترفى الجناية ورئيس النيابة كان يرى فى حضورها قيام اشكال حديث . والحكيم بوسان كان يريد ان يرى هذه المرأة التى تشبه اخت صاحبه . ومكسيم هو بورج كان مشوقاً الى رؤية اخته . والشرطى فليرى كان يرجو من وراء قدومها انقشاع سحب الشك من مخيلة المحقق وظهور نور جديد فى ظلمة التحقيق المبهم .

وما ازفت الساعة المنتظرة حتى كان الجميع على افريز المحطة يرقبون وصول القطار . ولم تمض الا دقائق حتى وافى القطار ونزل الشرطى ديمولان ومادلين بثوبها الاحمر .

فنظر المحقق الى مكسيم هو بورج الذى لم يكد يرى هذه السيدة حتى حسبها اخته فهرع فى الحال اليها مادا ذراعيه ليتلاقاها بصدر رحب قائلا :

الى الى يامادلين . الى يااختى العزيزة .

اما هى فنظرت الى هذا الذى يناديها وتصفحت وجهه فلم تعرفه فاشاحت بوجهها عنه قائلة :

ما لهذا الرجل يناديني باخته وانا لا اعرفه قبل اليوم . لعله مخبول .

فتحقق مكسيم انها ليست اخته فخجل وحزن الطبيب بوسان وكاد المحقق يصعق وابتسم رئيس النيابة . ثم امر المحقق باخذها على الفور الى السجن لتبيت فيه .

*

خرج المحقق ورئيس النيابة والشرطى فليرى من افريز المحطة وبقى فيها مكسيم هو بورج فى أشد حاله من الاسى والخور والطبيب بوسان يعالجه ويسكن آلام نفسه .

وسار الثلاثة الاول فى شارع الرصيف البحرى وكلهم فى تفكير عميق . و بعد قليل وضع المحقق يده على كتف فليرى

وسأله اذا كان على جانب من الهمة العظيمة التى اظهرها رفيقه ديمولان فى القبض على ماديلين فى نصف يوم فى مدينة شاسعة الاطراف مثل باريس فيمكنه ان يضم الى نفسه فخراً جديداً بالقبض على من تسمى اميلى التى تقطن بيكاديلى فى لوندره ولما قبل فليرى القيام بهذا الامر . فهمه المحقق انه يستطيع ان يبحر فى نفس هذه الليلة على الباخرة التى ستقوم الى نيوهافن . فرأى رئيس النيابة ارجاء سفره الى الغد اذ ربما يظهر التحقيق الجديد خفايا تغنى عن القبض على اميلى . فافاد المحقق ان امله ضعيف فى استنتاج ادنى فائدة من استجواب ماديلين . بل اعترافها سيزيد المشكل تعقداً

ثم عرض على ماديلين ان تتخير لها محامياً فبعد الالحاف الشديد وقع انتخابها بطريق المصادفة على آخر اسم فى جدول المحامين وهو المسيو وك .

٥

الرأس والدليل

فى الساعة العاشرة ونصف من صبيحة اليوم التالى ليوم الواقعة اقترب رئيس النيابه من حاجب المحقق وسأله اذا كان القاضى قد جاء فى مكتبه . فأفاده الحاجب بانه موجود فيه من الساعة السابعة وربع صباحاً . فدخل رئيس النيابة المكتب فحين رآه المحقق قال .

اتجىء الآن يابرسيفان ؟

فاجاب الرئيس . واية حاجة لك فى حضورى ؟

قال المحقق . الا تدرى ان رأيين افضل بالتأكيد من رأى واحد . ولقد مضيت من حياتى خمسا وخمسين سنة وعانيت كثيراً من تجاريب الحياة ولكنى ما ابتليت بمثل هذه الاربعة والعشرين ساعة .

فسأله رئيس النيابة عما اذا كان قد تقدم فى التحقيق خطوات واسعة فأجاب المحقق بالاشارة الى اربعة ابواب محيطة بقاعة وقال . وراء الباب الاول بروبرس ومحاميه ووراء الثانى ماديلين ومحاميها . ووراء الثالث الحكيم بوسان وصاحبه هو بورج الذى لم يفارقه دقيقة واحدة ولم يذهب لاجراء الكشف الطبى على الجثة كما يقضى بذلك واجبه . ووراء الرابع الشرطيان فليرى وديمولان اللذان امتنعا بتاتاً عن الذهاب الى لوندره . ومنذ الساعة الثامنة الى الان وانا فى تحقيق معهم ما بين اثبات ومحو ثم امر بادخال الحكيم وهو بورج والشرطيان وماديلين واشار الى الجميع بالجلوس حول مكتبته . وبعد ان استقر بهم القرار قال لماديلين .

هل لك ان تعيدى على سمع الرئيس ماعاينته ليلة الجنابة؟

فابتسم جميع الحاضرين خفية وتغامزوا . فقالت ذات الثوب الاحمر . مرة اخرى

وقال المسيو والك المحامى عنها . مرة اخرى

فقال المحقق . نعم مرة اخرى . وارجوك ان توضحى نقطة الخلف الحاصل بين الغرفتين رقم ١٣ ورقم ١٤ فانه عقدة الاشكال وعلى عترافك يتوقف الحل .

فقالت . لقد اوضحت لك من قبل انى لا اعرف شيئا فى هذا الصوت وانت نزعم ان بروبرس كان يعرف امرأة أخرى تشبهنى شكلا . اما انا فلا اريد ان اجادل فى هذا . فليكن وليكن بروبرس غبيا وواهما وليكن كما تشاء ولكن الذى لا اصدقه ولا اريد ن اسمعه عنه هو ان يكون قاتلا . وانى ازاء هذه التهمة الباطلة الشنيعة ادافع عنه بكل جوارحى والى آخر نسمة من حياته . وهذا هو السبب فى كتمانى امر الصندوق

فقال لها المحقق افتخافين اذن ؟

فأجابته . انى لا اخشى شيئا . ولكنى اسر بان اضللكم واغيظكم . آه لو كنتم تعلمون مايحتويه ذلك الصندوق ....

فقال المسيو برسافان . ليس هذا من السؤال الموجه اليك فى شىء وانما نريد ان نعرف ماحصل فى الغرفتين ١٣ و١٤ فلماذا لاتجيبين ؟ فأجابت لانى لا اعلم شيئاً عن ذلك . ياللعجب ابروبرس الذى تركته على اهبة ان يحلق شعرات ذقنه .

فقال الحكيم بوسان مضطربا بموسى ؟

فأجابت . وهل حسبته يحلق بزجاجة ؟ وعند ماعدت

من تناول قدح من الراح قال لى بروبرس ان سائحا ..

فصاح المحقق . افك وبهتان فان المسيو بيبد يؤكد ان لم يكن فى الفندق احد من السائحين فى تلك الليلة غيركم انتم الثلاثة ..

فقالت مادلين . انى واثقة من وجود شىء يوضح الاشكال فآه لو ان هذا الاحمق بروبرس يتكلم لثبت للملأ براءته كما يثبت الحاسب ان اثنين فى اثنين ينتجان اربعة

فقال مكسيم هوبورج بصوت خافت . افتعتقدين انت الاخرى ايتها السيدة ببراءة بروبرس ؟

فأجابت . نعم . من ذا الذى لايعتقد بها بين الحاضرين وهنا دعا المحقق المتهم فجىء به . فقالت له زوجته .

لماذا لا تتكلم ايها الابله الذى يظل يحلم بتاج التمثيل المضحك ؟ لماذا لاتدافع عن نفسك ولا تظهر ماتعرفه من الحقائق

وقال مكسيم . تكلم ياسيدى . بل ماتعرف فى هذا الامر واعقبه المحقق قائلا . لست ادرى لماذا لايريد التكلم

فقال حينئذ بروبرس بتباطىء . اتقول لماذا لا اريد ؟ بل قل لماذا لا استطيع :

فقالت له مادلين . ولماذا لاتتكلم ايها الابله اذا كنت تعلم انى لا اصدق شيئا مما يتهمونك به لا حينما يظهر الدليل القاطع امام نظرى .

فقال المحقق مدهوشا • واى دليل تعنين !

فقالت مادیلین لبعلها • الم تقل لی عن الراس المقطوع انه بتر من الوريد ؟

فقال بروبرس مضطربا مروعا . لاتقولى ذلك يامادیلین لاتقولینه فانه وهم باطل وماهو بدليل على شيء .

*

عندما قالت مادیلین • ومن ذا الذى لا يعتقد ببراءته بين الحاضرين »لم يجسر أحدمنهم على ان يقول «انا» وذلك لان ضمائر القوم لم تكن مطمئنة لاثبات الجناية على بروبرس . اما بعد ذكر الرأس الذى كان قد نسى فقد توجهت الظنون الى انه القاتل الحقيقى ولا سيما بعد ان رأوا اضطرابه وارتياعه وعلى اثر هذا الكلام قال المحقق .

ان هذا الاعتراف مفيداً جداً وان الحقيقة قد بدأت تتجلى علينا .

ولم يكد يتم كلامه حتى اطل الحاجب من الباب معلنا بقدوم الشرطى الثالث فأذن المحقق بادخاله وحين دخل قدم الصندوق امام المحقق فسأله هذا كيف اهتدى اليه . فقال الشرطى ديدونيه .

اذا كانت الحكمة ايها القاضى العادل رائدنا فان الاتفاق الغريب نبراسنا. ذلك انى حتى الساعة الثامنة من هذا الصباح

كنت على يأس تام من العثور بهذا الصندوق بعد ان طفت المنتديات والملاعب والفنادق والمجتمعات التى تأوى أرباب الفنون التمثيلية من مثل هذا السيد وهذه السيدة وحينما بلغت شارع امستردام بالقرب من محطة سان لازار ، عزمت على تبليغكم بالتليفون استحالة الاهتداء على الصندوق دفعنى الجوع والتعب الى الدخول فى قهوة قريبة وهممت بان اجلس على مقربة من الباب فلمحت بقرب صاحب القهوة هذا الصندوو النحاس فخفق فؤادى واسرعت الى الرجل فسألته عن صاحب الصندوق فأفادنى ان امرأة تركته على أمل ان تعود لتأخذه ولم تعد بعد فاعلمته باسمى ووظيفتى واستلمت الصندوق منه ولم يكن باقياً على قيام القطر الا دقيقة واحدة فركضت وجئت فى اسرع مايكون اليكم

فاندهش الحاضرون جميعاً وأمر المحقق بفتح الصندوق ففتح واذا فيه رأس مادیلین بخالها الاسود قرب العين اليسرى وهو ملفوف فى منديل والى جانبها موسى فقدم الشرطى الرأس ولما نظره اخ القتيلة اجهش بالبكاء وقال . هذا رأس أختى ..

فسأل المحقق بروبرس . اذا كان يعرف هذا الرأس . فأجاب بالسلب . وسأله اذا كان السلاح الذى مع الرأس سلاحه فلم يجيب

*

و بعد قليل وجهت مادلين خطابها الى واك قائلة .

انى أومل فى هذه المرة ان يفضى الامر الى الطلاق

فاجابها المسيو واك . بعد قليل نرى فى هذا الامر

ثم سألها القاضى . افتعرفين هذا السلاح ايتها السيدة ؟

فاجابت نعم ياسيدى

فقال . حسن ثم ماذا تقولين بعد ذلك . وهل لا تزالين الى الآن – وقد صار لدينا الرأس والدليل القاطع – براءة بعلك ؟

فتمهلت مادلين قليلا ثم قالت : بالرغم عن معرفتى اطوار زوجى وكذبه المتوالى الذى جعل كل شيء ينقلب ضده فانى لا اقول انه برىء . . . ولكن ايضاً لا استطيع ان اعتقد انه مجرم .

قال المحقق . وما عساك تظنين فيه ؟

وما الذى يلزم بعد هذا من الادلة لمعتقدى بادانته ؟

فقال بروبرس : مغمغما اشكرك يامادلين !

و بينما كان الحكيم بوسان يضع الرأس والمنديل فى الصندوق النحاس كان بروبرس يقول لمكسيم هوبورج .

اعلم ياسيدى انى لم اعد آسف ولا أخشى من ان يحكم على القضاء اخذا بالظواهر ولكن الذى اريده الآن ان يصدر أمره البات فى أقرب وقت فقد قضيت ثمانياً واربعين ساعة

وانا افكر فى هذه الظروف والمصادفات الغريبة التى تجمعت كلها فى مكان واحد لتثبت على جريمة انا براء منها . ومن المستحيل ان انجو من هذه التهمة الا بحكمة الهية فائقة وانا لا أعتقد فى هذه الحكمة التى خذلتنى فى هذا الموقف العصيب .

وفى هذه الآونة انبأ الحاجب بقدوم المسيو سيد صاحب فندق النوتى السكسونى فامر المحقق بادخاله فمثل بين يديه وقدم كتابا واصلا باسم مادلين هوبورج اليه . فتناوله القاضى وصرف صاحب الفندق ثم فض الغلاف وبعد تلاوته سأل بروبرس اذا كان يعرف اميلى القاطنة فى بيكاديلى

فاجاب بروبرس بانه لا يعرفها ولم ير بيكاديلى ولا وطأت رجله ارض انكلترا فقال القاضى :

يالك من كاذب مضلل وقح ! الى متى تشوش على القضاء وتعقد سير التحقيق ؟ ايها السادة انى لقارىء على مسامعكم هذا الخطاب المرسل من اميلى امس . واذا وجد بعد تلاوته بينكم من ينكر معرفة بروبرس لاميلى فاكون مستحقا للشنق

ثم تلا الكتاب الآتى :

« لوندره فى ٣ اكتوبر

عزيزتى مادلين .

اى هول مرعب حمله كتابك الى ! كلا ياعزيزتى فان هذا مستحيل . . . وانى لاتوسل اليك بحق المحبة التى كنت

تظهر بينها دائما الى ان تنتظرى الى يوم الثلاثاء. فقد تأهبت للحاق بك فى ديب وسأبلغها فى الباخرة التى تصل اليها الساعة ٣ والدقيقه ٣٤ وآمل ان اجدك بها . . . آه ياعزيزتى مادلين المسكينه فانى كنت أعرف أن برو برس كان يلعب بك لعباً رديئاً ! الى يوم الثلاث بالتدقيق. فاصبرى واملى .

صديقتك التى تحبك   اميلى

بعد تلاوة هذا الكتاب توجهت ابصار الجميع باستياء شديد الى برو برس

وقال له المحقق : الديك ما تقوله بعد هذا ايها الماجن

فنهض حينئذ برو برس على قدميه وقال: بما ان الحكمة الازلية ارادت ان يلقى على عاتقى هذا العبء الباهظ وبما انى لا استطيع ان اثأر لنفسى منها . وبما ان الناس جميعاً اصبحوا يجزمون بارتكابى هذه الجريمة المرعبة وبما انى لزمت السكوت طويلا على امل ان تخدمنى المصادفات مرة باظهار الحقيقة فى ثوبها الناصع الشفاف . وبما ان امالى كلها ذهبت ادراج الرياح . وبما انى اصبحت فى قبضة القضاء وان استطيع الافلات منه فمن العبث بل من الحماقة وبالاحرى من الجنون ان لااقول كلمتى الاخيرة وان لا اصرح بما اردت كتمانه لامر ما وسواء عندى حلت اقوالى محل الشك او محل اليقين فانها نفثة مصدور يفرج بها حرج صدره .. فقاطعه القاضى قائلا : أبق ما عندك

الى الساعة الرابعة بعد الظهر لتقوله بعد ان تعرفنا اميلى القادمة اليوم بدخائل المسألة .

ثم أمر فدخل المتهم فى غرفته وامرأته فى الغرفة المجاورة له وهو بورج فى الثالثة ورجال الشرطة فى الرابعة ورجا رئيس النيابه ان يتناول الغذاء معه فى هذا اليوم ليتكلما على المائدة معاً .

٦

كيف عرفت أميلى برو برس دون أن تراه .

كلف القاضى رجال الشرطة الثلاثة بانتظار أميلى فى الساعة المحددة واحضارها الى مكتبه للاستعلام منها . فرأى هؤلاء الرجال أن ينتظروها لدى المسيو بيبد فى « النونى السكسونى » بما انها قادمة اليه حتما . وفى الوقت المعين حضرت فتاة جميلة رنانة الصوت بسيطة الزى وسألت صاحب الفندق

هل لك ياسيدى ان ترشدنى الى مكان الآنسة مادلين هوبورج .

فاجابها هؤلاء الثلاثة يرشدونك ياسيدتى عما تسألين .

فاضطربت الفتاة وقالت : اذن حدث المصاب ؟

قال بيبد . اجل ياسيدتى .

قالت . اذن ساتبع هؤلا السادة واذكر ما اعرف من هذه الحادثة

* * *

بعد قليل جيء باميلي الى مكتب المحقق الذى كان غاصاً بشهود هذه الجناية المدهشة فلما صارت امام القاضى سلمت باحترام ثم نظرت فى وجوه الحاضرين بتأمل وانعمت النظر على الاخص فى وجه مكسيم هو بورج ثم مدت يدها اليه قائلة

لعلك نسيتنى يا سيدى مكسيم فقد مضى على افتراقنا اكثر من ثمان سنين

فقال مكسيم باكيا . كلا بل عرفتك الآن عرفتك .

ثم قدم رئيس النيابه كرسيا اليها فجلست وحدقت فى القوم ووقف نظرها حائرا بين برو برس ؟ ومادلين ثم قالت

انت انت لمسيو برو برس ؟ والست انت السيدة مادلين برو برس ؟

فاجابا كل على حدة نعم

فقال المحقق عندئذ انك لا تجهلين ما يترتب على جوابك من الاهمية العظمى اينها الآنسة فهل لك ان تصدقينا الحديث ؟

ثم سألها من اى عهد تعرف برو برس . فاجابت بأنها لم تره قبل هذه المدة فدهش القاضى وقال .

وكيف ذلك وانت قد ختمت كتابك بهذه العبارة «انى اعرف ان برو برش كان يلعب بك لعبا رديئا»

فاجابت على الفور . اجل لقد كتبت لها هذا لانى كنت خصيصتها الواقفة على دخائل أمورها فكنت اجيبها من فحوى كلامها لانى كنت اعلم

فقاطعها المحقق قائلا . تعلمين ماذا ؟ ارجوك ان توضحى كل شيء لننتهى من هذا الاشكال الذى طال عليه المطال . انك عالمة بغير شك ان . . المضحك برو برس هو قاتل مادلين هو بورج أليس كذلك ؟

فغرقت أميلى فى لجة التأمل واخذت عيناها تتراوحان من هنا الى هناك وأخيراً علمت السبب الحقيقى لاجتماع كل هولاء المحتشدين فصاحت قائلة .

ماهذه القصة الجديدة المحزنة يارباه! ايقولون عن برو برس انه القاتل لمادلين ؟ كلا والف مرة كلا ايها القاضى ... ولو كانت صديقتى مادلين صغت الى نصائحى لكان برو برس بلا شك منعها من الانتحار !.

فجرت هذه اللفظة كالتيار الكهربائى فى افواه الحضور مرددين الانتحار !. الانتحار !. الانتحار !.

فتنفس المضحك برو برس تنفس المصدور الذى سرى عنه بل المحكوم عليه بالاعدام الذى جاءه امر الافراج عنه ونظر الى السماء قائلا .

هذه هى الحكمة الازلية التى يقال عنها !

فحم المحقق من سماع ماقالته اميلى واعماه الغيظ لحبوط اعماله فقال وهو يطحن اسنانه .

افلا تظنين ايتها الآنسة انك بكلمة واحدة ستقضين على نتيجة اتعاب موصولة منذ يوم ونصف ؟ الا ان هذا مما لايطاق ! وهل تظنين ان الامور مرهونة ازاء القضاء على كلمة تقال ؟ كلا فانك تستطيعين ان تذكرى لفظة الانتحار ولكن هيهات ان نصدق هذه اللفظة مالم تقم عليها الادلة القاطعة وليس فى الامر مايثبت ذلك

ففتحت أميلى جعبة صغيرة فى يدها واخرجت منها رزمة من الكتب محفوظة فى غلافاتها وقدمتها اليه قائلة .

اليك هذه الكتب التى خطتها بيمينها فانها ادلة لاتحتمل الشك وهى محفوظة بالترتيب من اول صدورها حتى آخر كتاب منها وهى تشير الى اول مرة رأت فيها برو برس فى روان وماذا طرأ عليها بعد ذلك مما لاغنى لمجرى التحقيق عنه فاتل هذه الكتب واحكم بعدها بما تشاء على هذ البرىء

فاعطى القاضى الكتب الى الكاتب وقال له

اتلها لنرى ما بها

فبدأ الكاتب يتلو بعد ان تحقق من تسلسلها فى التاريخ

مونتوءلاد فى ٢٣ ستمبر

ياعزيزتى اميلى

مضى زمن طويل وانا افكر فى ماعرضته على . ولا اكتمك انى لا اريد سوى تغيير الحالة التى انا الآن فيها لانها حالة تستوجب الحزن والسأم . وكلما انتهيت من القاء الدروس ورجعت الى بيتى لايخطر فى بالى شىء سوى البكاء ولكنى اذا تذكرت اخى مكسيم منعت نفسى من النحيب حتى لا اسبب له آلاماً . فاضحك لاخفى عنه دخائل قلبى ... وانه ليتحمل شظف العيش الذى نحن فيه بارتياح لكونه بجانبى ولانه رجل يجب عليه ان يتحمل وان يتجلد .. اما انا فلا انظر فى افق المستقبل الا دخاناً قاتماً وسحاباً ادجن وظلاماً دامساً وما عسانى ارى غير ذلك ؟ ولقد تمر بى ساعات لا اقضيها الا فى الابتهال الى الله ان يعجل بى اليه لانى لا ارى هذه الحياة الكاذبة الا ينبوعاً تتدفق منه شآبيب الاحزان والالام . ثم اذا جلست افكر فى امر الحاقى بك فى لوندره جعلت اسائل نفسى اذا كنت لا استبدل بهذا العمل جوادى الاعور بفرس عمياء ! وانت تعلمين مقدار عزة نفسى . عزة هذه النفس الابية التى لم يخلقها الله عزيزة الا ليذلنى ويشقينى نعم انى اذا ماجئت لديك صرت على ثقة من رغد العيش وارتحت من التفكير فى الغد . ولكن هنالك امر لايمكن ان يتحول عن ذاكرتى ذلك هو بقائى وحيدة بغير بعل آنس اليه ويحنو على ! ... ومن ذا الذى ينظر ويقبل على فتاة لامهر لديها ولا جاه تفتخر به ولا حسب تعتمد

عليه ؟ فخير لى اذن ان ابقى بجانب اخى لتسليته . على انى اذا عرضت عليه اقتراحك لم يحفل به لانه سيؤدى الى تفرقنا ومع ذلك فسننظر فى هذا الامر ايتها العزيزة التى ليس لى بعد الله واخى مكسيم سواها عضد ومستودع اسرار

اقبلك قبلة صادرة من صميم الفؤاد ياعزيزتى اميلى

(مادلين)

فلما انتهى الكاتب من تلاوة الخطاب الاول قال القاضى حسن وما الذى فى هذا الخطاب ممما ينفى وقائع التحقيق ويثبت شيئاً جديداً ؟ اليس كل مافيه يثبت ماقاله مكسيم من انها كانت جميلة نقية عصية المزاج وانها تفضل ان تكسب قوتها من اعطائها الدروس للاطفال الذين فى حاجة الى ذلك !

فقال الكاتب نحن لم نقرأ ياسيدى القاضى سوى خطاب واحد ولا يزال لدينا ثلاثة كتب وهذا هو الثانى فلتتفضل بسماعه ثم نشر الكتاب الثانى وتلا .

مونتومالاد فى ٢١ اكتوبر

« ياعزيزتى اميلى

البرد عندنا زمهريراً ومع ذلك فنحن لانستطيع ان نشعل النار فى المدفأة من يوم ان اعتزل اخى مركزه فى ملعب ليريك ولقد حدث لى امس حادث من الغرابة بمكان واليك شرحه فبما انا آتية من عند السيدة ليرا سمعت على مقربة من برج

الساعة الكبيرة صوتا ينادينى « يامديلين ! » فالتفت واذا بشاب ذا منظر مقبول تقدم الى وقبعته فى يده وقد جللته حمرة الخجل قائلا بأدب « ارجوك ايتها الانسة ان تغتفرى لى تهجمى عليك فان بينك و بين امرأتى ماديلين شبه عظيم مدهش حتى انى حسبتك اياها وحتى انى اجترأت على مناداتك واستوقافك ..

ولعلك تقولين ياعزيزتى اميلى ان هذه حيلة اراد ان يدخلها عليك هذا الفتى الماجن . ولقد كنت مثلك فنزعت فى بادىء الامر الى هذا الظن الا انه حين سار بجانبى ودأب على التطلع الى بامعان شديد وهو يردد كلما زادنى نظر هذه الجملة « ياللعجب ! ما اغرب هذا الاتفاق ! كيف جاز ان تشبه احدا كما الاخرى فى كل شى حتى فى الزى وعقص الشعر وحتى فى ارخاء هذا النقاب الناصع على الوجه ! ... » ثم سار وكان من الواجب على ان افارقه وآخذ فى طريقى المعتاد الا أنى لا أدرى لاى سبب و بأى باعث واصلت السير بجانبه . واخترت اسائله اذا كانت لاتختلف عنى فى شىء ما فأجابنى بانه لايرى حتى الآن أقل فارق بيننا . وزاد عجبه اتفاقنا فى الاسم أيضا ! و بعد ان سرنا قليلا جنباً لجنب وقف فجأة وقال لى ايتها الانسه لاتؤاخذينى اذا كنت قد ثقلت عليك بحديثى عن امرأتى واذا كنت قد آلمتك بنظراتى الحادة الطويلة فان هذه المصادفة من الغرابة بمكان يجوز لى فى جانبه ان آتى باكثر مما أتيت . ولتعلمى

انى لا أنساك ابد العمر لان تأثيرك فى نفسى يستحيل ان يزول مهما مع توالى الايام واختلاف الحوادث . ثم سلم باحترام وتركنى وسار مسرعا . فعدت ياعزيزتى وانا منفعلة النفس فى أشد مايكون من الدهش ولم اخبر اخى بشيء من هذا . وفى اليوم التالى وانا عائدة من لدن الانسة رمبير بصرت برجل الامس واقفا ازاء دار المحكمه وهو يدقق النظر فى نقوشها البديعه ولقد كان فى امكانى أن اسير من خلفه دون ان يرانى . ولكن لست ادرى ما الذى دفع بى الى التمشى اليه والتسليم عليه فاقبل على هاتفا « أأنت شبيهة زوجتى ! أأنت آنسة الامس ؟ » فاجبته نعم وانى لفى اشد الشوق الى روءية زوجتك التى لاتختلف عنى جسما وملبساً واسما . فقال « أجل ان اندهاشك سيكون عظيما متى رأيتها عياناً فاذا شئت ذلك فما عليك الا أن تقصدى رأسا شارع برسيير حيث تجدينها تتناول الابسنت فى القهوة الكائنة على رأس ذلك الشارع . » فانطلقت ياعزيزتى انطلاق الرصاص حين خروجها من فم المسدس قاصدة تلك القهوة حتى اذا مابلغتها رأيت بعينى رأسى تلك التى لا أقول الا انها صورتى المتحركة ! ياللعجب من هذه المشابهة التى لم يسمع السامعون بمثلها ! كل مايمكن ان اتصف به تجدينه فيها بالدقة حتى لا يمكن التفريق بيننا الا بان ثوبها احمر وثوبى ازرق ... وكان بودى ايتها العزيزة ان اباغتها بالهجوم واخذ عنقها بين يدى

واسائلها من أين لها هذه الخلقة العجيبة ؟ وهل هى تشعر وتتكلم مثلى ؟

ولكنى عدت فملكت نفسى ونكصت على عقبى قاصدة زوجها الذى كان فى انتظارى . فحين رآنى هش وابتسم وقال لى « ماذا رأيت ؟ الم تجديها مثلك تماماً ؟ » فقلت له : نعم لم أجد شيئاً يميز احدانا عن الاخرى . ولكن أسألك اذا كانت اخلاقها مثل اخلاقى ؟

ثم قصصت عليه سيرتى وافضيت اليه على غير قصد منى بآلامى واشجانى وشرحت له حديث اخى مكسيم ومغادرته ملعب ليريك فتأثر ياعزيزتى اشد التأثر وقال لى ان امرأتى تخالفك فى دماثة الخلق فانها عربيدة سكيرة لاتلوى عن الخمر ولولا ماجبلت عليه من اللين والسكينة وتحمل المكروه لما طالت بيننا العشرة ست سنوات . ولو كانت وديعة الاخلاق متجافيه عن المسكرات لكانت لنا اجمل عيشة يستطيع ان يتمناه الازواج » ثم قص على تاريخ نشأته وكيف اشتغل بمهنة التمثيل المضحك وانقطع اليه حتى برز فيه وكيف انه ينتظر ان يحرز اكليل الفخار فى فنه وكيف ان زوجته هى التى تنغص عليه صفو الحياة وتقلق راحة باله بافعالها المرذولة واخذ يتكلم عن أخى ويتمنى له مستقبلا عظيما فى فنه وذكر لى انه يود ان يقابله ليرى مقدار ميله لحرفته وانهماكه فى مزاولتها ولكنه لايدرى

اذا كان يستطيع ذلك ام لا لعزمه على مغادرة روان قريباً .. فقلت له ولست ادرى لماذا لا تزر اخى لاتزره فانه لا يألف سوى الوحدة فى هذه الايام وكنت اود ان اطيل المكث معه واوصل محادثته لانى صرت اهتم به كثيراً ولكنه قطع على خط الامل ماداً يده وقائلا لى ، استودعك الله ايتها الآنسة وداعاً لا لقاء بعده لاننا سنغادر هذه البلدة قريباً . على انى .. » ثم امسك عن الكلام هنيهة وعاد فقال « على انى سأمكث هنا بضعة ايام اخر و بودى لو تسمحين لى بان اراك غير هذه المرة ؟ » فاجابته : اذا شئت فانتظرنى غدا فى مثل هذه الساعة امام فندق برتيرو بل . ثم مددت له يدى مسلمة وقلت : سأكون سعيدة بمحادثتك ساعة بما انناسنفترق فراقا لالقاء بعده .. » فسلم على وانصرف . غداً سالاقيه وسأنبئك ببقية هذه الحادثةالعجيبة .

صديقتك التى تقبلك « مادلين »

لم يكد الكاتب ينتهى من تلاوة الخطاب الثانى حتى تنفس المحقق مارتوان تنفس الارتياح وقال لمكسيم .

وما عساك تقول الآن ايها السيد الموسيقار؟ . فهل كانت اختك تعرف المضحك برو برس !

ثم التفت الى رئيس النيابة برسيفار وقال له متهكما فى ثوب متحنن . ما اشقى حياة الممثلين !

فهاجت نفس المضحك برو برش لهذا التهكم .وصادق ان يسأله المحقق اذا كان يصادق على ما فى هذا الكتاب من التفاصيل فقال له بغضب وصوت جاف :

واية فائدة تراها فى تعمد الآنسة مادلين هو ربوج الكذب فى هذا الكتاب ؟

فقال له القاضى بسخط واحتداد .

انى اكلفك ايها الثعلب ان تجيب على اسئلتى بنعم أو بلا وان لا تعمد الى الاجوبة المبهمة المضللة ذات الاوجه الثلاث التى تضلل القضاء وتزيد هذه القضيةاشكالا وتعقيداً

فهز المضحك كتفيه وقال .

وما الذى ينقص القضاء من الشرود والتطوح وراء الاوهام حتى يحتاج الى ان اضلله ؟ فبفضلك يا سيدى المحقق البارع سيلبث زورق التحقيق ضالا بين امواج الظنون .

فقال القاضى وهو فى اشد الاستياء والحنق . كفى كفى فانى لم اعد احتمل هذه النقمة المؤلمة . ولنتخط هذه النقطة لنعلم ماذا حدث امام فندق بورترويل .

ثم اشار الى الكاتب بمواصلة التلاوة فأخذ يقرأ الكتاب الثالث .

مونتومالاد فى ١٩ اكتوبر

« اى عزيزتى اميلى

مضت على اربعة ايام لم ا كاتبك فى اثنائها . فاعذرينى على هذا التوانى ايتها الحبيبة . اعذرينى لانك لو علمت ما حدث فى هذه الفترة لالتمست لى معذرة . فآه ثم آه الا تستطيعين ان تشعرى بما كنت اشعر به فى هذه الايام ! فمنذ اربعة ايام وانا اقابل برو برس يا الله ! لاية علة كنت التقيت بهذا الرجل واية حكمة كانت فى لقائى به ؟ لا تسارع بك الظنون الى الفكر السيئة ايتها الصديقة . فلو كنت تعرفين مقدار ما عليه الشاب المهذب من الادب هـذا ! ولو كنت تعرفين كيف كنت أمضى فى صحبته تلك الساعات العذبة الشهية ! ولماذا لم يسمح لى الله بمقابلة هذا الانسان قبل ست سنوات مضت هذا الذى ارتبطت حياته بامرأة تدعى مادلين وتماثلنى مماثلة طبيعية مدهشة وخارقة للعادة ! . أليس من العجب ان يكون هذا الحادث سببا فى قبولى ما عرضه على من قبلى ؟ نعم لقد قبلته على الرغم من اخى الذى مانع وقاوم ثم ابتهل الى وتوسل راجياً منى الاقلاع عن السفر ولكنى لم اعدل عن عزمى الذى اعلم حق العلم انه سيجلب الشقاء على اخى المسكين . ولـكن ماذا عسانى اصنع بعد ان اصبح مقامى فى روان مستحيلا ؟ وعلى ذلك فسأكون فى دييب يوم السبت وسـ ابحر الى نيوهافن يوم الاثنين مساء . فاذا استطعت ان تخفى الى لقائى فاكتبى الى بعنوان « فندق النوتى السكسونى »

بديب ففى هذا الفندق اقمنا انا واخى بضعة ايام منذ ثلاث سنين .

والآن قبل ان اشرع فى العمل يجب على ان احيطك علما بالسبب الذى افضى بى الى قبول السفر . ومن المستحيل على ان اقص عليك فى بضعة اسطر ما سرده على السيد برو برس من تاريخ حياته وما افضيت اليه من تاريخ حياتى . ولما علم بما انا فيه من ضنك و بوس سألنى اذا كنت ممن ينفرون من الفن الذى يزاوله يوجد اناس يرون فيه حطة وعبثاً كما يوجد آخرون يرونه فناً جليلا حبيباً الى النفوس . فافهمته انى لا اجد مهنة مزرية بالشرف مادام المشتغل بها يقبل عليها بسريرة طاهرة . فارتاح الى جوابى وقال لى انه ينظر بعين الاحترام الى فن اخى وهو الموسيقى . ثم اقترح على ان اشاركه فى الاشتغال بفنه . ومع انى كنت لا اميل الى التعلق بهذا الفن وصرف الوقت فانى لم اشأ اصرح له بذلك .

اما هو فلم يلتزم الوقوف عند حد الاقتراح بل طفق يوضح لى بطلاقة لسان وحسن بيان ما تصادفه الفصول المضحكة التى تشترك سيدتان متشابهتان فى تمثيلها من الاقبال العظيم وما ينتجه من الربح الجسيم .

وكنت لدى عودتى الى البيت اسائل اخى عن فن التمثيل المضحك ولـكن بطريقة مبهمة لا يفقه من ورائها شيئاً . ولم

اكن ذات رغبة شديدة فى الاشتغال بهذا الفن ولكن رغبتى كانت شديدة فى تغيير هذه الحالة التى سأمتها نفسى ثم قابلت المسيو برو برس فى اليوم الثانى ثم فى اليوم الثالث وكذلك قابلته بالامس . وفى كل يوم يشوقنى الى فنه ويحضنى على اجابة سوءله . وفى كل مقابلة تتصل بيننا سلسلة من المحادثات الطويلة فاعود الى مأواى شديدة الوهن عظيمة اليأس والبث شاردة فى بيداء الحيرة والارتباك .

وكم من مرة حاولت ان افضى بسرى الى مكسيم والكنى من حسن الحظ كنت اعود فاتغلب على ضعفى واحتفظ بسرى ولما خفت ان يتغلب على عواطفى ولبى وان يسوقنى امامه سوق الريح العاصفة للذرة الضعيفة صممت على السفر الى لوندره واعلنت أخى بهذا العزم الاعلان الاخير وكنت فى منتهى العجب من تسلط هذا الفتى الى حد انه يستطيع ان يتصرف بفكرى كما يشاء ولكنى لا اخفى عنك الحقيقة فان السبب فى كل هذا هو انى احبه ! ..

نعم احبه يا عزيزتى اميلى ولهذا السبب اجدنى مضطرة الى الفرار منه . لقد كنت انتظر من وراء حبى اياه سروراً عظيما وهناء ونعيما ! ولكنى وأ أسفاه لاجد من وراء هذا الحب الا عذابا اليماً وشقاء وجحيما ! وما ذلك الا لانه حب لا ثمرة له ولا مطمع من ورائه ! آه ايتها الحبيبة ! وددت لو انى مت

قبل الان ! وابوح لك بانى عند ما رأيته فى هذا اليوم حاولت أن القى بنفسى تحت عجل الترامواى لاضع حداً لهذه الآلام ولآمالى الضائعة سدى . ولا تسألى عن حالتى فى البيت فقد عدت اليه وانا فى اشد مايكون من الاكتئاب والذهول وعند ماذكرت له عزمى على السفر الى لوندره اضطرب وقال لى .. تأملى فى الامر ملياً ولا تجزمى قبل التفكير الطويل .وها انا ذا راحل الى دييب مع زوجتى التى لا اريد ان تعلم بشىء مما نتفق عليه . »

واذا كنت فى اشد الحاجة الى التخلص منه فانى كذلك فى اشد الحاجة الى مشاهدته كل آن حتى لا ادرى كيف اندفعت الى ان اجيبه بقولى « سأنزل بفندق النوتى السكسونى القائم على رصيف هنرى الرابع .. فلتزرنى كل ساعة ولكنى على ما اظن لا استطيع ان احول عن عزمى . » وهممت بان اسلم عليه للافتراق منه فتناول يدى بين كتفيه واستبقها هنيهة وهو شاخص الى وانا اكاد اذوب من شدة الوجد والاضطراب واحاول ان استخلصها من قبضته ولكن ضعفى وتفكك اعصابى يحولان دون ذلك ثم قال لى « فكرى فى الامر ملياً فانى سأكون لك بمنزلة اخيك . الست انت الصورة الحية لتلك التى ترتبط حياتى بها ؟ » وما كدت أسحب يدى من كفيه حتى ركضت وكان هو اذ ذاك غائب الحواس حتى انه

لم يلحظني وانا ابكي ! والآن اقتصر على ما كتبته واعدة بالعودة الى مراسلتك من دييب لاعلمك بيوم سفري منها وبساعة وصولي الى لوندره

« ماديلين »

ولما انتهى الكاتب من تلاوة الخطاب الثالث قال القاضي نعم لقد بدأت معالم الحادثة ترتسم في لوحة الحقيقة ولكن اذا كانت الانسة هو بورج قد ظلت على تصميمها أما كان من المعقول ان تعمد من بادىء الامر الى تنفيذ خطتها بالقاء نفسها تحت الترامواى ؟ فان ذلك كان أسهل وأقرب ..

ثم وجه حديثه بغتة الى المصحك برو برس قائلا .

يظهر ايها الغلام أنك لم تكن محبوباً منها ؟ والا فلو كنت كذلك لكان حبك بلسما شافيا لجرح قلبها الكليم

فاجابه برو برس . كن رحيما ومحسنا كريما يامولاي القاضي وخلصني بفضلك وسعة عقلك من هذه البلوى وانظر بعين الشفقة الى تلك العاطفة الشريفة الجميلة التي كانت تدب بين جوانح الفقيدة المسكينة ! ..

فقال المحقق وقد احتدم غيظه . اتهزأ بي الآن ؟ حذاراً حذاراً فانك تعلم .. انت الى الآن لم تفلت من قبضتي

ثم أمر الكاتب باتمام التلاوة فتلا الكتاب الرابع .

دييب الساعة ٤ بعد الظهر من يوم الاحد

صديقتي العزيزة

هذا آخر كتاب يصلك مني . فقد وصلت مساء امس الى دييب

ونزلت بفندق النوتي السكسوني حيث نزل على اثرى المسيو برو برس ومعه زوجته في غرفة تجاورني . ولقد لبثنا نتفاوض امس واليوم وامرأته غافلة عنا لالتهائها بالتنقل ما بين المنتديات وانهما كما في تعاطي المسكرات . ما اشقى هذا الرجل الذي منى بهذه المرأة التي لا توائم سكونه ورزانته ! ولقد مضيت الليلة الغابرة في هول لا يطاق فكانت تذهب بلبي الرؤيا المزعجة والاوهام الماحقة . وكيف يمكنني البقاء بعد الآن وانا لا استطيع الحياة بعيدة عنه بينما اجد الثواء بجانبه ضرباً من المستحيل ، انه لا يزال الى الآن يطمح في اقناعي وتحويلي عن عزمي لانه لا يعلم بصلابة رأيي . فليبق مع تلك التي ترتبط حياته بها والتي تماثلني تمام المماثلة اما انا فلا حظ لي في هذه الدنيا . آه يا عزيزتي اني لاكاد اجن من شدة رغبتي في ان يحبني .. ولاجل الوصول الى هذا كان من الواجب ان لا اشابه تلك المرأة الفظة المتلاهية عنه بالسكر والعربدة . ..

وأرى من الاصوب ان انتهى من هذه الهواجس الم اكن قبل لقائي به شديدة التوق الى الممات : ولقد مضيت في هذا الصباح الى الشاطىء الذي كان خاليا من الناس وهممت بالقاء

نفسى فى البحر الا ان الخوف ساورنى . وحاولت ان ابتاع دواء من الصيدلية كان موصوفاً لمرضى العصبى و يكفى ان اتناول منه ثلاث حبات فى الاربع والعشرين ساعة . وفى الزجاجة سبعون حبة فاذا ما تناولتها جمعاء كان الموت الزؤام ! ولكنى جبنت عن هذا ايضا ؟ وتطلعت من غرفتى الى فناء الفندق لارى اذا كان البعد كافيا للقضاء على متى وثبت من النافذة ولكنى خفت ان تصيبنى رضوض وابقى على قيد الحياة متألمة فاحجمت مرة أخرى . و بينما انا اهيء هذا الخطاب لارساله اليك وهو بالتحقيق آخر ما سيصلك منى اسمع امرأة المسيو برو برس تنغص عليه صفو الحياة بالسباب وهى تقول له « هذا أوان الشراب لجلب شهية الطعام فالبث أنت فى مكانك متشاغلا بحلق لحيتك التى لا أدرى متى تنتهى من حلقها . » ثم اغلقت الباب خلفها بشدة ومضت ! فياله من مسكين تعس ! سيحلق ! ... آه لو تمكنت من موسى.... بالموسى استطيع ... لقد امسيت مخبولة العقل ياعزيزتى ! لست ادرى ما أقول ولا ما أصنع ! ولكن الذى لاأشك فيه ان هذا الكتاب لا يصل الى يدك حتى أكون قد تخلصت من حياتى ومن غرامى ..أنت الوحيدة العالمة باسباب انتحارى فلا تبوحى بها ولا تفضى بها الى أخى مكسيم . وعلى الاخص لاتعلمى الموسيو برو برس بسبب موتى وداعاً ياصديقتى العزيزة التى احببتها حباً جماً صادقا وان

هذا لهو الوداع الاخير

« ماديلين »

وما كاد الكاتب ينتهى من تلاوة هذه الرسالة الاخيرة حتى كان المحقق ماراتون قد نفد صوابه وصار يصفق بيد على الاخرى ناظراً الى الانسة اميلى وقائلا . واضيعة الامل الذى علقته على وجودك بيننا . الا تدرين ايتها الآنسة انك ضيعت اتعاب المحققين ورجال الشرطة وانتظار هذا الكئيب المسكين اخ الفقيدة ؟ وهل راقك ارتجيء من بيكاديلى لتنزلى على رؤسنا هذه الصاعقة ولتنقذى هذا المتهم من قبضتى بعد أن كدت أبطش به وأجعله عبرة لكل من يحاول تضليل القضاء ؟

وحاول المحاميان ان يقولا كلمة استنتاجية يقرران فيها براءة المتهم الذى أصبحت براءته مؤكدة فعاجلهما المحقق بقوله ،

لا فائدة من الكلام فانى سأصدر الامر بحفظ القضية و براءة المتهم وزوجته اذا لم يعارض اخى المنتحرة واذاقص علينا هذا الشامت بنا ما وعدنا بذكره قبل وصول هذه الانسة من بيكاديلى .

فقال مكسيم . ليس لى أقل الاعتراض .

فالتفت المحقق الى برو برس وقال له . تكلم أيها

الشاب وأسمعنا قصة القط والفار وأحاديث الغيلان والجان أتل لنا بالله عليك كيف انفصلت هذه الهامة عن الجسد من تلقاء نفسها وكيف دخلت الصندوق النحاس بعد ان ءانزرت بالمنديل ووضعت الموسى الى جانبها !. تكلم ولا تخشى سطوة القضاء الذى كبلت الآنسة أميلى يديه . تكلم فانك بهذه الكتب أصبحت السيد المطاع فى هذا الجمع وأصبحنا لك العبيد الخاضعين !..

ولم ينظر المضحك انهاء المحقق من ثرثرته وتبكيته بل بدأ يقول .

٧

المضحك يتكلم

أيها السادة قد علمتم من فحوى الكتب الاربعة أنها كانت تعلم بانعطافى الشديد اليها ومحبتى لها . اما انا فما عرفت شيئاً من حبها لى . ولو كان لى الهام به لسرت فى الامر بحكمة وحذر . واكمالا لما جاء فى هذا الكتاب وتفسيراً لما ابهم على فكر حضرة القاضى من كيفية الانتحار واجتثاث الرأس من اصله ووجوده فى صندوقى والاجتهاد فى اخفائه اقول انى بعد خروج زوجتى لتناول شرابها المشهى اخذت احلق لحيتى فما راعنى الا الانسة هو بورج تفتح باب الغرفة بعد ان اخبرتنى بتصميمها الاخير على الشخوص الى لوندره . فالتفت

اليها أستطلع نبأها الجديد فاقتربت منى وانا لا أرمق النظر فى وجهها لعدم الارتياب فى نواياها ولانى كنت متأثراً اشد التأثير من تصميمها على مفارقتى واردت ان اعود الى محادثتها لعلى امنعها واثنيها عن عزمها فعجلت باستئصال شعراتى القليلة وتقدمت الى طشت غسيل الوجه فملأته ماء وغمست فيه رأسى . و بالطبع لا يمكن ان يصبر المرء على غمس رأسه فى الماء البارد اكثر من نصف دقيقة . ولكن هل يظن أحدكم أن هذه الهنيهة الوجيزة من الزمن تكفى لحدوث أمر لم يكن فى الحسبان .. لقد رفعت رأسى

وأردت أن اساجلها الحديث واقارعها الحجه ولكننى لم أجد الا جثة ملقاة على السرير وعنقا تشحب نجيعاً . ولست أدرى كيف قوت يدها على حز عنقها بشدة حتى ارتمى الرأس الى جانب وليس بينه و بين الانفصال التام الا تماسكه ببعض الاوردة .. هنالك غبت عن الوجود ولم تبق أمامى الا فكرة واحدة .. هى انى مجرم ... هى انى جان .. هى انى قاتل آه أيها السادة ان هذا الجنون أعمانى عن كل شىء من الصواب والتدبر . فلم أتصور الا زوجتى داخلة على وصائحة فى وجهى وعلى أثرها يجىء صاحب الفندق ثم لا يمضى سوى قليل حتى تحضروا جميعكم مشهد الجناية الفظيعة وتلقى التبعة بلا شك على وأنا برىء منها ... هنالك زين الى الوهم ودفعنى الجنون الى

الاجهاز على الرأس واخفائه عن العيان وخلع ملابس الفقيده وتمديدها فى السرير الغارق فى دمها .. و بعد ذلك بكرنا أنا وزوجتى بالسفر فى القطار السريع الى باريس وكان ما انتم به عالمون ولو كنت أفلت من يد الشرطيين لتمكنت بدون ريب من مدارات الرأس فى التراب خوفا من الاستدلال بها على انى القاتل فى حين لم أكن انتظر قدوم الانسة أميلى بهذه الكتب وأنتم تعذروننى اذا دافعت عن نفسى فى وقت فكرى تاه فيه بمثل هذه الوسائل التى كنت محقا فى اتخاذها لانه اذا لم يرد الله لى الخلاص على يد هذه الانسة واذا كانت قد فقدت هذه الكتب وأهملتها بحرقها وتمزيقها أما كنت الآن عرضة لان يحكم على بالاعدام ؟ ولتعلموا أيها السادة انى لو كنت أعلم ان الانسة هو بورج تضمر لى مثل ذلك الغرام الشديد لكنت تبعت أثرها بالاقتداء بها فيما فعلت والذى استسمح السيد مكسيم بشأنه هو فصل الرأس والهرب به . نعم أن هذا عمل مكروه ولكن حب الحياة قد يلجىء المرء فى بعض الاوقات الى اتيان ما لا يجيزه الذوق ...

فقال مكسيم هو بورج : لقد سامحتك وانى لا أحقد عليك

فقال القاضى : الامر يتعلق بالقضاء لا بك ياسيد مكسيم.

فانتهز المحامى أوبان هذه الفرصة وأراد أن يدلى فى الموضوع بكلمة فقال للقاضى :

اذا كان موكلى قد اخطأ فى السفر بالرأس فقد اشترك معه فى هذا الخطأ الشرطى ديبدونيه .

قال القاضى . ان الشرطى انما اراد اظهاره لاثبات التهمة على الجانى وهو شىء قانونى

قال المحامى . وموكلى انما اراد اخفاءه لينجو من قضاء ستضلله الظواهر وهذا واجب تحتمه الفطرة البشرية .

قال القاضى . لم يبق مجال للمناقشة فانى سأمضى امر الحفظ والافراج عن المتهمين .

ثم عمد الى القلم والى ورقة فخط فيها امر الحفظ والافراج و بعد ذلك أشار الى المجتمعين بالانصراف .

ولما هم المجتمعون بالانصراف ولم يكن مع ماديلين برو برس من النقود ما يكفى لرفع دعوى طلب الطلاق اعلنت قبل الانصراف من حضرة القاضى المحقق انها تتنازل عن جميع حقوقها لبرو برس فى نظير قبوله بالانفصال لانها لا تستطيع ان تعيش مع رجل اتهم بالقتل فقبل بر و برس ومضى كل فى شأنه ....

* * *

كانت السماء فى هذه الساعة مغيمة والغيث يهطل مدراراً والطرق مقفرة من المارين والسكينة ضاربة اطنابها على تلك البلدة الصغيرة فلا يسمع فيها الا وقع المطر على الارض. وكان

رجال الشرطة الثلاثة يخترقون السبل قاصدين المحطة . ومن جهة اخرى كان المحقق ورئيس النيابة يسرعان السير الى بيتيهما وكانت ماديلين قدهرعت الى الصيدلية تبتاع منها دواء لتسكين الصداع فحين رآها الصيدلى ولم يكن عالماً بتفاصيل التحقيق ولا وصله خبر الحفظ ظنها ماديلين هو بورج بعثت الى عالم الحياة مرة اخرى فقال لها : ارجوك يا حضرة الانسة ان لا تجددى جناية اخرى فى صيدليتى . . . اغربى عنى فانى لا ابيعك شيئاً اسرعى بالخروج من هنا

فقصدت فندق النوتى السكسونى فاشار اليها صاحبه بالابتعاد فقصدت سكردان المحطة البحرية فتلقاها عامله بالبشاشة لانه كان عالما بما ادى اليه التحقيق وعرض عليها ان تكون صرافة المحل لانها الشبيهة المطابقة تماما للقتيلة وهذا يدعو الى تسارع أهل البلدة الى سكردانه . ثم ناولها قدحين من الابسنت واما مكسيم و بر و برس واميلى فقد ساروا سوية بعد ان تصافحوا واتفقوا على الاخاء ودعا مكسيم بر و برس الى الاشتراك معه فى تشكيل فوج تمثيلى فقبل بر و برس وهو يبكى اعظم البكاء لانه اصبح مغرما بماديلين هو بو رج بعد ان علم بغرامها به . واستحسنت اميلى ان يذهب صاحباها الى لونده لعرض مواهبهما الفنية فى تلك العاصمة الكبرى التى تقدر الفنون والمزايا الجليلة حق قدرها فوافق الاثنان على هذا الرأى وقال بر و برس

انى لا استطيع بعد الان ان افارقكما دقيقة واحده فبين ايديكما وعلى مشهد منكما اظل ابكى واندب تلك الحبيبة التى احبتنى الى الدرجه القصوى حتى كان عاقبة غرامها الفناء . واذا كانت قد ماتت ومات معها غرامها فان غرامى سيلبث حيا ما ما لثبت غلى قيد الحياة .

(تمت)

العدد الختامى للسنة الخامسة

يظهر العدد ١٠٨ من مجلة مسامرات الشعب فى يوم ١٥ يونيه سنة ١٩٠٩ ويحتوى على رواية جهاد القلوب وهى أحسن واجمل الروايات العصرية فنلفت الانظار اليها سلفاً

المعلوم والمجهول

تأليف

ولى الدين يكن

كتاب فى أكثر من الالف صحيفة وثمانين فصلا فيه صور مشاهير الساسة من عثمانيين وغيرهم مطبوع طبعاً جميلا هو أبلغ كتاب وأصدقه فى بابه قيمة الاشتراك فيه مائة قرش قبل الطبع وبعده مائة وخمسون هو يطبع الآن بمطبعة الشعب بمصر

من أراد الاشتراك فليرسل القيمة الى المؤلف

عنوانه ولى الدين يكن بالقاهرة